المعاني الحسان في تفسير القرآن

الأعراف ✿ الأنفال ✿ التوبة ✿ يونس
هود ✿ يوسف ✿ الرعد ✿ إبراهيم

المجلد الثالث

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

المعاني الحسان في تفسير القرآن

جنـــــة السـنة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

٣

جنـــــة الســـنة

حقوق الطبع محفوظة ©
١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

الطبعة الأولى

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٢٠١٣/٦/١٨٦٣

٢٢٢,٣
الأشقر، عمر سليمان
المعاني الحسان في تفسير القرآن/ عمر سليمان الأشقر.-عمان-دار النفائس للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
( ) ص.
ر.إ.: ٢٠١٣/٦/١٨٦٣
الواصفات: / تفسير القرآن// سور القرآن// القرآن الكريم/

©
يمنع تصوير هذا الكتاب أو استخدامه بكافة أنواع النشر العادي أو الالكتروني، تحت طائلة المسائلة القانونية.
®

دار النفائس
للنشر والتوزيع-الأردن

العبدلي - مقابل مركز جوهرة القدس
ص.ب 927511 عمان 11190 الأردن
هاتف: 5693940 6 00962
فاكس: 5693941 6 00962
Email: alnafaes@hotmail.com
www.al-nafaes.com

ISBN ردمك
9 789957 801496

جنـــــة السـنة

المعاني الحسان في تفسير القرآن

الأعراف ۞ الأنفال ۞ التوبة ۞ يونس
هود ۞ يوسف ۞ الرعد ۞ إبراهيم

المجلد الثالث

الأستاذ الدكتور
عمر سليمان عبد الله الأشقر
رحمه الله

دار النفائس
للنشر والتوزيع

جنـــــة الســـــنة

بسم الله الرحمن الرحيم

جنـــــة السـنــــة

النصُّ القرآنيُّ الثامن من سورة الأعراف
أهميةُ القرآنِ لدنْيانا وأُخرانا

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا عَزَّ وجَلَّ أنه جاءَنا بكتابٍ فَصَّلَ فيه القولَ على علم، وذلك ببيان موضوعاتِهِ أَحْسَنَ البيان، وجَعَلَهُ هدىً ورحمةً للمؤمنين، وهذا الكتابُ العظيمُ هو القرآنُ الكريمُ، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ باليوم الذي يأتي تأويله، أي: اليوم الذي يأتي فيه تأويل القرآن، وهو اليومُ الذي تتحقق فيه أخبارُهُ، فيقولُ الذينَ نَسُوهُ وأهملُوهُ في الدُّنْيا: قد جاءَت رسل ربنا بالحقّ، ويطلبون من يشفعُ لهم في ذلك اليوم، فلا يجدونَ، ويطلبونَ العودة إلى الدنيا ليؤمنوا فلا يُجابونَ، ويُدْخِلُهُم اللهُ النارَ فيخسرون أنْفسَهُمْ، ويَغيبُ عَنْهم ما كانوا يعبدونَ من الأنداد والأصنام، ويسوقُ اللهُ تعالى عِدَّة آياتٍ يُعَرِّفنا فيها بنفسه، ويأمُرُنا بدعائه تضرعاً وخُفْيَةً ناهياً إيانا عن الاعتداءِ في الدعاءِ، وينهانا ربُّنا عن الإفسادِ في الأرضِ، ويدعونا إلى دعائه خائفينَ طامعين، ويخبِرنا أنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين، ويُعْلِمُنا سبحانَهُ عن فِعْلِهِ في إرْسالِهِ الرياحَ نديَّةً طرية بينَ يديْ رَحْمَتِهِ، ثم يأتي السحابُ الثقالُ حاملاً المطرَ، فيسوقُهُ إلى الأرضِ العَطْشَى المُمْحِلةِ، فيُحْييها اللهُ بالنباتِ، ومِثْلُ هذا الإحياء يحيي اللهُ الموتى في يومِ القيامةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدٗى وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ
يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ
فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي
خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعٗا
وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ
رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرَۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ
أَقَلَّتْ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ
لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ
كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٢-٥٨].

جنـــــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- جاءَنا اللَّه تعالى بالقرآن مُفَصَّلاً فيه القول هدىً ورحمة:

بعدَ أنْ بيَّنَ لنا رَبُّنا في آياتِ النصِّ السابقِ مشاهدَ مِنْ يوم القيامةِ بيَّنَها ووضَّحها أحسنَ البيانِ، أعْلَمنا سبحانَهُ أنَّه جاءَنا بكتابٍ فَصَّلَ فيه القَوْلَ على عِلْمٍ، أي: وَضَّحَ معانيَهُ، وبيَّنَ آياتِهِ أحْسَنَ البيان، وهذا التوضيح والبيان ليهتدي بِهِ العبادُ، وتنالَهُمْ رحمةُ الله تعالى، وهؤلاء هم المؤمنون ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأعراف:٥٢].

وإذا أنْتَ نظرتَ في القرآنِ نَظَرَ دارسٍ متفقهٍ رأيْتَ فيه البيانَ لموضوعاتِهِ مِنَ الحلالِ والحرام، والعقائدِ والأحكام، والأخلاق والقصصِ، وذِكْرِ الحَشْرِ والجَنَّةِ والنارِ، وذِكر خلق الأرضِ والسماء، وهذا التفصيلُ والبيانُ يهدي بِهِ اللهُ تعالى قُلُوبَنا، ويحيي أرواحَنا، ويُصْلِح دنيانا، ويُقيمُ أُخرانا. ولكنَّ الذي ينتفعُ بِهِ المؤْمنون دون الكفارِ.

٢- تهديدُ الله تعالى الكفارَ باليوم الذي يتحقَّقُ فيه ما أخبر بِهِ القرآنُ:

بعدَ أنْ بيَّنَ لنا ربُّنا أنَّهُ جاءَنا بكتابٍ فصَلَ فيه القولَ على علم لهدايتنا إليه، ولتنالَنا رحمتُهُ، تهدَّدَ الكفارَ باليومِ الذي يأتي فيه تأْويل القُرْآنِ، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف:٥٣].

واليومُ الذي يَتحقَّقُ فيه تأويلُ القرآن هو اليوم الذي يَقَعُ ما أخبر اللهُ تعالى به، فقد أخبر القرآنُ بما يحِلّ بالإنسان عند الموت، وعند وقوع العذاب، وعندما يقوم الناس لربِّ العالمين، وكيف يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة، وكيف يَدْخُلُونَ النارَ وعندما يأتي الإنسانُ ما أخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ مِنَ ذلك كُلِّهِ يكونُ اليومُ الذي يأْتي تأْويلُهُ.

وعندما يأتي تأويلُ ما أخبرَ بِهِ القرآنُ في يومِ الدينِ يقولُ الذين نَسَوْا هذا القرآنَ، ولم يؤمنوا بِهِ، ولم يعملوا به ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يؤمنون ويصدِّقونَ في ذلك الوقت، لأنَّهم يَرَوْنَ ما تحدَّث عنه القرآنُ واقعاً مشْهوداً، ويطلبونَ أحدَ أمرين حَدَّثنا الله عنهما في قوله: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ أي: هل يوجدُ لنا من يشفع لنا عند ربِّنا، والمرادُ بالشُّفعاءِ الأنصارُ الذين يحامون عنهم، ويدافعون عنهم، أوَ هل يعيدُنا اللهُ إلى الدنيا مَرَّةً أخرى، فنؤمنَ ونعملَ غيرَ ما كنَّا نعملُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ

جنـــــة السـنـــة

وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنعام:٢٧-٢٨]، وقال هنا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ وخسرانُ أنفسِهمْ يكونُ بدخولِهمْ النارَ، والذين ضَلُّوا عنهم الآلهةُ الباطِلَةُ التي افتَرْوها، واختلقوها، وعبدوها من دون الله.

٣- تعريفُ الله تعالى عبادَه بنفسهِ تبارَك وتعالى:

أعْظَمُ ما عُنِيَ القرآنُ بِهِ تعريفُ الله تبارك وتعالى عبادَه بنفسه الكريمة، ومِنْ ذلك ما عرفنا به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:٥٤].

وقد عرَّفَنا سبحانُه بنَفْسِهِ بذكره ثلاثاً من آياتِهِ، وهي:

أولاً: خَلْقهُ سبحانه السموات والأرض: أخْبرَنا ربُّنا -سبحانَهُ- أنَّهُ وحده الذي خَلَقَ السمواتِ والأرضِ وما فيهما وما بينهما في ستّة أيام، وهذه الأيامُ تبدأُ مِنْ يوم الأحدِ، وتنتهي في يوم الجمعة، وهذه الأيام مِنْ أيام الله تعالى، ولا ندري طولَها، وقد أعْلَمنا ربُّنا تباركَ وتعالى أنَ يوماً عنده كألفِ سنةٍ من سنواتِنا، وأعلمنا ربُّنا أنَّ مقدارَ يوم القيامةِ خمسون ألفَ سنةٍ من سنواتِ الدنيا.

وسيأتي بحوْلِ الله تعالى وقوتِهِ تفصيلُ القولِ في الأيام التي خَلَقَ الله فيها كلاً من السمواتِ والأرضِ في سورة فُصِّلَت، وما ذَكَرَهُ ربُّنا في هذا الموضعِ أنّه خَلَقَ السمواتِ والأرْضَ في ستةِ أيامٍ ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ .

ثانياً: استواءُ ربِّنا جَلَّ جلاله على العرش: وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ العرشُ في لغةِ العربِ سريرُ الملكِ، قال تعالى في كرسي ملكةِ سبأ ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [النمل:٢٣]، وقال نبيُّ الله سليمان: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل:٣٨]، وقال اللهُ تعالى في عرش نبيِّ الله يوسفَ: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف:١٠٠]، والعرشُ أعظمُ مخلوقاتِ الله تعالى، وهو لله تعالى سريرُ ملكِهِ، وقد وَصَفَهُ اللهُ تعالى بأنّه عظيمٌ، ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [التوبة:١٢٩]، ووصفه بأنه مجيدٌ في قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ [البروج:١٥].

جنـــــة السـنـة

وكان عرشُ الله في الأزلِ على الماءِ ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ويحملُ عرشُ ربِّنا في يوم القيامة ثمانيةٌ من الملائكة ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة:١٧]. وهؤلاءِ الملائكةُ الذين يحملونَ العرشَ في يوم القيامة يُسَبِّحونَ بحمد ربِّهم ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧]. وفي يوم القيامة ترى الملائكةَ حافِّينَ من حولِ العرشِ يسبحون بحمد الله ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر:٧٥]، وقد ضلَّ قومٌ كثيرون في تعريفِ عرشِ الرحمن، والنصوصُ التي سقناها تدلُّ على أنَّ عرشَ الرحمنِ سريرٌ عظيمٌ كريمٌ مجيدٌ، استوى عليه الرحمنُ، ومعنى استوى في لغة العرب: ارتفع، واستقر، وعلا.

ويفقهُ استواءُ الله على عَرْشِهِ، وبقيةُ الصفاتِ التي وَصَفَ بها ربُّنا تعالى نفسَهُ في ضوءِ ثلاثةِ أُصول:

١- استواءُ الله تعالى على عَرشِهِ استواءٌ يَخُصُّهُ سبحانه، فلا يشْبِهُ استواءَ المخلوقين.

٢- لا يجوز أنْ ننْفي عن الله تعالى استواءَه على العرش خشيةَ أنْ يُشبَّه استواءَ الله باستواءِ خَلْقِهِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى لَهُ ذاتٌ لا تَشْبهُ ذاتَ المخلوقينَ، كذلك له استواءٌ وسَمْعٌ وبَصَرٌ وقُدْرَةٌ لا تُشبه صفاتِ المخلوقينَ. وقد دَلَّ على هذين الأصلين العظيمين قولُهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى:١١].

فاللهُ تعالى لا يُشْبِهُهُ شيءٌ لا في ذاتِهِ ولا في صفاتِهِ، ولا في أفْعالِهِ، وقد أثبتَ اللهُ تعالى لنفسه صِفَتَي السمعِ والبصرِ، أي: له سمع لا يشبهه سمعٌ، وله بصرٌ لا يشبهه بصرٌ، وكذلك يقال في وجْهِهِ ويَدِهِ وقُدْرَتِهِ وغيرها مِنَ الصفاتِ، نثبتُها من غير تشبيه.

٣- عَدَمُ الطمعِ بمعرفةِ كيفيةِ استوائِهِ فنحن لا نعرفُ كيفيةَ استوائِهِ، ولا كيفيةَ سَمْعِهِ، ولا بصرِهِ، ولا كيفيةِ ذاتِهِ، وهذا لا ينفي وجودَ معنى الاستواءِ، فالاستواءُ معناهُ معروفٌ معلومٌ، ومعنى استوى في لغةِ العرب: علا، وارتفع، واستقرّ، أما كيفيتُهُ فلا ندري كيف هو. وقد قال علماؤُنا عن كيفيةِ الاستواءِ بأنَّه مجهولٌ، أما معناه في لغةِ العربِ فهو معلوم، والإيمان بالاستواءِ واجبٌ، لأنَّ اللهَ تعالى أخْبَرَنا به، والسؤالُ عنه بدعةٍ، أي السؤال عن الكيفية.

ونحن لا نعْلَمُ كيفيةَ الملائكةِ، ولا كيفيةَ الجنَّةِ وما فيها، والنارِ وما فيها، ولله المثلُ الأعلى، فكيف نعلم ذاتَ الله وصفاتِهِ وأفْعالَه.

جنـــــة السـنة

ثالثاً: يُغشِي اللهُ تعالى الليلَ النهارَ يَطلُبُهُ حثيثاً: أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يَجْعَلَ الليلَ غِشاءً وساتراً للنهارِ ومغطِّياً له، وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه المقامُ، أي: يُغْشِي النهارُ الليلَ أيضاً، فيأتي ضوءُ النهارِ ويغْشَى ظلامَ الليلِ، فيذهِبُهُ، ويَحلُّ محلَّه، كما قال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ [يس:٣٧-٣٨].

وقوله تعالى: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطلُبُه طَلَباً حثيثاً مُسْرِعاً غايةَ الإسراعِ فلا يمهله لحظةً [العذب النمير: ٣/ ٣٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: أنَّ اللهَ خلقَ السماواتِ والأرضَ، وخلقَ الشمسَ والقمرَ والنجومَ، وجَعَلَهنَّ مسخراتٍ بأمرِهِ، في طلوعِهنَّ وغُروبِهِن وحركاتِهِنَّ، كلُّ ذلك مقدَّرٌ وفق ما يريدُهُ الله، ويحدِّدُه.

واللهُ تعالى ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ فالخلقُ لَهُ كلُّهُ وحده، والأمر له كلُّه وحده.

وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: تباركَ وتقدَّسَ، وأصل تبارك تفاعَلَ إذا كثرتْ بركاتُهُ وخيراتُه.

٤- الأمرُ بدعاءِ الله تضرُّعاً وخُفْيَةً:

أمرنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنْ ندعوه تضرُّعاً وخُفْيَةً ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥]، ومعنى ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: متذللين بخشوعٍ واستكانةٍ، ومعنى ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي سِرّاً وهمْساً، ندْعُوهُ راجينَ رحمتَه خائفين عذابَه. والدعاءُ الذي أمَرَنا اللهُ به هو العبادةُ، وقد كان دعاءُ الصالحين خُفْيَةً، فزكريا عليه السلام ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾ [مريم:٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ فالله لا يحبُّ المعتدين، لا في الدعاءِ ولا في غيره، ومِنَ الاعتداءِ في الدعاءِ رفعُ الصوتِ بالدعاءِ، أو الدعاءُ بأنْ يُؤتَى الداعي مقامَ الملائكةِ ومقامَ الرُّسُلِ والأنبياءِ، ومن ذلك ما رواه أبو داود أنَّ عبدالله بن مغفل سَمِعَ ابنه يقولُ: «اللهمَّ إني أسألُكَ القَصْرَ الأبيضَ عن يمينِ الجنةِ إذا دخلتها» فقال: أيْ بنيَّ، سَلِ اللهَ الجنَّةَ، وتعوَّذْ بِهِ من النَّارِ، فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّه سيكونُ في هذه الأمَّةِ قومٌ يَعْتَدونَ في الطَّهُورِ والدُّعاء» [صحيح سنن أبي داود: ٨٧].

جنـــــة السـنـة

٥- نهيُ اللهِ تعالى عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها:

نهى اللهُ تعالى عبادَه عن الإفسادِ في الأرضِ، وأمَرَ بدعائِه خوفاً وطمعاً، وقال: إنَّ رحمةَ الله قريب من المحسنين، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦].

نهى اللهُ عزَّ وجَلَّ عن الإفسادِ في الأرضِ، فمن الإفسادِ في الأرْضِ قَتْلُ الذين حَرَّمَ اللهُ قَتْلَهُمْ من بني الإنسانِ، ومن ذلكَ قتلُ الحيوانِ، وقطعُ الأشجار، ومن ذلك استعمال الأسلحة المدَمِّرةِ التي تُهْلِكُ الحرْثَ والنسلَ، ومِنْ ذلك استعمالُ الآلاتِ التي تُفْسِدُ الجوَّ، وتجعلُهُ غير صالحٍ لحياةِ البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ ندعُوه جامعين بيْنَ الخوفِ من عقابه والطَمَعِ في ثوابِهِ.

وجمع اللهُ -تعالى- بَيْنَ الخوفِ والطَّمعِ، ليكونَ العبدُ خائفاً راجياً، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فإنَّ موجِبَ الخوْفِ معرفةُ سَطْوَةِ الله وشدَّةِ عقابِهِ، وموجِبَ الرجاءِ معرفةُ رحمةِ الله وعَظيم ثوابِهِ، قال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر:٤٩-٥٠]، ومَنْ عَرَفَ فَضْلَ الله رَجاهُ، ومَنْ عَرَفَ عَذابَه خافَه.

ويُسْتَحَبُّ أن يكون العبد طولَ عمره يَغْلِبُ عليه الخوفُ، ليقودَه إلى فِعْلِ الطاعاتِ وتركِ السيئاتِ، وأنْ يغلبَ عليه الرجاءُ عند حضورِ الموتِ، لقوله ﷺ: «لا يَموتَنَّ أَحَدُكُمْ إلاَّ وهو يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّه» [التسهيل، لابن جزي: ٢/ ٣٥].

وقد أمَرَنا اللهُ -تعالى- في هذه الآية أنْ ندعوه خوْفاً وطَمَعاً، وأمَرَنا في آيةٍ سابقةٍ أنْ نَدْعُوه تَضَرُّعاً وخُفْيَةً، ودعاءُ الله تعالى على هذا النحو يُرْشِدُنا إلى المنهجيَّةِ التي تربطنا بالله ربِّنا عزّ وجلَّ، فمعرفةُ الله لا ينبغي أن تَبْقَى فِكْراً وعلماً فحَسْبُ، بل يجب أن تأْخُذَ مساراً عملياً بالدعوة إلى الله تضَرُّعاً وخُفْيَةً، ودعوتُه خوفاً وطمعاً، لأن هذه المهارسة العملية على النحو الذي دعانا اللهُ إليه، توجد علاقة حقيقية مع الله تبارك وتعالى، وتجعلنا نحقق العبودية لله ربِّنا تباركَ وتعالى، ونجدُ الهناءَ والسعادةَ في اللجوءِ إلى الله ربنا سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يَقُلْ: قريبةٌ، لأنّه ضَمَّنَ الرَّحْمَةَ معنى الثوابِ، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لأنَّ العبدَ كلَّ يوم يَقْرُبُ من الآخرةِ، ويَبْعُدُ مِنَ الدنيا، لأنَّ ما أمامَك قريبٌ، وما وراءَكَ بعيدٌ، كما قال الشاعر:

جنـــــة السـنـــة

ومـــا لا بـــدَّ أن يـــأتي قريـــبٌ ولكـــنَّ الـــذي يمـــضي بعيـــد

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى:١٧].

٦- إرسالُ الله -تعالى- الرياحُ بُشْراً بَيْنَ يديْ رحمته:

ذكر اللهُ تعالى في آيةٍ سابقةٍ ثلاث آياتٍ تعرفنا به سبحانه، وأضافَ في هذه الآيةِ الكريمة آيةً رابعةً، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأعراف:٥٧].

أعْلَمنا سبحانَهُ أنَّه هو الذي يُرْسِلُ الرياحَ بُشراً بَيْنَ يدي رحمةِ الله، فترى بعضَ الناسِ يكونون في جوٍّ صافٍ، فتَهُبُّ عليهم الرياحُ نديَّةً رطْبةً، فيقولون لك: هذه الرياحُ تُبشِّرُ برحمةِ الله، أيْ: بالمطرِ، فلا يمضي طويلُ وقْتٍ، حتى ترى السحابَ الثقالَ آتٍ من بعيد، تسوقه الرياحُ، فتهطلُ الأمطارُ، فيحيي اللهُ بذلكَ المطر بلاداً ميتةً، يحييها بالنباتِ، ومِثْل هذا الإحياءِ للأرض الميتة بالمطرِ، يحيي يومَ القيامةِ العبادَ، فإذا شاءَ اللهُ إحياءَ الخلقِ في يوم القيامة أنْزَل عليهم مطراً كمنيِّ الرجالِ، فينبتُ الناسُ مِنَ الأرض، حتى إذا تمَّ خَلْقُهُمْ نُفِخَ في الصور فعادتْ أرواحُ الناسِ إلى أجسادهم، فقاموا لربِّ العالمين.

٧- ضرب اللهُ تعالى المثلَ للقلوبِ الطيبةِ التي ينزل القرآن عليها بالأرض الطيبة التي ينزل عليها المطر:

ضرب الله تعالى المثلَ للقلوب الطيبةِ التي ينزلُ القرآنُ عليها، فتُثْمِرُ الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ بالأرضِ الطيبةِ التي ينزلُ عليها المطرُ، فيَخْرُج نباتُه بإذن ربه، وضربَ مثلاً للقلوب الخبيثةِ بالأرضِ الخبيثةِ ينزلُ عليها الماءُ، فلا يخرجُ نباتُها إلا نكداً، أيْ: إلا عسيراً ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف:٥٨].

وقد ضَرَبَ رسولُنا ﷺ المثل بما بَعَثَهُ به مِنَ الهدى والعلم، بالغيثِ أصابَ أرْضاً، فكانت الأرضُ على ثلاثةِ أقسام، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي موسى، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به منَ الهُدَى والعِلْم كمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ الماءَ فأنبَتَتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَتِ الماءَ فنفَعَ اللهُ بها الناسَ، فشَرِبوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأصابَتْ منها طائفةً أُخرى، إنَّما هي قيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا

جنـــــة السـنة

تُنْبِتُ كَلأً، فذلكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ في دينِ الله ونَفَعَه ما بَعَثَني اللهُ به فعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرْفَعْ بذلكَ رأساً ولم يَقبَلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به» [البخاري: ٧٩. ومسلم: ٢٢٨٢].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ العظيمُ منزلٌ مِنْ عندِ الله تعالى، فَصَّلَ اللهُ تعالى فيه الموضوعاتِ التي حواها، ليهديَ به العبادَ، ويدخِلَهم في رحمته تعالى.

٢- في اليوم الذي يقعُ ما أخْبَرَ اللهُ تعالى بِهِ، وهو يومُ القيامة، يندمُ الكفارُ على عَدَمِ أخْذِهِم بالقرآنِ، ويَتَمنَّوْا لو يجدُون شافعاً يحامي عنهم، أو يُرَدُّونَ إلى الدُّنْيا ليُؤْمنوا، ولكنهم لا يَجِدُونَ إلاَّ النارَ والخسرانَ.

٣- عَرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بآياتٍ عظيمةٍ دالَّة عليه، لمن تَفَكَّر فيها، واهتدى إليها.

٤- لا يجوز أن يكون حَظُّنا مِنْ ربِّنا الاقتصارَ على التفكر في آياته، بل يكون مع التفكر والنظر والعلم دعاءُ الله بذلّةٍ واستكانة خفية، أي همساً من غير رفع للصوت، وأمرنا أن ندعوه خائفين من عذابه، راغبين في رحمته.

٥- نهانا الله عن الإفساد في الأرضِ، بالقتل وسفكِ الدماءِ، والكفرِ والشركِ، وإهلاك الحرثِ والنسل.

٦- من آيات الله العظيمةِ الدالةِ على ربِّ العزَّةِ، إرسالُهُ الرياحَ، بينَ يدي المطر الذي يُقِلُّهُ السحاب الممتلئ مطراً فيسوقُ السحابَ إلى البلد الميت الذي لا نباتَ فيه ولا شجرَ، فيخرج الله به الزروع والثمار.

٧- كما يحيي اللهُ الأرضَ الميتةَ بالمطر، كذلك ينزل المطر عندما يريد بعث الناس في يوم القيامة، فَيَنْبُتُ الناسُ مِنَ الأرضِ، حتى إذا اكتملت أجسادُ العبادِ، نفخ في الصور، فطارت الأرواح فدخلت أجساد العباد، وعاد العباد إلى الحياة.

٨- ضرب اللهُ تعالى المثل للقلوبِ الطيبةِ بالأرض الطيبةِ التي يخرج نباتها بإذن ربِّها، وضرب مثلاً للقلوب الخبيثةِ بالأرض الخبيثةِ، التي لا يخرج نباتُها إلا نكداً.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني التاسع من سورة الأعراف
قصة نوح عليه السلام

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ تعالى في النصِّ الثاني من هذه السورة طَرَفاً من قصةِ آدم عليه السلام، وكيف غَرّرَ بِهِ الشيطانُ فأخرجَهُ وزوجَه مِنَ الجنَّة إلى دار الشقاءِ، لتدور رَحى معركةٍ حاميةٍ فوق ظهْرِ هذه الأرض بينَ الشيطان الذي أخرج أبانا آدم من الجنة وبين بني آدم، وسلاحُ الشيطان أنْ يكفِّر بني آدم، فيُدْخِلَهُمْ النارَ.

واستقامَ الناسُ قروناً على توحيد الله بعد آدم، ثم نجحَ الشيطانُ في إضلالهم، فأرسَلَ اللهُ إليهم رُسُلَهُ، وتابَعَهم بهداهُ، وقد قَصَّ اللهُ علينا في آيات هذا النص وما بعدها قصصَ خمسةٍ من رُسُلِهِ، وهم نوحٌ، وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ، وبعد أن عَقَّبَ على أخبارِ هؤلاءِ قصَّ علينا قصةَ موسى وأخيه هارونَ، وسنتناول قصصَ هؤلاءِ مع أممهم في هذا النصِّ والنصوصِ التاليةِ لَهُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

[الأعراف:٥٩-٦٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- نوحٌ يدْعُو قَومَهُ لعبادةِ اللهِ وَحدَه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسلَ نوحاً إلى قومِهِ، فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩] وفي الآية قَسَم محذوفٌ تقديره: والله لقد أرسلنا، فاللامُ التي في ﴿لَقَدْ﴾ موطئةٌ للقسم، و(قد) للتحقيق، تأتي بها العربُ مَعَ اللامِ الموطئةِ للقسم إذا جاءت مع الفعل الماضي كما في الآية.

جنـــــة السـنة

ونوحٌ أَوَّلُ الرسلِ الذين أَرْسَلَهُمْ اللهُ تعالى، أَرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قومِهِ عندما عبدوا الأَصْنامَ والأوثانَ مَعَ الله تعالى، فدعاهُمْ إلى عبادةِ الله وحده ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩].

أمرهم نوحٌ عليه السلام بعبادةِ الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأصْلُ العبادةِ في اللغةِ الذلُّ والخضوعُ، وعبادةُ الله في الاصطلاح إفراد الله عزَّ وجَلَّ بعبادتِهِ على وَجْهِ الخُضوعِ والذلَّةِ والمحبةِ.

وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: ما لَكُمْ معبودٌ سِواهُ تعبدونه.

وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥٩﴾ [الأعراف:٥٩]، أي: إنْ لم تؤمنوا بالله الواحدِ الأحدِ، وتَعْبُدونَهَ وَحْدَهُ، أخاف عليكم عذابَ يوم عظيمٍ، وقدْ يكونُ هذا في الدنيا، كما فَعَلَ اللهُ تعالى بهم عندما أغرقهم بالطوفان، وقد يريدُ عذابَ يومِ القيامةِ.

٢- تكذيبُ قومِ نوحٍ له:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ نوحٍ ردُّوا عليه دَعْوَتَهُ إياهم مُكَذِّبينَ له، رامينَهُ بالضلال ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف:٦٠] والملأ: أشرافُ قومِهِ ورؤساؤهم وزعماؤهم، سُمُّوا ملأً لأنَّهم يملؤُونَ النفسَ، أو لأنَّهم يملؤونَ صدورَ المجالسِ.

وقوله: ﴿لَنَرَىٰكَ﴾ أي: لنعتقد أنك في ضلالٍ، والضلالُ: الضياعُ عنِ الحقِّ، وقوله: ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ أي: ضَلالٌ واضحٌ.

فردَّ نوحٌ عليه السلام على كلامِ قوْمِهِ الغليظِ القاسي بكلامٍ لطيفٍ، فيه حُسْنُ الأدبِ في الخطابِ، والإعراض عن الجفاءِ، فأجابَهُمْ منادياً إيَّاهم قائلاً لهم: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ ونفى الضلالَ عن نفسه ﴿لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ والضلالةُ أخصُّ مِنَ الضلال، فعندما يقول لك سائلٌ: هل عندك كتابٌ، تقولُ: ما عندي كتابٌ، فتعمُّ النفيَّ، والمعنى: ليس بي ضلالةٌ واحدة.

ثم قال لهم: ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦١﴾ [الأعراف:٦١]. أي: أنا مرْسَلٌ من عند خالق السمواتِ والأرضِ وما بينهما ومدبِّرهما، وقد سألَ فرعونُ موسى عن ربِّ العالمين ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٢٤﴾ [الشعراء:٢٣-٢٤].

وقال نوحُ لقوْمِهِ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٦٢﴾ [الأعراف:٦٢].

جنـــــة السـنـــــة

أُبَلِّغكم ما أرسلني به ربِّي، وجمعَ الرسالةَ، فقال: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ أي: ما أَرْسَلَه اللهُ به إليهم من الأوامرِ والنواهي، والمواعظِ والزواجرِ، والبشائرِ والنذرِ.

وقوله: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي: أدعوكم إلى ما دَعاني اللهُ تعالى إليهِ، وأُحِبُّ لكم ما أُحبُّ لنفسي، ولا يكونُ المرءُ ناصحاً إلاَّ إذا كان عالماً، يقدِّمُ الخيرَ لمن وَعَظَهُ بصدقٍ بعيداً عن الغشِّ.

وقال نوحٌ لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأعراف:٦٢] وهذا كما قال إبراهيمُ عليه السلام لأبيه ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم:٤٣]. والعلمُ الذي يعلمه مِنَ الله ولا يعلمونَهُ، ما أَوْحاهُ اللهُ إليه من معرفته بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ، ومعرفتِهِ بمصيرِ الأخيارِ والفجارِ، ومعرفته بالحلالِ والحرامِ ونحو ذلك.

٣- تَعَجُّبُ قومِ نوحٍ أنْ يكون الرسولُ واحداً من البشر:

رَدَّ نوحٌ على قومِهِ في تَعَجُّبِهِمْ واستغرابِهِمْ واستبعادِهِم أنْ يكونَ الرسولُ المرسلُ من عندِ الله تعالى واحداً من البشر ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأعراف:٦٣]. وقوله: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ الهمزةُ للاستفهام الإنكاريّ، والواوُ للعطفِ، والمعطوفُ عليه محذوفٌ، كأنَّه قال: أكذبتم وعجبتم، والاستفهام بمعنى التقرير والتوبيخ.

وقوله: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ أيْ: على لسانِ رجلٍ منكم، والمرادُ بـ﴿ذِكْرٌ﴾ الموعظةُ والبيانُ.

وهذه الشبهةُ التي وقعتْ لقومِ نوحٍ، وقعتْ لجميع الأمم من بعدهم، فالأُمة التاليةُ لقومِ نوحٍ، وهي قوم هودٍ، وقع لها ما وقعَ لقومِ نوح، فقال لهم رسولهم: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣].

وقد وقعَ مثلُ هذا لجميعَ الأمم ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء:٩٤].

وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾ بيَّنَ اللهُ تعالى الغايةَ مِنْ إرسالِ الرسلِ، فهو يُرْسِلُهم، ليخوِّفُوا عذابَ الله وبأسَهُ ونكالَهُ، ويرسلهم ليعلمَ العبادُ كيف يتقونَ رَبَّهم ويخشونَهُ، ويرسلهم ليُعَرِّفَهُمْ بالطريقِ الذي ينالونَ بها رحمةَ رَبِّهم.

جنـــــة السـنـــة

٤- **إهلاكُ الله -تعالى- قوم نوح:**

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ نوحٍ كذَّبوا نوحاً، فأهلكهم اللهُ تعالى غرقاً بالطوفانِ، وأنجى الله تعالى نوحاً والقلَّةَ المؤمنةَ معه في الفلكِ، أي: السفينةِ، قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأعراف:٦٤].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ نوحاً كان له آياتٌ معجزاتٌ أرسلَهُ الله بها إلى قومِهِ، ولكنْ لم يحدِّثنا عنها، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: عَمِيَتْ قلوبُهُمْ عن معرفةِ الله وقدرتِهِ وشدَّة بطْشِهِ، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج:٤٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- دعوةُ نوحٍ عليه السلام -وهو أوَّل الرسل- قائمةٌ على التوحيدِ كدعوةِ آخرِ الرسلِ.

٢- كان نوحٌ عليه السلام صريحاً واضحاً فيما دعا قومه إليه، ولكنه كان في غاية الأدب واللطف.

٣- شَفَعَ نوحٌ دعوتَهُ إلى الله -عزَّ وجلَّ- بتهديدِ قومِهِ بعذاب الله إنْ لم يؤمنوا.

٤- كَذَّبَ قومُ نوحٍ نوحاً فحاورهم، وبيَّنَ لهم أنَّه مرسلٌ من ربِّه، وبيَّن لهم الغاية من إرساله.

٥- تعجّب قومُ نوحٍ من إرسالِ رَجُلٍ من البشر إليهم، وهي شبهة صاحبتِ أمم الرسلَ جميعاً.

٦- كَذَّبَ قومُ نوحٍ نوحاً، فأهلكهم اللهُ بالطوفانِ غرقاً، وأنْجى نوحاً ومن آمن معه في السفينةِ.

جنـــة السـنـة

النص القرآني العاشر من سورة الأعراف
قصةُ رسولِ الله هود عليه السلام

أولاً: تقديم

حَدَّثَنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ رسولِ الله هود عليه السلام وقومِهِ، وهُمْ قبيلةٌ عربيةٌ موغِلَةٌ في القِدَمِ، كانت تُسمَّى عاداً، وهذه القبيلةُ جاءَت بعد قومِ نوحٍ عليه السلام، فقد قالَ هودٌ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩].

وكانت عادٌ تَسْكُنُ جنوبَ الجزيرةِ العربية في موضعٍ يُسمَّى بالأحقاف، ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف:٢١].

وهُوَ وادٍ بين أرضِ عمانَ وأرضِ مَهرة، فعن ابنِ عباسٍ، فقالَ: الأحقافُ رَمْلٌ بينَ عمان إلى حَضْرَموتَ، وقال قتادةُ: «الأحقافُ رملٌ مشرفةٌ على البحرِ بالشَّحْرِ من أرضِ اليمنِ» [معجم البلدان: ١/ ١١٥].

وقد أوتي قومُ هودٍ قوةً في أبدانهم، فقد قال لهم نبيهم هودٌ عليه السلام ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف:٦٩]، واستكبرتْ عادٌ ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

وقد بنوا مدينةً عظيمةً سمُّوها إرمَ ذات العماد ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر:٦-٨].

وكانت عاد تعبدُ الأصنامَ والأوثانَ ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠].

وقال قومُ هودٍ لنبيهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود:٥٤].

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ
بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾
أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ

جنـــــة السـنة

قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف:٦٥-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- هودٌ يدعو قومه إلى التوحيد:

بعد أن أغرق اللهُ -تعالى- قومَ نوحٍ بالطوفانِ، أنشأ قومَ هودٍ وهم عادٌ في جنوب الجزيرة العربية ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥] وهذا معطوفٌ على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأعراف:٥٩]. والمعنى: والله لقد أرْسَلْنا إلى عادٍ أخاهم هوداً.

وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ﴾ أي: في النسبِ، لا في الدينِ، وهو أخوهم لأنّه واحدٌ منهُمْ، أو لأنّه بشرٌ مِثْلُهُمْ مِنَ ولدِ آدم عليه السلام.

وقد دعا هودٌ قومَهَ إلى مثل ما دعا نوحٌ قومَهُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥]. دَعاهم إلى إخلاصِ العبادةِ لله فاطرِ السمواتِ والأرض، وهذه دعوةُ الرسلِ جميعاً ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقد كَذَّبتْ عادٌ رسولَها هوداً، فأهْلَكَهم اللهُ تعالى بعذابٍ شديدٍ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥] وقال تعالى مُحدِّثاً عما فعله بهم: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة:٦-٨].

ولا يوجَدُ لا في التاريخِ، ولا في التوراةِ والإنجيلِ ذِكْرٌ لقوم عادٍ، ولا يوجَدُ لهم ذِكْرٌ إلا في القرآنِ، وبقيَ الأمرُ على ذلك إلى عام (١٩٨٤م) حيثُ قامت مَرْكَبَةُ فضاءٍ مزودةٍ بجهاز (رادار) له قدرةٌ على تصويرِ ما تحتَ التربة بعشرات الأمتار، فصوَّرَ الجزيرةَ العربيةَ،

جنـــــة السـنة

فوجُدُوا صوراً لمدينةٍ عظيمةٍ تحتَ رمالِ الربع الخالي، وتلك المدينة مدينة إرم ذات العماد، ويحتاج اكتشافها وإظهارها إلى الوجود إلى جهود كبيرة.

٢- **قومُ هودٍ يكذِّبُونَهُ ويرمونه بالسفهِ:**

كذبت عادٌ رسولَهُمْ هوداً، ورموه بالسَّفَهِ ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأعراف:٦٦]. والسفاهةُ التي رموه بها: خِفَّةُ العقلِ وطيشُ الحلم، فكلُّ خفيفٍ طائشٍ تُسَمِّيهِ العربُ سفهاً، تقول العرب: تَسَفَّهَتِ الريحُ الريشةَ، إذا استخفتها فطارتْ بها كلَّ مطارٍ، والسفهُ في الثوبِ: خِفَّةٌ في نَسْجِهِ. وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ أي: في دَعْواكَ أَنَّكَ رسولٌ من ربِّ العالمين.

وقد نفى هودٌ ﷺ ما اتَّهَمُوهُ به ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ أي: ليس بي طيش، ولا خفةٌ، ولا حمقٌ، وأنا راجحُ العَقْلِ، ثابتُ الحلم.

ثم قرَّر لهم أنَّه مرسلٌ إليهم من عندِ الله ربِّ العالمين ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأعراف:٦٧]، أي: مرسلٌ إليكم من عندِ الله، وحقُّ الرسولِ أنْ يُعَظَّم ويُبَجَّل ويُحترم، لا أن يرمي بالسَّفاهةِ، ويُكَذَّب، كما فعل قومُ هودٍ معه.

وقد بيَّنَ هودٌ ﷺ لقومِهِ الموقفَ الحقَّ الذي يقفه منهم ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف:٦٨] فأنا أمحَضُكُمْ النصحَ، أمين لا أخْدَعُكُمْ، ولا أغُشُّكُم، ولا أخونكم، وقولُه: ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ جمع رسالةٍ، وهي اسمٌ لما يرسل به المُرْسَلُ، ورسالاتُ الله: هي ما بعثه به إليهم من الإيمانِ بالله وطاعتِهِ وامتثالِ أمْرِهِ واجتنابِ نَهْيِهِ.

وقد عَرَضَتْ لقومِ هودٍ الشبهةُ التي عرضتْ لقومِ نوحٍ، وبيَّنَها هودٌ كما بينها نوحٌ بالعبارةِ نفسها ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٩].

٣- **الزمانُ الذي وُجِدَ فيه قومُ هودٍ:**

بيَّنَ هودٌ ﷺ الزمانَ الذي وجد هو وقومه فيه، فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩] وخلفاءُ: جَمْع خليفةٍ، لأنَّه جعلهم خلفاً منهم يسكنون الأرض بعْدَهَم، أو جعلهم ملوكَ الأرض، وكانت عادٌ أوَّل الأمم بعد الطوفان، وقد بيَّنَ لهم هودٌ ما أنعم اللهُ عليهم في خلقهم ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: زادكم طولاً في الخلق وعظماً في الجسم.

جنـــــة الســـــنة

وقد خَلَقَ اللهُ تعالى آدمَ ﷺ ستينَ ذراعاً في السماءِ، فلم يَزلِ الخلقُ ينقصُ بعد ذلك كما أخبرنا رسولُنا ﷺ ، وعادٌ أمّةٌ قريبةٌ من آدمَ، ولذلك فإنَ في أجسادهم شيءٌ من الطولِ كما تدلُّ عليه هذه الآيةُ ﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ وكما يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة:٧]. ولكن ليسَ طولُهُمْ بالطولِ الذي يحكيه كثيرٌ من المفسرينَ، حيث يدَّعونَ أنَّ قصيرهم طولُه ستون ذراعاً، وطويلُهُمْ مائةُ ذراعٍ، بل ادَّعى بعضُهُمْ أنَّ طولَ الواحد أربعة أميالٍ، وكل هذا بعيد عن الصواب، فآدم ﷺ كان أطول منهم، وكان طوله ستون ذراعاً، وقد أمر هودٌ قومَهَ أن يذكروا ﴿ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف:٦٩] وآلاءُ الله نعمَةَ التي أنعم بها عليهم، ومن ذلك ما أعطاهم إيَّاه من البسطةِ في الخلق، ومِنْ ذلك ما وعظهم به في قوله: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ۝١٣٢ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۝١٣٣ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٣٤﴾ [الشعراء:١٣٢-١٣٤]. والفلاحُ: الفوز والنجاةُ في الدنيا والآخرة.

٤- عادٌ ترفضُ الاستجابةَ للتوحيدِ وتطلبُ من نَبيِّها أنْ يأتيها بالعذاب:

رفضتْ عادٌ ما دعاهم إليه نبيُّهُمْ هود ﷺ ، ورَفَضُوا أن يُخْلِصوا دينهم لله ربِّ العالمين ورفضوا ترْكَ الآلهة التي يعبدونها مع الله عزَّ وجلَّ، وطالبوه بأن يأْتيهم بما يَعِدُهم من العذاب إن كان من الصادقين، وكان هذا منهم إمعاناً في الكفر والتكذيب ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ۝٧٠﴾ [الأعراف:٧٠].

وواضحٌ مِنَ النصِّ أنَّ الذي أضلَّهم هو إرثُ الآباءِ والأجدادِ.

٥- هود ﷺ يشنُّ حملةً عنيفةً على قوْمِهِ:

عندما سمع هودٌ ﷺ ما قاله قومُهُ خاطبهم خطاباً قوياً، سفههم فيه، وسَفَّه فيه آلهتهم، وتهَدَّدَهم، وتوَعَّدَهُمْ ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ [الأعراف:٧١].

قال لهم نبيهم هودُ ﷺ : قد وقع عليكم من ربِّكم رِجْسٌ وغضبٌ، والرجسُ: العذابُ والسَّخَطُ، أعلمهم بأنَّ قضاء الله نافِذٌ فيهم وسيحلُّ بهم الرجزُ والعذاب، والغضب الذي سيقع بهم، وَصْفٌ وصفَ اللهُ تعالى به نفسه إذا انتهكت حرماته.

وقوله: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ أي: أتخاصمونني في أسماء بلا مسمياتٍ، لا حقيقة لها، لا تنفع ولا تضرُّ، فقد سَمَّوا أصنامهم وأوثانهم آلهة، وتحت

جنـــــة السـنة

هذه التسمية، لا توجد آلهة تملكُ خصائصَ الألوهية، وقوله: ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ السلطانُ: الحجةُ والبرهانُ، بل الحججُ الواضحةُ البيِّنة التي أنزلها اللهُ تعالى تدلُّ على أنَّها معبوداتٌ باطلةٌ، واللهُ هو الذي يستحقُّ أن يُعبَد. وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ۝٧١﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لهم، يقول لهم: انتظروا ماذا يَحْدُثُ لكم، وما سينزل بكم من غضبِ الله ومِنْ عذابِه.

٦- إنزالُ اللّه تعالى العذابَ بقومِ هودٍ وإنجاءِ اللّه هوداً والمؤمنين معه:

نجّى اللهُ -تعالى- هوداً ومن معه برحمته، وأنزل بقومِهِ الكافرين عذاباً قطع دابرَهُمْ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ۝٧٢﴾ [الأعراف:٧٢].

وقوله: ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ﴾ أي: استأصلهم عن آخرهم، والدابر: هو الذي يتبعك عند دُبُرِك، فإذا هلك الدابرُ: لم يبقَ منهم أحدٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- الأُمةُ الثانيةُ بَعْدَ قوم نوحٍ وجوداً هم قومُ عادٍ، كانوا في جنوبِ الجزيرةِ العربية، وقد أرسل اللهُ تعالى إليهم رسولَه هوداً ﷺ.

٢- هودٌ جاء قومَهُ بالدعوةِ إلى عبادةِ الله وَحْدَهُ، وتَرْكِ ما يشركون به من دون الله.

٣- كَفَرَتْ عادٌ بما أُرْسِلَ به رسولُهُمْ إليهم، ورَمَوْهُ بالسَّفَهِ.

٤- ردَّ هودٌ على قومه، وبيّن لهم أنّه مرسلٌ إليهم مِنْ عندِ الله، وكَشَفَ ما طَرَحُوهُ من شبهاتٍ.

٥- أعطى اللهُ تعالى عاداً قوةً في الأجْسادِ، وكانت أرْضُهمْ ذاتُ جناتٍ وعيونٍ.

٦- أصَرَّتْ عادٌ على عبادةِ الآلهةِ الباطلةِ التي كان يعبدُها الآباءُ والأجدادُ، واستهانوا بعذابِ الله، فطلبوا من هودٍ أن يوقعَ بهم ما تَهَدَّدَهُمْ به.

٧- ثارَ هودٌ على قومِهِ، وسَفَّهَهُمْ وسَفَّهَ آلهتهم وبيَّن لهم أنَّ تلك الآلهةِ آلهةٌ باطلةٌ، وتهدَّدَهم بوقوعِ العذاب بهم.

٨- أنزل اللهُ العذابَ بعادٍ الكافرةِ، وأنجى هوداً ومَنْ معه مِنَ المؤمنين.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة الأعراف
قصةُ نبيِّ الله صالحٍ وقصةُ قومِهِ ثمود

أولاً: تقديم

هذه هي القصة الرابعةُ التي يَقُصُّها الله علينا في هذه السورة، فقد قَصَّ اللهُ -تعالى- علينا قصةَ آدمَ، ثم قصةَ نوحٍ، ثم قصةَ هودٍ، وهذه قصةُ صالحٍ.

وصالحٌ عليه السلام نبيٌّ عربيٌّ، أرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قومِهِ ثمود، وثمودُ قبيلةٌ عربيةٌ مِنَ العربِ البائدةِ، كانوا يسكنونَ الحِجْرَ، ومنازِلُهُمْ معروفةٌ مشهورة ظاهرةٌ تقعُ في وادي القرى وما حوْلَه، بين الحجازِ والشامِ، ولا تزالُ بيوتُهم التي نحتوها في الجبال قائمة إلى اليوم، والحِجْرُ: يقع في الحجاز جنوبي تيماء، وقاعدةُ تلكِ البلاد مدينةُ العُلا.

وقد مرَّ رسولُ الله ﷺ وأصحابُهُ بديارِ ثمودٍ في السنة التاسعةِ من الهجرةِ، وهو منطلقٌ إلى غزوَةِ تبوك، فعَجَنَ أصحابه مِنَ الآبار الموجودة في ذلك المكانِ، فأمرهم أنْ يطعموا عجينهم الإبلَ، وأن يقتصروا في شربِهِم وعجينِهِمْ على ماءِ البئرِ التي كانت تشربُ منها الناقةُ، ونهاهم أنْ يدخلوا مساكنَ المعذَّبين إلاَّ باكينَ أو متباكينَ، ودلَّهم على البِئْرِ التي كانت الناقةُ تشربُ منها، ودلَّهم على الطريقِ الذي كانت تردُ الناقةُ منه، والطريقِ الذي كانت تَصْدُرُ منه، روى ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: «أنَّ رسولَ الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ الحِجْرَ في غزوةِ تبوكَ أمَرَهم أنْ لا يشربوا من بئرِها، ولا يسْتقوا منها، فقالوا: قد عَجَنَا منها واستَقينا. فأمَرَهم أنْ يَطْرَحوا ذلك العجينَ، ويُهَريقوا ذلك الماء» [البخاري ٣٣٧٨. ومسلم: ٢٩٨١].

وعن عبدالله بنَ عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ الناسَ نَزَلوا مع رسولِ الله ﷺ أرضَ ثمودَ الحِجْرَ، فاستَقَوْا من بئرِها، واعتَجَنوا به، فأمَرَهم رسولُ الله ﷺ أن يُهَريقوا ما استَقَوْا من بئرِها، وأنْ يَعْلِفوا الإبلَ العَجينَ، وأمَرَهم أن يسْتقوا من البِئرِ التي كانَت تَرِدُها الناقةُ [البخاري: ٣٣٧٩. ومسلم: ٢٩٨١].

وعن سالِمِ بن عبدالله، عن أبيه رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ لما مَرَّ بالحِجْرِ قال: «لا تَدْخُلوا مَساكِنَ الذينَ ظَلَموا إلاَّ أنْ تكونوا باكِينَ، أنْ يُصيبَكم ما أصابَهُم» ثم تَقَنَّعَ بردائه وهو على الرَّحْلِ [البخاري: ٣٣٨٠. ومسلم: ٢٩٨٠].

وروى أحمد عن جابر، قال: لَمَّا مَرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجْر، قال: «لا تسْأَلُوا الآياتِ، وقد سأَلَهَا قوم صالحٍ، فكانَتْ تَرِدُ من هذا الفَجِّ، وتَصْدُرُ من هذا الفَجِّ، فعَتَوْا عن أمْرِ ربِّهِم

جنـــــة السـنـــة

فعقَرُوها، وكانَتْ تَشْرَبُ ماءَهُم يوماً ويَشْرَبُونَ لَبَنَها يوماً، فعقَروها، فأخَذَتْهُمْ صيْحَةٌ أهْمَدَ اللهُ مَنْ تَحْتَ أديمِ السماءِ مِنهُم، إلاَّ رجلاً واحِداً كانَ في حرَمِ الله» قيل: مَنْ هو يا رسولَ الله؟ قال: «هو أبو رِغال، فلمَّا خَرَجَ من الحَرَمِ، أصابَهُ ما أصابَ قوْمَه» [مسند أحمد: ١٤١٦٠، وقال محققه: حديث قويٌّ].

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسلَ اللهُ -تعالى- إلى ثمودَ رسولَهُ صالحاً عليه السلام وآتاه النَّاقَةَ آيةً:

أخْبَرَنا ربُّنا العليُّ الأعْلى أنّه أرسلَ صالحاً إلى قومِهِ، وهم ثمودُ، وأمَرَهُمْ بعبادةِ الواحدِ الأحد، فهو المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقد طَلَبَ قوم صالحٍ منه أنْ يأتيهم بآيةٍ تدلّ على صِدْقِهِ، فقالوا له: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤].

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجَلّ أنَّ صالحاً قالَ لقومِهِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

جنـــــة الســـــنة

وقالَ لقومِهِ: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ والبيِّنةُ الدليلُ الذي يُظْهِرُ الحقَّ ويوضِّحُهُ، ولا بدَّ أن تكونَ هذه البيِّنةُ عظيمةً كبيرةً واضحةً، وقد فسَّر هذه البينةَ بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى بعض ما تتميزُ به هذه الآيةُ فقالَ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء:١٥٦]، وقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر:٢٩].

وقد بيَّنَ لنا رسولُنا ﷺ في الحديثِ الذي أوْرَدْتَهُ في مقدمةِ هذا النص أنَّها: «كانَتْ تَشْرَبُ ماءَهُم يوماً، ويشرَبُونَ لَبَنَها يوماً» [مسند أحمد: ١٤١٦٠].

وقد وصَّاهم نبيُّهُمْ صالحٌ عليه السلام بالناقةِ، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف:٧٣]. وهذه الناقةُ لم تكنْ تُكَلِّفُ ثمودَ شيئاً، فقد كانت تَسْرَحُ في أرضِ الله، وتأكُلُ مما وجدتُه مِنْ عُشْبِ الأرضِ، وقوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي: لا تضربوها، ولا تَطْرُدوها، ولا تقتلوها، فإن فَعَلْتُمْ شيئاً من ذلك أخذكم عذابٌ أليم من الله تعالى.

وقد أُضيفتْ الناقةُ إلى الله تعالى ﴿نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على وجه التفضيل والتخصيصِ، كما يقال للمسجدِ (بيتُ الله).

٢- نِعَمُ اللهِ التي أنْعَمَ بها على ثمودٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ صالحاً أمَرَ قَوْمَهُ أنْ يذكروا النعمَ التي أنعمَ اللهُ بها عليهم، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف:٧٤].

أمَرَهُمْ أنْ يذكروا أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ مستخلفينَ في الأرضِ مِنْ بعدِ عادٍ، كما جعل عاداً مستَخلَفينَ مِنْ بعد قوم نوحٍ، وذكَّرهم صالحٌ بما امتنَّ اللهُ بِهِ عليهم من تبوِّئِهِمْ الأرض يتخذونَ من سهولها قصوراً، ويَنْحِتُونَ من الجبالِ بيوتاً، ومعنى: بَوَّأَكُمْ مِنَ الأرضِ، أي: جَعَلَها لكم مباءَةً، أي: منزلاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر:٧٤] ومنه قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت:٥٨] أي: لنَجْعَلَنَّ الغرفَ مباءاتٍ ومنازلَ لهم.

جنـــــة السـنة

وقولُهُ: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ السهولُ: جمعُ سَهْلٍ، وهو المكانُ المنخفضُ المستوي الذي لا وَعْرَ فيه، أي: تتخذونَ من أرضِها السَّهْلَةِ قصوراً. والقصورُ: البيوتُ الضَخْمَةُ العظيمةُ المنمقة والمزينةُ، لتسكنوها في الصيف.

وقوله: ﴿وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ وقال: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الحجر:٨٢] أي: تَنْحِتونَ بيوتاً في الجبالِ لتسكنوها في الشتاءِ، ولا تزالُ بيوتُ ثمود المنحوتة في الجبال قائمةً إلى اليوم، والبيوت: جمعُ بيتٍ، والبيتُ هو ما يُسْكَنُ فيه، سُمِّيَ بيتاً، لأنَّ الساكنَ يبيتُ فيه.

ومِنْ نِعَمِ الله التي أنعم اللهُ -تعالى- على ثمودَ قومِ صالحٍ، ما ذَكَّرَ صالحٌ به قومَه في سورةِ الشعراء قائلاً: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نِعَمَ الله التي أنعم بها عليكم. وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ العَثيُ: أشدُّ الفَساد

٣- **الحوارُ الذي جرى بينَ الزعماء مِنْ قومِ صالحٍ وبينَ المؤمنين الضعفاءِ:**

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ أكثرَ أتباعِ الرسلِ في أولِ الأمرِ هُمُ الضعفاءُ، كما قالَ الملأ من قومِ نوحٍ لنوحٍ عليه السلام: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧].

وقد كان كثيرٌ من أتباعِ صالحٍ الذين آمنوا به هم من هؤلاءِ، وقد ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف:٧٥-٧٦].

والذين استكبروا الزعماءُ والقادةُ، قالوا للمؤمنينَ المستضعفين: أتعلمون أنَّ صالحاً مرسلٌ من ربِّه؟ فقالوا: نَعَمْ، نحنُ نؤمنُ بما أُرسلَ به، فأجابَهُمْ أولئك السادةُ والزعماءُ: إنَّا بالذي آمنتم بِهِ كافرونَ، أي: جاحدون.

٤- **طغيانُ قومِ صالحٍ وعقرهم الناقةَ:**

عَلا طغيانُ قومِ صالحٍ علواً كبيراً، فكذبوا رسولَه، وكفروا به، وبلغ بهم الطغيانُ إلى عَقْرِ ناقةِ الله التي تهدَّدَهم رسولهم بأنَّهم إذا قتلوها أخَذَهُمْ عذابُ يومٍ أليم، وعتَوْا عَنْ أمر

جنـــــة الســـنة

ربِّهم، وبلغ من طغيانِهُمْ واستهتارِهُمْ أن قالوا لرسولهم بعد عَقْرِهِم الناقةَ: ائتنا بما تعدُنا إنْ كنت رسولاً حقاً، قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:٧٧].

ونَسَبَ العقرَ إلى ثمودَ كُلِّها، وإن كان العاقرُ واحداً منهم، لأنَّهم كانوا جميعاً راضينَ بذلك العقرِ، كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الشعراء:١٥٧].

والدليلُ على أنَّ العاقِرَ كان واحداً منهم قوله تعالى: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩]، وقوله: ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١٢-١٤].

والعَقْرُ: القتلُ والإزالةُ، تقولُ: عقرتُ النخلَ: قطعتُهُ من أصلِهِ، وعَقَرْتُ البعير: نحرته.

وقد نادتْ ثمودُ أشْقاها كما قال تعالى: ﴿ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القمر:٢٩]، وقال: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس:١١-١٤].

وعن عبدالله بن زَمْعَةَ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ ذَكَرَ الذي عَقَرَ الناقة، قال: «انْتَدَبَ لها رجلٌ ذو عِزٍّ ومَنَعَةٍ في قوْمِهِ كأبي زَمْعَةٍ» [البخاري: ٣٣٧٧. ومسلم: ٢٨٥٥. وأحمد: ١٦٢٢٢]. واللفظ عند مسلم: «ذَكَرَ الناقةَ وذَكَرَ الذي عَقَرَها، فقال: إذ انْبَعَثَ أشْقاها، انْبَعَثَ بها رجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِهِ، مثلُ أبي زَمْعَةَ».

وقد قال لهم نبيهم بعد عقرهم الناقة: ﴿ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود:٦٥].

وقد بلغ من طغيانهم أنَّ تسعةً منهم أرادوا بعدَ عَقْرِهِمُ الناقةَ قتل صالحٍ وأهْلِهِ في ظلمة الليل ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [النمل:٤٨-٤٩].

٥- إهلاكُ اللهِ -تعالى- قومَ صالحٍ:

لَمَّا بَلَغَ طغيانُ قوم صالح إلى عَقْرِ النَّاقةِ، ومحاولةِ قَتْلِ صالحٍ وأهلِهِ في الليْلِ، نزلَ بهم عذابُ الله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف:٧٨]. وقال في

جنـــــة السـنـــة

سورةِ القمر: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ ﴾ [القمر:٣١]. وقال في سورةِ هودٍ ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [هود:٦٧].

أرسلَ اللهُ تعالى عليهم صيحةً واحدةً من السماءِ، وقد أحْدَثَتْ هذه الصيحةُ رَجْفَةً زَلزلتِ الأرضَ، ومعنى ﴿ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ ساقطينَ على وجوهِهِمْ هامدينَ لا يتحركونُ. ونَجَّى اللهُ -تعالى- صالحاً والمؤمنينَ معه ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾ [هود:٦٦].

ودمَّرَ اللهُ تعالى ثمودَ ودمَّر بيوتها بسبب ظلمهم ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل:٥١-٥٢]. وقد كانَ صالحٌ موجوداً معهم عندما نزلَ بهم العذابُ، فلما دَمَّرَهُمْ ربُّ العزةِ ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف:٧٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى صالحاً إلى قومِهِ ثمود، فدعاهم إلى عبادةِ الله وحدَهُ، وتَرْكِ ما يعبدونَ من دونِهِ، وجاءَهم بآيةٍ بيِّنَةٍ، وهي ناقةٌ عظيمةٌ تشربُ ماءَ البئر يوماً، ويشربونَه يوماً، وفي اليوم الذي تَشْرَبُ ماءَهم، يأخذونَ ما يريدون من لَبَنِها.

٢- أمَرَ صالحٌ قومَهُ أنْ يتركوا ناقةَ الله تأكلُ مِنْ أرضِ الله، ونهاهم عن أن يتعرضوا لها بشيءٍ من الأذى.

٣- ذكَّرَ نبيُّ الله صالحٌ قومَهُ بما أنْعَمَ عليهم من جَعْلِهِمْ خلفاءَ مِنْ بعدِ قومِ عادٍ، وما أعطاهُمْ من مساكنِ الصيفِ والشتاءِ، وما أعطاهم من الجناتِ والعيونِ.

٤- كان الزعماءُ والرؤساءُ الكفرةُ يفخرون على ضعفاءِ المؤمنين، ويترفعون عليهم.

٥- طغَى قومُ صالحٍ فعقَروا الناقةَ، وحاولوا قتلَ صالحٍ وأهْلِهِ، وطالبوا صالحاً أنْ يأتيهم بالعذاب الذي تَوَعَّدَهُمْ بِهِ، فأنزلَ اللهُ بهم صيحةً زلزلتْ أرضهم، ودمرتْهُمْ ودمرتْ ديارَهُمْ.

جنـــــة السـنة

٦- نَجّى اللهُ تعالى صالحاً ومَنْ مَعَهُ، وتَوَلَّى صالحٌ عليه السلام عنهم وهو يقولُ: لقد أبْلَغْتُكُمْ رسالةَ ربي، ونصحتُ لكم، ولكن لا تُحِبُّونَ الناصحين.

٧- أوردَ بعضُ المُفَسِّرينَ كالطبريِّ والبغويِّ وغيرهما في تفسيرِهما قِصصاً وأخباراً لا ذِكْرَ لها في القرآن، وليس لها أسانيدُ صحيحةٌ، وما كانَ للمفسِّرينَ أنْ يوردُوا في تفسيرِ آياتِ الله مثلَ هذا القصصِ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني عشر من سورة الأعراف

قصة لوط عليه السلام

أولاً: تقديم

نبيُّ الله لوطٌ عليه السلام هو ابنُ أخي نبيِّ الله إبراهيم، آمنَ بِهِ، وهاجرَ معه إلى الأرْضِ المقدَّسَةِ، فأرْسَلَهُ اللهُ تعالى إلى قُرى سَدوم وعمورة وما حولها من القرى وكانوا قد اقْتَرَفُوا نوعاً من الفاحشة، لم يسْبِقْهُمْ إليها أحدٌ من العالمين، وهي إتيانُ الذكورِ من الرجال، فأنْكَرَ عليهم، فأبَوْا أن يجيبوا داعيَ الله تعالى، فأهلكهم الله تعالى، ودمَّرَهُمْ ودمَّر ديارَهُمْ، وأصْبَحَ فوقَ ديارِهِم بَحْرٌ أجاجٌ، هو البحرُ الميتُ الذي في أرضِ فلسطين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

[الأعراف:٨٠-٨٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ الله -تعالى- لوطاً إلى قوْمِهِ وإنكارِهِ عليهم فعْلَ الفاحشةِ التي يرتكبونها:

أعْلَمَنا ربُّنا تبارك وتعالى أنّه أرْسلَ نبيَّهُ لوطاً عليه السلام إلى قومِهِ، فقالَ لهم منكراً عليهم فعلتهم الخبيثة، وهي اللواطُ: ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

[الأعراف:٨٠-٨١].

ولوطٌ هو ابن أخي خليلِ الرحمن إبراهيمَ، آمنَ بِهِ في العراقِ، وهاجر معه إلى الأرضِ المقدسة، قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ ﴾ [العنكبوت:٢٦] فأرسلَهُ اللهُ -تعالى- إلى أهْلِ سَدومْ وعمورةَ التي كانت في مكان البحر الميت اليوم، وهذه القرى هي التي سمَّاها اللهُ تعالى بالمؤتفكاتِ، سميتْ بذلك لأنَّ جبريلَ أفكها، أي: اقتلعها مِنَ الأرضِ

جنـــــة السـنة

ورَفَعَها إلى السَّماء، ثمَّ جعلَ عاليها سافِلَها ﴿جَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود:٨٢]. وقد كانت انتشرتْ في القومِ الذين أَرسلَ إليهم لوط جريمةُ اللُّواطِ، فقال لهم منكراً عليهم: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ والفاحشة: الخُصْلَةُ المتناهيةُ في القُبْحِ والشَّناعةِ، وهِيَ اللواطُ، أي: أتأتونَ الخصلةَ التي استقرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ، ودلَّ على عِظَمِ فُحْشِها أنَّه لم يَسْبِقْ أَحَدٌ مِنَ الناسِ إلى ارتكابِ هذه الجريمة قبلهم.

ثم زاد لوطٌ قَوْمَهُ توبيخاً وتقريعاً بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ أي: أإنكم لتأتون الرجالَ لأجلِ شهوتِكُمْ مِنْ دونِ النِّساءِ، كما قالَ في موضعٍ آخرَ: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦]. نَبَّهَ لوطٌ عليه السلام قومَهُ عن استغنائِهم، عن هذه الفعلةِ الفاحشةِ، فليس لهم غرضٌ من وراءِ فعلتهم إلاَّ الشهوةَ، بخلافِ ما يبْتَغُونَهُ ويطلبونَهُ من وراءِ معاشرة نسائِهِمْ ففيه مصالحُ عظيمةٌ.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ (بل) للإضرابِ، والإسرافُ مجاوزةُ الحدِّ، فقد جاوزوا الحلالَ إلى الحرام.

٢- جوابُ قومُ لوطٍ على ما أنْكره عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ عليه السلام:

أعْرَضَ قومُ لوطٍ عمّا أنْكرَه عليهم نَبيُّهُم من إتيانِ الرجالِ شَهْوةً من دون النساء، وكُلُّ ما قالوه في الجوابِ أنَّهمْ تنادوا إلى إخراجِ لوطٍ ومَنْ آمَنَ معهُ مِنْ أهْلِهِ مِنْ قَرْيتهم، وعلَّلُوا فِعْلَهُمْ الذي عَزَموا على الإتيان بِهِ بأنَّ لوطاً وأهْلَهُ أُناسٌ يَتطَهَّرون ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأعراف:٨٢].

وقد عَلَّلُوا لإخراجهم بعِلَّةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، وهي أنَّهُمْ قومٌ يتطهرونَ، وعُرْفُ الناس على مَرِّ العصورِ أن الأطهارَ يُحَبُّون، ويحترمون، ويتقرب منهم، أما هؤلاءِ، فيطردُونَ الأطهارَ الأخْيارَ، وإذا وَصَلَ الحالُ إلى أنْ يُطْرَدَ الأطهارُ، فيكون الطارِدُون في غايةِ النجاسةِ والقذارةِ، ويكونُ الداءِ وَصَلَ إلى درجةٍ لا يكونَ معها شِفاءٌ.

وقد وقعَ كثيرٌ مِنَ الناسِ وخاصَّةً في عالمِ الغربِ اليومَ في هذا الداءِ العضالِ، فقد ارتكبوا فواحشَ عَدُّوها تقدماً ومدنيةً، وهي فواحشُ وموبقاتٌ.

جنـــــة الســـــنة

٣- **إنْجاءُ اللهِ تعالى لوطاً وإهلاكُهُ القومَ المجرمينَ:**

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ أنَّه نجَّى لوطاً وأهلَهُ إلا امرأته فإنَّها كانتْ كافرةً، فأهلكها اللهُ تعالى مَعَ الهالكين، وكان أهله الذين آمنوا بِهِ ابنتاه، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الذاريات:٣٥-٣٦]. وقد جعَلَ اللهُ تعالى عاليَها سافِلَها، وأمطَرَ عليها حجارةً من سِجِّيلٍ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣].

وقوله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ أي: انْظُرْ وتفكَّرْ في عاقبةِ هؤلاء المجرمين، وإلى ما صاروا إليه، والمجرمونُ هم الكفارُ الذين ارتكبوا تلك الفواحشَ من قومِ لوطٍ، وها هيَ ديارُ قومِ لوط عليه السلام، يشاهدُ الناسُ ما حلَّ بها في ذهابِهم وإيابِهِمْ عندما يَمُرُّون بها ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

لقد أصْبَحَ فوقَها بَحرٌ مالحٌ شديدُ الملوحةِ، لا يعيشُ فيه شيءٌ، ويُعْرَفُ بالبحرِ الميت، وقرى قومِ لوطٍ تحته في الناحية الجنوبية منه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرْسَلَ اللهُ تعالى لوطاً إلى قومِهِ فأنكرَ عليه كُفْرَهُمْ وما يرتكبونه مِنْ فاحشةِ اللواطِ.

٢- قومُ لوطٍ أولُ مَنْ ارتكبَ فاحشةَ اللواطِ مِنَ البَشَر.

٣- فِعْلُ قومِ لوطٍ في إتيانِ الرجال شهوةً من دونِ النساءِ انحرافٌ عن الفطرةِ، وضلالٌ عن الحقِّ.

٤- لم يكن عنْدَ قومِ لوطٍ ما يجيبونَ من أنكر عليهم ضلالَهُمْ إلاَّ إخراجَهَمْ من قريتهم.

٥- أنجى اللهُ لوطاً وأهلَه المؤمنين، وعذَّب الكافرين المصرِّينَ على ارتكابِ الفاحشِةِ، وأصبحتْ قراهم مقلوبةً تحت بَحْرٍ أُجاجٍ خالٍ من الأحياءِ.

٦- ذهبَ جمهورُ أهلِ العلمِ إلى وجوبِ قتل الذي يرتكبُ جريمةَ اللواطِ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة الأعراف
قصةُ نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام

أولاً: تقديمٌ

أرسلَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَهُ شعيباً عليه السلام إلى مدينة مَدْيَنَ أو قبيلةِ مَدْيَنَ، فدعاهم إلى عبادةِ الله وحْدَهُ، وتَرْكِ ما يعبدُ من دونِهِ، ومدينُ مدينةٌ قربَ مدينة معانٍ من أطراف الشام مما يلي الحجازَ، قريباً من ديارِ قومِ لوطٍ، فقد قال شعيبٌ لقومه ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩].

ومَدْيَنُ هي التي ذَكَرَها اللهُ -تعالى- باسم (الأيكة) وحدَّثَنا أنَّ شعيباً أُرْسِلَ إليها ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء:١٧٦-١٧٧].

قال الراغبُ في مفرداتِهِ: «الأيْكُ الشجرُ الملتف، وأصحابُ الأيكةِ، قيل: نسبوا إلى غَيْضَةٍ كانوا يسكنونها، وقيل: هي اسم بَلَدٍ» [المفردات:٣٠].

واختلف العلماءُ في نَسَبِ قومِ شعيبٍ، فقيل: هم: من ذرية نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وقيل أُمُّهُمْ من بناتِ لوطٍ، ولا يوجَدُ دليل صحيحٌ يدل على تحديدِ هذا النسب. وذُكِرَ في حديثٍ رواه ابنُ حبانٍ عن أبي ذرٍّ أنَّ أربعةً مِنَ الأنبياءِ عَرَبٌ، «وهم: هودٌ وصالحٌ وشعيبٌ ونبيُّكَ يا أبا ذر».

وذَهَبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ شعيباً كان بعدَ موسى عليه السلام، وهذا غير صحيح، ذلك أنَ الله تعالى قصَّ علينا في هذه السورة: سورة الأعراف، قصة نوحٍ، وقصةَ هودٍ، وقصة صالحٍ، وقصَّةَ شعيبٍ، ثم قال بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾ [الأعراف:١٠٣].

ولا شكَّ أنَّ شعيباً كان بَعْدَ قومِ إبراهيمَ وقومِ لوطٍ، لقول شعيب لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود:٨٩] وهم قبل موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ ﴾ [الأعراف:١٠٣].

ومدينُ هي المدينةُ التي هربَ إليها نبيُّ الله موسى عليه السلام، لَمَّا خشي أنْ يقتله فرعونُ وملأه ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾ [القصص:٢٢-٢٣].

جنـــة السـنة

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ
جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ
وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ
الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا
حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ
يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ
عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن
قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١)
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ
وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾

[الأعراف:٨٥-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- شعيبٌ يدعو قَوْمَهُ إلى إخلاص الدين لله الواحد الأحد:

أرسلَ اللهُ -تعالى- عبدَه ورسولَه شعيباً إلى قومِهِ أهلِ مدينَ، فدعاهم إلى مثل ما دعا إليه كلٌّ من نوحٍ وهودٍ وصالحٍ أقوامَهُمْ، دعاهم إلى عبادةِ الله الواحد الأحد، وتَرْكِ ما يعبدونه من الأوثان ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف:٨٥].

وهذا هو الأصلُ العظيمُ الذي دعا كلُّ الرسلِ أقوامهم إليه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) ﴾ [الأنبياء:٢٥] وقال: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

جنـــــة السـنة

٢- إعطاءُ الله تعالى شعيباً آيةً بينةً تدلُّ على صِدْقِهِ:

أعْطَى اللهُ تعالى رسولَه شعيباً آيةً بيِّنَةً، لتكونَ حجَّة ومعجزةً له عند قومِه، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] والبيِّنَةُ في العربية: الحجَّةُ الواضحةُ، التي تُظْهِرُ الحقَّ وتبرِزُهُ، والمرادُ بها في الآيةِ: المعجزةُ التي تدلُّ على أنَّ شعيباً مرسلٌ من عندِ الله.

ولم يعرفنا اللهُ -تعالى- بهذه المعجزةِ كما عرَّفنا بمُعْجِزةِ نبيِّ الله صالحٍ، ونبي الله موسى عليهما السلام.

٣- نَهَى شعيبٌ قَوْمَهُ عن التطفيف في الكيلِ والميزانِ وبَخْسِ الناسِ أشياءَهم:

لم يَقِفْ شعيبٌ في دعوته إلى قومِهِ عنْدَ الأمرِ بعبادةِ الله وَحْدَه، وتركِ ما يُعبد مِنْ دونه، ولكنَّه تجاوزه إلى النهي عن الذنوبِ والجرائمِ التي كانوا يعملونها، فمن ذلك تطفيفُ الكيلِ والميزانِ، وبخسُ الناسِ أشياءَهم، والإفسادُ في الأرض بعد إصلاحها ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٥].

ويبدو أنَّ هذه الجرائم كانتْ جرائمَ شائعةً في قوم شعيبٍ، فأمَرَهُمْ نبيُّهُمْ بإتمام الكيلِ والميزانِ، وقالَ لهم في موضعٍ آخر: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [هود:٨٤-٨٥].

ونهاهُمْ أن يبخسوا الناسَ أشياءَهم ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]. والبَخْسُ: النقصُ، ويكون بتعييب السلعةِ والتزهيدِ والمخادعةِ فيها، وخيانةِ الناسِ في أموالهم وظلمِهِمْ فيها.

وهذا الذي نهى شعيبٌ قومَهُ عنه يدلُّ على أنه حرامٌ على المسلم، أي: يحرمُ عليه إنقاصُ الكيلِ والميزانِ، ويحرمُ عليه أن يبخسَ أخاه مالَه، فيحرم عليه أن يعيبَ، سلعته، ويزهدَ فيها، ويخدعُه عنها، قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين:١-٣].

٤- نَهْيُ شعيبٌ عليه السلام قومَهُ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها:

نهى نبيُّ الله شعيبٌ عن الإفسادِ في الأرضِ بعد إصلاحها، فقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ والذي يُفْسِدُ الأرضَ أمران:

جنـــــة السـنـــة

الأول: الكفر والذنوب والمعاصي، كما قال ربُّ العِزَّة: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ ﴾ [مريم:٨٨-٩٢].

والثاني: الإفسادُ في الأرض بقتلِ بني الإنسانِ، وقتلِ الحيوان، وقطعِ الأشجارِ وحرْقِها، وإفسادِ الأنهارِ والبحيراتِ والبحارِ، بإلقاءِ القاذورات والمواد السامَّةِ فيها.

وقد ازدادَ إفسادُ البشر للأرضِ في هذه الأيامِ، وبلغَ إلى درجة إفسادِ الغلافِ الجويِّ الذي يُهَدِّدُ بتدمير الأرضِ تدميراً عظيماً.

وقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ فلو تَرَكَ بنو الإنسانِ الأرضَ من غير تَدْميرِها لبقيتْ صالحةً، وقولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: الاستقامةُ على ما ذكرته لكم، ووَعَظْتُكُمْ بِهِ، خيرٌ لكم إنْ كنتم مؤمنين، أي: عبادةُ الله وَحْدَه، وإيفاءُ الكيلِ والميزانِ، والوفاء للناس بسِلعهم، وإصلاحِ الأرضِ خير لكم، وأفْضَلُ.

٥- نهيُ نبيِّ الله شعيب عليه السلام عن صدِّ الناسِ عن سبيل الله:

نهى رسولُ الله شعيبٌ عليه السلام قوْمَهُ عن القعودِ للناس على الصراطِ، أيْ: الطريق، والمرادُ به الطريقُ المحسوسُ الذي يسيرُ فيه الناسُ، يتهددونهم ويتوعَّدونَهُمْ، بقتلِ وضربِ مَنْ آمنَ منهم بشعيب، والاستيلاءِ على ماله، ويأمرونَ المؤمنين بالكفر بشعيبٍ وتركِ متابَعتِهِ ﴿ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ ﴾ [الأعراف:٨٦].

وقوله: ﴿تُوعِدُونَ﴾ أي: تتهدّدون الناسَ بالأذى والقتل. والصراطُ: الطريق. ﴿وَتَصُدُّونَ﴾ أي: تمنعون الناس عن ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الإسلام و﴿وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ﴾ أي: تطلبونَ الطريقَ الذي يسْلُكها الناسُ مائلةً منحرفةً، وذلك بالكفر والذنوب والمعاصي.

٦- قومُ شعيبٍ يتهددونه والمؤمنين معه بإخراجهم من قريتهم أو العودة في ملتهم:

ضاقَتْ عقولُ السادةِ والزعماءِ من قوم شعيبٍ عن فِقْه ما وَعَظَهُمْ به نبيُّهم، ولم يستطيعوا أن يردُّوا على ما بَصَّرهم بِهِ، فلجؤوا إلى التهديدِ والوعيدِ، فـ ﴿ ۞ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ ﴾ [الأعراف:٨٨].

قالوا لَهُ ولمن آمنَ معه: أنتَ بين خيارين لا ثالثَ لهما، إما أنْ نُخْرِجَكَ أنْتَ والذين آمنوا معك مِنْ قريتنا، الثاني: أنْ تعودَ في مِلَّتِنا، أي: ترجعوا إلى ديننا، و(أو) التي في قوله:

جنـــــة السـنة

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ هي التي تسمى: مانعة خُلُوٍّ، أي: لا يخلو المقامُ من إحدى حالتين: إما أن يُخْرِجوه والذين آمنوا معه مِنْ قريتهم، أو يعودوا في دينهم.

والملأ: السادةُ الذين يملؤون صدورَ المجالس، وتمتلئ القلوب من هيبتهم، وقوله: ﴿الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي عن الإيمانِ بشعيبٍ وبما جاء به.

٧- ذكّر شعيبٌ قومَه بنعمةِ الله عليهم بتكثيرِهِمْ بعد أن كانوا قليلاً:

أمَرَ شُعيبٌ عليه السلام قومه أن يذكروا أنهم كانوا قلَّةً أذلةً، يخافونَ أنْ يضيقَ عليهم الناسُ، ويؤْذونهم، فأصبح عددهُمْ كثيراً، والكثرةُ مَظَنَّةُ العزَّةِ والغَلَبَةِ ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقوله: ﴿وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:٨٦]. أراد بهم المفسدين من قبْلِهِمْ، أي: انظروا إلى عاقبة قوم نوحٍ وقومِ هودٍ وقوم صالحٍ كيف دمَّرَهُمْ الله وأهلكهم، فإنْ سرتم مسارهم، حلَّ بكم مثلَ ما حلَّ بهم. والعاقبةُ: هي ما يؤول إليه الأمرُ آخراً.

٨- دعوةُ شعيبٍ قومَه إلى الصبر حتى يحكمَ اللهُ بينَ المؤمنين به والكافرين منهم:

وقالَ شعيبٌ عليه السلام لقومِهِ في آخر ما وَعظَهُمْ به ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأعراف:٨٧].

بيَّن شعيبٌ لقومِهِ واقعَ الحالِ، فقد افْتَرَقُوا فرْقَتَيْنِ: فرقة آمنتْ بالذي جاءَ به، واتبعته، وطائفة لم يؤمنوا، وكفروا وأصرُّوا على كفرهم، وطلب مِنَ الذين آمنوا أن يصبروا حتى يحكم اللهُ بينهم، أي: يقضي بينهم، وقد حكم اللهُ تعالى بينهم، فقد أهلك الكافرين ونجَّى المؤمنين، واللهُ -تعالى- خيرُ الحاكمين.

٩- شعيب يردُّ على قومه:

ردّ شعيبٌ على قومِهِ ردّاً واضحاً قويّاً، فقال لهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف:٨٨] أي: كارهين لما عرضتموه علينا من الخروج من القرية أو العودة إلى دينكم وملتكم.

وقال لهم: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩].

جنـــــة السنـــــة

قال شعيبٌ عليه السلام لقومه: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم﴾ لأنَّ ملتهم كلها كذبٌ وزورٌ وبهتانٌ، والعائدُ إليها عائد إلى أعظم الكذبِ والافتراءِ، والكذبُ: عَدَم مطابقةِ الكلامِ للواقعِ في نفس الأمر [أضواء البيان: ٣/ ٥٩٩].

وقوله: ﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾ هذا يدلُّ على أنَّ الذين آمنوا مع شعيبٍ كانوا كافرين، فقوله: ﴿نَجَّىٰنَا﴾ أي: أنقذنا من الكفرِ وعبادةِ الأوثان.

وقوله: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾ أي: ما ينبغي لنا أنْ نعودَ فيها إلاَّ أنْ يكون قد سبقَ في علمِ الله وفي مشيئته أن نعودَ فيها، فإنَّ لا يحدثُ شيءٌ إلا بمشيئةِ الله، وقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ أي وَسِعَ علْمُهُ كلَّ شيءٍ، وهو يعلم الموجودَ، ويعلم المعدومَ لو وجد كيف يكونُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف:٨٩] أي: لا نتوكل إلا على الله وَحْدَهُ جلَّ وعلا، وقوله: ﴿ٱفۡتَحۡ﴾ أي: احكم ﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ ومعلومٌ أنَّ اللهَ لا يحكمُ إلا بالحقِّ. ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: خيرُ الحاكمين، وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [سبأ:٢٦].

١٠- إهلاكُ اللهِ قومَ شعيبٍ عليه السلام:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن السادة والزعماءَ سمّاهم اللهُ بـ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ من كفّارِ مدينَ قالوا لقومِهِمْ: لئن اتبعتم شعيباً إنكم لخاسرون ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأعراف:٩٠]. وقد أقْسَمَ الملأ الذين كفروا من قومِ شعيبٍ، على صِدْقِهِمْ فيما قالوه، ودلَّ على القَسَمِ اللامُ التي وقعتْ في جواب القسم في قوله: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ﴾ والخسران الذي ينالهم باتباعهم شعيباً ما يفْقِدُونَهُ من مالِ الناس الذي كانوا يأخذونه ظلماً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّهُ أخَذَتْهُمْ الرجفةُ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف:٩١]. والرجفةُ: الزلزلةُ القويةُ التي حركت الأرضَ من تحتهم. وقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ أي: موتى منكبِّين على وجوهِهِم. وسببُ هذه الرَّجْفَةِ صَيْحَةٌ جاءتهم من السماء، كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود:٩٤] وأعلمنا ربنا في سورة الشعراء أنهم أخذتهم الظُّلَّةُ ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء:١٨٩]، فعبر عن سبب هلاكهم بالرجفة تارةً، وتارةً بالصحية، وتارةً بالظلّة، وهذا كلُّهُ وقَعَ لقومِ شعيب.

جنـــــة السـنة

وحَكَمَ اللهُ تعالى أن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ [الأعراف:٩٢] وفي هذا ردٌّ على الملأ الكفارِ من قومِ شعيبٍ الذين قالوا ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠﴾ فتبين في الخاتمة أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٩٢﴾ والذين اتبعوه كانوا هم الفائزين.

وقولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ﴾ أيْ: كأن لم يقيموا فيها في نعمةٍ ورفاهيةٍ يوماً من الدهر.

وتولَّى شعيبٌ عن قومِهِ بعد أنْ أهلكهم اللهُ تعالى قائلاً: لقد أبلغتكم رسالاتِ ربي ونصحت لكم ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي ﴾ [الأعراف:٩٣] أي: خَرَجَ من بينِ أظهرهم، وأعرضَ عنهم لَّما نَزَلَ بهم العذابُ، وقال لهم: ﴿وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف:٩٣]. قال لهم: أبلغتكم رسالاتِ ربي المتضمنةِ دينه وشرعَهُ، ومحضتكم النصحَ خالصاً، فكيف آسى، أي: كيف أحزن على قوم كافرين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ النصِّ من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى إلى أهل مدينَ الذين هم أصحابُ الأيكة رسولَه شعيباً عليه السلام، فدعاهُمْ إلى عبادةِ الله وحده، وجاءَهم من عند الله بآية بيِّنة تدلُّ على صدقه.

٢- كلُّ رسولٍ كان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده، ويدعو قومه إلى التخلص من المعاصي التي يقترفونها، فلوط دعا قومَهُ إلى عبادةِ الله وتركِ اللواطِ، وشعيب دعاهم إلى توحيد الله وترك التطفيف في الكيلِ والميزان، وبخس الناس أشياءَهم.

٣- كان شعيبٌ واضحَ الفهم قويَّ الحجةِ، قادراً على إيراد الحجَّة والبيان.

٤- نهى شعيبٌ قومَهُ عما يفعلونَهُ بالناس وبالمؤمنين، فقد كانوا يتهدَّدونَ الناسَ ويتوعدونهم إن هم آمنوا بشعيب، ويقومون بالدعاية الباطلةِ ضدّ ما جاء به.

٥- ذكَّر شعيبٌ قومَهُ بما أنْعَمَ اللهُ به عليهم، فقد كانوا قليلاً فكثَّرهم ربُّ العزة، وأمرهم أن يتفكروا في مآلِ الذين كفروا من قبلهم، قومِ نوحٍ، وقومِ هودٍ، وقومِ صالحٍ، فإنَّهم إنْ كفروا كُفْرَهم، أهلكهم اللهُ تعالى كما أهلكهم.

جنـــــة السـنة

٦- أمر شعيبٌ قومَه أن يصبروا لحكم الله فيهم، وقد حَكَمَ الله فيهم، فأهْلَكَ الكافرينَ ونَجّى المؤمنين.

٧- خيَّر الرؤساءُ والزعماءُ من الكفارِ شعيباً والمؤمنين معه بين أمرين: إما أنْ يخرجوه من قريتهم، أو يعود هو والمؤمنونَ في ملتهم، وقد رفض كلا الأمرين.

٨- قال شعيب لقومه: إنهم إن عادوا في ملتهم يكونون قد افتروا الكذبَ على الله تعالى، وبيَّن لهم أنَّهم لن يعودوا في ملتهم الضالة أبداً إلا أن يشاء الله.

٩-كان شعيب ومن معه متوكلين على الله معتمدين عليه، وهم يواجهون قومهم.

١٠- دعا شعيبٌ والمؤمنون معه ربَّهم أن يحكم بينهم وبين الكفار من قومهم، فأنجا اللهُ المؤمنين، وأهلكَ الكافرينَ، وهذا هو حكم أحكم الحاكمين.

١١- أعلن الملأ الكفار من قوم شعيب لقومهم أنهم إن اتبعوا شعيباً سيكونون من الخاسرين.

١٢- أهلك اللهُ تعالى كفار مدين بالرجفة، فأصبحوا جاثمين هالكين، وأصبحوا هم الخاسرين، والمؤمنون بشعيب هم الفائزين.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع عشر من سورة الأعراف
سنّة الله تعالى التي أخذ بها الأُمَمَ التي أرسل إليها رُسُلَه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى عن سنَّتِهِ التي أخذ بها الأُمَمَ التي أرسَلَ إليها رُسُلَه، وأخبرنا اللهُ تعالى أنّ تلكَ الأمم لم تفقه عن الله سنته، فضلُّوا وهَلَكُوا، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يفتح على المؤمنين الصالحين بركات السماء والأرض بإيمانهم وتقواهم.

وتهدَّد المكذبين من أهل القرى أنْ ينزلَ بهم عذابَهُ في ظلمة الليل أو في وضحِ النهارِ، وبيَّن للناس أنَّه أخذَ المكذبين بذنوبهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤-١٠٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سُنَّةُ الله تعالى في الأمم التي أرسلَ إليها رُسُلَهُ:

أخْبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن سُنَّتِهِ التي أخَذَ بها الأُمم التي أرْسَل إليها رُسُلَه، فقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

[الأعراف: ٩٤-٩٥].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه ما أرسل في قريةٍ من رسولٍ إلاَّ كذَّبوه، والقريةُ المدينةُ سُمِّيتْ قريةً لاجتماعِ الناسِ فيها، مِنْ قَرَيْتُ الماءَ إذا جَمَعْتَهُ، فإذا كَذَّبتِ الأُمَّةُ رسولَها ابتلاها اللهُ تعالى بالبأساءِ والضراءِ لعلهم يضَّرعون، والبأساءُ: الفقرُ والجوعُ والجَدْبُ، والضراءُ: الأمراضُ، أي: ابتلاهم سبحانه بذلك ليضَّرعوا، أي: ليدْعُوا اللهَ ويخشعوا له، ويبْتَهِلُوا له، فالآلامُ والأوجاعُ والمصائبُ قد تعيدُ العبادَ إلى ربِّهم، فإذا لم يعُودُوا ولم يؤوبوا إلى الله عزَّ وجلَّ بدَّلَ اللهُ تعالى مكانَ السيئةِ الحسنةَ، أي: حوَّل اللهُ تعالى ما أصابهم من المصائبِ والأوجاعِ والأوبئة إلى الرخاءِ والنعيمِ والصحةِ والعافية والغنى. فبعضُ عباده يُصْلِحُه الخيرُ والنعيمُ.

والسيئةُ في الآيةِ: الشدَّةُ والبلاءُ، والحسنةُ: النعمةُ والرخاء.

وقولُهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أيْ: صحَّتْ أبدانهم، وكثرت أموالُهم، وانتشرتْ أنْعامُهم، وعظمتْ قُوَّتُهم، وعندَ ذلك يقولون غافلين عن حكمةِ ربّ العالمين: قَدْ مَسَّ آباءَنا الضراءُ والسراءُ، أي: هذا الذي أصابنا هو حالُ الدهرِ، يومٌ نُصابُ بالضراءِ والشدَّةِ والبلاءِ، ويومٌ نصابُ بالسراءِ والنعمةِ والرخاء، وقد غفل هؤلاء عن ابتلاءِ الله عبادَه بالخير والشرِّ ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عما يفعلُه اللهُ -تعالى- بأهل الأرضِ إنْ هم آمنوا واتقوا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦] وقال في موضع آخر: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣] وقال في بني إسرائيل: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة:٦٦].

وقد أخبرنا تبارك وتعالى بمصير الأمم التي لم تتَّعِظْ بالشدائدِ والنعم، فقد أخَذَهم اللهُ بغْتَةً وهم لا يشعرون ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦] أي: بكفرهم وشركهم ومعاصيهم.

٢- تهديدُ الله -تعالى- الكفارَ أنْ يُحِلَّ بهم العذابَ الذي أحلَّهُ بالأمم التي عذَّبها من قبلهم:

تهدَّدَ اللهُ -سبحانَه وتعالى- أهلَ القرى التي كذَّبتْ محمداً ﷺ أن يُنْزِلَ بهم العذابَ الذي أنزلَهُ بأهل القرى مِنْ قبلهم، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾

جنـــــة السـنة

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩]. أنْكَرَ اللهُ على الكفارِ مِنْ أهل القرى أنْ يأتيهم عذابُ الله الذي يسْتأْصِلُهُمْ بياتاً، أي: ليلاً، وهم مُسْتَغْرِقون في نومهم، وقد يأتيهم بأْسُهُ وانتقامُهُ في وقتِ الضحى، أي: عند ارتفاعِ النهار، وهم يلعبونَ، وكلُّ مُشْتَغِلٍ بما لا ينفعه يسمَّى لاعباً، فاللهُ قادرٌ على إهْلاكِهم في الليلِ حالَ نوْمِهِمْ، كما هو قادرٌ على إهلاكِهِمْ في وضحَ النهار حالَ لَهْوِهِمْ ولَعِبِهِمْ.

ثم كرَّرَ ربُّ العزة الإنكارَ عليهم بقوله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ ومكرُ الله الذي يأْخُذُهُمْ تعالى به هو استدراجُ الله لهم، بإغداقِهِ عليهم الصحة والعافية، وإنعامِهِ عليهم بنعمهِ الكثيرةِ، حتى يغْفَلوا، ويُغْرقوا في اللهو والتَّرفِ، فعندَ ذلك يأْخُذهم ربّ العزةِ سبحانه في لهوهم وغفلتهم.

وقوله: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ أما المؤمنون الذين يعملون الطاعاتِ فإنهم دائماً مشفقونَ خائفون وجِلُون من الذنوبِ التي ارتكبوها واقترفوها، فتراهم يديمون التوبةَ والاستغفارَ، ويؤوبون إلى ربِّ العزةِ سبحانه.

٣- بيَّن اللهُ للأمم التي أرسلَ إليها رُسُلَهُ أنّه لو يشاءُ لأصابهم بذنوبهم:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه بيَّنَ للذين ورِثُوا الأرضَ من بعدِ الذين هلكوا أو ماتوا أنّه لو يشاءُ أصابَهُم بذنوبهم، وطبعَ على قلوبهم، فهم لا يسمعون ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأعراف:١٠٠].

وتأتي ﴿يَهْدِ﴾ في كتابِ الله على أحدِ معنيين، الأولُ: بمعنى نُبيِّنُ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧]، أي: بيَّنَّا لهم، فاختارُوا العمى على الهدى، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣]، أي: بيَّنَّا الطريقَ الذي يَسْلكه، فيكونُ شاكراً أو كفوراً، ومنه الآية التي في هذا النصِّ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ﴾، أي: أولم يُبيِّن اللهُ للأممِ الذين أورثَهم الأرضَ بعد أنْ أهْلكَ أهْلَها الغابرينَ الذين كذَّبوا رُسُلَه، واستخلفهم في الأرضِ، وهو سبحانه قادرٌ على أنْ يصبهم ويهلكهم كما أصاب وأهلك مَنْ قبلهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المرسلات:١٦-١٨].

جنـــــة السـنة

ويُطلَقُ الإرثُ عند العرب: على انتقالِ الشيءِ من ميتٍ إلى حيٍّ، وقوله تعالى: ﴿يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ أي: يخلُفُونَ أهْلَها الذينَ هلكوا، ويسكنونَ الأرضَ بعدهم، فاللهُ يهلكُ أقواماً ويبيدُهم، ويُسْكنُ الأرض من بعدهم قوماً آخرين.

وقوله: ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لو نشاءُ أهلكناهم بسببِ ذنوبهم، والذنوبُ الكفرُ والمعاصي التي ارتكبوها.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ والطَّبْعُ على القلوبِ يكون بالخَتْمِ عليها حتى لا يَصِلَ إليها شيءٌ، ولا يخرجُ منها شيءٌ، كالظرف أو القارورةِ إذا ختمتْ لم يدخلْ ولم يخرجْ منها شيءٌ.

والسماعُ في القرآنِ وفي اللغة نوعان: الأول: ما سمعه الإنسانُ، وسمعته أذناه فوعاه قلْبُه، والثاني: سماعُ القَبُولِ والاستجابةِ ومنه قولنا في الصلاةِ: «سمع اللهُ لمن حمده» أي: لمن أطاعه واستجابَ له. وقولُهُ في الآية: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝١٠٠﴾ سماعُ القبولِ والاستجابة، كقوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [هود:٢٠] وقوله: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ۝١٠١﴾ [الكهف:١٠١] وعدمُ قدرتهمْ على السمعِ لا يأتي إلا بسببِ ذنبٍ من ذنوبهم، قالَ تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:١٥٥]، وقال: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥].

٤- قصَّ اللهُ -تعالى- أخبارَ الأممِ الماضية:

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ [الأعراف:١٠١] المشارُ إليه بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ﴾ ما قصَّهُ اللهُ تعالى علينا فيما سَبَق، فقد قصَّ علينا خبرَ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ، والمرادُ بقولِهِ: ﴿مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي: مِنْ أخبارها، وهذا القصصُ الذي قصَّهُ اللهُ تعالى علينا من أنباءِ القرى، يُدَلُّ على كمالِ قدرةِ الله، كما يدلُّ على مدى صَبْرِ رُسلِهِ وأنبيائِه، ويدلُّ على عَدْلِ الله وإنصافِهِ وشدَّةِ بَطْشِهِ، وإهلاكِهِ الظالمين، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف:١٠١] أي: جاءَتهم بالحججِ البيناتِ التي تدلُّ على صِدْقهم في أنَّهم مبعوثون مِنْ عندِ الله.

وقوله: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [الأعراف:١٠١] فما كانوا ليؤمنوا بما جاءَتهم به الرسلُ بسببِ تكذيبهم بالحقِّ أوَّلَ ما وَرَدَ عليهم، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام:١٠٩-١١٠].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ۝١٠١﴾ [الأعراف:١٠١] أي: مثلما طَبَعَ اللهُ تعالى على قلوبِ الأمم الذين كذَّبوا رُسُلَهُمْ يطْبَعُ اللهُ على قلوبِ الكافرين طبعاً مانعاً لهم مِنَ الإيمانِ، لتكذيبهم السابقِ ومبادرتهم إلى الكفر والعياذ بالله.

وقولُهُ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ [الأعراف:١٠٢] أي: وما علمنا لأكثر الأمم السابقةِ من عهدٍ، والعهدُ ما يجبُ المحافظةُ عليه والوفاء به، ومن العهود التكاليف التي كلفنا الله تعالى بها، وهذا يدلُّ أنَّ عدداً قليلاً منهم لَهُ عهد، لأنه أخبر أنَّ أكثرهم لا عهد له.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ۝١٠٢﴾ [الأعراف:١٠٢] والفسق في لغةِ العربِ: الخروجُ عن الشيءِ، تقول: فَسَقَ عن الطريقِ، أي: خرجَ عنه، وفي الشرعِ: الخروجُ عن طاعةِ الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠] أي: خرجَ عن طاعةِ الله، أي: بالكفرِ أو بالذنوبِ التي ليست كفراً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا أمعنا النظر في آيات هذا النصِّ وَجدْناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعمل:

١- سنَّةُ الله تعالى في الأُمَمِ التي كَذَّبَتْ رسلَها أنْ يأْخُذَ أهلها بالبأساءِ والضراءِ لعلهم ينيبون إلى الله، ويرجعون إليه، فإنْ لم يفعلوا فتحَ عليهم أبوابَ نِعَمِهِ، فإنْ لم يؤوبوا إلى الله أخذَهُم اللهُ تعالى فجأةً بالعذابِ.

٢- الكفارُ لم يفقهوا عن الله تعالى سنَّتَهُ التي أخذ بها خَلْقَهُ، وظنّوا أنَّ إصابتَهم بالبلاءِ والرخاءِ هو حالٌ يأخذُ الناسَ مِنْ غيرِ حكمةٍ وتقديرٍ.

٣- إذا آمنَ الناسُ، والتزموا شَرْعَ الله تعالى أنْزَلَ عليهم الماءَ مِنَ السماء، وأنبتَ بركاتِ الأرضِ، فإذا كفروا وكذّبوا أخذَهم ربُّ العِزَّةِ بذنوبهم.

٤- تهَدَّدَ اللهُ تعالى الكفرةَ المكذبين أنْ يُنْزِلَ بهم عذابَه، فقد ينزلُه بهم في ظلمةِ الليلِ وهم يَغُطُّونَ في نومهم، وقد ينزلُهُ بهم في وقتِ الضحى، وهم يلعبون، وتهدّدهم فقال موبخاً لهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩٩﴾.

٥- بيَّن اللهُ تعالى لعبادِهِ الذين وَرِثُوا الأرضَ بعد الأُمَمِ التي خَلَتْ مِنْ قبلهم أنَّه لو شاءَ أهلكهم بذنوبهم، وخَتَمَ على قلوبهم، فلا يسمعون.

جنـــــة السـنة

٦- قصَّ علينا ربُّ العزةِ فيما مَضَى مِنَ السورةِ طرفاً مِنْ أخبارِ الأمم التي كذَّبَتْ رسلها، وأخبرنا أنَّ الرسلَ جاءَت أممها بالأدلة البيِّنةِ، فكفروا وكذبوا.

٧- أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه لم يَجِدْ لأكثرِ المرسل إليهم مِنْ عهد، بلْ أكثرُهُمْ كافرون ضالون فاسقون.

جنـــــة السـ‍ـــنة

النص القرآني الخامس عشر من سورة الأعراف
طرف من قصة نبيِّ الله موسى عليه السلام

أولاً: تقديم

قصَّ اللهُ تعالى علينا طرفاً من قصةِ كليمِهِ موسى عليه السلام ، وقدْ أطالَ اللهُ في عَرْض هذه القصة، فذكر منها حلقاتٍ كثيرةً، وهذه الحلقاتُ تتناول مسارين اثنين، الأولُ منهما: يتعلَّقُ بموسى وفرعون، وكيف بَلَّغَ موسى فرعونَ رسالة ربِّه، وما جرى له من وقائع حتى هلاكِ فرعونَ وجندِه.

والثاني منهما أوْرد فيه ربنا ما جرى لموسى مع قومِهِ بعد إنجائِهم مِنْ فرعونَ عبر البحر الذي شَقَّه لهم، وفي كلِّ واحدٍ مِنَ المسارين عدةُ حلقاتٍ.

وقد استغرقَ هذا القصصُ تسعةَ نصوصٍ، وقد بلغ مجموعُ آياتِ هذا القصص في النصوصِ كلِّها ثمانٍ وستين آية.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾﴾ [الأعراف:١٠٣-١١٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ الله تعالى موسى إلى فرعونَ وملئه:

أَخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ الأولى مِنْ هذا النصِّ بقصةِ موسى عليه السلام مع فرعونَ على وجْهِ الإجمالِ، فقال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف:١٠٣] أخبرنا ربُّنا -عزَ وجلَّ- أنه أرْسَلَ عبدَهُ ورسولَهُ موسى عليه السلام مِنْ بعد الرسلِ الذين حدَّثَنا عنهم في هذه السورة، وهم نوحٌ،

جنـــــة السـنـــــة

وهودٌ، وصالحٌ، ولوطٌ، وشعيبٌ، أرسلَه إلى طاغيةِ مصر، وهو فرعون وملؤه، وفرعونُ اسمٌ لكلِّ حاكمٍ حكم مصر في عصر موسى، وملؤُه: أشرافُ قومِهِ مِنَ الزعماءِ والرؤساءِ، أرسلَهُ تعالى مصحوباً بالآياتِ البينات المعجزاتِ الدّالاتِ على صدقِ موسى ﷺ، ومنها العصا التي تتحوَّلُ إذا ألقاها إلى ثعبانٍ مبينٍ، واليدُ التي إذا أخرجها من جيبه صارتْ بيضاءَ للناظرين، والجرادُ والقمَّلُ والضفادعُ والدم، فظلموا بها، أي: كفروا بها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤].

والظلمُ في لغةِ العربِ: وَضْعُ الشيءِ في غير موضعه، وحقُّ الآياتِ أن يؤمنوا بها، فكفروا بها، ووضعوا بذلك الشيءَ في غير مَوْضعه.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: انظر إلى ما حلّ بهم مِنَ الفسادِ والدمارِ والخسارِ، فقد أغرق اللهُ فرعونَ وملأه بمرْأى من موسى وقومِهِ.

٢- موسى ﷺ يُبلِّغُ فرعونَ رسالةَ ربِّه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى جاءَ طاغيةَ مصرَ فرعونَ، وبلّغه رسالةَ ربه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف:١٠٤-١٠٥]. جاءَ موسى فرعونَ في قصْرِهِ ومقرِّ حكمه، وناداه بلقبه، وأخبره بأنه رسولٌ من ربِّ العالمين، أي: مِنَ عند الله، خالقِ الوجودِ، وقوله: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي: جديرٌ وخليقٌ بأنْ لا أقول على الله إلا الحقَّ. وأصلُ ﴿حَقِيقٌ﴾ في لغة العرب تدلُّ على الثبوت وعدم الاضمحلال، أي: رسالتي ليس فيها شكٌّ، وأنا رسولٌ من عندِ الله حقّاً وصدقاً، و﴿ٱلْحَقَّ﴾ هو الثابتُ الذي ليس بزائل، ولا مُضْمَحِلٍّ، وعكسُهُ الباطلُ.

وأخبر موسى ﷺ فرعون أنه جاءَه وملأه بآيةٍ بيِّنةٍ، أي: معجزةٍ مِنْ عند الله تدلُّ على صِدْقِهِ فيما جاءَه به، وطالبه أنْ يطلق معه بني إسرائيل، وكان فرعونُ وملؤه قد أذلُّوا بني إسرائيل، وألزموهم بالشاقِّ مِنَ الأعمال ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف:١٠٥].

٣- فرعون يطلبُ من موسى أنْ يريه الآياتِ، وموسى يعرضُها عليهم:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ موسى بعد أنْ أخبر فِرْعونَ وملأه أنه جاءَه بالآياتِ التي تدلُّ على صدقِهِ، طلبَ منه فِرعونُ أن يريه الآياتِ التي أُرْسِلَ بها ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ

جنـــــة السـنـة

فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٦] يعني إنْ كنتَ صادقاً فيما أخبرتنا به أنك جئتَ بمعجزةٍ تدلُّ على صدقِك فهاتِ هذه الآية.

فسارعَ موسى ﷺ بإراءتِه وملئه آيتين عظيمتين ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٧-١٠٨] ألْقى موسى ﷺ عصاه الجامدة المخلوقة من خشبٍ أصمّ، فإذا بها تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ، والثعبانُ المبين: الحيَّة الضَّخْمَةُ الذكر، وهو أعظم الحياتِ، و﴿مُّبِينٌ﴾ أي: البيِّنُ الظاهرُ الذي لا يخفى أنَّه ثعبان.

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ أي: أدخل يده في جيبه، ثم أخرجها، فإذا هي بيضاءُ تتلألأ.

٤- الملأ من قوم فرعونَ يطلبون من فرعون أنْ يأتي بالسحرةِ لمواجهةِ موسى:

لما رأى الملأُ مِنْ قومِ فرعونَ الآياتِ العظيمةَ التي جاءَهم بها موسى تباحثوا فيما بينهم، فقال فريقٌ منهم: هذا -يعنون به موسى- ساحرٌ عليم، يريدُ أن يُخْرِجَكُم من أرضكم بسحرِه، وهم غيرُ صادقين فيما قالوه، فموسى ﷺ يريد إخراجَ بني إسرائيلَ معه إلى الأرضِ المقدسة، وقولهم: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ أي: كيفَ يحسنُ بنا التصرفُ مع هذا الرجل الذي يطلب منا أنْ نطلقَ معه بني إسرائيل ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٠٩-١١٠].

وطلبَ فريقٌ من الملأ من فرعونَ أن يُرْجِئَ موسى وأخاه، ويرسل في المدائن حاشرين، يأتوه بكلِّ ساحرٍ عليم ﴿قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١١-١١٢].

ومعنى أرْجِهْ: أي: أمْهِلْهُ وأخاه، وأنظرهما، وابعثْ إلى المدائن التي تحت حكمك يأتوكَ بكلِّ ساحرٍ عليم.

لقد ظنَّ الملأ أنَّ هذا الذي جاءَ به موسى ﷺ هو من نوع السحر الذي كان منتشراً في ديارهم، فأرادوا أن يبطلوا ما جاءَ به موسى ﷺ بمواجهة السحرةِ له، وإتيانهم بمثل ما جاءَهم به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أرسلَ اللهُ تعالى موسى بعد رسله: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب.

جنـــــة السـنة

٢- أرسلَ اللهُ تعالى موسى وأخاه هارون إلى فرعونَ وملئه، طالبين منه أن يطلقَ معهم بني إسرائيل.

٣- جاء موسى فرعونَ وملأَه بالآياتِ البيناتِ الدالاتِ على صدقِهِ وصدقِ أخيه، فأراهم العصا التي تتحوَّلُ إلى ثعبانٍ عظيمٍ، واليد التي تخرجُ بيضاءَ للناظرين.

٤- كذَّبَ فرعونُ وملؤُه بالآياتِ التي جاءَ بها موسى، وطلبوا من فرعونَ أنْ يحشر من مدائنه السحرةَ الكبارَ لمواجهةِ موسى وإبطالِ ما جاءَ بِهِ.

٥- ظنَّ الملأُ من قوم فرعون أنَّ ما جاء به موسى هو من جنس السحر الذي كان منتشراً في زمانهم.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني السادس عشر من سورة الأعراف

المواجهة بين موسى عليه السلام والسحرة

أولاً: تقديم

جمع فرعونُ السَّحَرَةَ، ووقعت المواجهةُ بينهم وبين موسى، فابتلعتْ عصاهُ حبالَهُمْ وعصيَّهم، فغُلِبُوا وآمنوا، فتهدَّدَهُمْ فرعونُ وتوعَّدَهم، فاعتصموا بإيمانهم، ولم يبالوا بما تهدَّدَهم به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ
ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ
سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ
عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ
صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾
لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ
مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١٢٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام يغلب السحرة في الميدان:

طلبَ الملأُ من قوم فرعونَ أن يرسلَ إلى المدنِ الخاضعةِ لحكمه، فيجمع منها السحرةَ، وفعل فرعونُ ما أشاروا به ﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الأعراف:١١٣-١١٤].

جاءَ السحرةُ فرعونَ فرحين جَذلين مسرورين، وقد علموا مدى حاجةِ فرعونَ إليهم، فقالوا له: إنَّ لنا لأجراً -والأجرُ الهدايا والأموال والهبات- إذا نحنُ غلبنا موسى وأبطلنا ما جاءَ به من السحر؟ قال: نعم، لكم ذلك كلُّه، ولكم فوقَه القربى مِنِّي، فتصبحوا عندي أعزَّاءَ وجهاءَ.

جنـــــة السـنـــة

هذا غايةُ ما يطمعُ فيه السحرةُ: المالُ والجاهُ، بخلافِ موسى فإنه صاحبُ رسالةٍ، يريدُ أنْ يَعْبُدَ العبادُ ربَّهم الواحدَ الأحدَ.

وجاء موسى والسحرةُ إلى الميدانِ، وجُمِعَ الناسُ في يوم الزينة، ووقف موسى والسحرةُ في الساحةِ، وخيَّرَ السحرةُ موسى بين أنْ يلقيَ عصاهُ أولاً أو يُلْقُوا هم عصيَّهم، ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الأعراف:١١٥].

واختار موسى أن يكونَ السحرةُ هم الذين يبدَؤُون بإلقاءِ عصيِّهم ﴿ قَالَ أَلْقُوا۟ ﴾ [الأعراف:١١٦].

فلما ألقَوْا عصيَّهم سَحَرُوا أعينَ الناس، أي: خدعوها بما جاؤوا به، فخُيِّلَ للناس أنَّ تلك الحبالَ والعصيَّ حياتٌ حقيقةٌ، واسترهبوا الناسَ، أي: أخافوهم وأفْزَعوهم، وجاؤوا بسحرٍ عظيم ﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف:١١٦].

عند ذلك أوْحَى ربُّ العزة إلى موسى أنْ يلقيَ عصاه، فإذا هي تتحولُ إلى ثعبانٍ مبينٍ حقيقةً لا تخيُّلاً، وإذا هي تتقدم إلى تلكَ الحبال والعصي التي تملأ الميدان، فتأخذ بابتلاعها واحدةً بعد الأخرى حتى أتت عليها كلِّها، فلم يبقَ منها في الميدان شيءٌ، وبقيتْ فيه وحدها ﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [الأعراف:١١٧].

وهناك ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَـٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [الأعراف:١١٨-١٢٢].

لقد ظهر الحقُّ في الميدان، وكان في الميدانِ فرعونُ وملؤُه، وأهلُ المدينة جميعُهُمْ، وقد شاهدوا جميعُهُمْ أنَّ فرعونَ قد غُلِبَ، وأنَّ سحَرتَهُ قد غُلِبوا، وبطلَ كلُّ السحرِ الذي عملوه، وقضتْ عصا موسى عليه، فلم يبقَ منه شيء، وبقيت أفعى موسى وحدها في الميدان، لتشهد للملك الواحدِ الديانِ.

وهزَّت المفاجأةُ السحرةَ، فهذا الذي فعلته عصا موسى، ليس سِحْراً، ولا يمكن أنْ يوصَفَ بالسحرِ، هذه العصا آيةٌ من عندِ الله غالبةٌ قاهرةٌ، ولذلك فقد هزَّت الواقعةُ السحرةَ في أعماقهم، وزلزلتْ كيانهم، لقد غُلِبُوا، وأصبحوا صاغرين أذلاء مقهورين، وزال السّحرُ من أنفسهم، واستنارتْ قلوبُهُمْ بالإيمان، وخضعت للواحدِ الدَّيان، وخَرُّوا ساجدين لله ربِّ العالمين ربِّ موسى وهارون.

جنـــــة السـنة

وهزَّ سجودُ السحرةِ فرعونَ، فالسحرةُ أعظمُ الناسِ علماً بما جرى، فالناسُ في الميدانِ رأوا الواقعةَ، وزادَ يقينُ الناسِ، عند رؤيتهم السحرةَ وهم أعلمُ الناسِ بالسِّحْرِ يسجدون، ويقرُّون بأنهم غُلِبوا، وصرَّحُوا بإيمانهم، فخشيَ فرعونُ أن يَفْلِتَ الأمرُ مِنْ يديه، وخشيَ أن يؤمن الناسُ، والباطلُ لا يعدم جواباً يُغشِّي به دعواه، ويلبسَ على الناسِ أمْرَهم.

لقد توجَّهَ فرعونُ إلى السحرة المؤمنين الذين سَجَدُوا لله ربِّ العالمين، وأعلنوا أمامَ الملأ إيمانَهُمْ، فتهدَّدَهُم وتوعدهم، واتهمهم بما هم منه بُرآء، ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٢٣-١٢٤].

قال فرعونُ للسحرة ليرهِّبَهم ويرهِّب من يخشى إيمانَهُمْ مِنَ الناس: آمنتم بموسى قبل أن آذن لكم، ففرعونُ يجعلُ مِنْ نفسِهِ حاكماً لا يسمحُ لواحدٍ بالإيمانِ بالله ربِّ العالمين إلا إذا أذِنَ له هو أوَّلاً، وهذا طغيانٌ ليس فوقه طغيانٌ، فالله خلقَ العباد لعبادته وحْدَهُ لا شريكَ له، وليس مِنْ حقِّ أحدٍ أن يمنعَ أحداً من الإيمانِ به، ومن فَعَلَ ذلك فاللهُ حسيبُهُ، وسيأخذُه أخْذَ عزيزٍ مقتدرٍ.

واتهم فرعونُ السحرةَ أنَّ إيمانهم هذا كان عن تواطؤ بينهم وبين موسى، فزعم كاذباً أنهم اتفقوا على مواجهةِ موسى، ثم أظهروا أنهم مغلوبون، وأعلنوا إيمانهم، ليقنعوا أهل المدينة بالخروج منها مع موسى ﷺ، وفرعونُ يعلمُ أنَّ ذلك كلَّه كذبٌ وافتراءٌ، فالسحرةُ جَمَعَهُمْ فرعونُ من مدنٍ كثيرةٍ متفرقةٍ، ولم يكن لهم صلةٌ بموسى وأخيه، ولم يلتقوا به إلا في الميدان، وعندما جاؤوا فرعونَ قالوا له: أَإنَّ لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، فوعدهم مع الأجر بالقربى والزلفى منه.

وتهدَّدَ فرعونُ السحرةَ المؤمنين بأنْ يُقطِّع أيديَهم وأرجلَهم مِنْ خلافٍ، ثم يُصَلِّبهم على جذوعِ النخل، وتقطيع الأيدي والأرجل مِنْ خلافٍ يكون بقطعِ اليد اليمنى والرجلِ اليسرى، أو قطع اليد اليسرى والرجل اليمنى.

ولم يأبه السحرةُ الذين حَلَّ الإيمانُ في قلوبهم إلى تهديدِ فرعونَ ووعيدِهِ، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف:١٢٥-١٢٦].

قالوا لفرعونَ بعد أن تهدَّدَهم: إنَّا لا نعبأ بما تريد أن تأخذنا به، فنحنُ إلى ربِّنا منقلبون، أي: إنَّا راجعون إلى الله تعالى، وسيحاسبنا ويحاسبك على ما قدمنا، ﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ ﴾ أي: هذا

جنـــــة السـنة

الذي تريد فعله بنا هو بسبب إيماننا بآياتِ ربنا التي جاءَتنا، أي: وما تعيبُ علينا شيئاً ولا تكره منا شيئاً فعلناه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾، ودعَوا الله تبارك وتعالى أن يفرغ عليهم الصبر، أي: دَعَوْه أن يصبَّ عليهم الصبرَ صَبّاً، فيثبتهم على إيمانهم، وسألوه أنْ يتوفاهم مسلمين مؤمنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حَشَرَ فرعونُ السحرةَ لمواجهةِ موسى وإبطالِ ما جاءَ به من عندِ الله تعالى.

٢- كان السحرةُ يطلبون على ما يريدون القيامَ به الأجرَ مِنَ المالِ والجوائزِ والهدايا، ووعدهم فرعونُ بذلك، وبأن يُرَقِّيهم إليه.

٣- خيَّرَ السحرةُ موسى في الميدانِ بَيْنَ أن يُلْقُوا هم أولاً، أو يكونَ هو البادئُ بالإلقاءِ، فأمرهم أنْ يكونوا هم البادئين.

٤- جاءَ السحرةُ بسحرٍ عظيمٍ، فقد خُيِّلَ للناسِ أنَّ ما جاؤوا به مِنَ العصيِّ والحبالِ كان حياتٍ حقيقةً.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يلْقي عصاهُ، فابتلعت حبال السحرةِ وعِصِيَّهم، فزالتْ مِنَ الميدانِ، وبقيت فيه وحدها.

٦- أبطلَ اللهُ بعصا موسى سِحْرَ السحرةِ، وغُلِبَ فرعونُ وسحرتُه، وآمن السحرةُ، وخَرُّوا ساجدين لربِّ العالمين.

٧- تَهدَّدَ فرعونُ السحرة، واتهمهم بأنَّ ما فعلوه في الميدانِ كان عن تخطيطٍ وتدبيرٍ سابقٍ بينهم وبين موسى، وتهدَّدَهم بأن يقطِّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف، ويصلبهم في جُذوعِ النخل.

٨- لم يأْبه السحرةُ لما تهددَّهم فرعونُ به، فقد أعطاهم اللهُ اليقين الذي ملأ قلوبهم إيماناً، وأعلنوا أنَّهم راجعون إلى الله، ودَعَوْا رَبَّهم أن يصبِّرهم على ما تهدَّدهم فرعونُ به، ويتوفاهم مسلمين.

٩- إذا آمن الساحرُ وتابَ وأنابَ قُبِلَتْ توبتُه، كما آمن سحرةُ فرعونَ.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع عشر من سورة الأعراف
ما وقع بين موسى وقومه وبين فرعون وملئه بعد مواجهة موسى للسحرة

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص تُحدِّثنا عما جرى بين موسى وقومِه وفرعونَ وملئه منذ أنِ انتهت المواجهةُ بين موسى والسحرةِ وإلى أن أنْجى اللهُ -عزَّ وجلَّ- بني إسرائيل، وأغرق فرعونَ وجنده في البحر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ
أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ
ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ
بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا
جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ
لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ
إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

[الأعراف:١٢٧-١٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- الزعماءُ والرؤساءُ من قوم فرعونَ يلومونه على ترك موسى يُفْسد في الأرض:

أَخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملأَ مِنْ قومِ فرعونَ وجَّهوا اللومَ لفرعون، وقالوا له: أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض، ويتركوا عبادتك وعبادة آلهتك، ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٢٧].

جنـــــة الســـــنة

وهذا الذي قاله الملأُ مِنْ قوم فرعون مِنْ أعجبِ العجبِ، فقد زعمَ الملأُ أنَّ تركَ فرعونَ لموسى وقومِهِ وعدمَ بطشِهِ بهم هو إفساد في الأرضِ، وعَدَّ من إفسادِ موسى ترك عبادته وعبادة آلهته.

والعجبُ الذي في كلامِهِمْ أنَّهم عَدُّوا تَرْكَ النبيِّ الصالح والمؤمنين معه عبادة فرعون وآلهته، وهم الصالحون الأتقياء هو مِنَ الفساد في الأرضِ، ومرادُ الملأ مِنْ وراءِ كلامهم هذا إغراء فرعونَ بقتلهم والبطش بهم.

وشبيه بكلام قوم فرعون ما يزعمه الكفرةُ الفجرةُ اليومَ منْ أنَّ العملَ بكتابِ الله وسنَّةِ رسولِ الله ﷺ إفسادٌ في الأرض.

وقد استجاب فرعونُ لما أغراه به الملأ من قومه، فـ ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف:٢٧].

أيْ: سنعودُ إلى ما كنَّا نفعله ببني إسرائيل، فقد كان فرعون قبلَ مولدِ موسى وعند ولادته، يُذَبِّحُ الذكورَ مِنْ أبناءِ إسرائيل، ويستحيي النساءَ، فأخبر أنَّه سيعودُ مرةً أخرى لفعل ذلك بهم، ليُضْعِفهم، ويهينهُم، ويُذِلّهم.

٢- موقفُ موسى ﷺ مما أصابَ بِهِ فرعونُ قومَهُ:

فلما رأى موسى ﷺ ما يفعلُه فرعونُ بقومِهِ أمَرَهم بالاستعانةِ بالله والصبرِ على بلائِهِ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

أي: اطْلُبُوا العونَ مِنَ اللهَ على هذا الجبَّارِ الكافرِ، وترَقَّبُوا ما عِنْدَ الله مِنَ الفرجِ، وأمرهم أنْ يصبروا على البلاءِ العظيمِ الذي أنزلَه فرعونُ بهم، وأخبرهم أنَّ الأرض لله في مصرَ وغيرِها، يجعلُها -تبارك وتعالى- في آخرِ الأمرِ لمن يشاءُ مِنْ عبادِه، والعاقبةُ للمتقين، والعاقبةُ ما يؤولُ إليه الحالُ، وهي العاقبةُ الحسنةُ، والمتقون هم الذين يخافون اللهَ، ويمتثلون أمره، ويجتنبون نهيه.

فـ ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٢٩]. شكى لَهُ قوْمُهُ ما أصابَهُمْ قبل أنْ يكون فيهم، ومن بعد ما جاءَهم، فقد كان فرعونُ يذبِّح أبناءَهم ويستحيي نساءَهم، وعادَ إلى ذلك مرّة أُخرى، وأخذهم فرعونُ بالأعمالِ الشاقةِ، فكانوا يُشيِّدون البنيانَ، ويزرعون الحقول، ويرْعَوْنَ الدوابَّ، فـ ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٩].

جنـــــة السـنة

قال لهم: عسى ربّكم -تبارك وتعالى- أنْ يدمِّر عَدُوَّكم ويهلكه، يريد فرعونَ وقومَهَ، ويستخلفكم في الأرضِ، أي: يورثكم إيَّاها، ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي: يبتليكم لينظر كيف تعملون، أي: هل تستقيمون على أمرِ الله أم تنحرفون.

وهذا يدلُّ على أنَّ الحياةَ الدنيا موضعُ اختبارٍ وابتلاءٍ، هل يطيع العبادُ ربَّهم أم ينحرفون؟!!

٣- **امتحانُ ربِّ العبادِ فرعونَ وقومَه بألوانِ العذابِ:**

أقْسَمَ ربُّ العزةِ أنّه أخَذَ فرعونَ وقومَهُ بألوانِ العذاب، لعلَّهمْ يؤوبون إلى الله، ويتضرَّعون لَهُ، وينيبون إليه سبحانه ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٠].

والسِّنونَ التي أخَذَ اللهُ فرعونَ وقومَه بها: الجدبُ والقحطُ، وقلةُ الأمطارِ، والمرادُ بنقصِ الثمراتِ قلةُ الزروعِ والثمارِ، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ أي: يتعظون.

وأخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنهم ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأعراف:١٣١].

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنَّ فرعونَ وقومَه إذا جاءَتهم الحسنةُ، وهي الخصبُ وكثرةُ المطرِ وكثرةُ الأرزاقِ والعافية، ﴿قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ﴾ أي: أُعْطيناها لما لنا عند الله من الكرامةِ والفضلِ.

وإذا أصابَتْهم السيئةُ، وهي الجَدْبُ، وقِلَّةُ الأرزاقِ، وكثرةُ الأمراضِ تطيروا بموسى ومن معه، أي: تشاءَموا بهم، ويقولون لهم: هذه الآفاتُ والمصائبُ التي نزلت بنا بسبب شُؤْمِكم، وقد قالَ الكفارُ لرسولِنا ﷺ مثلَ ذلك، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ [النساء:٧٨]. وقال قوم صالحٍ له وللمؤمنين معه: ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [النمل:٤٧].

وقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ معنى طائركم: أي الطائرُ المشؤومُ الذي جاءَتكم البلايا من عند رَبِّكم بسببه هو كفركم بالله ومعصيتكم له وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي: لا يعلمون أنَّ طائرهم بسبب كفرهم، فيكذبون على الله، ويتقولون على موسى ومن معه أن ما أصابهم بسبب شؤمهم.

جنـــــة السـنة

وقالَ قومُ فرعون لموسى: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف:١٣٢]، أيّ شيءٍ تأتينا به كائناً ما كان من آية ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ أي: لتصرفنا بها عن ديننا ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ أي: لا نؤمن لك بوجهٍ مِنَ الوجوه، ولا حالٍ من الأحوال.

٤- إرسال الله تعالى على فرعون وقومِهِ الطوفانَ والجرادَ والقمَّلَ والضفادعَ والدم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عندما تمرَّد قومُ فرعونَ هذا التمردَ العظيمَ، وعاندوا هذا العنادَ الكبير عاقبهم ربُّ العزَّة بعقوباتٍ شديدةٍ ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف:١٣٣].

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أرسلَ عليهم آياتٍ متتابعاتٍ، كلما وعدوا موسى بالاستجابة إلى طلبه، وتحقيق ما جاءَ به، رُفِعَ عنهم العذاب، فإذا نكصوا وعادوا إلى ما كانوا عليه أرسل اللهُ عليهم آيةً أخرى.

أرسلَ اللهُ عليهم أولاً الطوفانَ، والطوفانُ ما تُحْدثُهُ الأمطارُ الغزيرةُ حتى أغرقتْ ديارهم وبلادهم، وعطَّلت حرْثَهم وزرعهم، فلما وعدوا موسى بتلبية طلبه رُفع عنهم، فلما نكصوا أرسلَ اللهُ عليهم الجراد، فأكل زروعَهُم وأشجارَهُمْ، وخَرَّبَ بساتينهم وحدائقهم، فلما وعدوا موسى بالاستجابة له دعا لهم، فرفع عنهم، وهكذا كان الحال عندما أنزلَ اللهُ بهم القُمَّلَ والضفادعَ والدم، والقمَّلُ حشرة معروفة مؤذية، والضفادعُ حيوانٌ معروفٌ أيضاً، سلَّطَهُ اللهُ عليهم، فدخل عليهم بيوتهم، وملأ ساحاتِهم ومزارعَهُمْ، والدمُ هو الدم المعروف، كان كلما أرادوا أن يشربوا الماءَ يتحولُ إلى دمٍ أحمر قانٍ عَبيط.

وكان قوم فرعونَ إذا حلَّتْ بهم آيةٌ من آيات العذاب، واشتدَّ العذابُ عليهم يطلبون من موسى أنْ يدعو ربَّه بما عهد عنده، لئن كشف عنهم العذاب ليؤمنن له وليرسلنَّ معه بني إسرائيل، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف:١٣٤].

فلما كان آخِرَ أمرهم النكوثُ، وعدمُ الوفاءِ بما وعدوا به، غضب موسى عليهم غضباً شديداً، ودعا عليهم دعاءً عظيماً، ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨] وقد أجابَ اللهُ دعاءَه ودعاءَ أخيه ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩].

جنـــــة السـنة

وقال ربُّ العزة في هذه السورة: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٥] والرجز هو العذاب، والأجل الذي هم بالغوه: الموعد الذي حدَّده ربُّ العزة لإيقاع العذاب بهم.

٥- إهلاكُ ربِّ العزة فرعونَ وقومه:

أخبرنا ربُّنا العلاَّمُ الحكيم أنه انتقم من فرعونَ وقومِه، فاجتاز موسى عليه السلام ببني إسرائيلَ البحرَ، وأنجاهم أجمعين ودخلَ فرعونُ وجندُه خلفَ بني إسرائيل، فانطبق عليهم البحر، فأغرقهم أجمعين بسبب تكذيبهم بآياتِ الله عزَّ وجلَّ، وغفلتهم عما جاءَهم من عند الله ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٣٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- حرَّضَ السادةُ والزعماءُ من قوم فرعونَ فرعونَ على البطشِ بموسى وقومِهِ زاعمين أنَّ تركهم من غير عقابٍ يؤدِّي إلى إفسادِهم في الأرض، ويؤدي إلى ترك عبادته وعبادة آلهته.

٢- عادَ فرعونُ مرةً أخرى إلى قتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ واستحياءِ نسائهم لقهرهم وإذلالهم.

٣- موسى يطلبُ من قومِهِ أنْ يستعينوا بالله، ويصبروا على ما أصابهم، ويخبرهم أن الأرض لله يورثها من يشاءُ من عباده، والعاقبةُ الحسنةُ للمتقين.

٤- اشتكى قوم موسى إليه ما أصابَهُمْ وحلَّ بهم قبل مجيئه، وبعد مجيئه، فأخبرهم أنَّ اللهَ سيهلكُ عدوَّهم، وينظرُ كيفَ يعملون.

٥- أخذ اللهُ تعالى فرعونَ وقومَهُ بالمحْلِ والجدْبِ ونقصٍ من الثمراتِ لعلهم يرجعون إلى الله تعالى.

٦- كان آل فرعونَ إذا جاءَتهم الخيراتُ ادَّعَوْا أنهم يستحقّونَها، وإذا جاءَتهم السيئاتُ والمصائبُ نسبوا ذلك إلى موسى ومن معه من المؤمنين به، والصوابُ أنَّ ذلك كان يقع لهم بسبب كفرهم.

٧- قال فرعونُ وملؤُه لموسى: مهما جئتنا بآية لتقنعنا بمتابعتك، فلن نؤمن لك.

جنـــــة السـنة

٨- أرسل اللهُ على فرعونَ وقومِهِ آياتٍ من العذاب، فمن ذلك: الطوفانُ والجرادُ والقمَّلُ والضفادعُ والدمُ، فاستكبروا، ولم يؤمنوا، وكانوا مجرمين.

٩- كان فرعونُ وقومهُ كلَّما أنزل اللهُ تعالى بهم آيةً من آياتِ عقابِهِ يَعِدُونَ موسى بالإيمان بالله، وإرسالِ بني إسرائيلَ معه، ولكنهم كانوا ينكثون بعد رفع العذاب عنهم.

١٠- عندما تكرَّرَ من فرعونَ وقومِهِ نكثُهم لوعودهم، واستمروا على كفرهم، أغرقهم ربُّ العزةِ وأهلكهم ودمَّرهم.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن عشر من سورة الأعراف
إتمام الله تعالى كلمته على بني إسرائيل

أولاً: تقديم

أعلمنا ربنا -عزَّ وجلَّ- أنه أورثَ بني إسرائيلَ الأرضَ المقدسةَ التي باركَ اللهُ تعالى فيها، وأتمَّ عليهم كلمته الحسنى بصبرهم، ودمَّرَ قصورَ فرعونَ وقصورَ قومِهِ ومصانعهم، وأخبرنا ربُّنا أنَّ طائفةً من بني إسرائيلَ الذين كانوا مع موسى طلبوا منه أن يجعلَ لهم أصناماً آلهة، ليكون حالُهُمْ حالَ القومِ الذين مرُّوا بهم فرأوهم عاكفين على أصنامِهِمْ، فردَعَهم موسى، ووصفهم بالجهل، وأخبرهم أنَّ عبَّادَ الأصنام سيُدَمِّرهم الله ويدمِّرُ أصنامَهم، وعملُهم باطلٌ مضمحلٌ، وأنكر عليهم إنكاراً شديداً أنْ يطالَبوه بأن يبحث لهم عن آلهة غيرَ الله.

وامتنَّ الله على بني إسرائيل بإنجائهم من آلِ فرعون الذين يسومونَهم سوءَ العذابِ من تقتيلِ الأبناءِ واستحياءِ النساء والتكليف بالشاقِّ من الأعمال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٣٧-١٤١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أورثَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ الأرضَ بعد إهلاك فرعونَ وقومِهِ:

أعْلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه أوْرَثَ القومَ الذين كان فرعونُ يستضعِفُهُمْ بذبح أبنائِهم واستحياءِ نسائهم، وتكليفِهِمْ بالأعمالِ الشاقةِ، أورثَهم مشارقَ الأرض ومغاربها التي بارك الله تعالى فيها، وهي بيتُ المقدس وما حولها التي قال الله تعالى فيها: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ

جنـــــة السـنة

بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء:١]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقوله: ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ أي: التي أكثرنا فيها البركاتِ مِنَ المياهِ والزروعِ والثمار والمعادن، وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ والمرادُ بالكلمةِ التي صرَّحَ اللهُ بأنها تمَّتْ، أي كَمُلَتْ على بني إسرائيلَ هي المرادُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥-٦] وكانت الكلمةُ أولاً وعداً من الله تعالى لبني إسرائيل، فلما مضتْ عليهم وتحقَّقت تمَّتْ وكملت.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي: بسبب صبرهم، وهذا يدلُّ على أن الصبر سببُ الفرج، وقوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧] أخبرنا ربنا -عز وجل- أنه سبحانه دمَّر ما كان يصنعُ فرعونُ وقومُه من القصور والمصانعِ، وما كانوا يعرشون، والتدميرُ: الهلاكُ التام، وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ أي: ما كانوا ينصبونه في جنات الأعناب، ليمتدَّ العنبُ عليه، وقيل: المرادُ بما كانوا يعرشونه سقوفاً للأبنية التي يبنونها، أي: دمَّرنا ما كانوا يبنونه.

وهذه الآية تدلُّ على أن الهلاكَ لم يقتصر على إغراقِ فرعونَ وجنده في اليمِّ، بل دمَّر الله كذلك مدنَهم وأبنيتهم ومصانعهم، فقد أرسل عليها ما أهلكها.

٢- طَلَبَ الرعيلُ الأولُ من بني إسرائيل من موسى أن يجعل لهم أصناماً يعبدونها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه بعد أن جاوزَ ببني إسرائيلَ البحر، أي: بعد أن جعلهم يتخطَّونَ البحرَ، ويتعدَّونَه، وبعد أن أغرق فرعونَ وجنودَه في ذلك البحر، مرُّوا في طريقهم إلى الأرض المقدسة على قوم مقيمين على أصنامٍ لهم يعبدونها من دون الله تعالى، فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً مثل آلهةِ القوم الذين مرُّوا بهم، أي: مثل أصنامِهم ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف:١٣٨].

جنــــة السـنـــة

وعجيبٌ أن تصدُرَ هذه المقالةُ من القومِ الذين خلَّصَهُمْ موسى من ألوهية فرعونَ، الذي أغْرَقَه اللهُ أمامَهُمْ منذ وقتٍ قصيرٍ، كيف خَلَتْ قلوبُهُمْ من الإيمان الذي يعصم من الزلل، ولا شك أن الذين قالوا هذه المقالة ليسوا جميع الذين صحبوا موسى، بل بعضُهُم.

وقد أجابهم موسى جواباً قوياً جازماً، ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف:١٣٨-١٤٠]. لقد وصف موسى عليه السلام الذين طلبوا منه أن يقيمَ لهم أصناماً آلهةً بأنَّهم قومٌ يجهلون، وجاءَ بصيغةِ المضارعِ ليدلَّ على أنَّ الجهلَ مقيمٌ معهم في الحالِ والمستقبلِ لا يفارقهم.

ثم أخبر موسى الذين طلبوا هذا الطلب من قومِهِ أنَّ عُبَّاد الأصنام متبَّرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون، والمُتبَّرُ: المدمَّرُ المحرَّقُ المكسَّر، والباطلُ: الزائلُ الذاهبُ المضمحلُ الذي لا بقاءَ له، ويظهرُ هذا في يوم الدين ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

قال موسى لقومِهِ في خاتمةِ جوابه: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ وفي هذا الذي قاله نبيُّ الله موسى عليه السلام إنكارٌ شديدٌ على قومِهِ، ومعنى: أبغيكم إلهاً، أي: أطلبُ لكم إلهاً تعبدونه غير الله تعالى، وهو الذي فضَّلكم على العالمين، أي: عالمي زمانهم، ومن تفضيلهم على العالمين ما خصَّهم به من الرسلِ والكتب، وإعطاؤهم الأرضَ المقدسة، وتدمير الله عدوهم وجنده.

٣- امتنانُ اللهِ تعالى على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعونَ وتخليصِهم منه:

امتنَّ اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ بتخليصهم من آل فرعونَ، فقال: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف:١٤١].

قال اللهُ -تعالى- لبني إسرائيل: اذكروا نعمتي عليكم إذا أنجيتُكُم من فرعونَ وآلِهِ فقد كانوا يسومونكم، أي: يذيقونكم العذابَ السيئ، فكانوا يقتلون أبناءَكم ويذبحونهم، ويستحيون نساءَكم، وأخبرهم أنَّ هذا الذي كان يحلّ بهم إنما هو بلاءٌ عظيمٌ من الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

جنـــــة السنــــة

١- أورثَ اللهُ -تعالى- المستضعفين في الأرض، وهم بنو إسرائيلَ، الأرضَ المقدسة في فلسطين التي باركَ اللهُ تعالى فيها، وأتمَّ كلمتَهُ ونعمتَهُ عليهم بسبب صبرهم.

٢- أغرقَ اللهُ فرعونَ وجندَه، ودمَّر اللهُ ما كانوا يُشَيِّدونه، ويعْرِشُونه، ويصنعونه.

٣- بعد أن نجَّى اللهُ بني إسرائيلَ من الغرقِ مرُّوا في مسيرهم إلى الأرضِ المقدسة على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم، فطلب بعضُهم من موسى أن يجعل لهم أصناماً كما لهؤلاء القومِ أصنامٌ، فرماهم بالجهلِ، وأخبرهم أنَّ هؤلاء متبرٌ ما هم فيه وباطلٌ ما كانوا يعملون.

٤- امتنَّ اللهُ على بني إسرائيل، بإهلاك فرعونَ وجندِهِ، وتخليصهم مِنَ البلاءِ الذي كان يصبُّه عليهم.

جنـــــة السـنة

النص القرآني التاسع عشر من سورة الأعراف
انطلاقُ موسى من قومِهِ إلى الطورِ لمقابلةِ ربِّه

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُنا -عزَّ وجلَّ- أنه واعد نبيَّهُ ورسولَه موسى عليه السلام أن يأتي إلى الطور لإنزال شريعةِ التوراةِ عليه، واستخْلَفَ موسى أخاه هارون على بني إسرائيل، وأوصاه بالإصلاح ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين، وعندما جاء موسى لميقات الله طلب من ربِّه أن يراه، فأخبره ربُّه أنه لا يطيق أن يراه، وبيَّن له أن الجبالَ الصمَّ الراسيات تزولُ وتتلاشى إن هو تجلى لها، وفعلاً لما تَجَلَّى ربُّه للجبل زالَ من مكانهِ، ولم يُطق موسى أن يرى الجبلَ يزولُ كذلك فخرَّ صعقاً، ثم أفاقَ مستغفراً تائباً.

وأنزلَ اللهُ تعالى التوراةَ على موسى، مكتوبةً في الألواحِ، وكتب له في الألواحِ من كل شيءٍ موعظةً وتفصيلاً لكل شيءٍ، وأمره وقومه أن يأخذوا بها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢-١٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى عليه السلام ينطلقُ إلى ميقاتِ ربِّه:

واعَدَ ربُّنا -تبارك وتعالى- عبدَهُ ورسولَهُ موسى عليه السلام بإعطائه التوراةَ لتكون شريعةً تحكم بني إسرائيلَ، فلما خَرَجَ موسى ببني إسرائيل من مصرَ، وجاء بهم إلى أرض سيناء، وَكَلَ

جنـــــة السـنـــة

إلى أخيه هارون أن يخلفه في قيادةِ بني إسرائيل وأمره بالإصلاح، وعدم اتباع سبيل المفسدين، وانطلق إلى ميقات ربه، ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٢].

وحدَّدَ اللهُ لموسى عليه السلام الميقات بعدَ ثلاثين ليلةً، ثم زادها ربُّ العزة عشراً، فتمَّ الميقاتُ أربعين ليلةً، ولم يعلم بنو إسرائيل بزيادةِ العشرِ، لأنها زيدت بعد مفارقة موسى لهم.

ويذكرُ المفسرون بأن سبب زيادةِ العشرِ أنَّ موسى صامَ هذه الثلاثين، فلما أتمها استاكَ، فغيَّر السواكُ ريحَ خلوفِ فمه، فأمره اللهُ تعالى بصومِ عشر أُخرى، ليعودَ إليه الخلوفُ الذي ذهبَ منه، واللهُ أعلم بمدى صحة ما ذكروه، فلم أجد له دليلاً صحيحاً، ونصَّ على الأربعين لئلا يتوهم متوهمٌ أنَّ الثلاثين تمَّتْ بعشرٍ من الثلاثين.

ولما تمَّ ميقاتُ الله كلَّمه ربُّه -تعالى- وناجاه، وأنزل عليه التوراة.

٢- موسى يطلب من ربِّه أن يُرِيَهُ نفسَهُ لينظرَ إليه:

أخْبَرَنا ربُّنا -عز وجل- أنه لما جاءَ عبدُهُ ورسولُه موسى إلى ميقاتِ الله عز وجل وناجاه وكلَّمه وأعطاه التوراةَ بعد أنْ أتمَّ الأربعين ليلةً طلب من ربِّه أن يريه ذاتَهُ ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

ولم يكن موسى يعلم أنَّه لا قدرةَ لديه على رؤيةِ الله عز وجل، ولذلك قال اللهُ تعالى له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف:١٤٣]، أي: أنت يا موسى أضعفُ من أنْ تَقْدِرَ على رؤيتي، لأنَّ البشر في الدنيا مخلوقون خَلْقاً ضعيفاً، وقد بيَّنَ اللهُ لموسى ما يدلُّه على ما أخبره به، فقد أخبره ربُّه أنه سيتجلَّى للجبلِ، وأمره أنْ يراقبَ الجبل، ليرى ما سيحدث له ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٣].

لقد كان الجبلُ أقوى من موسى وأَصْلَبُ، فلما تجلَّى له ربُّ العزة لم يتحمل رؤيتَهُ، وجعله دكاً، أي: فتاتاً وتطاير من مكانه ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾، أي: خرَّ مغشياً عليه، ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ من غشيته، وعلم موسى ما أراد اللهُ -تعالى- إعلامَه إياه أيقنَ أنه لا يستطيع رؤية ربِّه في الدنيا.

وقد احتجَّ المعتزلة بالآية على عدم قدرة العباد على رؤية ربِّهم لا في الدنيا ولا في الآخرة، وكوننا لا نرى ربَّنا في الدنيا صحيح، أما في الآخرة فإننا نقْدِرُ على ذلك، لأنَّ الله

جنـــــة السـنة

يعيدنا خلقاً غير قابلٍ للفناء، وقد صرَّح ربُّ العزةِ بذلك في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]، وقال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥﴾.[المطففين:١٥]، فإذا كان الكفارُ محجوبون عن رؤيةِ الله، فإنَّ المؤمنين غير محجوبين عن رؤيتِهِ في ذلك اليوم.

وقد جاء في الصحيحين والسنن والمسانيد عن أكثر من عشرين صحابياً أنَّ المؤمنين يَرَوْنَ ربَّهم يومَ القيامة، والأحاديثُ في ذلك متواترةٌ، وسيأتي ذكر بعضها في سورة القيامة إن شاء الله تعالى.

٣- إخبارُ ربِّ العزة عبدَهُ موسى أنه اختاره على الناسِ برسالاتِهِ وكلامِهِ:

وقد خاطبَ ربُّ العزةِ موسى عليه السلام بعد أن أفاقَ مخبراً إياه أنه اصطفاه واختاره على الناس برسالاتِهِ وبكلامِهِ الذي كلَّمه به، وأمره أن يأْخذَ بها آتاه، وهو التوراةُ، وأن يكون من الشاكرين ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [الأعراف:١٤٤] ويحقق العبدُ شكر ربِّه -تبارك وتعالى- إن هو صَرَفَ نعمة الله فيما يرضي اللهَ تعالى.

٤- ثناءُ ربِّ العباد على ما كتبه لموسى في الألواح من التوراة:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه كتبَ لعَبْده ورسولِهِ موسى التوراةَ في الألواح التي أنزلها عليه وبيَّن صفةَ التوراة التي أنزلها عليه، فقد كتب له فيها المواعظَ التي ترققُ القلوبَ، والأحكامَ المفصَّلةَ للحلال والحرام ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٤٥].

وقوله: ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: من كل شيء يحتاجُ إليه في دينه من الحلال والحرام والمحاسن والقبائح.

وقد أمَرَ الله رسولَهُ موسى عليه السلام أن يأخذها بقوةٍ، أي: بجدٍّ، وأمرَهُ أن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٤٥﴾ [الأعراف:١٤٥]، قال ابن عباس: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ﴾ يريدُ: يحلُّوا حلالَها، ويحرموا حرامَها، ويتدبروا أمثالها، ويعملوا بمحكمها، ويقفوا عند متشابهها [تفسير الواحدي: ٩/ ٣٤٧]. والمراد بدار الفاسقين التي وعد اللهُ قوم موسى بإراءَتهم إياها هي جهنمُ في يوم القيامة، أو هي الديار التي سكنها الهالكون من الظالمين كقوم لوطٍ.

جنـــــة السـنة

٥- توعُّدُ ربِّ العزة تبارك وتعالى المتكبرين في الأرض أن يصرفهم عن آياته:

توعَّدَ ربُّ العِزَّة -تبارك وتعالى- بأنْ يصرفَ عن آياتِهِ الذين يتكبرون بغير الحقِّ ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأعراف:١٤٦].

والمرادُ بالآياتِ التي توعَّدَ العبادَ أن يصرفهم عنها آياتُ القرآنِ، وعرَّف ابنُ عباسٍ المتكبرين الذين سيصرفُهم الله عن آياتِهِ بأنهم «الذين يتجبرون على عباده، ويحاربون أولياءه، ويستحلّون محارمَهُ، حتى لا يؤمنوا بها جئت به» [تفسير الواحدي: ٩/ ٣٥٠]. وصرْفُهم عن آيات الله منعهم مِن فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمته وشريعتِهِ وأحكامِهِ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن هؤلاءِ المتكبرين إنْ يروا السبيل الذي يوصلهم إلى الهدى والصلاح، لا يتخذوه سبيلاً، وإنْ يروْا سبيلَ الغيِّ الذي يؤدي بهم إلى الضلال والهلاكِ يتخذوه سبيلاً، وبيَّنَ اللهُ لنا السببَ الذي أدّى بهم إلى هذا المسارِ الخاطئِ المغلوطِ، وهو تكذيبهم بآياتِ الله ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ أي: غافلين عن العمل بأحكامها، والتأدب بآدابها.

وأخبرنا ربُّنا عن ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف:١٤٧]، أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أن الذين كذبوا بآيات القرآن، وكذبوا بالبعث والنشور حبطت أعمالهم، أي: بطلتْ، وصارتْ كأن لم تكن، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ المكذبين بآيات الله لا يُجْزَون إلا وَفْقَ أعمالهم التي عملوها وأسلفوها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- واعدَ ربُّ العزةِ موسى ليأتي لميقاته، وقد جعل له أجلاً مقداره ثلاثين ليلةً، ثم أتمها بعشرِ ليالٍ، قضاها في التبتل والانقطاع إلى الله عز وجل.

٢- ضَرْبُ التأجيل وتحديد المدة للميعاد أمْرٌ معروفٌ قديم، فقد ضربَ اللهُ تعالى لموسى الأجلَ لمدة ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر.

٣- يكون التأريخ بالليالي كما يكون بالأيام، فقد واعد الله -تعالى- موسى ثلاثين ليلة، ثم أتمها بعشر ليالٍ.

جنـــــة السنـــــة

٤- كلّف موسى ﷺ أخاه هارون أن يقومَ مقامه في قيادة بني إسرائيل، وأمره بالإصلاح، ونهاه عن اتباع سبيل المفسدين.

٥- طلب موسى ﷺ من ربِّه أن يريَه نفسَه، فأخبره أنه لا يطيق ذلك، وعندما تجلَّى ربُّنا -عزَّ وجلَّ- للجبل جعله دكاً، وخرَّ موسى صعقاً، أما في الآخرة، فيستطيعُ العبادُ المؤمنون رؤيةَ ربِّهم، فهم مخلوقون خلقاً قابلاً لذلك.

٦- اصطفى اللهُ تعالى نبيَّه موسى على الناس برسالاتِهِ وبكلامه.

٧- أنزل اللهُ -تعالى- إلى موسى التوراةَ مكتوبةً في ألواحٍ، وفي التوراةِ المواعظُ والعقائدُ والأحكامُ والآدابُ.

٨- أوْجَبَ اللهُ على موسى وقومِهِ أن يأْخذُوا بما أنزله في كتابِهِ العظيم التوراة.

٩- هذا الكونُ يتولاَّه ربُّ العبادِ سبحانه، ولذلك وضع للمتكبرين حدّاً ينتهون إليه، فيصرفهم عن آياتِهِ، فلا يفقهون ما حوته من أحكامٍ وتعاليم.

١٠- الذين كذبوا بآياتِ القرآن، وكذبوا بالبعث والنشور، وماتوا على ذلك، يحبطُ اللهُ أعمالهم، ويجزيهم يومَ القيامةِ بما عملوا.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة الأعراف
عبادةُ قومِ موسى عليه السلام العجلَ بعد أنْ انطلق إلى ميقاتِ ربِّه

أولاً: تقديمٌ

هذه الحلقةُ من حلقات قصةِ نبيِّ الله موسى عليه السلام تظهر سوأةً عظيمةً من سَوْءاتِ بني إسرائيل، انتكسوا فيها، وصنعوا لهم عِجْلاً جسداً له خوارٌ، وعبدوه من دون الله تعالى، وقد بيَّن اللهُ تعالى كيف يكون موقفُ القائد الفذِّ في معالجة هذا الموقف السيئ الذي سلكه قومُه، وكيف قضى على هذه الفتنةِ، وأخمدَ نارها المشتعلةَ المتأججة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ
سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ
يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ
بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ
ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ
ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ
غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ
بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلۡغَضَبُ أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَۖ وَفِي
نُسۡخَتِهَا هُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ هُمۡ لِرَبِّهِمۡ يَرۡهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الأعراف:١٤٨-١٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اتخاذ قوم موسى من حليِّهم عجلاً جسداً له خوار:

بعد أن انطلق موسى عليه السلام إلى ميقاتِ ربِّه، ومكثَ هناك أربعين ليلةً صنعَ بعضُ بني إسرائيل من الحليِّ الذي أخذوه من أقباطِ مصر عجلاً جسداً عبدُوه من دونِ الله تعالى ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ ﴾ [الأعراف:١٤٨].

وهذا الحليُّ الذي صُنِعَ منه العجلُ استعارَهُ الإسرائيليون من الأقباط ليتزينوا به لمناسبةٍ كعرسٍ أو عيدٍ، فلما خرج الإسرائيليون من مصرَ في تلك الليلة أخذوه معهم، فصنعَ منه

جنـــــة السـنة

السامريُّ العجلَ، وقد أخبرنا ربُّنا في موضع آخر أنَّ هذا الحلي كان من زينةِ قومٍ آخرين وهم القبطُ، قالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [طه:٨٧].

وقد أخبرنا ربُّنا في سورة طه كيف صنع السامريُّ العجلَ، ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ۝٩٥ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا﴾ [طه:٩٥-٩٦] أخذ قبضةً من الأثر الذي كان يسيرُ عليه جبريلُ، فنبذَها على ذلك الحليِّ، فأصبح عجلاً جسداً له خوارٌ.

والعجلُ ولدُ البقرةِ، والجسدُ البدنُ الذي لا لحمَ فيه ولا دمَ، فلما رأى بنو إسرائيلَ العجلَ على النحو الذي صنعه السامريُّ ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ۝٨٨﴾ [طه:٨٨] أي: نَسِيَ أنَّ ربَّه هنا، فذهب يطلبُه في مكانٍ بعيدٍ.

وقد قالَ ربُّ العزَّةِ مخاطباً بني إسرائيلَ مقرراً لهم أن هذا العجل باطلٌ وعبادته باطلةٌ ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا﴾ [الأعراف:١٤٨] أي: قد رأوا أنَّ هذا المعبودَ الذي افتروه واختلقوه لا يكلمهم، ولا يهديهم سبيلاً، والمعبودُ الحقُّ يتكلم، وقد أخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ عن كثرة كلامه فقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ﴾ [لقمان:٢٧].

والمعبودُ الحقُّ هو الذي يهدي ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ [يونس:٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ۝١٤٨﴾ [الأعراف:١٤٨]، والظلمُ وضعُ الشيء في غير موضعِهِ، وهؤلاءِ وضعوا عبادةَ العجل ظلماً وجهلاً موضعَ عبادة الملك الديان سبحانه.

٢- عرَفَ أكثرُ الذينَ اتخذوا العجل إلهاً أنهم ضلُّوا قبلَ أن يرجعَ إليهم موسى:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ عابدي العجل من بني إسرائيلَ نَدِموا على عبادتِهم العجلَ أشدّ الندم، وكلُّ من أصابَه ندمٌ شديدٌ حتى بقي حائراً من شدةِ ندمه يقالُ له: سُقِط في يدِهِ، وهؤلاءِ ضَلُّوا وندموا غايةَ الندم، وبقوا متحيرين على كفرهم بالله وعبادتِهم العجلَ المصنوعَ ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩].

جنـــــة السـنة

وقولُهُ تعالى: ﴿وَرَأَوۡاْ﴾ أي: علموا أنهم ضلوا عن طريقِ الحقِّ والصوابِ، وكان ضَلالُهُم في ذهابهم عن الإيمانِ إلى الكفرِ والشركِ، عندئذ دَعَوْا ربَّهم الحقَّ و﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف:١٤٩].

وقولُهُ: ﴿لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا﴾ أي: لم يتداركنا برحمتِهِ، وقولُه: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَنَا﴾ الغفرانُ محوُ الذنوب، حتى لا يظهر لها أثر يتضرر به صاحبها بعد ذلك، وقوله: ﴿لَنَكُونَنَّ﴾ أي: والله لنكونَنَّ مِنَ الخاسرين، والخسرانُ: نقصانُ مالِ التاجرِ مِنْ ربح أو رأسِ مال وأعظمُ الخسرانِ خسرانُ العبدِ مع ربِّه الذي يؤدي به إلى النارِ، ويحْرِمُهُ الجنّةَ.

وهذه الآيةُ الكريمةُ تدلُّ على أنَّ الأشرارَ مِنْ بني إسرائيل الذين صنعوا العجلَ وأمروا بعبادتِهِ لم يَقِرَّ لهم قرارٌ، ولم يتابعهم كلُّ بني إسرائيلَ، والذين تابعوهم كانوا مترددين شاكِّين، وكان كثيرٌ منهم يعلمُ أنَّه قد ضلّ، ودعَوْا ربَّهم أن يرحمهم ويغفر لهم، وإلاَّ كانوا مِنَ الخاسرين، فالتربيةُ الطويلةُ التي بذلها موسى لقومه كان لها أثرُها فيهم، وثباتُ هارون ومَنْ بَقُوا معه على الحقِّ ومحاولتِهِمْ تبصيرَ قومِهِمْ لها أثَر في مواجهةِ الشركِ والضلالِ.

٣- كيف عالج موسى عليه السلام ضلالَ بني إسرائيلَ الكبيرَ في عبادةِ العجلِ:

مهما قيلَ في هذا الانحرافِ العظيمِ الذي اجتاحَ بني إسرائيلَ، فجعلهم يصابون بأعظمِ مصابٍ، إذ عَبَدُوا غيرَ الله بعد مُدَّةٍ وجيزةٍ من غياب موسى عنهم، ومع وجود هارون فيهم، وهو نبيٌّ رسولٌ، فإنَّ المصابَ قد حَلَّ بهم، والآفةُ اجتاحت مجتمعَهُم، ولكنَّ شملَ بني إسرائيلَ بقيَ ملتئماً، فمعَ الزلزالِ الكبيرِ الذي حلَّ بهم، بقيَ الجميعُ منتظراً عودةَ موسى عليه السلام.

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه بعد أنْ أعطى موسى الألواحَ التي كَتَبَ له فيها التوراةَ أخبره أنَّ قومَه ضَلُّوا، وعبدوا العجلَ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ٨٥﴾ [طه:٨٥].

فامتلأ موسى غضباً على فِعْلَةِ قومِهِ، ورجعَ إلى قومِهِ غضبانَ أسفاً ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ [الأعراف:١٥٠]. والأسفُ: شِدَّةُ الغضبِ، وعندما وصل إليهم، وكان يحمل معه ألواحَ التوراةِ التي أنزلها الله إليه، قالَ لقومِهِ في سوْرَةِ غضبِهِ ﴿بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف:١٥٠] أي: بئسما خلفتموني في غيبتي إذ لم تمنعوا عابدي العجل عن عبادته. وقوله: ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ بانتظارهم موسى، وانتهاءِ الوعد، وإتيان موسى بكلِّ خير تصلح به دنياهم وآخرتهم، عجلوا عن ذلك كله، وعبدوا العجل، وكفروا بالله. فلما

جنـــــة السـنة

رأى عبادتهم للعجل اشتدَّ غضبهُ، وألقى ألواحَ التوراةِ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف:١٥٠]، ولم يُلْقِها استهانةً بها، وإنما ألقاها من شدَّة غضبه لانتهاكم حرماتِ الله، وعبادتهم العجلَ مع الله.

ثم توجّه موسى وهو غضبانُ إلى محاسبة أحبِّ الناسِ إليه، وهو أخوه هارون، وقد كان هارونُ معذوراً، فقد أمرَهم ونهاهم، ووعَظَهم وخوَّفَهم بالله، ولكنَّهم لم يطيعوه، ولم ينقادوا له، لقد أخبرنا ربنا أنَّ موسى توجه في سورةِ غضبه إلى أخيه، وأمْسَك بشعرهِ وأخَذَ يجرُّه إليه بقوةٍ وعنفٍ، والقومُ مشدوهين، فإذا كان هذا فِعْلُه بأخيه، فكيف سيكونُ موقفُه من الآخرين الذين ليسوا له بإخوة ولا أقرباء.

لقد أخبر هارونُ أخاه أنَّ قومَه استهانوا به، وكادوا يقتلونه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف:١٥٠]، وبيَّن في سورةِ طه أنَّه لم يفارقْ قومَهُ، ويرحلْ عنهم خشيةَ أن يلومه أخوه، ويقوله له: فرقت بين بني إسرائيل ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه:٩٢-٩٣].

وقد برَّأ اللهُ تعالى هارونَ مِنَ الضلال الذي وقع فيه بنو إسرائيل ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩٠-٩١].

ومن عجب أنَّ اليهودَ الذين حرَّفوا التوراةَ زعموا أن نبيَّ الله هارونَ هو الذي صنع العجلَ الذهبيّ، وأمرَ بني إسرائيل بعبادته، وقد برَّأ اللهُ تعالى في كتابنا الكريمِ هارونَ مما رموه بِهِ، وافتروه عليه.

وقولُ هارون لأخيه موسى وهو آخذ برأسه يجرُّه إليه ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ معناه يا ابنَ أميّ قالها استعطافاً لأخيه عليه، وإلا فهارون أخٌ لموسى من أمه وأبيه، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى﴾ أي: قالوا له قولاً سيئاً يدلُّ على أنّهم استضعفوه، وكادوا يقتلونه، فقد قالوا له: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه:٩١].

وقال هارونُ لموسى: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ أي: لا تفعلْ بي فِعْلاً سيئاً يفرحُ أعدائي بي، فالشماتة: سرورُ العدوِّ بما ينزلُ بعدوِّه من سوء، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ أي: لا تجعلني مع عبدةِ العجلِ، كأني ممالئٌ لهم، وموافقهم على عبادتهم له.

جنـــــة السـنة

ويبدو أنَّ موسى قد اقتنعَ بما اعتذرَ بِهِ أخوه هارونَ، فكفَّ عنه، وتوجَّه إلى ربِّه يدعوه لَهُ ولأخيه ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأعراف:١٥١]. دعا ربَّه -عزَّ وجلَّ- له ولأخيه أنْ يدخلهما في رحمته، أي: يجعلهما ممنْ شملتْهما رحمتُهُ الواسعةُ، واللهُ تعالى أرحمُ الراحمين، فهو سبحانه وتعالى لا أحدَ أرحمُ منه، وهو أرحمُ بعبادِهِ من الأمِّ بولدها سبحانه.

٤- **مصيرُ الذين عبدوا العجل ولم يتوبوا إلى ربّهم تبارك وتعالى:**

يبدو أنَّ بعضَ الذين عبدوا العجلَ لم يتوبوا ولم ينيبوا إلى ربِّهم، وبقُوا على كفرهم وضلالهم، ومن هؤلاء السامريُّ الذي صنعَ العجلَ، فقد قال موسى له: ﴿فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ﴿٩٧﴾ ﴾ [طه:٩٧].

ويدُلُّ على أنَّ بعضَ عابدي العجلِ لم يؤُوبوا إلى الله تعالى قولُهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٢] والغضبُ الذي سينالُ هؤلاء مِنْ ربِّهم صفةٌ وصفَ اللهُ تعالى بها نفسه، وغضَبُهُ لا يُشْبِهُ شيئاً من غضبِ المخلوقين، والذِّلَّةُ: الصغارُ والهوان.

ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يكون الغضبُ والذِّلَّةُ هي للذين تابوا إلى الله تعالى من عبادَةِ العجلِ الذين قال الله لهم: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة:٥٤]، فالذين تابوا وقتلوا أنفسهم تابَ اللهُ تعالى عليه، ورضي عنهم، وأدخلهم جنَّتَهُ، والتائبُ مِنَ الذنبِ كمن لا ذنبَ له، ولا يستحقُّ أن يقال فيه: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُفۡتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

ومما يدلُّ على أنَّ الذين عناهم ربُّ العزةِ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ سَيَنَالُهُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَذِلَّةٞ ﴾ هم المفترون غير التائبين الآيةُ التاليةُ وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٣]. فالذين كفروا أو أذنبوا وعَصَوْا ثم تابوا بعد ذلك وآمنوا فإنَّ ربَّك بعد توبتهم غفورٌ رحيمٌ.

٥- **بعد أن قضى موسى على الفتنة التي ثارتْ في قومِهِ سكَنَ عنه الغضبُ وأخذ الألواح:**

أنهى موسى عليه السلام الفتنةَ التي أثارَها السفهاءُ في قومه، وحرَّق عِجْلَهم، ونسفَه في اليمِّ، وسكنَ عنه غضبُهُ، وخاصة بعد أن سمعَ عذرَ أخيه إليه، وعرفَ صِدْقَه، وعُذْرَه، ﴿ وَلَمَّا

جنـــــة السـنة

سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ ﴾ [الأعراف:١٥٤]. وسكوتُ الغضبِ عنه سكونُهُ وهدوؤُه، وعند ذلك أخذ الألواحَ التي كان قد ألقاها ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الأعراف:١٥٤]. وقد تحدَّثَ المفسرون عما أصابَ الألواحَ من أذى وكسْرٍ بعد إلقاء موسى لها، وأنه رُفِعَ بعضُ ما أُنزل فيها، ولم يصحَّ شيءٌ من ذلك في الكتابِ والسنَّةِ.

وقوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى﴾ أي: في المنسوخِ فيها، أي: المكتوبُ فيها مِنَ التوراةِ من كلامِ ربِّ العالمين، و﴿هُدًى﴾ أي: فيه دلالةٌ وإرشادٌ إلى الخير، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: للذين يخافون الله، وخصَّهم لأنهم هم المنتفعون به، وجرت العادةُ أن يُخَصَّ المنتفعون بالذكر.

وقد أخذ موسى عليه السلام الألواحَ لدراستِها، وفقهِها، وليعملَ بها، لأنَّ اللهَ تعالى أنزلها إليه، ليعملَ هو وقومَهُ بها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ارتكبَ أتباعُ موسى في عهدِهِمْ الأوَّلِ جريمةً نكراءَ، عندما اتَّخَذُوا من حليِّهم عجلاً جسداً له خوارٌ، وعَبَدُوه من دونِ الله تعالى.

٢- كان العجلُ إلهاً باطلاً، كبقيةِ الآلهة التي تعبدُ مِنْ دون الله تعالى، فهي لا تكلم عابديها، ولا تهديهم سبيلاً.

٣- عَلِمَ كثيرٌ من عابدي العجلِ أنَّهم قد ضلُّوا قبل عودة موسى إليهم، ودَعُوا اللهَ أنْ يرحمهم، ويغفر لهم.

٤- كان موسى ذا قدرةٍ فائقةٍ في قيادةِ قومه، وتقْويمهم، ورَدْعِهِمْ عن الباطلِ الذي يتلبسون به، والقضاءِ على الفتنِ التي تعصفُ بهم، ومع أنَّ هارونَ كان نبيّاً رسولاً، فلَمْ يعطَ القدراتِ التي أعطاها ربُّ العزِّة لعبدِهِ موسى.

٥- اتَّخَذَ موسى بعد عودَتِهِ إلى قومِهِ، ورؤيته لهم يعبدون العجلَ الخطواتِ التاليةِ: لومُ قومِهِ على عبادَتِهِمْ العجلَ، وإلقاؤه الألواحَ، واستعماله العنف في محاسبة أخيه.

٦- كان هارونُ معذوراً في مواجهةِ قومِهِ، وكان له نظرةٌ صحيحة في عدمِ مفارقتهم حتى يرجعَ موسى إلى دياره، وقد عَذَرَهُ ربُّ العزَّةِ في الموقفِ الذي اتخذه، وعذره أخوه لما سمعَ اعتذارَه إليه.

جنـــــة السنـــــة

٧- موسى يَؤُوب إلى ربِّه، ويدعوه ليغفرَ لَهُ ولأخيه، وفي ذلك دعوةٌ للشاردين عن الله من قومه، ليتوبوا، وينيبوا.

٨- الذين لم يتوبوا من عبادةِ العجل تهدَّدهم اللهُ تعالى وتوعَّدهم، والذين عملوا السيئاتِ ثم تابوا وأنابوا، فإنَّ الله يرحمهم، ويغفر لهم.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة الأعراف
تبشيرُ الله تبارك وتعالى بنبينا محمدٍ ﷺ في التوراةِ والإنجيل

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نبيَّه موسى عليه السلام اختارَ مِنْ قومِهِ سبعين رجلاً لميقاتِ الله، فعَصَوْا وأخذتهم الرجفةُ، ودعا موسى ربَّه، فأجابَهُ ربُّ العزةِ أنَّه يصيبُ بعذابه مَنْ يشاءُ مِنْ عباده، ورحمتُهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وسيكتب اللهُ رحمته للذين يَتَّبِعُونَ نبينا ورسولَنا محمداً ﷺ ، وقد وَصَفَ اللهُ رسولُنا ﷺ في الوحي الذي أوحى به لنبيه موسى، وهو مع السبعين مِنْ قومه عند ميقاتِ الله سبحانه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موسى يختارُ وفداً من قومِهِ عَدَدُهم سبعون رجلاً لميقاتِ الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى عليه السلام اختارَ من قومِهِ سبعين رجلاً، وجاءَ بهم لميقاتِ الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ ﴾ [الأعراف:١٥٥]. ولا ندري لِمَ

جنـــــة السـنـــــة

اختارَ موسى هذا العدد من قومه، كما لا ندري شيئاً عن مكان الميقاتِ الذي ذهب بهم إليه، فلم يصحَّ فيه آيةٌ أو حديثٌ صحيحٌ.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الرجفةَ أخذتْ بني إسرائيل الذين اختارهم موسى، ولعلَّها الرجفةُ التي أخَذَتْهم عندما اشترطوا لإيمانهم أن يروْا ربَّهم جَهْرةً، أي: عياناً ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة:٥٥].

والرجفةُ: الهزَّةُ الشديدةُ، فلمّا أخذتْهُمُ الرجفةُ قال موسى متضرِّعاً لربِّه تبارك وتعالى: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ [الأعراف:١٥٥] أي: لو شئتَ إهلاكَهُم أهلَكْتَهُم قبل هذا الوقتِ، أي: قبل خروجهم إلى الميقات، وأهلكتني معهم، وقال مناجياً ربَّه تباركَ وتعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف:١٥٥]. والسفهاءُ: جمعُ سفيهٍ، والسفهُ: الخفةُ والطيشُ، والسفهُ أيضاً: خفةُ العقلِ، وعدمُ رجاحةِ الحكم، حتى يفعل الأشياءَ التي تضُرُّه، وهو لا يدري أنها تضرُّهُ. وهؤلاءِ السفهاءُ الذين عناهم موسى عليه السلام هم الذين فعلوا تلكَ الفعلة التي أخذتهم الرجفة بسببها.

وقولُ موسى عليه السلام ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ أي: أتدمرنا وتميتنا بسببِ ما فعله السفهاءُ الذين طاشتْ عقولهم، وخَفَّتْ أحلامُهم، وقال موسى لربِّه سبحانه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ﴾ أي: ابتلاؤك وامتحانك، كما قالَ اللهُ عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء:١٣٥].

وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ [الأعراف:١٥٥]. والوليُّ: هو الذي انعقدَ بينك وبينه سببٌ يجعلك تواليه ويواليك، فالعبادُ يوالون ربَّهم بالطاعةِ، وهو يواليهم بالثوابِ والرحمةِ والغفرانِ، وقوله: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف:١٥٥]، أي: اغفرْ لنا بسترِ ذنوبنا ومحوِ سيئاتِنا، وارحمنا، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ أي: خيرُ مَنْ يغفرَ الذنوب، ويتجاوز عن الزلاَّتِ.

وقال موسى عليه السلام في دعائِه ربَّه في ذلك الموضعِ الذي دعا فيه ربَّه: ﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: اقْدُرْ لنا في حياتِنا الدنيا حسنةً، والمرادُ بحسنةِ الدنيا توفيقُ الله تعالى لما هو أحسنُ، والحياةُ الطيبةُ والرزقُ الحسنُ، والعافيةُ، وحسنةُ الآخرة الجنةُ، وكل ما فيها من نعيم، وأعلاه النظرُ إلى وجهِ الله الكريم في تلك الجنات.

جنـــــة السـنة

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: تُبْنا إليك، ورجعنا إليك، لأنَّ الحسناتِ تأتي من عندِ الله -عزَّ وجل- بسببِ الإيمانِ والعملِ الصالحِ والتوبةِ إلى ربِّ العباد. وقد أجابَ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى موسى في دعائه وندائه ﴿قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦] أي: عذابي أهينُ به من أشاءُ إهانته، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي: رحمةُ الله تعالى واسعة، لا تضيق عن شيءٍ كائناً من كان.

٢- البشارةُ برسولنا ﷺ في الكتب السابقة:

أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّه بشَّر برسولِنا ﷺ وكتابه وأُمَّتِهِ لدى الرسلِ والأنبياءِ السابقين، ولدى الأُمم الغابرةِ، ومنه ما وقعَ في هذا الموضع، فقد أخبرَ تبارك وتعالى أنَّ رحمتَهُ وسعتْ كلَّ شيءٍ، وأنه سيكتبها للذين يتَّقُونَ ويؤتون الزكاةَ والذين يؤمنون بآياتِ الله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦]، والذين يتَّقُونَ هم الذين يجعلونَ بينهم وبين عذابِ الله وقايةً، تقيهم سَخَطَهُ وانتقامَهُ، وقولُه: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يعطونَ الحقوقَ الواجبةَ في الزروعِ والمواشي والثمارِ والمعادن وغيرِها، وعنى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ أي: آيات الله المنزلة على رسله وأنبيائِهِ.

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عنى بالوحيِ الذي أنْزله على موسى مخبراً إيّاه بأنَّ مرادَه بالذين ﴿يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ۝١٥٦﴾ أُمَّةُ محمد ﷺ، لأنَّه أتْبعَ ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧].

والمرادُ بالنبي الأميِّ الذي لا يقرأُ ولا يكتبُ، فهو منسوبٌ إلى أُمِّه، لأنَّه بقيَ على الحالةِ التي وَلَدَتْهُ عليها أُمُّه، لم يتعلم بعدها قراءةً ولا كتابةً، وقد قال اللهُ تعالى لرسولنا ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، أي: يجدون صفاتِهِ ونعوتِهِ مكتوبةً عندهم في كتبهم السماويةِ كالتوارةِ والإنجيل والزبورِ، ولذلك فإن الله تعالى أخبرنا أنَّ اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦]،

جنـــــة السـنة

وقد حذفَ اليهودُ والنصارى بعضَ البشاراتِ التي في كتبهم عن الرسول ﷺ وغيَّروا فيها، ومع ذلك فإنَّ التوراةَ والإنجيلَ والزبورَ لا تزال تموجُ بهذه البشارات، وقد جمعتُ منها أكثرَ من أربعينَ بشارة مما ورد في التوراةِ والإنجيلِ والزبور.

ومن هذه البشارات التي وردتْ في التوراة في سفر أشعيا: «هو ذا عَبْدِي الذي أعْضُدُهُ، مُخْتارِي الذي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي، وَضَعْتُ روحِي عليهِ، فيُخْرِجُ الحَقَّ للأُمَم، لاَ يَصيحُ، ولاَ يَرْفعُ ولاَ يُسْمِعُ في الشارعِ صَوْتَهُ، قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لا يَقْصِفُ، وفَتيلَةً خامِدَةً لا يُطْفِئُ، إلى الأمانِ يُخْرِجُ الحَقَّ، لا يَكِلُّ ولا يَنْكَسِرُ حتى يَضَعَ الحَقَّ في الأرْضِ، وتَنْتَظِرُ الجَزائِرُ شَريعَتَهُ» [سفر أشعيا، الإصحاح الثاني والأربعون: ١-٤].

وهذا الذي يقوله أشعيا كأنَّه حديث قدسيٌّ تكلم الله به، فالله يقولُ مشيراً إلى الرسول ﷺ : «هو ذا عبدي الذي أعْضُده» أي: أُعينه وأنصره، وقد أخبر القرآنُ، عن رسولِهِ محمدٍ بأنه عبده كقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان:١]، وقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ⑩﴾ [النجم:١٠].

وقال في هذه البشارة متحدثاً عن محمدٍ ﷺ : «مختاري الذي سُرَّت به نفسي» فالله -تبارك وتعالى- اصطفى رسولنا ﷺ على الرسلِ والأنبياءِ، ويظهر فضله في يوم القيامةِ عندما يمتنعُ أولو العزمِ مِنَ الرسلِ عن الشفاعة، ويقومُ بها رسولُنا، وقد أخبر اللهُ أنه سُرَّتْ به نفسُهُ، ووضع عليه روحَهُ جبريلَ عليه السلام ، مؤيداً وحافظاً وناصراً، وأخبر أنه يخرجُ الحقَّ للأُمم، وقد بُلِّغَتْ رسالتُهُ إلى العالمين.

ثم ذكر مِنَ صفاتِهِ ﷺ أنه «لا يصيحُ، ولا يرفعُ، ولا يُسْمِعُ في الشارع صوتَه» وذكر أنه «قصبةً مرضوضةً لا يَقْصِفُ، وفتيلةً خامدةً لا يطفئ، إلى الأمان يخرجُ الحق» وذكر قوَّته في العمل بالحق، فقال: «لا يكلُّ، ولا ينكسر، حتى يضعَ الحقَّ في الأرضِ» وذكر أن «الجزائر تنتظر شريعته».

ولعل هذا الذي ذكره أشعيا هو مقصود عبدالله بن عمرو فيما رواه عن التوراة، فقد لقيه عطاء بن يسار، فسأله عن صفة رسولِ الله ﷺ في التوراةِ، فقال: «أجَلِ، والله إنه لموصوفٌ في التوراةِ ببعضِ صفتهِ في القرآنِ: يا أيها النبيُّ إنا أرسلناكَ شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين، أنتَ عبدي ورسولي، سمّيتُك المتوكلَ، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخّابٍ في الأسواقِ، ولا يدفعُ بالسيئةِ السيئةَ، ولكن يعفو ويغفرُ، ولن يقبضَهُ اللهُ حتى يقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ بأن يقولوا: لا إله إلا اللهُ، ويَفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صُمًّا، وقلوباً غُلْفاً».

جنـــــة السـنة

وغُلفٌ: كلُّ شيء في غِلافٍ، سيفٌ أغلف، وقوسٌ غلفاء، ورجل أغلف إذا لم يكن مختوناً [البخاري: ٢١٢٥]. «السخَّاب: الذي يرفع صوته بالخِصام، والحرزُ: الموضعُ الحصينُ، وهو استعارةٌ، والملةُ العوجاءُ: ملةُ العرب القائمةُ على عبادةِ الأصنامِ، والقلوبُ الغلْفُ، التي لها غلاف يمنعها من الفقه».

وجاء في سفر أشعيا بشارةٌ أخرى، قال فيها: «٢ الشَّعْبُ السَّالِكُ في الظُّلْمَةِ أَبْصَرَ نُوراً عَظِيماً، الجالِسُونَ في أَرْضِ ظِلالِ المَوْتِ أَشْرَقَ عَلَيْهِمْ نُورٌ» [أشعيا، الإصحاح التاسع: ٢]، وقال في: [الإصحاح نفسه: ٦-٧] «٦ لأَنَّهُ يُولَدُ لَنا وَلَدٌ، ونُعْطَى ابْناً، وتَكُونُ الرِّياسَةُ على كَتِفِهِ، ويُدْعَى اسْمُهُ عَجِيباً، مُشِيراً، إلهاً قَدِيراً، أباً أَبَدِيّاً، رَئِيسَ السَّلاَمِ، ٧ لِنُمُوِّ رِياسَتِهِ، وَلِلسَّلامِ لا نِهايَةَ على كُرْسِيِّ داوُدَ وعلى مَمْلَكَتِهِ، لِيُثَبِّتَها ويَعْضُدَها بالحَقِّ والبِرِّ، مِنَ الآنَ إلى الأَبَدِ».

والشعبُ السالكُ في الظلمةِ الأمةُ العربيةُ في جاهليتها، فقد كانتْ تعيشُ في ظلماتٍ شديدةٍ بعضُها فوقَ بعضٍ، ظلماتُ الشركِ والكفر، والنورُ الذي رأته هو نورُ الإسلامِ الذي جاءَ به محمدٌ ﷺ، وتضمنه القرآنُ الكريمُ.

لقد أشرقَ على الجالسين في أرضِ الموتِ -وهي صحراءُ الجزيرةِ العربيةِ- النورُ الإلهي الرباني، فأصبحوا علماءَ فقهاءَ صالحين.

والولدُ الذي يولد هو نبينا محمدٌ ﷺ، ومرادُهُ بالرياسةِ التي على كتفِهِ خاتمُ النبوةِ على كتفه، ففي صحيح البخاري ومسلم عن السائب بن يزيد قالَ: «ذهبتْ بي خالتي إلى النبيِّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله إنَّ ابن أختي وَجِعٌ، فمسحَ رَأْسِي، ودعا لي بالبركةِ، ثم توضَّأ فشربتُ مِنْ وضوئه، ثم قمتُ خلفَ ظَهرِهِ، فنظرتُ إلى خاتمِ النبوةِ بيْنَ كتفيه، مثل زر الحَجَلَةِ» [البخاري: ١٩٠. ومسلم: ٢٣٤٥].

وأخبرتنا التوراةُ أنَّ موسى ﷺ باركَ بني إسرائيلَ قبل موته، فقال: «١ جاءَ الرَّبُّ مِنْ سيناءِ، وأَشْرَقَ لَهُ مِنْ سَعير، وتَلألأَ من جِبالِ فَاران» [التثنية، الإصحاح الثالث والثلاثون:١].

وجاءَ في سِفْرِ حبقوق: «٣ اللهُ جاءَ من تِيمانَ، والقُدُّوسُ من جَبَلِ فارانَ. سِلاهْ. جَلالُهُ غَطَّى السَّماواتِ، والأَرْضُ امْتَلأَتْ من تَسْبيحِهِ» [سفر حبقوق، الإصحاح الثالث: ٣].

وسيناءُ التي جاءَ الربُّ منها هي التي خاطبَ اللهُ عليها موسى، وسعيرُ التي أشرقَ عليها قريةٌ تقعُ شمالَ مدينةِ الخليلِ، بالقرب مِنْ مدينة حَلْحُول، وبجوارها جبلُ سَعير، وفارانُ التي تلألأَ مِنْ جبالها هي مكة وقد نزل على رسولنا الوحيُ في أحد جبالها وهو جبلُ حراء أعلى جبالِ مكة، وفي التوراةِ أنَّ موضعَ سكنى إسماعيل كان في برية فاران.

جنـــــة السـنـــــة

قال أبو محمد بن قتيبة فيما نقله عنه ابن تيمية: «مجيءُ الربِّ مِنْ طورِ سَيْناءَ، إنزاله التوراةَ على موسى مِنْ طور سيناءَ، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وإشراقهُ مِنْ سَعير، إنزالهُ الإنجيلَ على المسيح، وكذلك استعلانه مِنْ جبال فاران، إنزاله القرآنَ على محمدٍ ﷺ، وجبالُ فاران هي جبال مكَّةَ، وفي التوراةِ أنَّ إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فارانَ».

وإن شئتَ الاطلاعَ على المزيدِ مِنَ البشاراتِ الخاصةِ بنبينا وكتابِهِ وأُمَّته ومبعثِهِ ومهاجَرِه، والوقائعِ التي تقعُ في زمانِ أُمته، فارجعْ إلى كتابنا: «أشراطِ الساعة في الكتبِ السماوية السابقة»، ص:١٣-٧٣.

وقد وَصَفَ اللهُ تعالى رسولَنا ﷺ في الوحي الذي أوحاه إلى موسى عندما كان مع السبعين مِنْ قومه الذين صحبهم لميقاتِ ربِّه: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

والمعروفُ: كلُّ ما استحسنه الشَّرعُ وأمر به، كعبادةِ الله، وصلةِ الأرحامِ، ومكارم الأخْلاقِ، والمنكرُ: ما أنكره الشَّرْعُ، ونهى عنه، كعبادةِ الأوثان، وارتكابِ المعاصي.

والطيباتُ: هي التي أباحها اللهُ تعالى، وجعلها حِلاًّ لخلقه، فاللهُ لا يحلُّ إلا الطيب. والخبائثُ: هي التي دلَّ الشرْعُ على خُبْثِها بنهيه عنها، كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزير، ونحو ذلك. وقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ الإصْرُ الذي رفعه الله تعالى عن بني إسرائيل بهذا الدِّينِ الذي أنزلَهُ اللهُ تعالى التكاليف الشرعيةُ الثقيلةُ التي كلفهم اللهُ تعالى بها، فقد أوْجب على الذين عَبَدُوا العجلَ أن يَقْتُلُوا أنفسهم، ليقبل توبتهم، و﴿وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ هي التكاليفُ القويَّةُ الشديدةُ أيضاً، فكان الواحدُ لا يصلي إلا باستعمال الماءِ، ولا يصلي إلا في كنيسة، وإذا مَسَّت النجاسة ثوبَهُ وجبَ أن يقرضَهُ بالمقراضِ، أما هذه الأمةُ فقد جعلت لها الأرض مسجداً وطهوراً، وأُجيزَ لها إزالةُ النجاسةِ بالماءِ، وقولُه سبحانه: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف:١٥٧] أي: الذين صَدَّقوا برسولنا ﷺ، وعزَّروه، أي: منعوه أن ينالَهُ سوء، ونصروه على مَنْ ظلمهُ، وأرادَ الشرَّ به، واتبعوا النورَ الذي أنزل معه، وهو القرآنُ العظيمُ، وسُمِّي القرآنُ نوراً، لأنه يكشفُ ظلماتِ الباطلِ والشركِ والكفرِ، ويهدي إلى الحقِّ، وقد سمّاه اللهُ نوراً في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ [التغابن:٨]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء:١٧٤].

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف:١٥٧] أي: الفائزون، وأعظمُ فوزهم دخولهم الجناتِ في يومِ الدين.

٣- أمَرَ اللّهُ عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يبلغَ الناسَ جميعاً أنه رسولُ اللّه إليهم:

أمَرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينادي الناسَ جميعاً، ويُخبرهم أنّه رسول الله تعالى إليهم جميعاً ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، ومناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلها أنَّ الله أخبر بني إسرائيلَ في عهدِ موسى ﷺ أنّهم مأمورين في عهدِ محمدٍ ﷺ بالإيمانِ بهِ ومتابعتِهِ، وأمَرَ هنا رسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يخبرَ الناسَ بذلك، ويقولَ لهم: إنه رسولُ الله إليهم جميعاً

وكان كلُّ نبيٍّ قبلَ عَصْرِنا يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً، وينادي قومَهَ دون غيرهم، ويقولُ لهم: يا قومي.

وكانُ رسولنا ﷺ مرسلٌ للناسِ كلِّهم مبثوثٌ في كتابنا في مواضعَ كثيرةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، وقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾ [الفرقان:١] وقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]. وفي الحديث عن أبي الدرداءِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «يا أيُّها الناسُ، إنِّي رسولُ الله إليكم جميعاً، فقلتم: كذبْتَ، وقالَ أبو بكر: صدَقتَ» [البخاري: ٤٦٤٠].

وعن أبي هريرة عن رسولِ الله ﷺ أنه قالَ: «والذي نفسُ محمدٍ بيَدِهِ، لا يسْمَعُ بي أحَدٌ مِنْ هذه الأُمَّةِ يهوديٌّ ولاَ نَصْرانيٌّ، ثمَّ يَموتُ، ولَمْ يُؤْمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ بِهِ إلاَّ كانَ مِنْ أصحابِ النار» [مسلم: ١٥٣].

وعن عمْرو بن شعيبٍ عن أبيهِ عن جدِّه أنَّ رسولَ الله ﷺ عامَ غزوة تبوكَ قامَ مِنَ الليلِ يصلي، فاجتمعَ وراءَه رجالٌ مِنْ أصحابه يحرسُونه، حتى إذا صلَّى وانصرفَ إليهم فقال: «لقد أُعْطِيْتُ الليْلَةَ خَمْساً، ما أُعْطِيَهُنَّ أحَدٌ قَبْلِيَ، أمَّا أنا فأُرْسِلْتُ إلى الناسِ كلِّهم عامَّةً، وكانَ مَن قبلي إنما يُرْسَلُ إلى قومِهِ» [مسند الإمام أحمد ١١/ ٦٣٩، رقم (٧٠٦٨). وأورده الهيثمي في المجمع: ١٠/ ٣٦٧، وقال: رجاله ثقات. ونقله ابن كثير في «تفسيره» [الأعراف:١٥٨] وانظر بقية الأربعة في الحديث].

وفي الصحيحين عن جابر بن عبدالله قالَ: قالَ رسول الله ﷺ : «وكان النبيُّ يبعثُ إلى قوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامةً» [البخاري: ٣٣٥، مسلم: ٥٢١].

جنـــــة السـنة

وعرَّفنا ربُّنا تبارك وتعالى بنفسِهِ فقال: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف:١٥٨]. فاللهُ الذي أنا مرسل من عنده له ملكُ السموات والأرض، وليس هناك معبودٌ يستحقُّ العبادَةَ غيره، وهو الذي يحيي ويميت، أي الذي بيده الإحياءُ والإماتةُ، وقولهُ: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف:١٥٨] أمرهم أنْ يؤمنوا بالله، ويؤمنوا برسولِهِ، وهو النبيُّ الأميُّ، الذي لم يقرأ من كتابٍ، ولم يخطَّ بالقلمِ، وهو الذي وَعَدَنا بِهِ في الكتبِ المتقدِّمةِ، فإنه مكتوب ومنعوتٌ في تلك الكتب وهو يؤمنُ بالله، وجميعِ كلماتِهِ التي أنزلها اللهُ عليه، أو أنزلها في الكتب السابقة.

وقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ أي: اسلكوا طريقه لعلكم تهتدونَ إلى دينكم الحقِّ، الذي يوصلكم إلى جنَّاتِ النعيم.

وقال ربُّنا -تبارك وتعالى- في الآيةِ الأخيرة مِنْ هذا النصِّ: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف:١٥٩]، قال ربُّنا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ﴾ هم بنو إسرائيل ﴿أُمَّةٌ﴾ يعني طائفةً، فالأُمَّةُ الطائفةُ الكثيرةُ المتفقة في دينٍ أو نحوه، وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون بشرْعِ الله ودينه الذي أنْزله على رسوله، وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ أي: وبالحقِّ يعدلون، والعدلُ الطريقُ الوسطُ الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

وهذه الآية الكريمة دلتْ على أنَّ مِنْ قوم موسى أمةٌ طيبةٌ على الحقِّ، وهذا المعنى جاء مُصرحاً به في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤]، وكقوله جلَّ وعلا: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾﴾ [آل عمران:١٩٩]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ ...﴾ الآية [الإسراء:١٠٧-١٠٨]، وكقوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد:٣٦]، في أهل الكتاب الذين يفرحون بما أنزل إليه ﷺ، وقد بيَّنَ القرآنُ أنَّ هذه الطائفةَ مِنْ أهلِ الكتابِ -التي كانت متمسكةً بشريعةِ

جنـــــة السـنـة

موسى وبها في التوراةِ إذا كانت على ذلك حتى آمنت بنبينا محمدٍ ﷺ- أنها تُؤتى أجرها مرتين، أجر إيمانها الأول بموسى وكتابه، وإيمانها بمحمد وكتابه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - اختار موسى من قومِهِ سبعينَ رجلاً، وانطلق بهم إلى ميقاتِ الله تعالى.

٢ - أخذتِ الرجفةُ الصفوةَ التي اختارَها من بني إسرائيلَ، لأنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه.

٣- موسى عليه السلام يدعو ربَّه، ليغفرَ لهم، ويرحَمَهُم، ويكتبَ لهم في الدنيا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً.

٤ - أعلَم اللهُ -تعالى- موسى بما أوحاه إليه في ذلك الميقاتِ الذي كان فيه مع السبعين الذين اختارهم مِنْ قومِهِ، أنَّ رحمته التي وسِعَتْ كلَّ شيء سيكتبها للذين يتبعون النبيَّ الخاتمَ عندما يبعثُ في آخر الزمانِ، فبنو إسرائيل كانوا مأمورين بالإيمانِ برسولنا ﷺ.

٥- أخبر ربُّنا أنَّ نبينا كان مكتوباً في التوراةِ والإنجيلِ، ولا تزال بعضُ البشارات المخبرةُ به موجودة فيهما إلى اليوم.

٦ - ذَكَرَ اللهُ تعالى في الوحي الذي أوحى به إلى موسى صفاتِ نبينا الذي سيبعثُ في آخرِ الزمانِ، فهو النبيُّ الأميُّ الذي لم يقْرَأْ من كتابٍ، ولم يَخُطَّ بالقلم، وهو الذي يأمرُ بالمعروفِ، وينهى عن المنكرِ، ويحلُّ الطيبات، ويُحرِّمُ عليهم الخبائث، ويرفعُ عن بني إسرائيلَ إصرهم، والأغلالَ التي كانت عليهم.

٧- الذين يتبعونَ النبيَّ الأميَّ، وينصرونَه، هم الفائزون.

٨- رسولُنا ﷺ مرسلٌ إلى الناسِ كافةً، وكل نبيٍّ قبله مرسلٌ إلى قومِهِ خاصَّةً.

٩- اللهُ الذي يدعو رسولُنا ﷺ إليه له ملكُ السمواتِ والأرضِ، وليس هناك معبودٌ يستحقُّ العبادةَ غيره، وهو الذي يحيي ويميت سبحانه.

١٠- بعضُ بني إسرائيل الذين هم قومُ موسى دخلوا الإسلامَ ودعوا إليه، وحكموا بِهِ

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثاني والعشرون من سورة الأعراف
ما فعله ربُّنا ببني إسرائيل في فترة التِّيهِ

أولاً: تقديمٌ

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّ بني إسرائيل نَمَوْا وكثُروا، وأصبحوا أسباطاً أُمماً، أي: أصبحوا بمثابةِ القبائلِ عند العرب، وكانَ اللهُ قد قَدَّرَ عليهم التيه في الصحراءِ، ففجَّرَ لهم الماءَ مِنَ الصخرِ الأصمِّ لشُرْبِهِمْ، وأنزلَ لهم المنَّ والسلوى لطعامهم، وظَلَّل عليهم الغمام ليقيهم حَرَّ الشمسِ.

وأمرَهُم ربُّهم بعد انقضاءِ فترة التيهِ بسكنى قريةٍ مِنْ القرى، والأرجحُ أنَّها القدسُ، وأمَرهم أن يأكلوا مِنْ طعامِها، أن يدخلوها ساجدينَ، داعينَ ربّ العالمين أن يَحُطَّ عنهم خطاياهم، فبدَّلَ الظالمون مِنْ بني إسرائيلَ ما أمَرهم بِهِ ربُّ العالمين، فأنزلَ اللهُ عليهم رجزاً من السماءِ بسببِ ظلمهم.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦٠-١٦٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قطَّعَ اللهُ بني إسرائيلَ في الأرضِ اثني عَشَر سبطاً:

أخبرنا اللهُ أنَّه قطَّع بني إسرائيل اثنيْ عَشَرَ سبطاً أُمماً ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ﴾ [الأعراف:١٦٠]. ومعنى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ﴾ صَيَّرْناهم قطعاً، فقد كانوا أبناءَ رجلٍ واحدٍ هو إسرائيل، وكانوا اثنيْ عَشَرَ رجلاً، فصارَ من نسلِ كلِّ ولد مِنْ أولادِ يعقوب سبط، والسِّبْطُ عند بني

جنـــــة السـنة

إسرائيلَ كالقبيلة في أولاد إسماعيل، فأصبح أبناءُ إسرائيل اثني عشرَ سبطاً أو قبيلةً، وقوله: ﴿أُمَمًا﴾ بدل من قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ أي: كل سبط منهم أُمَّة وقبيلة.

٢- استسقى موسى قومَه فضربَ بعصاه الحجرَ فانفجرتْ منه اثنتا عشرة عيناً:

أعْلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّه عندما ضَلَّ بنو إسرائيل في التِّيْهِ عَطِشُوا، فطلبوا منه السقيا، فأوحى اللهُ إليه أنْ يضربَ بعصاه الحجرَ، فانبثقَت منه اثنتا عشرةَ عيناً، لكلِّ سِبْطٍ منهم عينٌ يشربون منها، وقد عَلِمَ كلُّ سِبْطٍ العينَ التي يشربون منها ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف:١٦٠].

والوَحْيُ في اللغة: كلُّ إلقاءٍ يجمعُ بين السرعةِ والخفاءِ، والوحيُ في الشرع: ما أوْحَى اللهُ به لأنبيائِه إمَّا بكلامِهِ أو بواسطةِ مَلَكٍ مِنْ الملائكةِ، وكان الملكُ يأتي الرسولَ ﷺ على أكثر مِنْ طريقٍ.

والعصا التي ضربَ بها موسى الحجرَ هي عصاهُ التي كانت تتحول إلى ثعبانٍ مبينٍ عندما كان يلقيها، والحجرُ الذي ضرب به عصاه، قد يكونُ حجراً معروفاً ينقلونَهُ معهم في مسيرهم، وقد يكون حجراً من جنسِ الحجارةِ.

وقوله: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ﴾ أي: انفجرتْ منه اثنتا عشرةً عيناً، كما قالَ سبحانه: ﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة:٦٠]. والعينُ معروفةٌ، وهي كلُّ ماءٍ كثيرٍ. وقوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ أي: جعلَ اللهُ لكلِّ سبطٍ عَيْناً يشربونَ منها، وقد عَلِم كل سِبْطٍ العينَ المخصصةَ له.

٣- ظلَّلَ اللهُ -تعالى- على بني سرائيلَ الغمامَ وأنزل عليهم المنَّ والسلوى:

فجَّرَ اللهُ تعالى لبني إسرائيلَ الماءَ مِنَ الصخرِ الأصمِّ لشرابهم، وظَلَّلَ عليهم الغمامَ ليقيهم حَرَّ الشمس، وأنزل عليهم المنَّ والسلوى لطعامِهِمْ ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ﴾ [الأعراف:١٦٠] والمنُّ: شيءٌ يُشْبِه العسلَ الأبيضَ كان ينزلُ عليهم كنزولِ الندى والثلجِ بعد الفجرِ قريباً من بيوتهم ومنازلِهِمْ، والسلوى: هو طائرُ السُّماني، أو طائرٌ يشبهه، وهو طائرٌ لحمهُ طيبٌ ولذيذٌ، فهو طعامٌ ينالونه مِنْ غيرِ جهدٍ، وهو جيِّدٌ ومفيدٌ.

جنـــــة السـنة

وقد أمَرَ اللهُ تعالى بني إسرائيلَ في ذلكَ الزمانِ أن يأكلوا من ذلكَ الطعامِ الطيبِ الذي رزقهم إيَّاه في صحراء التيه مدةَ أربعين عاماً ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف:١٦٠].

وقد أعلمنا ربنا أنَّ بني إسرائيلَ خالفوا أمْرَ ربِّهم، فلم يظلموه فيما خالفوا فيه، ولكنَّهم ظلموا أنفُسهم بعصيانِهم ربَّهم.

٤- أمر اللهُ تعالى بني إسرائيلَ أنْ يسكنوا إحدى القرى، فبدَّلوا قولاً غير الذي قيل لهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ بني إسرائيلَ أن يسْكُنوا إحدى القرى، ويبدو أنَّ القريةَ كانت قريبةً منهم، لأنَّه قالَ فيها: ﴿هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ و﴿هَٰذِهِ﴾ إشارةٌ للقريب، وأمَرَهم أنْ يأكلوا مِنْ طعام تلك القريةِ، وأمرهم أن يدْعوا ربَّهم قائلين: حُطَّ عَنَّا خطايانا، وأمرهم أنْ يدخلوا بابَ تلك القريةِ ساجدين، ليغفر لهم خطاياهم، وأخْبَرَهم أنَّه سيزيدُ المحسنين إحساناً ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأعراف:١٦١].

وقد أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ جماعة من بني إسرائيل من الذين أمرهُمُ اللهُ تعالى بما سبق ذِكْرُه ظلموا، فقالوا غيرَ الذي أُمروا بقولِهِ، فأرسلَ اللهُ تعالى عليهم رجزاً، أي: عذاباً من السماء بسبب ظلمهم ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأعراف:١٦٢].

وقد أخبرنا ربُّنا خبرَ هذه القرية في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- كان بنو إسرائيل اثني عشرَ ولداً، فأخرجَ من كلِّ ولدٍ من الأولادِ سبطٌ، والأسباطُ في بني إسرائيلَ كالقبائلِ في بني إسماعيل.

جنـــــة السـنة

٢- قدَّرَ الله تعالى على بني إسرائيلَ أنْ يتيهوا في صحراءِ سيناءَ أربعين عاماً، وأخْرجَ لهم في هذه المدةِ الماءَ من الصخرِ الأصمِّ، وأنزلَ لهم المنَّ والسلوى لطعامِهِمْ، وأظَلَّهم الغمامُ ليخفف عنهم حرَّ الشمسِ، وأمرهم أنْ يأْكلوا من ذلكَ الطعامِ، ويشربوا من ذلك الشرابِ، وأخبرَ أنهم بمخالفتهم لم يظلموه، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم.

٣- أمرهم اللهُ تعالى أن يسْكُنُوا قريةً مِنَ القرى، ويأكلوا مِنْ طعامها، وأن يدخلوها ساجدين داعين ربَّهم تبارك وتعالى، فبدَّلُوا وظَلَمُوا وغيَّروا، فعذَّبَ اللهُ الظالمين بإرسالِ رجزٍ مِنَ العذابِ عليهم بسببِ ظلمهم.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث والعشرون من سورة الأعراف
معاقبةُ ربِّ العزة الذين اعتدوا في السبت فمسخهم قردةً

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا في آياتِ هذا النص عن القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ، فابتلاهم بجلب الحيتان والأسماك عليهم في يوم السبتِ، وفي غيرِ السبت لا يرونَ منها شيئاً، فلما طالَ الزمانُ عليهم احتالَ بعضُهم على الصيدِ في يومِ السبتِ، فأنزل اللهُ عقابَهُ بالصائدينَ المحتالينَ، فمسخَهُمْ قردةً خاسئين، وأنجى المؤمنين الذين أنكروا عليهم وسكتَ عن الساكتين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٣-١٦٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- احتيالُ اليهودِ الذين يسكنونَ مدينةَ أيْلَةَ على الصيدِ في يومِ السبتِ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أنْ يسألَ اليهودَ عما كانوا يخفونَه ويكتمونَه من أمرِ أهلِ القريةِ التي كانت حاضرةَ البحرِ، وسميت بحاضرةِ البحر لأنها كانت على شاطئِه، وهي على ما يقوله أكثرُ المفسرين مدينةُ أيلةَ، وكانت واقعةً على شاطئِ البحرِ الأحمرِ، في موقعِ مدينةِ العقبةِ اليوم أو قريباً منها كما يذكره كثيرٌ من المفسرين.

وقد كانَ اليهودُ يكتمونَ خبرها، لأنها سُبَّةٌ عليهم في تاريخهم، لأنَّ اللهَ مسخَ آباءَهم فيها قروداً بسبب احتيالِهِمْ على الصيدِ في يومِ السبتِ، فأظهر الله خبرها في القرآن وكشفه، إظهاراً للحقيقة، وعظة للناس ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وقد اختبرَ اللهُ تعالى أهلَ هذه القرية، بأنْ جعلَ الحيتان والأسماكَ تأتي أهلَ هذه القريةِ في يوم السبتِ شُرَّعاً، أيْ: ظاهرةً بارزةً تملأُ البحرَ والشواطئَ، فإذا انقضى يومُ السبتِ ذهبتْ

جنـــــة السـنة

واختفت بقية أيامِ الأسبوع ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف:١٦٣].

وكان إتيانُ الحيتانِ وانقطاعُها على النحو الذي ذكره اللهُ تعالى اختباراً وامتحاناً مِنَ اللهِ بسبب فِسْقِهم ومعصيتِهِمْ لربِّ العزَّة ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأعراف:١٦٣] وقد ابتلى اللهُ تعالى هذه الأُمَّةَ بمثلِ ما ابتلى به بني إسرائيل، ابتلى هذه الأمةَ بصيد البرِّ تنالُه أيْديهم ورماحُهم، فصبرُوا، ولم يَمُدُّوا للصيد رمحاً ولا يداً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ [المائدة:٩٤].

وقد احتالَ بعضُ أهلِ هذه القريةِ على الصيدِ في يومِ السبتِ، فكانوا ينصبون الشباكَ للحيتان في يومِ الجمعةِ، فإذا عَلِقَتْ بها الأسماكُ في يوم السبتِ أخذوها في يومِ الأحدِ، ومن ذلك حَفْرُهم حفائر تتصلُ بالبحر بقنواتٍ، فإذا امتلأت الحفائر بالسمك، وضعوا في مجرى الحفائر ما يمنعُ السمكَ مِنَ الخروجِ منها.

٢- موقفُ أهلِ القريةِ من الذين احتالوا على الصيدِ في يوم السبت:

أنكَرَ بعضُ أهلِ القريةِ على الذين احتالوا للصيدِ في يومِ السبتِ، فأنكروا عليهم فعلتهم، وقالتْ طائفةٌ أُخرى للمنكرين: لِمَ تعظونَ هؤلاءِ القومِ السادرينَ في الغيِّ، الذين سيهلكُهُمْ ربُّهم أو يعذِّبهم عذاباً شديداً ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [الأعراف:١٦٤] أي: لِمَ تنهون هؤلاءِ، وقد علمتم أنهم هالكون، وأنهم مستحقُّون العقوبةَ مِنَ اللهِ؟ قال الذين تَصدَّوْا للإنكار: ﴿مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ [الأعراف:١٦٤] فالله أخذ علينا العهدَ والميثاقَ بأن نأمرَ بالمعروف، وننهى عن المنكر، فنحن نريدُ أن نُعذِرَ إليه بالقيامِ بما شرعه لنا، ولعلَّ هؤلاء يتقون الله، ويخافونَه، ويرجعونَ إليه.

٣- مصيرُ أهلِ القريةِ التي كانت حاضرةَ البحر:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ أهلَ القريةِ انقسموا إلى ثلاثةِ أقسام: الأول: الذين أنْكَروا على الظالمين الذين احتالوا على دينِ الله وشرعِهِ، فهؤلاءِ أنجاهم اللهُ تعالى مِنْ بلائِه وعقابِهِ. والثاني: الظالمون الذين احتالوا على الصيد في اليومِ الذي حَرَّم اللهُ عليهم الصيدَ فيه، وهؤلاءِ أخذَهُمُ اللهُ تعالى بعذابٍ بسببِ فسقهم. وقد مَسَخَ اللهُ تعالى هؤلاءِ قردةً خاسئين، أما الفريقُ الثالثُ الذين سَكتوا، فسكَتَ اللهُ عنهم ونرجو أنْ يكون اللهُ قد عَفا عنهم ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا

جنـــــة السـنـــة

ذُكِّرُوا بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف:١٦٥-١٦٦].

وقوله: ﴿نَسُوا۟﴾ أي: تركوا ما وعظوا به. وقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي: عن المنكر. وقوله: ﴿بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي: شديد عظيم، وقوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ أي: بسبب خروجهم عن طاعةِ الله تعالى. وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ أي: تمردوا عما نهوا عنه، والمتمردُ: الذي لا يقبلُ الموعظةَ. وقوله: ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ أي: مقموعين مطرودين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يسألَ اليهودَ عن أهل القريةِ التي كانت حاضرةَ البحر الذين اعتدوا في السبتِ، لأنَّه كانوا يكتمون خبرها، لسوءِ ما فعل أصحابها، وسوءِ ما وقعوا فيه.

٢- بيَّنَ اللهُ -تعالى- ما عَمِلَهُ أصحابُ القريةِ مِنَ الاحتيالِ على شرعِ الله تعالى، بحيث استباحوا بالحيلةِ ما حرَّمه اللهُ عليهم مِنَ الصيدِ في يومِ السبت.

٣- فَضْلُ الذين أنْكروا على الذين احتالوا على الصيدِ في يومِ السبتِ، فصرَّحَ اللهُ بإنجائهم مِنَ العذابِ، وأهلك اللهُ المحتالين بالصيدِ، وسكتَ عن الساكتين.

٤- قدرةُ ربِّ العزةِ، فقد مسخَ الذين احتالوا على الصيدِ قردةً خاسئين، أي: مطرودين من رحمة الله تعالى.

٥- علينا أنْ نحذرَ أن نَفْعَلَ فعلاً مثل فِعْلِ هؤلاءِ المحتالين لاستحلالِ شرعِ الله تعالى، خشيةَ أن يصيبنا مثلَ ما أصابهم.

٦- اختلفَ أهلَ العلم في الذين مَسَخَهم اللهُ قردةً أو خنازيرَ أو فئران هل يتناسلون، وهل لهم خَلَفٌ في الوجودِ اليوم، فذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى جوازِ ذلك، واستدلُّوا بأحاديثَ منها ما رواه أبو هريرة قالَ: قال رسولُ الله ﷺ: «فُقِدَتْ أُمَّةٌ مِنْ بني إسرائيلَ، لا يُدْرَى ما فَعَلَتْ، وإنّي لا أُراها إلا الفَأْرَ، إذا وُضِعَ لها ألبانُ الإبلِ لم تشربْ، وإذا وُضِعَ لها ألبانُ الشاءِ شربت» [البخاري: ٣٣٠٥. ومسلم: ٢٢٩٧]. وعن جابر بن عبدالله أنَّ رسولَ الله ﷺ أُتِيَ بِضَبٍّ، فأبى أن يأْكُلَ منه، وقال: «لا أدري، لعلَّه من القرون التي مسِخَتْ» [مسلم: ١٩٤٩].

والصوابُ مِنَ القولِ أنَّ الممسوخَ ليسَ له عَقبٌ، ولا يتناسَلَ، ففي الحديث عن عبدالله ابن مسعودٍ، فقال رجلٌ: يا رسولَ الله القردةُ والخنازيرِ، هي مما مُسِخَ؟ فقال النبيُّ ﷺ: «إنَ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُهْلِكَ قوماً أو يُعَذِّبْ قوماً، فيَجْعَلَ لهم نسلاً، وإنَّ القردة والخنازيرَ كانوا قبل ذلك» [مسلم: ٢٦٦٣]. وما ذكره الرسولُ ﷺ قبلَ ذلك من احتمال أنْ يكونَ لها نسلٌ كان عن اجتهاد منه، وما أخبر به في الحديث الأخير كان عن وحي، والله أعلم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع والعشرون من سورة الأعراف
حالُ اليهودِ عبْرَ تاريخِهِمْ

أولاً: تقديم

ذكر اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ شيئاً مما حَفَلَ به تاريخُ بني إسرائيلَ، فمن ذلك العذابُ الشديدُ السيئُ الذي سلَّطه عليهم، ومن ذلك تقطيعهم في الأرض أمماً، أي: عشائر وقبائلَ، وابتلاهم اللهُ بالحسناتِ والسيئات، لعلهم يؤوبون إلى الله تعالى، وذكر اللهُ -تعالى- أنَّ الخَلَفَ السيئَ الذين ورثوا الكتاب كان كلُّ هَمِّهِمْ تحصيلَ الدنيا الفانيةِ، ونسوا ما ألزمهم اللهُ بِهِ من مواثيقَ وعقودٍ، ثمَّ ذكر الذين أخذوا الكتاب والتزموا به، وهؤلاء آمنوا برسولنا ﷺ، وأقاموا الصلاة، وسيكتب اللهُ لهم أجرهم وثوابهم، وفي ختامِ النصِّ أخبرنا ربُّنا برفع الجبلِ فوقهم كالغمامة عندما رفضوا الأخذ بالتوراة في عهد موسى، فأجابوا تحت الوعيد والتهديد.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ [الأعراف:١٦٧-١٧١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أعلمنا ربنا أنه سيبعث على اليهودِ من يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ:

أعْلَمَ اللهُ تعالى عبادَه أنَّه سيبعثُ على اليهودِ مَنْ يسومُهُمْ سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامة ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [الأعراف:١٦٧].

وقوله: ﴿تَأَذَّنَ﴾ تفعَّل من الأذان بمعنى الإعلامِ، أي: أعلم اللهُ -تعالى- الخلقَ، وقولُهُ: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ليرسِلَنَّ عليهم مَنْ يذيقهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ، ومنْ

جنـــــة السـنة

نَظَرَ في تاريخ اليهودِ وَجَدَ مصداقَ ما أخبرنا بِهِ في هذه الآيةِ الكريمةِ، فتاريخُ اليهودِ كُلُّه نكباتٌ ومصائبُ تَسَلَّطَ فيها عليهم أعداؤُهم، فقهروهم وأذَلُّوهم، وأخرجُوهُمْ مِنْ ديارِهم، وسلبوهم أموالَهُمْ، بل سلبوهم أولادَهُمْ، ولم يكن ذلك اعتباطاً، بل لإفسادهم في الأرضِ التي حَلُّوا فيها، ومَنْ يَعْرِفُ تاريخَهُمْ في أوروبا في الألفِ سنةٍ الأخيرةِ يرى أنَّ ذلك تحقَّق على شكلٍ واسعٍ.

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجَلَ- أنَّ هذا الذي ذكرهُ هنا مِنْ بَعْثِهِ على اليهودِ مَنْ يسومهم سوءَ العذابِ إلى يومِ القيامةِ له استثناءٌ، وهذا الاستثناءُ وقع في زماننا، وهو الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران:١١٢].

وكان وقوعُ هذا الاستثناءِ بسببِ بُعْدِ المسلمين عن دينهم، وقَطْعِهِمْ ما بينهم وبين ربِّهم، فسلَّطَ اللهُ تعالى عليهم أخسَّ أعدائِهم، وهم اليهودُ، وسخَّر اللهُ تعالى لهم الدولَ العظمى كبريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا، فنصرتهم وأيدتهم، وأقامت لهم دولةً في مسرى رسولِنا ﷺ.

وهذا الاستثناءُ غير دائمٍ، فيوشكُ أن يزولَ، ويعود تسليطُ الله عليهم مَنْ يسومهم سوءَ العذابَ، وسيتحقق ذلك قريباً -إن شاءَ اللهُ تعالى- بعد أن يؤوبَ المسلمون إلى ربِّهم، ويعمِّروا ما أفسدوه بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف:١٦٧]، أي: إنَّ عقابَ ربِّنا سبحانه سريعٌ، فهو إذا أراد الشيءِ أنْ يكونَ قال له: كُنْ فيكون، كما أرادَ سبحانه، والعقابُ: هو التنكيلُ بسببِ ما ارتكبَهُ العبدُ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ أي: كثيرُ المغفرةِ لعبادِهِ المؤمنين التائبين.

٢- تشْتيتُ الله تعالى اليهودَ في جنبات الأرض:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه قطَّع بني إسرائيل في الأرضِ أُمماً ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف:١٦٨]، أي: مزَّقَهم اللهُ تعالى مِزَقاً، وفرَّقهم فِرَقاً، ومن ينظُرُ في المواقعِ التي كان فيها اليهودُ قبل أن يقيموا لهم دولةً فوق مَسْرَى نبينا يجدهم منتشرين مشتتين في مختلفِ البلادِ والدولِ.

٣- اليهودُ منهم الصالحون ومنهم دون ذلك:

أَخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ اليهودَ ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف:١٦٨] والصالحونَ مِنَ اليهودِ قبلَ عيسى كثيرٌ، فكلُّ مَنْ آمن بموسى والأنبياءِ من

جنـــــة السـنة

قبله، وآمنَ بأنبياءِ بني إسرائيل والتزم شريعةَ التوراةِ كان مِنَ الصالحين، وبعد بعثةِ عيسى عليه السلام، لا يكون أحدٌ منهم صالحاً حتى يؤمن بعيسى عليه السلام، قال تعالى مخبراً بإيمان مَنْ آمن مِنْ بني إسرائيل، وكُفرِ مَنْ كَفَرَ بعد بعثة عيسى ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف:١٤].

فلما بُعِثَ نبيِّنا محمدٌ ﷺ، فلا يكونَ أحدٌ منهم صالحاً إلا بعدَ أنْ يُؤْمِنَ به. وقولُه تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مِنْهم منحطُّونَ عن رتبةِ الصلاحِ، مقصِّرون عنها، لتلبُّسهم بالكفرِ والذنوبِ والمعاصي.

وقد أَثْنَى اللهُ -تعالى- في غير مَوْضعٍ مِنْ كتابنا على المؤمنين مِنَ اليهودِ بنبيِّنا وكتابنا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران:١٩٩].

٤- ابتلاءُ الله تعالى بني إسرائيلَ بالسيئاتِ والحسناتِ لعلهم يرجعون:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه ابتلى بني إسرائيلَ بالسيئاتِ والحسناتِ لعلهم يرجعون إلى الله ويؤوبون إليه سبحانه ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].

وقوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي: اختبرناهم وامتحناهم، والحسناتُ جمع حسنةٍ، وهي ما يُنْعِمُ عليهم ربُّهم مِنْ الطيباتِ كالخصبِ والعافيةِ، والأموالِ والأمطار، والسيئاتُ: ما يبتليهم به ربُّ العباد مِنَ الجدْبِ والزلازلِ والأمراضِ جمع سيئةٍ، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي: يرجعون إلى ما يرضي اللهَ تعالى عزَّ وجلَّ.

٥- الذين يبيعون الدين بعرضٍ زائلٍ مِنَ الدنيا:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ بني إسرائيلَ انقسموا تجاهَ الكتابِ الذي ورثوه إلى قسمين: الأول: الذين ورثوه، ولم يعملوا به، ولم يأخذوا بأحكامه، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ [الأعراف:١٦٩].

وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: فخَلَفَ مِنْ بعدِ الذين قطَّعَهُمُ اللهُ تعالى أُمماً وجعلهم مِنَ الصالحين خَلْفٌ، أي: خَلْفُ سوءٍ، مِنْ ذريتهم، ورثوا الكتاب أي: ورثوا التوراة عن آبائهم، وقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ والمراد بالعرضِ الأدنى الذي يأخذونه متاعُ الدنيا الزائلُ المضمحلُّ، أي: يستعيضونه عن كتابِ الله تعالى.

جنـــــة الســـــنة

ومِنْ هؤلاءِ الذين حدَّثنا عنهم في هذه الآيةِ الذين يأْخذونَ عَرَضَ هذا الأدنى اليهودُ الذين كانوا موجودين زمنَ بعثةِ رسولِنا ﷺ، كانت عندهم التوراةُ فيها صِفاتُ نبينا ﷺ وأخبارُهُ، فكتموها وغيَّروها وبدَّلوها. ومِنْ أخْذِهِمْ عَرَضَ هذا الأدنى ما يأْخذونه مِنَ الرشوةِ، ثم يحكمون للمبطلِ، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة:٧٩].

وفي هذه الآيةِ تحذيرٌ شديدٌ للعلماءِ والقضاةِ مِنْ هذه الأمّةِ الذين يحكمونَ بالباطلِ لقاءَ الرِّشا التي يأْخذونها مِنَ المبطلين.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ هؤلاءِ الذين عَرَضَ لهم هذا الأدنى، يقولون بعد أنْ يأكلوا هذا العرضَ التافهَ: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾، فهم يرتكبون المعاصي والذنوبَ، ويتمنون على الله أنْ يغفر لهم، وهم مُصِرُّون على الذنوب.

ومما يدلُّ على إصرارِهِمْ على الذنبِ أنّهم لا يرتدعون عن الذنبِ الذي ارتكبوه، وإذا جاءَهم ذنبٌ مثلَ الذنب السابقِ ارتكبوه، قال تعالى: ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وهؤلاءِ مغرورون، فهم يأكلون الرِّشا، ويداومون على ذلك، ويزعمون أنَّهم سيغفرُ لهم.

وعلاجُ أمثالِ هؤلاءِ يكونُ بتذكيرهم بالله، وبما أخذه عليهم من عهودٍ، ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩]. والميثاقُ: العقدُ المؤكَّدُ، وقوله: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أرادَ اللهُ تعالى حَمْلَ الذين خاطبهم على الإقرارِ بما أُخِذَ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ﴾ أي: درسوا ما في التوراة، ومعنى دراستهم لها تعلمهم وفهمهم لمعانيها. وقوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ﴾ أي: دارُ القيامةِ خيرٌ للذين يتقون الله عز وجل، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف:١٦٩]، أي: أليس عندهم عقل يَرْدَعُهُمْ عما انغمسوا فيه من السَّفَهِ، وأكْلِ الرِّشا.

جنــــة الســـنة

٦- **ثناءُ ربِّ العبادِ على الذين يتمسَّكون بالكتاب:**

وحدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن القسم الثاني مِنَ اليهودِ تجاه الكتابِ الذي ورثوه، وهو التوراة، فقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٠]، وقوله: ﴿يُمَسِّكُونَ﴾ أي: يتمسكون به، ويعتصمون به، ويقيمون الصلاةَ، أي: يأْتون بها محافظين على أوقاتِها وهيئاتِها، وأركانها، وفُروضها، ومستحباتِها، وقوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ أي: لا نضيع أجرهم وثوابهم، والمصلحون: الذين يُصْلِحون أعمالهم بامتثال أوامرِ الله تعالى واجتنابِ نواهيه.

وهؤلاء الذين ورثوا الكتابَ مِنَ اليهودِ هداهم تمسكهم بالتوراة إلى الإيمانِ برسولنا ﷺ والأخذِ بكتابنا، واتباعِ الإسلامِ، فالتوراة بشرت برسولنا ﷺ وأمرت بني إسرائيلَ باتباعه.

٧- **رفْعُ الله -تعالى- الجبلَ فوقَ رؤوس بني إسرائيلَ كأنه غمامة:**

أمرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ نذكرَ واقعةً جرتْ لبني إسرائيلَ مع نبيهم موسى بعد خروجهم مِنْ مصرَ، فقال: ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الأعراف:١٧١]، وقد ذكر اللهُ هذه الواقعة في غير موضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ﴾ [النساء:١٥٤].

وهذه الواقعةُ وقعت لبني إسرائيل، بعد إنزالِ الله التوراةِ على بني إسرائيل، فرفضوا الأخذ بما جاءَت به من تكاليفَ، فعند ذلك رفع ربُّ العزةِ الطورَ فوقَ رؤوسهم كأنَّه ظلة، أي: كأنه غمامة، وقال لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: التزموا أحكام التوراة بقوةٍ، أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وإلا سقط عليكم الجبلُ، فلما رأوا الجبلَ كالغمامةِ فوق رؤوسهِمْ خرُّوا ساجدين، وتعهَّدوا بالتزام العمل بالتوراة، وهذه الآية تدلُّ على أنَّ مَنْ خوطب بشرعِ الله، فيجبُ عليه أن يأخذه بقوةٍ ونشاطٍ واجتهادٍ، أي: من غيرِ تفريطٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾ أي: تذكروا ما جاءكم في التوراةِ لتعملوا بما أُنزلَ عليكم مِنْ عندِ الله تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

جنـــــة السـنة

١ - أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه سيبعثُ على بني إسرائيلَ عندما يكثر شرُّهم وكُفْرُهُمْ وفسادُهم عبْر تاريخِهِمْ المديدِ مَنْ يذيقُهُمْ العذابَ الشديدَ إلى يومِ القيامةِ.

٢- استثنى ربُّنا مِنْ تاريخ بني إسرائيلَ فترةً زمنيةً يرفعُ اللهُ فيها العذابَ الدنيوي عنهم، وهي هذه الفترةُ الحاضرةُ التي علا فيها نَجْمُهُمْ، وأصبحَ لهم فيها كيانٌ ودولةٌ، ويوشكُ أنْ تزولَ هذه الفترةُ وتنقضي، ويُسلَّطُ عليهم العذابُ مِنْ جديدٍ.

٣- جَعَلَ اللهُ بني إسرائيلَ في الأرض أسباطاً، أي: أنشأ مِنْ كلّ ولدٍ مِنْ أولادِ يعقوبَ قبيلةً، وكان بعض مِنْ بني إسرائيلَ صالحاً وبعضٌ فاسداً، حتى إذا بعث نبينا محمدٌ ﷺ أصبحَ كلُّ مَنْ لَمْ يؤمن بهِ كافراً.

٤- حدَّثنا اللهُ تعالى عن الكفارِ الذين كفروا برسولنا ﷺ ، وما أصبحوا عليه مِن الضلالِ والباطلِ.

٥- أثنى اللهُ -تعالى- على الذين آمنوا بالله، وتمسَّكُوا بالتوراة، وأقاموا الصلاةَ، وهؤلاءِ لا يضيعُ اللهُ أجْرَهُمْ وثوابَهُمْ.

٦- ختَمَ اللهُ تعالى هذا النصَّ بواقعةٍ عظيمةٍ وقعت لبني إسرائيلَ في عهد موسى، فقد رفَضُوا الأخذَ بالتوراةِ بعد نزولها، فرفعَ اللهُ فوقَهُمْ الطورَ كالغمامةِ، فقبلوا الأخْذَ بها تحتَ الوعيدِ والتهديدِ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الخامس والعشرون من سورة الأعراف

أخذَ اللهُ -تعالى- ذرية آدمَ من ظهره، ثم أشهدهم على أنفسهم أنَّه ربُّهم وإلههمْ

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه أخذ مِنْ ظهر آدمَ ذريتَهُ التي ستنشأ مِنْ ظهره وظهور ذريته، وأشهدَهم على أنْفسِهم بأنه ربُّهم وإلهُهمْ، فشهدوا، وأرسلَ إليهم رسلَهُ، يخبرون بهذا الميثاق الذي لا يذكرونه.

وضربَ لنا -تبارك وتعالى- المثلَ بالذين آتاهم اللهُ آياتِهِ، فكذَّبوا وكَفُروا بها، فحالُهُمْ كحالِ الكلبِ الذي إنْ تحملْ عليه يلْهَثْ، أو تتركه يلهث، وهذا المثلُ السيئُ للكفارِ المكذبين، وهو بئس المثلُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٨].

ثانياً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخذَ اللهُ -تعالى- مِنْ بني آدم مِنْ ظهورهم ذريَّتهم وأشهدَهُمْ على أنفسهم:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه أخَذَ من بني آدمَ من ظهورِهم ذريَّتَهُمْ وأشهدهم على أنفسهم، وقال لهم: ألستُ بربِّكم؟ فأقَرُّوا، وقالوا: بلى.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ تبينُ هذه الآيةِ، وتدلُّ أنَّ اللهَ أخذَ من ظهر آدم ومِنْ ظهور ذرياتِهِ كلَّ نسمةٍ سبق في علم الله أنها مخلوقة إلى يوم القيامة، فأخذهم بيده جلَّ وعلا، بعضُهُم إلى الجنَّة، وبعْضُهُم إلى النار، وجعلَ فيهم إدراكاً، وقال لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ فقالوا: بلى، ومِنَ الأحاديث الدالةِ على ما ذكرناه ما رواه أبو عمرانَ الجَوْنيُّ، عن أنسٍ يرفَعُهُ: «إنَّ اللهَ يقولُ لأهوَنِ أهلِ النّار عذاباً: لو أنَّ لكَ ما في الأرضِ من شيءٍ كنتَ تَفْتَدي به؟ قال: نعم. قال: فقد سألتُكَ ما هو أهوَنُ من هذا وأنتَ في صُلْبِ آدمَ: أنْ لا تُشرِكَ بي، فأبيتَ إلاَّ الشِّرْكَ» [البخاري: ٣٣٣٤. ومسلم: ٢٨٠٥. وأحمد: ١٢٢٨٩] فقد ذكر الرسول ﷺ أنَّ عدم الإشراك أخذ عليهم، وهم في ظهر آدم.

وجاء في الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لمَّا خَلَقَ الله آدمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ فسَقَطَ من ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هو خالِقُها من ذُرِّيَّتِهِ إلى يوم القيامةِ، وجَعَلَ بينَ عَيْنَيْ كلِّ إنْسان منهم وَبيصاً من نورٍ، ثم عَرَضَهُمْ على آدَمَ فقالَ: أيْ ربِّ، مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذُرِّيتُكَ، فرأى رجُلاً منهم فأعْجَبَهُ وَبيصُ ما بين عينيه، فقال: أيْ ربِّ، من هذا؟

قال: هذا رجلٌ من آخِرِ الأمم مِنْ ذُرِّيتكَ يقالُ له: داودَ، قال: رَبِّ وكم جعلتَ عُمرَهُ؟ قال: ستينَ سنةً، قال: أيْ ربِّ، زِدْهُ من عمري أربعينَ سنةً، فلما انقضى عُمرُ آدمَ جاءهُ مَلكُ الموتِ فقال: أوَلَمْ يبقَ من عمري أربعونَ سنة؟ قال: أوَلَمْ تُعْطِها لابْنِكَ داودَ؟ قال: فجَحَدَ آدمُ، فجَحَدَتْ ذرِّيَّتُهُ! ونَسِيَ آدَمُ فنَسِيَتْ ذرِّيَّتُهُ ! وخَطِئَ آدَمُ، فخَطِئتْ ذرِّيَّتُهُ!» [صحيح الترمذي: ٢٤٥٩. والترمذي: (٣٠٧٦)]. فهذا الحديث صريحٌ واضحِ الدلالة على أنَّ ربَّ العزة استخرجَ من ظهر آدم ذريته، وأراهم آدم ﷺ، وجعل بين عيني كلِّ إنسان منهم وبيصاً من نور.

وعن ابنِ عباس عن النبي ﷺ قال: «إنَّ اللهَ أخَذَ الميثاقَ من ظَهْرِ آدمَ ﷺ بنُعْمانَ -يعني عرفه- فأخْرَجَ من صُلْبِهِ كلَّ ذريةٍ ذرأها، فنثَرَها بين يديه، ثم كلَّمهم قُبُلاً قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢] ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٣]» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٢٢٩) الراجح وقفه، أخرجه أحمد (١/ ٢٧٢ ورقمه ٢٤٥١)، والنسائي في الكبرى (١١١٩١)، والطبري (١٥٣٤٩)، والحاكم (١/ ٢٧، ٢/ ٥٤٤) من حديث كلثوم بن جبر عن سعيد بن جُبَيْرٍ عن ابن عباسٍ مرفوعاً. صحَّحه الحاكم. وذكَّر محقِّقُ ابنِ كثير أنَّ الصوابَ في هذا الحديث الوقف، كما رواه غير واحد].

جنـــــة السـنة

وعن هشام بنِ حكيم ﷺ أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ فقال: «يا رسولَ الله، أتُبْدأُ الأعمالُ، أمْ قُضِيَ القضاءُ؟ قال: فقالَ رسولُ الله ﷺ: إنَّ اللهَ قَدْ أخذَ ذُرِّيَّةَ آدمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ، ثمَّ أشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهِمْ، ثم أفاضَ بهمْ في كَفَّيْهِ، ثم قال: «هؤلاءِ في الجنةِ، وهؤلاءِ في النارِ» فأهلُ الجنّة مُيَسَّرونَ لعملِ أهْلِ الجنةِ، وأهْلُ النارِ ميسَّرونَ لعمل أهْلِ النارِ» [قال محققُ ابن كثير: (٣/ ٢٣٣) أخرجه الطبريُّ: (١٥٣٧٧)، والبزار: (٢١٤١)، والطبراني: (٤٣٤، ٤٣٥) والآجريُّ في الشريعة: (٣٤٣) وإسناده حسن، ورجاله ثقات].

وعن مسلم بن يَسارٍ الجُهَنِّي: أن عمر بن الخطاب سُئِلَ عن هذه الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ ... الآية، فقال عمرُ بن الخطاب: سمعتُ رسولِ الله ﷺ سُئل عنها، فقال: «إنَّ اللهَ خَلَقَ آدمَ ﷺ ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ بيَمِينِهِ، فاسْتَخْرَجَ منهُ ذريةً، قالَ: خَلَقْتُ هؤلاءِ للجنة، وبِعَمَلِ أهْلِ الجنَّةِ يعملون، ثم مَسَحَ ظَهْرَهُ، فاستخْرَجَ منه ذريةً، قال: خَلَقْتُ هؤلاءِ للنار وبعَمَلِ أهلِ النار يعملونَ» فقالَ رجلٌ: يا رسولَ الله، ففيمَ العملُ؟ قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا خَلَقَ اللهُ العَبْدَ للجنةِ اسْتَعْمَلَهُ بأعْمالِ أهلِ الجنَّةِ، حتى يموتَ على عَمَلٍ من أعمالِ أهلِ الجنة، فيُدْخِلَهُ به الجنة، وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ اسْتَعْمَلَهُ بأعمالِ أهلِ النارِ حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النارِ، فيدخِلَه بِهِ النَّارَ» [قال محقق ابن كثير: ٣/ ٢٣١: أخرجه أبو داود: (٤٧٠٣) والترمذي (٣٠٧٥) وأحمد: (١/ ٤٤-٤٥) والطبري: (١٣٥٦٨) والحاكم: (١/ ٢٧ و٢/ ٥٤٤) وابن حبان: (٦١٦٦) كلُّهم من طريق مالكٍ به، وفيه إرسالٌ بين مسلمِ بن يسارَ وعمرَ، لكن جاء موصولاً في رواية أبي داود (٤٧٠٤)، وللحديث شواهد تقويه إن شاء الله].

وذهبَ بعضُ المفسرين كابن كثير والزمخشريِّ أنَّ أخذهم مِنْ ظهور بني آدم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو وجودُهم قرناً بعد قرْنٍ، وجيلاً بعد جيل، عن طريق التناسل، والمعنى: أنَ اللهَ خلق بني آدَمَ، وخلقَ مِنْ هؤلاءِ ذريةً، فينقضي هذا القرن، ويخلق من هذا القرن ذريةٌ، كما قال: ﴿كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام:١٣٣].

وعلى هذا القول، فالأخذ من ظهورهم: هو استخراج النطف من أصلابهم عن طريقِ التناسلِ قرناً بعد قرنٍ، وعلى هذا القولِ، فقوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الذين قالوا هذا القولَ قالوا: أشهدهم على أنفسهم بلسانِ الحال لا بلسان المقال [العذب النمير: ٤/ ٣٠٩].

والقولُ الأول هو الصحيحُ، وعليه أكثر المفسرين، والأحاديثُ الصحيحةُ التي أوردتُها تدلُّ عليه، واللهُ أعلم.

جنـــــة السـنة

٢- إشهادُ الله -تعالى- بني آدمَ على أنفسهم وهم في عالمِ الذرِّ:

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢] أخَذَ ربُّ العزةِ ذريةَ آدمَ من صُلْبِهِ، وأشهدهم على أنْفُسهم بأنَّه ربُّهم وخالقُهُمْ، ومعبودُهُمْ الحقُّ الذي لا معبودَ لهم سواه، فأقَرُّوا وشهدوا بأنَّه ربُّهم ومعبودُهُمْ.

٣- إرسالُ الله -تعالى- الرسلَ ليُعْلِموا العبادَ بالعهدِ الذي أُخِذَ عليهم:

لا يتذكر أحدٌ من بني آدمَ الميثاقَ الذي أخذه عليه وهو في عالمِ الذرِّ، فأرْسَلَ اللهُ -تعالى- الرُّسُلَ لتُذَكِّرَهُمْ به، وتحدِّثهم عنه، وإخبارُ الرسلِ بذلك الميثاقِ خبرٌ صادق قَطْعِيُّ الثبوتِ. فيقومُ إخبار الرسل مقام تذكُّرِهِمْ، بل هو أقوى، ولذلكَ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف:١٧٢] أي: أرسلنا إليكم الرسلَ ليُعْلِموكم بهذا الميثاقِ، لئلا تقولوا يوم القيامةِ، إنا كنا عن هذا الميثاق غافلين.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف:١٧٣]، أي: أرسلنا الرسلَ وأنْزَلنا الكتب، لئلا تقولوا إنما أشرك آباؤنا، وكنا ذريةً من بعدهم سائرون على طريقهم، أفتهلكنا بما فعلَ المبطلون، أي: أنَّ الله تعالى أرسلَ الرسلَ، فبينوا وأمروا، ونهوا، حتى لا يقال: كنا جاهلين غافلين سائرين على طريق الآباء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [الأعراف:١٧٤] أي: نفصِّلُ الآياتِ مثل هذا التفصيل الذي وضَّحناه في هذه الآيات، والتفصيلُ ضد الإجمال، وقوله: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ أي: ليرجعوا إلى طريق الهدى.

٤- قصة الذي آتاه اللهُ تعالى آياته فانسلخ منها:

أمَرَ اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنْ يقصَّ على قومِهِ قصةَ الذي آتاه اللهُ تعالى آياتِهِ التي أنزلها على رسولٍ مِنْ رسله، فانسلخ منها، أي: فهجرها، وتركها، ولم يعمل بها، فأتبعه الشيطانُ، أيْ: أدْرَكَهُ الشيطانُ، وتسلَّط عليه، فكان مِنَ الغاوين، أي: مِنَ الضالينَ الهالكينَ الفاسدين ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [الأعراف:١٧٥].

وأخبرنا ربُّنا وهو العليُّ الأعلى أنَّه لو شاء لرفعه بالآياتِ التي آتاه إياها، أي أعلى مقامه، ورفع ذكره، ولكنه لم يتمسك بها، وهجرها، ومال إلى حطام الدنيا الفاني، وشهواتِ

جنـــــة السـنة

الدنيا الزائلة: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وإخلادُهُ إلى الأرضِ: ركونه إلى الدنيا، أو ركونُه إلى شهواتِها، وقد ضربَ اللهُ تعالى مثلاً لهذا النوع الضال من البشر، فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٦].

قال ابن الجوزي في بيان معنى المثل «معناه أنَّ هذا الكافر، إن زجرتَه لم ينزجر، وإن تركتَه لم يهتد، فالحالتان عنده سواء كحالتي الكَلْبِ، فإنه إن طُرِدَ وحُمل عليه بالطرد كان لاهثاً، وإن تُرك وربَض كان أيضاً لاهثاً، والتشبيهُ بالكلب اللاهثِ خاصةً؛ فالمعنى: فمثله كمثل الكلب لاهثاً؛ وإنما شبهه بالكلبِ اللاهثِ، لأنه أخسُّ الأمثال على أخس الحالات وأبشعها. وقال ابن قتيبة: كلُّ لاهثٍ إنما يلهث مِنْ إعياء أو عطشٍ، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال راحته وحال كَلاله، فضربه الله مثلاً لمن كذَّب بآياته، فقال: إن وعظتَهُ فهو ضالٌّ، وإن لم تعظْهُ فهو ضالّ، كالكلب إن طردته وزجرته لهث، أو تركته على حاله رابضاً لهث» [زاد المسير: ٣/ ٢٩٠].

وقوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾ [الأعراف:١٧٦] أي: أنَّ هذا المثَل ضربَهُ ربُّ العزة للقومِ الذين كذَّبوا بآياتِ الله المنزلةِ على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ، فالكافرُ إنْ وَعَظْتَهُ فهو ضالٌّ، وإنْ تركته فهو ضالٌّ، فهو كالكلبِ إن حملتَ عليه فهو يلْهَث، وإن تركته فهو يلْهَث، أي هو لاهث دائماً وأبداً. وقوله: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: اقصص عليهم يا نبيَّ الله ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ أي: قصص الذين آتيناهم آياتنا، فانسلخوا منها ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ أي: لأجلِ أنْ يتفكروا، فيتعظوا بمثلاتِ الله، وما أوقعه بالذين عَصَوْهُ في الزمن الماضي لينزجروا وينكَفُّوا.

وقوله تعالى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾ [الأعراف:١٧٧]، ومعنى ساءَ: قَبُح، وساءَ: مِنْ أفعالِ الذمِّ كـ (بئس)، و(مثلاً) تمييزٌ. والمخصوصُ بالذمِّ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: ساءَ مثلاً مثلُ القومِ الذين كَذَّبوا بآيات الله.

وقوله: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ أي: لما كذَّبوا بآياتِ الله ظلموا أنفسهم، ولم يظلموا غيرهم.

٥- الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها صنفٌ مِنَ الناسِ موجودٌ في أكثرِ العصورِ:

حمل كثيرٌ مِنَ المفسرين قولَه تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف:١٧٥] على رجلٍ مِنْ بني إسرائيلَ أو رجلٍ مِنَ الكنعانيين الجبارين الذين أُمِرَ

جنـــــة السـنة

الإسرائيليون بقتالهم، والرجلُ الذي مِنْ بني إسرائيل هو بلعامُ بن باعوراء، وقال آخرون هو أمية بن أبي الصلت الثقفي، وكان يقرأُ الكتابَ الأول، ويتعلم مِنَ الكتبِ الأُولى، وكان يعلم بأنه سيُبعثُ في الجزيرة العربيةِ نبيٌّ، وكان يرجو أن يكون هو ذلكَ النبي، فلما بُعِثَ نبينا ﷺ حَسَدَه، وكفر.

وقد ورد في صحيح مسلم عن عمرو بن الشريد، عن أبيه أن الرسول ﷺ قال له، وهو مُرْدِفَهُ خَلْفَه: «هل معكَ مِنْ شِعْر أُميَّةَ بنْ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟ قلتُ: نعم، قال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، فأنشدته بيتاً، فقال: هيه، حتى أنشدته مائة بيت» [مسلم: ٢٢٥٥].

وزاد في بعض الروايات في صحيح مسلم أنه قال: «إنْ كادَ ليُسْلِمَ» [مسلم: ٢٢٥٥].

وقال آخرون: نزلت الآياتُ في أبي عامرٍ الراهبِ ابن صَيْفِي، وهو رجلٌ من الأنْصارِ، وكان يُكنى بأبي عامرٍ الراهب، وقد كَفَر، وحاربَ المسلمين في أُحُد.

وكلُّ هذا الذي أرادوا حمل الآية عليه، ليس هناك ما يدلُّ على صحته، والصوابُ مِنَ القولِ: أن هذه الآية في صنف من النَّاس، أُعطوا شيئاً من عِلْم الكتابِ الذي أنزله اللهُ تعالى على رسولٍ مِنْ الرسل، ثم إنَّهم كفروا وكَذَّبُوا، ولا يكادُ يخلو عصر مِنَ العصور من أمثالِ هؤلاءِ في القديم والحديث.

٦- المهتدي من هداه اللهُ تعالى والضالُّ من أضلَّه اللهُ:

لما ذكرَ اللهُ تعالى قصةَ الذي آتاه -تعالى- آياتِهِ فانسلخ منها، وبيَّنَ أنه لو شاء رفعه بتلك الآياتِ، وهداه إلى العمل بها، صَرَّح في الآية التالية أنه ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝١٧٨ ﴾ [الأعراف:١٧٨]، أي: أنَّ المهتدي هو مَنْ هداه اللهُ، والضالَّ: هو من أضلَّه اللهُ.

وهذه الآية وأمثالُها حجَّةٌ على القدريةِ الزاعمين أنَّ اللهَ لا يُضِلُّ أحداً، وقد زعموا أنَّ اللهَ تعالى لا يريدُ الإضلالَ والقبائحَ والمعاصي، فالعبدُ هو الذي يخلق فعله مِنَ الكفرِ والقتلِ والسرقةِ والزنا.

والحقُّ أنَّ الله تعالى سبق في علمه أنَّه يشاءُ أعمال بعض عبادِهِ مِنَ الكفر والضلال، كما يشاءُ بعضَ أعمالِ عباده مِنَ الإيمانِ والصلاحِ والصلاةِ والصيام، وقدَّر أنَّ بعضَ عبادِهِ يدخلون النارَ، وبعمل أهل النارِ يعملون، وبعضهم يدخلون الجنَّة، وبعمل أهل الجنةِ يعملون.

جنـــــة الســـــنة

وقد جرتْ مناظرةٌ بين أبي إسحاق الإسفراييني مع القاضي عبدالجبار من المعتزلة القائلين بهذا المذهب، فقد قال عبدالجبار في مجلس ضمَّه مع أبي إسحاق: سبحان مَنْ تنزَّه عن الفحشاء، يعني أنه تنزه عن أن تكون السرقة والزنا ونحوها بمشيئته.

فقال أبو إسحاق: كلمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ، ثم قال أبو إسحاق: سبحانَ مَنْ لا يقعُ في ملكه إلا ما يشاء.

فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه ويعاقبني عليه؟

فقال أبو إسحاق: أتراكَ تفعله جبراً عليه؟ أأنت الرب وهو العبد؟

فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني للهدى، وقضى عليَّ بالردى، دعاني وسدَّ البابَ دوني، أتراه أحسنَ إليَّ أم أساء؟

قال أبو إسحاق: أرى هذا الذي مَنَعَكَهُ إنْ كان حقّاً واجباً لك عليه فقد ظلمك، وقد أساءَ، وإنْ كان ملكه المحض فإنْ أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل، فبُهتَ عبدالجبار، وقال الحاضرون: والله ما لهذا جواب!! ولذا قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام:١٤٩] مَنُّهُ بالتوفيق على قوم، وعدم مَنِّهُ بالتوفيق على آخرين حجته البالغة.

وذكروا أنَّ عمْرو بن عبيد - كبير المعتزلة، المشهور بالعبادة والنسك، وهو مِنْ كبارِ أهلِ هذا المذهب الخبيث، جاءه بدوي أعرابيٌّ يقول له: إن دابَته سُرِقت، يريد أن يدعوَ اللهَ ليردَّها عليه، فأراد عمرو بن عبيد التقربَ بهذا المذهب الخبيث، فقال: اللهمَّ إنَّها سُرقت، ولم تُرد سرقتها، فارددها عليه، فقال له الأعرابي البدوي الجاهل: ناشدتكَ اللهَ يا هذا إلا ما كففت عني من دعائك الخبيث، إنْ كانت قد سُرقت، ولم يُرد سرقتها، فقد يريدُ رَدَّها، ولا تُرُد، فالذي يُفعل الشيء دونه ولا بمشيئته فأنا لست على ثقة منه أن بيده شيئاً.

فالحاصلُ أنَّهم وقعوا في شرٍّ مما فروا منه، والدليلُ القاطعُ الذي لا يترك لهم شبهة هو دليل العلم، وإيضاح ذلك أنك تقول للمعتزليِّ القدريِّ إذا ناظرته: هل أنتَ مقرٌّ بأنَّ الله (جل وعلا) يعلمُ ما يكون قبل أن يكون؟ فلا بد أن يقول: نعم؛ لأنَّ كلَّ مَنْ يقرُّ بالإسلام يقرُّ بهذا، فتقولُ له: إذنْ هذا العمل الذي زعمت أنَّ العبدَ يخلقُه بقدرتِهِ وإرادته مِنْ غير مشيئةِ الله آلله عالم أنه يقع من هذا العبد؟ فيقول: نعم. فقل له: لو شاء العبد أن يعملَ ذلك العمل ويستقلَّ به مخالفاً لما سبق به علم الله الأزلي فهل يمكنه ذلك؟ فقولك إنَّهُ مستقلٌّ به يقتضي أنَّه يمكنه أنْ يعمل عملاً مستقلاً غير ما سبق به العلم، فينقلب عِلْمُ الله جهلاً -سبحانه وتعالى

جنـــــة السـنة

عما يقول الظالمون الفجرة علواً كبيراً- فإذن لا بد أنْ يكون العمل مطابقاً لما سبق به علم خالق السماوات والأرض في أزله.

فالحاصلُ أنَّ الله -تبارك وتعالى- خلقَ للنارِ خلقاً علم أنّهم من أهلِ النار، وأنّها أولى بهم، وخلق للجنةِ خلقاً علم في أزله بأنهم أهلٌ لها، ثم إنَّ الله -تبارك وتعالى- يُيَسِّر كُلاًّ من الفريقين لما خلقه له، فيعمل هؤلاء بعمل أهل الجنة حتى يدخلوها، وهؤلاء بعمل أهل النار حتى يدخلوها [العذب النمير: ٣/ ٣٣٤-٣٣٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- عن حقيقةٍ علمية في هذه الآيات، فقد أخبرنا سبحانه أنَّ ذريةَ بني آدمَ مأخوذةٌ من ظهورهم.

٢- أخَذَ اللهُ تعالى ذرية آدم مِنْ ظهره، وأخَذَ عليهم العهدَ بأن يتخذوه ربّاً وإلهاً، وأشْهدَهم على ذلكَ، فشهدوا، وأقَرُّوا.

٣- أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ، فأخبرونا بالميثاقِ الذي أخذَه اللهُ علينا، ونحن في عالم الذَّرِّ.

٤- ضرب اللهُ تعالى مثلاً للذين كذبوا بآياتِهِ، بالكلب دائمِ اللهاثِ، فالمكذِّبُ بآياتِ الله كافرٌ في كلِّ الأحوالِ كالكلب دائم اللهاث في كُلِّ الأحوال.

٥- اللهُ تعالى هو الهادي المضلُّ، يهدي مَنْ يشاءُ، ويضلُّ مَنْ يشاء، وفي هذا ردٌّ على القدريَّةِ الذين يزعمون أنَّ العبد هو المنشئُ لفعله، وليس لله قدر ماضٍ فيه.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السادس والعشرون من سورة الأعراف
خلق الله تعالى لجهنَّم كثيراً مِنَ الجنِّ والإنس

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا في هذه الآياتِ الكريماتِ أنَّه خلق للنارِ أقواماً مِنَ الجنِّ والإنس، وقد عَلِمَهم اللهُ قبل أنْ يخلقهم، وهؤلاءِ الذين خلقهم للنار، لا ينتفعون بقلوبهم، ولا بعيونهم، ولا آذانهم، وحالهم كحالِ الأنعام، بل هم أضلُّ.

وأعلمنا ربُّنا بأنَّ له الأسماءَ الحسنى، وأمرنا بأنْ ندعوه بها، وذمَّ الذين يلحدون في أسمائِه، أي: ينحرفونَ بها عن المسارِ الصحيح، وتهدَّدهم بأنَّه سيجزيهم بما كانوا يعملون، وأعلمنا الحقُّ تبارك وتعالى بأنَّه ستبْقَى طائفةٌ من هذه الأُمَّة ظاهرةً على الحقِّ عاملةً به إلى يوم القيامة.

ونفى اللهُ عن رسولِهِ ﷺ الجنونَ، وأمرنا بالتفكر في حال رسولنا وصفاتِهِ وتصرفاتِهِ، لنعلمَ مدى عقله وفقهه، وأمرنا بالنظر في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما خلقه من مخلوقات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ
وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ
يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي
مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾
مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٩-١٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذرأَ اللهُ -تعالى- للنارِ كثيراً من الجنِّ والإنس:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه ذرأ للنارِ كثيراً من الجنِّ والإنس ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف:١٧٩]، واللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئة لقسمٍ محذوف،

جنـــــة الســـــنة

و(قد) حرْف تحقيق، تضمنت التوكيد، وقوله: ﴿ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا، وبينت بعضُ الأحاديث الصحيحة مدى الكثرة التي تدْخُلُ النارَ من الجنِّ والإنس، فاللهُ -تعالى- يُدْخِلُ النارَ مِنْ كلِّ ألفٍ تسعمائة وتسعةً وتسعين واحداً، وواحِدٌ يدخلُ الجنَّة.

والآيةُ تدلُّ على أنَ مصيرَ الكفار مِنَ الجنِّ النارُ، وهذا لا خلاف فيه بين أهل العلم، والصحيحُ مِنْ أقوالِ أهْلِ العلم أنَّ مصيرَ المؤمنين من الجنِّ الجنَّة، خلافاً لمن أنْكرَ ذلك، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾ [الرحمن:٤٦-٤٧]، فالمخاطب بالآية الإنس والجن.

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ اللهَ يعلم أهل الجنّة وأهل النار قبل أنْ يخلقهم، فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أولادِ المشركينَ. فقالَ: «اللهُ أعلمُ بما كانوا عامِلِينَ» [مسلم: ٢٦٥٩].

وعن سعيد بن جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ. قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ عن أولادِ المشركينَ؟ قالَ: «اللهُ إذ خَلَقَهُمْ أعلمُ بما كانوا عامِلِينَ» [البخاري: ١٣٨٣. ومسلم: ٢٦٦٠].

وعن سعيدِ بن جُبَيْرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ، عن أبيِّ بن كعبٍ، قال: قال رسولُ الله ﷺ : «إنَّ الغلامَ الذي قتَلَهُ الخَضِرُ طُبِعَ كافِراً، ولو عاشَ لأرْهَقَ أبَوَيْهِ طُغْياناً وكُفْراً» [مسلم: ٢٦٦١].

وعن عائشةَ أُمِّ المؤمنينَ قالتْ: دُعِيَ رسولُ الله ﷺ إلى جَنازةِ صَبِيٍّ مِنَ الأنْصارِ. فقلتُ: يا رسولَ الله! طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافيرِ الجنة! لَمْ يعملِ السوءَ، ولم يُدْرِكْهُ. قال: «أوَ غيرَ ذلكَ، يا عائشةُ! إنَّ اللهَ خَلَقَ للجنَّةِ أهلاً، خَلَقَهُمْ لها وهُمْ في أصْلابِ آبائِهِمْ، وخَلَقَ للنارِ أهْلاً، خَلَقَهُمْ لها وهُمْ في أصْلابِ آبائِهِمْ» [مسلم: ٢٦٦٢].

وقد أخبرنا ربّنا -عز وجل- أنَّ هؤلاءِ الذين ذرأهم لجهنَّم ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف:١٧٩] أي: أنَّ اللهَ تعالى جعلَ لكلٍّ مِنَ الجنِّ والإنس الذين ذرأهم لجهنم قلوباً لا يفقهونَ بها الحقَّ، ولا يبصرونه، ولا يسمعونه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٢٦]، وقال: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة:١٨]، وقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣].

وقوله: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي: لا يفهمون، وقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ يدلُّ أنَّ مركزَ العقلِ هو القلبُ، لا الدماغ كما يزعم كثيرٌ مِنْ الفلاسفة. وقد حكَمَ اللهُ تعالى على هذا الصنف مِنَ البشرِ أنَّهم كالأنعام بَلْ هم أضلُّ منها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

جنـــــة السـنة

[الأعراف:١٧٩]. والأنعامُ هي الإبل والبقر والغنم، وحكم عليهم بأنَّهم كالأنعام، لأنها تسمع صوت الراعي، ولكنَّها لا تفقهه، فلو قال الراعي لأنعامه: اذهبي إلى مكانِ كذا، واحذري أن تذهبي إلى مكانِ كذا، فإنَّها لا تفهم ما قال لها. وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ بل هم أضلُّ مِنَ الأنعام، لأنَّ الأنعام تسبِّحُ بحمد ربِّها، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، والكفارُ لا يسبحون بحمد الله تعالى.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ أي: أولئك الذين استولت الغفلةُ على قلوبهم، لا يفهمون شيئاً.

٢- اللهُ -تعالى- له الأسماءُ الحسنى، وقد أمرنا ربُّنا أنْ ندعوه بها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ له الأسماءُ الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف:١٨٠] والحسنى: تأنيث الأحسن، وهي صيغةُ تفضيلٍ، وأسماءُ الله تعالى أحسنُ شيءٍ، وهي أفضلُ مِنْ كلِّ شيء في الحسن والجمال، وأسماءُ الله تدلُّ على صفاتِ كمالِهِ وجلالِهِ تبارك وتعالى.

وأسماءُ الله التي أنزلها ربُّنا في كتابِهِ وسنة رسوله ﷺ تسعةٌ وتسعون اسماً، فعن أبي هُرَيْرَة ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ لله تِسْعَةً وتسْعينَ اسْماً، مائةً إلاَّ واحداً، مَنْ أحْصاها دَخَلَ الجَنَّة» [البخاري: ٢٧٣٦. ومسلم: ٢٦٧٧].

وفي روايةٍ: «لله تسْعَةٌ وتُسْعون اسماً من حفظها دَخَل الجنة، وإنَّ اللهَ وتْرٌ يحبُّ الوتْرَ» [البخاري: ٦٤١٠. مسلم: ٢٦٧٧. واللفظ لمسلم].

وأسماءُ الله -تعالى- التي علَّمها بعضَ خلقِهِ، أو استأثر بها في علم الغيب عنده أكثر مِنْ ذلك، فعن عبدالله بن مسعودٍ ﷺ عن رسولِ الله ﷺ أنه قال: «ما أصابَ أحَداً قطُّ همٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهمَّ، إني عبدُك، ابنُ عبدك، ابنُ أَمَتِكَ، ناصيتي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤُكَ، أسألكُ بكلِّ اسمٍ هو لَكَ سمَّيتَ به نفسَكَ، أو أنْزَلْتَه في كتابكَ، أو عَلَّمتَهُ أحداً من خَلْقكَ، أو اسْتَأثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغيبِ عندَكَ، أنْ تَجْعَلَ القرآنَ العظيمُ ربيعَ قلبي، ونورَ صَدْرِي، وجِلاءَ حُزْنِي، وذهابَ همِّي -إلا أذهبَ اللهُ همَّهُ وحُزْنَهُ، وأبْدَلَهُ مكانه فَرَحاً. فقيل: يا رسولَ الله، أفلا نتعلَّمُها؟ فقال: بَلَى، ينبغي لمن سَمِعَها أن يَتعلَّمها» [قال محقق تفسير ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد (١/ ٣٩١ و٤٥٢) وأبو يعلى (٥٢٩٧) والحاكم (١/ ٥٠٩) وابن حبان (٩٧٢) من طرق عن فضيل بن مرزوق به، وإسناده صحيح].

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] أي: فادعوه بهذه الأسماءِ، فيدعو المرءُ بالأسماء التي تناسبُ حاله، فيقولُ: يا اللهُ، يا رحمنُ، يا رحيم، يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، يا قويُّ، ولا يدعو الله بغير أسمائه، فلا يقول: يا سخيُّ، يا شيء، يا فاهم، يا جَلْدُ.

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٠] وقوله: ﴿وَذَرُوا۟﴾ معناه: اتركوا، وصيغة الأمر هنا للتهديد، ومعنى الإلحاد في اللغة: الميلُ عن القصدِ والجورِ عنه.

والذين يلحدون في أسماءِ الله تعالى الذين يميلون فيها عن الحقِّ، فمن أسماءِ الله تعالى: الواحد، ﴿إِنَّ إِلَـٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾﴾ [الصافات:٤]. وقد ألحدَ المشركون في هذا الاسم، فقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص:٥].

ومن إلحادهم اشتقاقُهُمْ اسم اللاتِ لصنمٍ من أصنامهم من اسم: الله، واشتقاقهم العُزَّى من اسم العزيزِ، واشتقاقهم مناةَ مِنَ المنانِ.

وقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ أي: سيجزيهم ربُّ العزة تبارك وتعالى يومَ القيامةِ جزاءَ ما كانوا يعملونه في الدنيا، ويَدخُلُ في ذلك إلحادهم في أسمائه.

٣- لا تزالُ طائفةٌ من هذه الأمة ظاهرةً على الحق:

أخبرنا -تباركَ وتعالى- أنه ستبقى طائفةٌ من هذه الأمةِ تهدي بالحق، وتعدلُ به، ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ [الأعراف:١٨١] وكان مِنْ قومِ موسى أمةٌ مثلَ ذلك ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف:١٥٩].

وعن معاويةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لا يزالُ مِنْ أُمَّتي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمْرِ الله، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، ولا مَنْ خالَفَهمْ، حتى يأتِيَهُمْ أمْرُ الله، وهُمْ على ذلك» [البخاري: ٣٦٤١. ومسلم: ١٠٣٧ (١٧٤) بإثر الحديث (١٩٢٣) (١٧٣) وقد رواه صاحبا الصحيحين وغيرهم عن عدد من الصحابة غير معاوية، انظر جامع الأصول ٩/ ٢٠٣-٢٠٦].

وقولُهُ: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناسَ بالحقِّ، وقوله: ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾ أي: يعملون هم في أنفسهم، والعدالةُ: التوسط بين أمرين، والتجافي عن الإفراط والتفريطِ.

٤- استدراجُ اللهُ تعالى الكافرين:

أخبرنا اللهُ تعالى أنَّه سيستدرجُ المكذبين بآياتِهِ من حيثُ لا يعلمونَ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الأعراف:١٨٢]. واستدراجُهُمْ يكونُ بإرسال النعم عليهم، فيكثرُ خَصْبُ بلادهم وأرزاقهم وعافيتهم ويكثر عَدَدُهم، فيزدادون كفراً وبطراً، فيقربون مِنَ الهلاكِ درجةً، ثم يغدق عليهم النعم مرةً أخرى، فيزدادون بطراً إلى

جنـــــة السـنـة

بطرهم وكفراً إلى كفرهم، وهكذا، حتى يأتيهم العذابُ، ويهلكهم الله تعالى، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام:٤٤].

والاستدراجُ في اللغة: تقريبُ الشيءِ درجةً درجةً إلى ما يرادُ منه.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾ أي: مِنَ المكان الذي لا يعلمون أنّا سنتدرجهم إليه، بل يظنون أنَّ تلك النعمَ مسابقة لهم في الخيرات، وأنَّهم ينالون بعد ذلك أحسن منه.

وقوله تعالى: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٣] ومعنى ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: أُؤخرهم وأُمهلهم زمناً غير قليلٍ ولا قصيرٍ، حتى يغتروا بالنعمِ التي يغدقها اللهُ عليهم، فيهلكهم، وهم غافلون، وفي الحديثِ عن أبي موسى ﷺ، قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى لَيُمْلِيْ للظالِمِ حتى إذا أخذَهُ لم يُفْلِتْهُ» ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢] [البخاري: ٤٦٨٦. ومسلم: ٢٥٨٣].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ أي: قويٌّ شديدٌ.

٥- نفْيُ اللهِ تعالى الجنونَ عن رسولنا ﷺ :

دعا ربُّنا -تبارك وتعالى- قريشاً الذين رَمَوْا رسولنا ﷺ بالجنونِ أن يتفكروا في صاحبهم، يريدُ بِهِ محمداً ﷺ ، والتفكرُ أن يعمل الإنسانُ فكره في الأمرِ الذي يَعْرِضُ له، حتى يدركَ حقيقته.

وإذا أمعنَ المرءُ النظرَ في الرسولِ ﷺ ، فإنَّ نظره سيهديه إلى أنَّه إنسان عاقلٌ حكيم، بعيدٌ عن الجنونِ والهوجِ، يدعو إلى أحسن الطرقِ وأقومها، ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾ [الأعراف:١٨٤].

والإنذارُ: الإعلامُ المقترنُ بتهديد، والنذيرُ: المنذر، وقوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ البيِّنُ الواضحُ لما ينذرنا به، ويحذِّرُنا منه.

وقد نفى اللهُ تعالى الجنونَ الذي رمى به العربُ والناسُ رسولَنا ﷺ كثيراً في كتابه، فقال: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾ [القلم:٢]، وقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾

جنـــــة السـنة

[الطور:٢٩]، وقال: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ:٤٦].

٦- دعوةُ اللهِ العبادَ إلى التفكُّرِ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ:

دعا اللهُ -تباركَ وتعالى- عبادَه إلى التفكرِ والنظرِ في ملكوتِ السمواتِ والأرض، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥]. والملكوتُ: ملكُ الله العظيم في السماواتِ والأرضِ، فقد بنى ربُّنا فوقنا سبعَ سنواتٍ قويةً شديدةً واسعةً ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ ﴾ [النبأ:١٢] وقال: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الذاريات:٤٧] ودعانا ربنا إلى النظر في السموات والأرضِ، فقال: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ ﴾ [ق:٦-٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ دعوةٌ مِنْ ربِّ العبادِ لِنَنْظر في كلِّ شيء خلقه ربُّ العزَّة، مِنَ الشمسِ والقمر والنجومِ والجبالِ والسهولِ والبحارِ والأنهارِ والعيونِ والمعادنِ، والدوابِّ، والطيورِ، وغير ذلك، فكلُّ شيءٍ خلقه اللهُ تعالى فيه آيات بينات.

وفي كـــل شيء لـــــه آيـــــة تــــدل عـــلى أنــــه الواحــــد

وقوله تعالى: ﴿ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٥]، في هذه الآية تهديد للكفرةِ المكذبين بآياتِ الله تعالى، تهدَّدَهُمْ تبارك وتعالى باقترابِ آجالهم، خوفَ أن يفاجئهم الموتُ فيهلكوا على كفرهم، فيصيروا إلى النارِ، وقوله: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا القرآنِ العظيم، ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ وقد سمَّى الله تعالى كتابَهُ حديثاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر:٢٣].

٧- الذي يضلُّهُ ربُّ العزَّةِ لا هاديَ له:

أخبرنا اللهُ تعالى في الآيةِ الأخيرةِ من هذا النص أنه: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٦]، أي: أنَّ الذي يضلُّه ربُّ العزَّةِ، فلا أحد يستطيعُ هدايتَهُ، ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦].

جنـــــة السـنـــة

وقد أجْهد رسولُنا ﷺ نفسه ليهدي عمَّهُ أبا طالب، وحرصَ نبيُّ الله نوحٌ على هداية ابنه، واجتهد نبيُّ الله إبراهيم أن يهديَ أباه، فما استطاعوا، فمن أضلَّهُ اللهُ فلا هاديَ له، ومَنْ هداه اللهُ، فلا مضلَّ له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف:١٨٦]. ومعنى ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ أي: يتركهم، وقوله: ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ الطغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ، يقال: طغى الشيءُ إذا جاوز حدَّه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة:١١] وطغيانُ الماءِ: مجاوزته الحدودَ التي يبلغها الماءُ عادة.

وقوله: ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ العمى يطلقُ على عمى العينِ وعمى القلبِ، أما العَمَهُ: فلا يطلق إلا على عمى القلب.

ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ أي: يترددون حائرين، لا يعرفون حقّاً من باطلٍ، ولا حسناً من قبيحٍ، ولا ضلالاً من هدى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - خلق اللهُ تعالى للنار أهلاً مِنَ الجنِّ والإنس، فلا يستطيع أحدٌ هدايتهم.

٢- لا ينتفعُ الذينَ خلقهم اللهُ للنار بقلوبهم، ولا أعينهم، ولا أبصارهم، ومثلهم كمثل الدوابِّ مِنَ الإبلِ والبقرِ والغنمِ، بل هم أضل منها.

٣- الجنُّ لهم قلوبٌ وأبصارٌ وآذانٌ.

٤ - اللهُ تعالى له أسماءٌ كثيرةٌ أنزلها في كتابه، وحَدَّث بها رسولُهُ ﷺ ، وله أسماءٌ اختصَّ بها بعضَ عبادِهِ، أو استأثر بها في علم الغيب عنده، وقد أمرنا ربّنا أنْ ندعوه بأسمائِه الحسنى.

٥- أمرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنْ نترك الذين يلحدون في أسمائه، وتهدَّدَهم تبارك وتعالى بأنّه سيجزيهم ما كانوا يعملون.

٦- ستبقى طائفةٌ مِنْ هذه الأمةِ ثابتةً على الحقِّ، عاملة به إلى يوم القيامة.

٧- توعَّدَ اللهُ المكذبينَ بآياتِهِ، باستدراجهم بما يفتح اللهُ عليهم مِنَ الدنيا، حتى يأْخذهم، ويهلكهم.

جنـــــة السـنة

٨- رسولُنا ﷺ أعْقَلُ الناسِ، وأوعاهم، فقد نَشَرَ اللهُ على يديه هذا الدين، وقادَ الأمةَ الإسلامية خيرَ قيادةٍ، وجاهدَ أهلَ الكفر، كلُّ ذلك برصانةٍ وحكمةٍ وحسنِ نظرٍ، فهو أبعدُ الناس عن الجنونِ الذي رماه به قومُهُ.

٩- دعانا الله تعالى إلى التفكّر في خلقِ السماوات والأرض وجميعِ ما خلقه اللهُ من شيءٍ، ففي كل شيءٍ خلقه اللهُ تعالى آيةٌ، تدلُّ على وحدانيته سبحانه.

١٠ - اللهُ تعالى هو الهادي المضلُّ، ومَنْ يضلل اللهُ فلا هاديَ له، وفي هذه الآية ردٌّ على القدريَّةِ الذي يزعمونَ أنَّ العبدَ يخلقُ أفعاله، وأنَّ اللهَ لا يضلُّ أحَداً.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السابع والعشرون من سورة الأعراف

أولاً: تقديم

تناولتْ هذه الآياتُ عدة قضايا مهمة، **الأولى**: أنه لا يعلم وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا ربُّ العزةِ. **والثانيةُ**: أنَّ رسولنا ﷺ بشرٌ رسولٌ لا يملكُ لنفسه ضرّاً ولا نفعاً، ولا يعلمُ مِنَ الغيب إلا ما علّمهُ اللهُ تعالى. **والثالثةُ**: أنَّ الناسَ جميعاً مرجعهم إلى أصلٍ واحدٍ، هو آدمُ عليه السلام، وقد خلق مِنْ آدم زَوْجَه حواءَ ليسكن إليها. **الرابعةُ**: بعضُ الأزواجِ دَعَوا اللهَ ربَّهما إنْ آتاهما ولداً صالحاً، فإنهما سيكونان مِنَ الشاكرينَ له، فلما رزقهما الولد أشركا بالله. **الخامسةُ**: أن الأصنامَ والأوثان لا تصلح أن تكون آلهةً تُعبَدُ مِنْ دونِ الله، وقد بيَّنَ عدمَ صلاحيتها للعبادة مَنْ أربعةِ أوجهٍ ذكرتُها في تفسير الآيات.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأعراف

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَـٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٧-١٩٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يعلمُ وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا الله تعالى:

سألَ كفارُ قريشٍ رسولَنا ﷺ عن الوقتِ الذي تقعُ فيه الساعةُ، فأمرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أن يخبر الناسَ أنّه لا يعلم وقتَ وقوعِها إلاَّ اللهُ سبحانه: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا

جنـــــة السـنة

عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) ﴾ [الأعراف:١٨٧].

والساعةُ التي سأل كفارُ قريشٍ الرسولَ عن وقتِ وقوعها هي يومُ القيامة، والساعةُ في الأصلِ تُطْلَقُ على كلِّ وقتٍ من الزَّمَنِ، وغلب إطلاقُها على يومِ القيامةِ، وكان كفارُ قريشٍ يسألون عنها إنكاراً لها، كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى:١٨]، وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) ﴾ [الملك:٢٥]، وقوله: ﴿ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ أي: متى يكون وقوعها.

وقد أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقول للسائلين: ﴿ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: قُلْ لهم يا نبيَّنا: إنما علمها عند الله، و﴿ إِنَّمَا ﴾ أداةُ حصرٍ، أي علمها عند الله، فلا يعلمها لا ملكٌ مقربٌ، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وقد قال الرسولُ ﷺ لجبريل عندما جاءَه وهو في جمعٍ من الصحابة، فسأله عن الإيمانِ والإسلامِ والإحسانِ، ثم سأله عن الساعةِ، قال في الجواب: «ما المسؤولُ عنها بأعلم من السائل» [البخاري: ٥٠، مسلم: ٩، ١٠] فالمسؤولُ وهو أفضلُ الأنبياءِ والرسل لا يعلم متى تقعُ، والسائلُ وهو جبريلُ وهو أفضلُ الملائكةِ لا يعلم أيضاً متى تكونُ، وقوله: ﴿ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ﴾ أي: لا يوجِدُها ويظهرُها في وقتها أحدٌ غيره وقوله تعالى: ﴿ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: عظمَتْ على أهل السموات والأرض، لأن ما فيها مِنَ الأهوالِ لا تطيقه السمواتُ والأرضُ، ولا أحدٌ ممن فيهما، فمن ذلك -كما يقول ابن جريج- انشقاق السماءِ، وانتثارِ النجوم، وتكويرُ الشمسِ، وتسيير الجبالِ [ابن كثير: ٣/ ٢٤٥].

وقوله تعالى: ﴿ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: لا تقومُ الساعةُ على الناسِ إلاَّ فجأةً، وقد أخبرنا رسولُنا ﷺ أنَّ الساعةَ تقومُ والناسُ في أعمالهم وأشغالهم، فتأْخذهم من غير إمهال، فعن أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تطْلُعَ الشمسُ من مغْرِبها، فإذا طَلَعَتْ فرآها الناسُ آمَنوا أجمعونَ، فذلكَ حين ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام:١٥٨] ولتقومَنَّ الساعةُ وقد نَشَرَ الرَّجلانِ ثوبهما بينهما، فلا يتبايَعانِه ولا يَطْوِيانِه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقدِ انصرفَ الرَّجلُ بلبَنِ لِقْحَتِه فلا يَطْعَمُه، ولتَقومَنَّ الساعةُ وهو يَليطُ حَوْضَه فلا يَسْقي فيه، ولتقومَنَّ الساعةُ وقد رَفَعَ أُكلَتَه إلى فيه فلا يَطْعَمُها» [البخاري: ٦٥٠٦. ومسلم: ٢٩٥٤. واللفظ للبخاري].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف:١٨٧]، أي: يسألونك عن الساعةِ، كأنَّك استحْفَيْتَ عنها، أي: علمتَ وقتها، أو كأنَّك عالم بها، قد عرفتَ بها، واستقصيتَ أخبارها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف:١٨٧] أمَرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنْ يقولَ للناس السائلين عن وقتِ الساعةِ مُؤَكِّداً ما سبق أنْ أخبرهم به أنَّ علمَ وقتِ الساعةِ استأثر الله بعلمه، كما قال ربُّ العزة: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦٣].

ولذا فإنَّ الذين حَدَّدُوا وقتاً لوقوعِها من أهل العلم خالفوا الآياتِ والأحاديثَ الصحيحةَ المبيِّنَةَ أنَّ وقتَ الساعة أمره إلى الله عزَّ وجلَّ، لا يعلمه غيرُهُ.

٢- رسولنا ﷺ لا يملكُ لنفسِهِ ضَرّاً ولا نفعاً ولا يعلمُ الغيبَ:

أمَرَ اللهُ تعالى رَسوله ﷺ أنْ يُعْلِنَ للناسِ حقيقةَ نفسه، فهو ليس إلهاً، ولم يعط القدراتِ الخارِقِةِ، ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فهو لا يستطيع أن يجلبَ الخيرَ لنفسِهِ، ولا يستطيعُ أن يدفع عنها الضُّرَّ، ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فالله تعالى هو النافعُ الضَّارُّ، وإذا شاءَ رَبِّي مَكَّنَنِي من جلبِ الخيرِ لنفسي، ودَفْعِ الضر عنها.

وأمَرَهُ تبارك وتعالى أن يعلن للناس جميعاً أنه لا يعلم الغيبَ، والغيبُ ما غابَ عنَّا، ولم نشاهِدْهُ، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف:١٨٨]، فالرسلُ جميعاً بشرٌ، يعملون بشرعِ الله ووحيه، ولا يملكون خزائنَ الله، ولا يعلمون الغيبَ، ولا يملكونَ قدراتِ الملائكةِ، فأوَّلُ الرسلِ نوحٌ عليه السلام قال لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود:٣١]، وآخر الرسل ﷺ قال للناس جميعاً: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام:٥٠].

هؤلاءِ هم الرسلُ عليهم السلام، وهذا هو رسولنا ﷺ ، ولذا فإنَّ الذين يزعمون أنَّ أولياءَهم أُعطوا القدرةَ على التَّصَرُّفِ بالسمواتِ والأرضِ، ويعلمون علمَ ما كان، وما يكون، وما لم يكنْ لو كان كيف يكونُ، رفعوهم إلى مرتبةٍ فوقَ مرتبةِ الرسلِ والأنبياءِ.

لقد كان اليهودُ يريدونَ إلقاءَ صخرة على رأْسِ رسولِنا ﷺ وهو جالسٌ قربَ جدارِ منزلٍ من منازلهم، ولم يعلم بذلك حتى نَبَّأه الوحي، وأكلَ رسولُنا ﷺ من كَتِفِ شاةٍ سَمَّتْه

جنـــــة الســـنة

يهوديةٌ، فلم يعلم بذلك، حتى أخبره كتفُ الشاةِ بأنها مسمومةٌ، وماتَ أحدُ أصحابِه مِنْ أكله من تلك الشاةِ، وباتَ الرسولُ وأصحابه يبحثون عن عقدٍ لعائشة أضاعته، فلما بعثوا الناقةَ وجدوا العقدَ في الموضع الذي كانت باركةً فيه، وعندما سألتْ قريشٌ الرسولَ ﷺ عن صفةِ المسجد الأقصى لم يستطعْ أن يصفَه، حتى مَثَّله اللهُ له حيث يراه.

ولو كان رسولُنا ﷺ يعلم الغيبَ، لاستكثرَ مِنَ الخيرِ، أي: لاستكثر مِنَ الأعمال الطيبة الصالحة، وانتهز الفرصَ السانحةَ، ولم يمَسَّه السوءُ، والسوءُ: الأوجاعُ والأمراضُ، والمصائبُ والخسائر.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف:١٨٨] أي: أنا نذيرٌ، أي: مُعَلِّمُ مَنْ عصى الله بعقابه، وشديدِ عذابِهِ، وبشيرٌ، أي: مُعَلِّمُ مَنْ آمن بالله واتَّقاه بما يَسُرُّهُ مِنْ رحمةِ الله تعالى ورضوانِهِ وجنتِهِ.

٣- خَلَقَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً من آدم، وخلق من آدمَ زوجَهُ حوَّاء:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه خلقنا من نفسٍ واحدةٍ وجعل من هذه النفسِ الواحدةِ زوجَها، ليسكن إليها ﴿ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩]. والنفسُ الواحدةُ التي خلقَ الناسَ جميعاً منها آدمُ ﷺ، والزوجُ الذي جعله اللهُ مِنْ آدمَ حواءُ، ومعنى: ﴿وَجَعَلَ﴾ خلق. وقوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: ليسكنَ الرجل إلى زوجته، ويطمئنَّ إليها، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم:٢١].

وقد جعل اللهُ -تعالى- من هذين الزوجين: آدم وحواءَ الرجالَ والنساءَ جميعاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [النساء:١].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا ﴾ أي: جامعها زوجُها ﴿ حَمَلَتْ ﴾ من ذلك الجماع، و﴿حَمْلًا خَفِيفًا ﴾ وصف الحمل بأنّه خفيفٌ، لأنَّ حملَ المرأة عندما يكونُ نطفة، فعلقة، فمضغة يكون خفيفاً، ﴿ فَمَرَّتْ بِهِۦ ﴾ أي: فاستمرَّتْ به، وذهبت به مقبلة ومدبرةً لا يثقلها

جنــــة السـنة

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ أي: صارتْ ثقيلةً من عظمِ الجنين وكبره في بطنها ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقوله: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: الزوجان اللذان لهما الجنين دعوا اللهَ -تبارك وتعالى- ﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ أي: ولداً صالحاً سوياً ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ .

وقد ذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ المرادَ بالذي تَغَشَّى زوجتَه آدمُ ﷺ، والزوجةُ المغشَّاةُ حواءُ، فحملت حواءُ من آدمَ، فحملتْ به حملاً خفيفاً فمرَّتْ بِهِ، أي: استمرت بِهِ خفيفاً، لا تشعر به، فلما أثقلت، أي صارت ذاتَ ثقلٍ بحملها جاءَها الشيطان، ودعاها أَنْ تسميه عبدَ الحارثِ، ليعيشَ، وكان لا يعيشُ لها وَلَدٌ قبل ذلك، فسمَّتْه عبدَ الحارث، فعاشَ، والحارثُ اسمٌ من أسماءِ الشيطان، وعلى ذلك فإنَّ المرادَ بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ هما آدم وحواء، ولا يجوز نسبة هذه الواقعةِ العظيمة إلى أبينا آدمَ وأُمِّنا حواءَ من غيردليلٍ ولا برهانٍ وقد بيَّنَ ابن كثير رحمه الله [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٥١] أنَّ حديث سمرةَ الذي يَنْسُبُ هذا الشركَ لآدم وحواء حديث ضعيف، لا يقومُ للاحتجاج به، وقد قال ابن كثير فيه: «والغرضُ أن هذا الحديث معلولٌ مِنْ ثلاثة أوجه» وقال محقِّقُ تفسيرِ ابن كثيرٍ في هذا الحديث: «المرفوعُ ضعيفٌ منكرٌ» ثم أطال في بيان وَجه نكارتِه.

وقد ذهب بعض أئمةُ التفسيرِ إلى القولِ بمثل ما جاءَ به الحديثِ، وقد قال الشيخُ العلاَّمةُ محمدُ الأمين الشنقيطي: «والتحقيقُ أنها لم يثبتْ شيءٌ منها، والأغلبُ أنَّ من رُوِيَتْ عنه مِنَ الصحابةِ أخذوها عن بعضِ الإسرائيليين» [العذب النمير: ٤/ ٤١٩].

والذي اختاره ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى هو ما ذهب إليه الحسنُ البصريُّ رحمه الله تعالى، فقد قال ابن كثير: «قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيعٍ، حدثنا سهل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ ، قال: كان هذا في بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم، وحدثنا محمدُ بنُ عبدِ الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن معمر قال: قال الحسن: عَنَى بها ذرية آدمَ، ومَنْ أشرك منهم بعده، يعني: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾. وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، عن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً، فهَوَّدوا ونصَّروا، وهذه أسانيدُ صحيحة عن الحسن -رحمه الله- أنَّه فسر الآية بذلك، وهو مِنْ أحسن التفاسير وأولى ما حُمِلَتْ عليه الآية، ولو كان هذا الحديثُ عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل هو ولا غيره عنه، لا سيما مع تقواه لله ووَرَعه، فهذا يدلُّكَ على أنَّه موقوف على

جنـــــة السـنـــــة

الصحابي، ويحتمل أنه تلقاه مِنْ بعضِ أهل الكتاب، مَنْ آمن منهم، مثل: كعب أو وهب بن منبّه وغيرهما، كما سيأتي بيانه إنْ شاء الله، إلا أننا برئنا مِنْ عهدة المرفوع، والله أعلم» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٥٢].

وقد استدلَّ ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى لما ذهب إليه الحسن بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف:١٩٠]، قال ابنُ كثيرٍ: «وأما نحن فعلى مذهب الحسن البصري -رحمه الله- في هذا، والله أعلم، وأنَّه ليس المراد مِنْ هذا السياق آدمُ وحواءُ، وإنَّما المراد مِنْ ذلك المشركون مِنْ ذُرِّيته، ولهذا قال الله: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾، وذكر تعالى آدمَ وحواءَ كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد مِنْ ذكرِ الشخصِ إلى الجنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك:٥]، ومعلومٌ أن المصابيحَ -وهي النجومُ التي زُيِّنت بها السماءُ- ليستْ هي التي يُرْمَى بها، وإنما هذا استطرادٌ من شخصِ المصابيح إلى جنسها، ولهذا نظائرٌ كثيرةٌ في القرآن، والله أعلم» [ابن كثير: ٣/ ٢٥٣].

٤- عدمُ صلاحيةِ آلهةِ المشركين للعبادة:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ آلهةَ المشركين لا تصلحُ للعبادة بحالٍ مِنَ الأحوال، وقد بيَّنَ عدمَ صلاحيتها للعبادةِ من عدةِ وجوهٍ:

أ- أنَّها لا تستطيعُ أن تخلق شيئاً، وهي مخلوقةٌ مربوبةٌ: قال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾ [الأعراف:١٩١] هذا إنكار على هؤلاءِ المشركين الذي أشركوا مع الله أصنامَهُمْ وأوثانَهُمْ، والذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره هو الله الواحدُ الأحدُ الخالقُ، الذي أخرج الناسَ مِنَ العدم إلى الوجودِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة:٢١-٢٢]. وقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦].

وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ آلهةَ المشركينَ لن تستطيع خَلْقَ أحْقَرِ الأشياءِ وأقلِّها، وهو الذبابُ ولو اجتمعوا له ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج:٧٣]. وآلهةُ المشركين مع كونها لا تستطيع أن تخلق شيئاً، فإنها مخلوقةٌ مربوبةٌ، ومَنْ كان كذلك، فإنه **لا يصحُّ** أن يكون إلهاً معبوداً.

جنـــــة السـنــة

وقد بيَّنَ ربُّ العزة سبحانه أنَّ آلهة المشركين وأصنامهم ضعيفةٌ عاجزةٌ.

ب- **لا تستطيع هذه الآلهة أن تنصر عابديها، ولا تستطيع نصر أنفسها**: قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾ [الأعراف:١٩٢] فهذه الآلهةُ لا تستطيعُ أن تنصر عابديها، ولا تستطيعُ أنْ تُؤَمِّنَ الحمايةَ لنفسها، وتدفعَ عن نفسها الضربَ والكسر، وقد حطَّم نبيُّ الله إبراهيم عليه السلام الأصنامَ التي كان يعبدها قومُهُ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات:٩٣] ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء:٥٨].

ج- **لا تستطيع هذه الآلهة الاستجابةَ لمن دعاها إلى الهدى**: قال تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾ [الأعراف:١٩٣]، أي: أنَّ هذه الأصنامَ المعبودةَ إذا دعاها أحدٌ إلى طريقِ الهدى، فإنَّها لا تسمع دعاءَه ونداءَه، لأنها جمادٌ، ولا فرقَ عند هذه الأصنام بين مَنْ دعاها إلى الهدى، وبينَ مَنْ سكتَ، فلم يَدْعُها، أي إنْ دعوتموهم إلى الهدى فلن يهتدوا، وإن صمتمْ فلن يهتدوا، وقد قال نبيُّ الله إبراهيمَ عليه السلام لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم:٤٢].

ولذلك فإنَّ الأنبياءَ وأتباعهم مِنَ المؤمنين ما كانت الأصنامُ تُرْهبهم ولا تخيفهم، فإبراهيمُ حطَّم تلكَ الأصنامِ وجعلها جذاذاً، وهودٌ عندما خوَّفَهُ قومُهُ آلهتَهُم، قال لهم غير خائف ولا وجل: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٤-٥٦].

د- **الأصنامُ والأوثانُ عبادٌ أمثالنا**: بيَّنَ اللهُ تعالى للمشركين أنَّ الذي يعبدونه عبادٌ أمثالنا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الأعراف:١٩٤]. أخبر اللهُ تعالى المشركين أنَّ الأصنامَ التي يعبدونها مِنْ دون الله ليستْ بأفضلَ منهم، ولا أكمل، فهي في أعلى حالاتها عبادٌ أمثالُ عابديها، من حيث إنَّها مخلوقة لله ربِّ العالمين، وجعلها عباداً أمثالهم، لأنَّ الكفار يصفونها بصفاتِ العقلاءِ، فهي بزعمهم تشفعُ لهم عند ربِّهم، وتجلب لهم النفعَ وتدفعُ عنهم الضرَّ.

وقد أمرهم ربُّ العزة بدعائهم فهم لا يستجيبون لهم فقال: ﴿فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ وواقع الأمر أنَّهم يدعونهم، وينادونهم، فلا يستجيبون لهم،

جنـــــة الســـــنة

وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ لأنهم يدعونهم، فلا يستجيبوا لهم، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [الأحقاف:٥].

هـ- انحطاطُ درجةِ المعبوداتِ عن درجة العابدين: ذمَّ اللهُ تعالى آلهةَ المشركين، وبيَّن أنَّهم أفْضَلُ من الآلهة التي يعبدونها مِن دون الله، قال تعالى: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الأعراف:١٩٥].

وجَّه ربُّ العزةِ في هذه الآية السؤالَ لعابدي الأصنام، يسألهم عن الآلهةِ التي يعبدونها من دونِ الله تعالى قائلاً: ألهذه الأصنام أرجل تمشي بها كما لكم أرجل تمشون بها، وهل لها أيدٍ كما لكم أيدٍ تبطشون بها، وهل لها عيون تبصر بها كما لكم عيونٌ تبصرون بها، وهل لها آذان تسمع بها كما لكم آذان تسمعون بها، إنَّ المقارنة بين هذه الأصنام المصنوعةِ مِنْ حجرٍ أو خشبٍ أو معدنٍ تظهرُ بوضوحٍ أنها لم تخرج عما صُنِعَتْ منه، وليس لها من الأحياءِ إلا الصورة والرسم، أما الحياة التي يتميز بها العبَّادُ فهي معدومة في الأصنامِ والأوثان.

وقد كان عابدو الأصنام ولا يزالون يخوِّفونَ الرسلَ والمؤمنين بأصنامهم، ويزعمون أنها ستمرضُهم، وتُخْبِلُ عقولَهُمْ، وتجتاحُ أموالهم، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر:٣٦] وقد مضى قريباً ذكر الطريقة وكيف حطَّم إبراهيمُ بها أصنامَ قومِهِ، وكيف تبرأ هودٌ مِنَ الآلهةِ التي كان يعبدها قومُهُ، وأعلن لقومِهِ أنه لم يخف منها، ولم يخف من عابديها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي مِنْ علمٍ وعملٍ:

١- لا يعلمُ وقتَ وقوعِ الساعةِ إلا اللهُ تبارك وتعالى، وهي تأتي فجأةً، وعندما تقع تدمِّر السماواتِ والأرضَ.

٢- الكفارُ لا يؤمنون بوقوعِ الساعةِ، والمؤمنون يؤمنون بها، ويخْشونَ وقوعها.

٣- الرسولُ ﷺ بشرٌ لا يملكُ صفاتِ الألوهيةِ، وليس بمَلَكٍ، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً، إلا ما شاءَ اللهُ له، ولا يعلم مِنَ الغيب إلاّ ما عرَّفه اللهُ به.

٤- الناسُ جميعاً مخلوقون من نفسٍ واحدةٍ هي آدم عليه السلام ، وقد خلق اللهُ من آدم زوجَهُ حواءَ، ليسكنَ إليها.

جنـــــة السـنـــة

٥- بعضُ ذريةِ آدم دَعَوْا ربَّهما أنَّهما إنْ آتاهما ربُّهما ولداً صالحاً، فسيكونون من الشاكرينَ لله تعالى، فلما رزقهما الولدَ السويَّ أشركا بالله تعالى.

٦- الأصنامُ والأوثانُ التي يعبدها المشركونَ لا تصلح لأنْ تكون آلهة معبودةً من دون الله لأربعةِ أُمور بيَّنها اللهُ تعالى، وحدَّدْتُها في تفسيرِ الآياتِ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن والعشرون من سورة الأعراف
حالُ المؤمنين مع ربِّ العالمين وحالُ الكفارِ مع آلهتهم

أولاً: تقديم

هذا هو النصُّ الأخيرُ من سورة الأعراف، وقد تنزَّلَ هذا النصُّ ليمدَّ المؤمنين بالمُثُل والتصوراتِ والهدى، وليرْسُمَ لهم معالمَ الطريقِ، وقد أمَرَ اللهُ رسولَه ﷺ أنْ يعلن للناسِ أنَّ وليَّه هو اللهُ، وهو يتولى الصالحين، أما الكفارُ فإنَّهم يتولون الأصنامَ ويدعونهم مِنْ دونِ الله، وهم غير قادرين على نَصْرِ أنفسِهِمْ، ولا نصر عابديهم، وإنْ تدع هؤلاء المشركين إلى الهدى لا يسمعوا، وتراهم ينظرون إليك، وهم لا يبصرون.

وبيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنين المنهجَ الذي يسلكونه مع أعدائِهم من الإنسِ والجنِّ، كما أمرهم بالموقف الصحيح الذي يجب أنْ يقفوه مِنَ القرآنِ الكريم، وأمرهم أنْ يذكروا ربَّهم في أنفسهم تضرعاً وخِيفَةٍ، وفي ذلك حياةٌ لقلوبهم وأرواحهم، كما أمرهم أنْ يذكروه بألسنتهم على نحو وسط بين الجهر والإخفاء في الصباحِ والمساءِ، ونهاهم أنْ يكونوا مِنَ الغافلين.

وبيَّن سبحانه لنا الحالَ التي عليها عباده الذين عنده، وهم ملائكته، فإنَّهم خاضعونَ متواضعون، لا يستكبرون عن عبادتِهِ، وينزهونه عن كلِّ نقص، ويسجدون له.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ
ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ
تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ
قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى
نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦-٢٠٦].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- اللهُ -سبحانه- وَلِيُّ رسولِهِ ﷺ ووَلِيُّ المؤمنين:

أمَرَ الله -تعالى- رسولَه أنْ يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]، والوَلِيُّ: المَوْلَى الذي انعقد بينك وبينه سببُ ولايةٍ، يجعلك تواليه ويواليك، فرسولُنا ﷺ انعقد بينه وبين رَبِّهِ سببٌ، فهو يوالِيه بالطاعاتِ، واللهُ يوالي نبيَّه بالإعانةِ والنصرِ والثوابِ الجزيل.

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [الأحزاب:٦]. والله تعالى وَلِيُّ المؤمنين ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [المائدة:٥٥].

واللهُ تعالى نَزَّلَ الكتابَ، والكتابُ القرآنُ العظيمُ، وقال بعضُ العلماء: نَزَّل جنس الكتاب، أي: نزَّل جميعَ الكتب المنزلةِ، وفيها القرآنُ الكريمُ، ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ والصالحونَ جمعُ صالحٍ، وهو ضدُّ الطالحِ، وهو الذي يطيعُ اللهَ -جلَّ وعَلا- فيما أمره بِهِ، ونهاه عنه.

٢- الذين تَدعونَ مِنْ دون الله لا يستطيعون نصركم:

أمر اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقول للمشركين: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٧]، أي: أنَّ الآلهةَ التي تدعونها من دون الله تعالى لا يقدرون أنْ يدفعوا عنكم شيئاً، ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾، أي: لا يستطيعون نصركم، ولا يستطيعون نصر أنفسهم، فهم عاجزون عن نصر أنفسهم كما هم عاجزون عن نصركم.

٣- أخْبَرَ اللهُ -تباركَ وتعالى- أنَّ المشركين إنْ دَعَوْا آلهتهم لا يسمعون دعاءَهم:

أخبر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المشركين إذا دَعَوْا آلهتهم التي يعبدونها من دونِ الله عزَّ وجلَّ طالبين منها النصرَ والتأييد، فلا تستطيع تلك الآلهة أنْ تنصرهم، ولا تستطيعُ نصرَ نفسها ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الأعراف:١٩٨].

وأعلمنا ربُّنا في الآيةِ التاليةِ بما هو أسوأ مِن ذلك، فالآلهة التي يدعونها من دون الله -تبارك وتعالى- لا تسمعُ عابديها إذا دَعَوْها لتهديهم، ذلك أنها أمواتٌ ليس فيها حياةٌ، ولا تملكُ السَّمْعَ والأبصارَ والأفئدة ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ﴾ [الأعراف:١٩٨].

جنـــــة السـنة

ثم بيَّنَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- حالَ المشركين، فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١٩٨﴾ [الأعراف:١٩٨]، أي: ترى هؤلاءِ المشركين ينظرونَ إليك، وتظنُّ أنَّ عيونهم مبصرةً، وهم لا يبصرونَ، فعقولهم فارغة، وأبصارهم زائغة، ولو كان لديهم عقلٌ لما عَبَدوا الأصنامَ الجامدةَ التي لا تعقل.

٤- كيف نتعاملُ مع العدوِّ الإنسيِّ والعدوِّ الشيطانيِّ:

جَعَلَ اللهُ تعالى ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢]، وقد بيَّن لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف نتعامل مع كل واحدٍ من العدوَّيْنِ الإنسيِّ والجنيِّ، فقال معلماً إيَّانا الطريقة التي نتعامل بها مع العدوَّ الإنسي: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩].

أَمَرَ الله -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ بالعفو والصفح عن أعدائه، قال عبدُالله بن الزبير: «أمر اللهُ نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يأخذَ العفو مِنْ أخلاق الناس أو كما قال» [البخاري: ٤٦٤٤] وأَمَرَهُ أن يعرِضَ عن الجاهلين، وذلك بعدم الالتفات إليهم.

وقد وَرَدَ في بعض الأحاديث ما يُفسِّرُ الآيَةَ الكريمة، فقد سأل عقبة بن عامرٍ رسولَ الله ﷺ، فقال: أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عُقبةَ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وأعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وأعْرِضْ عمَّنْ ظَلَمَكَ» [قال محققُ ابنِ كثير (٣/٢٥٦): أخرجه أحمدُ والطبرانيُّ والبيهقيُّ في الشعب، وأحَدُ إسنادي أحمد رجاله ثقات].

وقد كانت هذه الآيةُ منهجاً للرسولِ ﷺ أخذ به نفسه، ففي فتح مكَّة قال لقريشٍ التي أخرجته، وحاربتْه: «اذهبوا فأنتم الطلقاءُ» وفي أُحد عندما أعلن لأصحابه أنَّه سيمثل بضِعْفَيِّ العددِ الذي مثَّل به المشركون مِنَ المسلمين، أرشدَه ربُّه لما هو أفضلُ فقالَ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٦-١٢٧].

وعفا الرسولُ ﷺ عن ذلك الرجل الذي أرادَ قتله بينما كان قائلاً في ظلِّ شجرة، فاستلَّ سيفَ الرسول ﷺ، وفتح الرسولُ ﷺ عينيه، فقال: مَنْ يمنعك مني، قال: اللهُ، فسقط السيف من يد الرجل.

ولو تتبَّعَ الباحثُ منهجَ الرسولَ ﷺ الذي أخذ به نَفْسه، لوجد كثيراً مِنَ الوقائع والحوادثِ التي جرت معه.

جنـــــة السـنـة

وقد كانت هذه الآيةُ عاصمةً لصحابةِ الرسولِ ﷺ مِنَ الوقوع في الزلَلِ، فعن ابنَ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: قَدِمَ عُيينةُ بنُ حِصْنِ بنِ حُذيفةَ، فنزَلَ على ابنِ أخيه الحُرِّ بنِ قيسٍ، وكان من النَّفَرِ الذينَ يُدْنِيهم عمرُ، وكان القُرّاءُ أصحابَ مجالسِ عمرَ ومُشاوَرَتِهِ كُهولاً كانوا أو شُبّاناً، فقال عُيينةُ لابنِ أخيه: يا ابنَ أخي، هل لكَ وجهٌ عندَ هذا الأميرِ؟ فاستأْذِنْ لي عليه، قال: سأستأْذِنُ لكَ عليه، قال: ابنُ عبّاسٍ: فاستأْذنَ الحرُّ لعُيينةَ، فأذِنَ له عمرُ، فلمّا دَخَلَ عليه قال: هِيْ يا ابنَ الخطّاب! فوالله ما تُعْطِينا الجَزْلَ، ولا تحكم بيننا بالعَدْل، فغَضِبَ عمرُ حتَّى هَمَّ أنْ يُوقِعَ به، فقال له الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ اللهَ تعالى قال لنبيِّه ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾، وإنَّ هذا مِنَ الجاهِلينَ. والله ما جاوَزَها عمرُ حينَ تَلاها عليه، وكان وَقّافاً عندَ كتابِ الله [البخاري: ٤٦٤٢].

أما العدوُّ الشيطانيُّ، فلا يجوز مهادنتُهُ ولا ملاطفتُهُ، ولا ينفعُ معه إلاَّ أنْ نلتجئَ إلى الله تعالى لنحتمي به من شرِّه ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾ أي: إذا نزغك من الشيطان نزغ بأنْ وسوسَ لك حتى زيَّنَ لك أن تعصي اللهَ، أو أغضبك حتى خرجت عن حدود الطاعة، وقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ﴾ أي: مِنَ الشيطانِ، أي: اطلب مِنَ الله أن يعيذك ويمنعك ويقيك منه، وقولُه في خاتمة الآية: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾ أي: سميعٌ لدعائك، عليم بوسوسة الشيطان.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ أي: إنَّ الأتقياء الذين يخافون ربَّ العزةِ إذا مَسَّهم طائفٌ مِنَ الشيطان، والطائف الشيء الذي يطوف بهم من قبل الشيطانِ مِنْ وساوسه وإغضابه لهم، وقوله: ﴿تَذَكَّرُواْ﴾ أي: عقابَ الله وثوابَهُ، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ والإبصار هنا بالقلب الذي يحمل الإنسانَ على الرجوعِ إلى ما يرضي الله.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ أي: وإخوان الشياطين من الإنس، وهم أتباعُهُمْ والمستمعون لهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾ [الإسراء:٢٧].

وقوله: ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي: تساعدهم الشياطينُ في المعاصي، وتُسَهِّلُها عليهم، وتُحسِّنها لهم، وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ قال ابن عباس: «لا الإنسُ يُقصِّرون عما يعملون مِنَ السيئاتِ، ولا الشياطين تمسك عنهم» [ابن كثير: ٣/ ٢٥٩].

جنـــــة السـنة

٥- **لم يكن من شأن الرسولِ ﷺ اقتراحُ الآياتِ الكونيةِ أو الشرعيةِ:**

كان كفارُ قريشٍ يديمون اقتراحَ الآياتِ على الرسول ﷺ ﴿ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأعراف:٢٠٣]، أي: وإذا لم تأتهم بآية مما اقترحوه عليك قالوا لك: ﴿لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ﴾ أي: لولا اخترعتها واختلقتها واصطفيتها، فهم يظنون أنَّ بإمكانه أنْ يُنزِّلَ ما شاءَ مِنَ الآياتِ، ولذلك أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ﴾ [الأعراف:٢٠٣] أي: ليس من شأني أن أقترحَ على ربِّي إنزال الآيات التي يطلبها مني أعداؤه، وإنما دَيْدَنِي وطريقتي أن أتّبع ما أوحاه إليَّ ربي، أي يؤمن به، ويعملَ به، ويتْلُوه على عباد الله ويطالبهم بالالتزام بِهِ والعمل به.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [الأعراف:٢٠٣] والمشارُ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ القرآن الكريم، والبصائر جمع بصيرة، والبصيرة: البرهانُ القاطعُ، والدليلُ الساطع الذي يُبْصَرُ في ضوئه الحقُّ واضحاً لا لبس فيه، وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ فالقرآنُ يهدي البشرية كلَّها، أيْ: يَدُلُّها على سبل الخيراتِ، ولكنَّ الذي ينتفع به هم المؤمنون دون غيرهم، ولذلك قال الله لرسوله ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص:٥٦] أي: لا تستطيع إدخال الإيمان في القلوب إلاَّ أنْ يشاء الله تعالى.

والقرآنُ الكريم: آيةٌ عظيمةٌ، ومعجزةٌ باهرةٌ، أعجزت الإنس والجنَّ أن يؤتوا بمثلها، فطَلَبُهمْ الآياتِ الخارقاتِ مع وجودِ هذه الآية سفهٌ في الرأي، ونقصان في العقل.

٦- **الإنصات والاستماع لقراءة القرآن:**

كان الكفارُ أهلُ الجاهليةِ يعلمون بمدى تأثير تلاوةِ القرآنِ على القلوبِ والنفوسِ، ولذلك كانوا يأْمرونَ أتباعهم أنْ لا يسمعوا لتلاوةِ القرآنِ، ويأْمرونَهم أنْ يلْغوا فيه ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت:٢٦]، وكانوا عندما يتلو الرسولُ ﷺ عليهم القرآنَ يرفعونَ أصواتهم بالمكاءِ والتصديةِ ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ [الأنفال:٣٥]، أي: صَفيراً وتَصْفيقاً.

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ عندما يُقْرأُ عليهم القرآنَ أن يستمعوا له، وينصتوا، لعلَّ اللهُ يرحمهم ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾ [الأعراف:٢٠٤].

والاستماعُ: التدبُّرُ في الشيءِ والإصغاءُ إليه، والإنصاتُ: هو السكوت وترك الكلام.

جنـــــة السـنة

عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ انصرفَ من صلاةٍ جَهَرَ فيها بالقراءةِ، فقالَ: هل قرأ مَعِي أحَدٌ منكُمْ آنِفاً؟ فقالَ رَجُلٌ: نَعَمْ يا رسولَ الله، قال: إنِّي أقولُ: ما لِي أنازَعُ القُرآنَ قالَ: فانتهى الناسُ عَنِ القراءَةِ مَعَ رسولِ الله ﷺ فيما جَهَرَ فيهِ رَسولُ الله ﷺ مِنَ الصلواتِ بالقراءةِ حينَ سَمِعُوا ذلكَ من رسولِ الله ﷺ [رواه الترمذي: ٣١٢. وقال: وفي الباب عن ابن مسعودٍ وعمرانَ بن حُصَيْنٍ وجابرِ بنِ عبدالله. قالَ أبو عيسى: هذا حديثٌ حَسَنٌ. وهو في صحيح سنن الترمذي، ٢٥٧. وسنن أبي داود: ٨٢٦. وصحيح سنن أبي داود: ٨٣٦. وحكم عليه الألباني بالصحة].

٧- كيف يذْكُرُ العبدَ ربَّه تبارك وتعالى:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يذكر ربَّه في نفسه تضَرُّعاً وخيفَةً ودون الجهرِ مِنَ القولِ بالغدوِّ والآصال، ونهاه أنْ يكون من الغافلين ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

والذِّكْرُ النفسانيُّ هو الذكْرُ الذي لا يعلمه منكَ إلا ربُّ العبادِ، وذلك بتذكرك في عظمةِ الله وسلطانِه وجبروتِه وصفاتِه وعقابِه وثوابِه، وقوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ أي: لأجل التضرعِ، وهو التذلل والتخشع والتواضع لربِّ العالمين، ﴿وَخِيفَةً﴾ مِنَ الخوفِ، والمرادُ بهما الرغبةُ إلى الله، والرهبةُ منه.

وقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ هذا هو الذكر اللساني، أيْ: اذكرْ ربَّك بالقولِ دونَ الجهر، فإنَّه لا ينبغي رفعُ الصوتِ بالدُّعاءِ وبالأذكارِ رفعاً يبلغ درجةَ الصراخِ، وقد أرشدنا ربُّنا تباركَ وتعالى إلى أنَّ الذكرَ اللسانيَّ، لا يكونُ بالجهرِ بالصوتِ العالي، ولا بالإسرارِ الشديدِ ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء:١١٠].

وقوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ الغدوُّ: أوائلُ النَّهارِ، والآصالُ آخره، وقوله: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ نهى اللهُ رسولَه ﷺ عن الغفلةِ عن ذِكْرِ الله، والرسولُ ﷺ لا يغفلُ عن ذكر الله، ولكنَّه يحذِّر المؤمنين عن مثل ما حذَّر به رسولَهُ ﷺ .

٨- عبادةُ الملائكة عند الله تعالى:

لما أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه بما أمَرهم بِهِ مِنَ الآدابِ الكريمةِ، أتبع ذلكَ ببيانِ الحالِ التي يكون عليها الملائكةُ الذين هم عنده في السماواتِ العُلا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]. فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ هم الملائكةُ عليهم السلام، وقوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ أي: لا يتكبرون عن عبادتِهِ، بل

جنـــــة السـنـــة

هم خاضعون متذلِّلون عابدون لربِّهم -جلَّ وعلا- وقوله: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بكماله وجلاله

وقوله: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ أي: يعبدونه سبحانه بالسجودِ له.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على المؤمنِ أن يتذكَّرَ دائماً أنَّ عليه أن يوالي ربَّه دائماً بالطاعة، واللهُ يواليه بالرعاية والتأييدِ والنصرِ والتكريم.

٢- الآلهةُ التي يعبدُها المشركونَ لا تصلح لأنْ تُعبَدَ وتُدْعى، ولا تستطيعُ نَصْرَ أنفسها، كما لا تستطيع نصر أتباعها.

٣- الكفارُ الذين قضى اللهُ عليهم بالكفرِ لا يسمعونَ الهدى الذي يدعوهم المؤمنونَ إليه، وهم في حالِ استماعهم للمؤمنين ينظرونَ إلى الداعي، ولا يبصرون الحقَّ.

٤- بيَّنَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ والمؤمنين به المنهجَ الذي يجبُ أنْ يسلكه مع أعدائه مِن الإنس، والجنّ، فمعاملةُ الإنسِ تكونَ ممزوجة بالإحسان، أما الشياطينُ، فلا ينفعُ معهم إلاَّ الاحتماءُ بالله تعالى، والاستعاذةُ بالله من شرِّه.

٥- الرسولُ ﷺ لا يقترحُ الآياتِ على ربِّه، ولكنَّه يتبع ما أوحاه الله إليه.

٦- وجوبُ الاهتداءِ بهدْيِ القرآنِ، والإنصاتِ له، والاستماعِ إليه.

٧- على المؤمن أن يذكرَ اللهَ تعالى بقلبه، وبذلك تحيا نفسُه ويذكره دائماً بلسانه، من غيرِ مخافتةٍ، ولا رفعِ صوتٍ في الصباحِ والمساءِ.

٨- ملائكةُ الرحمنِ خاضعونَ لله، متبتلون له، لا يستكبرون عن عبادته، ينزهونه دائماً، ويسجدون له.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ الأَنفَالِ

أولاً: تعريف بهذه السورة

قال أبو عمرو الداني: «سورة مدنية، ونظيرتها في المدنيين الحج، وفي الكوفي الزمر، وفي الشامي الفرقان، ولا نظير لها في المكي والبصري. وكلمها أَلْفٌ ومائتان وإحدى وثلاثون كلمة. وحروفها خمسةُ آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً.

وهي سبعون وخمس آيات في الكوفي، وست في المدنيين والمكي والبصري وسبع في الشامي» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ص١٥٨].

وقد نزلت هذه السورة في غزوة بدر، فعن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: قلت لابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهما: سورةُ الأنفال؟ قال: «نَزَلتْ في بَدْرٍ» [البخاري: ٤٦٤٥. ومسلم: ٣٠٣١].

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الأول من سورة الأنفال
الأنفال لله والرسولِ

أولاً: تقديم

خرجَ الرسولُ ﷺ بطائفةٍ كبيرةٍ من أصحابه يريدُ الاستيلاءَ على عيرِ قريشٍ القادمةِ مِنَ الشام بقيادةِ أبي سفيان، فنجا أبو سفيان بالقافلة، وخرجتْ قريش بجيشٍ كبيرٍ لحمايةِ العيرِ، والتقى الصحابةُ بجيشِ الكفار، فانتصروا عليهم، وحازوا غنائمَ كثيرةً، واختلف الصحابة فيمن يستحقُّ الغنائم، وسألَ الصحابةُ الرسولَ ﷺ عن الذي يستحقّ غنائمَ المعركة، فأخبرهم أنّها لله ورسولِهِ، وحكم فيها الرسولُ ﷺ بما أراه الله تعالى، وكان حكمُ الرسولِ ﷺ في الغنائم مؤدِّياً إلى تقوى الله تعالى، مصلحاً لما ثار بين الصحابةِ، وكان رضا الصحابةِ بِهِ مؤدياً إلى طاعةِ الله ورسولِهِ ﷺ.

وبيَّنَ اللهُ تعالى الصفاتِ الكريمةِ التي تؤدِّي بالصحابةِ إلى الإيمانِ الحقِّ، وبيَّنَ اللهُ تعالى لصحابةِ رسولِهِ رضوانَ الله عليهم ما يؤدي بهم إلى الصلاحِ والخيرِ وحسن العاقبةِ.

ثانيا: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾

[الأنفال:١-٨].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الأنفالُ لله والرسولِ ﷺ:

الأنفالُ: الغنائمُ، قال بذلك ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وعكرمةُ وعطاءٌ، والضحاكُ، وقتادةُ، وعطاءٌ الخراسانيُّ، ومقاتلُ بنُ حيانَ، وعبدُالرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وغير واحد [ابن كثير: ٣/ ٢٦٤].

جنـــــة السـنة

وقد نزلتْ هذه الآيةُ بعد اختلافِ الصحابةِ في غنائم غزوةِ بدرٍ الكبرى، قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد عن أبي أُمامة قال: سألتُ عُبادةَ عن الأنفال، فقال: فينا -أصحابَ بدرٍ- نزلت حين اختلفنا في النَّفَل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين، عن بَواء يقول: عن سواء» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: (٤/ ٨) رواه أحمد في المسند (٢٢٧٤٧) وهو حديث حسن لغيره].

وعن عبادة بن الصامت، قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدتُ معه بدراً، فالتقى الناس، فهزم الله تعالى العدُوَّ، فانطلقتْ طائفةٌ في آثارهم يهزمون ويَقتُلون، وأكبَّتْ طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفةٌ برسول الله ﷺ لا يصيب العدوُّ منه غِرَّةً، حتى إذا كان الليلُ، وفاءَ الناسُ بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحدٍ فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدوِّ: لستُم بأحقَّ به منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستُم بأحقَّ مِنا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ، وخِفْنا أن يصيب العدوُّ منه غِرّةً فاشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين، وكان رسول الله ﷺ إذا أغار في أرض العدو نَفَّلَ الربُعَ، فإذا أقبل راجعاً نَفَّلَ الثلثَ، وكان يكره الأنفالَ، ويقول: «لِيَرُدَّ قويُّ المؤمنين على ضعيفهم» رواه الترمذي، وابن ماجه من حديث سفيان الثوري، عن عبدالرحمن بن الحارث، به نحوه. وقال الترمذي: هذا حديث حسن. ورواه ابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه» من حديث عبدالرحمن بن الحارث. وقال الحاكمُ: صحيحُ الإسنادِ على شرط مسلم ولم يخرجاه [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: ٤/ ٨ رواه أحمد في المسند (٢٢٧٦٢)، وهو حديث حسن لغيره. ورواه الترمذي (١٥٦١)، وابن ماجه (٢٨٥٢)، وابن حبان (٤٨٥٥)، والحاكم ٢/ ١٣٥-١٣٦].

وقال ابن كثير: وروى أبو داود، والنسائي، وابنُ جرير، وابنُ مَرْدويه واللفظ له، وابن حبان، والحاكم من طرقٍ، عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لَمَّا كان يومُ بدرٍ قال رسول الله ﷺ: «مَن صنعَ كذا وكذا فله كذا وكذا» فتسارع في ذلك شُبَّان الرجال، وبقي الشيوخُ تحتَ الراياتِ، فلما كانت المغانمُ جاؤوا يطلبون الذي جعل لهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنَّا كنا رِدءاً لكم، لو انكشفتم لفئتم إلينا، فتنازعوا، فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾» [وقال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير: ٤/ ٨: رواه أبو داود (٢٧٣٧) و(٢٧٣٨)، والنسائي في الكبرى (١١١٩٧)، وهو في تفسيره (٢١٧)، والطبري في التفسير ١١/ ١٢-١٣، وابن حبان (٥٠٩٣)، والحاكم ٢/ ١٣١-١٣٢ و٣٢٦-٣٢٧ وصححه في الموضعين، ووافقه الذهبي].

جنـــــة السـنـــــة

وعن مصعبِ بن سَعْدِ بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: أَخَذَ أبي مِنَ الخُمْسِ سَيْفاً، فأتى به النبيَّ ﷺ، فقالَ: هَبْ لِي هَذا، فأبى، فأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١] [مسلم: ١٧٤٨ (٣٣)].

وعن مصعب بنِ سعدٍ عن أبيه، قال: نَزَلَتْ فيَّ أرْبَعُ آياتٍ، أَصَبْتُ سيفاً فأتى به النبيَّ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ الله! نَفِّلْنِيهِ، فقالَ: (ضَعْهُ)، ثمَّ قامَ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: (ضَعْهُ مِنْ حيث أَخَذْتَهُ). ثم قامَ فقالَ: نَفِّلْنِيهِ، يا رسولُ الله! فقالَ: (ضَعْهُ)، فقامَ، فقالَ: يا رسولَ الله! نَفِّلْنِيهِ، أَؤُجْعَلُ كَمَنْ لا غَناءَ لَهُ؟ فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: (ضَعْهُ مِنْ حيثُ أَخَذْتَهُ)، قال: فنَزَلَتْ هذه الآيةُ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [مسلم: ١٧٤٨ (٣٤)].

وأورد مسلم في صحيحه (١٧٤٨) (٤٣) بعد الحديث رقم (٢٤١٢) (٤٢) قال سعد: «وأصابَ رسولُ الله ﷺ غنيمةً عظيمةً، فإذا فيها سَيْفٌ فأخَذْتُهُ، فأتَيْتُ بِهِ الرسولَ ﷺ، فقُلْتُ: نَفِّلْني هذا السَّيفَ، فأنا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ حالَهُ، فقالَ: (رُدَّهُ من حيثُ أخَذْتَهُ) فانطلقتُ، حتَّى إذا أرَدْتُ أنْ أُلْقِيَهُ في القَبْضِ لامَتْني نفسي، فرجَعْتُ إليه، فقُلْت: أعْطنيه، قال: فشَدَّ لي صَوْتَهُ: (رُدَّهُ من حيثُ أخَذْتَهُ)، قال: فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١]».

وقد كانت الغنائم محرَّمةً على جميع الأمم من قبلنا، فأحلَّها الله تعالى لنا، وهي إحدى خمس خصال خصَّ اللهُ تعالى هذه الأمة بها، ففي الحديث عن جابر بن عبدالله أن النبيَّ ﷺ قال: «أُعْطيتُ خَمْساً، لم يُعْطَهُنَّ أحَدٌ قَبْلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسيرَةَ شَهْرٍ، وجُعِلَتْ لِيَ الأرْضُ مسجِداً وطَهُوراً، فأيُّما رَجُلٍ مِنْ أمَّتِي أدْرَكَتْهُ الصلاةُ فلْيُصَلِّ، وأحلَّتْ لِيَ المَغانِمُ ولَمْ تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأعْطيتُ الشَّفاعَةَ، وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قوْمِهِ خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامَّةً»

[البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢٥].

وخلاصة القولِ في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أيْ: يسألُكَ أصحابك عن الغنائمِ التي غنمتموها يوم بدرٍ، لمن هي؟ فقلْ: هي لله ولرسولِهِ، فالغنائمُ لله تعالى، لأنَّه هو مالكها، وهو الذي أقْدَرَ المسلمين على أخذها، وهو الذي يتصرَّفُ فيها كيفَ يشاءُ، وهي للرسولِ ﷺ لأنَّه جَعَلَ أمرها إليه، وفوَّضَها إليه، وليس لأحدٍ مِنَ الصحابةِ فيها حقٌّ أو خِصامٌ، لينقطع نزاعُهُمْ وخصامُهم، فقسَّمها رسولُ الله ﷺ بينهم على السويَّةِ، قِسْمَةَ عَدْلٍ على أحسن ما يكون.

وبجَعْلِ الله الحكمَ في الغنائم لله والرسولِ دفعٌ لحالةِ الشغبِ التي جرت بينَ الصحابةِ في غنائم بدر، ثمَّ إنَّ الله تعالى أمَرَ أن تقسم الغنائم وَفْقَ حكم بَيَّنَهُ -تبارك وتعالى- في الآية

جنـــــة السـنة

الحادية والأربعين من هذه السورة، وهي قوله: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ...﴾ الآية، فجعل الخمسَ في هذه المصارف، والباقي يُوزَّع على المقاتلين.

وبعد أن قضى ربُّ العزَّة على حالةِ الشغبِ التي جرت بينَ الصحابةِ في الغنائمِ التي حازوها في بدرٍ، أمرهم ربُّ العزَّةِ بتقواه، وأمرهم بإصلاحِ ذاتِ بينهم، وأمرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ [الأنفال:١] وتقوى الله تكونُ بامتثالِ أَمْرِهِ واجتنابِ نهيه، وأَمَرَهُمْ أَنْ يصلحوا فيما بينهم، وذلك بتركِ التظالُمِ والتخاصمِ والتشاجر، وأمَرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ ، ومن ذلك الرضا بما حَكَمَ به الرسولُ ﷺ في شأنِ الغنائمِ على النحو الذي أراده اللهُ تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١﴾ فيه حَضٌّ وتهييج على الفعل، كما تقول: إن كنت جواداً فأعطني.

٢- صفاتُ المؤمنين الكاملين:

بيّن اللهُ -تبارك وتعالى- في الآية التالية صفاتِ المؤمنين الأصفياءِ الكاملين، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وفي هذه الآيات تقويمٌ للمؤمنينَ الذين تنازعوا في غنائمِ بدرٍ، فرأى كلُّ فريقٍ أنه يستحقُّها دون غيره، وكان الواجبُ على الأطراف جميعها أنْ يطلبوا الحكمَ الذي يفرضه ربُّ العزَّةِ، ويَرْضَوْا به.

وقد وصف اللهُ تعالى المؤمنين الصادقين بخمْسِ صفات، هي:

الأولى: وَجَلُ قلوبِهِمْ عندما يذكرون الله ربَّهم، ومعنى: ﴿وَجِلَتۡ﴾: فَزِعَتْ، وخافتْ، وفَرِقَتْ، وخوفُ القلوبِ مِنَ الله تعالى، يمنعُ ويردَعُ عن مقارفةِ الذنبِ.

الثانيةُ: زيادةُ إيمانهم عندما تتلى عليهم آيات الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾. والقولُ بزيادةِ الإيمانِ إذا زادتِ الطاعاتُ، وبنقصانِ الإيمانِ إذا ارتكبتِ الذنوبُ والمعاصي قولُ السلَّفِ الصالحِ مِنْ هذه الأُمَّة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا

جنـــــة السـنة

﴿ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٤-١٢٥].

الثالثةُ: توكُّل المؤمنين على ربِّهم ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: يَثِقُونَ بالله تعالى، ويفوضون جميعَ أُمورهم إليه.

الرابعةُ: إقامةُ المؤمنين الصلاةَ، أي: يأْتون بها على الوجه الأكمل، وذلك بإتيانهم بها في أوْقاتها، ومحافظتِهمْ على شروطِها وواجباتها.

الخامسةُ: إنْفاقهم مما رزقهم اللهُ تعالى، ومِنْ ذلك الزكاةُ، وغيرها مِنَ النفقاتِ.

وقد أثنى ربُّ العزَّةِ تبارك وتعالى على الذين اسْتَوْفَوْا هذه الصفات وحققوها، وأخبر أنهم هم المؤمنون حقّاً ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: المؤمنون إيماناً حقّاً، وهؤلاء ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي: الدرجاتُ العالياتُ في جناتِ النعيم، وقولُهُ: ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: غفرانُ الذنوب، وقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ هو رزق الجنة مِنَ المآكل والمشارب.

٣- كما أخْرجك ربُّكَ مِنْ بيتك بالحقِّ:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لعبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [الأنفال:٥-٦].

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَآ﴾ كاف التشبيه، شَبَّهَ اللهُ تعالى شيئاً بشيءٍ على الصحيحِ مِنَ أقوالِ أهل العلم.

والقضيةُ المشبهةُ دلَّ عليها قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ وخلاصةُ القولِ في هذه القضيةِ أنَّ اللهَ هزمَ المشركين في غزْوةِ بدرٍ، وغَنِمَ الصحابةُ غنائمَ المشركين، واختلفَ الصحابةُ في هذه الغنائم، وكان كلُّ فريقٍ مِنَ الصحابةِ يرى أنَّه أولى بالغنيمةِ مِنْ غيره، فجعل اللهُ الحكم في هذه الغنائم ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾، وهذا الحكمُ مخالفٌ لما كانَ يراه الصحابةُ، إذْ كان كلُّ فريقٍ يرى أنَّ الغنائم لَهُ دونَ غيره.

والمسألةُ المشبهةُ بها أنَّ اللهَ تعالى أخرج رسولَه ﷺ مِنْ بيته في المدينةِ إلى غزوةِ بدرٍ الكبرى، وكان رسولُنا ﷺ يَقْصِدُ الاستيلاءَ على عِيْرِ أبي سفيان، وخرجَ معه ثلاثُمائةٍ وثلاثةَ عَشَرَ رجلاً مِنْ أصحابِهِ، وشاءَ اللهُ تعالى أن ينجو أبو سفيان بالعير، وشاءَ أنْ يصل رسولُ أبي سفيان،

جنـــــة السـنة

وهو ضمضمُ بنُ عمرٍو الغفاريُّ إلى مكَّةَ، فيخرجُ أهلُ مكة في جيشٍ يبلغ ألفَ مقاتِلٍ، وكَرِه بعضُ الصحابةِ ملاقاةَ الجيشِ، وكان الذي يريدُه ربُّ العزَّةِ مواجهةَ جَيْشِ العدوِّ، وكان الذي يريدُهُ ربُّ العزةِ أفضلُ وأحْسَنُ مما يريدُه بعضُ الصحابةِ في المسألة الأولى وفي المسألة الثانيةِ.

أخرج اللهُ تعالى رسولَهُ من بيتِهِ الذي هو واقعُ في المدينةِ المنورة خروجاً كائناً بالحقِّ، ليواجه جيشَ الكفرِ، ويوقعَ بِهِ، كان بعضُ المؤمنين كارهين لتلك المواجهةِ ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ وقد كان بعضُ الصحابةِ كارهين لمواجهةِ جيشِ العَدُوِّ وبلغ بهم الحالُ إلى المجادلةِ في الحقِّ بعدما ظهر وتبيَّنَ، كأنَّما يُساقونَ إلى الموتِ وهم ينظرون. والحقُّ الذي أخرج اللهُ رسولهُ ﷺ متلبِّساً به هو نصرةُ دينِهِ، وإعزازُ كَلِمَتِهِ، وهذه الغزوةُ هي الغزوةُ الأولى الكبرى التي انتصر فيها المسلمون، وقد بلغ كراهةُ بعضِ الصحابةِ لمواجهةِ الجيشِ إلى درجة عظيمة قال الله فيها: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال:٦].

٤- وَعَدَ اللهُ رسولَهُ ﷺ وصحابَته إحدى الطائفتين:

وَعَدَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ بعد خروجهم مِنْ المدينةِ إلى بدْرٍ الكبرى إحدى الطائفتين: العيرَ أو النفيرَ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨﴾ [الأنفال:٧-٨].

وَعَدَ اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ إحدى الطائفتين أنَّها لهم، والطائفة الأولى: عيرُ أبي سفيان، وكان عدَدُها قرابةَ ألفِ بعيرٍ. والطائفةُ الثانية: جيشُ قريش، وكان عددُهم بين تسعمائة وألف مقاتلٍ، وكان كثيرٌ من الصحابة يَوَدُّون أنْ تكون غيرُ ذاتِ الشوكةِ تكونُ لهم، والطائفةُ التي لا شوكةَ لها هي العيرُ، فليسَ لها حدٌّ ولا منعةٌ، واللهُ يريدُ أمراً آخر، فهو يريد قَصْمَ جيشِ الكفرِ، ونصرةَ المؤمنين على الكافرين، وما يريدُهُ ربُّ العزَّة هو الأكملُ والأفضلُ والأحْسَنُ عاقبةً ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢١٦].

لقد أرادَ اللهُ تعالى خلافَ ما أرادَهُ كثيرٌ مِنَ المؤمنين، أرادَ أن يحقَّ الحقَّ بكلماتِهِ، فقد أظفر الصحابةَ بصناديد الكفارِ، فقُتِلَ منهم جمعٌ كبيرٌ، وأُسِرَ منهم جمعٌ كثير، وأحقَّ اللهُ -تعالى- الحقَّ بكلماته، واستأْصلَ الكفرةَ المجرمين.

جنـــــة السـنة

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ المراد بكلماتِ الله التي يريدُ أنْ يحقَّ بها الحقَّ هي كلماتُه التي وعد فيها بالنَّصر في بَدْرٍ، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ١٦﴾ [الدخان:١٦]، أراد بالبطشة الكبرى غزوةَ بدرٍ. وقوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [السجدة:٢١]، والعذابُ الأدنى، أي: في بدر. وقوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥﴾ [القمر:٤٥]، فقد خرجَ الرسولُ ﷺ من العريش في بدرٍ، وهو في الدِّرع، خرجَ وهو يقولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾ [القمر:٤٥-٤٦] [البخاري: ٢٩١٥].

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨﴾ [الأنفال:٨]. والمراد بالحق الذي يريد الله إحقاقَه الإسلامُ الذي يريدُ اللهُ إظهارَه وإعلاءَه والمرادُ بالباطلِ الذي يريد إبطاله الكفرَ والشركَ الذي عليه الكفار، وهو دينهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النصّ من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الغنائِمُ لله -تبارك وتعالى- فهو خالقُها ومالكُها، وجعلها اللهُ تعالى لرَسوله ﷺ، يقسمها وَفْقَ ما أراه اللهُ تعالى.

٢- جعل اللهُ الغنائمَ له ولرسولِهِ ﷺ بعيداً عَنْ دعوى كلِّ فريقٍ مِنَ الصحابة هو الذي يؤدي إلى التقوى وصلاحِ ذاتِ البَيْنِ.

٣- وصفَ اللهُ تعالى المؤمنين الصادقين بخمسِ صفاتٍ، مَنْ اجتمعت فيه هذه الصفات كان مِنَ المؤمنين حقّاً.

٤- كان كثيرٌ مِنَ الصحابة يريدون الاستيلاءَ على عيْرِ قريشٍ، وكان اللهُ يريدُ قَصْمَ جيش قريشٍ، والقضاءَ على صناديْدِهِمْ، وإضعافَ دينهم، ونصرةَ الإسلامِ.

٥- أحقَّ اللهُ -تعالى- في غَزْوةِ بدرٍ الحقَّ، فنصر دينَه، وأبطلَ دينَ الكفارِ، وارتفع شأنُ المؤمنين، وضعف شأن الكفرة المجرمين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة الأنفال

رعايةُ الله للمؤمنين في بدرٍ

أولاً: تقديم

تُبَيِّنُ آياتُ هذا النصِّ رعايةَ الله للمؤمنين في غزوة بدرٍ فهي تظهرُ لنا رسولَنا ﷺ، وهو متوجِّه في العريشِ في بدرٍ إلى الله يدعوه ويستنْصِرُه، فينزِلُ اللهُ عليه ألفاً مِنَ الملائكة، أنزلهم بُشْرَى لَهُ وللمؤمنين، لتطمئنَّ قلوبُهم، وتهدأ نفوسهم، وإلاَّ فإنَّ اللهَ قادرٌ وحده على نصرهم مِنْ غير ملائكةٍ.

وقبل ذلك غشَّاهُمُ النعاسَ أَمَنَةً مِنْ عند الله، وأنزلَ عليهم الماءَ مِنَ السماءِ، فطهَّر أجسادهم، وأذهب عنهم وساوسَ الشيطانِ، وربطَ على قلوبهم، وثَبَّت به الأقدامَ، وأوحى الله إلى الملائكة بأن يُثَبِّتوا المؤمنين، ويرعبوا الكافرين، ويوقعوابهم.

وأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين في الختامِ أنْ يَثْبُتُوا في ميدانِ القتالِ، ونهاهم عن الفرارِ، ولم يُجِزْ لهم تركَ القتال إلا في حالتين: الأولى: عندما يريدونَ خديعةَ الخَصْمِ المقاتِلِ، فيَفِرُّونَ بين يَدَيْهِ، ثم يكرُّون عليه، فيهلكونَهُ، ويُدَمِّرونَهُ. والثانيةُ: عندما يتركون تلك الموقعةِ إلى موقعةٍ أخرى، فيتركونَ القتالِ إلى قتالٍ آخر.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا
جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ
وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ
سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ
فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ
الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ
اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:٩-١٦].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص مِنَ القرآن

١- استغاثةُ الرسولِ ﷺ بربِّه وإمدادُ الله له بالملائكة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسولنا ﷺ وأصحابه استغاثوا بربِّهم -سبحانه- أي: استنصروه، فاستجابَ لهم، وأمدَّهم بألفٍ مِنَ الملائكة مُرْدِفينَ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٩].

والاستغاثة: الاستجارة بالله مِنْ الأعداء، وطلب العون على التخلص منهم، والنصر عليهم، وقوله: ﴿مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ أي: متتابعين، يتبع بعضهم بعضاً.

وقد قاتلَ الملائكةُ مع المؤمنين في بدرٍ، ففي صحيح مسلم، عن ابنِ عباسٍ قال: حدثني عمرُ بنُ الخطاب، قال: «لَمَّا كانَ يومُ بدْرٍ، نَظَرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركينَ وهُمْ ألفٌ، وأصحابُهُ ثلاثمائةٍ وتِسْعَةَ عَشَرَ رجلاً، فاستقبَلَ نبيُّ الله ﷺ القِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يديهِ فجَعَلَ يهتفُ بربِّهِ: «اللهُمَّ! أَنْجِزْ لي ما وَعَدْتَني. اللهُمَّ! آتِ ما وَعَدْتَني، اللهُمَّ! إنْ تُهْلِكْ هذِهِ العِصابَةَ مِنْ أهْلِ الإسلام لا تُعْبَدُ في الأرضِ» فما زالَ يهتِفُ بربِّه، ماداً يديهِ، مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ، حتى سَقَطَ رِداؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فأتاهُ أبو بكْرٍ، فأخذَ رِداءَهُ فألْقاهُ على مَنْكِبَيْهِ ثمَّ الْتَزَمَهُ من ورائِهِ، وقال: يا نبيَّ الله! كَفاكَ مُناشَدَتُكَ رَبَّكَ، فإنهُ سيُنْجِزُ لَكَ ما وَعَدَكَ، فأنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩] فأمَدَّهُ اللهُ بالملائِكَةِ.

قال أبو زُمَيْلٍ: فحدَّثَني ابنُ عبَّاسٍ قالَ: بينما رجُلٌ مِنَ المسلمينَ يومئِذٍ يشتدُّ في أثَرِ رَجُلٍ مِنَ المشركينَ أمامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بالسَّوْطِ فوْقَهُ، وصوتَ الفارِسِ يقولُ: أقْدِمْ حَيْزُومُ، فنظَرَ إلى المُشْرِكِ أمامَهُ فخرَّ مُسْتَلْقِياً، فنظَرَ إليهِ فإذا هوَ قد خُطِمَ أنْفُهُ، وشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلك أجْمَعُ، فجاءَ الأنْصارِيُّ فحَدَّثَ بذلكَ رسولَ الله ﷺ، فقال: «صدقْتَ، ذلك مِنْ مَدَدِ السماءِ الثالثِةِ». فقتَلُوا يومئِذٍ سبعينَ. وأسَرُوا سبعينَ» [مسلم: ١٧٦٣].

ومعنى: يهتف بربِّه: يصيح ويستغيث بالله بالدعاء، والعصابة: الجماعة، والمناشدة: السؤال، ممدكم: معينكم من الإمداد، مردفين: متتابعين، أقدِم: كلمة زجر للفرس معلومة في كلامهم، وحيزوم: اسم فرس المَلَك، أي: أقدم يا حيزوم، وقوله: «فإذا هو قد خطم أنفه» الخطم: الأثر على الأنف.

وعقد البخاري في صحيحه باباً عَنْوَنَ له بقولِهِ: «بابُ شُهودِ الملائكة بدراً» وساق فيه حديثَ معاذِ بن رِفاعة بنِ رافعٍ الزُّرَقِيِّ، عن أبيه -وكان أبوه من أهلِ بَدْرٍ- قال: جاءَ جِبْريلُ

جنـــــة السـنة

إلى النبيِّ ﷺ فقال: «ما تَعُدّونَ أهلَ بَدْرٍ فيكم؟ قال: «مِنْ أفضلِ المسلمينَ» أو كلِمةً نحوَها، قال: وكذلكَ منْ شَهِدَ بدراً منَ الملائكةِ» [البخاري: ٣٩٩٢].

وعن معاذ بن رِفاعةَ بنِ رافعٍ، وكان رِفاعةُ من أهلِ بدْرٍ، وكان رافعٌ من أهلِ العَقَبةِ، فكان يقولُ لابنِهِ: ما يَسُرُّني أنّي شَهِدْتُ بَدْراً بالعَقَبةِ قال: سأَلَ جبريلُ النبيَّ ﷺ بهذا [البخاري: ٣٩٩٣].

قوله: «بدراً بالعقبة» أي: بدل العقبة، يريد أن شهود العقبة عنده أفضل من شهود بدر، والذي يظهر أن رافع بن مالك لم يسمع من النبي ﷺ التصريح بتفضيل أهل بدر على غيرهم، فقال ما قال باجتهاد منه، وشبهته أن العقبة كانت منشأً نصرة الإسلام، وسببَ الهجرة التي منها الاستعداد للغزوات كلِّها، لكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله أعلم. قاله الحافظ ابن حجر [فتح الباري: ٧/ ٣١٣].

وعن عِكْرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النبيَّ ﷺ قال يومَ بَدْرٍ: «هذا جِبْريلُ آخِذٌ برأسِ فرَسِه عليه أداةُ الحربِ» [البخاري: ٣٩٩٥].

وقد بيَّنَ لنا ربُّ العزةِ أنَّه ما جعل إمدادَه المؤمنين بالملائكة إلاَّ بشرى للمؤمنين، ولتطمئنَّ به قلوبهم، وإلاَّ فإنَّه تبارك وتعالى قادرٌ على نصرِ المؤمنين على أعدائهم من غيرِ إمدادِهِمْ بالملائكة ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ﴾ [الأنفال: ١٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال: ١٠] أي: النصرُ ليس بأيديكم، ولا بأيدي الملائكة، وإنَّما هو بيدِ الله وَحْدَهُ، والعزيزُ: الغالبُ، الذي لا يغلبه أحد. والحكيم: الذي يضعُ الأُمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقد ذكرَ اللهُ تعالى لنا في سورة آلِ عمرانَ أنّه أمدَّ المؤمنين في بدرٍ بأكثرِ مِنْ ألفِ مَلَكٍ، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٥].

٣- حالُ المؤمنين ليلةَ المعركةِ في بدرٍ:

حدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الحال التي كان عليها المؤمنون في ليلةِ معركةِ بَدْرٍ، فقد كان الصحابةُ يعلمونَ أنَّ عَدُوَّهم كثيرٌ، وعَدَدَهم قليلٌ، ولا شَكَّ أنَّ هذه القضيةَ لو استولَتْ على قلوبهم، فإنَّها تشغلُهُمْ، وتقلقهم، وتجلب لهم الهمّ، وتمنعُ عنهم النَّومَ، فيصبحون متعبين

جنـــــة السـنة

مرهقين، ولكنَّ اللهَ تعالى أذْهَبَ عنهم وساوسَ الشيطانِ، وغشَّاهم النومَ في تلكِ الليلةِ، فاستراحت عقولهم، وسكنت أجسادُهم، وحلَّ عليهم الأمنُ والأمانُ، وأنزلَ اللهُ عليهم المطرَ مِنَ السماءِ، فاغتسلوا، وطهَّرهم اللهُ بذلك المطرِ مِنَ الجنابةِ التي أصابتْ كثيراً منهم، وأذهبَ اللهُ تعالى عنهم وساوسَ الشيطان التي ألقاها في أنفسهم، وثبَّتَ اللهُ قلوبهم، وثبتت أقدامهم، ذلك أنَّ الموقعَ الذي كانوا عليه كان رملاً مهيلاً، فلما نزل المطرُ عليه تَلبَّدَ، وثَبَتَتْ أقدامهم ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ [الأنفال:١١].

٤- وَحيُ اللهِ -تعالى- إلى الملائكةِ في بدر:

أخبرنا ربَّنا تبارك وتعالى بما أوحاه، أي: ألقاه إلى الملائكةِ الذين أمدَّ بهم المؤمنين في بدرٍ، فقال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الأنفال:١٢-١٤].

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أوحى إلى ملائكتِهِ الذين أمدَّ بهم المؤمنينَ في بدرٍ، وهذا الوحي قد يكون وحي إلهامٍ، وقد يكون وحيَ إعلام، وقوله: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ أي: معكم بنصري وإعانتي.

وأمَرَهُمْ أن يُثَبِّتوا الذين آمنوا ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وتثبيت الملائكةِ للمؤمنين في بَدْرٍ بإلقاء الأمْنِ والطمأنينةِ في قلوبهم، وإلقاء الرُّعبِ في قلوبِ الكافرين، ويكونُ أيضاً بالقتال مع المؤمنين، وضرب رؤوسِ الكفار، وأصابعِ أيديهم، ووعدَ اللهُ تعالى الملائكة بأنْ يلقي في قلوب الكفار الرعبَ ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ والرُّعْبُ: شِدَّةُ الخوفِ الذي يلقيه في قلوبِ الكفارِ، فالقلوبُ هي الموضعُ التي يكون فيها الأمنُ والخوفُ.

وأمر اللهُ -تعالى- الملائكةَ أن يباشروا القتالَ مع المؤمنين ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ﴾ أمرهم أن يكونوا شديدين في قتالهم مع المشركين، فميدانُ القتالِ ليس ميدانَ رحمة وشفقةٍ، وإنما هو ميدانُ غلظةٍ وشدَّةِ بأس، ومشهد السيف وهو يهوي على العنق، فيقطعه، ويسقط الرأسُ بعنفٍ وشدةٍ، مشهد مرعب، ومنظرُ السيفِ وهو يخترط أصابعَ اليد، فيصبحُ المقاتل مشلولاً لا يستطيع أنْ يقاتل أو يواجه؛ منظر مخيف.

جنــــة الســــنة

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: ذلك العذاب الذي أنْزَلَه اللهُ بالكفار بقطع رؤوسهم، وقطع أصابع أيديهم، إنَّما هو بسبب أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وشاقُّوا اللهَ، أي: حاربوه وخالفوا أمْره، وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي: من يشاقق الله يعاقبه أشدَّ العقابِ، وقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ هذا خطابٌ للكفار، أي: ذوقوا هذا العذاب والنكال في الدنيا، واعلموا أنَّ للكافرين عذابَ النارِ في الآخرة.

٥- **التولِّيْ يومَ الزحفِ مِنَ كبائر الذنوب:**

حَذَّرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين من التولي يومَ الزحفِ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأنفال:١٥].

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ ونهاهم عن توْلِيَةِ أدبارِهِمْ للكفارِ إذا لقوا جيشَ الكفارِ زاحفين إليهم، وقد تهدَّدَ الذين يفرُّونَ في ميدانِ القتال بغضبِ الله كما تهدَّدَهم بإدخالِهِمْ جهنَّمَ، وبئْسَ المصير.

واستثنت الآيةُ حالتين، يجوز فيهما للمقاتل تركُ القتالِ: الأولى منهما التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ [الأنفال:١٦]، أي: يَفِرُّ من بين يَدَي عدُوِّه مكيدةً، ليريَهُ أنَّه خافَ منه، فيتبعه، ثم يكرُّ عليه، فيقتله.

والحالةُ الثانيةُ ذكرها اللهُ تعالى في قوله: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال:١٦]، والمراد بالتحيز إلى فئة، أن يفرَّ إلى فئةٍ أُخرى من المسلمين، فيقصدُ إلى مقاتلين آخرين فيقاتِلُ معهم.

أما التولِّي يومَ الزحفِ لغير الأمرين السابقين، فهو إحدى السبع الموبقات [البخاري: ٢٧٦٦. ومسلم: ٨٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ينبغي للمؤمنينَ إذا أرادوا قتالَ الكفارِ أنْ يستنصروا ربَّهم، ويطلبوا منه الغوثَ.

٢- استنصر الرسولُ ﷺ ربَّه في بدرٍ، فأمدَّه بملائكتِهِ، يقاتلون معه، ويثبتون المؤمنين.

٣- ألقى اللهُ تعالى الأمنَ على المؤمنينِ في ليلةِ معركة بدرٍ، فهدأت نفوسُهُمْ واطمأنت قلوبُهُم، وناموا ليلتهم، وجاؤوا في يوم غدٍ هادئين مستجمِّيْنَ.

جنـــــة السـنـــة

٤- أنزلَ اللهُ المطرَ على المؤمنين، فطهَّروا أجسادهم، وثَبَّت الأرض تحت أقدامهم، وأذهب عنهم وساوسَ الشيطانِ.

٥- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- الملائكةَ أنْ يُثَبِّتُوا المؤمنين، ويقاتلوا معهم، ويضربوا رقاب الكفارِ وأيديهم.

٦- وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنين بأنْ يُلْقِي الرعبَ الشديدَ في قلوبِ الكفارِ.

٧- استحقَّ الكفارُ ما فعله الله بهم، لأنَّهم خالفوا أمْرَ الله وأمْرَ رسوله وحاربوا اللهَ ورسولَهُ.

٨- جعل اللهُ تعالى للكفارِ عذابَ القتلِ والجرحِ في الدنيا، وعذابَ النارِ في الآخرة.

٩- لا يجوزُ للمؤمن أنْ يَفِرَّ في ميدان الحربِ والقتالِ، إلا متحرفاً لقتالٍ، أو متحيزاً إلى فئة.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث من سورة الأنفال
مفتاح النصر يكون بتعلّقِ القلوب بالله وعِلْمِها أن الأمور بيده

أولاً: تقديم

على المؤمنين وهم يخوضون غمارَ المواجهة مع أعدائِهم الكفرةِ أنْ يعلَموا أنَّ اللهَ هو الذي يُدبِّر أُمورَهُمْ، ويعْلي منارَهُمْ، ويثبِّتُ أقدامَهُمْ، ويخذلُ عدوَّهم، وعليهم أنْ يتواضعوا لعظمتِهِ وجلالِهِ ويعلِّقوا قلوبهم به، ليديم نَصْرَهُمْ، ويخذُلَ عدوَّهُمْ، فالنَّصْرُ مِنْ عند الله، ومِنْ نَصَرَهُ الله، فلا يُخْذَلُ أبداً، وأعداؤنا الكفرة المجرمون الذين لا يستجيبون لما يريدُهُ اللهُ تعالى منهم ولا يفقهون عنه مرادَه - شَرُّ الدوابِّ، فهم لا يفهمونَ، ولا يعقلونَ، وقد دَعا اللهُ المؤمنين إلى الاستجابةِ إلى ما يدعوهم إليه، وما يدعوهم إليه رسولُهُ ﷺ، ففي ذلك عزَّتُهم وحياتُهم ورفعتُهُمْ وكرامَتُهمْ، وحَذَّر اللهُ تعالى المؤمنين مِنَ الفتنِ التي تجتاحُهُمْ بسبب تقصيرِهِم في الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ، فهي إذا وقعتْ أصابتْ الصالحَ، ولم تقتصرْ على الطالِحِ.

ثانياً: آيات هذا النصِّ من سورة الأنفال

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:١٧-٢٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- اللهُ -تعالى- هو الذي قتل المشركين في بدر:

كان الصحابةُ رضوانُ الله عليهم يتحدثون بعد غزوةِ بدر عمّا فعلوه بالمشركين مِنْ قَتْلٍ وجَرْحٍ وأسْرٍ، فقوَّم اللهُ تعالى ما وَقَعَ في نفوسِ المؤمنين، وبيَّنَ لهم أنَّهم لم يقْتُلوهم بحولِهِمْ،

جنـــــة السـنة

وقُوَّتهم، وإنما اللهُ بقدرتِهِ وقهرِهِ وعزَّته هو الذي قَتَلَهُمْ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧]، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، فقد كانَ الصحابةُ قليلي العددِ، وكان سلاحُهُمْ قليلاً، فأنزلَ عليهم الملائكةَ، وثَبَّتَ قلوبهم، وألقى الرعْبَ في قلوبِ أعدائهم.

قال مجاهدٌ: «في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، لأصحابِ محمدٍ ﷺ، حين قال هذا: قَتَلْتُ، وهذا: قَتَلْتُ» [الطبري: ١٥/ ٣٧٩٧].

وكان الرسولُ ﷺ أخذ قبضةً من ترابٍ في أوّلِ المعركةِ، فحصب بها وجوهَ المشركين، وقال: «شاهتِ الوجوهُ» فأوصل اللهُ -تعالى- ذلك الترابَ والحصَى إلى عيونِ المشركين ومناخِرِهمْ وأفواهِهِمْ، فوَلَّوْا مدبرين، وهذا هو المرادُ من قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] [أورد ابن كثير الأحاديث الواردة في ذلك، وبيَّن محقق ابن كثير أنَّه أخرجها الطبري في تفسيره، والبيهقي في الدلائل، وإسنادُ الحديثِ ضعيف لانقطاعه، لكن له شواهد مرسلة يتأيد بها، ابن كثير: (٣/ ٢٨٦)].

فالرسولُ ﷺ أخذَ القبضةَ، ورمى بها في وجوهِ القوم، ولكنَّ اللهَ تعالى هو الذي أنفذَها وأوصلها إلى وجوه القومِ، فدخلت عيونَهُم وأُنوفَهُمْ وأفواهَهُمْ، وأحدثت فيهم ذلك الأثرَ الذي هَزَمَهُمْ، وأوقعَ فيهم القتلَ والجرحَ والأَسْرَ.

وقد ذكر بعض المفسرين أنَّ سببَ نزولِ الآية وقائع وقعت في أُحُدٍ أو حُنَيْنٍ، والصواب أنَّ الآية نزلت في بدرٍ.

٢- إنعامُ اللّه على المؤمنين بنصرهم في غزوةِ بدرٍ:

بيَّنَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أنْعم على المؤمنين بنعمةٍ عظيمةٍ جليلةٍ بنصرِهمْ في بدرٍ، ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]، وقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ أي: يُنْعِمَ على المؤمنين نعمةً عظيمةً بالنصْرِ والغنيمة والأجرِ والمثوبةِ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال:١٧]، أي: سميعٌ لدعائِهم، فقد دعا رسولُ الله ﷺ ربَّه في العريشِ، فاستجاب له، وأنزلَ عليه ملائكتَهُ، و﴿عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: بما في قلوبِهِمْ وعليم بأعمالِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنفال:١٨]، وقد أوْهَنَ اللهُ تعالى كيدَ الكافرين بإلقائه الرُّعْبَ في قلوبهم، وتفريقِ كلمتهم، وإنزالِ الملائكةِ يحاربون مع

جنـــــة الســـــنة

المؤمنينَ، ويضربون أعْناقَ الكافرينَ وأطرافَ أصابِعِهِمْ، وقد قُتِلَ منهم مَنْ قُتِلَ، وأُسِرَ مَنْ أُسِر، وفرَّ مَنْ فرَّ، وأصبحتْ قريشٌ بعد المعركةِ في حالةِ ضعفٍ.

٣- **تهديدُ الله مشركي قريش:**

استفتح كفارُ قريشٍ قبلَ غزوةِ بدرٍ، أي: استنصروا واستقضوا الله واستحكموه أن يفصل بينهم وبين أعدائهم المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ [الأنفال:١٩]، فقد جاءكم ما سألتم، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢].

وعن عبدالله بن ثعْلَبَةَ أنَّ أبا جهل قالَ حين التقى القومُ: «اللهمَّ أقْطَعُنا للرَّحمِ، وآتانا بما لا نَعْرِف فَأَحِنْهُ الغَداةَ» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير، أخرجه أحمد في المسند (٢٣٦٦١) وهو حديثٌ صحيح، وعزاه للنسائي (٢٢١)، وهو في الكبرى (١١٢٠١)، والحاكم (٢/ ٣٢٨) ووافقه الذهبيُّ على تصحيحه].

وقد حَكَمَ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ ولأصحابِهِ، فأنزلَ عليهم نَصْرَهُ، وهزمَ الكفرةَ المشركين، وقالَ للمشركين: ﴿وَإِن تَنتَهُوا۟﴾ عن كفركم وشرككم ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرةِ. وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ﴾ أي: إنْ تعودوا إلى كفركم وضلالِكُمْ، نعد إلى مثل ما فعلناه بكم، وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: ولَنْ يغني عنكم جمعكُمْ شيئاً مهما كَثُر، فاللهُ تعالى قاهرٌ غالبٌ، وهو مَعَ المؤمنين، ومَنْ كان الله معه، فلن يهزم.

٤- **أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﷺ:**

هدَّدَ اللهُ -تباركَ وتعالى- المشركينَ فيما سبق، وتوعَّدهم بالهزيمةِ والخذلانِ إنْ هم ﴿شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال:١٣]، ثم نادى ربُّ العزة المؤمنين وأمَرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال:٢٠].

أمرهم بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ ونهاهم عن التولِّي عنه ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ وذلك بتركِ طاعَتِهِ، وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: بعد ما جاءَتكم آياتُ الله تعالى وفقهتموها.

ونهى اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ المؤمنينَ أنْ يكونوا ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال:٢١] وهؤلاءِ هم الكفارُ المشركون، أيْ: قالوا سمعنا بآذاننا، ولكنَّهم لم يفقهوا ما سمعوه، ولم يقبلوه.

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: الذين يَسمعون الكلامَ، ولا يفقهونه، ولا يقبلونه. وقد ذمَّ اللهُ -تعالى- هذا الصنف من الناس، وهم الكفرة المجرمون ذماً قبيحاً، فقال: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٢-٢٣].

﴿الدَّوَابِّ﴾ ما دَبَّ ومشى فوق ظهر الأرض، و﴿عِندَ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه، و﴿الصُّمُّ الْبُكْمُ﴾ أي: الذين لا يسمعون، ولا ينطقون، وُصِفُوا بذلك مع كونهم يسمعون وينطقون، لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق، وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا يعقلون ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه، فهؤلاء شرُّ البريَّة، لأنَّ كلَّ دابّة مما سواهم مطيعةٌ لله فيما خلقها له، وهؤلاء خلقوا لعبادةِ الله فكفروا به، وقد قال تعالى فيهم: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لأفهمهم، ولكن لا خير فيهم، فلم يفهمهم، لأنَّه يعلم أنَّه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا﴾ لأعرضوا عن ذلك قصداً وعناداً بعد فهمهم له.

٥- دعوةُ الله -تباركَ وتعالى- المؤمنينَ إلى الاستجابة إلى ما يحييهم اللهُ ورسولُه به:

دعا الله تعالى المؤمنينَ إلى الاستجابةِ إلى ما يحييهم اللهُ -تعالى- به ورسولُهُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

نادانا ربُّنا -عز وجل- آمراً إيانا بالاستجابة له ولرسوله ﷺ إذا دعانا لما يحيينا، والذي دعانا اللهُ تعالى ورسوله ﷺ إليه، يحيي قلوبَنا، وينيرُ أرواحَنا، ويصلحُ عقولنا، ويهدينا للتي هي أقوم، ويصلحُ أعمالنا وأقوالنا، ويجعلنا خيرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس.

وقد أورد البخاري هذه الآية في صحيحه، ثم قال: ﴿اسْتَجِيبُوا﴾ أجيبوا، ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ لما يُصْلحكم.

ثم أورد حديثَ أبي سعيد بنِ المعلَّى ﷺ، قال: كنت أصلي فمَرَّ بي رسولُ الله ﷺ، فدَعاني فلَمْ آتِه حتى صَلَّيت، ثم أتيتُه، فقال: «ما مَنَعَكَ أنْ تأْتِيَ؟ ألم يَقُلِ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤]»، ثم قال: «لأُعَلِّمَنَّكَ أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أنْ أخرجَ»، فذهبَ رسولُ الله ﷺ ليَخرُجَ، فذَكَرْتُ له.

جنـــــة السـنـــــة

وقال معاذٌ: حدَّثنا شُعْبةُ، عن خُبَيبِ بنِ عبدالرحمنِ، سَمِعَ حَفْصاً، سَمِعَ أبا سعيدٍ رجلاً من أصحاب النبيِّ ﷺ بهذا، وقال: «هي الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، السَّبْعُ المَثاني» [البخاري: ٤٦٤٧].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]. أَمَرَنا ربُّنا أنْ نَعْلَم أنَّ اللهَ يحولُ بين المرءِ وقلبه، فهو سبحانَهُ المالكُ لقلوبِ عبادِهِ، وهو القادرُ على أنْ يحولَ بينهم وبينها إذ شاءَ، حتى لا يقدر ذو قَلْبٍ أنْ يدركَ به شيئاً مِنْ إيمانٍ وكفرٍ، أو يَعِيَ به شيئاً، أو أنْ يفهم إلا بإذنِهِ ومشيئتِهِ، وذلك أنَّ الحَوْلَ بين الشيءِ والشيءِ إنما هو بالحَجْزِ بينهما، وإذا حجزَ جَلَّ ثناؤه بين عبدٍ وقلبِهِ في شيءٍ أنْ يدرِكه أو يفهمه، لم يكن للعبد أنْ يدركَ ما قد مَنَعَ اللهُ قَلْبَهُ إدْراكَهُ، وإذا كان ذلك معناه، دَخَلَ في ذلك قولُ مَنْ قال: يحولُ بين المؤمنِ والكُفْرِ، وبينَ الكافرِ والإيمانِ [الطبري: ٥/ ٣٨١٢]. وقال ابنُ كثيرٍ: «قال ابنُ عباسٍ: يحول بينَ المؤمنِ وبينِ الكفرِ، وبينَ الكافرِ والإيمانِ» [رواه الحاكم في مستدركه موقوفاً، وقال: صحيح، ولم يخرجاه. وكذا قال مجاهدٌ، وسعيدٌ، وعكرمةُ، والضحاكُ وأبو صالح، وعطيةُ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ والسُّدِّيُّ] [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٨٩].

وقد أوردَ ابنُ كثيرٍ الأحاديثَ الصحيحةَ التي تناسب هذه الآية، منها:

١- ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك ﷺ قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: «يا مُقَلِّبَ القلوب، ثَبِّتْ قلبي على دينك». قال: فقلنا: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا، فقال: «نعم، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله تعالى يُقَلِّبها» [قال محقق ابن كثير: صحيح. أخرجه الترمذي (٢١٤١) وأحمد (٣/ ١١٢و ٢٥٧)، وأبو يعلى (٣٦٨٧) وصححه الحاكم (١/ ٥٢٦)، ووافقه الذهبي، وقال الترمذي: حديث حسن. والصواب أنه صحيح، له شواهد كثيرة].

٢- وروى الإمامُ أحمد: عن جابر يقول: حدثني بُسر بن عبدالله الحضرمي: أنه سَمِع أبا إدريس الخَوْلانيّ يقول: سَمِعتُ النواسَ بن سمْعان الكلابيَّ ﷺ يقول: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع رب العالمين إذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يُزيغه أزاغه»، وكان يقول: «يا مُقلِّب القلوب، ثَبِّتْ قلوبنا على دينك»، قال: «والميزان بيد الرحمن يخفضه ويرفعه» [قال محقق ابن كثير: متن صحيح. أخرجه النسائي في الكبرى (٧٧٣٨) وابن ماجه (١٩٩) وأحمد (٤/ ١٨٢) وابن أبي عاصم في السنّة (٢١٩)، وصححه ابن حبان (٩٤٣)، وكذا الحاكم (١/ ٥٢٥)، ووافقه الذهبي، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده صحيح].

٣- روى مسلمٌ في صحيحه عن عبدالله بن عمْرِو بن العاصِ، أنَّه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ قلوبَ بني آدمَ بينَ إصْبَعَيْنِ من أصابعِ الرحمنِ، كقَلْبٍ واحِدٍ، يُصَرِّفُه حيث يشاءُ» ثم قالَ رسولُ الله ﷺ: «اللهُمَّ مُصَرِّفَ القلوبِ، صَرِّف قُلوبَنا على طَاعَتِكَ» [مسلم: ٢٦٥٤].

جنـــــة الســـــنة

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤﴾ [الأنفال:٢٤] أي: تجمعون في يوم القيامة، فيحاسبكم على ما قدمتم.

٦- تحذيرُ اللهِ تعالى المؤمنين من فتنةٍ لا تصيب الذين ظلموا منهم خاصَّة:

قال ابنُ عباسٍ في تفسيرِ قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال:٢٥] «أمَرَ اللهُ المؤمنين ألاَّ يُقِرُّوا المنكرَ بين ظهرانيهم، فيَعُمَّهم الله بالعذاب» [ابن كثير: ٣/ ٢٩٢].

وقد أمَرنا اللهُ -تعالى- في الآية أن نَجْتَنِبَ فتنةً تتعدَّى الظالمَ، فتصيب الصالحَ والطالحَ ولا تختصُّ إصابَتُها بمن يباشرُ الظلمَ منَّا.

وقد جاءَتِ الأحاديثُ كثيرةً طيبةً تحذِّر من الفِتَنِ، منها ما روتُه زينبُ بنتُ جَحْشٍ رضيَ اللهُ عنها أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ عليها فَزِعاً، يقول: «لا إلَه إلاَّ اللهُ، وَيْلٌ للْعَربِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَب، فُتِحَ مِنْ رَدْمِ يأجوجَ ومأْجُوجَ مثلُ هذه» وحَلَّق بإِصْبَعِهِ الإِبْهامِ والتي تَلِيها.

قالتْ زَيْنَب بنتُ جَحْشٍ: قلتُ: يا رسولَ الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحونَ؟ قال: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ» [البخاري: ٣٣٤٦. ومسلم: ٢٨٨٠].

وعن عدي بن عَميرة، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يُعذِّبُ العامةَ بعملِ الخاصَّةِ، حتى يَرَوْا المُنْكرَ بين ظَهْرانيهم، وهُمْ قادِرونَ على أنْ يُنْكِرُوه فلا يُنكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب الله الخاصَّةَ والعامَّة» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند (١٧٧٢٠) وهو حديث حسن لغيره].

وعن حذيفة بن اليمان، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «والذي نفْسي بيدِهِ، لتأْمُرُنَّ بالمعروفِ، ولتنهونَّ عن المُنكرِ، أو ليُوشِكَنَّ اللهُ أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عِقاباً من عِنْدِهِ، ثم لَتَدعُنَّه فلا يَسْتَجيبُ لكم» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣٠١) وهو حديث حسن لغيره].

وقال الإمام أحمدُ: حدثنا عبدالله بن نُمَير، حدثنا رَزين بن حبيبٍ الجُهَني، حدثني أبو الرُّقاد قال: خرجتُ مع موْلايَ، فدُفِعْتُ إلى حُذَيفةَ وهو يقول: «إن كانَ الرجلُ ليتكلَّم بالكلمةِ على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ فيصير منافقاً، وإنِّي لأسمعها مِنْ أحدكم في المَقْعَدِ الواحدِ أربعَ مراتٍ لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهونَّ عن المنكر، ولتَحاضُّنَّ على الخير، أو ليَسْحَتَنَّكم الله جميعاً بعذابٍ، أو ليُؤمَّرنَّ عليكم شرارَكم، ثم يدعو خيارُكم فلا يُستجاب لهم» [قال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٣٦) رواه أحمد في المسند: (٢٣٣١٢) وهو أثر حسن].

جنـــــة السـنـة

وعن النُّعْمانَ بنَ بشيرٍ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله والواقعِ فيها كمَثَلِ قومٍ استَهَمُوا على سَفينةٍ، فأصابَ بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفَلَها، فكان الذينَ في أسفَلِها إذا استَقَوْا من الماءِ مرُّوا على مَن فوقَهُم، فقالوا: لو أنّا خَرَقْنا في نَصيبِنا خَرْقاً، ولم نُؤْذِ مَنْ فوقَنا، فإنْ يَتْرُكُوهم وما أرادوا هَلَكُوا جميعاً، وإنْ أخَذُوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» [البخاري: ٢٤٩٣].

وعن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت: سَمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إذا ظَهَرتِ المعاصي في أُمَّتي، عمَّهم اللهُ بعذابٍ مِن عِنْدِهِ. فقلتُ: يا رسولَ الله، أما فيهم أناسٌ صالحون؟ قال: بلى، قالت: فكيف يَصنعُ أولئك؟ قال: يُصيبهم ما أصابَ الناس، ثم يصيرون إلى مغفرةٍ من الله ورضوان» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٢٩٢): جيد. أخرجه أحمد (٦/ ٢٩٤-٢٩٥ و٣٠٤ و٤١٨)، وقال الهيثمي في (المجمع) (٧/ ٢٦٨): رواه أحمد بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح].

وعن المنذر بن جرير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يعملون بالمعاصي، وفيهم رجال أعزّ منهم وأمنع لا يغيرون، إلا عَمَّهم الله بعقاب - أو: أصابهم العقاب» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وأحمد (٤/ ٣٦١ و٣٦٣) والطبراني (٢٣٧٩)، وإسناده حسن في الشواهد].

وعن عُبيد الله بن جَرير، عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «ما من قوم يُعْمَل فيهم بالمعاصي، هم أعزُّ وأكثر ممن يعمله، ثمَّ لم يغيروه، إلا عمَّهم الله بعقاب» [قال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد (٤/ ٣٦٤ و٣٦٦) وابن ماجه (٤٠٠٩) وابن حبان (٣٠٠) والطبراني (٢٣٨٠) والبيهقي (١٠/ ٩١)، وإسناده حسن في الشواهد والمتابعات. وفي الباب أحاديث].

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥]. أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَعْلَم علماً لا شكَّ فيه ولا رَيْبَ أنَّ عقابَه شديدٌ في الدنيا والآخرةِ لمن عطَّلَ حدودَه، وانتهك حرماته.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على المؤمنين أنْ يتواضعوا لجلالِ الله وعظمته، فيعلموا أنَّ اللهَ الذي نصرَهُمْ وأيَّدهم، هو الذي أوْهَنَ كيدَ عدوِّهم، وأقدرَ المؤمنين على قَتْلِ عدوِّهم، وأوقعَ الرُّعْبَ في قلوبهم.

جنـــــة الســـــنة

٢- اللهُ -تعالى- هو الذي حَكَمَ للمؤمنين بالرفعة والعلوِّ والنَّصر، عندما نَصَرَهم، وهزم عدوَّهُمْ، فلو لم يكونوا أولياءَه وأحبابَه لما نصرهم في ميدانِ القتالِ، وهزم خصومَهُمْ.

٣- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين بطاعتِهِ وطاعة رسوله ﷺ ، فالطاعةُ لله ورسولِهِ ﷺ سببُ العزةِ والكرامةِ والرفعةِ، وعدمُ اتباعُ الرسولِ سببُ الهزيمةِ والخذلانِ.

٤- الكفارُ الذين لا يسمعون ما أَوْحاه الله لرسوله ﷺ ، ولا يتحدثون به، ولا يفقهونه، ولا يعقلونه شرُّ الدوابِّ التي تدبُّ على الأرض.

٥- لو عَلِمَ اللهُ -تعالى- في الكفارِ خيراً لفقههم دينَهُ، وهداهُمْ، ولو أسمعهم لتولَّوْا عن الحقِّ، وأعرضوا عنه.

٦- حياةُ الأُمَّةِ الإسلاميةِ، وحياةُ أفرادها وأُسرِها مرهونَةٌ بالاستجابةِ لما دعانا اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ إليه، فاللهُ تعالى ورسولُه ﷺ يدعونا لما يحيينا على مستوى الفردِ والأسرةِ والأُمَّةِ، والتولِّي عن الله ورسولِهِ يضعف الفردَ والأُسرة والأُمةَ.

٧- اللهُ -تعالى- القادرُ على كلِّ شيءٍ، فهو يحولُ بين المرءِ وقلبه، فإذا لم يشأ اللهُ الهدايةَ لعبدٍ مِنْ عبادِ الله، لم يَدخُلِ الإيمانُ قَلْبَهُ، وإن شاءَ الهداية له لم يستطعْ أحدٌ منعه من الإيمان.

٨- الفتنُ والمصائبُ إذا وقعت عَمَّت الصالحَ والطالحَ، ولا تكونُ قصراً على الظلمةِ الفسقَةِ، ولذلك نرى الفتنَ التي تجتاح المؤمنين، فتأْخُذَ الأخيارَ والأشرارَ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الرابع من سورة الأنفال
تذكيرُ الله -تعالى- صحابة رسولِهِ ﷺ بنعمهِ وتوجيههم لما هو خير

أولاً: تقديم

آياتُ هذ النصِّ الكريم تحوي جملةً مِنَ النعم والتوجيهاتِ والتقريراتِ والوقائع، فقد ذكرهم اللهُ تعالى بنِعْمتهِ عليهم عندما كانوا قليلاً مستضعفين في الأرضِ، يخافون أن يتخطفهم الناسُ، فآواهم وأيدهم بنصره، ووسَّع عليهم في الرزق، ونهاهم عن خيانةِ الله ورسولِهِ وخيانةِ أماناتهم، وهم يعلمون، وأعلَمَهم أنَّ أموالهم وأولادَهم فتنةٌ واختبارٌ، وأنَّ اللهَ تعالى عنده الأجرُ العظيمُ في جناتِ النعيم.

وأخبرهم أنَّهم إن اتَّقوْهُ وعملوا بطاعته جعل لهم فرقاناً يُفرِّقون به بين الخيرِ والشرِّ، والكفرِ والإيمانِ، وكفَّر عنهم ذنوبَهُمْ وسيئاتِهم، وغفر لهم، واللهُ ذو الفضلِ العظيم.

وامتنَّ الله تعالى على رسولِهِ ﷺ بإنجائه مِنَ الكفّارِ أهلِ مكَّةَ الذين ائتمروا به بسجنه أو قتله أو إخراجه من مكة.

وحكى قولَ بعضِ الكفارِ الذين ادعوا كاذبين أنَّ لديهم القدرةَ على الإتيان بمثلِ القرآنِ، وحكى قولَ بعضِهم باستعجالِ العذابِ، وأخبرَ أنَّه لا يعذِّبُهُمْ والرسول ﷺ بَيْنَ أظهرِهم، أو إذا كان فيهم المؤمنون الذين يستغفرون اللهَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٦-٣٤].

جنـــــة الســـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يذكروا إذ كان عددُهم قليلاً فكثَّرهم:

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٢٦﴾ [الأنفال:٢٦].

أمَرَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أن يذكروا إذ كانوا قليلينَ فكثرهم، ومستضعفين فنصرهم، وخائفين فقوَّاهم ونَصرهم، وفقراءَ عالة فرزقهم من الطيبات، واستشكرهم فأطاعوه، وامتثلوا جميع ما أمرهم، وهذا كان حالَ المؤمنين حالَ مُقامِهم بمكة قليلين مستخفين مُضطهدين، يخافون أن يتخطَّفَهم الناسُ من سائر بلاد الله، من مشركٍ ومجوسيٍّ وروميٍّ، كُلُّهم أعداء لهم، لِقِلَّتهم وعدم قوتهم، فلم يزل ذلك دَأْبُهم حتى أَذِنَ اللهُ لهم في الهجرة إلى المدينة، فآواهم إليها، وقيَّضَ لهم أهلها، آووا ونَصَروا يوم بدر وغيره، وآسَوا بأموالهم، وبذَلوا مُهَجَهم في طاعة الله وطاعة رسوله.

قال قتادةُ بن دِعامة السَّدُوسِيُّ -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، قال: «كان هذا الحيُّ من العَرَب أذلَّ الناس ذُلاًّ، وأشْقاه عيشاً، وأجوعُه بطوناً، وأعراهُ جلوداً، وأبينَهُ ضلالاً، من عاشَ منهم عاشَ شقياً، ومن مات منهم رُدِّيَ في النار، يُؤْكَلُون ولا يَأْكلون، والله ما نَعْلَم قَبيلاً من حاضر أهل الأرض يومئذٍ كانوا أشرَّ منزلاً منهم، حتى جاء الله بالإسلام، فمكَّن به في البلاد، ووَسَّع به في الرزق، وجعلهم به ملوكاً على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى اللهُ ما رأيتم، فاشكروا لله نعمَه، فإن ربكم مُنعِمٌ يحبُّ الشكر، وأهلُ الشكر في مزيد من الله» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٤].

٢- نهي الله -تعالى- المؤمنين عن خيانة الله وخيانة رسولِهِ وخيانةِ أماناتهم:

خاطبَ اللهُ -تعالى- المؤمنين جميعاً إلى يوم القيامة ناهياً إيَّاهم عن خيانةِ الله وخيانةِ رسولِهِ ﷺ وخيانةِ أماناتهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٧﴾ [الأنفال:٢٧].

وقد ذكر بعض المفسرين أنها نزلت في بعضٍ من الصحابة، ولا يوجد خبر صحيح يدلُّ على أنَّها نزلت في واقعةٍ معينةٍ [تفسير الطبري: ٥/ ٣٨١٧].

وقال ابن كثير: «والصحيحُ أنَ الآيَةَ عامَّة، وإنْ صَحَّ أنها وردت على سبب خاصٍّ، فالأخذُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوص السبب عند الجمهورِ مِنَ العلماءِ. والخيانةُ: تعمُّ الذنوب

جنـــــة السـنـــة

الصغارَ والكبارَ، اللازمةَ والمتعديَةَ، وقال عليُّ بن أبي طلحة ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ الأمانةُ: الأعمالُ التي ائتمنَ اللهُ عليها العباد، يعني الفريضةَ». [تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٩٥].

والصوابُ مِنَ القول أنَّ خيانةَ الله وخيانَةَ الرسولِ ﷺ: التقصير في امتثال أوامر كلٍّ منهما، واجتناب نواهيه، ومن خيانةِ الأمانةِ: تَرْكُ التكاليفِ التي كلَّف الله بها، أو كلف بها رسولُهُ ﷺ.

٣- أموالُنا وأولادُنا فتنةٌ:

أمرنا ربُّنا -تبارَكَ وتعالى- أنْ نعْلَم مُسْتَيْقِنينَ أنّ أموالَنا وأولادَنا فتنةٌ، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال:٢٨]. والفتنةُ: الابتلاءُ والاختبار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ [التغابن:١٥]، فالمالُ والولدُ قد يُضِلُّ العبدَ عن طاعة الله -عزَّ وجلَّ- ويحرفُ مسارَهُ، حتى يصبحَ الولدُ والزوجُ عدوّاً ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ [التغابن:١٤].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾ [الأنفال:٢٨]، والأجرُ العظيمُ: الثوابُ الجزيلُ في جناتِ النعيمِ في يومِ الدينِ.

٤- أعلَمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنّه إن اتقيناه يجعلْ لنا فرقاناً:

نادى اللهُ -تعالى- المؤمنين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الأنفال:٢٩]، وأعلمهم أنهم إن اتَّقَوْهُ بامتثالِ أمرِهِ واجتنابِ نهيه جعل لهم فرقاناً ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال:٢٩]، والفرقانُ ما يفرقون به بينَ الحقِّ والباطلِ والإيمانِ والكفرِ، فالمؤمن الذي اهتدى بالكتابِ والسنّة يصبحُ لديه فاصلٌ يفرّقُ به بين الحقِّ والباطل، والإيمانِ والكفرِ، والحلالِ والحرامِ، وقد فسَّر ابنُ عباسٍ والسديُّ ومجاهدٌ وعكرمةُ والضحاكُ وقتادةُ الفرقان في الآية بالمَخْرَجِ، وفسَّره محمدُ بنُ إسحاقَ بالفصْلِ بينَ الحقِّ والباطلِ.

فالمتقي يرزقه ربُّ العبادِ الفصلَ بين الحقِّ والباطلِ، ويُكفِّر عنه سيئاتِهِ، ويغفر له ذنوبَهُ، ﴿وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال:٢٩]، وقد تفضَّل اللهُ على هذه الأمةِ بإرسالِ رسولِهِ ﷺ إليها وإنزال كتابه عليها، وأمَدَّهم بنصره وتأييده، ونعمُ الله تعالى كثيرةٌ، لا تعدُّ، ولا تحصى.

جنـــــة السـنة

٥- مَكْرُ كُفَّارِ قريشٍ في ليلةِ الهجرةِ بالرسولِ ﷺ ليأسِرُوه أو يقتلوه أو يخرجوه:

ذكَّر اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ في هذه الآياتِ التي أُنْزِلت عليه في غزْوة بدر بما أنْعَمَ اللهُ به عليه في ليلةِ الهجرةِ عندما اجتمعَ كُفَّارُ قريشٍ، وتشاوروا فيما بينهم للكيفية التي أرادوا أن يبطشوا بها برسولِهِ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال: ٣٠].

والمراد بالذين كفروا كُفَّار قريشٍ، ومَكْرُهُمْ به كان بتدبيرِهِمْ له ما يسوؤه، وسعيُهُمْ في فسادِ حالِهِ وإطفاءِ نوره، وكان ذلك منهم عند اجتماعهم في دارِ النَّدْوَةِ في الليلةِ التي هاجر فيها رسولُهُ ﷺ وقولُه: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليقيِّدوك، أو يَحْبِسُوكَ، أو يوثِقُوْكَ، وقوله: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ فقد كان أحدُ مقترحاتِهِمْ أنْ يجمعوا له مِنْ كلِّ بيتٍ من قريشٍ رجلاً، يضربونَهُ ضربةَ رجلٍ واحدٍ، فيَضيعُ دَمُهُ بينَ القبائلِ، وقوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ أي: من مكة، وقوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ المرادُ بمكرِهِم هنا تدبيرُهُمْ الشرَّ له في خِفْيَةَ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ ومَكْرُ الله تعالى بالمشركين كان بإخراجِ رسولِهِ ﷺ مِنْ بَيْنِ أظهرهم، وهم لا يشعرونَ، وأدخلَهُ الغارَ، واختفى عن المشركينَ، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقد أورد ابن كثير في قصة الهجرة ما رواه ابن حبّان في صحيحه، والحاكم في مستدركه، من حديث عبدالله بن عثمانَ بن خُثَيم، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس قال: دخلت فاطمةُ على رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك يا بُنَيَّةُ؟» قالت: يا أبتِ، ما لي لا أبكي؟ وهؤلاء الملأُ من قُرَيش في الحِجْرِ يتعاقدون باللات والعُزّى ومناةَ الثالثة الأخرى، لو قد رأوك لقاموا إليك فيقتلونَكَ، وليس منهم إلا من قد عَرَف نصيبه من دمك، فقال: «يا بُنَيَّة، ائتني بوَضُوءٍ». فتوضَّأ رسول الله ﷺ ثم خرج إلى المسجد، فلما رأوه قالوا: إنَّما ها هو ذا. فطأطؤوا رؤوسهم، وسقطتْ أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعُوا أبْصارهم. فتناول رسولُ الله ﷺ قبضةً من ترابٍ فَحَصَبَهُم بها، وقال: شَاهَتِ الوجوهُ، فما أصابَ رجلاً منهم حصاةٌ مِنْ حَصَياتِهِ إلا قُتل يوم بدر كافراً [ابن كثير: (٣/ ٢٩٩) وقال محقق ابن كثير: جيد. أخرجه أحمد ١/ ٣٠٣ و٣٦٨، والحاكم ١/ ١٦٣، وابن حبان ٦٥٠٢، والبيهقي في (الدلائل) ٦/ ٢٤٠. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي. وقال الشيخ شعيب في تخريجه لابن كثير: (٤/ ٤٢) أخرجه أحمد (٣٤٨٥) وإسناده قوي على شرط مسلم].

جنـــــة السـنـــة

٦- رَدُّ الله تعالى على المشركين في دعواهم أنَّهم يستطيعون الإتيانَ بمثلِ القرآن:

ردَّ اللهُ -تعالى- على بعضِ تقوُّلاتِ المشركينَ التي يريدون بها إضْلالَ عبادَ الله تعالى، فمن ذلك قولُهُ تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأنفال:٣١].

أخْبَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ إذا تتلى عليهم آياتُ القرآنِ الكريم، قالوا: سمعنا هذا الذي تتلوه، ولو شئنا لقلنا مثله.

وهذ الذي يزعمونه مِنْ قدرتِهم على الإتيانِ بمثل القرآنِ كَذِبٌ وباطل، فقد تحدَّاهم ربُّ العزَّة أن يأْتوا بمثله، فعجزوا ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور:٣٤] وأخبرنا ربَّنا أن الإنسَ والجنَّ عاجزون عن الإتيانِ بمثله ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨].

وتحدَّاهم أن يأْتوا بمثل عَشْرِ سورٍ منه فلم يستطيعوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣] وأخيراً تحداهم أنْ يأتوا بمثل سورةٍ واحدة مهما كانت قصيرة ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

فهم كاذبون في دعواهم أنَّهم يستطيعون أنْ يقولوا مثلَ هذا القرآن، سواءً أكان الذي ادَّعى هذه الدعوى واحدٌ منهم، أو ادَّعَوْها كلُّهم.

وقد كان النَّضْرُ بنُ الحارثِ هو الذي أُنزِلَ فيه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ وقد أمَرَ الرسولُ ﷺ بضربِ عنقِهِ بعد معركة بدر [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٠٠): أخرجه الطبري، وإسناده صحيح على شرط البخاري ومسلم].

وقولُهُ: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ أي: هذا القرآن الذي جاء به محمد، إنما هو أساطيرُ الأولين، أي: حكاياتُهُمْ وأخبارُهُمْ وخرافاتُهُمْ.

٧- لا يعذبُ اللهُ تعالى عبادَه ورسولُ الله ﷺ حيٌّ بَيْنَ أظهرهم ولا يُعَذِّبُهُمْ وهم يستغفرون:

ذكر اللهُ -تعالى- في الآيةِ قبل الأخيرة من هذا النص أنَّ بعضاً من قريشٍ قالوا قبل وقعةِ بدرٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ

جنـــــة السـنة

أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:٣٢-٣٣].

وهذا القولُ مِنْ كفار قريشٍ يدلُّ على شدَّة جَهْلِهِمْ وكفرِهِمْ وعنادِهم، وكان الأحرى، والأولى بهم أنْ يقولوا: اللهم إنْ كان هذا هو الحقَّ مِنْ عندك، فاهدنا إليه، ووَفِّقْنا إليه، ولكنَّهم ظلموا أنْفُسَهمْ، واستعجلوا العذابَ، وطلبوا مِنْ ربِّ العزة أن يمطر عليهم حجارةً مِنَ السماءِ أو يأْتيهم بعذابٍ أليم كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت:٥٣].

وقد مضى قريباً عند قولِهِ تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ [الأنفال:١٩] ذِكْرُ الحديثِ الذي يذكر أنَّ الذي استفتح مِنْ كفَرَةِ قريشٍ هو أبو جهلٍ، فإنَّه قال داعياً ربَّه: «اللهمَّ أقْطَعُنا للرَّحِمِ، وآتانا بِما لا نَعْرِف، فأَحِنْهُ الغَداةَ».

وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ لهذهِ الأُمَّةِ أمانين مِنْ العذابِ:

الأول: وجودُ رسولِ الله ﷺ بين أظهرهم ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ فاللهُ -تعالى- لا ينزِّلُ بالأمَّة العذابَ، ونبيُّها فيها، وإذا أراد أن يعذِّب أمَّةً أمر نبيها أنْ يَخْرُجَ منها، كما أمَرَ لوطاً أن يخرج مِنَ القرى التي يُريدُ أن يوقع بها عقابَهُ.

الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لا يوقع العذابَ بالذين يتوبون إليه، ويستغفرونه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال:٣٣]. والصوابُ ما اختاره ابنُ جريرٍ الطبريُّ أنَّ أهَلَ مكة فقدوا الأمانين عندما خرج الرسولُ ﷺ من بين أظهرهم وكانوا كفاراً لا يستغفرون اللهَ، فأوقع اللهُ بهم العذاب في بدر [تفسير الطبري: ٥/ ٣٨٣٦].

٨- استحقاقُ مشركي أهلِ مكة العذابَ:

كان وجودُ الرسولِ ﷺ في مكَّةَ أماناً لأهلها مِنَ العذاب، فلما خرج منها مهاجراً إلى المدينةِ ذهبَ الأمان الذي كان لأهلِ مكةَ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنفال:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ أي: وما لأهلِ مكةَ ألاَّ يعذبهم اللهُ، وهم يصدُّون المؤمنين عن المسجدِ الحرامِ، أي: يصدُّونهم عن الصلاةِ فيه، والطواف به، وقوله:

جنـــــة السـنة

﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: ليس أهلُ مكَّة أهلَهُ، وإنما أهلُهُ النبيُّ والمؤمنون معه، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٧-١٨].

وقد عَذَّب اللهُ مشركي أهْلِ مكة بعد خروج الرسولِ ﷺ مِنْ مكةَ وهجرته إلى المدينة، عذَّبهم في بدر، فقُتِلَ منهم سبعون وأُسِرَ منهم سبعون، ولم يزل يقاتلُهُم المسلمونَ حتى فتحوا مكة، وأزالوا الأوثان والأصنام.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان المسلمونَ في بداية أمرهم قليلين مستضعفين في الأرض، يخافونَ أن يجتاحَهُمْ أهلُ الكفرِ، فجعلَ المدينةَ داراً لهجرتهم، فآواهم بالأنصارِ، وقوَّاهم، ووسَّع عليهم في الرزق.

٢- نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن خيانةِ الله وخيانةِ رسولِهِ ﷺ بعصيانِ الله ورسولِهِ ﷺ ونهاهم عن ترك التكاليف التي أُمروا بها.

٣- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن نعْلَمَ أنَّ أموالَنا وأولادَنا فتنةٌ، فقد يكونُ المالُ والولدُ سبباً في ضلالِ العَبْدِ وزيغانِهِ وضلالِهِ.

٤- المؤمنُ الذي يتقي اللهَ تعالى بفعلِ ما أُمِرَ به، وترك ما نُهِيَ عنه، يجعل له فرقاناً يفرِّقُ بِهِ بين الحقِّ والباطل والكفرِ والهدى، ويغفر لَه ذنوبَهُ ويُكفِّر عنه سيئاتِهِ.

٥- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ كفارَ قريشٍ مَكَرُوا بالرسولِ ﷺ ليأسروه أو يقتلوه أو يخرجوه، فأذن اللهُ تعالى له بالهجرةِ إلى المدينة، ونجَّاه منهم.

٦- زَعَمَ بعضُ كفرةِ قريشٍ أنَّ لديهم القدرةَ على أنْ يأتوا بمثلِ القرآنِ، وقد تحدَّاهُمْ اللهُ -تعالى- أنْ يأْتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ مهما كانتِ قصيرةً، فعجزوا.

٧- استعجل كفارُ قريشٍ العذابَ، وطلبوا مِنْ ربِّ العزةِ أن يُمْطِرَ عليهم حجارةً مِنَ السماءِ، أو يأْتيَهم بعذابٍ أليم.

جنـــــة السـنة

٨- لا يأْخُذُ اللهُ تعالى الأمّةَ الإسلامية بعذاب ماحق مستأْصلٍ إذا كان الرسول ﷺ حيّاً بين أظهرهم، أو كان فيهم مسلمون ملتزمون بالإيمانِ يستغفرون اللهَ.

٩- للمؤمنينِ المنتشرينَ في بقاعِ الأرضِ فضلٌ على الناس إذ يمنع اللهُ تعالى تعذيب الناسِ بسبب إسلامهم واستغفارهم رَبَّهُمْ، ولذلك فإنَّ الله عندما ينزعُ القرآنَ في آخر الزمان، ويُغطِّي الكفرُ العالمَ كلَّه، تقومُ الساعةُ على الكفارِ.

جنــــة الســـنة

النص القرآني الخامس من سورة الأنفال

حالُ الكفار المشركين الذين كانوا يقاتلون الرسولَ ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم

أولاً: تقديم

كشف اللهُ -تعالى- لعبادهِ المؤمنين عن حالِ الكفرةِ المشركينَ الذين يقاتلونهم ويواجهونهم، فصلاتهم عند البيت مجونٌ وصفيرٌ وتصفيقٌ، وهم ينفقون المال لحربِ المؤمنين، وسيكونُ إنفاقُهُمُ المالَ حسرةً ووَبالاً عليهم، وقد رغَّبَ اللهُ الكافرين الذين يدخلون الإسلامَ بأن يغفرَ لهم ما كان منهم مِنْ كفر وفسق، أما الذين يُصِرُّون على كفرهم، فسيفعلُ اللهُ بهم مثل ما فعل بمن قبلهم، ويهلكهم كما أهلكهم، وأمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وصحبَهُ أنْ يستمروا في قتالِ المشركين، حتى يزول الكفرُ، ويصبح الدينُ كلُّه لله تعالى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الأنفال:٣٥-٤٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صلاةُ مشركي أهلِ مكةَ عند الكعبةِ كانت مكاءً وتصدية:

ذمَّ اللهُ -تعالى- مشركي أهل مكة بأنَّ صلاتَهم عند البيتِ كانت مكاءً وتصْدِيَةً ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الأنفال:٣٥].

وقد نقل ابن كثير (٣/ ٣٠٥) عن عبدالله بنِ عمرَ، وابنِ عباس، ومجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيدِ بن جُبَير، وأبي رجاءِ العُطارديِّ، ومحمدِ بن كعبِ القُرَظيِّ، وحُجْر بنِ عَنْبَسٍ، ونُبيطِ

جنـــــة السـنـــة

ابن شُرَيطٍ، وقتادةَ، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم: أنَّ المكاء هو الصفير، وزاد مجاهد: وكانوا يَدخلون أصابعهم في أفواههم، وقال السدّيُّ: المُكاء الصَّفيرُ على نحو طَيْرٍ أبيض يقال له: المُكاء، يكون بأرضِ الحِجَازِ.

وقال ابن كثير: ﴿وَتَصْدِيَةً﴾، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو خَلاَّد سليمانُ بن خَلاّد، حدثنا يونُس بن محمدٍ المؤدِّب، حدثنا يعقوبُ -يعني ابن عبدالله الأشعري- حدثنا جعفر بن المغيرة، عن سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: كانت قريشٌ تطوفُ بالكعبة عراة تَصْفِر وتُصَفِّق - والمكاءُ. الصفيرُ، وإنما شُبِّهوا بصفير الطير، وتصدية: التصفيق.

ونقل ابن كثير عن ابن جرير: قال: حدثنا ابن بشار، حدثنا أبو عامر، حدثنا قرة، عن عَطِيَّةَ، عن ابن عُمَر في قوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾، قال: المكاءُ: الصَّفيرُ، والتصدية: التصفيق. قال قرة: وحَكَى لنا عطية فعلَ ابن عمر، فصَفَر ابنُ عُمَر، وأمال خَدَّه، وصَفَّق بيديه. وعن ابنِ عمرَ أيضاً أنه قال: كانوا يضعون خُدودهم على الأرضِ ويُصَفقون ويصفِّرُونَ. وقال عكرمةُ: كانوا يطوفونُ بالبيت على الشمال، قال مجاهدٌ: وإنما كانوا يصنعون ذلك ليخلطوا بذلك على النبي ﷺ صلاته، وقال الزهري: يستهزئون بالمؤمنين. قولُه: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾، قال الضحاكُ، وابنُ جُرَيجٍ، ومحمد بن إسحاقَ: هو ما أصابهم يومَ بدرٍ مِنَ القتلِ والسبي، واختاره ابن جرير، ولم يحك غيره.

٢- عاقبةُ إنفاقِ مشركي أهل مكة أموالَهُمْ في حربِ المؤمنين:

بيَّن اللهُ تعالى عاقبةَ إنفاقِ مشركي أهل مكة أموالَهُمْ في حربِ الله تعالى ورسولِهِ ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾

[الأنفال:٣٦-٣٧].

قال ابن كثير: قال محمدُ بن إسحاق: حدثني الزُّهري، ومحمد بن يحيى بن حبَّان، وعاصم ابن عمر بن قتادة، والحُصين بنُ عبدالرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، قالوا: لما أصيبتْ قريشٌ يوم بدر، ورجع فَلُّهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعِيْره، مشى عبدالله بنُ أبي ربيعة، وعكرمةُ بنُ أبي جهلٍ، وصفوانُ بنُ أمية، في رجالٍ من قريشٍ أُصيبَ آباؤهم وأبناؤهم وإخوانُهُم

جنـــــة السـنة

ببدر، فكلَّمُوا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريشٍ تجارة، فقالوا: يا معشرَ قريشٍ، إنَّ محمداً قد وَتَرَكم، وقتَلَ خياركم، فأعينونا بهذا المالِ على حربِهِ، لعلَّنا أنْ ندرك منه ثأراً بمن أُصيب منا، ففعلوا، قال: ففيهم كما ذكر عن ابنِ عباسٍ أنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [(ابن كثير: ٤/ ٥٠) قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: أخرجه الطبري في (تفسيره) ١١/ ١٧٣، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ٥/ ١٦٨٩ من طريقين عن محمد بن إسحاق، به].

وقال ابن كثير: وهكذا رُوِيَ عن مجاهد، وسعيد بن جُبَير، والحكم بن عُتَيْبة، وقتادة، والسُّدِّي، وابن أَبْزى أنها نزلت في أبي سفيان ونفقتِهِ الأموالَ في أُحُدٍ لقتال رسول الله ﷺ [قال الضحاك: نزلت في أهل بدر].

وعلى كلِّ تقديرٍ فهي عامَّةٌ، وإن كان سبب نزولها خاصّاً، فقد أخبر تعالى أنَّ الكفارَ ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن اتِّباع طريق الحقِّ، فسيفعلون ذلك، ثم تذهب أموالهم ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامةً، حيث لم تُجْدِ شيئاً، لأنَّهم أرادوا إطفاءَ نورِ الله وظهورَ كلمتهم على كلمةِ الحق، واللهُ مُتِمٌّ نورِه ولو كره الكافرون، وناصرٌ دينَه، ومعلِنٌ كلمتَه، ومظهِرٌ دينَه على كلِّ دين، فهذا الخزي لهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذابُ النارِ، فمن عاش منهم رأى بعينه وسمع بأذنه ما يسُوؤُه، ومن قُتِل منهم أو مات، فإلى الخزي الأبديِّ والعذابَ السرمديِّ، ولهذا قال: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في قوله: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ فيميز أهل السعادة من أهل الشقاء، وقال السُّدِّي: يميز المؤمن من الكافر.

وهذا يَحتمِلُ أن يكون هذا التمييز في الآخرة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ﴾ [يونس:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الروم:١٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم:٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يس:٥٩].

ويحتملُ أن يكون هذا التمييزُ في الدنيا بما يظهر مِنْ أعمالهم للمؤمنين، وتكون اللامُ معلِّلَةً لما جعل اللهُ للكفار من مالٍ ينفقونه في الصَّدِّ عن سبيل الله، أي: إنما أقْدرناهم على ذلك

جنـــــة السـنــــة

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ أي: مَنْ يطيعه بقتال أعدائه الكافرين، أو يعصيه بالنُّكول عن ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ ﴾ الآية [آل عمران:١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال تعالى: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [آل عمران:١٤٢] ونظيرتها في براءة أيضاً.

فمعنى الآية على هذا: إنما ابتليناكم بالكفار يقاتلونكم، وأقدرناهم على إنفاق الأموال وبذلها في ذلك ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ ﴾ أي: يجمعه كله، وهو جَمْع الشيء بعضه على بعض، كما قال تعالى في السحاب: ﴿ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا ﴾ [النور:٤٣] أي: متراكماً متراكباً ﴿ فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ أي: هؤلاء هم الخاسرون في الدنيا والآخرة [ابن كثير: ٣/ ٣٠٥].

٣- الإسلامُ يمحو ما قبله من الكفرِ والشِّرْكِ والذنوب:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن يقولَ للكفارِ مِنَ أهْلِ مكَّةَ أنَّهم إنْ انتهوا عن كفرهم وآمنوا يُغْفَرُ لهم جميعَ ما اقترفوه مِنَ الكفر والذنوبِ، وأنهم إنْ أصرُّوا على كفرهم، فسيأْخذهم العذابُ كما أخَذَ الأولين مِنَ الأُمم مِنْ قبلهم، ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنفال:٣٨].

وقوله تعالى: ﴿ مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ أي: جميعَ ما مضى مِنْ كُفْرِهم وشِرْكهم وذنوبهِمْ، وقد جاءَ في الأحاديثِ أنَّ الإسلام يمحو ما قبله من الذنوبَ والخطايا، ففي الحديث أنَّ الرسولَ ﷺ قال لعَمْرِو بنِ العاص: «أمَا عَلِمْتَ أنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلُه، وأنَّ الهجرةَ تَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَها، وأنَّ الحجَّ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ؟» [مسلم: ١٢١].

وقوله: ﴿ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: إنْ يعودوا إلى الكفرِ والطغيانِ، فإنَّ الله تعالى يفعل بهم كما فعل بمكذِّبي الرسل مِنْ قبلهم الذين أهلكهم ﴿ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٤].

والسنَّةُ: الطريقةُ والشريعةُ، وسنَّةُ الله مع الكفرة أنَّهم إنْ كَذَّبوا رُسُلَه وتمردُّوا عليهم أهلكهم.

جنـــــة السـنة

٤- أمَرَ اللهُ تعالى الرسولَ ﷺ وأصحابَهُ بقتالِ المشركين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأصحابَهُ أن يستمروا في قتالِ المشركينَ حتى لا تكونَ فتنةٌ، ويكون الدِّينُ كُلُّه لله ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنفال:٣٩].

والفتنة هنا الشِّرْكُ، أي: قاتلوهم حتى لا يبقى شِرْكٌ على وجهِ الأرض، ويَدُلُّ على صحة هذا المعنى قوله تعالى بعده: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ لأنَّ الدينَ لا يكونُ كلُّهُ لله تعالى إلاَّ إذا لم يبقَ شِرْكٌ على وجهِ الأرضِ، وقد جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ المرادَ بالفتنةِ هنا: فتنةُ الرجلِ عن دينه، كالمستضعف الذي إذا آمَنَ حَبَسوهُ وأوثقوه أو قتلوه حتى يترك دينَهُ، يعني: قاتلوهم حتى ينتشرَ الإسلامُ، وتنكسرَ شوكةُ الكفرِ، بحيث لا يقدرون على رَدِّ إنسانٍ عن دينه، وهذا الذي ذهب إليه ابنُ عمر داخلٌ في القولِ الأوَّل، لأنَّه إذا انتفى الشركُ لا يكون هناك كافرٌ يَفْتِنُ المسلمين عن دينهم.

روى نافع عن ابن عمرَ رضي الله عنهما: أنَّ رجلاً جاءَه، فقال: يا أبا عبدالرحمنِ، ألا تَسْمَعُ ما ذَكَرَ الله في كِتابه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ إلى آخرِ الآيةِ [الحجرات:٩]، فما يَمْنَعُكَ أنْ لا تُقاتِلَ كما ذكَرَ الله في كِتابه؟ فقال: يا ابنَ أخي، أغْتَرُّ بهذه الآيةِ، ولا أُقاتلُ، أحبُّ إليَّ من أنْ أغْتَرَّ بهذه الآيةِ التي يقولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ إلى آخرِها [النساء:٩٣]. قال: فإنَّ الله يقولُ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٣٩].

قال ابنُ عمرَ: قد فعَلْنا على عَهْدِ رسولِ الله ﷺ إذْ كان الإسلامُ قليلاً، فكان الرَّجلُ يُفْتَنُ في دِينِه، إمّا يَقْتُلونَه، وإمّا يوثِقونَه، حتَّى كَثُرَ الإسلامُ [البخاري: ٤٦٥٠].

وعن سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، قال: خَرَجَ علينا -أو إلينا- ابنُ عمرَ، فقال رجلٌ: كيفَ تَرَى في قِتالِ الفِتْنةِ؟ فقال: وهَلْ تدري ما الفِتْنةُ؟ كان محمدٌ ﷺ يُقاتلُ المشركينَ، وكان الدُّخولُ عليهم فِتْنةً، وليس كقِتالِكم على المُلْكِ [البخاري: ٤٦٥١].

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟﴾ أي: بقتالكم إياهم عما هم فيه من الكفرِ، فكُفُّوا عنهم، وإن كنتم لا تعلمون بواطِنَهم ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ فهو بصير بأعمالهم، وسيجازيهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٤٠] أي: إنْ أعرضوا عن الحقِّ الذي جاءكم مِنْ عند الله، ولم يرْجِعُوا عن كفرهم

جنـــــة السـنة

﴿فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: فاعلموا أنَّ الله تعالى هو الذي يتولى أمركم، ويُؤَيِّدكم ويسدِّدكم، وينصُرَكُم ويوفقكم، وقوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾. و﴿نِعْمَ﴾ فعل ماضٍ جامد يدلُّ على المَدْحِ، واللهُ تعالى نعم المولى، فمن والاه فاز، ومن نصره غلب.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كانت صلاةُ المشركين في العهد النبويِّ عند المسجد الحرامِ مُكاءً وتصْدِيَةً، أيْ: صفيراً وتصفيقاً ورَقْصاً، ولم يكن فيها إخباتٌ وطمأنينةٌ وسكينةٌ.

٢- الكفارُ ينفقونَ أموالهم لحربِ المسلمين والصدِّ عن دينِ الله، وستكونُ هذه الأموال عليهم يومَ القيامةِ وبالاً وحسرةً وعذاباً.

٣- يميِّزُ ربُّ العِزَّةِ المالَ الخبيثَ مِنَ المالِ الطيبِ يومَ القيامةِ، فيجعل المالَ الخبيثَ بعضَهُ على بعضٍ يومَ القيامةِ في جهنَّم.

٤- الذي يدخلُ الإسلامَ، فإنَّ الإسلامَ يهدمُ ذنوبَهُ صغيرَها وكبيرَها، وإنَّ الذي يستمرُّ على كفره، فإنَّ سنَّةَ الله فيه أن يدمِّرَهُ ويهلكه.

٥- يجبُ مقاتلةُ الكفارِ حتى يزولَ الكفرُ عن وَجْهِ الأرض، ويصبحَ الدينُ كلُّه لله تعالى.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس من سورة الأنفال
إغراءُ الله تعالى المؤمنينَ بالكافرين والكافرينَ بالمؤمنين

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ كيف تُقْسَمُ الغنائمُ التي تعودُ على المسلمينَ من وراء الحرب والقتال، وبيَّنَ تعالى أنَّه قضى أن تقعَ هذه المعركةُ، فوقعتْ كما أرادَ، وجاءَت على غير ميعادٍ، وقد قَلَّل اللهُ عَدَدَ المشركين في الرؤيا التي رآها الرسولُ ﷺ في منامِه، وقلَّل الكفارَ في أعينِ المؤمنينِ، وقلَّل المؤمنين في أعينِ الكافرين، وبذلك أغرى كلَّ فريقٍ بالآخر، وتحقَّقَ مرادُ الله بنصرِ المؤمنين، وهزيمةِ الكافرينِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال: ٤١-٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- كيف تُقْسَمُ الغنائمُ:

بيَّنَ اللهُ تعالى للمسلمينَ كيف تُقْسَمُ الغنائمُ، فقال: ﴿۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ [الأنفال: ٤١].

ومعنى ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ في هذه الآية وحيثما وردت في القرآنِ: تيقَّنوا، وقوله: ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾ الغنائمُ: هي ما يحوزه المسلمون من أموالِ الكفار في حالِ انتصارهم عليهم، وهزيمتهم لهم،

جنـــــة السـنة

فإذا كان المسلمون حازوا أموالَ الكفارِ وأرضَهم وسلاحهم بالحرب والقتال فهذه هي الغنيمة، وحكمُها كما بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآية، فيؤخذ منها الخمسُ، ويكون لله وللرسولِ ﷺ ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويعطى الأربعةُ الأخماسُ للجيشِ المقاتلِ.

فإذا حازَ المسلمون أموالَ الكفارِ مِنْ غيرِ حربٍ ولا قتالٍ، مثل أموالِ بني النضير التي قال تعالى فيها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾ [الحشر:٦] فهذا هو الفيءُ يكونُ كلُّه لله وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ [الحشر:٧]. ومِنَ الفيءِ الذي يُنْفَقُ في الوجوهِ التي ذكرتْها الآيةُ الأموالُ التي نصالحُ عليها العدوَّ والجزيةُ والخراجُ ونحوُ ذلك.

وقد ذهبَ قلَّةٌ من أهل العلم منهم قتادةُ إلى أنَّ آيةَ الحشرِ منسوخةٌ بآيةِ الأنفالِ، فحكمُ الفيءِ عنده حكمُ الغنيمةِ، وهذا غير صحيح، فإنّ سورة الأنفالِ نزلت في بدرٍ، وسورة الحشر نزلت في غزوةِ بني النضير، فلا يجوز أن يُنْسَخ المتقدمُ المتأخرَ مِن القرآنِ.

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنَ الغنيمةَ والفيءَ يتصرفُ فيه الرسولُ ﷺ، فيُعْطِي الغانمينَ ما شاءَ، ويمنعهم ما شاءَ، واستدلُّوا بما تقدم في أول السورة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال:١] واستدلُّوا بعدم قسمة الرسولِ ﷺ مكة، وقد فتحها عنوةً على الصحيح، وقسَّمَ غنائمَ حنينٍ على الذين كانوا سادةَ الكفار كصفوانِ بن أمية، وعيينةَ بن حصن، والأقرعِ بن حابس، وغيرهم، والصوابُ مِنَ القولِ: أنَّ اللهَ قسَّم الغنائم في هذه الآيةِ على النحو الذي بيَّنه فيها، ويؤيد هذا -كما يقول ابن كثير- ما رواه الحافظُ أبو بكر البيهقيُّ بإسناد صحيح، عن عبدالله بن شقيق، عن رجل مِنْ بُلْقَيْنَ، قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ، وهُوَ بوادي القُرَى، وهُوَ يَعْرِضُ فَرَساً، فقلتُ: يا رسولَ الله ما تقولُ في الغَنيمةِ؟ فقال: «لله خُمُسُها، وأربعةُ أخْماسٍ للجَيْشِ» قلتُ: فما أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟ قال: «لا، ولا السَّهْمُ تَسْتَخْرِجُهُ مِنْ جَنْبِكَ، ليسَ أَنْتَ أَحَقَّ بِهِ من أخيكَ المُسْلِمُ» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣١١): صحيحٌ، أخرجه البيهقيُّ في السنن: (٦/ ٣٢٤، ٣٣٦) وأبو يعلى (٧١٧٩) وقال الهيثميُّ في المجمع (١/ ٤٨-٤٩): رواه أبو يعلى بإسنادٍ صحيح].

والصحيحُ مِنَ القول: أنَّ مكَّة وخيبرَ فتحتا عنوةً، فقسَّم الرسولُ ﷺ أراضي خيبر، ولم يقْسِمْ أراضي مكةَ، وكذلك فعل عمرُ بن الخطابِ في الأراضي المفتوحةِ في زمنه فلم يقسمها،

جنـــــة السـنــة

أما الأموالُ التي غنمها المسلمونَ في حنينٍ، ولم يقسِّمْها الرسولُ ﷺ على المقاتلين، فإنَّ الرسول ﷺ طَيَّبَ قلوبَ الأنصار، وكان فيما قاله لهم: «يا معْشَرَ الأنصارِ، أتَرْضَونَ أنْ ذهبَ الناسُ بالشاةِ والبَعيرِ، وتَذْهَبون بالنبيِّ إلى رِحالِكُم» [البخاري: ٤٣٣٠. ومسلم: ١٠٦١].

أما طريقةُ قسمةِ الخُمُسِ، فالصحيحُ أنَّها تُقْسَمُ إلى خمسةِ أقسامٍ، للرسولِ ﷺ ، ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، أما قوله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ فهو مفتاح كلام، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٢٩] وعلى ذلك فيكونُ سَهمُ الله وسهمُ الرسولِ ﷺ واحداً.

أما سَهْمُ ذوي القربى، فالصحيح أنَّه يصرفُ إلى بني هاشم وبني المطلب، لأنَّ بني المطلب وازَوْا بني هاشم في الجاهليةِ وفي أولِ الإسلام، ودخلوا معهم في الشِّعْبِ غضباً لرسولِ الله ﷺ وحمايةً له، مسلمُهُمْ طاعةً لله ولرسولِهِ، وكافرهم حميَّةً للعشيرةِ، وأنفةً وطاعةً لأبي طالب عمِّ الرسولِ ﷺ ، وقد روى البخاري في صحيحه عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ قال: مَشَيتُ أنا وعُثمانُ بنُ عفانَ إلى رسولِ الله ﷺ ، فقلنا: يا رسولَ الله، أعطيتَ بني المُطَّلِبِ وتَرَكْتَنا، ونحنُ وهم منكَ بمنزِلةٍ واحدةٍ! فقال رسولُ الله ﷺ : «إنَّما بَنُو المطَّلِبِ وبَنُو هاشِمٍ شيءٌ واحدٌ» [البخاري: ٣١٤٠].

قال الليثُ: حدَّثني يونُسُ وزادَ: قال جُبَيْرٌ: ولم يَقْسِمِ النبيُّ ﷺ لبني عَبْد شَمْسٍ ولا لبني نوْفَلٍ [ووصله البخاري في: ٤٢٢٩].

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ أي: اليتامى الفقراء، ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ المحاويجُ، الذين لا يجدون ما يسدُّ خُلَّتَهُمْ، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المسافرُ الذي انقطعتْ به النفقة

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [الأنفال:٤١]، أي: التزموا بهذه القسمةِ التي بينَّاها إن كنتم آمنتم بالله، وآمنتم بما أنزلناه مِنَ الكتاب في يوم الفرقانِ يومَ التقى الجمعان، وهو يوم بدر، وقد كان الرسول ﷺ أمر وَفْدَ عبدِ القيسِ لما وفدوا عليه بأربعٍ، وإحدى هذه الأربع: «أنْ يُؤَدُّوا إليْهِ خُمُسَ ما غَنِمُوه» [البخاري: ٥٢٣]. وسمَّى يوم بَدْرٍ فرقاناً، لأنَّ الله فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الحقِّ والباطلِ، ونصر فيه المؤمنينَ، وهَزَمَ الكافرين.

٢- موقعُ الجيشان في ميدان القتال:

أعلمنا ربُّنا عن موقع جيشِ المسلمين وجيشِ المشركين من أهلِ مكَّةَ في ميدانِ القتال، كما أعلمنا موقع قافلةِ أبي سفيان في ذلك الوقت ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال:٤٢].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا أنَّ جيشَ المسلمين كان نازلاً بعدوةِ الوادي القريبة مِنَ المدينةِ المنورةِ، والعدوةُ شاطئُ الوادي وجانبه، وكان جيشُ المشركينَ في الجانب الأقصى لوادي بَدْرٍ، وكانت عيرُ أبي سفيان التي سمَّاها اللهُ في الآية بالركب أسْفل منهم، أي: كان أدنى منهم إلى جهةِ البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢]، أي: لو واعد بعضُكُم بعضاً في المكانِ الذي تلتقون فيه، ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: بسبب خوفِ بعضِكُمْ من بعضٍ، ولكنَّ الله جمعَ بينكم على غير ميعادٍ بحكمتِهِ ﴿لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليقضي اللهُ -تعالى- أمراً شاءَه وأراده، وهو إعزازُ دينِهِ، ونصرةُ رسولِهِ ﷺ وصحابتِهِ، وإذلالُ الشِّرْكِ وأهلِهِ، وقتْلُ وأسرُ زعمائِهم ورؤسائهم وصناديدِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الأنفال:٤٢]، أي: أنَّ الله -تعالى- نصرَ المؤمنين مع قلتهم وقلَّةِ عتادهم، وهزم الكافرين مع كثرتهم وكثرةِ سلاحهم، ليعلم الناس أنه مُؤيِّدٌ رسولَهُ ﷺ ومؤيِّدٌ صحابته، فيعلم المتفكر المتبصر أنَّ المؤمنين في تلكَ الغزوةِ كانوا على الحقِّ، وأنَّ الكفار كانوا على الباطلِ، فمنْ بقي مستمرّاً على كفره وضلالِهِ بعد ذلك كان ضالاًّ وهالكاً بعد أن ظهرتْ له البيِّنَةُ، والبيِّنةُ الدليل الحقُّ الذي لا لبس فيه، ولا شكَّ فيه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢)﴾ أي: سميع بأقوالِ خلقهِ، عليم بأفعالهم.

٣- تقليلُ الله تعالى الكفارَ في نفوسِ المؤمنين:

أرادَ اللهُ -تعالى- وقوعَ هذه المعركةِ، وإنزالَ الهزيمةِ بالكفار، ليعليَ منارَ المؤمنين، ويُذِلَّ الكافرين، فأرى اللهُ تعالى رسولَ الكفار في منامه قليلاً، وأرى اللهُ المؤمنين الكفارَ عندما التقوهم في الميدانِ قليلاً، ليغريهم بهم، ويجرِّئهم عليهم ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣)﴾ [الأنفال:٤٣]. أرى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ المشركينَ في منامِهِ قليلاً، ولا شكَّ أنَّ الرسولَ ﷺ أخبر صحابَتَه، فاطمأنَّ واطمأنَّتْ قلوبُ أصحابِهِ، وأقبلوا على قتالِ الكفارِ مِنْ غير أنْ يقع بينهم خِصامٌ ونزاعٌ، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لو أراه إيَّاهم كثيراً، لأدَّى ذلك إلى

جنـــــة السـنة

فشلهم وتنازعهم، ولقال بعضهم: إننا لم نخرج للحربِ والقتال، ولكنَّ الله سَلَّمَ صحابة رسولِهِ ﷺ مِنَ الفشلِ والتنازعِ، واللهُ تبارك وتعالى عليمٌ بذات الصدورِ، أي: بما تُجِنُّه الضمائر، وتنطوي عليه الأحْشاءُ.

وكما أرى اللهُ رسولَهُ ﷺ الكفارَ قليلاً في منامِهِ قَلَّلَ الكفارَ في أعينِ المؤمنين، فرأوهم عَدَداً قليلاً، لا يأْبَهُ به ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنفال:٤٤].

ولم يقتصرْ تقليلُ العدوِّ في أعينِ عدوهم على المؤمنين، بل فعل ذلك بكلِّ واحدٍ مِنَ الفريقين، فقلَّلَ عدد الكافرين في أعين المؤمنين، وقلَّل عددَ المؤمنين في أعين الكافرين، قال عِكْرِمة: «حضَّض بعضهم على بعض» [قال ابن كثير: (٣/ ٣١٩) إسناده صحيح]. وقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليلقيَ الحربَ بينهم، للانتقام من الكفارِ، ولإتمام نعمته على المؤمنين، فلَّما التحم الجيشانِ وأنزلَ الله ملائكتَهُ على المؤمنين، رأى الكفارُ المؤمنينَ ضعفَ عَدَدهم هم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران:١٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ما غنمه المسلمون مِنَ الكفارِ بالحربِ والقتال يُوَزَّعُ أربعةُ أخماسِه على الجيش المقاتل، للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد، أما خمس الغنيمة فيقسم إلى خمسةِ أقسام، للرسولِ ﷺ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين وابن السبيل.

٢- أما الفيءُ، وهو الذي فاءَ إلى المسلمين من غير حرب ولا قتال، فيوزَّعُ كُلُّه إلى الرسولِ ﷺ، ولذي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

٣- أغرى اللهُ تعالى رسولَهُ والمؤمنين بقتالِ الكفار، فقد رآهم الرسولُ ﷺ في منامه قليلاً، وقلَّلَ الكفار في أعْيُنِ المؤمنين، وأغرى الكفارَ بقتالِ المؤمنين عندما قلل المؤمنين في أعْيِنِ الكفارِ.

٤- أراد ربُّ العزَّةِ وقوعَ هذه الغزوة، إذ خرج المسلمون للاستيلاء على القافلةِ، فأنجى القافلةَ، وأغرى أهلَ مكَّةَ بالخروجِ لحماية القافلةِ، فالتقى الفريقان على غيرِ ميعادٍ، فنصر المؤمنين، وأذلَّ الكافرين.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع من سورة الأنفال

طريق النصر

أولاً: تقديم

نادى اللهُ تعالى المؤمنين وأرشدهم إلى الطريق الذي يحقق لهم النصرَ في ميدان القتال، وبمقدارِ ما يحقق المؤمنون هذه التوجيهات يصلون إلى النصر، وقد حدَّثنا ربُّنا في هذه الآياتِ عن تمثلِ الشيطانِ في صورةٍ أحد شيوخِ العربِ، وإجارته للمشركين، وفرارِه من الميدانِ عندما رأى تنزُّلَ الملائكةِ على المؤمنين، وردَّ اللهُ تعالى على المنافقين الذين زَعَمُوا أنَّ المؤمنين غَرَّهم دينُهُمْ عندما أقدموا على حربِ كفار قريشٍ، وبيَّن ربُّ العزَّة في الردِّ عليهم أنَّ الذي يتوكل عليه، فإنَّه ينصره.

وبيَّنَ لنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكة حاربت مَعَ المؤمنين في بدرٍ، فكانوا يقبضون أرواحهم، ويضربونَ وجوههم وأدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا عذابَ الحريقِ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفارَ قريشٍ في كفرِهمْ وضلالِهِمْ كفرعون ومَنْ قبله مِنْ الأمم التي كذبتْ رسلها، وأنَّ تعذيبَ الله لقريشٍ في بدرٍ هو كتعذيبِ الأُمم السابقةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾
وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ
كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾
وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا
تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ
شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن
يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ
بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ
قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٤٥-٥٤].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ مِنَ القرآن

١- سبيلُ النصرِ في ميدان القتال:

بَيَّنَ اللهُ تعالى لنا طريقَ النصرِ على أعدائِنا الكافرين، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنفال:٤٥-٤٧].

وطريقُ النَّصْر الذي يجبُ على المؤمنينِ أنْ يأْخذوا به، يتمثل فيما يأتي:

أ- توْطِينُ المسلمين أنفسَهُمْ على الثباتِ في الميدانِ، ولا يفروا، ولا يُوَلُّوا الأدبارَ. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾ .

ب- ذِكْرُ المؤمنين اللهَ ذكراً كثيراً ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ ففي هذا الموقف المخوف على المؤمنين أن يكثروا مِنْ ذكر الله تعالى والالتجاءِ إليه، والاستنصارِ به، وإذا حضرت الصلاةُ وأمكنهم أن يصلوا جماعة صَلَّوْا، وإلا صلوها فرادى ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ ﴾ [النساء:١٠٢].

ج- طاعةُ الله تعالى وطاعةُ رسولِهِ ﷺ ، وعدم التنازع والاختلافِ، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾ فمتى تنازعوا واختلفوا فإنّهم يفشلونَ وتذهبُ ريحهم ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ كما وقعَ للمسلمين في أُحُدٍ عندما خالفَ الرماةُ أمر نبيهم، وتنازعوا، ففشلوا، وذهبت قوتُهُمْ، والفشلُ: ضدُّ النجاح، وهو يؤدِّي إلى الضعفِ والخورِ.

هـ- الصبرُ في ميدانِ القتال تحتَ ظلالِ السيوفِ ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ أي: معهم بنصرِهِ وتأييدِهِ ورعايتِهِ.

ز- نهى الله تعالى المؤمنين أن يكونوا كالكافرين المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطراً، أي: خرجوا مِنْ ديارهم لأجلِ البطر، والبطرُ التكبُّر عن قبولِ الحقِّ مع غَمْطِ الحقوقِ، وقوله: ﴿وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا كما قال أبو جهل عندما طُلِبَ منه الرجوعُ: «والله لا نرجع حتى نردَ ماءَ بدر، وننحرَ الجُزُرَ، ونشربَ الخمر، وتعزفَ علينا القيانُ، وتتحدَّث العربُ بمكانِنا فيها يومنا أبداً» [ابن كثير: ٣/ ٣٢١] فكانت الدائرةُ عليه وعلى قومِهِ، وتحقّق فيهم ما أرادوه بالرسولِ ﷺ وأصحابِهِ.

جنــــة السـنة

وقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ في هذا تهديدٌ ووعيدٌ بالمشركين، فالله محيطٌ بهم، وبأعمالهم، وأقوالهم، بل هو محيطٌ بكل شيءٍ سبحانه.

وقد اتَّبعَ الصحابةُ رضوان الله عليهم هذه الخطواتِ الخمسِ التي أرشَدَهُمُ اللهُ تعالى إليها في هذه الآيات، ففتح اللهُ بهم القلوبَ والعقولَ، وهدى بهم النفوسَ، وهَدَمُوا الدولَ التي كانت قائمةً في زمانهم، ومنها أعظم دولتين، وهما فارسُ والرومُ، وهَدَموا دولاً كثيرةً غيرهما كالترك والصقالبة والحبش والسودان وغيرها.

٢- إجارةُ الشيطان المشركين، فلما رأى الملائكة ولّى مدبراً:

أعلمنا ربُّنا أنَّ الشيطانَ زينَ للكافرين أعمالهم، وقالَ لهم: لا غالبَ لكم اليومَ مِنَ الناسِ وإنِّي جار لكم، فلما تراءَتِ الفئتان، ورأى الملائكةَ تتنزَّلُ لنصرِ المؤمنين ولَّى هارباً ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنفال:٤٨].

وهذه الآية صريحةٌ في أنَّ الشيطان تصوَّرَ للمشركين في صورة إنسانٍ، وذهب كثيرٌ من أئمة التفسير إلى أنه تصوَّرَ في صورةِ سراقةَ بن مالكِ بن جُعْشُم وزيَّن للمشركين أعمالهم مِنَ الكفرِ والشركِ والمعاصي، ومنها تصميمُ زعمائِهم على حربِ المسلمين، وقد أخبرنا ربُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ الشيطانَ يحاولُ أن يَشُدَّ من أزرِ المشركين، فقال لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أنتم في حالٍ مِنَ القوةِ والمنعةِ، لا يستطيعُ معها أحَدٌ أن يوقِعَ بكم الهزيمة، وقال لهم: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾ فلما رأى الملائكةَ تتنزَّلُ مِنَ السماءِ، ظَهَرَ كذبُهُ، وتخلَّى عن المشركينَ، وفرَّ هارباً، وهو يقول: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ تبرأ من كفارِ قريشٍ بعد أنْ ناصرهم وزعم أنَّه جارٌ لهم، وعنى بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكةِ التي كان يراها تتنزَّلُ مِن السماءِ، ولم يكن صادقاً في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي: يخافُ أنْ يوقعَ به عذابَهُ وعقابَهُ على أيدي ملائكته في ذلك الموقفِ العظيم.

٣- موقفُ المنافقين من المؤمنين في بدرٍ:

بيَّنَ اللهُ تعالى موقف المنافقينَ من المؤمنين في بدرٍ، فقال: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الأنفال:٤٩].

جنـــــة السـنـة

لا ندري أينَ كان هؤلاء المنافقون الذين قالوا هذه المقالة، هل كانوا مع جند المشركينَ، أو كانوا في مكة، أو المدينة، ولكنَ ذلك لا يضيرُ، فقد قالَ هؤلاءِ المنافقون والذين في قلوبهم مَرَضُ الشبهات: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فجعلهم يواجهون قريشاً ذاتَ الشدةِ والبأسِ، وقد ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ أي: من يعتمد على الله، فإنَّ الله ناصرُهُ ومؤيدُهُ، فاللهُ عزيزٌ غالبٌ، لا يُضامُ مَنْ التجأ إليه.

٤- محاربةُ الملائكةِ مع المؤمنين في بدرٍ:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الملائكةَ حاربتْ مع المؤمنين في بدرٍ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال:٥٠-٥١] والذي يظهَرُ لي أنَّ توَفِّي الملائكةِ أرواحَ الكفارِ وضربهم وجوهَهُمْ وأدبارَهُمْ هو في معركةِ بدرٍ التي أنزلَ اللهُ تعالى فيها الملائكةَ لنصرةِ المؤمنين، وكانت تقول لهم: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾، وتقول لهم: هذا العذابُ بسببِ كفركم وشرككم وما قدَّمَتْهُ أيديكم ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾.

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الملائكةَ تفعلُ هذا الفعلَ مع كلِّ كافرٍ إذا هي قبضتْ روحه ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد:٢٧-٢٨].

٥- مثلُ كفارِ قريشٍ كآلِ فرعونَ والذين مِنْ قبلهم:

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ دأبَ كفارِ مَكَّةَ كَدَأْبِ آلِ فرعون والذين مِنْ قبلهم، قال تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال:٥٢]. والدَّأْبُ: العادةُ والدينُ وتكذيب الرسل والتَّمَرُّدُ على الله تعالى، فكل مَنْ يجري على سننٍ مطردٍ وعادة تقولُ العرب: هذا دَأْبُهُ، أي: عادتُهُ وديدَنه الذي يسير عليه دائماً، وقد فسَّر اللهُ دأبَ آل فرعون ومن قبلهم بقوله: ﴿كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ تقولُ العربُ: «أخَذَه بذنبه» إذا عاقبه عقاباً شديداً، أي: أنَّ اللهَ تعالى أهلكهم بذنوبهم وعاقبهم عقاباً شديداً بسبب ذنوبهم، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ فلا أحَدَ أقوى منه، وقد قالت عادٌ: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥] فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: ليس يوجدُ عذابٌ هو في غايتِهِ شديدٌ فظيعٌ إلا عذابَ الله، ويدلُّ على شدَّةِ عذابِهِ قولُهُ تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:٢٥-٢٦]. وقد وصف اللهُ تعالى شدَّةَ عذابِهِ بقولِهِ: ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم:١٧]، وقال: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

٦- لا يغيِّر اللهُ تعالى النعمَ التي أنعم بها على قومٍ حتى يغيروا ما بأنفسهم:

أعلمنا ربُنا -عزَّ وجلَّ- قائلاً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنفال:٥٣].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآيةِ أنه سبحانه لم يكن مغيِّراً نعمةً أنعم بها على قوم حتى يغيِّرَ هؤلاءِ القومُ ما بأنفسهم، فعند ذلك تتحول نعمتُه عليهم إلى نقمةٍ، ويغيِّرُ الخيرَ الذي بهم إلى شرٍّ، فإذا كفرَ العبادُ، وأفسدُوا في الأرض، وسَعَوْا في الفسادِ، أنزل الله نقمتَهُ، فتغوصُ عيونُهم، وتنقطعُ أنهارُهم، وتذهبُ زروعُهُمْ وثمارُهُمْ، وقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ سميعٌ عليمٌ لا يخفى عليه شيءٌ من أقوالِ المغيِّرِيْنَ، ولا مِنْ أفعالهم.

ثم قال ربُّ العزة مؤكِّداً ما سَبَقَ ذكرُهُ قبل آيةٍ واحدةٍ ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأنفال:٥٤].

والمرادُ بفرعونَ هنا فرعونُ موسى، و﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ قومُ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ مدينَ، وآل فرعون: أهله وجماعته، ولا يقال (آل) إلا لمَن له شأن وخطب، وقيل لفرعون آل فرعون لعظمتِهِ ومكانتِهِ عند قوْمِهِ، وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كلُّ قومٍ كذبوا بالآياتِ التي أنزلتْ إلى رسولِهِم، ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ ومِنْ ذلك أنه تعالى أهْلَكَ قومَ نوحٍ بالطوفان، وأهلكَ قوْمَ هودٍ بالريحِ بالعقيم، وأهلك قومَ صالح بالصيحةِ، وهكذا. وأغرقَ اللهُ تعالى فرعونَ وجنده، وذلك عندما جاوزَ ربُّ العزَّةِ ببني إسرائيلَ البحرَ، ودخل فرعونُ وجندُه البحرَ فانطبق عليهم ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وقوله: ﴿وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: فرعونُ ومَنْ قبله مِنَ الذين كذَّبوا الرسل، والظلم: وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه، وأعظم الظلم عبادة غير الله سبحانه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى في آياتِ هذا النصِّ للمجاهدين في سبيله التوجيهات التي تؤدِّي بهم إلى النصر، وما زالتْ هذه الآياتُ تفعلُ فعلها في المجاهدينَ على مرِّ العصورِ.

٢- تمثَّل الشيطانُ قبل نشوبِ القتالِ في صورةِ رجلٍ زَيَّنَ لكَفَرةِ قريشٍ أعمالَهُم، وأجارَهُمْ وساندهم، فلما رأى الملائكة تتنزَّلُ على المؤمنين فرَّ مرعوباً.

٣- زعم المنافقون أنَّ الصحابةَ غرَّهم دينُهُمْ عندما تجرؤُوا على حربِ قريشٍ في بدرٍ، وقد بيَّن ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّ الذي يتوكَّلُ عليه ينصرُهُ مهما كانت قوةُ أهلِ الكفرِ.

٤- حاربت الملائكةُ في بدرٍ مَعَ الصحابةِ، وكانوا يضربونَ وجوهَ الكفارِ وأدبارهم.

٥- الكفارُ مِنْ أهل مَكَّةَ مثلُهُم كمثلِ فرعونَ والأُممِ التي كَذَّبت رسلَها مِنْ قبله كفروا بآيات الله، فأخذهم اللهُ تعالى بذنوبهم.

٦- اللهُ لا يغيِّرُ النعمَ التي أحَلَّها بالعبادِ والأفرادِ حتى يُغيِّرَ المُنْعَمُ عليهم ما بأنفسهم، فينزلُ اللهُ تعالى بهم نِقَمَهُ، ويحلَّ بهم عذابَهُ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن من سورة الأنفال
كيف نتعاملُ مع أعداءِ الله وأعدائنا من الكفار

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ تعالى للمؤمنين حالَ الكافرين الذين يحاربونهم، فهم شرُّ مَنْ دبَّ على وجهِ الأرضِ، وهم الذين لا يحترمون عقودَهُمْ مع المؤمنين ولا يتَّقُونَ اللهَ، ولا يخافونه، وأمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ إن حارب هؤلاء الكفار أنْ يفعلَ بهم فعلاً فظيعاً يُؤَدِّبهم، ويُؤَدِّب مَنْ يفكر في نقضِ عهودهم مع المؤمنين.

وعلى المؤمنين إن هم خافوا أن ينقضَ الكفارُ عهودَهُمْ معهم أنْ لا يبادروا إلى حربهم، حتى يعلموهم بأنَّهم نقضُوا عهودَهُمْ معهم، فإذا أظهر الكفارُ نقضَ العهدَ، واجتاحوا ديارَ الإسلام، فلا حاجةَ بالمسلمين إلى الإعلانِ للكفار بنقض العهد. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنينَ أنَّ الكفارَ ضعفاءُ، لا يستطيعون أنْ يسبقوا اللهُ، ويغلبوه.

وأمَرَ اللهُ المؤمنين أنْ يُعِدُّوا لحربِ الكفارِ أقصى ما يستطيعون إعدادَه من القوة الحربيةِ والعسكريةِ، لنرهبَ عدوَّ الله وأعداءَنا، وأمرنا اللهُ بالإنفاقِ في سبيلِ الله، لننال أجرَ المنفقين.

وأمرنا بقبولِ مصالحةِ الكفار إذا دعونا إلى الصلح، وعلينا أنْ نعتمد على الله ونتوكَّل عليه إذا خفنا أن ينقضوا عهودنا معهم.

وامتنَّ اللهُ تعالى على رسوله ﷺ بتوحيدِه سبحانه قلوبَ المؤمنين على الإيمان، فلو أنفق كلَّ مالٍ في الأرض ما استطاع تأليفَ قلوبهم وجمعها على كلمةٍ سواء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ
عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ
تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

جنــــة الســــنة

﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣)﴾ [الأنفال:٥٥-٦٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الكفارُ شرُّ الدوابِّ عندَ الله:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ شرَّ الدوابِّ عنده الكفارُ الذين ينقضون عهودهم التي عاهدُوا الرسولَ ﷺ عليها ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥)﴾ [الأنفال:٥٥] أي: إنَّ شرَّ الدوابِّ التي تَدِبُّ على وَجْهِ الأرضِ هم الكفارُ، وهذا كقولِهِ تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان:٤٤].

وهؤلاءِ الذين ذمَّهم اللهُ تعالى هم ﴿الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾ [الأنفال:٥٦]، والعهدُ كلُّ شيءٍ مؤكد، لا يجوزُ نقضه، والميثاقُ: العهد المؤكَّد، وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ﴾ أي: لا يفون في كلِّ مرَّةٍ بعهدهم التي عاهدوا بها، بل ينقضونها، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦)﴾ أي: لا يتَّقون اللهَ بالوفاءِ بعقودِهِمْ، ولا يمتثلونَ ما أمَرَ اللهُ به، ولا يتركونَ ما نهى عنه. وقد أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ إنْ ظفر بهؤلاء أنْ يفرِّقَ ويُخوِّفَ بهم من خلفهم ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧)﴾ [الأنفال:٥٧]، أي: افعل بهم فعلاً فظيعاً منكراً شديداً عظيماً يكونُ ذلك العقابُ عظةً لمن خلفهم ومَنْ وراءَهم، فيخافوا أن ينقضوا عهودَهُمْ بعد ذلك معك.

٢- إذا خاف المسلمون من قومٍ عاهدوهم خيانةً فلهم إعلامُهُم بنقضِ عهودِهِمْ معهم:

إذا خافَ المؤمنون من قومٍ بينهم وبينهم عهدٌ خيانةً، والخيانةُ الغدرُ ونقضُ العهدِ فعلى المسلمينَ أنْ يعلنوا للكفارِ نَقْضَ عهدِهِمْ معهم ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨)﴾ [الأنفال:٥٨].

وقوله: ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: اطرح إليهم عَهْدَهُمْ، وألقه إليهم، حتى تصبح أنْتَ وإياهم على سواءٍ، وقوله: ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: في العلم بأنك لستَ مصالحاً لهم، ولا عهد بينك وبينهم.

وهذا مِنَ التعاليم السماويةِ الراقيةِ، وهو إعلامُ الذين ظهرت منهم بوادرُ نقضِ العهدِ بإنهاءِ ذلك العقد ونقضِهِ، ولا نقاتلهم غِرَّةً.

أما إذا نقض الكفارُ عهدنا، وهجموا على ديارنا، وقتلوا رجالنا، فليس بنا حاجةٌ إلى إعلامهم بنقضِ عهودِنا معهم، لأنَّ أمرهم واضحٌ في نقض العهد، ولذلك فإن الرسول ﷺ غزا قريشاً في عامِ الفتحِ عندما نقضوا صُلْحَ الحديبيةِ، وأعانتْ قريشٌ البكريين على خزاعة فقتلوهم، فغزاهم الرسولُ ﷺ من غيرِ أنْ يعلِمهم، وفتح مكة.

وقد بيّن ربُّ العزةِ سبحانه أنّه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٨﴾ أي: أنَّ اللهَ لا يحبُّ أن يأخُذَ المسلمون الكفارَ الذين عاهدوهم خفيةً من غيرِ إعلامهم بنقضِهِمْ عهودَهُمْ معهم.

وقد جاء في صحيح السنّة ما دلّت عليه الآية الكريمة، فعن سُلَيْمِ بنِ عامرٍ يقول: كان بينَ معاوية، وبينَ أهْلِ الرومِ عهدٌ، وكان يسيرُ في بلادِهِمْ، حتى إذا انقضى العهدُ أغارَ عليهم، فإذا رجل على دابةٍ -أو على فَرَسٍ- وهو يقول: الله أكبر، وفاءٌ لا غدرٌ، وإذا هو عَمْرُو بنَ عَبَسة، فسأله معاوية عن ذلك، فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ كانَ بَيْنَهُ وبينَ قوم عهدٌ فلا يَحُلَّنَّ عَهْداً، ولا يَشُدَّنَّهُ، حتى يَمْضِي أمَدُهُ، أو ينْبِذَ إليهم على سَواء». قال: فرجع معاوية بالناس [صحيح الترمذي (١٢٨٥)، وقال فيه الألباني: صحيح، وذكر أنه أورده في صحيح أبي داود (٢٤٦٤) وقال فيه ابن كثير (٣/ ٣٢٧): رواه أبو داود الطيالسي، وأخرجه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن حبان في صحيحه من طرق عن شعبة، وقال الترمذي: حسن صحيح].

٣- الكفارُ تحتَ قهرِ الله وقدرتِهِ:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يظنَّ أنَّ الكفارَ سبقوا ربَّ العزةِ وغلبوه ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝٥٩﴾ [الأنفال:٥٩] فالكفارُ لا يفوتون اللهَ، ولا يغلبونَهُ، بل هم تحت قدرتِهِ وفي قبضتِهِ فلا يعجزونَهُ، وهذا كما قالَ عزَّ وجل: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝٤﴾ [العنكبوت:٤]، وقال: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٥٧﴾ [النور:٥٧].

٤- أمْرُ الله تعالى بإعدادِ القوةِ الحربية:

أمَرَنا اللهُ تبارك وتعالى أن نعدَّ ما استطعنا من قوةٍ ومن رباطِ الخيلِ ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠].

وهذه الآيةُ توجب على المؤمنين أن يُعِدُّوا أقصى ما يستطيعونه مِنَ القوة الحربية، والقوةُ الحربية تتطوَّر بتقدم الزمانِ، فكانتْ في عهدِ الرسولِ ﷺ تتمثل في السيوفِ والرماحِ

والدروع والسهامِ والقسيِّ وإعدادِ الخيولِ، ونحو ذلك. وأصبحت اليوم تتمثل في الدباباتِ والطائراتِ والصواريخِ والقنابلِ الذرية والهيدروجينية وغير ذلك من الأسلحة.

وقد بيَّن اللهُ تعالى لنا الحكمةَ من وراءِ إعدادِ القوةِ الحربيةِ، فقال: ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال:٦٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿تُرۡهِبُونَ﴾ أي: تُخَوِّفونَ، و﴿عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ أي: الكفارَ، وقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ اللهُ أعلم بمرادِهِ مَنْ هذا العدوُّ الخفيُّ، فقد أخبرنا أننا لا نعلمهم، وهو يعلمهم.

ثم حثَّنا ربُّنا عزَّ وجلَّ على الإنفاقِ في الحربِ والقتالِ وإعدادِ العدَّةِ الحربيةِ، فقال: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ وقد أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- في مواضع أخرى بالأجر العظيم الذي يحوزه المنفقون أموالهم في سبيلِ الله، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾ [البقرة:٢٦١].

وقد جاءَت الأحاديثُ كثيرةٌ وافرةٌ تأْمر بإعداد القوةِ الحربيةِ، فمن ذلك ما رواه مسلم عن عقبةَ بنِ عامرٍ أنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول: «﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال:٦٠] ألا إنَّ القوة الرَّمْيُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ، ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْيُ» [مسلم: ١٩١٧].

ومن نظر في القوة الحربيةِ اليومَ وجدَ أنَّ الرمْيَ بالصواريخِ والمدافعِ والقنابلِ لا تزال هيَ أعظَمُ أنواعِ القوةِ.

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الخيلُ لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِترٌ، وعلى رجلٍ وِزْرٌ، فأما الذي له أجرٌ فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله، فأطالَ بها في مَرْجٍ أو رَوْضةٍ، فما أصابَتْ في طِيَلِها ذلك مِنَ المَرْجِ أو الروضةِ كانت له حَسَناتٍ، ولو أنَّه انقطَعَ طِيَلُها فاستَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَينِ، كانت آثارُها وأرواثُها حَسَناتٍ له، ولو أنَّها مَرَّتْ بنَهرٍ فشَرِبَتْ منه، ولم يُرِدْ أنْ يَسْقِيَ كانَ ذلك حَسَناتٍ له، فهي لذلكَ أجرٌ. ورجلٌ رَبَطَها تَغَنِّياً وتَعَفُّفاً، ثم لم يَنسَ حَقَّ الله في رِقابِها ولا ظُهُورِها، فهي لذلكَ سِترٌ. ورجلٌ رَبَطَها فَخْراً ورِياءً ونِواءً لأهلِ الإسلامِ، فهي على ذلكَ وِزْرٌ» [البخاري: ٢٣٧١. ومسلم: ٩٨٧ مطولاً].

جنـــــة السـنة

وفي الصحيحين عن عروةَ البارقيِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «الخيلُ مَعْقودٌ في نَواصِيها الخَيْرُ إلى يومِ القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ» [البخاري: ٢٨٥٢. ومسلم: ١٨٧٣].

وعن أنس بن مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «البركَةُ في نواصي الخَيْلِ» [البخاري: ٢٨٥١. ومسلم: ١٨٧٤].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنِ احْتَبَسَ فَرَساً في سَبيلِ الله، إيماناً بالله، وتصديقاً بوعدِهِ، فإنَّ شِبَعَهُ وَرِيَّه ورَوْثَهُ وبَوْلَه في ميزانِهِ يومَ القِيامةِ» [البخاري: ٢٨٥٣].

٥- أَمْرُ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بالجنوح إلى السَّلْمِ إذا طَلَبَهُ الكفارُ:

قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنفال:٦١] أي: إنْ مالَ الكفارُ إلى السَّلْمِ فاجنح له، أي: اقبل ذلك، ووافقهم عليه، والسَّلْمُ: الصلح ولا تعارُضَ ولا إشكال بينَ هذه الآية، وبين قولِهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد:٣٥].

فآيةُ الأنفالِ أمرت بقبول السَّلْمِ إذا دعا إليه الأعداءُ الكفرةُ، وآيةُ محمدٍ نهت المؤمنين أنْ يكونوا هم البادئين بالدعاءِ إلى الصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي: إنْ صالحتهم، فلا تخف مما يُدبِّرون لك مِنَ المكرِ والغدرِ والحيلِ في مُدَّةِ تلكِ المصالحةِ، وتوكَّل على الله، أي: فوِّض أمورَكَ إليه، فإنَّه سبحانه كافيك.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ أي: سميعٌ لما يقولونه مِنَ المنكرِ والغوائلِ التي يتربصونَكَ بها في مدَّةِ الصلحِ، فهو العليمُ بما يبطنون ويضمرون مِنَ المكرِ والخديعةِ أثناءَ مدَّةِ الصلح.

وذهبَ بعضُ أهلِ العلم إلى أنَّ هذه الآية، وهي قوله: ﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا...﴾ منسوخةٌ بآيةِ السيفِ، وهي قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ﴾ [التوبة:٥].

والصحيحُ أنَّ الآيةَ غير منسوخة، وأنَّ الصلحَ موكولٌ إلى نظرِ الإمامِ، فإن رأى فيه مصلحةً صالح، وإلاَّ قاتل.

جنـــــة السـنـــــة

٦- إن خافَ المسلمون خديعةَ المشركين مدَّة الصلحِ، فعليهم أنْ يتوكلوا على الله:

إذا خافَ المسلمون من خديعةِ الكفارِ لهم في مدةِ الصلح، فإنَّ اللهَ كافيهم مِنْ شَرِّهم وخداعِهم، ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال:٦٢-٦٣].

وعنى ربُّنا بالذين يريدون خداعَنا الكفارَ الجانحون للسَّلْمِ الطالبون له، ويكون خداعُهُمْ لنا بالغدْرِ والمكيدةِ، وإعانةِ الكفارِ على المؤمنين، وقوله: ﴿فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: فإنَّ اللهَ كافيك شرَّهُمْ وخِداعَهُم، فتوكَّل عليه، ولا تكترثْ بإرادتهم بالصلح الخداعَ، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ أيَدَك: قَوّاك وأعزَّكَ بنصره، وقوَّاك بالمؤمنين.

وقوله: ﴿ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ ﴾ أي: أَلَّف بين قلوبِ المؤمنين مِنَ المهاجرين والأنصارِ، أي: جمع قلوبهم على الإيمانِ وطاعةِ الرحمن ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ ﴾ أي: مهما أنفقتَ مِن مالٍ، فلن تستطيع أنْ تجمعَ بين قلوبهم وتوحِّد بينها، كما قال عزَّ وجل: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ ﴾ [آل عمران:١٠٣]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٣﴾﴾ والعزيز الغالبُ الذي لا يغلبُهُ أحدٌ، والحكيم: الذي يضع الأمور في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- وَصَفَ اللهُ تعالى الكفارَ الذين يديمونَ نقضَ عهودِهم مع المؤمنين بأنهم شرُّ الدوابِّ عندَ الله تبارك وتعالى.

٢- أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ إذا ظَفِرَ بناقضي عهودِهم معه في الحربِ والقتالِ أن يفعل بهم فعلاً فظيعاً يُؤَدِّبُ كلَّ مَنْ تسوِّلُ له نفسه نقضَ العهد.

٣- إذا خافَ المسلمون مِنْ نقضِ الكفار عهودَهُمْ معهم، فعليهم إعلامُ الكفارِ بنقضِ عهودِهِمْ معهم، ولا يجوزُ لهم قتالُ أعدائِهم مِنْ غير إعلامِهِمْ بنقضِ عهودِهِمْ معهم، فإذا قام الكفارُ بنقضِ العهودِ علانيةً واجتاحوا بلاد المسلمين فليسَ بالمسلمين حاجةٌ إلى الإعلانِ للكفار.

٤ - الكفارُ مهما كان بأْسُهُمْ وشدَّتُهم فهم ضعفاءُ لا يُعْجزونَ ربَّ العبادِ.

٥ - أمر الله المؤمنين في كلِّ عصرٍ أنْ يُعِدُّوا أقصى ما يستطيعون إعدادَه من القوةِ الحربيةِ وأدواتِ القتالِ إرهاباً لعدوِّ الله وعدوِّهِمْ.

٦ - فضلُ إنفاقِ المالِ على القتالِ وإعدادِ القوةِ الحربيةِ.

٧- إذا مالَ أعداؤنا إلى الصلح وطلبوه فلا حَرَجَ علينا في قبولِ الصلح والمسالمة، ولكن يُحْظَرُ علينا أنْ نبدأ عدونا بطلب الصلح.

٨- لا يمنعُنا خوفنا من نقض الكفارِ عهودهم من إجراءِ الصلح، وعلينا أنْ نثق بوعد الله تعالى وتأييدِه لنا.

٩- امتنَّ اللهُ -تعالى- على رسولِهِ ﷺ بجمعِ قلوبِ المؤمنين على الإيمان، ولو أنْفَق الرسولُ ﷺ كلَّ الأموال ليؤلف بين قلوبِ المؤمنين ما استطاعَ التأليفَ بينهم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني التاسع من سورة الأنفال
الرسولُ ﷺ وأصحابُه جيلٌ فريدٌ من الناس .

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يرتقي وأصحابُه في مدارجِ الكمالِ الإيماني، وأعلمه أنَّه كافيه وكافي أصحابَهُ، وأمره أن يحرِّضَ المؤمنين على القتالِ، وأخبره أنَّ المؤمنين نوعٌ فاضلٌ من الرجال، فالثُّلةُ مِنَ المؤمنين تقومُ لعشرِ أمثالها من الكفار، ثم خفَّفَ اللهُ عنهم، فجعل الثلَّةَ تقومُ لمثليها.

ولامَ ربُّ العزة المؤمنين على أخذهم الفديةَ من الأسرى، وكان الأحرى بهم أنْ يقتلوهم، خاصة وأنَّ هذه المعركة هي أوَّلُ معركةٍ كبيرةٍ يخوضُها الصحابةُ، وأعلم اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه أحَلَّ لهم الغنائم، وأحلَّ لهم ما أخذوه من فداءِ الأسرى، ووعَدَ الأسرى الذينَ أُخِذَ منهم الفداءُ أن يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، إنْ أنابوا واستقاموا، فإنْ عادوا إلى كفرهم وشركهم، فهو قادرٌ على أنْ يمكِّنَ الصحابةَ منهم، فيأخذونَهُمْ مرةً أُخرى قتلاً وأسراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٦٧﴾ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٦٨﴾ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال:٦٤-٧١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- كافي عبدَهُ ورسولَه محمداً ﷺ وكافي أتباعَهُ:

نادى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ معلماً إياه أنه حسبُهُ، وحسبُ مَنْ معه مِنَ المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنفال:٦٤] أي: كافيك ربُّك وكافي

جنـــــة السـنـــة

أتباعَكَ مِنَ المؤمنين، فمِنْ خصائصِ ربِّ العزة أنه كافي المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ [التوبة:٥٩] وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

٢- أَمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أنْ يحرِّضَ المؤمنين على قتالِ أعدائهم:

أمر اللهُ -تعالى- رَسوله أنْ يحرض المؤمنين على قتالِ أعدائهم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥]. والتحريضُ: حضُّ المؤمنين على القتال، وحثهم عليه.

٣- أوجبَ اللهُ تعالى على المقاتلين من المؤمنين أن يثبت العشرون لقتالِ المئتين ثم خففَ اللهُ تعالى عنهم:

أَوْجَبَ اللهُ تعالى على المؤمنين في أول الأمْرِ أن يثبتَ العشرونَ لقتالِ المئتين وإن يكن منهم مئةٌ يغلبوا ألفاً، ثم خفَّفَ اللهُ عنهم ذلك، فأوجب أن يثبتَ المئةُ للمئتين مِنْ أعدائهم، ويقاتل الألفُ منهم الألفين مِنَ الكفار، قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦].

وقد وصف اللهُ المقاتلين في الحالةِ الأولى والحالة الثانية بالصبر ﴿ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ ﴾، ﴿مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ ﴾، وقال في ختام الآية الثانية: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ فالمؤمنون الذين يثبتون لعدوِّهم، ويهزمونهم هم الصابرون.

وبيَّنَ اللهُ تعالى السببَ الذي أدَّى إلى غلبةِ العشرينِ الصابرينَ المئتين من المشركين بقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ ومعنى: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ أي: لا يفهمون عن الله مرادَهُ، فالمؤمنون كانوا شجعاناً صابرين، يعْلَمونَ أنَّهم يقاتلون في سبيل الله تعالى، وأنَّ مصيرهم جناتٌ تجري مِنْ تحتها الأنهار، أما الكفارُ فلا يفقهون شيئاً من ذلك، ولا يوجد عندهم ما يثبتهم على القتالِ في ميدانِ القتالِ. ولما كثُر المسلمون وانتشر الإسلامُ عَلِمَ اللهُ أنَّ المسلمين فيهم ضعف، فأوجب عليهم أن يصبروا في ميدانِ القتال لمثليهم.

جنـــــة السـنـــة

وأورد البخاريُّ في صحيحِهِ في تفسير هذه الآية عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: لما نَزَلَت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾، فكُتِبَ عليهم أنْ لا يَفِرَّ واحدٌ من عَشَرةٍ، فقال سفيانُ غيرَ مرّةٍ: أنْ لا يَفِرَّ عشرونَ من مئتين، ثم نزلت: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ﴾ الآية [الأنفال:٦٦]، فكَتَبَ أنْ لا يَفِرَّ مئةٌ من مئتين.

وزادَ سفيانُ مرّةً: نَزَلَت: ﴿حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ﴾ قال سفيانُ: وقال ابنُ شُبْرُمَةَ: وأُرَى الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ مثل هذا [البخاري: ٤٦٥٢].

وعن عِكْرمةَ، عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: لَمَّا نَزَلَت: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال:٦٥] شَقَّ ذلكَ على المسلمينَ، حينَ فُرِضَ عليهم أنْ لا يَفِرَّ واحدٌ من عَشَرةٍ، فجاءَ التخفيفُ، فقال: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ﴾ قال: فلما خَفَّفَ الله عنهم من العِدَّةِ نَقَصَ من الصَّبْرِ بقَدْرِ ما خُفِّفَ عنهم [البخاري: ٤٦٥٣].

٤- معاتبةُ الله -تعالى- نبيَّه وأصحابَهُ في عدمِ قتلهم الأسرى:

عاتب اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأصحابَه في عدم قتلهم الأَسْرى، فالواجبُ على الرسولِ ﷺ أنْ لا يكونَ له أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال:٦٧-٦٨].

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بالقاعدةِ التي كان يجبُ عليهم اتِّباعُها في حربِهم وقتالهم، فكان الواجبُ أن لا يكون للرسولِ ﷺ أسرى حتى يثخنَ في الأرضِ، والإثخانِ في الأرضِ يكون بالمبالغةِ في قتلِ أعدائِهم، وقد استشارَ الرسولُ ﷺ أصحابَه في أسرى بدر، فأشارَ عليه بعضُهم بقتلهم، وأشار عليهم آخرون باستبقائهم، فأمر بأخذ الدية منهم، روى مسلم في صحيحه، قال: قال أبو زُمَيْلٍ، قال ابنُ عباسٍ: فلما أَسَرُوا الأُسارى [أي: في بدر] قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: «ما تَرَوْن في هؤلاءِ الأُسارى؟» فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله! هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أنْ تأْخُذَ منهُمْ فِدْيَةً، فتكونُ لنا قوةً على الكفارِ، فعَسَى اللهُ أنْ يهديَهُمْ للإسلامِ.

فقال رسولُ الله ﷺ: «ما ترى؟ يا ابنَ الخطابِ؟» قلتُ: لا، والله! يا رسولَ الله! ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكني أرى أنْ تُمَكِّنَّا فنضربَ أعناقَهُم، فتُمكِنَ عَلياً من عقيلٍ،

جنـــــة الســـــنة

فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وتُمَكِّني من فُلانٍ (نسيباً لعُمَرَ) فأضربَ عُنُقَهُ فإنَّ هؤلاءِ أئمةُ الكُفْرِ وصناديدُها، فهَوَى رسولُ الله ﷺ ما قالَ أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قلتُ.

فلما كان من الغدِ جئتُ فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعِدَيْنِ يبْكِيانِ، قلتُ: يا رسولَ الله! أخبِرْني من أيِّ شيءٍ تبكي أنتَ وصاحِبُكَ؟ فإنْ وَجَدْتُ بكاءً بكيْتُ، وإنْ لم أجِدْ بكاءً تباكَيْتُ لبُكائِكُما، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أبكي للذي عَرَضَ عليَّ أصْحابُكَ من أخْذِهِمُ الفِداءَ، لقد عُرِضَ عليَّ عذابُهُمْ أدْنَى من هذه الشجرة» -شجرةٍ قريبةٍ من نبيّ الله ﷺ- وأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ [الأنفال:٦٧-٦٩] فأحلَّ اللهُ الغنيمةَ لهم [مسلم: ١٧٦٣].

وقوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي: حطامَ الدنيا الزائلِ الفاني، سماهُ عَرَضاً، لأنه عارضٌ يَعْرُوه الزوالُ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ أي: يريدُ الدارَ الآخرة، ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي: عليم بنياتِكُمْ وأقوالِكُمْ وأفعالِكُمْ، وهو حكيمٌ -سبحانه- في كلِّ ما شرعه.

وقوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي: لهم بالمغفرة، والمرادُ بالكتابِ، أي: اللوحُ المحفوظُ، ففيه أنَّ المغانمَ والأسرى حلالٌ لكم ﴿ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ ﴾ من الأسرى ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ وفي الحديثِ الذي أوردْتُهُ قبل قليلٍ أخبرَ الرسولُ ﷺ أنه عُرِضَ عليه عذابُهم أدنى من شجرةٍ كانت بجانبه.

وقوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنفال:٦٩]، أحلَّ اللهُ تعالى الغنائم للمجاهدين من هذه الأمّةِ، على النحو الذي بيَّنه فيما سَبَقَ، حيث جعل أربعةَ أخماسٍ للمجاهدين، وجعل خُمُساً لله وللرسولِ ولذي القربى واليتامى والمساكينِ وابنِ السبيلِ، وقد كانت الغنائمُ لا تحلُّ لِمَنْ سبق مِنَ الأمم الماضية، وفي الحديثِ الذي في البخاري ومسلم عن جابرِ بن عبدالله أنَّ الرسولَ ﷺ قال: «أعطيتُ خمساً لم يعطهن أحدٌ قبلي» وواحدةٌ منهنَّ قال فيها «وأُحلتْ لي الغنائمُ ولم تحلّ لأحدٍ قبلي» [البخاري: ٣٣٥. ومسلم: ٥٢١].

٥- وَعَدَ اللهُ -تعالى- أسْرَى بدر أن يُؤْتِهم خيراً مما أُخِذَ منهم:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لمن في أيديهم مِنْ أسرى بدرٍ: إنَّه إنْ يعلم اللهُ في قلوبِهِمْ خيراً يُؤْتِهم خيراً مما أُخِذَ منهم مِنَ الفديةِ، ويغفرْ لهم ذنوبَهُمْ والله غفورٌ رحيم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنفال:٧٠].

جنـــــة السـنة

وقد عَرَضَ الأنصارُ على الرسول ﷺ أنْ يتركوا للعباسِ فداءَه، فأبى، فعن أنسٍ ﷺ أنَّ رِجالاً من الأنصار استأْذنوا رسولَ الله ﷺ فقالوا: ائْذنْ لنا فلْنَتْرُكْ لابنِ أُخْتِنا عباسٍ فداءَه، فقال: «لا تَدَعُون منه دِرْهماً» [البخاري: ٢٥٣٧].

فلما جاءَتْ الرسولُ ﷺ الغنائمُ بعد ذلك أعطى منها العباسَ، ففي صحيح البخاريِّ عن أنسٍ: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بمالٍ من البحرينِ فقال: «انثُروه في المسجدِ». فكان أكثرَ مالٍ أُتِيَ به رسولُ الله ﷺ ، إذْ جاءَه العبَّاسُ فقال: يا رسولَ الله، أعطِني، إنّي فادَيتُ نفسي وفاديتُ عَقيلاً، قال: «خُذْ» فحَثا في ثوبِه، ثمَّ ذهبَ يُقِلُّه فلم يَستطِعْ، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه إليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنثَرَ منه، ثمَّ ذهبَ يُقِلُّه فلم يَرْفَعْه، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنثَرَ، ثم احتَمَلَه على كاهِله، ثم انطَلَقَ، فما زالَ يُتبِعُه بَصَرَه، حتى خَفِيَ علينا، عَجَباً من حِرْصِه، فما قامَ رسولُ الله ﷺ وثَمَّ منها دِرْهَمٌ [البخاري: ٣١٦٥، تعليقاً، ووصله البيهقي في السنن الكبرى: ٦/ ٣٥٦].

وأورد ابن كثير في تفسيره [٣/ ٣٣٨] قال: قالَ يونسُ بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن يزيد بن رُومان، عن عروة – وعن الزهري، عن جماعة –سمَّاهم– قالوا: بعثتْ قريشٌ إلى رسول الله ﷺ في فداءِ أسراهم، ففدى كلُّ قوم أسيرهم بما رَضُوا، وقال العباسُ: يا رسولَ الله، قد كنتُ مسلماً! فقال رسول الله ﷺ : الله أعلمُ بإسلامِك، فإن يكن كما تقول فإنَّ الله يجزيك، وأما ظاهِرُكَ فقد كان علينا، فافتدِ نَفْسَكَ وابنَيْ أخيك: نوفلَ بنَ الحارث بن عبدالمطلب، وعَقيلَ بنَ أبي طالب بن عبدالمطلب، وحليفَكَ عتبةَ بن عمرو أخي بني الحارث ابن فهر. قال: ما ذاك عندي يا رسول الله! قال: فأينَ المالُ الذي دفنته أنت وأمُّ الفضل، فقلت لها: إنْ أُصِبْتُ في سفري هذا، فهذا المال الذي دفنتُه لبَنيَّ: الفضلِ، وعبدِالله، وقُثَم؟ قال: والله يا رسولَ الله، إني لأعلم أنّك رسولُ الله، إنَّ هذا لشيء ما علمه أحد غيري وغيرُ أم الفضل، فاحْسِبْ لي يا رسول الله ما أَصبتُم مني، عشرينَ أُوقيةً من مالٍ كان معي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ذاك شيءٌ أعطانا الله تعالى منك»، ففدى نفسه وابنيْ أخويه وحليفَه، وأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنفال:٧٠]، قال العباس: فأعطاني اللهُ مكان العشرينَ الأوقيةَ في الإسلام عشرين عبداً، كلُّهم في يدِهِ مالٌ يَضْرِبُ به، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل [قال محقق ابن كثير: أخرجه البيهقي في (الدلائل) ٣/ ١٤٢-١٤٣ من طريق يونس بن بكير به. ويشهد له ما أخرجه الحاكم ٣/ ٣٢٤ والبيهقي في (السنن) ٦/ ٣٢٢ من حديث عائشة، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي].

جنـــــة الســـنة

وقال ابن كثير [٣/ ٣٣٩]: «قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباس في هذه الآية: كان العباسُ أُسر يومَ بدر فافتدى نفسه بأربعين أوقيةً من ذهب، فقال العباسُ حين قرئت هذه الآية: لقد أعطانا الله عزَّ وجلَّ خَصلتين، ما أحبُّ أنَّ لي بهما الدنيا: إني أسرت يومَ بدرٍ ففديتُ نفسي بأربعينَ أوقية، فآتاني أربعين عبداً، وأنا أرجو المغفرة التي وعدنا الله جل ثناؤه».

وقوْلهُ تعالى: ﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنفال:٧١]، أي: وإن يُرِدْ هؤلاءِ الأسرى الذين أسرهم الصحابةُ في بدرٍ خيانتكَ بالكلامِ الذي قالوه خيانةَ الله ورسولِهِ فإنَّهم خانوا اللهَ قبل بدرٍ بكفرِهم وشركهم بالله تعالى، فأمكنَ منهم رسولَهُ ﷺ وصحابتَه، فقهروهُم وأسروهم، وهو سبحانَه قادرٌ أنْ يفعل بهم ذلكَ مرةً أخرى إذا عادوا إلى خيانةِ الله ورسولِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ أي: أنه سبحانه عليم بكلِّ شيءٍ، لا تخفى عليه خافيةٌ في السماءِ ولا في الأرض، وهو سبحانه وتعالى ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: في أقوالِهِ وأفعالِهِ وتشريعاتِهِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- على الرسولِ ﷺ والذين معه أن يتوكلوا على الله وحدَه، فإنه كافي رسولَه وكافي من آمن معه.

٢- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يحثَّ المؤمنين على القتالِ، ويُحرِّضَهم عليه، وقد كان العلماءُ والدعاةُ والمجاهدون يفعلونَ ذلك، وخاصةً إذا حَضَرَ القتالُ.

٣- أوجَبَ اللهُ تعالى على المجاهدين أنْ يثبت العشرون لقتال المئتين، والمائةُ لألفٍ، ثم خففَ الله عنهم فأوجب أن يثبت المئة للمئتين.

٤- عاتبَ اللهُ الرسولَ ﷺ وأصحابه في أخذهم الفديةَ مِنْ أسرى بدرٍ، فكان الواجبُ أنْ يقتلوا جميعاً كي تَضْعُفَ شوكةُ الكفارِ، ثم أباح الله تعالى لهم الغنائم وما أخذوه مِنْ فديةِ الأسرى.

٥- وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين من الأسرى إنْ علمَ في قلوبهم خيراً أنْ يؤتيهم خيراً مما أُخِذَ منهم، وإنْ رجعوا إلى الكفر، فإنَّ اللهَ قادرٌ على قهرِهمْ وإذلالهم، وإقدارِ المسلمين على قَتْلِهِم وأسرِهِمْ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني العاشر من سورة الأنفال
المهاجرون والأنصار بعضُهم أولياءُ بعضٍ والكفارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ

أولاً: تقديم

بيّنَ اللهُ تعالى في هذه الآيات العلاقةَ التي تحكم المؤمنين فيما بينهم، فالمهاجرونَ والأنصارُ وَحْدةٌ واحدةٌ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، والذين آمنوا ولم يهاجروا لا يدْخُلونَ في ولايةِ المهاجرين والأنصار، وإنْ استنصروا المؤمنين في المدينةِ، فيجبُ عليهم نَصْرُهم إلا إذا كان بين المؤمنين وعدوِّهم عهدٌ وميثاقٌ.

وبيّن أنَّ الكفار بعضُهم أولياءُ بعضٍ في مواجهة المؤمنين، والذين دَخلوا في الإيمانِ وهاجروا إلى المدينة بعد نزولِ هذه الآية إلى فتح مكة يدخلون في المهاجرين والأنصارِ، ونسخ اللهُ تعالى التوارث بالأُخُوَّةِ التي أجراها الرسولُ ﷺ بينَ المهاجرينَ والأنصارِ، وأصبحَ التوارثُ بين الأقارب على النحو الذي فصّله اللهُ في سورةِ النساء.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الأنفال

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنفال: ٧٢-٧٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المهاجرونَ والأنصارُ بعضهم أولياءُ بعضٍ:

امتدحَ اللهُ صحابةَ رسُوله وأثنى عليهم بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال:٧٢].

جنـــــة السـنة

وقد كان صحابةُ رسولِ الله تعالى قسمين: الأول: المهاجرون، خرجوا مِنْ ديارهم وأموالهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. والثاني: الأنصارُ، وهم المؤمنون من أهلِ المدينةِ، آوَوْا إخوانَهُمْ المهاجرينَ في منازِلِهِمْ، وواسوهم بأموالهم، ونَصُروا اللهَ ورسولَهُ ﷺ.

وهذان الفريقانِ الصالحانِ الخيّرانِ شكّلا فريقاً واحداً، فكانوا هم المؤمنين المسلمين، وتولّى كلُّ فريقٍ منهم الآخرَ ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾. وقد روى جريرُ بن عبدالله البَجَلِيُّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المهاجرونَ والأنصارُ بعضُهُمْ أولياءُ لبعضٍ، والطُّلَقاءُ من قُريشٍ، والعُتَقاءُ من ثَقيفٍ بعضُهُمْ أولياء بعضٍ إلى يومِ القيامةِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٤١) جيد أخرجه أحمد (٣/ ٣٦٣)، والطبرانيُّ (٢٢٨٤، ٢٣٠٢) وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٥): رواه أحمد والطبراني بأسانيد، وأحد أسانيد الطبرانيِّ رجاله رجال الصحيح].

وقد أثنى الله على المهاجرين والأنصار في غير ما آية في كتابه، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٨-٩].

٢- الذين آمنوا ولم يهاجروا ليس للمؤمنين في المدينة من ولايتهم من شيء:

بيّن اللهُ -تعالى- أنَّ الذين آمنوا ولم يهاجروا من قُراهم وبواديهم فليس للمؤمنين في المدينة من وَلايتهم من شيء ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنفال:٧٢].

بيّن اللهُ تعالى أنَّ الذين آمنوا ومَكَثُوا في ديارِهم ولم يهاجروا فهؤلاءِ لا يدخلون في ولايةِ المؤمنين في المدينةِ، ولا يرثونَ إخوانَهم من الأنصارِ، وليس لهم نصيبٌ في الفيءِ والغنيمةِ، وقد كان الرسولُ ﷺ يقولُ لأمراءِ السرايا الذين يُرْسِلُهُمْ في الحربِ والقتالِ: «ثمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسلامِ، فإنْ أجابُوكَ فاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُمْ، ثمَّ ادْعُهُمْ إلى التَّحَوُّلِ مِنْ

جنـــــة السـنـة

دارِهم إلى دارِ المهاجرينَ، وأخبِرْهُم أنَّهم إنْ فعلوا ذلك، فلَهُمْ ما للمهاجرينَ، وعليهِمْ ما على المهاجرينَ، فإنْ أبَوْا أن يتحوَّلوا منها، فأخبِرْهُمْ أنَّهم يكونون كأعرابَ المسلمين، يجري عليهم حُكْمُ الذي يجري على المؤمنين ولا يكونُ لهم في الغنيمةِ والفيءِ شيءٌ، إلا أن يجاهدُوا مع المسلمين» [مسلم: ١٧٣١].

وقد قَضَى ربُّ العزة أنَّه إذا استنصر هؤلاءِ الذين لم يهاجروا إخوانهم من أهلِ المدينةِ، فعليهم نصرُهُم، إلا إذا كان مقاتلوهم قوماً بينهم وبين المؤمنين ميثاقٌ، والميثاقُ العهدُ الموثَّقُ، ففي هذه الحالِ لا يجبُ عليهم نصرُهم، واللهُ بصيرٌ بجميع أعمالنا ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾﴾ .

٣- الكفارُ بعضُهم أولياء بعضٍ

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣].

لما ذكر ربُّ العزة أنَّ المؤمنين بعضُهم أولياءُ بعضٍ، قَطَعَ الموالاةَ بين المؤمنين والكفارِ، وأعلمنا أنَّ الكفارَ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ أي: إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، تقعُ بين المؤمنين فتنةٌ، وهو التباسُ الأمرِ واختلاطُ المؤمنِ بالكافرِ، فيقعُ بين الناسِ فسادٌ منتشر طويل عريض.

ومن ولايةِ المهاجرين والأنصارِ بعضُهم لبعضٍ أن لا يرثَ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ، فعن أُسامةَ عن النبيِّ ﷺ : «لا يتوارَثُ أهْلُ مِلَّتَيْنِ، ولا يَرِثُ مُسْلِمٌ كافِراً، ولا كافِرٌ مُسْلِماً» ثم قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنفال:٧٣] [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٤٢): جيدٌ، أخرجه الحاكم (٢/ ٢٤٠) وصححه، ووافقه الذهبي، وهو حسن الإسناد].

وعن أسامة بنُ زيد، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «لا يرثُ المسلمُ الكافرَ، ولا الكافرُ المسلمَ» [البخاري: ٦٧٦٤. ومسلم: ١٦١٤].

٤- المهاجرونَ والأنصارُ هُمُ المؤمنونَ حقّاً لهم مغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ:

ذكر اللهُ تعالى فيما سبق أنَّ المهاجرين والأنصارَ ﴿هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ﴾ وأخبر أنَّه سيصفح عن ذنوبهم ويرزقُهُم الرزقَ الكريمَ في الآخرةِ في جناتِ النعيم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾

جنـــــة الســـــنة

[الأنفال:٧٤] وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة:١٠٠].

٥- الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا إلى فتح مكة تَبَعٌ للمهاجرين والأنصار:

بيَّنَ الله تعالى حكمَ الذين دخلوا في الإسلام وهاجروا إلى المدينة بعد نزول هذه الآية وجاهدوا مع الصحابةِ، فأولئك مع الصحابة إلى فتح مكة، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا هِجْرَةَ بعدِ الفتحِ ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا اسْتُنْفِرْتُم فانْفِرُوا» [البخاري: ٢٧٨٣. ومسلم: ١٣٥٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنفال:٧٥]. المرادُ بأُولي الأرحام هنا جميعُ القرابات، وهذه الآيةُ نَسَخَتِ الموارثة التي كانت تقعُ بين المهاجرينَ والأنصارِ بالأُخوَّة التي عقدها الرسول ﷺ بينهم، فبيَّنَ اللهُ -تعالى- في هذه الآيةِ أنَّ أصحابَ القراباتِ بعضُهُم أولى ببعضٍ في الميراث. وقوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: حكم الله تعالى، وقد بيَّن اللهُ تعالى في سورة النساء أحكام الميراثِ، وقال الرسولُ ﷺ: «إنَّ اللهَ قد أعْطَى كلَّ ذي حقٍّ حَقَّه، فلا وصيَّةَ لوارث» [حديث صحيح رواه أبو داود (٢٨٧٠)، والترمذي (٢١٢٠)، وابن ماجه (٢٧١٣) وغيرهم].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المهاجرون والأنصارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ، وهم يُشَكِّلُونَ وَحْدةً واحدةً قائمةً على الإيمان.

٢- الذين آمنوا ولم يهاجروا قبلَ فتح مكةَ ليس لهم ولايةُ المؤمنين حتى يهاجروا، وإن استنصروا بالمؤمنين في المدينة فعليهم النصرُ إلا إذا كان بين المؤمنين وبين عدوِّهم ميثاقٌ.

٣- الكفارُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ في مواجهةِ المؤمنين، ولا يجوزُ للمؤمنين موالاةُ الكافرين.

٤- الذين دخلوا في الإسلامِ إلى فتح مكة هم مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين.

٥- نسختْ الآيةُ الأخيرةُ من هذا النصِّ توارثَ المهاجرين والأنصارِ بالأُخوَّةِ التي عقدَها الرسولُ ﷺ بينهم، وأصبحَ الميراثُ قصراً على الأقارب فيما بينهم، على الطريقةِ التي بيَّنَها ربُّ العزَّةِ في سورةِ النساءِ.

سُورَةُ التَّوبَةِ

قال أبو عمرٍو الدانيُّ: «سورة التوبة مدنية، ولا نظير لها في عددها».

أخبرنا خلف بن إبراهيم، قال: «أنبأنا أحمد بن محمد، قال: أنبأنا علي بن عبدالعزيز، قال: أنبأنا القاسم بن سلاَّم، قال: أنبأنا هُشَيْمٌ، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالتْ تَنْزِلُ، ومِنْهم ومِنْهم حتى ظَنُّوا أنها لن تُبْقِي أحداً منهم إلا ذُكِرَ فيها» [البخاري: ٤٨٨٢، ومسلم: ٣٠٣١، وقد صححت لفظ الحديث على النحو الذي أورده البخاري].

أخبرنا فارس بن أحمد، قال: «أنبأنا أحمد بن محمد، قال: أنبأنا أحمد بن عثمان، قال: أنبأنا الفضل بن شاذان، أنبأنا نوح بن أنس، أنبأنا جرير، عن الأعمش، عن عمرو بن مُرَّة، عن عبدالله بن سلمة، عن حذيفة، قال: إنكم تُسَمُّون هذه السورة سورة التوبة، وإنها سورةُ العذابِ، والله ما تركت أحداً إلاَّ نالت منه» [عزاه محقق (البيان في عدّ آي القرآن) إلى الحاكم في المستدرك، (٢/ ٣٣٠) وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح]، وأهل المدينة يسمونها التوبة، وأهل مكة الفاضحة.

وكَلِمُها ألفان وأربعمائة وسبع وتسعون كلمة، وحروفها عشرة آلاف وثماني مائة وسبعة وثمانون حرفاً، وهي مئة وتسع وعشرون آية في الكوفي، وثلاثون في عدد الباقين.

وهذه السورة آخرُ سورة نزلتْ كاملةً من القرآن الكريم، عن البراء ﷺ قال: «آخرُ سورةٍ نزلت كاملةً براءة» [البخاري: ٤٣٦٤. ومسلم: ١٦١٨].

جنـــــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة التوبة
براءة الله ورسوله ﷺ من المشركين

أولاً: تقديم

هذه الآيات تتحدثُ عن فترةٍ زمنيةٍ ارتفع فيها منارُ المسلمين، وذلَّ المشركون في الجزيرة العربية، وفي هذه الفترة أعْلَنَ اللهُ تعالى للمشركين عن براءَتِهِ منهم، وأعطاهم عدَّةَ أشهرٍ ليقوِّموا أوضاعهم، ويصْلِحُوا أمورهم، فإنْ انقضت المدةُ التي أعطاهم اللهُ تعالى إياها، وبَقُوْا على كفرهم، فقد أذن اللهُ تعالى للمؤمنين بقتلهم وأسْرِهم، والترصد لهم في طرقاتهم، فإن تابوا عن كفرهم واستقاموا على الإيمان، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاةَ، فأمر الحقُّ سبحانه بعدم ملاحقتهم وإعطائِهم الأمان، وأمر الله المسلمين أن يجيروا مَنْ طلب الإجارةَ مِنَ الكفار حتى يسمع كلامَ الله تعالى، فإنْ آمن، وإلا وجب على المسلمين أن يُبْلِغُوهُ مأْمنه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ
ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ
وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ
يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ
فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ
فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: ١-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لم تُكْتَبُ (بسم الله الرحمن الرحيم) في أول هذه السورة:

هذه السورةُ الوحيدةُ في القرآنِ الكريم كلِّه التي لم يُكْتَب في أوَّلها (بسم الله الرحمن الرحيم)، ولعلَّ السببَ في أنها نزلتْ مِنَ السماءِ مِنَ غير بسملة، ما قاله بعضُ العلماءِ: البسملةُ رحمةٌ وأمانٌ، وبراءَةٌ نزلتْ بالسيفِ والقتالِ ونقضِ العهودِ، فلذا لم تكتب فيها (بسم الله الرحمن الرحيم) [العذب النمير: ٥/ ٢٤٢].

جنـــــة السـنـــــة

وقد روى الترمذيُّ الحديث (٣٠٨٦) وقال فيه: «حسن صحيح» بَيَّنَ فيه عثمانُ بنُ عفان أنَّ السببَ في عدم كتابةِ البسملةِ في أوّلِ سورة التوبةِ، ظنُّ بعضِ الصحابة أنَّ سورة الأنفالِ وسورة براءة سورةٌ واحدةٌ، وظنَّ آخرون أنَّهما سورتانِ، فجعلوهما متواليتين، وجعلوا بينهما سطراً من غير بسملةٍ، وهذا الحديثُ ضعيفٌ، وانظرْ تخريجه في مسند أحمد حديث رقم (٣٩٩) إسناده ضعيف ومتنه منكر، وفيه تمام تخريجه وتنقيده، وانظر ما قاله فيه محقق ابن كثير: (٣/ ٣٤٧).

٢- **براءةُ الله تعالى ورسولِهِ ﷺ مِنْ عهودِ المشركين:**

أوَّلُ هذه السورةِ فيها براءَةٌ مِنَ الله تعالى ومِنَ رسولِهِ ﷺ إلى الذين عاهدوهم مِنَ المشركين ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ [التوبة:١].

أيْ: هذه براءَةٌ من الله ومن رسوله إلى الذين عاهدتم مِنْ المشركين. وأعْطى اللهُ تعالى المشركين أماناً مُدَّتُه أربعةُ أشهر، ثم ينقضي الأجلُ الذي أعطاه الله إياهم، وسيحارِبُهم المؤمنون بعد ذلك ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة:٢].

وقد أعطى اللهُ المشركين أربعةَ أشهرٍ، لا فرقَ في ذلك بين مَنْ لا عهد له، أو لَهُ عهد مُدَّتُه أربعةُ أشهرٍ أو أقلَّ، أو له عهد مطلق لم يقيد بزمنٍ مُعيَّنٍ، فهؤلاء جميعاً أعطاهم اللهُ تعالى مدةَ أربعةِ أشهرٍ.

أما الذي له عَهْدٌ فوق ذلك، ولم يكن نقضَ عهده، فعهدُه إلى مُدَّتِهِ كما سيأتي بيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٢﴾ [التوبة:٢] أي: اعلموا أنَّ إمهالَ الله تعالى للمشركين هذه الأشهر الأربعة ليس لعجزٍ، فاللهُ على كلِّ شيء قديرٍ، وإنما ذلك ليتوبَ الله تعالى على مَنْ تابَ في هذه المدةِ التي حدَّدها ربُّ العزةِ، والله تعالى سيخزي الكافرينَ ويذلُّهم بالقتلِ والأَسْر في الدنيا، وبالعذابِ في الآخرة.

٣- **أعلم اللهُ -تعالى- الناسَ يومَ الحجِّ الأكبرِ ببراءَتِه ورسولِهِ مِنَ المشركين:**

أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يعلن للناسِ في يومِ الحجِّ الأكبرِ مِنْ سنةِ تِسْعٍ أنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين، ورسولُه بريء منهم كذلك، قال تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة:٣].

جنـــــة السـنـة

وقد أرسل الرسولُ ﷺ مَعَ أبي بكر من يُؤَذِّنُونَ في الناس في يومِ الحجِّ الأكبرِ مِنْ سنةَ تسعٍ بأنَّ لاَّ يحجَّ بعد العامِ مشركٌ، ولا يطوف بالبيتِ عُرْيان.

ثم أردفَ الرسولُ ﷺ أبا بكر بعليِّ بن أبي طالبٍ ليؤذِّنَ في الحجِّ بأوَّلِ براءة.

روى أبو هريرةِ ﷺ قال: «بَعَثَني أبو بكرٍ في تلكَ الحجةِ في مُؤَذِّنينَ يومَ النَّحْرِ نُؤَذِّنُ بِمِنىً: ألا لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مشركٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ».

قال حُمَيدُ بنُ عبدالرحمن: ثم أردَفَ رسولُ الله ﷺ علياً فأمَرَه أنْ يُؤَذِّنَ بـ «براءةٌ» قال أبو هريرةَ: فأذَّنَ معَنا عليٌّ في أهل مِنىً يومَ النَّحْرِ: «لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» [البخاري: ٣٦٩. ومسلم: ١٣٤٧. ولم يذكر مسلم إرداف عليٍّ].

ويوم الحجِّ الأكبر هو يومُ النحرِ، ففي الحديث عن أبي هريرة قال: بَعَثَني أبو بكرٍ ﷺ فيمَن يُؤَذِّنُ يومَ النَّحْرِ بمِنىً: «لا يَحُجُّ بعدَ العامِ مُشْرِكٌ، ولا يطَوفُ بالبيتِ عُرْيانٌ» ويومُ الحجِّ الأكبرِ يومُ النَّحْرِ، وإنما قيلَ: الأكبَرُ من أجْلِ قول الناس: الحجُّ الأصغَرُ، فنبَذَ أبو بكرٍ إلى الناس في ذلك العامِ، فلم يَحُجَّ عامَ حَجّةِ الوَداع الذي حَجَّ فيه النبيُّ ﷺ مُشْرِكٌ [البخاري: ٣١٧٧].

ويومُ الحجِّ الأكبرِ، يومُ النحرِ، والحجُّ الأصغرُ العمرةُ لنقصانِ أعمالها عن أعمال الحج.

وعن ابن عمر قال: وقفَ رسول الله ﷺ يومَ النَّحْرِ عندَ الجمراتِ في حجَّةِ الوداعِ، فقال: «هذا يومُ الحجِّ الأكْبرِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٥٣): صحيح، وعزاه لأبي داود (١٩٤٥) والطبري (١٦٤٤٧) وابن ماجه (٣٠٥٨) وعلَّقهُ البخاريُّ (١٧٤٢) وانظر صحيح أبي داود (١٧١٤)].

وعن مُرَّةَ الهمذانيِّ، عن رجلٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ قال: «قامَ فينا رسولُ الله ﷺ على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمَةٍ، فقال: أتَدْرُونَ أيُّ يومٍ يَوْمَكُمْ هذا؟» قالوا: يومُ النَّحْرِ. قال: «صَدَقْتمْ، يومُ الحجِّ الأكْبَرِ» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٣٥٣): صحيح أخرجه الطبري ورجاله ثقات].

وجمهورُ العلماءِ على أنَّ ابتداءَ تأْجيلِ هذه الأشهر الأربعةِ من يوم النحر، وانقضاؤها في العاشر من ربيع الثاني، لأنَّ هذه الأشهر الأربعة منها عشرون من ذي الحجَّة من يوم الحجِّ الأكبر، ثم منها المحرَّمُ كاملاً، وصفر كاملاً، وربيعُ الأولِ كاملاً، وعشر من ربيعِ الثاني، فتتمُّ الأربعةُ أشهر.

وقد ورَدَ عن عليِّ بن أبي طالب أنَّه بُعِثَ بأربعٍ: «لا يَدْخُلُ الجنَّةَ إلا نفسٌ مؤمنة، ولا يطوفُ بالبيتِ عريانٌ، ومَنْ كان بينه وبينَ الرسولِ عَهْدٌ، فعهدُه إلى مُدَّتِهِ، ولا يَجْتَمِعُ المشركون والمسلمونَ بعدَ عامِهِمْ هذا» [قال ابن كثير (٣/ ٣٥٠): رواه الترمذي: ٣٠٩٢، وقال: حسن صحيح].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة:٣].

يخاطبُ ربُّ العزةِ الكفار، ويقول لهم: ﴿فَإِن تُبْتُمْ﴾ أي: عما أنتم فيه مِنَ الكفر والشركِ والضلال، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: عند ربكم، ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن الحقِّ الذي أُنزِلَ إليكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ أي: فإنَّكم لا تستطيعون أنْ تغلبوا اللهَ -تبارك وتعالى- فاللهُ قاهرٌ غالبٌ لا يعجزه أحدٌ.

وقوله: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ وأصلُ البشارةِ الإخبارُ بما يسرُّ، ولذا فإنَّه أمَرَ رسولَهُ أن يُبَشِّر الكفار بما يضرُّ، استهزاءً وسخرية بهم، والعذابُ الأليمُ الذي أمَرَ اللهُ رسولَهُ أن يبشرهُم به العذابُ الدنيويُّ الذي سيصيبُهم به، والعذابُ الأُخروي في المحشر والنار.

٤- الذين يجب إتمامُ عهدِهم من المشركين إلى تمام مُدَّتِهِمْ:

أجَّلَ الله -تعالى- المشركين الذين ليس لهم عهد، أو لهم عهدٌ دون الأربعةِ أشهر إلى أربعة أشهر، واستثنى من المشركين الذين لهم عَهْدٌ مع المسلمين زائدٌ على الأربعةِ أشهر، ووفَوْا للمسلمين بعهدِهم، فهؤلاء يجب إتمامُ عهدِهم إلى المدةِ المضروبةِ، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة:٤].

وهؤلاء قبائلُ مِنْ كنانةَ بَقُوا على عهدِهم، ولم ينكُثوا، فأمَرَ اللهُ تعالى بأنْ يَفُوا بعهدهم حتى تنتهي مُدَّتُهُمْ، وقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم ينقصوكم مالاً ولا نفساً ولا دماً، بل ثَبَتُوا على عهدهم ولم ينقضوا عهودهم، وقوله: ﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: ولم يُعينوا عليكم أحداً كقريش الذين أعانوا بني الدِّيْل بن بكر على خزاعةَ، وقوله: ﴿فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: فأكملوا إليهم عهدَهُمْ كاملاً إلى مُدِّتِهم التي اتفقتم أنتم وهم عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ دلَّت الآيةُ على أنَّ الوفاءَ بالعهودِ وعدم النكثِ والنقضِ لها مِنَ تقوى الله تعالى، وأصلُ التقوى في لغةِ العربِ: أن تتَّخِذَ وقايةً بينك وبينَ ما تكرهُهُ، تقول العربُ: اتقَّيتُ الرمضاءَ بنعلي، واتقيتُ السيفَ بمجني، واتقيتُ المطر بمظلتي، والتقوى في الشَّرع: أن يجعلَ العبدُ المؤمنُ وقايةً بينه وبين عذابِ الله، بامتثالِ أمرِ الله، واجتنابِ نهيه، والوفاءِ بالعهود مِنَ امتثال أمر الله.

جنـــــة السـنة

٥- إذا انسلخ الأشهرُ الحرمُ فيجب على المؤمنين قتلُ المشركين:

أَمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بقتلِ المشركينَ إذا انقضتِ الأشهرُ الحرمُ ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ [التوبة:٥].

وذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المراد بالأشهرِ الحرمِ الأشهرُ التي ذكرها الله بقوله في هذه السورة ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ [التوبة:٣٦] وهذه الأشهرُ أربعةٌ، منها ثلاثة سَرْدٌ هي: ذو القعدةِ، وذو الحجةِ، وشهرُ الله المحرَّم، ومنها واحدٌ فردٌ، وهو رجبُ الذي بين جمادى وشعبان، فتكونُ المدَّةُ إلى انسلاخِ الأشهرِ الحرم خمسون يوماً، منها عشرونَ يوماً تبدأ من يوم الحج الأكبر، ثم شهر الله المحرَّمُ كاملاً.

والصواب من القولِ: أنَّ المرادَ بالأشهر الحرمِ، هي الأشهرُ الأربعةُ التي ذكرها اللهُ تعالى في قوله: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ وهي التي تبدأ في العاشرِ من ذي الحجَّة عام تسع، وتنقضي بالعشر من ربيع الثاني كما سبق بيانه مِنْ ذلك العام، وسُمِّيتْ هذه الأشهرُ بالحُرُمِ، لأنَّ اللهَ -تعالى- حرَّم فيها القتالَ.

وقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ أي: اقتلوا الكفارَ المشركين في أي مكانٍ من أمكنةِ الأرضِ وجدتموهم فيه، وقد خَصَّ من عمومِ المشركينَ صبيانَ المشركينَ ونساءَهم والرهبانَ في الصوامعِ والشيوخَ الفانينَ الذين لا يستطيعون القتالَ ولا رأي لهم فيه، وخصَّ منها أهلَ الكتابِ الذين أدَّوا الجزيةَ.

وقوله تعالى: ﴿ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [التوبة:٥] أي: خذوهم قتلاً وأسراً، ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ واقصدوهم بالحصار في معاقلهم وحصونهم، ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ أي: اقعدوا لهم في كلِّ مكانٍ ترصدونهم وترقبونهم فيه، حتى تأْخذوهم في غِرَّتِهم.

فإنْ تابوا مِنْ كفرهم وشركهم وآمنوا وأسلموا وأقاموا الصلاةَ بالإتيان بها على وجهها في وقتها، وأعْطوا الزكاةَ ﴿ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ أي: فاتركوهم، فلا تقعدوا في طريقهم، ولا تتعرَّضوا لهم، ودعوهم يذهبونَ حيث شاؤوا. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمةِ، ومن رحمته ومغفرته الكثيرةِ توبتُه ورحمتُه بالذين تابوا مِنَ الشِّرك، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاة.

جنـــــة السـنة

٦- إذا طلبَ الكافرُ الأمانَ ليصلَ إلى المؤمنين ويسمعَ كلامَ الله:

بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه إذا انقضتِ العهودُ ومضتِ الشهورُ التي حَدَّدها اللهُ تعالى لأخذ المشركين بعدها، وجاءَ بعضُ المشركين إلى المسلمين يريدُ أن يسمع كلامَ الله، والمرادُ به آياتُ القرآن، فأجره، أي: أعْطِهِ الأمانَ حتى يسمع كلامَ الله، ثم أبلغه مأمنه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ۝٦﴾ [التوبة:٦].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطيُّ رحمه الله تعالى في تفسيرِ هذه الآية الكريمة: «معنى هذه الآية الكريمة بإيضاح: أنَّ بعضَ المشركين إذا أراد أن يسمعَ ما يقوله رسولُ الله ﷺ ليفهم معنى ما ينزل عليه ويعرف الأوامر التي يأْمر بها، والنواهي التي ينهى عنها، والأشياءَ التي يدعو إليها، ليستيقنَ في قرارة نفسه أهو حقٌّ فيتبعه، أو يعلم أنَّه ليس بحق فيصدَّ عنه، وطلب أنْ يجارَ، وأن يُؤَمَّن، وألا يصلَ إليه أذى حتى يسمع القرآن، ويفهم ما أُنزل على النبيِّ؛ ليكونَ على بصيرةٍ مِنْ أمره في الأخْذِ والترك، فإنه يجب أنْ يعطى ذلك الأمانَ حتى يسمع ويُتلى عليه القرآن، ويُفَهَّم بما فيه مِنَ الزواجرِ والمواعظِ، ثم بعد ذلك إن أسلم فبها ونعمت، وإن أصرَّ على كفره وجب أن يُردَّ إلى مأمنه وهو محلُّ دارِهِ التي يأمن فيها، هذا معنى قوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾ طلبك أن تجيره وتؤمنه.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ هو هذا القرآنُ العظيم، وهذه الآية الكريمة مِنْ سورةِ (براءةٌ) نصٌّ صريحٌ في أنَّ هذا الذي نقرؤه ونتلوه هو بعينه كلامُ الله، فالصوتُ صوتُ القارئِ، والكلامُ كلامُ الباريءِ؛ لأنَّ الله صرَّح بأنَّ هذا المشركَ المستجيرَ يسمع كلامَ الله يتلوه عليه نبيُّ الله ﷺ ، فهذا المحفوظ في الصدور، المقروءُ في الألسنة، المكتوبُ في المصاحفِ، هو كلامُ الله (جلَّ وعلا) بمعانيه وألفاظه. ولا شَكَّ أنَّ أصل الكلام صفة الله (جلَّ وعلا)»

[العذب النمير: ٥/ ٢٨٠].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعْلَنَ اللهُ -تعالى- براءَته وبراءَة رسولِهِ ﷺ مِنَ المشركين، وحدَّد للمشركين مدة أربعةِ أشهر يأمنون فيها، ثم أباح للمؤمنين أن يقاتلوهم ويأسروهم.

٢- تبدأ مدةُ الأشهرِ الأربعةِ من يومِ النحر، وهو اليومُ العاشر من شهر ذي الحجة في السنةِ التاسعةِ.

جنـــــة السنـــــة

٣- الذين لهم مع المسلمين عَهْدٌ يزيدُ على الأربعة أشهر، ولم ينقضوا عهودَهُم مع المسلمين، فيجبُ على المسلمين أن يَفُوا لهم عهدهم إلى مدَّتهم.

٤- إذا انقضتِ الأشْهر التي منحها الله للكافرين فعلى المسلمين أن يقتلوا المشركينَ حيث وجدوهم، أو يأْسروهم، ويحاصروهم، ويقعدُوا لهم في طرقاتِهم، فإنْ تابوا وأقاموا الصلاةَ وآتوْا الزكاة، فعلينا أن نتركهم وندعهم.

٥- إذا انقضتْ الأشهرُ التي منحها اللهُ للمشركين، وطلبَ بعضُ المشركين أن يصل إلى المسلمين، ليسمع كلامَ الله تعالى، فعلى المؤمنين أن يؤمنوه حتى يسمع كلامَ الله تعالى، فإنْ لم يُؤْمِنْ أوْصلوه إلى المكان الذي يأمنُ فيه على نفسه.

٦- أمر اللهُ تعالى الصحابةَ بقتالِ المشركين ووعدهم بأنْ يعذِّبهم سبحانَه بأيديهم، ووعدهم بإخزائهم وإذلالهم، ووعدهم بالنَّصرِ عليهم، وشفاءِ صدورهم، وإذهابِ غيظِ قلوبهم، وأخبرهم أنه سيتوب على من يشاء التوبة مِنَ الكافرين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة التوبة
الكفارُ قليلو الوفاءِ بعهودهم مع المؤمنين

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ أنَّ الكفار قليلو الوفاءِ بعهودهم مع المسلمين، وأمرنا أنْ نفيَ لهم بعهودهم ما وَفَوْا، وأعلمنا عن مدى الحقدِ الذي تخفيه قلوبهم، فهم إن غلبونا لا يرقبون فينا قرابةً ولا حِلْفاً، وهم يرضوننا بمعسولِ القولِ، ولكن قلوبَهم مملوءَةٌ حِقْداً وكراهيةً لنا، وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار اشتروا بآيات القرآن متاعاً قليلاً، وهو متاعُ الدنيا الفاني، وأخبرنا أنَّ الكفارَ إن تابوا عن كفرهم، وأقاموا الصلاةَ وآتوا الزكاةَ، فهم إخواننا في الدين لهم ما لنا، وعليهم ما علينا، أما إذا اختاروا الاستمرارَ على الكفر، وطعنوا في ديننا فعلينا أن نقاتل أئمةَ الكفرِ ونؤدِّبهم.

وحَضَّ اللهُ تعالى الصحابةَ حضّاً شديداً على قتالِ الذين نقضوا عهودَهم مِنَ الكفار، فهم همُّوا بإخراج الرسولِ ﷺ من مكَّة، وهم الذين بَدؤُوا المؤمنينَ بالقتالِ في المدينة، ونهى اللهُ صحابةَ رسولِهِ ﷺ عن الخوفِ من المشركين، وأمرهم بخشيةِ ربِّ العالمين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ
ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟
عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾
ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ
إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى
ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ
فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟
أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن
تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ
صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

[التوبة:٧-١٥].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسولِهِ مع خبثِ ما يبطنونه من العداوة:

أنزل اللهُ تعالى أول هذه السورة ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ [التوبة:١] فنبذَ العهدَ إلى كلِّ المعاهدين، وأعلمهم بأنَّهم حربٌ بعد مضي أربعة أشهر، واستثنى من ذلك القومَ الذين ثبتوا على عهدهم، ولم ينقضوه، ثم قال تعالى في هذه الآية: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة:٧].

﴿كَيْفَ﴾ حرف يدلُّ على الاستبعادِ، أي: يُسْتَبْعَدُ جداً أن يكون للمشركين عهدٌ يُحفَظون به، ويأمنون بِهِ على أنفسهم وأموالهم، مع خبثِ ما يبطنونه من عداوةِ المسلمين. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ والذين عاهدوا الرسولَ ﷺ في الحديبية ستة هم: قريش، ومعهم أربعُ قبائل من كنانة بن مدركة، ثم نقضَ منهم العهدَ بنو الدِّيْل بن بكر بن عبد مناة بن كنانةَ، فقد عَدَوْا على خُزاعة، ونقضَ معهم العهدَ قريشٌ حيث أعانوهم على الخزاعيين.

وهذه المعاهدةُ وقعَ عهدُها في الحديبيةِ، والحديبيةُ بعضُها في الحرم، وبعضُها في الحلّ، وهذه الآيةُ تدلُّ على أن المعاهدةَ وقعت في الجانب الذي في الحرم، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ .

وقد أمَرَ اللهُ تعالى رَسُولَهُ وأصحابَه أنْ يستقيموا للمشركين إذا استقامَ المشركون لهم، أي: يَفُوا لهم بعهدهم إلى المدة التي عاهدوهم عليها، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ ويدخل في المتقين الذين لا ينقضون العهودَ، ويَفونَ بها، فالوفاءُ بالعهد وعدمُ نقضِهِ من تقوى الله تعالى.

٢- إذا ظهر الكفارُ على المؤمنين فلن يراعوا فيهم عهداً ولا قرابةً:

يقول اللهُ تعالى: كيف يكونُ للكفارِ عند الله وعند رسولِهِ عهد وهم إنْ يظهروا على المؤمنين ويغلبوهم يهينوهم، ولا يرقبون فيهم إلاًّ ولا ذمَّةً ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة:٨].

جنـــــة الســـــنة

المعنى: كيف وإن يغلبكم الكفارُ ويقهروكم ﴿لَا يَرْقُبُواْ﴾ لا يراعوا فيكم إلاًّ ولا ذمةً، والـ (إلّ) في لغة العرب القرابةُ والعهد، وقد اختار كبيرُ المفسرين أبو جعفر الطبري أنَّ الإلَّ شاملٌ للعهد والقرابةِ، وهذا من حمل المُشْتَرَكِ على معانيه.

ومعنى ﴿يَرْقُبُواْ﴾ يحفظوا ويراعوا، ﴿وَلَا ذِمَّةً﴾ العهدُ، وقوله: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ يعني: يبذلون لكم الكلامَ الحلوَ باللسانِ دون ما في القلوبِ، فالقلوبُ مليئةٌ بالبغضاءِ وإضمارِ العداوةِ والشحناءِ، وقوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ أي: وأكثرهم خارجون عن طاعةِ الله تعالى، وقال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾، لأنه أرادَ بالفسقِ هنا نقضُ العهد.

٣- اشتراءُ الكفارِ بآيات الله تعالى ثمناً قليلاً:

ذَمَّ اللهُ تعالى المشركين بقوله: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ [التوبة:٩]. والاشتراءُ في لغة العرب: استبدالُ شيء بشيء، وتُطلِقُ العربُ الثمنَ على العوضِ كائناً ما كان، وتسميه ثمناً وتطلقه على المبيع أيضاً، ومعنى: ﴿ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: استبدلوا بآياتِ الله الشرعيةِ، والمرادُ بها القرآنُ، أي: تركوها، وتعوَّضوا عنها الثمنَ القليلَ، والمرادُ بالثمنِ القليلِ الذي تعوَّضوه عنها متاعُ الحياةِ الدنيا الفاني.

وقوله: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ لأنهم اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، ومن اشترى بآياتِ الله ثمناً قليلاً فهو صادٌّ عن سبيل الله، وسبيلُ الله تعالى طريقُهُ، وهو دين الإسلام، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾﴾ وساءَ بمعنى بِئْس، أي: بئسَ شيءٌ كانوا يعملونه.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [التوبة:١٠]، أي: لا يرقبون في مؤمنٍ إلاًّ ولا ذِمَّةً، والإلّ والذمةُ: العهدُ والقرابةُ، أي: لا يرقبون الله، ولا يخافونَهُ في المؤمنينِ، فيتّقونَ الله فيهم.

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ المعتدي من العدوانِ، والعدوانُ مجاوزةُ الحدِّ، ومجاوزة ما أحلَّ الله إلى ما حَرَّم.

٤- إذا تابَ الكفارُ من كفرهم فهمْ إخوانُنا وإذا نقضوا عهودهم قاتلناهم وأدبناهم:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المشركين ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ [التوبة:١١].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المشركين إنْ تابوا عن كفرهم، وأقاموا الصلاةَ، وآتوا الزكاةَ فقد انتقلوا مِنَ الكفر إلى الإيمانِ، وبذلك يصبحون إخواننا في الدينِ، ولهم ما لنا، وعليهم ما علينا، وقولُهُ تعالى: ﴿وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: نفصِّل آياتِ القرآنِ، أي: نبيِّنها ونوضحها، ولا نتركها، وقوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ خصَّ اللهُ الذين يعلمون، لأنَّهم هم المنتفعون بها.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [التوبة:١٢]، الأيمانُ: جمع يمين، وهي العهودُ، وقيل: هي الأيمانُ التي تؤكَّد بها العهودُ، فالعربُ إذا أُخذتْ عليهم العهودُ أكَّدوها بالأيمان. والمراد أنَّ الكفارَ إذا نكثوا أيمانهم، وعابوا دينكم ﴿وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ كقولهم: إنَّ الإسلامَ ليسَ بشيءٍ، ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ﴾ أي: قاتلوا رؤساءَ الكفرِ وزعماءَه الذين عابوا دينكم، ونقضوا عهودَهُمْ، فالعادةُ أن الذي يتصدَّى لنقضِ العهودِ هم الزعماءُ والرؤساءُ. قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ نفى الأيمانَ عنهم، لأنهم لا يفونَ بها، فوجودُها عندهم كعدَمِها، لأنَّهم ينقضونها، فلا يجوزُ لنا أنْ نَغْتَرَّ بهذه الأيمان. وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: قاتلوهم، كي يكون قتالكم رادعاً لهم، وسَبَباً لانتهائهم عن نقضِ عهودهم.

وقولُه تعالى: ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [التوبة:١٣]

و﴿ أَلَا﴾ في أول الآية حَرْفُ تحْضيضٍ، والتحضيضُ معناه الطلبُ بشدة، طلب الله تعالى من المؤمنين بقوةٍ وشدة أنْ يقاتلوا الكفارَ، وهذا القتالُ لَهُ أسبابٌ متنوعةٌ، الأولُ: أنهم نكثوا أيمانهم. والثاني: أنهم همُّوا بإخراج الرسول ﷺ. والثالث: أنهم بدؤوا بالقتال في معركةِ بدرٍ، فالرسولُ ﷺ وأصحابه خرجوا للعير، فلما نجت أصَرَّ الكفارُ على الوصول إلى بدرٍ، فتعزفُ عليهم القيانُ، ويعاقرون الخمرَ، وقال بعضهم: لا نرجعُ حتى نستأصلَ محمداً وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ﴾ أي: أتخافونهم، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ﴾ اللهُ تعالى أحقُّ أن تخافوه وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ المراد بها تهييج المؤمنين على قتالِ الكفارِ.

وأمَرَ اللهُ تعالى في الآيتين الأخيرتين من هذا النص بقتال الكفارِ المشركين، ووَعَدنا ربُّنا سبحانه بأنْ يعذِّبهم بأيدينا، ويخزهم بقتلنا وأسرنا لهم، كما وعَدَنا ربُّنا سبحانه أنْ ينصرنا

جنـــــة السـنة

عليهم، ويشفيَ صدورَ المؤمنين الذين اضطهدهم الكفارُ وعذَّبوهم، ويذهبَ ما في صدورهم من الغيظ الذي حَلَّ في قلوبهم من الكافرين، ثم قال تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة:١٥] وعدنا سبحانه بأن يتوبَ الله على مَنْ يشاءُ، فقد آمن كثيرٌ من المشركين بعد فتحِ مكة وحَسُنَ إسلامهم، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ فعلمه تبارك وتعالى واسع كثيرٌ، وهو حكيمٌ سبحانه في أقوالِهِ وأفعالِهِ وتشريعه ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة:١٤-١٥].

رابعا: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المشركونَ لا يلتزمون بعهودِهم مع المسلمين، ويكثرون من نقضِ العهود.

٢- يجبُ على المسلمين أنْ يَفُوا للمشركين بالعهودِ التي أجْرَوْها معهم، ما التزم بذلك المشركونُ.

٣- إذا ظهر الكفارُ على المسلمين فإنَّهم لا يرقبون فيهم عهداً ولا قرابةً، يرضون المسلمين بمعسول القولِ، وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون.

٤- اشترى الكفارُ بآياتِ الله ثمناً قليلاً، وهو حُطامُ الدنيا الفاني، فصدُّوا الناسَ عن دينِ الله، فساء ما يعملون.

٥- إذا تابَ الكفارُ مِنْ كفرهم وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، فيصبحون إخواناً للمسلمين، وإن نقضوا عهودهم مع المسلمين، وطعنوا في دين المسلمين، فعلى المسلمين أن يقاتلوهم ويؤدبوهم، فإنَّ التزامهم بعهودهم قليلٌ، وعلينا أنْ نؤدبهم حتى ينتهوا من كفرهم.

٦- حضَّ اللهُ تعالى على قتالِ الكفارِ الناكثين لعهودهم الذين همُّوا بإخراجِ الرسولِ من دياره، وبدؤوا المؤمنين بالحربِ والقتالِ.

٧- نهى اللهُ تعالى الصحابةَ عن خشيةِ الكفارِ، وأمرهم بخشيتِهِ، والالتزام بطاعته إذا كانوا مؤمنين به.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثالث من سورة التوبة
الجهادُ في سبيلِ الله تعالى من أفضلِ الأعمال

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ -تعالى- لنا في آياتِ هذا النصِّ أنه يختبر المؤمنين بإيجاب الجهادِ عليهم، وتكليفهم بمعاداةِ الكافرين، ليظهرَ الذين يستحِقُّونَ فضلَ الله ورحمتِهِ، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الكفارَ لا يستحقونَ عمارةَ المسجدِ الحرام، فالكفرُ الذي تَلَبَّسُوا به يناقضُ تصديهم لعمارةِ المسجد الحرام، والذين يستحقونَ عمارةَ المسجد الحرام هم المؤمنون بالله واليوم الآخرِ، وهم المقيمونَ الصلاةَ والمؤتون الزكاةَ والذين لا يخشونَ أحداً إلاَّ الله.

وعتب الله على المؤمنينَ الذين جعلوا سقايةَ الحاجِّ وعمارةَ المسجدِ الحرام كمن آمنَ بالله واليومِ الآخر وجاهدَ في سبيلِ الله تعالى، وجعلَ الأجْرَ العظيمَ والفضلَ الكبيرَ للمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله تعالى بأموالهم وأنفسهم، وهؤلاء هم الذين يفوزون برحمةِ الله ورضوانِهِ وجناته، لهم فيها نعيمٌ مقيم، وهم فيها خالدونَ خلوداً أبدياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ
شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ
مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ
رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:١٦-٢٢].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سنة الله تعالى أن يبتليَ عبادَهُ بالجهادِ ليظهرَ الصادق من الكاذبْ:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- عباده أن يظنوا أن الله سيدخلهم الجنةَ من غير أنْ يبتليهم ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة:١٦].

﴿ أَمْ ﴾ هذه هي المنقطعةُ تأتي بمعنى: بل، والهمزة، الاستفهام في الآية للتوبيخ، ومعنى الآية، أظننتم أن الله يترككم من غير أنْ يختبركم بالمشاقِّ التي يظهر بها المطيعُ من العاصي، والمحقُّ من المبطل، ومن ذلك الاختبار بالجهاد في سبيل الله الذي تُعْرَضُ فيه المُهَج والأموالُ للتلف والضياع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ ﴾ [التوبة:١٦] هذه معطوفة على قوله: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ ، والوليجةُ: الشيءُ تُدْخِلُهُ في الشيءِ، والمراد بالوليجةِ هنا بطانةُ السوءِ، لأنهم يدخلون في المسلمين، وليسوا منهم، وهذا يؤدي إلى إفشاء أسرار المسلمين، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التوبة:١٦] الخبير أخصُّ من العالم، فالعربُ لا تكادُ تطلقُ الخبيرَ إلا على العالم بما من شأنه أن يخفى.

٢- ليس للكفارِ حقٌّ في عمارةِ مساجدِ الله شاهدين على أنفسهم بالكفر:

بيَّنَ اللهُ -تعالى- لنا أنَّه ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ [التوبة:١٧] وسببُ نزول هذه الآية افتخارُ قريشٍ بعمارةِ المسجدِ الحرام، فكانوا يقولون: هو بيتنا، ونحن أولياؤه، وهذا الذي يقولونه قولٌ باطل، ولا يصحُّ لهم أنْ يقولوه ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾ أي: ما يصح ولا ينبغي لهم أن يفعلوا ذلك، لأنَّ بيوتَ الله تعالى أُسِّسَتْ على طاعةِ الله، والتقرب إليه بما يرضيه، والكفار مشركون، أعمالهم باطلةٌ، و﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ فأفعالهم تشهد عليهم بالكفر، فقد كانوا يسجدون للأصنام، ويدعونها، ويذبحون لها من دون الله، ويشركون في التلبيةِ في الحجِّ، ويقولون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [التوبة:١٧].

جنـــــة السـنـة

قوله: ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ أي: بطلت واضمحلت، فهي لا تنفعهم يوم القيامةِ، قال تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، وقوله: ﴿وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ١٧﴾ أي: في يوم القيامة.

٣- الذين يعمرون مساجد الله حقاً وصدقاً:

بيَّن اللهُ تعالى أن الذين يستحقون أن يعمروا مساجدَ الله تعالى حقاً وصِدْقاً هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ولم يخشوا إلا الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٨﴾ [التوبة:١٨]. فالذي جمع هذه الصفات والأعمال هو الحقيقُ بعمارةِ المساجد، أمّا الكفارُ الذين خلوْا مما نصَّتْ عليه الآيةُ من الصفات فليسوا من المهتدين.

٤- أعمال العباد من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام لا تساوي الإيمان بالله والإيمان باليوم اخر:

روى مسلم عن النُّعمانِ بنِ بشيرٍ قال: كنت عند منبرِ رسولِ الله ﷺ، فقالَ رجلٌ: ما أُبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلام، إلاَّ أن أُسْقي الحاجَّ، وقال آخرُ: ما أُبالي أنْ لا أعملَ عملاً بعد الإسلام إلا أنْ أعْمُرَ المسجدَ الحرامَ، وقالَ آخر: الجهادُ في سبيل الله أفضلُ مما قلتم، فزَجَرَهُمْ عُمَرُ، وقال: لا ترْفَعُوا أصواتَكُمْ عندَ منبرِ رسولِ الله ﷺ، وهو يومُ الجمعة، ولكن إذا صلَّيْتُ الجمعةَ دخلْتُ فاسْتَفْتَيْتُهُ فيما اختلفتم فيه، فأنزلَ الله عز وجل: ﴿أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [التوبة:١٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ أيْ: لم يخفْ أحداً غير الله تعالى، فلا يخافون الأصنام والأوثانَ وما يعبد من دون الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى: ﴿ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ...﴾ الآية، فيها دلالةٌ على أنَّ الأعمالَ الصالحةَ تتفاوتُ فيما بينها، فسقايةُ الحاجّ وعمارةُ المساجدِ لا تساوي الإيمانَ بالله واليوم الآخر والجهادِ في سبيل الله، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [التوبة:١٩] أي: لا يهديهم إلى الحقِّ والصواب.

جنـــــة الســـــنة

٥- فضل المؤمنين الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله تعالى:

قال تعالى مبيِّناً فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [التوبة:٢٠].

أخبر اللهُ تعالى أنَّ أصحابَ الفضل العظيمِ عند الله عز وجل هم المؤمنون الذين هجروا ديارهم وأموالهم وجاهدوا في سبيل الله تعالى، فهؤلاء درجتهم أعظمُ الدرجاتِ عند الله، وهم الفائزون برضوان الله تعالى وجنَّته.

وهؤلاءِ الفضلاءُ الأخيار ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:٢١-٢٢].

بشَّرَ اللهُ تعالى المؤمنين المهاجرين المجاهدين بما يسرُّهم، ويُطمئن قلوبهم، بشَّرهم ربُّهم -تبارك وتعالى- برحمة منه وبرضوانِهِ، وبشَّرهم بجناتٍ لهم فيها نعيم مقيم دائم، والجناتُ التي بشَّر اللهُ تعالى بها البساتينُ الغناءُ، ذاتُ الظلالِ الوارفةِ، والقصورِ العالية، والأنهار الجارية، والزوجاتِ الحسان، والأشجارِ المثمرةِ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهلها بمنِّه وكرمه سبحانه وتعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النصِّ وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يختبرُ اللهُ عبادَهُ المؤمنين بتكليفهم بالجهادِ في سبيل الله تعالى ليعلمَ أهل الجنَّة.

٢- لا يستحقُّ الكفارُ القيامَ على عمارةِ مساجدِ الله، فكفرهم يناقضُ عمارةَ المساجد.

٣- الذين يستحقُّونَ القيامَ على عمارةِ المساجدِ هم المؤمنون بالله واليومِ الآخرِ والمقيمون الصلاة والمؤتون الزكاة، والذين يخشون اللهَ وحده.

٤- لا يستوي في حُكْمِ الله وشَرْعه سقايةُ الحاجِّ وعمارةُ المسجدِ الحرام والإيمانُ بالله واليومِ الآخر والجهادُ في سبيل الله، فالإيمانُ والجهادُ لهما الفضلُ الكبيرُ والأجرُ العظيمُ.

٥- المؤمنون المهاجرون المجاهدون في سبيلِ الله، أعظمُ درجة عند الله، وهم الفائزون، وقد بشَّرهم اللهُ برحمتهِ ورضوانهِ وجنانهِ خالدين فيها أبداً.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الرابع من سورة التوبة

نَهى اللهُ تعالى المؤمنين عن اتخاذِ الكافرين أولياء ولو كانوا أقرب الناس إليهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياءَ، ولو كانوا أقرب الناس إليهم، وامتنَّ اللهُ تعالى على المؤمنين بالنصر في مواقع كثيرة، ومن ذلك في غزوة حنين التي أعجبت فيها المؤمنين كثرتُهُم فيها، فهزموا، ثم أنزل اللهُ تعالى نصره على المؤمنين، وتابَ اللهُ تعالى على كفار هوازنَ وثقيفٍ بعد المعركة، فآمنوا وتابوا عن كفرهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى
ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ
وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم
مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ
﴿٢٤﴾ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ
عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ
سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾ ﴾ [التوبة:٢٣-٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ تعالى المؤمنين عن تولّي الكفارِ ولو كانوا أولي قربى:

نهى اللهُ تعالى المؤمنين أن يتخذوا آباءَهم وإخوانهم أولياءَ إن هم استحبوا الكفر على الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ [التوبة:٢٣] وهذا خطابٌ للمؤمنين جميعاً من أوّلِهِمْ إلى آخرهم، وهذا يدلُّ على قطع العلاقةِ بين المؤمنين والكافرين، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ﴾ أي: إن اختاروا الكفر

جنـــــة السـنة

وآثروه على الإيمان، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة:٢٣] ومعنى الظلم: وضعُ الشيءِ في غير موضعه، وأعظمُ الظلمِ الكفرُ والشركُ، كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤] وقال العبدُ الصالحُ لقمانُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣].

وقد أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ﴿إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤]. أمر اللهُ تعالى رسولَهُ أن يقول للمؤمنين الذين تخلَّفوا عن الجهاد: إن كان آباؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، والعشيرة قرابته الأدنون، ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، أي: اكتسبتموها، ﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، والتجارة: الأمتعة التي يشترونها ليربحوا فيها، والكساد: عدم نَفَاقِ هذه التجارةِ، لفواتِ وقت بيعها بالهجرةِ ومفارقةِ الأوطان.

والمراد بالمساكن التي يرضونها: المنازلُ التي تعجبهم وتميل إليها نفوسهم، ويرون الإقامةَ فيها أحبَّ إليهم مِنَ المهاجرة إلى الله ورسولِه.

وقوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ يقول الله عزَّ وجلَّ إذا كانت هذه الأشياءُ -أي التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية- أحبَّ إليكم مِنَ الله ورسولِهِ ومِنَ الجهاد في سبيله ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ هذا وعيدٌ شديدٌ لمن ارتكب هذه المخالفة، والتربُّصُ: الانتظارُ، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤] والمرادُ بالفاسقين الذين لا يهديهم اللهُ تعالى الذين سبق في علم الله أنهم لا يهتدون.

والآية السابقة هي كقوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقد جاء في الحديث عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليهِ من والِدِه وولَدِه والناسِ أجمعين» [البخاري: ١٥. ومسلم: ٤٤].

جنـــــة السـنة

وعن عبدالله بن هشام قال: كنا مع النبي ﷺ وهو آخِذٌ بيدِ عمر بن الخطاب، فقال له عمرُ: يا رسولَ الله لأنتَ أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفْسِكَ» فقال له عمرُ: فإنَّه الآنَ، والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبيُّ ﷺ: «الآنَ يا عمرُ» [البخاري: ٦٦٣٢].

٢- **نصر الله المؤمنين في حنين:**

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ﴾ [التوبة:٢٥] اللام في قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: والله لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرةٍ، كيومِ بدر، ويومِ الأحزاب، ويومِ خيبر، وفتحِ مكَّة، والمواطنُ جمع موطن، ومواطنُ الحربِ: مواقعها ومشاهدها.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥]، وحنينٌ وادٍ من أوديةِ تهامةَ بين مكة والطائف غير بعيد عن سوق ذي المجاز، وكان عددُ الصحابةِ في هذه الغزوةِ اثنيْ عشر ألفاً، عشرةُ آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار الذين حضروا فتح مكة، وألفان من مسلمةِ الفتحِ مِنَ الطلقاء.

وقد أعجبت المؤمنين في هذه الغزوةِ كثرتُهُمْ، فقالوا: لن نغلب في هذا اليوم من قلةٍ، وإعجابُ المجاهدين بكثرتهم وقوتهم سببٌ للهزيمة وتسلط الأعداءِ، ولذلك نبَّه اللهُ تعالى على هذا الخلل بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة:٢٥].

أخبرهم اللهُ -تعالى- أنه في ذلك اليوم أعجبتهم كثرتهم، فلم تغنِ عنهم شيئاً، فلما التقى الجيشان ولَّى جيش المؤمنين مدبرين في أولِ المعركة، وهذا ابتلاءٌ وامتحانٌ للمؤمنين، ليعلموا أنَّ النصرَ بيد الله تعالى وحده، وليس بكثرةِ العددِ والعُدَدِ، وقوله: ﴿ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ﴾ أي: فلِمَ تنفعكم شيئاً، وقوله: ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي: ضاقت عليكم الأرض مع سعتها ورُحْبها، والرُّحبُ الاتساع وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ أي: منهزمين.

جاء في صحيح مسلم عن إياس بن سلمة بن الأكوع، قال: حدَّثني أبي، قال: «غَزَوْنا مع رسولِ الله ﷺ حُنيناً، فلما واجَهْنا العدوَّ تقدَّمْتُ، فأعْلُو ثنيَّةً، فاستْقبلني رجلٌ من العدوِّ،

جنـــــة السـنة

فأرْميهِ بسهم، فتوارى عني، فما دَرَيْتُ ما صنع، ونظرتُ إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنيَّةٍ أخرى، فالتقوا هم وصحابةُ النبيِّ ﷺ ، فولَّى صحابةُ النبي ﷺ ، وأرْجِعُ مُنْهَزِماً، وعليَّ بُرْدَتانِ، مُتَّزِراً بإحداهما، مرتدياً بالأخرى، فاستطْلَقَ إزاري، فجَمعْتُها جميعاً، ومررتُ، على رسولِ الله ﷺ ، مُنهزِماً، وهو على بَغْلَتِهِ الشَّهْباءِ، فقال رسولُ الله ﷺ «لقد رأى ابنُ الأكْوَعِ فزعاً»، فلما غَشُوا رسولَ الله ﷺ نَزَلَ عن البَغْلَةِ، ثم قَبَضَ قَبْضَةً من ترابٍ من الأرضِ، ثم استقْبَلَ به وجوههم، فقال: «شاهَتِ الوجوهُ»، فما خَلَقَ اللهُ منهم إنساناً إلا ملأَ عينيهِ تراباً، بتلكَ القبضة، فولَّوْا مُدْبِرينَ، فهزمَهُمْ اللهُ عز وجل، وقَسَمَ رسولُ الله ﷺ غنائمَهُمْ بين المسلمينَ» [مسلم: ١٧٧٧].

٣- العباسُ بن عبدالمطلب يصف غزوة حنين وأحاديث أخرى في حنين:

أ- روى مسلم في صحيحه عن كثيرِ بنِ عباسِ بن عبدالمطلب، قال: قال عباسٌ: شَهِدْتُ مع رسولِ الله ﷺ يومَ حُنَيْنٍ، فلزِمْتُ أنا وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بن عبدالمطلب رسولَ الله ﷺ ، فلم نُفارِقْهُ، ورسولُ الله ﷺ على بَغْلَةٍ له بيضاءَ، أهْداها له فَرْوَةُ بنُ نُفاثةَ الجُذاميُّ، فلما التقى المسلمونَ والكفارُ، ولَّى المسلمونَ مُدْبِرينَ، فطَفِقَ رسول الله ﷺ يَرْكُضُ بَغْلَتَهُ قِبَلَ الكفارِ.

قال عباسٌ: وأنا آخِذٌ بلجام بَغْلَةِ رسولِ الله ﷺ ، أكُفُّها إرادةَ أنْ لا تُسْرِعَ، وأبو سفيانَ آخِذٌ بركابِ رسولِ الله ﷺ . فقالَ رسولُ الله ﷺ : «أي عبَّاسُ! نادِ أصحابَ السَّمُرَةِ». فقال عباسٌ (وكانَ رجلاً صَيِّتاً): فقلتُ بأعلى صوتي: أينَ أصحابُ السَّمُرَةِ؟ قال: فواللهِ ! لكأنَّ عَطْفَتَهُمْ، حينَ سَمِعُوا صوتي، عَطْفَةُ البقرِ على أولادِها، فقالوا: يا لَبَّيْكَ! يا لَبَّيْكَ! قال: فاقْتَتَلُوا والكفارَ، والدعوةُ في الأنصارِ، يقولون: يا معشرَ الأنصارِ! يا معشرَ الأنصارِ! قالَ: ثم قُصِرَتِ الدعوةُ على بني الحارثِ بنِ الخَزْرجِ، فقالوا: يا بني الحارثِ بن الخَزْرَجِ! يا بني الحارث بن الخزرجِ! فنظرَ رسولُ الله ﷺ وهو على بَغْلَتِهِ، كالمُتطاوِلِ عليها، إلى قِتالِهِمْ، فقالَ رسولُ الله ﷺ : «هذا حين حَمِيَ الوَطيسُ»، قال: ثم أخذَ رسولُ الله ﷺ حَصَياتٍ فرمى بهنَّ وُجوهَ الكفارِ، ثم قال: «انهَزَمُوا، وربِّ محمدٍ!»، قال: فذهبتُ أنْظُرُ فإذا القتالُ على هيئَتِهِ فيما أَرَى، قال: فواللهِ! ما هو إلا أنْ رماهُمْ بحَصَياتِهِ، فما زِلْتُ أَرَى حَدَّهُمْ كَليلاً وأمْرَهُمْ مُدْبِراً [مسلم: ١٧٧٥ (٧٦)].

ب- ورواه مسلم من طريق الزهريِّ، بهذا الإسناد، نحوَهُ. غير أنَّه قال: «انْهَزَمُوا، ورَبِّ الكَعْبَةِ! انهَزَمُوا، وربِّ الكعبةِ!» وزادَ في الحديث: حتى هزَمَهُمُ اللهُ، قال: وكأني أنظرُ إلى النبي ﷺ يَرْكُضُ خَلْفَهُمْ على بَغْلَتِهِ [مسلم: ١٧٧٥ (٧٧)].

جنـــــة السـنة

ج- وفي صحيحي البخاري ومسلم أن رجلاً قال للبراء: يا أبا عُمارةَ! أفرَرْتُم يومَ حُنينٍ؟ قال: لا واللهِ! ما ولَّى رسولُ الله ﷺ، ولكنَّهُ خرَجَ شُبَّانُ أصحابِهِ وأخِفَّاؤُهُم حُسَّراً ليسَ عليهِم سلاحٌ، أو كثيرُ سلاحٍ، فلقوا قوماً رُماةً لا يكادُ يسقطُ لهم سَهْمٌ، جَمْعَ هوازنَ وبني نَصْرٍ، فرَشَقُوهُمْ رَشْقاً ما يكادون يُخْطِئونَ، فأقبلوا هناك إلى رسولِ الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ على بَغْلَتِهِ البيضاءِ. وأبو سفيانَ بنُ الحارثِ بنِ عبدالمطلبِ يقودُ به، فنزَلَ فاسْتَنْصَرَ وقال:

«أنـــــا النَّبِــــيُّ لا كَـــــذِبْ أنــــا ابْــــنُ عَبْــــدِ المُطَّلِــــبْ»

ثم صَفَّهُمْ [البخاري: ٢٩٣٠. ومسلم: ١٧٧٦ (٧٨)].

د- وعن البَراءِ، وسألَهُ رجلٌ من قيسٍ: أفَرَرْتُمْ عن رسولِ الله ﷺ يومَ حُنَيْنٍ؟ فقال البراءُ: ولكنْ رسولُ الله ﷺ لم يَفِرَّ، وكانَتْ هوازِنُ يومئذٍ رُماةً، وإنَّا لَمَّا حَمَلْنا عليهِمْ انكشفوا، فأكْبَبْنا على الغنائمِ، فاسْتَقْبَلُونا بالسِّهامِ، ولقد رأيْتُ رَسولَ الله ﷺ على بَغْلَتِهِ البيضاءِ، وإنَّ أبا سفيانَ بنَ الحارثِ آخِذٌ بلجامِها، وهو يقولُ:

«أنـــــا النَّبِــــيُّ لا كَـــــذِبْ أنــــا ابْــــنُ عَبْــــدِ المُطَّلِــــبْ»

[البخاري: ٢٨٦٤. ومسلم: ١٧٧٦ (٨٠)].

هـ- وعن أبي قَتادةَ، قال: خَرَجْنا مع النبيِّ ﷺ عامَ حُنَينٍ، فلما التَقَينا كانت للمسلمينَ جَوْلَةٌ، فرأيتُ رجلاً من المشركينَ قد عَلا رجلاً من المسلمينَ، فضَرَبْتُه من ورائِه على حَبْلِ عاتِقِه بالسَّيفِ، فقَطَعْتُ الدِّرْعَ، وأقبَلَ عليَّ فضَمَّني ضَمَّةً، وجدتُ منها ريحَ الموتِ، ثم أدرَكَه الموتُ، فأرسَلَني، فلَحِقْتُ عمرَ بنَ الخطابِ فقلتُ: ما بالُ الناسِ؟ قال: أمرُ الله عزَّ وجلَّ، ثمَّ رَجَعُوا، وجَلَس النبيّ ﷺ، فقال: «مَنْ قَتَلَ قَتيلاً له عليه بَيِّنَةٌ، فلَه سَلَبُه» فقلتُ: مَنْ يشهَدُ لي؟ ثم جلستُ، قال: ثم قال النبيُّ ﷺ مِثلَه، فقُمْتُ فقلتُ: مَن يشهَدُ لي؟ ثم جلستُ، قال: ثم قال النبيُّ ﷺ مِثلَه، فقُمْتُ، فقال: «ما لكَ يا أبا قَتادةَ؟» فأخبرْتُه، فقال رجلٌ: صَدَقَ، وسَلَبُه عِنْدي، فأرضِهِ مني، فقال أبو بكرٍ: لا ها الله إذاً! لا يَعْمِدُ إلى أسَدٍ من أُسْدِ الله، يُقاتِلُ عن الله ورسولِه ﷺ، فيُعْطِيكَ سَلَبَهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «صَدَقَ، فأعطِه» فأعطانيه، فابْتَعْتُ به مَخْرَفاً في بني سَلِمةَ، فإنَّه لأوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْتُه في الإسلامِ [البخاري: ٤٣٢١، ومسلم: ١٧٥١].

و- وعن عُروةُ بنُ الزبيرِ، أن مروانَ والمِسْوَرَ بنَ مَخرَمةَ أخبراهُ: أنَّ رسولَ الله ﷺ قامَ حينَ جاءَه وَفْدُ هوازِنُ مُسلمينَ، فسألوه أنْ يَرُدَّ إليهم أموالَهم وسَبْيَهُم، فقال لهم رسولُ الله

جنــــة الســــنة

ﷺ: «مَعي مَنْ تَرَوْنَ، وأَحَبُّ الحديثِ إليَّ أصدَقُه، فاخْتاروا إحدى الطائفتينِ: إما السبْيَ، وإما المالَ، وقد كنتُ استأْنَيتُ بكُم» وكانَ أنظَرَهم رسولُ الله ﷺ بضْعَ عَشْرةَ ليلةً حينَ قَفَلَ من الطائفِ، فلما تَبيَّنَ لهم أنَّ رسولَ الله ﷺ غيرُ رادٍّ إليهم إلا إحدى الطائفتين، قالوا: فإنّا نختارُ سَبْينا، فقامَ رسولُ الله ﷺ في المسلمينَ، فأثْنى على الله بما هو أهلُه، ثم قال: «أما بعْدُ، فإنَّ إخوانكُم قد جاؤونا تائبينَ، وإني قد رأيتُ أنْ أرُدَّ إليهم سَبْيَهُم، فمن أحَبَّ منكم أنْ يُطيِّبَ ذلك فلْيَفْعَلْ، ومن أحَبَّ منكم أنْ يكونَ على حَظِّه حتى نُعْطِيَه إياه من أوَّلِ ما يُفِيءُ الله علينا، فلْيَفْعَلْ» فقال الناسُ: قد طَيَّبْنا ذلكَ يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنّا لا نَدْري من أذِنَ منكُم في ذلكَ ممَّن لم يأْذَنْ، فارجِعوا حتَّى يَرْفَعَ إلينا عُرَفاؤُكُم أمرَكُم» فرَجَعَ الناسُ، فكَلَّمَهم عُرَفاؤُهم، ثم رَجعوا إلى رسولِ الله ﷺ، فأخبَرُوه أنَّهم قد طَيَّبوا وأذِنُوا.

هذا الذي بَلَغني عن سَبْيِ هَوازِنَ [البخاري: ٤٣١٨- ٤٣١٩].

ز- وعن عبدالله بن زيدِ بن عاصم، قال: لمَّا أفاءَ الله على رسولِه ﷺ يومَ حُنَينٍ، قَسَمَ في الناس في المؤَلَّفةِ قُلُوبُهم، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فكأنَّهم وجدوا إذْ لم يُصِبْهم ما أصابَ الناسَ، فخَطَبَهم فقال: «يا معْشَرَ الأنصار، ألم أجِدْكُم ضُلاَّلاً فهَداكُم الله بي؟ وكنتُم مُتفرِّقينَ فألَّفكُم الله بي؟ وعالةً فأغناكُم الله بي؟» كلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أمَنُّ، قال: «ما يَمْنَعُكُم أنْ تُجيبوا رسولَ الله» قال: كلَّما قال شيئاً قالوا: الله ورسولُه أمَنُّ، قال: «لو شِئْتُم قلتُم: جئتَنا كذا وكذا: أترْضَوْنَ أنْ يَذهَبَ الناس بالشاةِ والبعيرِ وتَذْهَبونَ بالنبي ﷺ إلى رِحالِكُمْ؟ لولا الهِجْرةُ لكنتُ امرأً من الأنصار، ولو سَلَكَ الناسُ وادِياً وشِعْباً لَسَلَكْتُ واديَ الأنصار وشِعْبَها، الأنصارُ شِعارٌ، والناسُ دِثارٌ، إنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بَعْدي أثَرَةً، فاصْبِروا حتَّى تَلْقَوْني على الحوضِ» [البخاري: ٤٣٣٠. ومسلم: ١٠٦١].

ح- وعن أنسِ بنِ مالكٍ ﷺ، قال: قال ناسٌ من الأنصار حينَ أفاءَ الله على رسولِه ﷺ ما أفاءَ من أموالِ هوازِنَ، فطَفِقَ النبيُّ ﷺ يُعْطِي رجالاً المئةَ من الإبِلِ، فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ، يُعْطي قُرَيشاً ويَتْرُكُنا، وسُيوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهم، قال أنسٌ: فحُدِّثَ رسولُ الله ﷺ بمَقالتِهم، فأرسَلَ إلى الأنصار، فجَمَعَهم في قُبَّةٍ من أدَمٍ، ولم يَدَعْ معهم غيرَهُم، فلمَّا اجْتَمَعوا قامَ النبيُّ ﷺ فقال: «ما حديثٌ بَلَغَني عنكُم؟» فقال فُقَهاءُ الأنصار: أما رُؤَساؤُنا يا رسولَ الله، فلم يقولوا شيئاً، وأما ناسٌ مِنّا حديثةٌ أسنانُهم فقالوا: يَغْفِرُ الله لرسولِ الله ﷺ، يُعْطي قُرَيشاً ويَتْرُكُنا، وسُيوفُنا تَقْطُرُ من دِمائِهم. فقال النبيُّ ﷺ: «فإنِّي أُعْطي رِجالاً

جنـــــة السـنـــــة

حديثي عَهْدٍ بكُفرٍ أتألَّفُهم، أما تَرْضَوْنَ أنْ يَذهَبَ الناسُ بالأموال، وتَذْهَبونَ بالنبيِّ إلى رِحالكُم؟ فوالله لما تَنقَلِبونَ به خيرٌ ممَّا يَنقَلِبونَ به» قالوا: يا رسولَ الله قد رَضِينا، فقال لهمُ النبيُّ ﷺ: «سَتَجِدونَ أَثَرَةً شديدةً، فاصْبِروا حتى تَلْقَوُا الله ورسولَه، فإني على الحوضِ» [البخاري: ٤٣٣١].

ط- عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ قال: لَمَّا كانَ يومَ حُنَينٍ، أقبلَتْ هَوازِنُ وغَطَفانُ وغيرُهم بنَعَمِهم وذَرارِيِّهم، مع النبيِّ ﷺ عشرةُ آلافٍ ومن الطُّلَقاءِ، فأدبَروا عنه حتى بَقِيَ وحدَه، فنادى يومئذٍ نِداءَينِ لم يَخْلِطْ بينَهما، التَفَتَ عن يمينِه فقال: «يا معشرَ الأنصار»، قالوا: لَبَّيكَ يا رسولَ الله، أبشِرْ نحنُ مَعَكَ، ثم التَفَتَ عن يَساره، فقال: «يا معشرَ الأنصار»، قالوا: لَبَّيكَ يا رسولَ الله، أبشِرْ نحنُ مَعَكَ، وهو على بَغْلةٍ بيضاءَ، فنَزَلَ فقال: «أنا عبدُ الله ورسولُه» فانهزَمَ المشركونَ، فأصاب يومئذٍ غَنائمَ كثيرةً، فقَسَمَ في المهاجرينَ والطُّلَقاءِ، ولم يُعْطِ الأنصارَ شيئاً، فقالتِ الأنصارُ: إذا كانت شديدةٌ فنحنُ نُدْعَى، ويُعْطَى الغنيمةَ غيرُنا، فبَلَغَه ذلك، فجَمَعَهم في قُبَّةٍ، فقال: «يا معشرَ الأنصار، ما حديثٌ بَلَغَني عنكُم؟» فسكتوا، فقال: «يا معشرَ الأنصار ألا تَرْضَوْنَ أنْ يذهَبَ الناسُ بالدُّنْيا، وتَذْهَبونَ برسولِ الله ﷺ تَحُوزُونَه إلى بيوتِكُم؟» قالوا: بَلَى، فقال: النبيُّ ﷺ: «لو سَلَكَ الناسُ وادِياً، وسَلَكَتِ الأنصارُ شِعْباً، لأَخَذْتُ شِعْبَ الأنصارِ».

فقال هشامٌ: قلتُ: يا أبا حمزةَ، وأنتَ شاهدٌ ذاكَ؟ قال: وأينَ أغيبُ عنهُ؟ [البخاري: ٤٣٣٧. ومسلم: ١٠٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٦]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: أنزل على رسوله والمؤمنين معه السكينةَ، وهي الأمنةُ من الخوف، وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الجنودُ التي أنزلها اللهُ تعالى في حنين هي ملائكتهُ، ولم يكن المؤمنون يرونها، ولكنَّ الكفار رأوْها، وقوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [التوبة:٢٦]، المرادُ بالكفار الذين عَذَّبهم في حنين قبيلةُ هوازن، وقبيلةُ ثقيف. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [التوبة:٢٧]، أي: يتوبُ على من يشاءُ أن يتوب عليه، وقد آمن كثير مِنْ هؤلاء الذين حاربوا في حنين ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ أي: كثير الرحمة لعباده.

جنـــــة السـنــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لا يجوزُ للمؤمن أنْ يوالي أعداءَ الله تعالى إنْ هم اختاروا الكُفْرَ على الإيمان، فإنْ كانوا محاربين وجب قتالهم، وإن كانوا معاهدين مسالمين، فيجوز بِرُّهم والإحسانُ إليهم، ولكن لا تجوز محبَّتُهم ومناصرتُهُمْ.

٢- نَصَرَ الله تعالى المؤمنين في مواقع كثيرة، وقد أعجبت المؤمنينَ كثرتُهم في حنين، فهزموا، ثم أنزل تعالى نَصْرَهُ على المؤمنين.

٣- أنزل اللهُ تعالى على المؤمنين ملائكةً لم يروها، وأنزلَ عليهم السكينة والطمأنينة والثبات.

٤- تاب اللهُ تعالى بعد حنينٍ على كثيرٍ مِنَ الذين قاتلوا الرسولَ ﷺ وأصحابَه في حنينٍ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الخامس من سورة التوبة
المشركون نجس فيجب منعهم من الوصول إلى المسجد الحرام

أولاً: تقديم

أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أن المشركين نجسٌ، وأمرهم بمنعهم من قربان المسجد الحرامِ ابتداءً من السنة العاشرة من الهجرة، فلما خاف بعضُ المسلمين من أن يُضَيَّق عليهم في رزقهم، وعدهم ربُّ العزةِ أنْ يغنيهم مِنْ فضله.

وأمَرَ ربُّ العزة سبحانه وتعالى بقتال اليهودِ والنصارى حتى يعطوا الجزيةَ، وهم أذِلاَّء صاغرون. وذمَّ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى بكذبهم على ربِّ العزةِ، ودعواهم كذباً وزوراً أنَّ العزيرَ ابنُ الله والمسيحَ ابنُ الله، تعالى الله عما يقولون عُلُوّاً كبيراً.

وذمَّ اللهُ تعالى اليهودَ والنصارى في غُلُوِّهِمْ في أحبارهم ورهبانهم، فقد اتخذوهم أرباباً من دونِ الله، يُحِلُّون لهم الحرامَ فيتبعونهم فيحلونه، ويحرمون عليهم الحلالَ، فيتبعونهم فيحرمونه.

وبيَّن أنَّ الكفرةَ المشركين يقومون بحملاتٍ ظالمة لإطفاء نورِ الله بأفواههم، وبيَّن اللهُ تعالى أنَّ جهودهم ضائعةٌ مهدورةٌ، فالله متمُّ نوره، ولو كره الكافرون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾
قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ
ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ
عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ
قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا
وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة: ٢٨-٣٢].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- المشركون نجسٌ فلا يجوز لهم دخولُ المسجدِ الحرامِ بعد نزولِ هذه الآيات:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المشركين نَجَسٌ، فلا يجوز لهم دخولُ المسجدِ الحرامِ بعد العام الذي نزلت فيه هذه الآية، وهو سنةُ تسعٍ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾ [التوبة:٢٨].

وقد كانت هذه الآيةُ من الآيات التي نادى بها عليُّ بن أبي طالبٍ ومَنْ معه مِنَ المنادين بذلك في موسم الحجِّ سنةَ تسعٍ.

ونجاسةُ الكفارِ لشركهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم بالرسلِ والشرائعِ، ولتلبُّسِهم بالنجاسات، فقد كانوا يأكلون الميتةَ، ويأكلون الخنزيرَ، ويشربونَ الخمر، ولا يغتسلون مِنَ الجنابة، ونجاستهم نجاسة معنوية أيضاً، فقد كان الصحابة يخالطون المشركين واليهود والنصارى، وأكلَ الرسول ﷺ من طعام اليهود، فقد دعاه بعضِ اليهود، فأجابَ وأكلَ من طعامه، وأهدى له اليهودُ في خيبر شاةً مصليةً، وكانت مسمومةً، وأكل منها أحد أصحابه، فمات. والمرادُ بالمسجد الحرامِ الحرمُ كلُّه، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء:١]، وقد أُسْرِيَ بالرسول ﷺ من بيتِ أمِّ هانئ، لا مِنَ المسجدِ.

والصوابُ من القول: أنه لا يجوزُ دخولُ المشركين ولا اليهود ولا النصارى الحرم بعد العام التاسع.

٢- خاف المسلمون أنه إذا انقطع المشركون عن الحرم أنْ يقلَّ الرزقُ:

خاف المسلمونَ أنَّه إذا انقطع ورود المشركين الحرمَ أنْ تقلَّ الأرزاق، وتكثرَ الحاجةُ والفقرُ، فوعد اللهُ تعالى المؤمنين أن يغنيهم من فضله ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة:٢٨].

قال ابنُ كثيرٍ: «قال ابنُ إسحاقَ: قال الناسُ: لتنقطعنَّ عنَّا الأسواقُ، ولتهلكنَّ التجارةُ، وليذهبنَّ ما كنَّا نصيبُ فيها مِنَ المرافق، فنزلتْ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾» [ابن كثير: ٣/ ٣٧٢] ومَنْ نظر في أحوال المسلمين بعد نزول هذه الآية، وجد ديارَ المسلمين كثُرَ فيها الخيرُ والرزقُ والتجارةُ، بل أصبحت الدولةُ الإسلامية أغنى ديارِ العالمِ كلِّه. وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ العيلةُ: الفقرُ.

جنـــــة السـنة

٣- وجوبُ قتالِ اليهود والنصارى حتى يُعْطُوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون:

بعد أنْ منع اللهُ تعالى المشركين مِنْ قربان المسجدِ الحرامِ بعد نزولِ الآيةِ السابقةِ، أمر بقتال أهلِ الكتاب حتى يعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [التوبة:٢٩].

أمر اللهُ تعالى المؤمنين بقتالِ الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، واليهودَ والنصارى وإن اعترفوا بالله وأقرُّوا بيومِ القيامة، إلا أنَّهم كفارٌ، لأنَّهم اتخذوا الأرباب مع الله، واليهودَ كفروا بعيسى ومحمدٍ ﷺ، والنصارى كفروا بمحمدٍ ﷺ، وقوله: ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ أي: يوم القيامة، وقوله: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: لا يحرمون ما حرَّمه تعالى في كتابِهِ، بل يُحِلُّون ما حرَّم اللهُ، ويحرمون ما أحلَّ الله، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ وهو دين الإسلامِ.

وقوله: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٢٩﴾ ﴾ وهم اليهودُ والنصارى، ولذا فإن الرسولَ ﷺ أعدَّ جيشاً ضخماً في سنةِ تسعٍ تعداده ثلاثونَ ألفاً، وسار به إلى تبوكَ لحربِ الروم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ والجزية: ما يعطيهُ المعاهد على عهده، والجزيةُ تؤخذ مِنْ جميعِ الكفار كائناً مَنْ كان، ويدخلُ فيهم أهلُ الكتابِ والمجوسُ من غير العرب. وفي البخاري عن عبدالرحمن بن عوف «أنَّ رسولَ الله ﷺ أخذها من مجوس هجر» [البخاري: ٣١٥٧] وأورد البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمالٍ وزَّعه على الصحابة [البخاري: ٣١٥٨]. وهذا مذهب الشافعيِّ وأحمد في المشهور عنه، وقال أبو حنيفة: بل تؤخذ من جميعِ الأعاجم، سواء كانوا من أهل الكتاب أو مشركين، ولا تُؤْخذ مِنَ العربِ إلا من أهل الكتابِ [ابن كثير: ٣/ ٣٧٣].

وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ أي: وهم حقيرون ذليلون. والجزيةُ حقٌّ مالي يفرضه خليفةُ المسلمين يراعى فيه حالَ الذين يُفْرَضُ عليهم، فهو يختلفُ من مكان إلى مكان، ومن زمانٍ إلى زمان، وليس فيها حَدٌّ محدَّد شرعاً.

٤- افتراءُ اليهودِ على الله تعالى أنَّه اتخذ ولداً هو العزير وافتراءُ النصارى عليه أنَّه اتخذ عيسى ولداً:

مِنْ أقبح ما افتراه اليهودُ على الله تعالى أنَّه اتخذ العزيرَ ولداً، ومِنْ أعظم ما افتراه النصارى على الله تعالى أنَّه اتخذ عيسى ولداً ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى

جنـــــة الســـــنة

﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة:٣٠].

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: لا مُسْتَنَدَ لهم فيما افتروه وادَّعوه سوى افترائهم، وقوله: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: يشابهون قولَ الأممِ الضالةِ من قبل الذين ادعوا في بعض زعمائِهم أنهم أبناءُ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: لعنهم اللهُ تعالى، ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ كيف يُصْرَفُونَ عن الحقِّ.

٥- اتخاذُ اليهود والنصارى أحبارَهُمْ ورهبانهم أرباباً من دون الله:

أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ اليهودَ والنصارى اتخذوا أحبارَهُمْ ورهبانَهُمْ أرباباً من دون الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة:٣١] والمرادُ باتخاذهم أرباباً من دون الله تعالى متابعتهُمْ لهم في إحلالهم لما حرَّم اللهُ تعالى، وتحريم ما أحلّه، فعن عدي بن حاتم قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وفي عُنُقي صَليبٌ من ذهب، فقال: يا عديُّ اطرَحْ عنكَ هذا الوَثَن، وسمعتُهُ يقرأُ في سورة براءةٌ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قال: أما إنهم لم يكونوا يعبُدونَهُمْ ولكنَّهم كانوا إذا أحَلُّوا لَهُمْ شيئاً استحلُّوهُ وإذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموهُ [قال أبو عيسى: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرفُهُ إلا من حديث عبدالسلامِ بن حرب. وغُطَيْفُ بنُ أعْيَنَ ليسَ بمعروف في الحديث. وقال فيه محقق ابن كثير (٣/ ٣٧٥): حسن، وعزاه للترمذي والطبري، وقال: غطيف تابعه غير واحدٍ على عامة هذا المتن، ورمز له الألباني في صحيح الترمذي بالحسن].

والأحبارُ: العلماءُ. والرهبانُ: المتعبدون المنقطعون في الصوامع، وهو جمعُ راهبٍ، و﴿أَرْبَابًا﴾ جمع ربٍّ، لأنهم عبدوهم، والعبادةُ لا تنبغي إلا لله تعالى.

وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [التوبة:٣١] أي: ما أُمروا إلا ليعبدوا معبوداً واحداً، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يستحقُّ العبادة أحدٌ غيره ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ أي: تنزيهاً له أتمَّ تنزيهٍ عما يشركونه به شركَ ربوبيةٍ وشركَ طاعةٍ وعبادةٍ. وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة:٣١] وهذه الخاتمة من الآية تدلُّ دلالة صريحة على أن اليهود والنصارى مشركون.

جنـــــة السـنة

٦- عملُ الكفارِ على إطفاءِ نور الله بأفواهِهِمْ:

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة:٣٢]. أخبرنا سبحانه وتعالى أنَّ الكفارَ يريدون بما يورِدونه من أكاذيب، وما يفترونَهُ من أساطير أن يطفئوا نورَ الله، وهو القرآنُ، بأفواههم أي: بما يوردونه من شبهاتٍ وأكاذيب، ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ وقد زَعَمَ الكفارُ قديماً ولا يزالون أنَّ القرآنَ شِعْرٌ وسِحْرٌ وكهانةٌ وأساطيرُ الأولين، وزعموا أنَّه كذبٌ مفترى، ويأْبى اللهُ العظيمُ الكبيرُ الواسعُ سبحانه إلا أن يتمَّ نورَهُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: ولو كرهوا إتمامه.

وقد أتمَّ الله تعالى نورَهُ، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

والقرآنُ كالشمس، ولو نفخ البشرُ على الشمس ليطفئوا نورَها، فإنَّ أفواهُهم تبلى، وتنقطع أنفاسُهُمْ، وتبقى الشمسُ مضيئةً مشرقةً، وقد تكفَّل اللهُ بحفظِ هذا القرآنِ على مرِّ الزمانِ، وها هم أعداءُ الإسلام يمضون على مرِّ الزمان، وهم يُجْهِدُون أنفسَهُمْ في إزالة هذا القرآن وقَهْرِهِ، ولكنَّهم يذهبون ويزولون والقرآنُ باقٍ أبداً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- المشركون بما تَلَبَّسوا به من كُفْرٍ وشِرْك أنجاسٌ، فلا يجوزُ أن يقربوا المسجدَ الحرامَ بعد نزولِ هذه الآية، وقد بقيَ هذا معمولاً به من السنة العاشرة مِنَ الهجرة إلى اليوم.

٢- خافَ المسلمون إذا انقطع الكفارُ عن الوصولِ إلى مكة أن يُضَيَّقَ عليهم في رزقهم، فوعدهم اللهُ تعالى أن يغنيهم من فضله، وقد وسَّع اللهُ على المسلمين في مكةَ وغيرها مِنَ بلادِ الإسلامِ، فزاد الرزقُ، وكَثُرَ العطاءُ على مَرِّ التاريخ الإسلامي.

٣- يجب على المسلمين أن يقاتلوا اليهودَ والنصارى حتى يعطوا الجزيةَ عن يد وهم أذلاَّءُ.

٤- افترى اليهودُ والنصارى الكذبَ على الله تعالى، فزعم اليهودُ أنَّ عزيراً ابنُ الله، وزعم النصارى أنَ المسيحَ ابنُ الله تعالى، وكل ذلك كذبٌ على الله تعالى، فاللهُ واحد أحد فردٌ صمدٌ لم يلد ولم يولد.

٥- الكفارُ يبذلون أموالهم ويُورِدون شبههم ليبطلوا دينَ الإسلام، ويطفئوا القرآنَ، والله متمُّ نورِهِ، ولو كره الكافرون.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس من سورة التوبة
وَعَدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأن يظهر لهم دينهم على الدين كله

أولاً: تقديم

بَشَّرَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنه سيظهر دينَهُمْ على الدِّين كلِّه، وقد تحقَّقَ ذلك، ولا يزالُ يتحقق شيئاً فشيئاً، وذمَّ اللهُ علماءَ اليهودِ ورهبانَ النصارى لأكلهم أموالَ الناس بالباطلِ، وصدِّهم الناسَ عن الإيمان، وكنزِهمْ الذهبَ والفضةَ وعدم إنفاقها في سبيل الله، وحذَّرَنا ربُّنا من عدم إخراج زكاةِ أموالنا، فيكون ذلك سبباً لعذابنا بتلك الأموالِ يوم القيامة.

وأخبرنا العزيزُ العليمُ سبحانه أنَّه جعلَ عِدَّة الشهورِ عنده يوم خلق السمواتِ والأرضَ اثني عشر شهراً منها أربعة حرمٌ لا يجوز ابتداءُ القتال فيهنَّ، وذمَّ اللهُ تعالى أهل الجاهلية بتلاعبهم فيما حرَّمه الله تعالى من الأشهرِ الأربعةِ، فقد كانوا يُحرِّمون الشهرَ الحرام عاماً، ويحلونه عاماً، وقد استدارَ الزمانُ في حجّة الوداعِ كهيئته يوم خَلَقَ السمواتِ والأرضِ، فعاد الزمانُ على هيئتِهِ الصحيحةِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [التوبة:٣٣-٣٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إظهارُ الله تعالى دينَ الإسلامِ على الدينَ كلِّه:

وَعدَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يظهر هذا الدين على الدينِ كلِّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة:٣٣].

جنـــــة السـنـة

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه أرسل رسولَهُ محمداً ﷺ بالهدى، وهو القرآنُ ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الإسلامُ، ليظهرَهُ، أي: ليظهرَ الإسلامَ على الدين كلِّه، أي:.ليرفعه ويُعْلِيَهُ على جميع الأديان.

وهذه الآية تتضمَّنُ بشرى عظيمةً صادرةً من ربِّ العزةِ تبارك وتعالى، وقد جاءَت أحاديث صحيحة كثيرة تؤكِّد الآيةَ وتوضِّحها، وقد افتتح شيخُنا الشيخ محمد ناصر الدين الألباني سلسلةَ الأحاديث الصحيحة بأربعة أحاديث من هذه الأحاديث المبشراتِ، هُنَّ:

الحديث الأول: «إنَّ اللهَ زَوَى (أي: جَمَعَ وضَمَّ) لِيَ الأرْضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمتَّي سَيَبْلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها» الحديث [رواه مسلم (٨/ ١٧١) وأبو داود (٤٢٥٢) والترمذي (٢/ ٢٧) وصححه وابن ماجه (رقم ٢٩٥٢) وأحمد (٥/ ٢٧٨ و٢٨٤) من حديث ثوبانَ، وأحمد أيضاً (٤/ ١٢٣) من حديث شدادِ بن أوس إن كان محفوظاً].

الحديث الثاني: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمْرُ ما بَلَغَ الليلُ والنهارُ، ولا يترُكُ اللهُ بيتَ مَدرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدْخَلَهُ اللهُ هذا الدينَ، بعِزِّ عزيزٍ، أوْ بذُلِّ ذليلٍ، عِزّاً يُعِزُّ اللهُ به الإسْلامَ، وذُلاًّ يذلُّ به الكفرَ» [رواه جماعة ذكرتهم في «تحذير الساجد» (ص١٢١). ورواه ابن حبان في صحيحه (١٦٣١، ١٦٣٢) وأبو عروبة في «المنتقى من الطبقات» (٢/ ١٠/ ١) ومما لا شكَّ فيه أن تحقيقَ هذا الانتشار يستلزم أنْ يعود المسلمونَ أقوياءَ في معنوياتهم ومادياتهم وسلاحهم، حتى يستطيعوا أن يتغلبوا على قوى الكفر والطغيان].

الحديث الثالث: عن أبي قبيل قال: كنا عندَ عبدالله بن عمْرِو بنِ العاص، وسُئِلَ أيُّ المدينتين تُفْتَحُ أولاً: القُسْطنطِينيَّةُ، أو روميَّةَ؟ فدعا عبدُالله بصندوقٍ له حَلَقٌ، قال: فأخْرَجَ منه كِتاباً، قالَ: فقالَ عبدالله: بينما نحنُ حولَ رسولِ الله ﷺ نَكْتُبُ، إذْ سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ المدينتينِ تُفْتَحُ أولاً قُسْطَنطينيةُ أو رومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينةُ هِرقلَ تُفْتَحُ أولاً»، يعني قُسطنطينية [رواه أحمد (٢/ ١٧٦) والدارميُّ (١/ ١٢٦) وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤٧/ ١٥٣/ ٢)، وأبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (١١٦/ ٢)، والحاكم (٣/ ٤٢٢ و٤/ ٥٠٨) وعبدالغني المقدسي في «كتاب العلم» (٢/ ٣٠/ ١) وقال: «حديثُ حسنُ الإسنادِ» وصحَّحَهُ الحاكم ووافقه الذهبي وهو كما قالا].

و(روميَّةُ) هي روما كما في «معجم البلدان»، وهي عاصمة إيطاليا اليوم.

وقد تحقَّق الفتحُ الأولُ على يد محمدٍ الفاتح العثمانيِّ كما هو معروفٌ، وذلك بعد أكثر من ثمانمئة سنةٍ من إخبارِ النبيِّ ﷺ بالفتح، وسيتحققُ الفتحُ الثاني بإذن الله تعالى ولا بد، ولتعلمن نبأه بعد حين.

ولا شك أيضاً أنَّ تحقيق الفتح الثاني يستدعي أن تعود الخلافة الراشدة إلى الأمةِ المسلمة.

جنـــــة الســـــنة

الحديث الرابع: «تكونُ النبوةُ فيكُمْ ما شاءَ اللهُ أن تكونَ، ثم يرْفَعُها اللهُ إذا شاءَ أن يرْفَعَها، ثم تكونُ خِلافة على مِنْهاجِ النبوةِ، فتكونُ ما شاءَ اللهُ أن تكونَ، ثم يَرْفَعُها إذا شاءَ أن يرْفَعَها، ثم تكونُ مُلْكاً عاضّاً فيكونُ ما شاءَ اللهُ أنْ تكونَ، ثم يرْفَعُها إذا شاءَ اللهُ أن يرْفعها، ثم تكونُ مُلْكاً جَبْرِيّاً، فتكونُ ما شاءَ اللهُ أنْ تكونُ، ثم يرْفعُها إذا شاءَ أن يرْفعُها، ثم تكونُ خِلافةٌ على مِنْهاجِ النُّبُوَّةِ، ثم سَكَتْ» [رواه أحمدُ (٤/ ٢٧٣) حدثنا سليمان بنُ داود الطيالسيُّ حدثنا داودُ بن إبراهيم الواسطي حدثنا حبيبُ بن سالم عن النعمان بن بشير قال: كنا قعوداً في المسجد، وكان بشيرٌ رجلاً يَكَفُّ حديثَه، فجاءَ أبو ثعلبة الخشني فقال: يا بشيرُ بنَ سعدٍ أتحفظ حديث رسول الله ﷺ في الأمراء؟ فقال حذيفة: أنا أحفظ خطبتَه، فجلس أبو ثعلبة، فقال حذيفةُ: فذكره مرفوعاً، قال حبيب: فلما قام عمر ابن عبدالعزيز، وكان يزيدُ بنُ النعمان بن بشير في صحابته، فكتبت إليه بهذا الحديث أُذكِّره إياه، فقلت له: إني أرجو أني يكون أميرُ المؤمنين -يعني عمر- بعد الملكِ العاضِّ والجبريةِ، فأدخل كتابي على عمر بن عبدالعزيز فَسُرَّ به وأعجبه. ومن طريق أحمد رواه الحافظ العراقي في «محجة القرب إلى محبة العرب» (١٧/ ٢) وقال: «هذا حديث صحيح، وإبراهيم بن داود الواسطي وثَّقَهُ أبو داود الطيالسي وابنُ حبان، وباقي رجاله محتجٌّ بهم في الصحيح» يعني صحيح مسلم].

الحديثُ الخامسُ: «لا تقوم الساعة حتى تعودَ أرضُ العربِ مروجاً وأنهاراً» [رواه مسلم (٣/ ٨٤) وأحمد (٢/ ٣٠٧ و٤١٧) والحاكمُ (٤/ ٤٧٧) من حديث أبي هريرة].

وقد بدأتْ تباشيرُ هذا الحديثِ تتحقق في بعض الجهات من جزيرة العربِ بما أفاض الله عليها من خيراتٍ وبركاتٍ وآلاتٍ ناضحاتٍ تستنبطُ الماءَ الغزير من بطن أرضِ الصحراء.

هذا ومما يجب أنْ يعلم بهذه المناسبة أنَّ قوله ﷺ: «لا يأتي عليكُمْ زمانٌ إلاَّ والذي بَعْده شَرٌّ منه حتَّى تَلْقوا ربَّكُمْ». رواه البخاري في «الفتن» من حديث أنس مرفوعاً.

فهذا الحديث ينبغي أن يفهم على ضوء الأحاديث المتقدمةِ وغيرها مِثلَ أحاديثِ المهديِّ ونزول عيسى ﵇، فإنها تدلُّ على أنَّ هذا الحديثَ ليس على عمومه، بل هو مِنَ العامِّ المخصوصِ، فلا يجوزُ إفهامُ الناس أنَّه على عمومه، فيقعُوا في اليأْسِ الذي لا يصح أن يتصف به المؤمن ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف:٨٧]. أسأل الله أن يجعلنا مؤمنين به حقاً.

٢- ذمَّ اللهُ تعالى كثيراً من الأحبار والرهبان بأكلهم أموالَ الناس بالباطل:

ذمَّ اللهُ تعالى كثيراً من الأحبارِ والرهبان بأكلهم أموالَ الناس بالباطل، وصدِّهم الناسَ عن دينِ الله تعالى، وكنزهِمْ الذهبَ والفضةَ وعدم إنفاقهم إياها في سبيل الله تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ

جنــــة السـنة

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ ﴾ [التوبة:٣٤].

وهذه الآيةُ تُصَغِّر هؤلاءِ الأحبارَ والرهبانَ في أعين المؤمنين، فأكْثَرُ الأحبارِ والرهبانِ فاسدون، ومقاصدُهُمْ فاسدةٌ، وأعمالُهُمْ مدخولَةٌ، فهم يجترئون على أكل أموالِ الناس بالباطل، فيأخذون الرُّشا، وبلغَ الحال بالكنيسة إلى بيع الناسِ أراضي الجنَّة وبيوتها وقُصورها، وذمَّ اللهُ تعالى الأحبارَ والرهبانَ بأنهم يمنعون الناسَ عن الدخول في دين الله تعالى، ويكنزون الأموالَ التي يجمعونها من الناسِ، أي: يخفونها، ولا ينفقونَ منها في أعمالِ الخير، ولا يعطون ذوي الحاجات، وقد أمرنا ربُّنا أن نُبَشِّرَ هؤلاءِ بالعذابِ الأليم.

وقد حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن العذابِ الأليمِ الذي يصيبهم في يوم الدين، فقال: ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [التوبة:٣٥].

وهذه الآية تدلُّ على أنَّ أصحاب الأموال الذين لا يؤدون زكاة مالهم يعذبون بأموالهم يوم القيامة، إذ يُحْمى ذهبُهم وفضتهم في نار جهنم ثم تكوى به جباههم وجنوبُهُمْ وظهورُهُمْ ويقالُ لهم: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

والصحيحُ مِنَ القول: أنَّ المالَ الذي تُخرجُ زكاتُه لا يدخلُ في الكنز، ولا يُسمَّى كنزاً، لقوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. وقد جاءت الأحاديث مُبيِّنةً كيف يعذَّبُ كانزُ المالِ بكنزه يومَ القيامة، فعن أبي هريرةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «ما من صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ، لا يؤدِّي منها حقَّها، إلاَّ إذا كانَ يومُ القيامةِ، صُفِّحَتْ له صفائحُ من نارٍ، فأُحْمِيَ عليها في نارِ جهنَّمَ، فيُكْوَى بها جَنْبُهُ وجَبينُهُ وظَهْرُهُ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ له في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضى بينَ العبادِ، فيُرى سَبيلُهُ، إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالإبلُ؟ قالَ: «ولا صاحبُ إبلٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، ومن حقِّها حَلْبُها يومَ وِرْدِها، إلا إذا كانَ يومُ القيامةِ، بُطِحَ لها بِقاعٍ قَرْقَرٍ، أَوْفَرَ ما كانت، لا يَفقِدُ منها فصيلاً واحداً، تطَؤُهُ بأخْفافِها وتَعَضُّهُ بأفواهِها، كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليهِ أُخْراها[1]، في

(١) قوله: كلما مرّ عليه أولاها رد عليه أخراها، هو تغيير وتصحيف والصواب ما ورد في الرواية (٩٨٧) (٢٧): كلما مضى عليه أخراها ردت عليه أولاها. انظر شرح صحيح مسلم للنووي ٧/ ٦٥.

جنـــــة السـنة

يوم كان مِقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العبادِ، فيُرَى سبيلُهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالبقرُ والغنمُ؟ قال: «ولا صاحبُ بقرٍ ولا غَنَمٍ لا يؤدِّي منها حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامةِ بُطِحَ لها بقاعٍ قَرْقَرٍ، لا يفقِدُ منها شيئاً، ليس فيها عَقْصاءُ ولا جلْحاءُ ولا عَضْباءُ تَنْطِحُهُ بقرونِها وتَطَؤُهُ بأظْلافِها، كلما مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أُخْراها(١)، في يومٍ كان مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بينَ العباد، فيُرى سبيلُهُ إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ».

قيلَ: يا رسولَ الله! فالخيلُ؟ قال: «الخيل ثلاثةٌ: هي لرجلٍ وِزْرٌ، وهي لرجلٍ سِتْرٌ، وهي لرجلٍ أجرٌ، فأما التي هي له وِزْرٌ، فرجلٌ رَبَطها رِياءً وفخْراً ونِواءً على أهلِ الإسلام، فهيَ له وِزْرٌ، وأما التي هي له سِتْرٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله، ثم لم يَنْسَ حقَّ الله في ظُهورِها ولا رِقابِها، فهي له سِتْرٌ، وأما التي هي له أجرٌ، فرجلٌ رَبَطَها في سبيلِ الله لأهلِ الإسلام، في مَرْجٍ وروضةٍ، فما أكلتْ من ذلك المرجِ أو الروضةِ من شيءٍ إلا كُتِبَ له، عددَ ما أكَلَت، حسناتٌ، وكُتِبَ له عددَ أرْواثِها وأبْوالِها، حسناتٌ، ولا تقْطَعُ طِوَلَها فاسْتَنَّتْ شَرَفاً أو شَرَفَيْنِ إلا كَتَبَ اللهُ له، عددَ آثارِها وأرْواثِها، حسناتٍ، ولا مرَّ بها صاحِبُها على نهرٍ فشَرِبَتْ منه ولا يريدُ أن يَسْقِيَها، إلا كَتَبَ اللهُ له، عَدَدَ ما شَرِبَتْ، حسناتٍ».

قيل: يا رسولَ الله! فالحُمُرُ؟ قال: «ما أُنْزِلَ عليَّ في الحُمُرِ شيءٌ إلا هذه الآيةُ الفاذَّةُ الجامِعَةُ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧-٨]» [مسلم:٩٨٧].

٣- عدة الشهور في كتاب الله تعالى اثنا عشر شهراً منها أربعةٌ حرم:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بحقيقةٍ علميةٍ كونيةٍ ماضيةٍ منذ بدءِ الخليقةِ وإلى اليوم، وهي أنَّ عدة الشهورِ عند الله اثنا عشر شهراً منذ خلقَ السمواتِ والأرضِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

(١) المصدر السابق.

جنـــــة السـنة

والمرادُ بالشهور الاثنا عشر الشهورُ القمريةُ، وهي المحرَّمُ وصفرُ وربيعُ الأول وربيع الثاني وجمادى الأول وجمادى الثاني ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة، وقوله تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمِهِ، وقوله: ﴿فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: هذه العدَّةُ على هذا النحو كائنةٌ منذ خلْقِهِ تعالى السموات والأرضِ وقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ هي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين شهري جمادى وشعبان، وهذه الأشهر الأربعةُ ثلاثةٌ منها متتابعةٌ متواليةٌ، وهي ذو القعدة، وذو الحجة والمحرَّمُ، وشهرٌ فردٌ، وهو شهرُ رجب.

وقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ تحريمَ القتال في هذه الأشهر الأربعةِ منسوخ، لأن اللهُ تعالى نهانا أنْ نظلم فيها أنفسنا، وأمرنا بقتال المشركين كافة كما يقاتلوننا كافة ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة:٣٦] واحتجَّ مَنْ ذهب هذا المذهبَ بقتالِ الرسول ﷺ في شهرِ شوَّالٍ، فلما كَسَر الرسولُ ﷺ هوازن واستفاءَ أموالهم، ورجعَ فَلُّهُمْ فلجؤوا إلى الطائفِ، عمدَ إلى الطائف فحاصرها أربعين يوماً، وانصرف ولم يفْتحها، فثبتَ أنه حاصرها في الشهر الحرام، شهر ذي القعدة، ففي حديث أنس: «ثم انطلقنا إلى الطائفِ فحاصرناهم أربعين ليلةً، ثم رجعنا إلى مكة فنزلنا» [مسلم: ١٠٥٩].

والصوابُ مِنَ القولِ: أن القتالَ في الأشهرِ الحرم لم يُنْسَخْ لقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] وقوله: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:١٨٤].

وما احتجَّ به الذين قالوا بالنسخ من أنَّ الرسولَ ﷺ قاتلَ أهل الطائف، فإن قتالهم كان من تتمة قتالِ هوازن وأحلافها من ثقيف، فإنَّهم هم الذين ابتدؤوا القتالَ، وجمعوا الرجالَ، ودعوا إلى الحربِ والنزالِ، فحاربهم الرسولُ ﷺ. وهزمهم، فلما تحَصَّنُوا بالطائفِ ذهب لينزلهم من حصونهم.

ويدلُّ لصحةِ هذا القول باستمرار حُرْمة الأشهر الأربعة قولُ الرسول ﷺ في يوم النحر عام حجة الوداع قبل وفاته بثمانين يوماً: «فإنَّ دِماءَكُمْ وأَموالَكُمْ وأَعْراضَكُمْ عليكم حرام، كحُرمةِ يومِكُمْ هذا في بَلَدِكُمْ هذا، في شَهْرِكُم هذا» [البخاري: ١٧٣٩] فقوله: «في شهركم هذا» أي: الشهرُ الحرام، وقوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا

جنـــــة السـنة

﴿يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗ﴾ [التوبة:٣٦]، أمر اللهُ تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أنْ يقاتلوا جميعَ المشركينَ كما يقاتل المشركون جميعاً المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة:٣٦] أي: مع المتقين العاملين بطاعته المبتعدين عن معصيته، وهو معهم بنصره وتأييده.

٤- **النسيءُ زيادةٌ في الكفر:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن النَّسِيءَ زيادةٌ في الكفرِ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾ [التوبة:٣٧].

والنسيءُ الذي هو زيادة في الكفر ما كان يفعله أهْلُ الجاهلية ظلماً وعدواناً بتأخيرِهم حرمةَ الشهرِ الحرام إلى صفر وإحلالِهم القتالَ في المحرَّم، ليوافقوا عِدَّةَ ما حرَّم الله تعالى في عدّ الأشهر الحرم أربعة، ولكنَّهم في واقع الحال يُحِلُّون ما حَرَّم اللهُ، وهو القتالُ في شهرِ الله المحرَّمِ، ويحرمون القتالَ فيما لم يحرم القتال فيه، وهو صفر.

وقد كان أهلُ الجاهليةِ كُفَّاراً، فجاؤوا بالنسيءِ، فازدادوا كفراً، وقد كان أهل الجاهلية يأتون أحَدَ رجالهم، وهو جنادةُ بنُ عوف إذا صَدَرُوا من مِنَى في حَجِّهم، فيقومُ، ويقول: أنا الذي لا أُجابُ ولا أُعابُ، ولا مردَّ لما أقول هذا العام، قد أَخَّرتُ عنكم حرمةَ المحرمِ إلى صفر فقاتلوا في المحرم، ثم حرّموا مكانه صفراً، ويأتي في العام القابل ويقول مثل مقالته: أنا الذي لا أُجاب ولا أُعاب، ولا مردّ لما أقول، قد حرّمت هذا العام محرماً وأبحت صفراً، كما هي العادة، فيحلُّ لهم المحرّم عاماً ويحرّم مكانه صفراً، ويحرّم المحرم عاماً ويترك الأشهر على حالها(١). وهذا موافق لقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا﴾ وموافق لقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧] [العذب النمير: ٥/ ٤٩٣].

وعن أبي بكرة أن الرسولَ ﷺ قال في ذلك العام: «الزمانُ قد استدارَ كهيئَتِه يومَ خَلَقَ السموات والأرضَ، السنةُ اثنا عَشَرَ شهراً، منها أربعةٌ حُرُمٌ: ثلاثةٌ مُتوالياتٌ: ذو القَعْدِة وذو الحِجّةِ والمُحَرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرَ، الذي بينَ جُمادى وشَعْبانَ» [البخاري: ٣١٩٧].

(١) وقد قدر ربُّ العزَّة -سبحانه وتعالى- أن يعودَ الزمان في العام الذي حجَّ فيه الرسول ﷺ حجَّة الوداع كهيئته يوم خلق السموات والأرض.

جنـــــة السـنـــة

وقولُهُ تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي: يوافقوا عِدَّةَ الأشهرِ التي حرَّمها اللهُ تعالى، فيبقوا عِدَّةَ الأشهر الحرمِ أربعةً، ولكنَّهم ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وذلك بإحلالهم القتالَ في شهر الله المحرَّم، وتحريمهم القتالَ في صفر، وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ﴾ [التوبة:٣٧] أي: زَيَّن لهم الشيطان أعمالَهم الضالَّةَ الفاسدةَ المخالفةَ لدين الله وشرعِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة:٣٧] أي: القومَ المصرِّينَ على الكفر والضلالِ، أيْ: لا يهدي قلوبهم إلى الإيمانِ، أما الهداية إلى الحقِّ بمعنى الدلالة إلى الحق، فقد نصبها اللهُ للناس جميعاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذ النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- في الآية الأولى من هذا النصِّ بشارةٌ عظيمةٌ للأمة الإسلامية، وهي إرسال الله رسولَه ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلِّه، وقد تحقَّقَ وعدُ الله تعالى، ولا تزال له بقية تتحق شيئاً فشيئاً على مرِّ العصور.

٢- كثيرٌ من الأحبار والرهبان فاسدونُ ضالُّون، وقد ذمَّهم ربُّ العزَّة بأكلهم أموالَ الناس بالباطلِ، ومَنْعِهم الناسَ مِنَ الدخولِ في دينِ الإسلامِ، وكنزهم الذهبَ والفضةَ، وعدم إنفاقها في سبيل الله.

٣- الذي يكون له مالٌ ولا يؤدِّي زكاة ماله، يُعذَّبُ بذلك المالِ سواءً كان ذهباً أو فضة، أو ماشيةً، أو حبوباً وثماراً.

٤- جعل اللهُ تعالى عدة شهورِ السنة عندما خلق السماوات والأرضِ اثني عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حرمٌ، أي: لا يجوز القتال فيها.

٥- الأشهرُ الحرمُ الأربعة التي لا يجوز القتال فيها لم تنسخ على الصحيح من أقوالِ أهل العلم، وستبقى حرمتها إلى قيامِ الساعةِ.

٦- يجوزُ أن نقاتلَ المشركين في الأشهر الحرم إذا بدؤونا هم بالقتالِ.

٧- أوْجَب اللهُ على المسلمين قتالَ المشركين كافةً إذا كان في المسلمين قُدْرَةٌ على قتالِ المشركين.

جنـــــة الســـــنة

٨- تلاعبَ أهلُ الجاهليةِ في حرمةِ الأشهرِ الحرمِ، فكانوا يُحِلُّون القتالَ في المُحرَّمِ الشهرِ الحرامِ، ينقلون حرمةَ القتالِ فيه إلى شهرٍ صفرٍ، وفي العام التالي يلتزمون بترك القتالِ في المُحرَّمِ وإحلاله في صفر، وهذا من التلاعب في دين الله تعالى.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السابع من سورة التوبة
معاتبةُ ربِّ العزة المؤمنين لتثاقُلِهمْ عن الجهاد

أولاً: تقديم

لامَ اللهُ تعالى من تباطأ عن الجهاد في غزوةِ تبوك، وتهدَّد الذين تخلَّفوا عن النفير بالعذابِ الموجعِ المؤلم، وتهددَّهم بالذهابِ بهم والإتيانِ بغيرهم، وأعلمهم أنه قادرٌ على نصر رسولِهِ من غير حاجةٍ إليهم، كما نصره في الهجرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٣٨-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- معاتبةُ الله تعالى صحابةَ رسولِه ﷺ في تثاقلِ بعضِهم عن الجهادِ:

نزلت الآيةُ الأولى من هذا النص بعدما استنفرَ الرسولُ ﷺ أصحابَهُ للخروج لغزوِ الروم في غزوةِ تبوك، فتثاقلوا، فقالَ اللهُ تعالى معاتباً لهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨].

نادى اللهُ تعالى في هذه الآية المؤمنين، فقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ﴾، أي: ما لكم إذا دعيتم إلى الجهادِ

جنـــــة السـنة

في سبيل الله ﴿ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي: تكاسلتم ومِلْتم إلى المقامِ في الدَّعةِ والخَفْضِ وطيبِ الثمارِ، والتثاقلُ: التكاسلُ، والتباطؤُ والتقاعسُ عن الخروجِ إلى الجهاد.

وقد عاتبَ اللهُ تعالى المؤمنين ولامهم بقوله: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ قال اللهُ تعالى لهم: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ أي: أرضيتم بالحياةِ الدنيا بدلَ الآخرة، والهمزةُ في قوله: ﴿أَرَضِيتُم﴾ همزةُ إنكار، لأن أسْفَهَ الناس هو الذي يرضى بالدنيا بدلاً من الآخرة، فالحياةُ الدنيا في الآخرة متاعٌ قليلٌ، وحطامٌ فانٍ، كما قال عبدالعزيزُ بنُ مروانَ لما حضره الموتُ يخاطب الدنيا: «أفٍّ لك من دارٍ، إن كان كثيركِ لقليلٌ، وإنْ كان قليلُكِ لقصيرٌ، وإن كنَّا منكِ لفي غُرورٍ» [ابن كثير: ٣/ ٣٩١].

وفي الحديث عن المستورد بن شَدَّاد أنه سمع رسولَ الله ﷺ يقولُ: «والله ما الدُّنيا في الآخرةِ إلا مثْلُ ما يَجْعَلُ أحدُكُمْ إصْبَعَهُ هذه -وأشار يحيى بالسَّبابَةِ- في اليَمِّ، فلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟» [مسلم: ٢٨٥٨].

ولقلّةِ متاعِ الدنيا فإنَّ أهلها عندما يبعثون يومَ الدين، يقولونَ: ما لبثنا غير ساعةٍ ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال: ﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه: ١٠٤].

٢- تهديد الله -تعالى- المؤمنين بالعذابِ الأليم إن لم ينْفِروا:

تهدَّدَ اللهُ تعالى المؤمنين بأنْ يعذِّبهم عذاباً أليماً إنْ لم ينفروا إذا دعاهم إلى النفير، وتهدَّدهم أن يأتيَ بغيرهم يجاهدونَ في سبيلِهِ، ولن يضرَّ تخلفُهم عن الجهاد ربَّ العزةِ شيئاً، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾ [التوبة: ٣٩].

يقولُ اللهُ تعالى لعبادِهِ: إن لم تنفروا وتسارعوا إلى الخروج لجهادِ أعداءِ الله وأعدائكم فإنَّ اللهَ تعالى يعذبكم عَذاباً مؤلماً شديداً، وقد يكونُ هذ العذابُ في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يكون بتسليط عدوِّهم عليهم، فإنَّ المسلمين إذا تركوا الجهادَ في سبيلِ الله تعالى سلَّط عليهم أعداءَهم فأهانوهم، ونكّلوا بهم، وقتلوهم، وأسروهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ تهدَّد اللهُ تعالى المتثاقلينَ عن الجهاد بأنْ يَذهبَ اللهُ تعالى بهم، ويأتي بقومٍ غيرهم، هذا كقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأۡتِ

جنـــــة السـنة

بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ ﴾ [النساء:١٣٣] أي: يأتي بقومٍ غيركم، لا يؤثرون الحياةَ الدنيا على الآخرة، ويسارعون إلى النفيرِ عندما يُدْعون إليه. وقد وقع هذا عبر التاريخ الإسلامي كثيراً، فقد قاتل تحت رايةِ الإسلامِ غيرُ العربِ، كالأكرادِ، والمماليك، والترك، وغيرهم.

٣- الله وحده قادر على نصرة رسوله ﷺ:

أَعْلَمَ اللهُ تعالى عبادَه المؤمنين أنَّه غيرُ محتاجٍ إليهم لنصرةِ رسوله ﷺ، فإنه وحده قادرٌ على نُصْرَتِهِ، وإن لم يكن معه أحدٌ منهم، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى لعبادِه المؤمنين إلا تنصروا رسولي، فإنني ناصرهُ وكافيه ومؤيده، كما تولَّيْتُ نَصْرَهُ ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: في واقعةِ الهجرة، لما همَّ المشركون بقتلِهِ أو حبسِهِ أو نفيِهِ، فخرجَ مع صاحبه أبي بكر الصديق، فلجأ إلى غارِ ثورٍ ثلاثةَ أيامٍ، وقد وقف المشركون على الغارِ، فأعماهم الله تعالى عن رؤيته وإدراكه، فعن أنس، عن أبي بكر قال: كنتُ مع النبيِّ ﷺ في الغارِ، فرَفَعْتُ رأْسِي فإذا بأقْدام القومِ، فقُلْتُ: يا نبيَّ الله، لو أنَّ بعْضَهُمْ طأْطأَ بَصَرَهُ رَآنا، قال: «اسْكُتْ يا أبا بكرٍ، اثْنانِ اللهُ ثالِثُهما» [البخاري: ٣٩٢٢. ومسلم: ٢٣٨١].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أي: غارِ ثورٍ، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: إذ يقولُ الرسولُ ﷺ لصاحبه أبي بكر: لا تحزن، إن الله معنا، ومن كان الله معه، لم يغلبه أحَد.

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي: أنزل اللهُ تعالى سكينته، وهي الطمأْنينةُ عليه، أي: على رسولِه، ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ وهؤلاءِ الجنودُ هم ملائكةُ الرحمن الذين أنزلهم لنصرِهِ وحفظه ورعايته.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة:٤٠] وكلمةُ الذين كفروا الشركُ، جعلها اللهُ -تعالى- السُّفْلى، وجعلها اللهُ تعالى السفلى بهزيمةِ أصحابها وقَمْعِهِمْ وإذلالِهِمْ، وكلمةُ الله هي العليا، وهي: لا إله إلا اللهُ، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ والعزيزُ الغالبُ الذي لا يغلبه شيءٌ، والحكيمُ: الذي يضعُ الأمورَ في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

جنـــــة السـنة

٤- أمر الله تعالى صحابةَ رسولِهِ ﷺ أمراً جازماً بأنْ ينفروا خِفافاً وثِقالاً:

أمَرَ اللهُ -تعالى- صحابةَ رسولِهِ ﷺ أن ينفروا خفافاً وثقالاً ويُجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

والنفيرُ: الخروجُ في الجهاد عندما يُدْعون إليه، وقولُهُ: ﴿خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ فسَّرَها المفسرون بألفاظٍ متقاربةٍ، فقالوا: فقراءَ وأغنياءَ، وشباباً وشيوخاً، وفرساناً ورجالاً، ومشاغيلَ وغيرَ مشاغيل، ونشاطاً وغيرَ نشاطٍ، والمرادُ بالخفافِ الذين تَخِفُّ عليهم الحركةُ، والثقالُ: الذين يصْعبُ الحركةُ عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمرَ بالجهادِ بالمالِ والنفس، وأخبرَ تعالى أنَّ الجهادَ بالنفس والمال خيرٌ لنا في الدنيا والآخرة، فثوابُ الجهاد عظيمٌ وأجرُهُ جزيلٌ ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لَوْمُ الله تعالى الذين تَخَلَّفُوا عن الجهادِ في غزوةِ تبوك.

٢- تهديدُ الله تعالى للذين تخلفوا عن غزوة تبوك بالعذاب الموجِعِ، وتوعَّدهم أن يذهبَ بهم، ويأتيَ بغيرهم، وأعلمهم أنَّه ليس بحاجةٍ إلى جُهْدِهِمْ وجهادِهِمْ.

٣- أعلم اللهُ -تعالى- المؤمنين بقُدْرَتِهِ على نصرةِ رسولِهِ وحدَهُ، كما فعل ذلك عندما أخرجَهُ الكفارُ من مكةَ عامَ الهجرةِ، ولم يكن معه إلا صاحبُه أبو بكر، فنصرَهُ وأيَّده، وأنزل عليه ملائكتهُ وأذلَّ اللهُ الكفرَ والكافرين، وأعلى كلمةَ الدين.

٤- أمر اللهُ تعالى المؤمنين في غزوةِ تبوك أن ينفروا خفافاً وثقالاً، وأمرهم بالجهاد في سبيلِ الله بأموالهم وأنفسِهِمْ، وأخبرهم أنَّ الجهادَ خيرٌ لهم في الدنيا والآخرةِ.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني الثامن من سورة التوبة
السببُ في عدم خروج المنافقين مع الرسول ﷺ في تبوك

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المنافقين لم يخرجوا إلى تبوك لبُعد السفر، وأخبرنا أنهم يحلفون بالله كاذبين على عدم قدرتهم على الخروج إلى الغزو، وقد عاتب الله رسوله ﷺ في إذْنه لهم بالتخلُّف، ولو لم يأذن لهم لظهر الصادقُ مِنَ الكاذبِ منهم. وقد بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المؤمنين بالله واليوم الآخر لا يستأذنون في تركِ الغزوِ والقتالِ، لحبِّهم له، وطلبهم لأجره وثوابِهِ، والذي يستأذن في ترك الغزو والجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، الذين امتلأت قلوبهم بالشك والريب، فهم في ريبهم يتردَّدون.

ودلَّل ربُّ العزة على كذبهم فيما ادَّعَوْه أنهم لم يُعِدُّوا العدةَ للحرب والقتالِ، وأعلمنا سبحانه أنه أبغضَ خروجهم إلى الغزو، لأنهم لو خرجوا في المسلمين ما زادوا المسلمين إلا فساداً، ولألقوا فيهم الفتنَ والباطلَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٢-٤٧].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- السببُ الذي جعل بعض من تخلَّفَ عن غزوةِ تبوك يعتذر عن اتباع الرسول ﷺ:

بيَّن اللهُ -تعالى- السببَ الذي أدَّى إلى اعتذارِ المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك، فقال: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة:٤٢].

جنـــــة السـنة

يقولُ ربُّ العزَّة: لو كان الذي دعوتهم إليه منفعةً دنيويةً قريبةً غير بعيدةٍ، وسفراً قاصداً، أي: سفراً متوسطاً بين القربِ والبُعد، وكلُّ سفرٍ متوسطٍ بين الإفراطِ والتفريطِ فهو قاصدٌ، ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ والشقَّةُ: السفر البعيد، والمرادُ به غزوة تبوك، فإنها كانت سفرةً بعيدةً شاقةً.

﴿وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [التوبة:٤٢]، أي: سيحلفُ المتخلفون عن غزوةِ تبوك بالله ﴿لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ أي: لو قدرنا على الخروجِ ووجدنا ما نحتاج إليه ﴿لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ﴾ وقوله: ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ أي: بعدم خروجهم إلى الغزو وقد حلفوا بالله كاذبين، والإهلاكُ يكون بتعذيبِ الله تعالى لهم. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ في حلفهم أنهم كانوا غير مستطيعين.

٢- عتابُ الله تعالى لرسولِه ﷺ في إذنه للمنافقين بالتخلُّف عنه:

عاتب اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ ألْطَفَ عتابٍ وأرقَّه، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة:٤٣]، وقد بدأ بالعفو قبل المعاتبة، وقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة:٤٣]، أي: ما كان لك أنْ تأْذن لهؤلاءِ بالتخلف عن الخروج معك إلى الغزو، فإنه لو لم يأذنْ لهم بالخروج معه، لتبيَّنَ له الذين صدقوا في العذر الذي أبدوه، ولعلم الكاذبين.

وقد بيَّن ربُّ العزة سبحانه وتعالى أنه ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [التوبة:٤٤] أخبر سبحانه أنَّ المؤمنين الصادقين الذين آمنوا بالله تعالى وباليوم الآخر لا يستأذنونك في ترك الجهاد، لأن المؤمنين الصادقين يحبون الجهاد، ويحرصون عليه، ويسارعون إلى إتيانه وحضوره، وقتالِ أعداءِ الله تعالى ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾﴾ والمتقون الممتثلون لأمرِ الله تعالى، العاملون بطاعته، المجْتَنِبونَ نهيَه، وهو عليم بهم، لا يخفى عليه أمرُهم.

وأخبرَ ربُّ العزَّة سبحانه أنَّ الذين يسْتأْذنونه في التخلفِ عن الجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابتْ قلوبُهُمْ فهم في ريبهم يترددون ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة:٤٥]. أخبر

جنـــــة الســـــنة

ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانَه أنَّ الذين يستأذنونه في التخلف عن الجهاد هم الذين لا يؤمنون بالله ولا باليومِ الآخر، وارتباتْ قلوبهم، أي: شَكَّت، فقلوبُهُمْ غيرُ مطمئنةٍ إلى الإيمانِ واليقينِ، بل هي دائمةُ الترددِ والشكِّ والقلقِ، ولذا ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ أي: فهم في شكِّهم حائرون، تارة يتقدمون، وتارة يتأخرون.

٣- لو أرادوا الخروجَ لأعدُّوا له عُدَّةً:

أخبرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن المنافقين المتخلفين عن الغزو لو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّةً، ولكنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- كَرِهَ خروجهم مع المؤمنين فثبَّطَهم، وقال لهم: ﴿اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾، ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [التوبة:٤٦]، وقوله تعالى: ﴿لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ العُدَّةُ: ما يحتاج إليه المجاهدُ من الزاد والراحلة والسلاح، ﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ كره خروجهم إلى الغزوِ والقتالِ، أي: أبغضه، ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي: أخَّرهم، ﴿وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ وقال لهم: اقعدوا مع القاعدين مِنَ النساء والأطفال وأولي الضرر من الزمني والمرضي.

ثم بيَّنَ ربُّ العزة لِمَ كَرِهَ ربُّ العزة انبعاثَهُمْ، فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [التوبة:٤٧]. أي: لو خرج هؤلاء المنافقون فيكم ما زادوكم إلا خبالاً، والخبالُ: الفسادُ والنميمةُ وإيقاعُ الاختلافِ والأراجيفِ.

وقوله: ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: أسرعوا بالمشي بينكم بالنميمةِ وإلقاءِ المخالفاتِ والأراجيفِ والأكاذيبِ، والإيضاعُ في اللغة: سرعةُ السير، يقولون: أوضعَ البعيرُ إذا أسرع في السيرِ، أي: لسارعوا في إلقاءِ الفسادِ بما يختلقونه من أكاذيب ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ يطلبون لكم الفتنة بما يصنعونه من التحريشِ والفسادِ، ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم من يسمعُ لهم، قال الشيخ العلاّمةُ ابنُ كثير رحمه الله تعالى: «قال محمدُ بن إسحاقَ: كان -فيما بلغني- مَنْ استأذنَ من ذوي الشرف منهم: عبدالله بن أُبَيّ ابن سلول، والجدُّ بن قيس، وكانوا أشرافاً في قومهم، فثبَّطهم اللهُ، لعلمه بهم، أن يخرجوا معه، فيفسدوا عليه جنده، وأن في جندِه قومٌ أهل محبة لهم وطاعة فيما يدْعونهم إليه، لشرفهم فيهم، فقال: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ

جنـــــة السـنة

لَهُمْ ﴾. ثمَّ أخبر تعالى عن تمام علمه فقال: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾، فأخبر بأنه يعلَمُ ما كان، وما يكون، وما لم يكن -لو كان كيف كان يكون، ولهذا قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ فأخبر عن حالهم كيف يكونُ لو خرجوا، ومع هذا ما خرجوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنعام:٢٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنفال:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨]، والآيات في هذا كثيرةٌ» [ابن كثير: ٣/ ٣٩٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- السبب في تخلُّف المنافقين عن الخروج مع الرسول ﷺ في تبوك أنه بَعُدَتْ عليهم الشُّقةُ.

٢- كان المنافقون يحلفون كاذبين على عدم قدرتهم على الخروج في غزوة تبوك.

٣- كان الأولى بالرسولِ ﷺ أنْ لا يأْذن لهم بالتخلف عنه، حتى يظهر الصادقُ من الكاذب.

٤- المؤمنون بالله تعالى واليوم الآخر لا يستأذنون الرسولَ ﷺ في التخلف عن الجهاد، والذي يفعل ذلك هم الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وامتلأتْ قلوبهم ريباً وشكاً.

٥- الدليلُ الذي يَدُلُّ على كذبِ المنافقين فيما ادَّعوه من عدم القدرةِ على الخروج إلى الغزو عدمُ إعدادِهم العُدَّةَ للحربِ والقتالِ.

٦- أبغضَ اللهُ -تعالى- خروجَ المنافقين في الغزو مع المؤمنين، ولو خرجوا في جيشِ المسلمين لعملُوا على إفسادِ ما بين المسلمين، ولألقوا بينهم الفتنَ.

جنــــة الســـــنة

النص القرآني التاسع من سورة التوبة
شِدَّةُ عداءِ المنافقين للمؤمنين

أولاً: تقديم

كان المنافقون ولا يزالونُ يعملون عملَهم السيِّئ في الصفِّ الإسلامي، فهم يدبِّرون ويخطِّطون لإفسادِ الصفِّ الإسلامي، ويبتعدون عن المواطنِ ذاتِ الجُهْدِ والمالِ، وقلوبهم مملوءَة كُرْهاً للمسلمين، فما أصاب المؤمنين من خيرٍ يحزنهم، وما أصابهم من مصائب يَفرحُهُمْ، والمؤمنون في مواجهةِ المنافقين لا يضرُّهم كيدُهم، فقد انحازوا إلى ربِّهم -تبارك وتعالى- فاتخذُوه وليّاً، فاعتمدُوا عليه، وتوكَّلُوا عليه، وما يرجوه المؤمنونَ بين أمرين: إما أن ينصرَهُم اللهُ أو يختارَهم شهداء، والمنافقون كذلك بين أمرين: إما أنْ يعذِّبهم اللهُ تعالى بعذابٍ من عنده أو يعذِّبهم بأيدي المؤمنين.

وقد أعلم الله تعالى المؤمنين أنَّ نفقاتِ المنافقين غيرُ مقبولةٍ، سواءً أنفقوها طوعاً أو كرهاً لأنهم كفروا بالله وبرسوله، وعندما يأتون الصلاة لا يأتونها إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة:٤٨-٥٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إعلامُ اللهِ تعالى رسولَهُ ﷺ بما دَبَّر له المنافقون من قبل:

كشف اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ بما خَطَط له المنافقون قبل غزوة تبوك، فقال: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾

جنـــــة الســــنة

[التوبة:٤٨]. أخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين قبل نزولِ هذه الآيات طلبوا الفتنةَ للرسول ﷺ وأصحابِه، وذلك بردِّ الناسِ عن الدِّينِ، وإفسادِ العلاقاتِ بين المؤمنين، وتحريشِ الكفارِ على قتالِ المؤمنين.

وقد قَلَّبُوا الأمورَ للرسولِ ﷺ، وذلك بالتفكير والتخطيطِ والتدبير لإفساد أمْرِ المسلمين، وإذهابِ قوتهم، وإغراءِ الكفارِ بقتالهم، وقولِهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [التوبة:٤٨] أي بقي هذا حالُهم ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ ومجيئُه بنصر الله تعالى لنبيِّه، وقتل صناديدِ قريشٍ في يومِ بدرٍ، ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: غلب دينُ اللهُ تعالى، فعند ذلك دخلَ هؤلاءِ المنافقون في دين الله ظاهراً، وأضْمَروا الكفرَ ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أي: كارهون لانتصارِ الإسلام، وعَلُوِّ شأنِ المسلمين.

٢- طلب المنافقون من الرسولِ ﷺ أنْ يأذن لهم بالتخلفِ عن الجهاد خشيةَ وقوعهم في الفتنة:

طلب المنافقون مِنَ الرسولِ ﷺ أنْ يأذن لهم بالتخلف عن غزوةِ تبوك، وأنْ لا يفتنَهم بإلزامهم بالخروجِ معه، فأخبرَ اللهُ تعالى أنهم بطلبهم هذا سقطوا في الفتنةِ، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ﴾ [التوبة:٤٩]، أي: يقولُ بعضهم للرسولِ ﷺ: ائذنْ لي في القعودِ، ولا تكلِّفني بالخروجِ معكِ إلى تبوك، وتوقعني في الفتنة، وقد أورد ابن كثيرٍ عن محمد بن إسحاقَ، عن الزُّهري، ويزيدِ بن رُومانَ، وعبدالله بن أبي بكر، وعاصم بن عُمَر بن قتادةَ وغيرهم قالوا: قال رسولُ الله ﷺ ذاتَ يوم، وهو في جهازِهِ، للجَدِّ بن قيس أخي بني سَلِمَةَ: «هل لكَ يا جَدُّ العامَ في جِلادِ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله، أَوَ تأذنُ لي، ولا تَفْتنِّي، فوالله لقد عَرَف قومي ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مِنِّي، وإنِّي أخشى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفرِ ألاّ أصْبِرَ عنهنّ، فأعرضَ عنه رسولُ الله ﷺ وقال: «قد أَذِنْتُ لك». ففي الجَدِّ بنِ قيسٍ نزلتْ هذه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ﴾ ... الآية، أي: إن كان إنما يخشَى من نساء بني الأصفر وليس ذلك به، فما سقط فيه من الفتنةِ بتخلُّفه عن رسولِ الله ﷺ والرغبةِ بنفسه عن نفسه، أعظم [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٣٩٦): أخرجه الطبري في تفسيره (١٦٨٠٣) وابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام ٤/ ٥١٦ عن غير واحد من التابعين، وله شواهد مرسلة أخرى يتأيد بها].

وهكذا رُوِي عن ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: أنها نزلت في الجَدّ بن قيس، وقد كان الجدُّ بن قيس هذا من أشراف بني سَلِمة [ابن كثير: ٣/ ٣٩٦].

جنـــــة السـنـــــة

وعن كعب بن مالك أنَّ رسولَ الله ﷺ قال لهم: «من سَيِّدُكُم يا بني سَلِمَةَ؟» قالوا: الجَدُّ بن قيس، على أنا نُبَخِّلهُ. فقال رسول الله ﷺ : وأيُّ داءٍ أدْوأُ مِنَ البخلِ؟! ولكن سَيّدكم الفتى الأبيض الجَعْدُ، بشرُ بن البراء بن مَعْرُورِ [قال محقق ابن كثير: الحديث ليس في الصحيح، إنما أخرجه الطبراني في الكبير [١٩/ (١٦٣) و(١٦٤)] من حديث كعب بن مالك، وقال الهيثمي في المجمع (٩/ ٣١٥): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح غير شيخي الطبراني، ولم أر من ضعفهما. وله شواهد وطرق، راجع «الإصابة» (١/ ١٥٠/ ٦٥٤) فهو حسن].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾، أي: لا مَحِيد لهم عنها، ولا مَحِيص، ولا مَهرب [ابن كثير: ٣/ ٣٩٦].

وقوله تعالى: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ والفتنةُ العظيمةُ التي سقطوا فيها هي تَخَلُّفُهم عن الجهاد، واعتذارُهم الكاذبُ لرسول الله ﷺ ، وفي قوله: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ فيه تهديدٌ ووعيد للمنافقين.

وقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة:٤٩]، أي: تَغْشاهُمْ النارُ من جميع الجهاتِ، كقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ﴾ [العنكبوت:٥٥]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ﴾ [الكهف:٢٩].

٣- المنافقون تسوؤهم الحسنة تصيبُ المؤمنين، وتفرحُهم السيئةُ تصيب المؤمنين:

أخبر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ وأصحابه أنَّهم إنْ أصابتهم حسنةٌ كالنصرِ والغنيمةِ، فإنَّ ذلك يسوءُ المنافقين، وإن تصبهم مصيبةٌ يفرح لذلك المنافقون، ويقولون في فرحهم قد أخذنا أمرنا من قبل، ويتولّوْا عن الرسولِ ﷺ وصحبه، وهم فرحون بما أصاب محمداً ﷺ وأصحابه ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ۝٥٠﴾ [التوبة:٥٠].

والحسنةُ: غلبةُ المؤمنين الأعداءَ وظفرُهم عليهم، والمصيبةُ: أي ما يحلُّ بالمؤمنين من قتل وأذى، وقولُه: ﴿قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ﴾ أي: قد احْتَطْنا لأنفسنا، وخطَّطْنا ودبَّرْنا، واستأْذنا للتخلّفِ عن الجهادِ، فسلمنا مِنَ القتلِ والجراحِ، ويتولون عن رسولِ الله وأصحابه، وهم فرحون بمصاب الرسول وأصحابه.

وقد أمر اللهُ تعالى أنْ يُرَدَّ على هؤلاءِ بقوله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التوبة:٥١] أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يقول

جنـــــة السـنة

لهؤلاءِ المنافقين وأضرابهم: لن يصيبنا من الأذى والقتل والجراح والمصائب إلا ما كتبه اللهُ تبارك وتعالى لنا في اللوحِ المحفوظِ. واللهُ تعالى مولانا، أي: سيدُنا وناصرُنا ومؤيِّدُنا ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ أي: توكَّلوا على الله تعالى وَحْدَه، ولا تتخذوا معه وكيلاً.

وأمر اللهُ تعالى رسوله أن يقولَ للمنافقين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [التوبة:٥٢].

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمنافقين: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ﴾ والتربُّصُ: الانتظارُ، أي: هل تربَّصون بنا عواقبَ الدهرِ ونوائِبه راجين أن تدورَ علينا الدوائر فتهلكنا، فإنكم لا تنتظرون بنا إلا واحدةً من اثنتين، كلُّ واحدة هي أحسن من الأخرى، الأولى: أن نغلبَ أعداءَنا، وينصرنا اللهُ عليهم، فنظفرَ بالنصر والغنيمة، والثانية: أن نرزق الشهادةَ في ميدانِ القتالِ، ومَنْ قُتِلَ في ميدانَ القتالِ شهيداً، فإنَّه يصبحُ عند الله حيّاً يرزق من الجنة.

وأمَرَه أن يقولَ لهم: ونحن ننتظر بكم إحدى العاقبتين السوأتين: أنْ يصيبكم الله بعذابٍ من عنده، أو يسلطنا عليكم، فنقتلكم، ويكونُ مصيركم النارَ وقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوٓا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: وانتظروا، فإنَّا معكم منتظرون، وسنرى لمن تكون العاقبةُ والمصيرُ الحسنُ.

٤- عدمُ قبول نفقاتِ المنافقين:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يخبر المنافقين بأنَّ ما ينفقونه مِنَ المالِ في الجهادِ وغيره، لا يقبلُه اللهُ تعالى منهم ﴿قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [التوبة:٥٣].

أمرهم أن ينفقوا طائعينَ أو كارهين، فاللهُ تعالى لن يقبلَ منهم نفقاتِهمْ، ثم بيَّن تعالى السبب في عدمِ قبولِ نفقاتهم، أنَّهم كانوا فاسقين، أي: خارجين عن طاعةِ الله تعالى.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في الآيةِ التاليةِ أنَّ فسقهم فسقٌ أكبرُ، والفسقُ الأكبرُ هنا هو الكُفْرُ، فهم يدَّعونَ الإيمانَ ظاهراً، ويبطنون الكفرَ ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة:٥٤].

جنـــــة السـنة

أخْبر تعالى في هذه الآية أنَّ المانع مِنْ قبول نفقاتهم ثلاثةُ أمور: الأول: كفرهم بالله تعالى وبرسولِهِ ﷺ ، والثاني: إتيانُهم الصلاةَ وهم كسالى، والثالثُ: عدمُ إنفاقهم رغبةً فيما عند الله تعالى، وإنما ينفقون ما ينفقون وهم كارهون.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- المنافقونَ عملوا على إيقاع المؤمنين في الفتن، وخطَّطُوا ودبَّروا لتدميرهم، حتى ظهر دينُ الله تعالى، ونصر اللهُ المؤمنين، وأذلَّ المشركين والمنافقين.

٢- اعتذَرَ المنافقون للرسولِ ﷺ عن الخروج لغزوة تبوك مدعين أنَّ خروجهم للغزو يوقعهم في الفتنة، فكانت الفتنةُ في عدمِ خروجهم للغزو.

٣- المنافقون أعداءٌ للمؤمنين، إن أصاب المؤمنين خيرٌ كالنصر والغنيمة ساءَهم، وإنْ أصابتهم مصيبةٌ كالهزيمةِ والقتل أفرحتهم.

٤- القاعدةُ عند المؤمنين أنه لا يصيبهم إلا ما كتب اللهُ تعالى لهم، وأنهم لا يرجون إلا إحدى الحسنيين إما النصر أو الشهادةُ، وهم يتربصون بالمنافقين واحداً من أمرين، أن يعذب اللهُ المنافقين بعذابٍ من عنده أو بأيدي المؤمنين.

٥- الله لا يتقبلُ من المنافقين نفقاتِهم، سواءٌ كان إنفاقهم طوعاً أو كرهاً.

٦- لا يقبلُ الله تعالى نفقاتِ المنافقين لأنهم كفار بالله وبرسولِهِ، ولا يأتونَ الصلاةَ إلا وهم كسالى، ولا ينفقون إلا وهم كارهون.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني العاشر من سورة التوبة
نهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ عن أنْ يُعجَبَ بمالِ المنافقين وأولادهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن تعجبَه أموالُ الكفارِ وأولادهم، فهي إلى ذهاب، وسيعذِّبون بها، وهم كارهون.

وأخبرنا ربُّنا أن المنافقين كاذبون في زعمهم أنهم من المؤمنين، وأعلمنا ربُّنا أنهم لو وجدوا مكاناً ينحازونَ إليه، ويختفون فيه لسارعوا إليه، وهم يجمحون.

ومن مصائب المنافقين الكبار أنهم يعيبون الرسولَ ﷺ في توزيعه الصدقات، وكلُّ همِّهم أن يحوزوا شيئاً من المالِ لأنفسهم.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى مصارفَ الصدقاتِ، وذمَّ المنافقين الذين يؤْذون النبيَّ ﷺ، وأكذبهم فيما يدَّعونه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٥٥-٦١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ أن تعجبه أموال المنافقين وأولادهم:

نهى اللهُ -تعالى- رَسولَهُ ﷺ أن تُعجبه أموالُ المنافقين وأولادُهُمْ التي آتاهم اللهُ -تعالى- إيَاها ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْۚ﴾ [التوبة:٥٥] فإنَّ اللهَ تعالى أعطاهم إياها

جنـــــة السـنـــة

استدراجاً منه، وعاقِبَتُها سيئةٌ ووخيمةٌ عليهم في الدنيا والآخرة وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه:١٣١].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة:٥٥]. أي: يريدُ اللهُ تعالى أنْ يعذِّبَ المنافقين بأموالِهِمْ وأولادِهِم في الحياةِ الدنيا، وذلك بتسليط الله المصائبَ والبلايا على أموالهم وأولادِهم، فيكونُ ذلك سببَ عذابهم، وتزْهَقُ أنفسهم، أي: يموتوا، ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ فيتصل عذابهم الدنيوي بالعذاب الأُخروي.

٢- المنافقون يحلفون للمؤمنين أنهم منهم وما هم منهم:

أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ المنافقينَ يحلفونَ كاذبين أنهم من المؤمنين، وهم ليسوا من المؤمنين ولكنهم يحلفون هذه الأيمان الكاذبةَ فرقاً وخوفاً من المؤمنين حتى لا يبطشوا بهم ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة:٥٦].

وأخبره سبحانَه وتعالى أنَّهم ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [التوبة:٥٧]. أخبرنا ربُّ العزَّة أنَّ المنافقين لو يجدون ﴿مَلْجَـًٔا﴾ أي: حِصْناً يتحصنون به، وحِرْزاً يحْتَرِزون به ﴿أَوْ مَغَٰرَٰتٍ﴾ والمغاراتُ الثقوبُ في الجبالِ، كغار حراءَ وغار ثورٍ، ونحوهما، وقوله: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾ والمدَّخلُ الأنفاق التي تكون في باطنِ الأرض.

والمرادُ أنَّهم لو وَجدوا هذه التي ذكرها اللهُ تعالى ﴿لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: لو وجدوا شيئاً من هذه لوَلَّوا إلى الالتجاءِ إليه هرباً مِنَ المسلمين، وقوله: ﴿يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: يسرعون.

٣- لمزُ المنافقينَ الرسولَ ﷺ في توزيعِهِ الصدقات:

أَخْبَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنَّ مِنَ المنافقينَ مَنْ يعيبُ الرسولَ ﷺ في الصدقات، أي: في توزيعه لها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة:٥٨]. فقد كان المنافقون يعيبون الرسولَ ﷺ في توزيعِهِ الصدقاتِ، ولم يكن عيبُهم للرسول ﷺ لرغبتهم في تحقيق العَدْل، وإنما كان غَرَضُهُمْ الحصولَ على بعض مال الزكاة، فتراهم إذا أُعطوا منها رَضُوا وشَكَرُوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يَسْخَطون، أي: يثورونَ ويعيبون.

وقد بيَّن اللهُ تعالى لهؤلاءِ المنافقين كيف يكونُ المنهجُ الصحيحُ في موقفهم مِنَ الصدقات ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

جنـــــة الســـــنة

﴿وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة:٥٩]، أي: لو أنَّ هؤلاءِ المنافقين رَضُوْا بالنصيبِ الذي قَسَمَهُ اللهُ تعالى لهم، ﴿وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي: يكفينا اللهُ ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: سيعطينا اللهُ تعالى مِنْ فضله على يَد رسولِهِ ﷺ ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي: إن رغبتنا إلى الله، وهو جوادٌ كريمٌ.

وقد كان الرسولُ ﷺ يأْتيه المالُ المضروبُ على الكفار جِزْيةً فيوزِّعهُ على أصحابِهِ مِنَ المهاجرين والأنصارِ، ومِنْ ذلك توزيعه مال البحرين على أصحابه، ومن ذلك أن جابرَ بن عبدالله رضي الله عنهما قال: كانَ رسولُ الله ﷺ قال لي: «لو قد جاءَنا مالُ البحرينِ قد أعطَيتُكَ هكذا وهكذا وهكذا». فلما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ وجاءَ مالُ البحرينِ، قال أبو بكرٍ ﷺ: مَنْ كانت له عندَ رسولِ الله ﷺ عِدَةٌ فلْيأْتِني، فأتيتُه فقلتُ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد كانَ قال لي: «لو قد جاءَنا مالُ البحرينِ لأعطَيتُكَ هكذا وهكذا وهكذا». فقال لي: احثُه. فحَثَوْتُ حَثْيةً، فقال لي: عُدَّها، فعَدَدْتُها، فإذا هي خمسُ مئةٍ، فأعطاني ألفاً وخمسَ مئةٍ [البخاري: ٣١٦٤].

وعن أنسٍ: أُتِيَ النبيُّ ﷺ بمالٍ مِنَ البحرينِ فقال: «انثُروه في المسجدِ». فكان أكْثَرَ مالٍ أُتِيَ به رسولُ الله ﷺ إذْ جاءَه العباسُ فقال: يا رسولَ الله، أعطِني، إني فادَيتُ نَفْسي وفادَيتُ عَقيلاً، قال: «خُذْ» فحَثا في ثوبِه، ثم ذهبَ يُقِلُّه فلم يَستطِعْ، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرْفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنتَ عليَّ، قال: «لا» فنَثَرَ منه، ثم ذهب يُقِلُّهُ فلم يرفَعْه، فقال: اؤمُرْ بعضَهم يَرفَعْه عليَّ، قال: «لا» قال: فارفَعْه أنت عليَّ، قال: «لا» فنثر منه، ثم احتَمَلَه على كاهلِه، ثم انطَلَقَ، فما زالَ يُتْبِعُه بَصَرَه حتى خَفِيَ علينا عَجَباً مِنْ حِرْصِه، فما قامَ رسولُ الله ﷺ وثَمَّ منها دِرْهَمٌ [البخاري: ٣١٦٥].

وقد لمز بعض الضالين الرسولَ ﷺ في قسمة غنائم حنين، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: «بينما نحن عند رسولِ الله ، وهو يقسمُ قِسْماً، أتاه ذو الخُوَيصِرةِ -وهو رجلٌ من بني تَميم- فقال: يا رسولَ الله، اعدِلْ. فقال: «وَيْلَكَ ومَنْ يَعْدِلُ إذا لم أعدِلْ! قد خِبْتَ وخَسِرْتَ إنْ لم أكُنْ أعدِلُ».

فقال عمرُ: يا رسولَ الله، ائذَنْ لي فيه فأضرِبَ عُنُقَه. فقال: «فإنّ له أصحاباً يَحْقِرُ أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصِيامَه مع صِيامِهم، يَقرؤونَ القرآنَ لا يُجاوِزُ تَراقِيَهُم، يَمْرُقونَ مِنَ الدينِ كما يَمْرُقُ السَّهْمُ من الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إلى نَصْلِه فلا يُوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى رِصافِهِ

فما يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى نَضِيِّه -وهو قِدْحُه- فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، ثم يُنْظَرُ إلى قُذَذِه فلا يوجَدُ فيه شيءٌ، قد سَبَقَ الفَرْثَ والدَّمَ، آيَتُهم رجلٌ أسوَدُ إحدى عَضُدَيه مِثلُ ثَدْيِ المرأةِ، أو مثلُ البَضْعةِ تَدَرْدَرُ، ويَخْرُجونَ على حينِ فُرْقةٍ من الناسِ».

قال أبو سعيد: فأشهَدُ أني سمعتُ هذا الحديثَ من رسولِ الله ﷺ، وأشهَدُ أنَّ عليَ ابنَ أبي طالبٍ قاتَلَهم وأنا معه، فأمَرَ بذلك الرجلِ فالْتُمِسَ، فأُتِيَ به حتى نَظَرْتُ إليه على نَعْتِ النبيِّ ﷺ الذي نَعَتَه» [البخاري: ٣٦١٠. ومسلم: ١٠٦٤. نصل السهم: هو الحديدةُ الحادة التي تثبت في رأسه، والرِّصاف: هو ما يربط حول مكان تثبيت هذه الحديدة، والنَّضِيّ فسر في الحديث بأنه القدح: وهو العود الخشبي الذي يصنع منه السهم ويوضع النصل في رأسه، والقُذَذُ جمع القُذَّة: وهي الريشة التي توضع في مؤخرة السهم ليكون دقيقاً في إصابة هدفه. وقوله: «البضعة»: هي القطعةُ من اللحم. وقوله: «تَدَرْدَرُ» أصله: تتدردر، ومعناه: تتحرك. تذهب وتجيء].

٤- مصارف الزكاة:

لما بيَّن الله تبارك وتعالى اعتراضَ المنافقين الجهلةِ على رسولِه ﷺ في قسمة الصدقاتِ، بيَّنَ اللهُ تبارك وتعالى أنَّه توَلَّى قسمَها بنفسِه، ولم يكلها إلى أحدٍ غيرِه، فقال: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة:٦٠].

والفقراءُ جمعٌ واحدُهُ فقيرٌ، والمساكين جمعٌ واحده مسكينٌ، والذي قرَّرَه أهلُ العلم أنَّ الفقيرَ والمسكينَ إذا اجتمعا في آيةٍ كانَ لكلِّ واحدٍ منهما معنى يخصُّه، وإذا ذُكِرَ كلٌّ واحدٍ منهما في آيةٍ دخل كلٌّ منهما في الآخر، وقد اجتمعَ الفقيرُ والمسكين في هذه الآية، فلكلٍّ واحدٍ منهما معنى يخصُّه، وقد اختلف أهلُ العلم أيُّهما أحوجُ الفقير أو المسكين، وذهبَ إلى كلِّ واحد مِنْ القولين طائفةٌ من أهل العلم، ولعلَّ الصواب أن الفقيرَ أشدُّ حاجة لقوله تعالى:﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف:٧٩] فسمَّاهم مساكينَ مع أنَّ لهم سفينةً، واللهُ -تعالى- أعْلم. وجامعُ الفقيرِ والمسكينِ: هو الذي لا يملك أحدهما شيئاً، أو يملك مالاً لا يفي بتمامِ حاجته.

﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ هُمُ الذين يعملون على جَمْع الزكاة وتوزيعها، وهم الذين كانوا يعرفون باسم الجباةُ، وسَهْمُ هؤلاءِ في الزكاة يقدَّرُ بقدرِ أُجرةِ مثلهم، وهم يستحقون مثلَ أجرتهم، لا فرقَ في ذلك بين غنيِّهم وفقيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ هُمُ قومٌ يغلبُ على ظَنِّنا أنَّهم قريبونَ من الإسلامِ، وأننا إذا أعطيناهم من مالِ الزكاةِ دخلوا في ديننا. وإذا أعطيناهم من الزكاة كانوا أقرب إلى

جنـــــة السـنة

الإيمان، أو هم قوم دخلوا في الإسلام، وفي إيمانهم ضعف، فإذا بذلنا لهم مال الزكاة حببنا إليهم الإيمان، وقد أوقف عمر بن الخطاب ﷺ العمل بمصرف المؤلفة قلوبهم، لأن الإسلامَ عَزَّ في عصره، وأصبح غير محتاج إلى من يتألف الناس عليه، ولكن لا شكَّ ولاَ ريب أنه قد يأتي زمان بعد ذلك نحتاج أن نتألف الناس على الإسلام.

﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ هو اشتراءُ العبيد المسترقِّين من أموال الزكاة، ثم إعتاقُهم، ويدخلُ فيهم المكاتبون الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ﴾ [النور:٣٣].

﴿وَٱلۡغَٰرِمِينَ﴾ وهم الذين يغرمون المالَ لمصلحةِ المسلمين، كالذي يتحمل المالَ العظيمَ لينفقه على القبائل التي وقعت بينها الشحناءُ والبغضاءُ، فيدفعُ منه ديَّةَ القتلى، ويغرمُ ما تحمله من المال.

﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وهؤلاءُ هم الغزاةُ الذين خرجوا للقتالِ في سبيل الله، وليس لهم مالٌ يأتيهم من قبل الدولة، فيُنْفَق على هؤلاءِ في غَزْوِهم وجهادهم، وقد ظهر اليومُ قولٌ فاسد لبعض مَنْ ينسبُ إلى العلم، فقال: يدخُل في سبيل الله كلُّ عمل خيرٍ، وقد عاد هذا القول على تحديد المصارف في ثمانية بالإبطال، إذ لو كان معنى سبيل الله كلَّ عملِ خيرٍ، فإنه لا فائدةَ من جعل المصارفِ ثمانية.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ﴾ هو المسافرُ المنقطعُ بِهِ، والسبيلُ هو الطريق، وسُمِّي المسافرُ المنقطعُ به بابنِ السبيلِ لملازمته الطريقَ، ولعدم وجود مالٍ معه ينفقه ويأكل منه ويأْوي به إلى منازل المسافرين، وقد أصبح اليومَ في بعضِ الأحوالِ عند المسافرِ قدرةٌ على اجتلابِ المالِ في سفره من بلاده بسهولةٍ ويسر، من غير احتياج إلى أموالِ الزكاة.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة:٦٠]، أي: هذا الذي فصَّله ربُّ العزة على هذا النحو هو أمرٌ واجبٌ فرضه ربُّ العزةِ، والله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء، ﴿حَكِيمٞ ٦٠﴾ يضعُ الأمورَ في مواضعها، ويوقعها في مواقعها.

وقد اختلف أهلُ العلم في المدى الذي يجبُ فيه استيعابُ الأصنافِ الثمانية المنصوص عليها في الآية، فذهب الإمام الشافعيُّ وجماعةٌ إلى وجوبِ استيعابهم كلِّهم ما وُجِدَ منهم

جنـــــة السـنة

أحدٌ، وذهب جماعة من السَّلف والخلف منهم مالكٌ، وعمر، وحذيفة، وابنُ عباس، وهو قول عامةِ أهل العلم إلى أنَّ الأمر متروكٌ إلى الإمامِ، ولا يجب استيعابُ كلِّ الأصنافِ.

٥- **بعضُ المنافقين يؤذون النبيَّ ويقولون هو أذن:**

حدَّثنا ربنا -عز وجل- أنَّ بعضَ المنافقين يؤذون النبي ﷺ ويقولون: هو أُذن ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١] أي: ومن المنافقين قوم يؤذون النبي ﷺ، ويقولون: ﴿هُوَ أُذُنٌ﴾ أي: مَنْ قال له شيئاً صدَّقَهُ، ومن حَدَّثه فينا صدَّقه، فإذا جِئْنا وحلفنا له صدَّقنا، وقد أكْذَبَ اللهُ تعالى هؤلاءِ المنافقين الضالّين، وقالَ لهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾، فرسولنا ﷺ كان أنْبهَ الناسِ، وأعلاهم فقهاً وفهماً، فإذا جاءَه من يحدِّثه استمع إليه، ولكنَّه كان عليماً بالحقِّ والباطل الذي يحدِّث به، وعندما كان المنافقون يستأذنون منه، كان يعلم الكاذبَ منهم، ولم يكن يخفى عليه منهم شيءٌ.

لقد كان يسمع لهم، ولكنه كان يفرِّقُ بين الصادقِ والكاذب، والمحقِّ والمبطلِ، وكان رسولنا ﷺ كما وصفه ربُّه ﴿أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي: كان سامعَ خيرٍ، وكان يؤمنُ بالله تعالى حقّاً و﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يصدِّق المؤمنين العدولَ الأتقياءَ إذا جاؤوه بمقالةٍ، أما الكفارُ والمنافقون فلا يصدِّقهم، ولا يخفى عليه أمْرُهُم.

وكان رسولُنا ﷺ رحمةً للمؤمنين ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ [التوبة:٦١] ورسولُنا ﷺ كما هو رحمةٌ للمؤمنين، فهو رحمة للعالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء:١٠٧].

وقد تهدَّد الله المنافقين والكافرين الذين يُؤْذون رسولَ الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة:٦١].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نَهَى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أن يَعْظُمَ المنافقون في نفسه بسبب ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ مالٍ وولدٍ، فإنَّ عاقبة أموالهم وأولادهم تؤول إلى عذابٍ وخسران.

جنـــــة السـنة

٢- المنافقون كاذبون، يحلفون الأيمان الكاذبةَ مدعين أنَّهم مؤمنون، والحقُّ أنهم كاذبون فيما يدَّعونه.

٣- لو وَجَدَ المنافقون مكاناً يلجؤون إليه بعيداً عن المؤمنين لأسرعوا إلى الالتجاءِ إليه.

٤- بعضُ المنافقين يعيبُ الرسولَ ﷺ في طريقةِ قسمتِهِ الصدقاتِ، وهم كاذبون فيما يزعمونه من نصحهم لَهُ، فإنَّ القضيةَ عندهم أنهم يريدون حيازةَ مالِ الزكاة، ولا يهمهم أمرٌ غير ذلك.

٥- كان الواجبُ على هؤلاءِ الذين يلمزون الرسولَ ﷺ في الصدقاتِ أن يرْضَوْا بما آتاهم الرسولُ ﷺ من المال، ويقولون: كافينا ربُّنا -تبارك وتعالى- سيُؤْتينا ربُّنا تبارك وتعالى مِنْ فضلِهِ ورسولُهُ.

٦- بيَّن اللهُ تعالى أنَّ المصارف التي تصرفُ فيها الزكاةُ الواجبة ثمانية: الفقراءُ، والمساكينُ، والعاملونَ عليها، والمؤلفة قلوبهُمْ، وفي الرقابِ، والغارمونَ، وفي سبيلِ الله، وابن السبيل.

٧- المرادُ في سبيلِ الله تعالى الجهادُ في سبيل الله، لا أعمالُ الخير كلِّها.

٨- بعضُ المنافقين يُؤْذون رسولَ الله ﷺ ، ويقولون: هو أذن يسمعُ لكلِّ مَنْ حَدَّثه، ويُصدِّقُهُ، وقد أكذبهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- فيما ادَّعوه وزعموه.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة التوبة
صورة المنافقين صورةٌ سيئةٌ خبيثةٌ

أولاً: تقديم

أعْلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقينَ يُكْثرون من الحلفِ للمؤمنين ليرضوهم، وكان الأحرى بهم أن يُرْضُوا اللهَ ورسولَه إنْ كانوا مؤمنين، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين يشاقُّون اللهَ ورسولَهُ، فلهم نارُ جهنَّم، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين يَحْذرون أن يُنَزِّل اللهُ عليهم سورةً تكشف أسرارهم، وتفضحُ أخبارَهم، وقد وقع ما كانوا يحذرون منه بإنزال الله هذه السورةِ التي فضحتهم وهَتكت أستارهم.

وقد عابَ المنافقونَ الرسولَ ﷺ وأصحابَه، فلما وُوجِهُوا بما قالوه، زعموا معتذرين أنَّهم كانوا يخوضونَ ويلعبون، فوبِّخوا توبيخاً شديداً، وقيلَ لهم: أكنتم تخوضون وتلعبون وتستهزئونَ بالله ورسولِهِ، وقد حَكَمَ اللهُ تعالى على من قام بمثلِ ما قاموا بالكفر.

وأعلمنا اللهُ ربُّنا -تباركَ وتعالى- أنَّ المنافقينَ قائمونَ على الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، وهم بخلاءُ تركوا أوامر الله وشرعِهِ، فتركهم ربُّ العبادِ، وتخلّى عنهم، وأخيراً أعلمنا ربنا عزَّ وجلَّ أنَّه وَعَدَ المنافقين والكفارَ نارَ جهنمَّ، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ النارَ هي حسبُ المنافقين والكفارِ، وأعلمنا أنَّه سبحانه طردهم من رحمته، ولهم عذاب مقيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٦٢)
أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ
(٦٣) يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا
تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ
كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ
بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ (٦٦) ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ
ٱلْفَـٰسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ
وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٦٨)﴾ [التوبة:٦٢-٦٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المنافقون يحلفون للمؤمنين ليرضوهم والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضوه:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين يحلفونَ بالله كاذبين، ليُرضُوا المؤمنين، واللهُ ورسولُه أحقُّ أنْ يرضوه إنْ كانوا مؤمنين، ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة:٦٢]. واكتفى في الآيةِ بالضمير الواحد ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ لأنَّ إرضاءَ الله إرضاءٌ لرسوله، وإرضاءُ الرسولِ ﷺ إرضاءٌ لله، ورجوع الضمير على أحد المتعاطفين اكتفاءً به أسلوب معروفٌ كثيرٌ في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة:٣٤]، وقوله: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة:٤٥]، وقوله: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ ولكنهم لم يكونوا مؤمنين.

٢- الذي يحادِدِ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ فله نارُ جهنَّم خالداً فيها:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه من يحادِدِ اللهَ ورسولَه فله نارُ جهنَّمَ خالداً فيها، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة:٦٣]، قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي: عَلِموا، أو هو استفهام تقريرٍ، أي: أنَّ السامع إذا سمع قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ﴾ قال: بلى نَعْلَم أنه من يحادد الله ورسولَهُ فإنَّ له نارَ جهنَّم، أي يشاقق اللهَ ويعاصيه، والمحادّة من الحدِّ، لأن المحادَّ يكون في الحدِّ الذي ليس فيه من حاده، وتقول فلانٌ مشاقٌّ لفلان، أي: مشاقٌّ له ومعادٍ لَهُ، وقولُهُ: ﴿فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ أضاف النارَ إلى جهنم، لأنَّ جهنَّم طبقةٌ من طبقاتِ النار.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ أي: خلودُهُم في النارِ هو الذلُّ الأكبرُ والهوانُ الأعظم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المجادلة:٢٠].

والخلودُ في النار خلودٌ أبدي سرمديٌّ، لا ينتهي، ولا يتوقفُ قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وقال: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء:٩٧].

جنـــــة الســـــنة

٣- خوفُ المنافقين وخشيتُهم من إنزال الله تعالى سورة تفضحُ وتكشفُ ما في قلوبهم:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين كانوا يخشون ويخافون أن تُنزَّلَ في شأنهم سورةٌ تكشفُ ما في قلوبهم، وتفضحُ أسرارهم ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [التوبة: ٦٤].

بيَّن اللهُ تعالى أن المنافقين كانوا في غايةِ الخوفِ والقلقِ والحذرِ من أنْ ينزل اللهُ على نبيه قرآناً يكشف به أسرارَهُمْ، ويفضحُ ما تنطوي عليه ضمائرُهُمْ من الكفر والنفاقِ والباطل.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تعالى مخرجٌ لنبيِّه ما تسرُّونَهُ وتبطنونَهُ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن يعلم بعضَ ما أنزل اللهُ إليه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [التوبة:١٠١]. ووعد الله تعالى رسولَهُ أن يُعرِّفه بالمنافقين ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد:٣٠].

وقد أطْلع اللهُ تعالى نبيَّهُ على المنافقين، وعرَّفه بهم، وأطلع النبيُّ صاحبَهُ حذيفةَ بن اليمانِ على أسماءِ بعضٍ منهم، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ أي: سينزل على رسولِهِ ما يفضحكم بِهِ، ولهذا سمَّى الصحابةُ هذه السورة الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين.

٤- اعتذارُ المنافقين عن بعض ما قالوه من الكفر بقولهم: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾:

قال بعضُ المنافقين في تبوكَ قولاً خبيثاً، فلما سألهم الرسولُ ﷺ عما قالوه، اعتذروا عذراً أقبح مِنَ الذنب، فقالوا معتذرين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾، فأمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يردَّ عليهم رَدّاً قويّاً عنيفاً بقوله: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [التوبة:٦٥] وأمره أنْ يقول لهم: ﴿لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة:٦٦].

نزلت الآيتان السابقتان في غزوةِ تبوك في قوم استهزؤوا بالرسولِ ﷺ، واستَخفُّوا به، فسألهم الرسولُ ﷺ، فاعتذروا اعتذاراً كاذباً، وقالوا: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ﴾ فأمره اللهُ تعالى أنْ يقولَ لهم: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وهذا يدلُّ على أنَّ الاستهزاءَ باللهِ وآياتِهِ ورسولِهِ كفرٌ بواحٌ لا عذر لصاحبه ألْبَتَّة.

جنـــــة السـنة

وقوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ [التوبة:٦٦] أي: إن نعفُ عن طائفةٍ مِنَ الذين قالوا هذه المقالة، واعتذروا بذلك العذر، نعذِّبْ طائفةً أُخرى، لأنهم كانوا مصرِّينَ على باطلهم ونفاقهم، ويدلُّ قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ۝٦٦﴾ على أنَّ المُصِرَّ على الكفرِ والنفاقِ من غير إقلاعٍ ولا توبةٍ مجرمٌ، والمجرمُ مرتكبُ الجريمةِ، والجريمةُ الذنب العظيم الذي يستحقُّ صاحبه النكالَ العظيمَ.

٥- المنافقون والمنافقات يشكّلون وحدةً فيما بينهم:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين والمنافقات يشكِّلون فيما بينهم وَحْدَةً ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ [التوبة:٦٧].

والمرادُ بالمنافقين الذين يظهرون الإيمانَ مِنَ الذكور، والمنافقاتُ الإناثُ من أهل النفاق، وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ﴾ أي: أنَّ بعضَ المنافقين من بعضٍ، وليسوا منكم كما يدَّعون، لأنَّ المنافقين والمنافقاتِ أخلاقُهم واحدةٌ، وعقائدهم واحدةٌ، وقد حَدَّد اللهُ تعالى أهمَّ ركيزتين يتصف بهما أهل النفاقِ، وهما أمرهم بالمنكر، ونهيهم عن المعروف ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ وهاتان الركيزتان مخالفتان لما يتصفُ به المؤمنون، فالمؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والمنكرُ ما أنكره الشرع، ولم يأْذنْ فيه، والمعروفُ: ما عَرَفَهُ الشرعُ، ودعا إليه، وأمر به.

وقوله: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ﴾ المرادُ بقبضهم أيديهم أنَّهم بخلاء، فهم لا يزكُّون، ولا ينفقون، وقوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ أي: تركوا أوامرَ الله وارتكبوا مناهيه، ﴿فَنَسِيَهُمْ ۗ﴾ أي: تركهم من كلِّ خير ومن كلِّ ثواب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٦٧﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله تعالى وإن زعموا كاذبين أنَّهم مؤمنون موحِّدون.

وتهدَّد الله تعالى المنافقين والمنافقاتِ وتوعَّدهم فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ۝٦٨﴾ [التوبة:٦٨].

وَعَدَ اللهُ تعالى المنافقين والمنافقاتِ والكفارَ بإدخالهم في نارِ جهنَّم خالدين فيها، والأمرُ الجامعُ للمنافقينَ والكفارِ هو الكفرُ، والفارقُ بينهم أنَّ المنافقين يُسِرُّون الكفرَ، والكفارُ

جنـــــة السـنة

يعلنونه، وقوله تعالى: ﴿هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كافيتهم مِنَ العقابِ، وقوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طَرَدَهُم وأبعدهم من رحمته، واللعنةُ في الشرع: هي الطردُ والإبعادُ عن رحمة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ أي: عذابٌ دائم، لا يزولُ، ولا يحولُ، ولا ينقطعُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يحلفُ المنافقون بالله كاذبين ليُرْضُوا المؤمنين غير مبالين برضا الله ورضا رسوله ﷺ.

٢- الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه لهم نار جهنَّم ولهم خزي عظيم.

٣- المنافقون يخافون أن ينزِّلَ اللهُ فيهم سورةً تكشف أسرارهم، وتعلن أخبارهم.

٤- يعيب المنافقون الرسولَ ﷺ وأصحابه، ويطعنون فيهم، وعندما يسألون عما يقولون يزعمون أنهم كانوا يخوضون ويلعبون، فيوبَّخون ويؤنبون، ويقال لهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٥- الذي يهزأُ بالله ورسولِهِ وآياتِهِ كفارٌ خارجون عن شريعةِ الله.

٦- المنافقون والمنافقاتُ بعضهم أولياءُ بعضٍ، ووحدتهم قائمةٌ على الأمر بالمنكرِ والنهي عن المعروفِ، وهم بخلاءُ، لا يزكُّون، ولا ينفقون، نسوا أمْرَ الله، فتركهم وتخلَّى عنهم.

٧- وَعَدَ اللهُ تعالى المنافقين والكفارَ نارَ جهنَّم، لأنَّهم جميعاً كفارٌ، فالنارُ حسبهم، وقد طردهم من رحمته، وأعدَّ لهم عذاباً دائماً.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني الثاني عشر من سورة التوبة

تهدَّد اللهُ تعالى المنافقين والكفارَ أنْ يفعل بهم فعل الأمم المكذِّبة من قبلهم

أولاً: تقديم

تهدَّدَ ربُّ العزة -سبحانه- الكفارَ والمنافقين أنْ يفعل بهم فعلَ الذين خَلَوْا من قبلهم الذين كذَّبوا رسله، مثلَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مدين وقومِ لوط، وأثنى الله تعالى على المؤمنينَ والمؤمنات وأعلمنا أنَّهم وحدةٌ واحدةٌ، يأْمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ووعدهم ربُّ العزة جناتٍ تجري من تحتها الأنهار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة:٦٩-٧٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تهديدُ الله تعالى الكفارَ والمنافقين بأنْ يفعل بهم فعلَ الذين كفروا:

تهدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ والمنافقين في العهد النبويِّ بأن يفعل بهم فعلَ من كان قبلهم، وقد كانوا أشدَّ قوةً وعتاداً وأموالاً، قال تعالى: ﴿كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً

جنـــــة السـنة

﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [التوبة:٦٩]، والكافُ في قولِه: ﴿كَالَّذِينَ﴾ اسم بمعنى مثل في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، والمعنى: أنتم أيها الكفارُ والمنافقون مثلُ الذين كانوا من قبلكم، والذين من قبلهم الأمم التي كذَّبت رسلها كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرهم.

وقوله: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ [التوبة:٦٩] أي: كانت تلك الأممُ التي قبلهم أقوى أجساداً، وأطولَ أعماراً، وأكثرَ أموالاً وأولاداً، ومع ذلك أهلكهم اللهُ ودمَّرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة:٦٩] والمعنى أنَّ الكفارَ السابقين تمتَّعوا بنصيبهم وحظِّهم الدنيويِّ الذي أعطاهم اللهُ إياه استدراجاً لهم، والخلاقُ: النصيبُ، وكذلك فعل الكفار والمنافقون في العهد النبويِّ، ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: استمتعم أيها الكفار والمنافقون بنصيبكم الدنيويِّ، مؤثرين الدنيا على الآخرة، ﴿كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ﴾ أي: فعلتم فعل الذين من قبلكم، ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ أي: خضتم في الباطلِ والكفرِ وتكذيبِ الرسلِ مثل خوضِ الذين خاضوا من قبلكم، وأصلُ الخوض في الماءِ، ولا تطلق العربُ الخوضَ إلاَّ على الخوضِ بالباطل.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [التوبة:٦٩] وحبوطُ الأعمالِ بطلانها واضمحلالُها حتى لا يظهرَ لها أثر ينتفعون به يوم القيامة، والحَبَطُ نَبْتٌ يَنْبُتُ في الباديةِ إذا أكلته الدوابُّ، انتفخت بطونها وماتت، وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ أي: أولئك هلكت حظوظهم عند ربِّهم، ومن خسر حظَّه عند ربِّه، فقد خسر الخسرانَ المبين.

٢- ضرب اللهُ تعالى المثلَ للمنافقينَ والكافرينَ بالأممِ المعذَّبة من قبلهم:

ضَرَبَ اللهُ تعالى المثَلَ للكافرين والمنافقينَ بالأقوام الذين كفروا على مدارِ التاريخ الإنسانيِّ ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٧٠]. يقولُ اللهُ تعالى للمنافقين والكافرين واعظاً لهم: قد جاءَهم نبأُ الذين من قبلهم، وذكر منهم قومَ نوحٍ الذين كفروا وكذَّبوا فأغرقهم اللهُ تعالى بالطوفان،

جنـــــة الســـنة

وقوم عاد، وقد أرسل الله تعالى إليهم هوداً، وكانوا يسكنون جنوب الجزيرة العربية، فكذبوا رسولَهم فأخذتهم الريحُ العقيمُ، وثمودَ وكانوا يسكنون شمالَ الجزيرة العربية، فأرسل الله تعالى إليهم رسولَهُ صالحاً، فكذَّبوه، فأخذتهم الصيحةُ وأهلكَ الله تعالى قومَ إبراهيم، وقد أرسله اللهُ تعالى إلى أهل العراق إلى نمرود وقومه، فأهلك الله نمرودَ ودمره.

وأهلك اللهُ تعالى أصحابَ مَدْيَنَ، فقد أرسل اللهُ تعالى إليهم شعيباً فأخذتهم الرجفةُ والصيحةُ وعذابُ يوم الظلَّةِ، وأهلك اللهُ تعالى المؤتفكاتِ، وهم قومُ لوطٍ، وقد دمَّرَ اللهُ قراهم عن آخرها، لتكذيبهم نبيَّهم لوطاً ﷺ، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ [التوبة:٧٠].

وقولُهُ تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [التوبة:٧٠]. أي: جاءتهم رسلُهُمْ بالحجج والدلائل القاطعاتِ ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي: بإهلاكِه إياهم، لأنه أرسل لهم الرسلَ، وأنزلَ عليهم الكتب، وآتاهم البينات والحجج الواضحاتِ، وظُلْمُهُمْ أنفسهم كان بتكذيبهم الرسلَ ومخالفتهم الحقَّ الذي أنزله الله تعالى إليهم.

٣- صفاتُ المؤمنين الموحدين:

بيَّن اللهُ تعالى فيما سبقَ صفاتِ المنافقين الخبيثةِ، ثم أتبع ذلك بذكر صفاتِ المؤمنين الطيبة المحمودةِ، فقال: ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [التوبة:٧١].

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المؤمنين والمؤمنات يشكِّلون وحدةً واحدةً، ولذلك قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، وإذا أنت دققت النظر في حال المؤمنين وَجَدْتهم متحدين متوادِّين متحابين، فالدين يجمعهُمْ، والإيمانُ يوحِّدهم، وأعظم الركائز التي يتصفون بها أنهم يأمرونَ بالمعروف، وينهون عن المنكرِ، ويقيمونَ الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعونَ اللهَ تعالى ورسولَهُ، والمعروف ما جاء به الشرعُ مِنَ التوحيد والأعمالِ الصالحة، والمنكرُ ما ينكره الدين مِنَ الكفر والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وخصَّ الصلاةَ والزكاةَ بالذكر، لأنهما أعظمُ عبادتين، وذكر اللهُ تعالى أنَّ المؤمنين يطيعونَ اللهَ تعالى ورسوله ﷺ، والذين يفعلون

جنـــــة السـنة

ذلك كلّه ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ أشار اللهُ تعالى إلى المؤمنين والمؤمناتِ باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لرفعة منزلتهم وعظيم كرامتهم، وقوله تعالى: ﴿سَيَرۡحَمُهُمُ﴾ أي: سيدخلُهُم في رحمته تعالى. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٧١﴾ والعزيز: القويُّ الذي لا يُغْلَبُ، والحكيمُ، أي: في أقواله وأفعاله.

وقد جاءَت عدة أحاديث تدلُّ على قوة العلاقة فيما بين المؤمنين، فمن ذلك ما رواه أبو موسى عن النبيِّ ﷺ قال: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ، يشُدُّ بعضُهُ بعضاً» [البخاري: ٢٤٤٦. ومسلم: ٢٥٨٥].

وعن النعمان بن بشيرٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «تَرَى المؤمنين في تراحُمِهم، وتوادِّهم، وتعاطُفِهِمْ، كمَثَلِ الجسد، إذا اشْتكى عُضْو، تداعى له سائرُ جَسَدِه بالسَّهرِ والحُمَّى» [البخاري: ٦٠١١. ومسلم: ٢٥٨٦].

٤- ما وعد به ربُّ العزة المؤمنين والمؤمنات في الآخرة:

وَعَدَ اللهُ -تعالى- المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، فقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ [التوبة:٧٢] وقد وصف ربُّ العزة الجناتِ التي وعدها المؤمنين والمؤمنات بأربعِ صفاتٍ: الأولى: جَريانُ الأنهارِ من تحت قصورها وبساتينها. والثانية: أنهم خالدون في تلك الجناتِ، لا يرحلونَ عنها، ولا يظعنون. والثالثة: لهم فيها مساكنُ طيبةٌ، وهذه المساكنُ قصورٌ من ذهبٍ وفضةٍ، وقد تكونُ من لؤلؤ، ولذلك قال الله تعالى فيها ﴿طَيِّبَةٗ﴾. والرابعةُ: أنها دارُ عدنٍ، أي: دارُ الجناتِ الدائمة غير المنقطعة.

وقوله تعالى: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: أن رضوان الله تعالى أعظمُ من كلِّ شيءٍ، وأنَّ رضوان الله تعالى مهما كان قليلاً، لا يساويه شيءٌ، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٧٢﴾ والمشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ما ذكره الله تعالى من الجناتِ وما فيها من النعيم، وهذا الذي حازه المؤمنون هو الفوزُ العظيمُ.

وقد جاءت أحاديثُ كثيرةٌ في وصف الجناتِ التي تجري من تحتها الأنهار، منها ما رواه أبو بكر بن عبدالله بن قيسٍ، عن أبيه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ في الجنةِ خيمةً من لؤلؤةٍ مُجوَّفةٍ، عَرْضُها سِتُّونَ ميلاً، في كل زاويةٍ منها أهلٌ، ما يرونَ الآخرينَ، يطوفُ عليهمُ المؤمنونَ» [البخاري: ٤٨٧٩].

جنـــــة السنـــــة

«وجنَّتانِ من فضةٍ آنِيَتُهما، وما فيهما، وجنَّتان من كذا آنِيَتُهما وما فيهما، وما بينَ القومِ وبين أن ينظروا إلى ربِّهم، إلا رِداءُ الكِبْرِ على وجهه في جنةِ عدنٍ» [البخاري:٤٨٨٠].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ : «من آمَنَ بالله وبرسولِه، وأقامَ الصلاةَ، وصامَ رمضانَ، كان حقاً على الله أنْ يُدخِله الجنَّةَ، جاهَدَ في سبيلِ الله أو جَلَسَ في أرضِه التي وُلِدَ فيها» فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نُبشِّرُ الناسَ؟ قال: «إنَّ في الجنَّةِ مئةَ درجةٍ أعَدَّها اللهُ للمجاهدينَ في سبيلِ الله، ما بينَ الدرَجَتَينِ كما بينَ السماءِ والأرضِ، فإذا سألتُمُ اللهَ فاسألُوه الفِرْدَوْسَ، فإنه أوسَطُ الجنةِ، وأعلى الجنةِ -أُراه: فوقَه عَرْشُ الرحمنِ- ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنةِ» [البخاري: ٢٧٩٠].

وعن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة لشجرةً يسيرُ الراكِبُ الجَوادَ المُضَمَّرَ السريعَ مئةَ عامٍ ما يَقْطَعُها» [البخاري: ٦٥٥٣].

وعن سَهْلٍ، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ أهلَ الجنةِ ليَتَراءَوْنَ الغُرَفَ في الجنةِ، كما تتراءَوْنَ الكَوْكَبَ في السماءِ» [البخاري: ٦٥٥٥].

وقال أُبيٌّ: فحدَّثتُ النُّعْمانَ بنَ أبي عَيّاشٍ، فقال: أشهَدُ لسمعتُ أبا سعيدٍ يُحدِّثُ ويزيدُ فيه: «كما تَراءَوْنَ الكَوْكَبَ الغاربَ في الأُفُقِ الشرقِيِّ والغربِيِّ» [البخاري: ٦٥٥٦].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- تهَدَّدَ ربُّ العزَّةِ المنافقين والكفارَ أن يفعل بهم مثلَ ما فعل بالمعذبين مِنَ الأُممِ السابقة المكذِّبةِ لرسلها، وقد كان السابقون أكثرَ قوةً وأموالاً وأولاداً.

٢- ضربَ المثلَ للأمم المعذَّبة بقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقومِ إبراهيم وأصحابِ مدين والمؤتفكاتِ وهم قومُ لوط ﷺ.

٣- أثنى اللهُ تعالى على المؤمنين والمؤمناتِ، فهم يشكِّلون وحدةً واحدة، ويأمرون بالمعروفِ، وينهونَ عن المنكرِ، ويقيمونَ الصلاةَ، ويؤتون الزكاةَ، ويطيعونَ اللهَ ورسولَهُ.

٤- وَعَدَ اللهُ المؤمنينَ والمؤمناتِ جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، وقد وصف اللهُ تعالى هذه الجناتِ بأربعِ صفات كما سبق بيانه.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة التوبة
أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يجاهدَ الكفارَ والمنافقينَ ويَغْلُظَ عليهم

أولاً: تقديم

أمر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه الآياتِ أن يجاهدَ الكفار بالقولِ والفعلِ، وتوعَّدهم بالنار، وبئس المصير. وذمَّ اللهُ -تعالى- المنافقين بحَلفهم كاذبين متبرئين مما قالوه من الكفر، وبيَّنَ ربُّ العزة أنَّهم قالوا ما قالوه من الكفر، وذمَّهم بأعمالهم التي عملوها.

وذمَّ فريقاً آخر منهم عاهدوا الله تعالى أنه إذا أعطاهم من فضله، أي: مِنَ المالِ والغنى، فإنَّهم سينفقون ويتصدقون، فأخلفوا اللهَ ما وعدوه، وبخلوا بما أعطاهم ربُّ العزة، فأعقبهم نفاقاً إلى يوم القيامةِ.

وذمَّ الذين يعيبون المؤمنين فيما يؤْتونَهُ من المالِ القليل الذي يجدونه، وأعلم أنهم يسخرونَ من هؤلاء، فأعلمنا اللهُ سبحانه أنَّه سَخِرَ منهم، وأنَّ لهم عذابٌ أليمٌ موجعٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟
إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى
ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن
فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ
﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ
يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ
ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْۙ سَخِرَ ٱللَّهُ
مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٣-٧٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- أمَرَ الله تعالى رسولَهُ ﷺ بجهادِ الكفار والمنافقين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يجاهد الكفارَ والمنافقين وأنْ يَغلِظَ عليهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْۚ﴾ [التوبة:٧٣] وجهادُ الكفار والمنافقين قد يكونُ

جنـــــة السـنة

باللسانِ وقد يكون بالسنانِ، والغلظةُ: الشدةُ عليهم بالتعنيفِ والتوبيخ، وقد تكونُ الغلظةُ بالحربِ والقتال.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ أي: الدارُ التي تؤويهم يومَ القيامة هي النار، لا دارَ لهم غيرها، وهذه الدارُ أقبحُ دارٍ، وأشدُّها هولاً، ولذلك قال فيها: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾.

٢- ذمُّ اللهُ تعالى المنافقين أعظم ذمٍّ:

ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين خرجوا معه في غزوةِ تبوك، فقال فيهم: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٤].

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين الذين كانوا في جيشِ المسلمين في غزوةِ تبوك كانوا يحلفون بالله ما قالوا ما قالوه من الكفر والباطل، وأخبر العليمُ الحكيم الصادقُ سبحانه أنهم ﴿قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ﴾ .

وقد جاء في كتب السنّة أحاديثُ صحيحة عن هؤلاء المنافقين الذين كانوا في جيش المسلمين في تبوك، وكيف أنهم أرادوا قَتْلَ الرسولِ ﷺ في تلك الغزوةِ، عن أبي الطُّفيل قال: لما أقبلَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوكَ، أمر منادياً فنادى: «إنَّ رسولَ الله أخذَ العقبةَ فلا يأخُذْها أحَدٌ». فبينما رسولُ الله ﷺ يقودُه حذيفةُ ويسوق به عمّارُ، إذ أقبل رَهْطٌ متلثمون على الرواحلِ، فغَشُوا عَمَّاراً وهو يسوقُ برسولَ الله ﷺ وأقبلَ عمارٌ ﷺ يَضْرِبُ وجوهَ الرواحلِ، فقال رسول الله ﷺ لحذيفة: «قُدْ، قُدْ» حتى هبط رسول الله ﷺ ، فلما هبط رسول الله ﷺ نزل ورجع عمار، فقال: «يا عمارُ، هل عرفتَ القومَ؟» فقال: قد عرفت عامةَ الرواحل، والقومُ متلثِّمونَ. قال: «هل تدري ما أرادوا؟» قال: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «أرادوا أن يَنْفِروا برسول الله ﷺ راحلته فيطْرَحُوهُ» قال: فسأل عمارٌ رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: نَشَدْتُكَ بالله كم تعلمُ كان أصحابُ العقبة؟ قال: أربعةَ عَشَرَ. فقال: إن كنتَ فيهم فقد كانوا خمسة عشر. قال: فعذرَ رسولُ الله ﷺ منهم ثلاثةً قالوا: والله ما سمعنا مناديَ رسولِ الله، وما علمنا ما أرادَ القومُ. فقال عمَّارُ: أشهدُ أن الاثني عَشَرَ الباقين حربٌ لله -عزَّ وجلَّ- ولرسولِهِ

جنـــــة السـنـــــة

في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٤١٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٣-٤٥٤) من حديث أبي الطفيل الليثي، وقال الهيثمي في المجمع ٦/ ١٩٥: رجاله ثقات، وهو كما قال، لكن الوليد فيه لين، وهو من رجال مسلم].

وعن قيس بن عباد، عن عمار بن ياسر قال أخبرني حذيفة عن النبي ﷺ قال: «في أصحابي اثنا عَشَرَ مُنافِقاً، فيهِمْ ثمانيةٌ لا يدخُلُونَ الجنةَ حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سُمِّ الخِياطِ، ثمانيةٌ منهم تَكْفيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ وأربعةٌ» لم أحفظ ما قالَ شُعْبَةُ فيهِمْ [مسلم: ٢٧٧٩ (٩)]. وسمُّ الخياطِ: ثُقْبُ الإبرة، والدُّبَيْلَةُ: سراجٌ من نار.

وقال غُنْدَرٌ: أُراهُ قال: «في أُمَّتي اثنا عشر مُنافِقاً لا يدخلون الجنةَ، ولا يجدون ريحها، حتى يَلِجَ الجَمَلُ في سِمِّ الخِياطِ، ثمانيةٌ منهم تكفيكَهُمُ الدُّبيلَةُ، سراجٌ من النارِ يظهرُ في أكتافِهِمْ، حتى يَنْجُمَ من صُدورِهِمْ» [مسلم: ٢٧٧٩ (١٠)].

وعن أبي الطُّفَيْلِ قال: كان بين رجلٍ من أهلِ العقبةِ وبين حُذيفَةَ بعضُ ما يكونُ بين الناسِ، فقالَ: أَنْشُدُكَ باللهِ! كم كان أصحابُ العقبةِ؟ قال: فقالَ له القومُ: أَخْبِرْهُ إذ سألكَ، فقال: كنا نُخْبَرُ أنهم أربعةَ عَشَرَ، فإن كنتَ منهم فقد كان القومُ خمسةَ عشر، وأشهدُ باللهِ أنَّ اثني عَشَرَ منهم حربٌ للهِ ولرسولِهِ في الحياة الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، وعَذَرَ ثلاثةً، قالوا: ما سمعنا مناديَ رسولِ الله ﷺ ولا علِمنا بما أرادَ القومُ، وقد كان في حَرَّةٍ فمشى فقال: «إنَّ الماءَ قليلٌ، فلا يسبِقُني إليه أحدٌ» فوَجَدَ قوماً قد سبقوهُ، فلعنهم يومئذ [مسلم: ٢٧٧٩ (١١)].

وقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ يعني المنافقينَ الذين أرادوا قتلَ الرسولِ ﷺ في أثناء عودته من غزة تبوك، وكانوا اثني عشرَ رجلاً كما سبق بيانه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة:٧٤]. وهؤلاءِ المنافقونَ كانوا عالةً فقراءَ، فأغناهم اللهُ تعالى ورسولُهُ ﷺ من فضلِهِ، أي: وسَّعَ اللهُ عليهم في أرزاقهم، وكثَّر أموالَهم، وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾ [التوبة:٧٤]، أي: وإن يُعْرِضوا عن الإيمانِ باللهِ تعالى والتوبةِ إليه، يعذِّبهم اللهُ تعالى عذاباً موجعاً في الدنيا والآخرة، ولا يوجدُ لهم في الدنيا وليٌّ يتولاهم، ولا نصيرٌ يناصرهم ويحميهم.

وقوله تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [التوبة:٧٥] أي: ومِنَ المنافقين من عاهد اللهُ تعالى لئن أعطانا من فضله، أي:

جنـــــة الســـــنة

لئن أعطاهم الله تعالى المالَ مِنَ الذهب والفضةِ والأنعام لنصدَّقن من فضله، ولنكونن من الصالحين.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة:٧٦] أي: فلما أغناهم ربُّ العزة، وأعطاهم المالَ، بخلوا بذلك المالِ، وكنزوه، ولم يتصدَّقوا، ولم يكونوا من الصالحين، وتولَّوا عن الإنفاقِ، وهم معرضون عما عاهدوا اللهَ عليه.

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة:٧٧]. أخبرنا ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنه -تبارك وتعالى- أعقب هؤلاءِ المنافقين نفاقاً حلَّ في قلوبهم إلى يوم لقياهم إياه، وهو يوم القيامة، بسبب إخلافهم الله تعالى ما وعدوه، وبسبب كذبهم عليه، وقد تهدَّد اللهُ تعالى هؤلاءِ المنافقين بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة:٧٨]. عنَّفَ اللهُ تعالى المنافقين في هذه الآية، وقال فيهم: قد علموا أنَّ الله يعلم ما تخفيه صدورهم، وما يتحدثون به سرّاً فيما بينهم، وأنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- علام الغيوب، وعلاَّم صيغةُ مبالغةٍ، والغيوبُ ما غاب عن الناس، وخفي عنهم.

وقد ذكر كثير من المفسرين أن هذه الآياتِ نزلت في الصحابي الجليل ثعلبةَ بن حاطب الأنصاري، وذكروا أنه هو الذي طلب من الرسول ﷺ أن يدْعو له بكثرةِ المالِ، فلما كَثُر ماله بخلَ به، ونقض عهدَهُ مع ربِّه، وهذ الحديث الذي ذكروه، وساقوه سبباً لنزولِ الآياتِ حديثٌ باطلٌ غيرُ صحيح، وثعلبة بريء منه، [قال محقق ابن كثير في تخريجه (٣/ ٤١٧) ما خلاصته: إسناده واهٍ بمرَّةٍ، والمتنُ باطل، وإسناده ضعيف، وهو مسلسل بالضعفاء، وقال القرطبي في هذا الحديث (القرطبي: ٤/ ٥٣٤): ثعلبةُ أنصاريٌّ بدريٌّ، وممن شهد اللهُ له ورسوله بالإيمان، فما روي عنه غير صحيح، قال أبو عمر: ولعل قول مَنْ قال في ثعلبةَ أنه مانعُ الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح. وقد شوَّه هذا الحديثُ الضعيف سيرةَ هذا الصحابيِّ الجليل، وذكره كثيرٌ من المفسرين محتجّاً به، ولم يبيِّن ضعفَه، فراجت هذه الفرية على كثير من الناس، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله].

٣- الذين يلمزونَ المطوعين من المؤمنين في الصدقات:

حدَّثنا العليمُ الخبيرُ -سبحانُه وتعالى- أنَّ بعضَ المنافقين كانوا يلمزون المؤمنين في الصدقات ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [التوبة:٧٩].

جنـــــة السـنـة

أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ المنافقين لم يَنْجُ من ألسنتهم أحد أنفق أمواله في وجوهِ الخيرِ، واللَّمْزُ العيبُ باللسان، فكان المنافقون يعيبونَ الذين يتبرعون بأموالهم من المؤمنين في الصدقات، وكانوا يسخرون من المؤمنين الذين لا يجدون إلا القليلَ من مالهم، فيسخرون منهم، ويهزؤون بهم، وقد عاجلهم ربُّ العزة بقوله فيهم: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ وأخبر أنَّ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾. وقد روى البخاريُّ رحمه الله تعالى عن أبي وائلٍ، عن أبي مسعودٍ قال: لما أُمِرْنا بالصدَقةِ كنا نتحامَلُ، فجاءَ أبو عَقيلٍ بنصفِ صاعٍ، وجاءَ إنسانٌ بأكثرَ منه.

فقال المنافقونَ: إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن صدقةِ هذا، وما فَعَلَ هذا الآخرُ إلا رِئاءً، فنزلت: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية [البخاري: ٤٦٦٨. ومسلم: ١٠١٨].

وعن شقيقٍ، عن أبي مسعودٍ الأنصاريِّ، قال: كان رسولُ الله ﷺ يأمُرُ بالصدقةِ، فيحْتالُ أحدُنا حتى يجيءَ بالمُدِّ، وإنَّ لأحدِهمُ اليومَ مئةَ ألفٍ؛ كأنَّه يُعرِّضُ بنفسه؟ [البخاري: ٤٦٦٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يجاهدَ الكفارَ بالقولِ والفعل وأمره أنْ يجاهد المنافقين بقولِهِ، وأمره -تعالى- أن يغلُظ عليهم في جهادِهِ لهم.

٢- كان المنافقون يرمون المؤمنين بالدواهي، ثم يتنصَّلون من ذلك، ويدرؤون عن أنفسهم بالأيمان الكاذبة.

٣- تهدَّدَ اللهُ تعالى المنافقين بأنهم إن لم يتوبوا ويرجعوا عن نفاقِهم وكفرهم أنْ يعذِّبهم اللهُ تعالى بكفرهم ونفاقهم.

٤- بعضُ المنافقين عاهدوا اللهَ تعالى، لئن آتاهم ربُّ العزة من فضله ليَبْذُلُنَّ أموالَهُم في الصدقاتِ، فأخلفوا اللهَ تعالى ما وعدوه، فأعقبهم ربُّ العزَّةِ نفاقاً إلى يوم يلقونه.

٥- شَوَّه بعضُ رواةِ الحديثِ سيرةَ الصحابي الجليل، وهو ثعلبةُ بنُ حاطبٍ، وهو أنصاري بدريٌّ، فزعموا أنَّه المعنيُّ بالآياتِ التي تذمُّ الذين عاهدوا اللهَ بالبذلِ والعطاءِ إنْ أعطاهم اللهُ تعالى الغنى والمالَ، وهذا غيرُ صحيح، فلم يَرِدْ في ذلك حديث يصحُّ الاحتجاجُ به، وثعلبةُ ﷺ بريءٌ مما رُمِيَ به.

جنـــــة السـنــــة

٦- ذمَّ الله تعالى المنافقين الذين يعيبون المنفقين من أموالهم يريدون وجهَ الله تعالى، وأثنى اللهُ تعالى على المنفقينَ الذين لا يجدون إلا جهدهم، وسَخِرَ اللهُ من الساخرين، وأخبر أن لهم عذاباً أليماً.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني الرابع عشر من سورة التوبة
لا يجوز الاستغفار للمنافقين والصلاة عليهم

أولاً: تقديم

نهى اللهُ -تعالى- في هذه الآيات عن الاستغفارِ للمنافقين، وذمَّهم بفرحِهِمْ لقعودِهِمْ عن الغزو مع رسول الله ﷺ، وكراهتهم الجهادَ في سبيلِ الله بالمالِ والنفسِ، وأخبرنا أنَّ المنافقين وإنْ فرحوا في دنياهم، فإنهم سيبكون طويلاً في أُخراهم، وأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بمنع المنافقين الذين تخلفوا عنه في تبوك مِنَ الخروج معه مرةً أخرى، ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ معه عن الإعجاب بأموالِ المنافقين، وأولادِهم، فإنها إلى زوالٍ، وعاقبةُ ما أعطاهم اللهُ تعالى العذابُ والنكال.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٠-٨٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ استغفارَه للمنافقين وعدمَهُ سواءٌ:

أخْبَرَ اللهُ -تعالى- رَسولَهُ ﷺ أنَّ استغفاره للمنافقين وعدمه سواء، وأخْبَره أنه لو استغفرَ لهم سبعينَ مرةً، فلن يغفرَ اللهُ تعالى لهم، ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [التوبة:٨٠].

جنـــــة السـنة

والسببُ في عدم غفرانِ الله -تعالى- لهم أنَّهم ليسوا بأهلٍ للاستغفار، لأنهم كفروا بالله الواحدِ الأحد، وكفروا برسولِهِ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٨٠﴾ أي: لا يهدي المتمرِّدين الخارجينَ عن طاعة الله عز وجل. وقوله تعالى: ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ فيها مبالغةٌ في عدم قبول الاستغفارِ لهم، والمعنى أنَّ اللهَ -تعالى- لن يغفر لهم، ولو استغفرت لهم استغفاراً كثيراً، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦﴾ [المنافقون:٦].

وهذه الآيةُ نزلت في صلاةِ الرسولِ ﷺ على عبدالله بن أُبيٍّ رئيسِ المنافقين، كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا﴾ [التوبة:٨٤].

٢- ذمُّ اللهُ -تبارك وتعالى- المنافقين بفرحهم بتخلُّفهم عن الخروجِ إلى تبوك:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- المنافقين ووبّخهم بسبب تخلفهم عن رسولِ الله ﷺ في غزوة تبوكَ، فقال تبارك وتعالى: ﴿فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ [التوبة:٨١].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ المنافقين قال بعضهم لبعضٍ قبيل غزوةِ تبوك: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ لأنَّ غزوةَ تبوك كانت في وقت شدةِ الحر وطيبِ الظلالِ والثمارِ، فقال لهم تبارك وتعالى: إذا كنتم تجزعون من شدة الحر، فنارُ جهنَّم أشدُّ حرّاً، وهي التي ينبغي أن تجزعوا، وتفزعوا، وتخافوا منها ﴿لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١﴾ أي: لو كانوا يفهمون.

وقوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة:٨٢]، أي: ليضحكوا مدةَ أعمارِهِمْ في الدنيا، ومُدَّةَ عُمرِ الإنسان في الدنيا قليلٌ، ﴿وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ أي: ليبكوا في الآخرة كثيراً، فالبقاءُ في النارِ بقاءٌ أبديٌّ سرمديٌّ، لا يزولُ ولا يحولُ. وقوله تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ أي: بقاؤُهُمْ في النار، وبكاؤُهم فيها جزاء بسببِ أعمالهم.

٣- عدم إذن الرسولِ ﷺ للمتخلفين عنه في تبوك بالخروج معه مرة أخرى:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ إنْ رجع إلى المدينة، فاستأذنَه الذين تخلَّفوا عنه من المنافقون في تبوك في الخروج معه في غزوةٍ أخرى، أن يقول لهم: ﴿لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ﴾ في أيِّ غزوةٍ من

جنـــــة السـنة

الغزواتِ، ولن آذن لكم أنْ تقاتلوا معي عدوّاً إنكم رضيتم بالقعودِ ورائي في المدينة أول مرة عند الخروج إلى تبوك، فاقعدوا عني أبداً ودائماً مع الخالفين ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [التوبة:٨٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا كقوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام:١١٠]. هؤلاءِ رَضُوا بالقعودِ خلافَ رسولِ الله ﷺ أوّلَ مرةٍ، فعاقبهم بمنعهم مِنَ الخروج معه بعد ذلك أبداً. والمرادُ بالخالفين في قوله تعالى: ﴿فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ النساءُ والصبيانُ والضعفاءُ والزمنى.

٤- نهيُ اللّه -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يصليَ على أحدٍ من المنافقين وأنْ يقومَ على قبره:

نهى اللّهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يصليَ على المنافقين وأن يقومَ على قبورهم، فقال: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤] وبيّن اللّهُ -تبارك وتعالى- السببَ في هذا النهي، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة:٨٤]، فالمنافقون وإنْ أظهروا الإيمانَ إلا أنهم يُبْطِنون الكفرَ ويُسِرُّونه، وكلُّ من ماتَ على الكفر لا تجوز الصلاةُ عليه. وقوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي: ماتوا وهم كافرون خارجون عن طاعةِ الله عز وجل.

وهذه الآيةُ نزلت في عبدالله بن أبيٍّ كبيرِ المنافقين، فدُعيَ الرسولُ ﷺ للصلاةِ عليه، فصلَّى عليه، وقام على قبرِه، فنهاه اللّهُ -تبارك وتعالى- عن ذلك كلِّه، فعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما تُوُفِّيَ عبدالله، جاءَ ابنُه عبدالله بنُ عبدالله إلى رسولِ الله ﷺ فسأله أنْ يعْطِيَه قميصَه يُكفِّنُ فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أنْ يُصلِّيَ عليه، فقامَ رسولُ الله ﷺ ليُصَلِّيَ عليه، فقامَ عمرُ، فأخذَ بثوبِ رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، تُصلِّي عليه! وقد نَهاكَ رَبُّكَ أنْ تُصلِّيَ عليه؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّما خَيَّرَني اللهُ، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة:٨٠]، وسأزيدُه على السبعينَ». قال: إنه مُنافقٌ، قال: فصَلَّى عليه رسولُ الله ﷺ فأنزَلَ اللهُ: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾ [التوبة:٨٤] [البخاري: ٤٦٧٠. ومسلم: ٢٤٠٠].

وعن ابنِ عباسٍ، عن عمرَ بن الخطاب ﷺ، أنه قال: لما ماتَ عبدالله بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولٍ، دُعِيَ له رسولُ الله ﷺ ليُصلِّيَ عليه، فلما قامَ رسولُ الله ﷺ، وَثَبْتُ إليه، فقلتُ: يا رسولَ الله أتُصلِّي

جنـــــة السنـــــة

على ابنِ أُبيٍّ، وقد قال يومَ كذا: كذا وكذا؟! قال: أُعَدِّدُ عليه قولَه، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وقال: «أخِّرْ عنِّي يا عمرُ»، فلما أكثرْتُ عليه قال: «إنِّي خُيِّرْتُ فاخترْتُ، لو أعلَمُ أني إنْ زِدْتُ على السَّبْعينَ يُغْفَرْ له، لَزِدْتُ عليها». قال: فصلَّى عليه رسولُ الله ﷺ ثم انصَرَفَ، فلم يَمْكُثْ إلا يسيراً، حتى نَزَلَتِ الآيتان من بَراءة: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ قال: فعَجِبْتُ بعدُ من جُرْأتي على رسولِ الله ﷺ، واللهُ ورسولُه أعلَمُ [البخاري: ٤٦٧١].

٥- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن أن يُعْجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم:

الدنيا عرضٌ زائلٌ، وعاريةٌ مستردَّةٌ، وقد يعطى اللهُ من حطامها الفاني الكفارَ والمنافقين، وقد تعظم هذه الدنيا التي أُوتيها هؤلاءِ في صدورِ المؤمنين، وقد أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ والذين اتبعوه بإحسانٍ أن لا يعجبهم ما أُوتيه هؤلاءِ، فعاقبةُ دنياهُمْ إلى زوالٍ وسيعذِّبُ اللهُ تعالى الكفارَ في الدنيا، ويأتيهم الموت وهم كافرون، فيعذبون بالمال في الآخرةِ كما عُذِّبوا به في دنياهم ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [التوبة:٨٥].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن الاستغفارِ للمشركينَ، فهم كفارٌ، والكافرُ لا يجوز الاستغفارُ له.

٢- تخلَّف المنافقون عن الغزو مع رسولِ الله ﷺ في تبوك، وفرحوا بقعودِهم عن الجهادِ، وقالوا: لا تنفروا في الحرِّ، فأعلمهم الله أنَّ مصيرهم النارُ، والنارُ أشدُّ حرّاً.

٣- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين سيفرحون ويضحكون في عمرهم الدنيوي القصير، ولكنهم سيبكون كثيراً في يومِ الحشر وفي النار.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا عادَ إلى المدينةِ أن يمنع المنافقينَ الذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك، أن يخرجوا معه للغزو مرةً أُخرى.

٥- نَهَى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يصليَ على المنافقينَ وأنْ يقومَ على قبورهم، فهم كفَّار، والكافرُ لا تجوز الصلاةُ عليه.

٦- لا يجوزُ للمؤمنين أن يعجبوا بأموالِ الكفارِ ولا أولادِهم، فهي عَرَضٌ زائل، وعاريةٌ مسترجعة، وسيعذَّبون بها في الدُّنيا والآخرةِ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الخامس عشر من سورة التوبة
الذين لم يقبل الله تعالى أعذارهم والذين قبلَ عُذْرهم

أولاً: تقديم

هذه الآيات الواردة في هذا النص لا تزالُ تتحدث عن المنافقين المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله تعالى في تبوك، وقد أثنت على الرسول ﷺ والذين آمنوا معه بجهادِهِم بأموالِهِمْ وأنفسهم، وبيَّنت ما أعدَّ اللهُ تعالى للمجاهدين من الجنات، وتحدَّثت عن الأعراب الذين اعتذروا بأعذارٍ مقبولةٍ، وبعضُهُمْ قعد عن الجهاد، ولم يستأذن الرسول ﷺ في القعود.

وتحدث اللهُ تعالى في هذه الآيات عن أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ أعذارهم، بعضُهم مرضى لا يستطيعون الخروجَ لضعفهم، وبعضُهم فقراء لا يجدون من المال ما ينفقون منه لتجهيز أنفسهم للحربِ والقتالِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة:

﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة: ٨٦-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين يتخلفون عن رسولِ الله ﷺ في الغزو:

ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين إذا أمرهم اللهُ تعالى بالإيمان والجهادِ في سبيلِهِ استأذن الأغنياء منهم الرسولَ ﷺ، وطلبوا منه أنْ يأذن لهم أن يكونوا مع الخالفين، ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ

جنـــــة السـنـة

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [التوبة:٨٦].

وقوله تعالى: ﴿سُورَةٌ﴾ نكرةٌ، تشمل كلَّ سورةٍ أمر فيها بالإيمان بالله، والجهادِ مع رسولِهِ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي: ذو الفضلِ والسعةِ منهم، ويدخل فيهم رؤساؤُهم وكبراؤُهم، فهم لا عذر لهم في القعودِ والتخلُّفِ عن الجهادِ.

وقوله تعالى: ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: ذرنا نتخلَّف مع القاعدين مِنَ النساءِ والأطفالِ والذرية والزمنى والمرضى، وذمَّهم ربُّ العزَّة سبحانه بقوله: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [التوبة:٨٧]، والخوالفُ جمعُ خالفةٍ، وهنَّ النساءُ اللاتي يخْلُفْنَ الرجالُ في القعودِ في البيوت، وجوَّزَ بعضُهم أن يكون جمعَ خالفٍ.

٢- أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ والمؤمنين معه بجهادهم بأموالهم وأنفسهم:

أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ ﷺ وأصحابِهِ الذين جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم، ووعدهم ربُّ العزةِ بالخيراتِ، والخيرات جَمْعَ خيرٍ، فيشملُ منافعَ الدنيا والدين، وقيل: المرادُ به النساءُ الحسانُ، كقوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن:٧٠]. وواحدةُ الخيراتِ خيِّرة، قال ربُّ العزة سبحانه: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [التوبة:٨٨]، والمفلحون: الناجون الفائزون.

و﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ [التوبة:٨٩] وما أعدَّه ربُّ العزة لرسولِهِ ﷺ وللمؤمنين هو أعظمُ الفوزُ الذي يطمح الصالحون في مثله.

٣- مجيءُ الأعرابِ أصحاب الأعذارِ ليؤذن لهم:

عندما أراد الرسولُ ﷺ وأصحابُهُ الخروجَ إلى تبوك ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة:٩٠] والمعذِّرون: الذين بالغوا في تقديم العُذْرِ، أي: المحقُّون في اعتذارهم. وقوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: قعدت طائفةٌ أُخرى عن الغزو من غير استئذانٍ ولا تقديم عُذْرٍ، وقد توعَّد ربُّ العزةِ هؤلاءِ القاعدين بقوله: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: سيصيب الذين كفروا من الأعراب الذين لم يستأذنوا، ولم يخرجوا ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ أي: مُؤْلم موجعٌ.

جنـــــة السـنة

٤- أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم:

حدَّثنا ربنا -عزَّ وجلَّ- عن أصحابِ الأعذارِ الذين قَبِلَ عُذْرَهُمْ في عدمِ خروجِهم للجهاد في غزوة تبوك، فقال: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة:٩١-٩٢].

وأصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى أعذارهم نوعان: الأول: الذين سماهم اللهُ تعالى الضعفاءَ والمرضى، وهم أرباب الزمانة والهرمِ والعمى والعرجِ، ونحو ذلك. والثاني: هم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ﴾ وهؤلاء ليست لهم أموالٌ ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للغزو، فهؤلاءِ ليس عليهم حرج، واشترط ربُّ العزة لرفع العذرِ عنهم أن ينصحوا الله ورسوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾ والنصحُ لله ورسولِهِ يكون بالإيمانِ بالله ورسولِهِ، والعملُ بالشريعةِ التي أنزلها، وترك ما يخالفها، ومن ذلك نصح عبادِهِ، وفي صحيح مسلم عن تميمِ الداريِّ، أنَّ النبي ﷺ قال: «الدينُ النصيحةُ» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمةِ المسلمينَ وعامَّتهم» [مسلم: ٥٥] وعن جرير بن عبدالله قال: «بايَعْتُ رَسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والنصحِ لكلِّ مسلمٍ» [البخاري: ٥٧. ومسلم: ٥٦].

وقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ﴾ أي: ليسَ على المعذرين الناصحين لله ورسولِهِ من سبيل، أي: ليس عليهم عقابٌ، ولا مؤاخذةٌ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾ أي: كثير المغفرةِ والرحمة لهم.

ومن أصحاب الأعذار الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة:٩٢].

هذه الآية نزلت في بعض صحابةِ رسولِ الله ﷺ، ولم يكن عنده ما يحملهم عليه من الدوابِّ في غزوهم، وعندما أتوا الرسولَ ﷺ وطلبوا منه أن يعطيهم ما يركبون عليه، اعتذرَ لهم بأنَّه لا يجدُ ما يحملُهُم عليه، فأخبر العليمُ الخبيرُ بأنَّهم تولَّوْا عن رسولِ الله ﷺ وأعينهم تفيضُ من الدمع حُزْناً، لعدم قدرتهم على الغزوِ بسبب قِلَّة ما يركبون عليه في غزوهم.

جنـــــة السـنة

وهؤلاء أصحابُ الأعذارِ الذين عَذَرهم ربُّهم، لهم أجْرُ المجاهدين وثوابُهم، ففي صحيحِ البخاريِّ عن أنسٍ بنِ مالكٍ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ رَجَعَ من غزوةِ تبوكَ، فدنا من المدينةِ، فقال: «إنَّ بالمدينة أقواماً، ما سِرْتُم مَسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادِياً إلاَّ كانوا معَكُمْ» قالوا: يا رسولَ الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينةِ، حَبَسَهُمُ العُذْرُ» [البخاري: ٤٤٢٣].

وعن جابرٍ قال: كنا مع النبي في غزاةٍ، فقال: «إن بالمدينةِ لرجالاً ما سِرْتُمْ مسيراً، ولا قَطَعْتُمْ وادياً، إلا كانوا معكم حَبَسَهُمْ المرضُ» [مسلم: ١٩١١].

٥- الذين رَضُوا أن يكونوا مع الخوالف:

وقوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [التوبة:٩٣] أي: ليس السبيلُ بالعقوبةِ على أهل العذرِ، ولكن السبيلَ على الذين يستأذنونك في التخلُّف عن الجهادِ معك، وهم قادرون على الجهاد بأموالهم وأنفسهم ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ رضوا بأن يقعدوا مع الصِّغارِ والنساءِ والزمنى ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ وخَتَم اللهُ تعالى بما كَسبوا من الذنوب على قلوبهم ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾ أي: لا يعلمون بالعاقبة السيئةِ الناتجة عن تخلفهم عن الجهاد.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- ذمَّ اللهُ تعالى المنافقين الذين يأمرهم رب العزة بالإيمان بالله والخروجِ إلى الجهاد، فيعْتَذِرُ أثرياؤُهم عن الخروجِ، وقد أخبر ربُّ العزة أنَّ هؤلاءِ المنافقين رضوا بالقعود مع الصغارِ والنساءِ والزمنى وطَبَعَ اللهُ على قلوبهم، فهم لا يفقهون.

٢- أثنى اللهُ تعالى على رسولِهِ والمؤمنين معه لجهادهم بأموالِهِمْ وأنفسهم، وبيَّن أنه - سبحانه- أعَدَّ لهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارِ.

٣- قدَّم بعضُ الأعرابِ في غزوة تبوكَ أعذاراً مقبولةً، وتخلَّفَ بعضُهم عن الجهادِ من غيرِ عذرٍ، وتهدَّدَ ربُّ العزة هؤلاء بالعذابِ الأليم.

٤- أصحابُ الأعذارِ من صحابةِ رسولِ الله ﷺ الذين قَبِلَ اللهُ تعالى عذرهم نوعان: الأول: المرضى والزمنى والضعفاءُ. والثاني: الذين لا يجدون المالَ الذي يجهزون به أنفسَهم للغزو والقتال.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس عشر من سورة التوبة
اعتذار المنافقين للرسول ﷺ وأصحابه إذا رجعوا إليهم

أولاً: تقديم

أخبر اللهُ -تعالى- رسولَنا ﷺ وأصحابَه أنَّهم إذا رجعوا إلى المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج إلى تبوك، فسيعتذرون إليهم، وأمرهم بعدم قبول عذرِهِمْ، وأخبرهم أنهم سيحلفون لهم كاذبين أنهم لا يستطيعون الخروجَ معهم، وأمَرَهم بالإعراض عنهم، وأخبرهم ثالثاً أنهم سيحلفون لكم لترضوا عنهم، ونهاهم عن الرضا عنهم، فإنه تبارك وتعالى لن يرضى عنهم.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً من أهلِ الحواضرِ والمدنِ، وهم أجْدَرُ بأن لا يعلموا حدودَ ما أنزل اللهُ على رسولِهِ ﷺ، وقسَّمَ الأعرابَ الذين كانوا في المدينة وما حولها إلى قسمين: الأول: الذين يَعُدُّون ما ينفقونه في الجهاد وسبل الخير مغرماً، وهم يتربصون بالمؤمنين المصائب والدوائر. والثاني: الأعرابُ المؤمنون بالله ورسولِهِ، الذين يتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، ويتقربون إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار، وهؤلاءِ الصالحون الأخيار سيدخلُهم اللهُ تعالى في رحمته، والله غفور رحيم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾ [التوبة: ٩٤-٩٩].

جنـــــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- موقفُ المنافقين المتخلفين عن غزوة تبوك من الرسول ﷺ وصحبه إذا رجعوا إليهم:

بيَّنَ اللهُ تعالى للمؤمنين كيف سيكونُ موقف المنافقين المتخلفين عن الرسولِ ﷺ وصحبِهِ إذا رجعوا إليهم من غزوهم، فقال: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [التوبة:٩٤].

أخبر اللهُ تعالى المؤمنين أنَّ المنافقين المتخلفين عن الغزو سيعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم من غزوكم ﴿قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾ قل لهم يا محمد: لا تعتذروا لن نصدِّق أعذاركم ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ قد أعلمنا ربُّنا حقيقةَ ما أنتم عليه، وما انطوت عليه قلوبكم مِنَ التدليس والكذبِ. ﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ وسيرى اللهُ تعالى أعمالكم ويراها رسولُهُ في مقبل الأيام أتتوبون إلى الله، وترجعون إليه، أو تستمرون على كفركم ونفاقكم؟ ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾﴾ أي: ثم ترجعون بعد مماتكم إلى ربِّكم الذي يعلم السر والعلانية، الذي لا يخفى عليه من أموركم شيئاً، فينبئكم بما كنتم تعملونه في الدنيا، ويجزيكم على ما عملتموه في الآخرة.

ثم أخبرنا ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- أنَّ هؤلاءِ المنافقين المتخلفين عن الجهادِ سيحلفون بالله للمؤمنين، في دعواهم عدم استطاعتهم الخروجَ إلى الغزو ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ [التوبة:٩٥] وأمَرَ اللهُ تعالى المؤمنين بالإعراض عنهم، ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ وقال فيهم: ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩٥]، والرجس الخبيث القَذِرُ، وهذا بسبب كفرهم وشركهم وما تلبسوا به من الذنوب والمعاصي والمحرماتِ، ومأواهم النار يومَ القيامة، أي: هي المنزل الذي يأوون إليه، ويمضون آخرتهم فيه.

وحدَّثنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الأنجاس الخبثاء ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: يحلفون بالله تعالى كاذبين لترضوا عنهم، وقد أخبرهم اللهُ تعالى أنَّهم إنْ رضوا عنهم، وقبلوا عذرَهُمْ، فإنَّ الله تعالى لا يرضى عنهم ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٦]، أي: فإن رضيتم عنهم، فإنْ رضاكم عنهم غير نافعهم عند ربِّهم، فهم قوم فاسقون.

جنـــــة السـنـــة

٢- الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً:

بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً فقال: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة:٩٧] أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الأعرابَ على وجهِ الجملةِ أشدُّ جحوداً لتوحيد الله تعالى، وأشدُّ نفاقاً من أهل الحَضَر في القرى والأمصارِ، وإنما وصفهم اللهُ تعالى بذلك لجفائهم وقسوةِ قلوبهم وقلةِ مخالطتهم لأهل الخير، فهم لذلك أقسى قلوباً، وأقلُّ علماً بحقوق الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ﴾ أي: وأخلقُ أن لا يعلموا حدودَ ما أنزلَ اللهُ على رسولِهِ. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ أي: واللهُ عليم بالعباد كافِرِهِمْ ومنافِقِهِمْ ومؤمنهم، وحكيمٌ في تدبيره إياهم، وفي عقابه لهم، أو عفوه عنهم.

والأعرابُ: جمع أعرابيٍّ، والأعرابيُّ: البدويُّ الذي يسير في الصحراء وراءَ إبله، يرتاد لها الماءَ والكلأ، والعربيُّ المنسوب إلى العرب، الذي نسبه فيهم ثابتٌ، وجمعه: العرب، والأعرابيُّ إذا قيل له: يا عربيُّ فرح بذلك، والعربيُّ إذا قيل له: يا أعرابيُّ غضب له، فمن نزل البادية، أو جاورَ البادِيْنَ، وظعنَ بظعنهم فهم أعراب، ومن استوطن القرى العربية فهم عرب [البسيط للواحدي: ١١/ ١٠].

٣- موقفُ الأعراب من الإنفاقِ في سبيلِ الله تعالى:

بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الأعرابَ يُقْسَمون تجاه ما ينفقونه من مالٍ إلى قسمين، القسم الأول: الذين قال فيهم ربُّ العزةِ: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة:٩٨]، أي: بعضُ الأعرابِ يعدُّ النفقةَ التي ينفقها في الجهادِ أو على الفقراءِ والمساكين مغرماً، أي: خسراناً، فهو لا يرجو من ورائِه ثواباً ولا أجراً، وهو في ذلك ﴿يَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ﴾ التربُّص: الانتظار، والدوائر: جمع دائرة، وهي الحالةُ المنقلبةُ عن النعمة إلى البليَّةِ، فهم بخلاءُ، وهم لكم أعداء ينتظرون أنْ تحلَّ بكم المصائبُ، وتدورُ عليكم الدوائر.

وقد دعا اللهُ تعالى عليهم فقال: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ﴾ أي: عليهم دائرةُ البلاءِ والعذابِ والمكروهِ، وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ أي: سميعٌ بأقوالهم، عليمٌ بأفعالهم.

جنـــــة السـنة

والقسم الثاني من الأعراب: الذين قال ربُّ العزة فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة:٩٩].

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى: إن بعضَ الأعراب يؤمنون بالله واليوم الآخر، ويقصدُ بما ينفق في الجهادِ وفي غيره قرباتٍ عند الله تعالى، والقرباتُ: جمع قربة، وهي التي تقرِّبك إلى ربِّ العزة سبحانه، وقوله: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ﴾ أي: دعاءَ الرسولِ ﷺ واستغفاره، أي: يتخذها قربة، يتقرَّبُ بها إلى الله تعالى، وقد صَدَّق اللهُ تعالى هذا القسم من الأعراب، فقال: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ﴾ أي: تقربهم من ربِّهم، وتحِلُّ عليهم رحمته تعالى ورضوانه، ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي: في رضوانِه وجنتِه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ أي: كثير المغفرةِ والرحمةِ سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ وأصحابِهِ كيف سيكونُ موقف المنافقين المتخلفين عنهم في غزوة تبوك، فأخْبَرَ أنَّهم سيعتذرون إليهم، ويحلفون لهم كاذبين ليُعْرِضوا عنهم، وليَرْضَوا عنهم.

٢- نَهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه عن قبولِ ما يَعْتَذِرُ به المنافقون، وأمرهم بالإعراض عنهم، ونهاهم عن أن يَرْضوا عنهم، وأخبر بعدم رضاه عنهم.

٣- قرَّر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّ الأعراب الذين يلازمون البوادي والقفارَ أشدَّ كفراً ونفاقاً من أهل المدائن والأمصار، وهم أقلُّ علماً بحدودِ ما أنزل اللهُ تعالى مِنَ أهل المدائن والأمصارِ.

٤- الأعرابُ قسمان: قسمٌ لا يرجو وَجْه ربِّه في إنفاقِهِ، والآخر مؤمنون صالحون، يتقربون إلى الله تعالى بما ينفقونه، ويتقربون إلى الله تعالى بدعاءِ الرسولِ ﷺ واستغفارِهِ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني السابع عشر من سورة التوبة
قسَّمَ ربُّ العزة الناس إلى ثلاثة أقسام

أولاً: تقديم

قسَّمَ اللهُ -تبارك وتعالى- الناسَ في آيات هذا النص إلى ثلاثة أقسام:

الأول: السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم القيامةِ، وهذا هو الفريقُ الفائزُ المفلحُ إلى آخر الزمان، رضي الله تعالى عنهم وقَبِلَ أعمالهم، ورضوا عن ثوابِهِ ولهم جناتٌ عظيمات تجري من تحتها الأنهار.

الثاني: المنافقون مِنَ الأعراب الذين حول المدينة، وبعضُ أهل المدينة الذين مَرَنُوا على النفاق ودَرِبُوا بِهِ، وهؤلاءِ لا يعلمهم الرسولُ ﷺ، واللهُ تعالى عالمٌ بهم، وهؤلاءِ سيعذِّبهم ربُّهم مرتين، مرةً في الدنيا، وأخرى في القبرِ، ثم سيردُّونَ إلى الله تعالى يومَ القيامةِ، فيعذِّبهم اللهُ عذاباً عظيماً في النارِ.

الثالثُ: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وهؤلاءِ مؤمنون اعترفوا بذنوبهم، وقد وعدهم ربُّ العزة بالتوبةِ عليهم.

وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يأخذ مِنَ التائبين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقةً، يطهِّرُهُم، ويزكيهم بها، وأمره بالصلاةِ عليهم، أي: الدعاءِ والاستغفار لهم، فصلاتُه عليهم تجلبُ لهم السكنَ والطمأْنينة.

ووعدَهُم اللهُ تعالى بقبولِ التوبةِ عن عبادِهِ الخاطئين، وأمرهم بالعملِ في الدنيا، ووعدهم بأنْ يرى هو ورسولُه ﷺ والمؤمنون أعمالهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ
حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم
مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى
ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ

جنـــــة الســـــنة

صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [التوبة:١٠٠-١٠٦].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- ثناء الله تعالى على المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتبعوهم بإحسان:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسانٍ، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠] ومن المفسِّرين من ضيَّق في تحديد السابقينِ الأولينَ مِنَ المهاجرين والأنصارِ، فحدَّهم بالذين صَلَّوُا القبلتين، أو شهدوا بدراً، والصحيح أنه يدخلُ فيهم الذين شهدوا الحديبية، وبايعوا الرسول ﷺ فيها تحت الشجرةِ، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ أي: يدخل في هذا بقية المهاجرينِ والأنصارِ، كما يدخلُ فيهم جميعُ مَنْ دخل في الإيمانِ مهتدياً بهدي السابقين الأولين مِنَ المهاجرين والأنصارِ إلى يوم القيامةِ.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة:١٠٠] أي: رضي اللهُ عنهم، وقبل أعمالهم، ورَضُوا بالله سبحانه وتعالى ربّاً واتخذوهُ وَليّاً، ورَضُوا عن أجره وثوابِهِ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة:١٠٠]. أعلمنا ربّنا أنه أعدَّ لجميع من ذكرهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وأخبر سبحانه أنَّ هذا هو الفوز العظيمُ، الذي لا فوزَ فوقَه.

٢- بعضُ الأعرابِ حولَ المدينة منافقونَ وبعضُ أهل المدينة كذلك:

أعْلم اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنَّ بعضَ الأعرابِ الذين يسكنون حولَ المدينة منافقون، وكذلك بعضُ أهل المدينة مَرَدوا على النفاقِ ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة:١٠١] ومعنى مردُوا على النفاقِ أي: عَتَوْا وطَغَوا ومَرَنُوا على النفاقِ، والمرادُ أنهم أقاموا على النفاقِ، وثبتوا عليه، ولم يَنْثَنُوا عنه، وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة:١٠١] فيه بيان أنَّ رسولنا ﷺ لا يعلم جميعَ المنافقين، فهو وإن عَرَفَ

جنـــــة السـنة

بعضَهُمْ، فإنَّه لا يعرفُ جميعهم، وأخبر سبحانَه وتعالى أنَّ علمه محيطٌ بهم، لا يخفى عليه شيءٌ من أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [التوبة:١٠١]. أما العذابُ العظيم فهو عذابُ النَّارِ يومَ القيامة، أما المرتان السابقتان على عذابِ النار فلم يَرِدْ نصٌّ يحدِّدُ هاتين المرَّتين، وأرجحُ الأقوالِ أنَّ العذابَ الأول: ما يأخذُ الله تعالى به المنافقين في الدنيا في أنفسِهِمْ وأموالِهِمْ وأولادِهم، والثاني: ما يأخُذهم اللهُ تعالى به في القبرِ.

٣- الذين اعترفوا بذنوبهم وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ أنَّ بعضَ المؤمنينَ تخلَّفُوا عن رسولِ الله ﷺ في غزوةِ تبوك من غيرِ عذرٍ خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة:١٠٢] وهؤلاء ليسوا منافقين، ولذلك قال فيهم: ﴿وَءَاخَرُونَ﴾ وصرَّحَ بأنهم ﴿ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: اعترفوا أنَّ تأخّرهم عن غزوةِ تبوك كان مِنْ غيرعذر، ولم يعتذروا للرسولِ ﷺ كاذبين كما فعل المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورَجَوْا أن يتوبَ الله عليهم، وقوله تعالى: ﴿خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ المرادُ بالعملِ الصالح ما تقدَّم منهم من إيمانٍ وإسلامٍ وصلاةٍ ونحو ذلك، والمرادُ بعملهم السيِّئ: تخلُّفهم عن الجهاد في غزوة تبوك.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ و﴿عَسَى﴾ من الله تعالى تفيدُ تحقيقَ الوقوعِ، فاللهُ تعالى أكرم الأكرمين، وإذا أراد التوبةَ على عبدِه، فلا رادَّ لأمره سبحانه، خاصَّة إذا تابَ العبدُ، وأنابَ ورجَعَ إلى الله تعالى، وختم ربُّ العزة الآيةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ فهو سبحانه كثيرُ المغفرةِ والرحمةِ، إذا شاءَ سبحانه غفر الذنوبَ، وستر العيوبَ، وتفضَّل على عبادِهِ.

وقد حَدَّثنا رسولُنا ﷺ عما يفعلُه اللهُ تعالى بالمؤمنين الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وكيف ينقيِّهم يومَ القيامة، ففي صحيحي البخاري ومسلم عن سَمُرَةَ بنِ جندبٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ لنا: «أتاني الليلةَ آتيانِ، فابتَعَثاني، فانتَهَينا إلى مدينةٍ مَبنيَّةٍ بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فِضَّةٍ، فتَلَقَّانا رجالٌ، شَطْرٌ مِن خَلْقِهم كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ، وشَطْرٌ كأقبَحِ ما أنتَ راءٍ، قالا لهم: اذهبوا فقَعوا في ذلك النَّهْرِ، فوَقَعوا فيه، ثم رَجَعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوءُ عنهم،

جنـــــة السـنة

فصاروا في أحسَنِ صورةٍ، قالا لي: هذه جنةُ عَدْنٍ، وهذاكَ مَنزِلُكَ، قالا: أما القوم الذينَ كانوا شَطْرٌ منهم حَسَنٌ، وشَطْرٌ منهم قَبيحٌ، فإنَّهم خَلَطوا عَمَلاً صالحاً وآخرَ سيِّئاً، تَجاوَزَ اللهُ عنهم» [البخاري: ٤٦٧٤. ومسلم: ٢٢٧٥ مختصراً].

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يأخُذَ من أموال الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة:

أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يأخذ من أموالِ الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة يزكيهم بها، وأمره -تبارك وتعالى- أنْ يصليَ عليهم، فإنَّ صلاتَهُ سكنٌ لهم، ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [التوبة:١٠٣].

أمَرَ اللهُ رسوله ﷺ أنْ يأْخذ من أموالِ هؤلاءِ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً صدقة، يطهرهم بها من ذنوبهم، ويزكيهم بها، أي: يباركهم بها، وأمره بالصلاة عليهم ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادْعُ لهم، واستغفر لهم، ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي: إنَّ دعاءَك واستغفارَكَ طمأْنينةٌ لهم، وسكن لهم. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: واللهُ سميعٌ لدعائِك إذا دعوتَ لهم، عليمٌ بك وبهم، لا يخفى عليه أمر من أُموركم.

وهذه الآية عامةٌ في كلِّ عبادِ الله تعالى، ولهذا لَمَّا ظنَّ بعضُ مانعي الزكاةِ أنَّ أخذَ الزكاة خاصٌّ بالرسولِ ﷺ قاتَلَهُمْ أبو بكر الصديق، حتى أدُّوها كما كانوا يُؤَدُّونها لرسول الله ﷺ.

وقد روى مسلمٌ في صحيحه عن عبدالله بن أبي أوْفى قال: كانَ النبيُّ ﷺ إذا أتاه قومٌ بِصَدَقَتِهِمْ، قالَ: «اللهم صَلِّ على آلِ فُلانٍ» فأتاه أَبِي بصَدَقَتِهِ، فقال: «اللهم صَلِّ على آلِ أبي أوْفَى» [البخاري: ١٤٩٧. ومسلم: ١٠٧٨].

وقد هَيَّجَ اللهُ تعالى عبادَهُ على التوبةِ والصدقةِ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة:١٠٤]، قرر ربُّ العزةِ عباده أنهم قد علموا أنَّه يَقْبَلُ توبةَ عباده، ويأخذ صدقاتهم، فيطهِّرهم بها، ويزيلُ عنهم سيئاتهم، ويغفر ذنوبهم وخطاياهم.

روى أبو هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من تَصدَّقَ بعَدْلِ تمرةٍ من كَسْبٍ طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلا الطَّيِّبَ- فإنَّ اللهَ يَتقبَّلُها بيَمينِه، ثم يُرَبِّيها لصاحبِه كما يُرَبِّي أحدُكم فَلُوَّهُ، حتى تكونَ مِثْلَ الجبلِ» [البخاري: ١٤١٠. ومسلم: ١٠١٤] والفَلُوُّ: المُهْرُ.

جنـــــة السـنـة

وعن أبي هريرةَ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: إن اللهَ يقبلُ الصَّدَقَةَ، ويأخُذُها بيمينه فيُرَبِّيها لأحَدِكُمْ كما يُرَبِّي أحَدُكُمْ مُهْرَهُ، حتى إنَّ اللُّقْمَةَ لتصيرُ مثلَ أُحُدٍ، وتصديقُ ذلك في كتابِ الله عز وجل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ و﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [رواه الترمذي: ٦٦٢، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح].

٥- تهدُّد اللهُ تعالى الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بأنَّه يرى هو ورسوله والمؤمنون أعمالهم:

تهدَّد ربُّ العزة الذين عملوا صالحاً وآخر سيئاً، فأمرهم بالعمل، وأعلمهم أنه سيرى عملهم ويراه رسولُه ﷺ والمؤمنون، أي: في الحياةِ الدنيا، ثم يردُّون بعد ذلك إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ، فينبئهم بما كانوا يعملونَهُ ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة:١٠٥] وعند ذلك يتبيَّنُ الصالحُ والفاسدُ من أعمالكم.

٦- الآخرون المرجون لأمْرِ الله تعالى:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن الآخرين المرجونَ لأمرِ الله، فقال: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [التوبة:١٠٦].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «قال ابنُ عباس، ومجاهدٍ، وعكرمة، والضحاكُ، وغير واحدٍ: هم الثلاثةُ الذين خُلِّفوا، أي: عن التوبة، وهم: مُرارةُ بنُ الربيع، وكعبُ بن مالك، وهلالُ بن أمية، قعدُوا عن غزوةِ تبوكَ في جملةِ مَنْ قعد، كَسلاً وميلاً إلى الدّعة والحفظِ وطيبِ الثِّمارِ والظلالِ، لا شَكّاً ونفاقاً، فكانت منهم طائفةٌ رَبَطُوا أنفسهم بالسواري، كما فَعَلَ أبو لبابة وأصحابُه، وطائفةٌ لم يفعلوا ذلك، وهم هؤلاء الثلاثة المذكورون، فنزلت توبةُ أولئك قبلَ هؤلاء، وأرجى هؤلاء عن التوبةِ حتى نزلتْ الآيةُ الآتية، وهي قوله تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ﴾ [التوبة:١١٧]... الآية، ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة:١١٨]، كما سيأتي بيانه في حديث كعب بن مالك. وقوله: ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ ﴾، أي: هم تحتَ عفوِ الله، إن شاء فعل بهم هذا، وإنْ شاء فعل بهم ذاك، ولكن رحمته تغلبُ غضبه، وهو ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾، أي: عليم بمن يستحق العقوبة ممن يستحقُّ العفو، حكيمٌ في أفعالِهِ وأقواله، لا إله إلا هو، ولا رب سواه» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٤٠].

جنـــــة السـنـــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أثنى ربُّ العزَّة على السابقينَ الأولينَ مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ والذين اتبعوهم بإحسانٍ إلى يومِ الدين.

٢- أعدَّ اللهُ -تعالى- للمؤمنين جناتٍ تجري مِنْ تحتها الأنهارُ يوم القيامةِ.

٣- أعلمَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنينَ أنَّ بعضَ الأعرابِ الذين حول المدينة، وبعضَ أهلِ المدينة منافقون، وأخبر الرسول ﷺ أنَّه لا يعرفهم، وتوعَّد هؤلاء المنافقين بإيقاع عذابين بهم قبل أن يُرَدُّوا إلى عذابٍ عظيمٍ.

٤- عَرَّف اللهُ تعالى بقومٍ تَخَلَّفوا عَنْ غزوة تبوك ليسوا بمنافقين، اعترفوا بذنوبهم عملوا أعمالاً صالحةً، وعملوا بتخلفهم عن الغزو أعمالاً سيئة، وقال فيهم: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وقد تاب اللهُ تعالى عليهم بعد ذلك.

٥- أمَرَ اللهُ -تعالى- أنْ يأخذ مِنْ أموالِ العصاةِ صدقةً يُطَهِّرهم اللهُ تعالى ويزكيهم بها، وأمَرَ اللهُ تعالى بالصلاةِ عليهم، أي: بالدعاءِ والاستغفارِ لهم، فصلاتُه عليهم تجلبُ لهم الأمنَ والطمأنينةَ.

٦- اللهُ وحدَهُ هو الذي يقبل التوبةَ عن عباده، ويقبلُ منهم الصدقاتِ.

٧- أمر اللهُ تعالى الذين عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً بالعملِ، وأخبرهم أنه سيرى عملهم، وسيراه رسولُه والمؤمنون في الدنيا، وسيردُّون إلى عالمِ الغيبِ والشهادةِ يومِ القيامةِ، فينبئهم بما كانوا يعملون.

٨- أخْبرَ اللهُ المؤمنين أنَّه كان عند تنزُّل هذه الآيات آخرون مرجون لأمر الله تعالى، فاللهُ قادرٌ على عذابهم وقادرٌ على العفو عنهم سبحانه.

جنـــــة السـنة

النص الثامن عشر من سورة التوبة

مسجد الضِّرار

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في هذه الآيات عن المسجد الضرار الذي أقامه المنافقون مِنَ أَهْلِ مدينةِ قباءَ، وقد فضحَ اللهُ تعالى أخبارَهُم، وكشفَ أسرارَهمْ، ونهى رسولَه ﷺ عن القيام فيه، وحثَّه على القيامِ في مسجده الذي أقيم على التقوى، وأثنى على المؤمنين الذين يعمرون المسجدَ النبويَّ، وأعلَمَ المؤمنين بأنَّه سبحانه اشترى مِنَ المؤمنين أموالهم وأنفسهم بأنَّ لهم الجنةَ، يقدِّمون أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، وينالون منه جنةً عظيمة، وهذا وعد قطعه على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ
أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ
﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ
هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ
إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم
بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ
ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١٠٧-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اتخاذُ منافقي قباءَ مسجداً ضراراً:

اتخذ المنافقون من أهلِ قباءَ مسجداً ضراراً، وقد شَنَّعَ ربُّ العزةِ على هؤلاءِ، وفَضَحهم، وكشفَ أسرارهم، وأمر بهدمِ مسجدهِم، وقد جمعَ العلاّمة المفسرُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله تعالى قصتهم من غير عَزْوٍ إلى راوٍ بعينه، فقال: «سَبَبُ نزول هذه الآياتِ الكريماتِ أنه

جنـــــة السـنة

كان بالمدينة قبل مَقْدَم رسولِ الله ﷺ إليها رجلٌ من الخزرج يقال له: أبو عامر الراهبُ، وكان قد تَنَصَّر في الجاهليةِ، وقرأ عِلْمَ أهلِ الكتابِ، وكان فيه عبادة في الجاهلية، وله شرفٌ في الخزرج كبير، فلما قَدم رسولُ الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه وصارتْ للإسلام كلمةٌ عاليةٌ، وأظهرهم الله يومَ بدر، شَرِقَ اللعينُ أبو عامر بريقِهِ وبارَزَ بالعداوة، وظاهر بها، وخرج فارّاً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فألَّبَهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب، وقدموا عام أُحُدٍ، فكان مِنْ أمرِ المسلمين ما كان، وامتحنهم الله، وكانت العاقبة للمتقين.

وكان هذا الفاسق قد حَفَرَ حفائرَ فيما بين الصَّفين، فوقَعَ في إحداهُنَّ رسولُ الله ﷺ وأصيبَ ذلك اليوم، فجُرِح في وجهه، وكُسِرَت رَباعِيَتُه اليمنى السفلى، وشجّ رأسه ﷺ وتقدم أبو عامر في أولِ المبارزة إلى قوم مِنَ الأنصار، فخاطبهم واستمالهم إلى نَصْرِه وموافقته، فلما عَرَفوا كلامه قالوا: لا أنْعَمَ اللهُ بكَ عيناً يا فاسقُ، يا عدوَّ الله! ونالوا منه وسَبّوه. فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بَعْدِي شَرّ.

وكان رسولُ الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبلَ فراره، وقرأ عليه مِنَ القرآن، فأبى أنْ يسلم وتمرّد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموتَ بعيداً طريداً، فنالته هذه الدعوةُ. وذلك أنه لما فرغَ الناسُ من أُحُدٍ، ورأى أمْرَ الرسولِ ﷺ في ارتفاعٍ وظهورٍ، ذهب إلى هرقلَ ملكِ الروم يستنصره على النبيِّ ﷺ فوعدَه ومَنَّاه، وأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومِهِ مِنَ الأنصار مِنْ أهل النفاق والريب يَعِدهم ويُمنِّيهم أنه سَيَقْدمُ بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويردُّه عما هو فيه، وأمرهم أن يتخذوا له مَعقلاً يقدم عليهم فيه مَنْ يقدم من عنده لأداء كُتُبه، ويكونَ مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك، فشرعوا في بناء مسجد مجاورٍ لمسجد قباء، فبنوه وأحكموه، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا فسألوا رسولَ الله ﷺ أنْ يأتي إليهم فيصلِّي في مسجدِهِمْ، ليحتجوا بصلاته عليه السلام فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلةِ الشاتية، فعصمه الله مِنَ الصلاة فيه فقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبقَ بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم، نزل عليه الوحي بخبر مسجد الضّرار، وما اعتمده بانوه مِنَ الكفر والتفريقِ بين جماعة المؤمنين في مسجدهم مسجد قباء، الذي أسس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك

جنـــــة السـنـــــة

المسجد مَنْ هَدَمَه قبل مقدمه المدينة. كما قال علي بن أبي طلحة، عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ : وهم أُناس من الأنصار، ابتنوا مسجداً، فقال لهم أبو عامر: ابنوا مسجداً واستعدُّوا بما استطعتم من قوةٍ ومِنْ سلاح، فإني ذاهب إلى قيصرَ ملكِ الروم، فآتي بجُندٍ من الروم، وأُخرِج محمداً وأصحابه. فلما فرغوا من مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنحبّ أن تصلي فيه وتدعو لنا بالبركة، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ وكذلك رُوي عن سعيد بن جُبير، ومجاهد، وعروة ابن الزبير، وقتادة، وغير واحد من العلماء» [قال محقق ابن كثير: أخرجه الطبري (١٧٢٠١)، وفيه إرسال بين ابن أبي طلحة وابن عباس، لكن له شواهد مرسلة. تفسير ابن كثير (٣/ ٤٤٠)].

٢- غَرَضُ المنافقين من بناءِ مسجدِ الضرار:

ذَكَرَ ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّ المنافقين أرادوا مِنْ وراءَ إقامة مسجد الضرارِ أربعة أمور:

١- الضرار بين المؤمنين ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ [التوبة:١٠٧] أي: اتخذوه لأجلِ الضرارِ بين المؤمنين.

٢- الكفر ﴿وَكُفْرًا﴾، أي: كان اتخاذهم المسجدَ ليس إيماناً، بل كفراً بالله ورسوله.

٣- ﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليُفتِّتوا وِحْدَة المسلمين، ويوجدوا الخلافَ والنزاعَ فيما بينهم.

٤- ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ﴾ [التوبة:١٠٧]، أي: ليكون منطلقاً ومكانَ إعدادٍ للذين يحاربون الله ورسوله

٣- المنافقون يحلفون كاذبين أنهم يريدون ببناءِ المسجد الحسنى:

عندما تخوَّف المسلمون من بناءِ المنافقين مسجدِ الضرارِ، سارعَ المنافقون بالحلفِ كاذبين أنهم لم يريدوا إلا عملَ الخير، فقد زعموا أنَّهم بنوه ليصلُّوا فيه عندما لا يستطيعون الوصولَ إلى مسجد قباء في الشتاءِ، وليكون موضعاً يلجأ إليه الضعيفُ وذو الحاجة، وقد شهد ربُّ العزَّة بكذبهم فيما ادَّعوه وزَعَمُوه ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة:١٠٧].

جنـــــة السـنة

٤- نَهْيُ اللهِ تعالى رسولَهُ ﷺ عن القيامِ فيه:

نَهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن القيامِ في مسجدِ الضرارِ ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة:١٠٨]. وكان أهلُ مسجدِ الضرارِ طلبوا مِنَ الرسولِ ﷺ أن يفتتح مسجدَهُمْ، فيصلِّيَ فيه، فنهى اللهُ رسولَهُ ﷺ عن القيامِ فيه، أي: نهاه عن الصلاةِ فيه، ومنه قيامُ رمضان، وصلاةُ القيام.

وحثَّه ربُّه على القيامِ في المسجدِ الذي أقيم على التقوى من أوَّلِ يوم، وهو مسجدُه الذي بني في المدينةِ ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة:١٠٨]. فالمسجدُ المؤهل للقيامِ فيه المسجدُ الذي أُقيم على التقوى والصلاحِ ومخافةِ الله، وأثنى ربُّ العِزَّة على عُمَّارِ هذا المسجدِ مِنَ الصحابة في ذلك الوقت، ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ وقد ورد في بعضِ النصوص والآثار وفيها ضعفٌ أنَّ محبتهم للتطهر أنَّهم كانوا يستنجون بالماءِ.

والصوابُ مِنَ القول أنَّ هذا المسجد هو المسجدُ النبوي، والنصوصُ الواردة في ذلك صحيحةٌ، فعن أُبيِّ بن كعب أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى مسْجِدَيْ هذا» تَفَرَّدَ به أحمد [قال الشيخُ شعيبَ الأرنؤوط في تحقيقه «مسند الإمام أحمد» (٢١١٠٧): هو حديث صحيح، تفسير ابن كثير: ٤/ ١٩٤].

وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ الساعديِّ، قال: اختلفَ رجلان على عهد رسولِ الله ﷺ في المسجد الذي أُسِّسَ على التَّقْوى، فقال أحَدَهُما: هو مسجدُ رسولِ الله ﷺ، وقال الآخرُ: هو مسجدُ قُباء، فأتيا النبيَّ فسألاه، فقال: «هو مَسْجِدي هذا» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه «مسند الإمام أحمد» (٢٢٨٠٥): هو حديث صحيح].

وعن أبي سَلَمَةَ بن عبدالرحمن قال: مَرَّ بِي عبدالرحمن بن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: قلتُ له: كيف سَمِعْتَ أباكَ يذكُرُ في المسجدِ الذي أُسِّسَ على التقوى؟ قال: قالَ أبي: دَخَلْتُ على رسولِ الله ﷺ في بيتِ بعضِ نِسائِهِ، فقلتُ: يا رسولَ الله! أيُّ المسْجدَيْنِ الذي أُسِّسَ على التقوى؟ قال: فأخَذَ كَفّاً من حَصْباءَ فَضَرَبَ به الأرْضَ، ثم قال: «هو مَسْجِدُكُمْ هذا» (لمسجدِ المدينةِ) قال: فقلتُ: أشهدُ أنِّي سمعتُ أباكَ هكذا يذْكُرُهُ [مسلم: ١٣٩٨].

٥- لا يستوي المسجدُ الذي أُسِّس بنيانُه على تقوى الله ورضوانه ومسجدُ الضرار:

يقولُ ربُّ العزة تبارك وتعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

جنـــــة السـنـة

[التوبة:١٠٩] سأل ربُّ العزة -سبحانه وتعالى- عبادَه المؤمنين الذين يسمعون قوله عن أيِّ المسجدين خيرٌ، المسجدُ الذي أسس بنيانه على تقوى ورضوانٍ، فكان معبداً لله حقّاً وصدقاً، يُرفع فيه الأذانُ، وتقامُ فيه الصلواتُ، ويجتمع فيه المسلمون، ويأْوي إليه المحتاجُ، أم مسجدُ الضرار الذي بناه المنافقون وأمثاله، وقد أُسِّسَ هذا المسجد على شفا جرفٍ هارٍ، والشفا هو الشفير، والجُرُفُ ما ينجرفُ بالسيولِ مِنَ الأودية، وهو جانبها الذي بالماءِ أصله، فيبقى واهياً، فالجُرُفُ ما جَرَفَه السيلُ، وقوله: فانهارَ بِهِ في نار جهنم، أي: تساقط وتداعى، والانهيارُ والانهيالُ متقاربان في اللفظِ والمعنى، وفاعلُ ﴿فَٱنْهَارَ﴾ البنيانُ و﴿بِهِۦ﴾ تعودُ إلى الباني، وجعلَ ربُّ العزة الانهيارَ في نارِ جهنَّم.

والمرادُ أنَّ المسجدَ الضرار بني على الكفرِ، والمقاصدِ الخبيثةِ السيئةِ، بخلافِ المسجدِ المبنيِّ على التقوى.

٦- لا يزال البناءُ الذي بناه المنافقون ريبةً في قلوبهم:

يقول ربُّ العزة -سبحانه وتعالى-: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [التوبة:١١٠]، أي: لا يزالُ البنيان الذي بنوه، وهو مسجدُ الضرار ﴿رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكّاً في قلوبهم، أي: أوْرثهم نفاقاً في قلوبهم، وسيبقى هذا الشكُّ عامراً قلوبهم، حتى تتقطعَ قلوبُهُم بالموت، فإذا ماتوا علموا أنَّهم كانوا ضالين، ولم يكونوا في بنائِه محسنين، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ لا يتوبون عن نفاقهم، ولن يعودوا إلى الإيمان. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ يريدُ عليم بخلقه، الصادقِ منهم والشاكِّ، وحكيمٌ فيما جعل للصادقين مِنَ الثواب، والكاذبين مِنَ العقاب.

٧- اشتراءُ الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنَّة:

بعد أن بيّنَ اللهُ تعالى أعمالَ المنافقين القائمة على جُرُفٍ هارٍ، بيّنَ أنه اشترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالَهم بأنَّ لهم الجنة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة:١١١].

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه عاوَضَ عبادَه المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذا بذلوها في سبيلِ الله الجنَّة، وهذا مِنْ لطفه بهم -تبارك وتعالى- فالله تعالى هو مالكنا ومالك أموالنا،

جنـــــة السـنة

ونحن لا نملك شيئاً من ذلك، ومع ذلك عقدَ عقداً مع عبادِهِ المؤمنين، نبيعُه النفسَ والمالَ، ونحصلُ من لدنه على جناتٍ تجري من تحتها الأنهار، قال الحسن: «اسعوا إلى بَيْعَةٍ ربيحةٍ بايعَ اللهُ بها كل مؤمن، والله ما على الأرضِ مؤمنٌ إلا وقد دخل في هذه البَيْعَة» وقال جعفرٌ الصادق: «ليس لأبدانكم ثمنٌ إلا الجنَّة، فلا تبيعوها إلا بها» [تفسير الواحدي: ١١/ ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ فالثمنُ الذي نقدِّمه لربِّنا -تبارك وتعالى- أننا نُقَدِّم أنفسنا في سبيل ربِّنا -تبارك وتعالى- فنقتلُ أعداءَنا، وقد نَسْقُطُ صرعى شهداء في المعركة، وقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه يعطينا بدلَ ما أعطيناه الجنات، وهذا وعدٌ قطعه ربُّ العزة على نفسه في كتبه العظيمة التي أنزلها على رسلِهِ العِظام، وهي التوراةُ التي أنزلها على موسى، والإنجيلُ الذي أنزله على عيسى، والقرآنُ الذي أنزله على محمدٍ، وروى أبو هريرة قال: عن النبي ﷺ قال: «انتَدَبَ اللهُ لمن خَرَجَ في سبيلِه: لا يُخرِجُه إلا إيمانٌ بي، وتَصْدِيقٌ برُسُلي، أنْ أرجِعَه بما نالَ من أجرٍ أو غَنيمةٍ، أو أُدخِلَه الجَنَّة، ولولا أنْ أشُقَّ على أُمَّتي ما قَعَدْتُ خَلْفَ سَرِيَّةٍ، ولوَدِدْتُ أنّي أُقْتَلُ في سبيلِ الله، ثم أُحْيا ثمَّ أُقتَلُ، ثمَّ أُحْيا ثمَّ أُقتَلُ» [البخاري: ٣٦. ومسلم: ١٨٧٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أَحَدَ يوفي بعهده كما يوفي ربُّ العزة، فالله لا يُخلفُ الميعادَ أبداً، كما قال ربُّ العزة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء:٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ أي: أظهروا السرورَ بذلك، والبشارةُ إظهارُ الفرح بما يَسُرُّ مما بَشَّرَ الله به ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ أي: الظفر بالجنة والخلود فيها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من عملٍ وعمل:

١- ذمَّ ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- المنافقين في مدينة قباء الذين اتخذوا مسجداً ضراراً، وكشف أهدافهم، وفضحهم.

٢- نَهى اللهُ -تبارك وتعالى- عن الصلاة في مسجدِ الضرارِ، وحثَّ الرسول ﷺ على القيام في مسجدِهِ الذي أقيم على التقوى، وأثنى على الصحابةِ الذين يقومون فيه.

٣- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَهُ المؤمنين أن يقارنوا بين المسجد النبويِّ ومسجد الضرار، فالأوّل بُني على تقوى مِنَ الله ورضوان، والثاني بني على الكفرِ والفساد.

جنـــــة السـنة

٤- أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين الذين بنوا مسجداً للضرار سيبقى بنيانهم الذي بنوهُ ريبةً في قلوبهم إلى أن تقطَّع قلوبُهُم، أي: إلى أن يموتوا، فيوقنوا بسوأة ما عملوه.

٥- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه اشترى مِنَ المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة، يقاتلون أعداءَ الله، فيقتلونهم، ويقتلون في سبيل الله، وأعلمنا أنَّ هذا وعدٌ قطعه اللهُ تعالى على نفسِهِ في التوراةِ والإنجيل والقرآنِ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني التاسع عشر من سورة التوبة
لا يجوزُ للمؤمنين أنْ يستغفروا للمشركين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -عز وجل- عن صفاتِ المؤمنين الذين اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، ونهى اللهُ تعالى نبيَّه والذين آمنوا عن الاستغفار للمشركين، ومنعهم من التأسي في ذلك بنبيِّه إبراهيمَ، وبيَّن أن إبراهيم فعل ذلك عن موعدةٍ وعدها أباه، فلما تبيَّن لإبراهيم أنَّه عدو لله، وأنه ماتَ على كفره تبرأ منه، وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه لا يحكم بضلالِ عباده حتى يُبيِّن لهم ما يتقونه، وأعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه إلهنا وربُّنا المالكُ للسماواتِ والأرضِ، الذي يحيي الخلائق ويميتهم، وليس لنا وليٌّ ولا ناصرٌ غيره.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَـٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّـٰهٌ حَلِيمٞ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٢-١١٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- صفاتُ المؤمنين الذين اشترى اللهُ تعالى منهم أنفسَهمْ وأموالهم بأنَّ لهم الجنة:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في الآية السابقة أنه اشترى مِنَ المؤمنين أموالَهُمْ وأنفسهم بأنَّ لهم الجنةَ، ووصفَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- هؤلاءِ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلۡعَـٰبِدُونَ ٱلۡحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة:١١٢] و﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ﴾ أي: مِنَ الشركِ والذنوبِ والمعاصي، و﴿ٱلۡعَـٰبِدُونَ﴾ أي: الذين عبدوا ربَّهم وحْدَهُ، وأخلصوا

جنـــــة السـنـــة

دينهم له، و﴿ٱلْحَـٰمِدُونَ﴾ أي: الذين يديمون حمد الله تعالى بألسنتهم، و﴿ٱلسَّـٰٓئِحُونَ﴾ أصلُ السياحةُ الاستمرارُ بالذهابِ في الأرض، كما يسيحُ الماءُ، وقال عامةُ المفسرين: السائحون: الصائمون، عن ابن عباس: كل ما ذكر عن السياحة فهو صيامٌ، وقال الأزهريُّ: وقيل للصائم سائحٌ، لأنَّ الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه، فحين يجدُ الزادَ يَطْعَمُ، والصائمُ لا يَطْعَمُ أيضاً، فلشبهه به سُمِّي سائحاً [تفسير الواحدي: ١١/ ٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ﴾ الذين يؤدون ما عليهم مِنَ الركوعِ والسجودِ، ولعل المرادُ بالركوع والسجودِ الذين يُؤدُّون ما افترضه اللهُ عليهم في الصلاةَ، ﴿ٱلْأَـٰمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: الآمرون بكلِّ معروفٍ أمرتْ به الشريعةُ الإسلامية، والناهون عن كلِّ منكر نهت عنه وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ أي: فرائضِه، وهي الواجباتُ التي ألزمهم بها، وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ أي: بَشِّرْهم بما يسُرُّهُمْ، ويفرحهم.

٢- نهيُ الله تعالى نبيَّه ﷺ والمؤمنين عن الاستغفارِ للمشركين:

نَهى اللهُ -تعالى- رسوله ﷺ والمؤمنين عن الاستغفارِ للمشركين فقال: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة:١١٣] وهذه الآيةُ تدلُّ على أنَّ رسولَ الله ﷺ كان هو والمؤمنون يطلبون مِنَ الله تعالى أنْ يغفرَ للمشركينَ وبخاصةِ الأقرباءُ منهم، وقد رَوَى [البخاري: ١٣٦٠. ومسلم: ٢٤] أنَّ الرسولَ ﷺ طلب من عمِّه أبي طالب في مرض موتِهِ أنْ يقول: لا إله إلا الله، ليحاجَّ له عنده بهذه الكلمة، فلما أبى أن يقولها قال النبيُّ ﷺ: «لأستغفرنَّ لَكَ ما لَمْ أُنْهَ عنك» فنزلت: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ وكونُ هذه الآية نزلتْ في أبي طالب بعيدٌ(١)، فموت أبي طالب كان في مكَّة، وهذه الآية نزلت في آخر ما نزلَ من السور.

(١) استدراك: بل هو ممكن، لأن بعض السور المدنية قد يتخللها بعض الآيات المكية لا سيما وقد صح نزول الآية في قصة أبي طالب وخرجها البخاري (١٣٦٠) ومسلم (٢٤) وأحمد (٢٣٦٧٤). وقد ذكر السيوطي في «الإتقان» ١/ ٥٨ أن سورة براءة مدنية، وأن هذه الآية مما استثني منها ونزل بمكة. وثمة احتمال آخر وهو أن النبي ﷺ بقي يستغفر لأبي طالب عمه حتى نزلت عليه هذه الآية في المدينة، والله أعلم. انظر: «التفسير البسيط» للواحدي ١١/ ٧٤. الناشر.

جنـــــة السـنة

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «استأذنت ربي أنْ أسْتَغْفِرَ لأمِّي، فلَمْ يأْذَنْ لي، واسْتأْذَنْتُهُ أنْ أزورَ قَبْرَها، فأَذِنَ لي» [البخاري: ٩٧٦].

وفي الحديث عن سليمانَ بن بريدة، عن أبيهِ أنَّ النبيَّ ﷺ لما قَدِمَ المدينة أتى رَسْمَ قبرٍ، فجَلَسَ إليه، فجعلَ يخاطبُ، ثم قام مُستَعبِراً، فقُلنا: يا رسولَ الله، إنَّا رأيْنا ما صَنَعْتَ، قال: «إني اسْتأْذَنْتُ ربي في زيارةِ قبرِ أمي، فأذِنَ لي، واسْتأْذَنْتُهُ في الاسْتِغْفارِ لها فلمْ يأذن لي» [قال محقق ابن كثير ٣/ ٤٥٠: إسنادُه صحيح، أخرجه الطبريُّ (١٧٣٤٤) وإسناده على شرط مسلم].

٣- عُذْر نبيِّ الله إبراهيم ﷺ في استغفارِهِ لأبيه:

كان نبيُّ الله إبراهيمُ ﷺ قد وَعَدَ أباه أنْ يستغفرَ له، رجاءَ إيمانِه، فأرادَ الرسولُ ﷺ وأصحابُه أن يتأسَّوا بإبراهيم في استغفارهم لآبائهم وأقربائهم، فنهاهم اللهُ تعالى عن ذلك، وأخبر أنَّ إبراهيمَ استغفرَ لأبيهِ عن موعدةٍ وعدَها إيَّاه، فلما تبيَّن له أنَّ أباه عدوٌّ لله تبرأ منه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٤].

وعلى ذلك فلا يجوزُ التأسِّي بنبي الله إبراهيمَ في الاستغفارِ للمشركين مطلقاً، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ وصفَ ربُّ العزةِ إبراهيمَ ﷺ بوصفين هما: الأوَّاهُ والحليمُ، وقد فسَّر المفسرون الأوَّاهَ بألفاظٍ متقاربة فيما بينها، فقالوا: الأوَّاه: المتضرعُ بالدعاءِ، والتوَّابُ، والذي يذكر اللهَ تعالى، والمسبِّحُ، والدَّعاءُ البكَّاءُ، والحليمُ: واسعُ البالِ، الذي لم يعاقب أحداً إلا لله، ولم ينتصرْ من أحدٍ إلا لله. ثم أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ وأصحابَه وأُمّته فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة:١١٥].

أي: وما كان اللهُ تعالى ليقضيَ عليكم بالضلال على عبادِهِ بعد هدايته لهم حتى يبين لهم ما يتقونه، أي: ما يجتنبونه، فلا يحكم على المؤمنين في العهد النبوي بالضلال لاستغفارهم لأقاربهم، لأنهم لم يكونوا يعلمون أنَّ اللهَ تعالى حرَّم هذا، ونهى عنه، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ أي: إنَّ الله ذو علم بما خالط أنفسكم عند نهي الله إياكم عن الاستغفار للمشركين الأقارب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ [التوبة:١١٦]. أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه سبحانه مالك السمواتِ والأرضِ

جنـــــة السـنــة

وما فيهما وما بينهما، وليسَ لأحد من عباده من قِطْميرٍ، وهو الذي يملك -سبحانه- الإحياءَ والإماتةَ، وليس للعبادِ معه من وليٍّ يتولى أمورهم، ولا نصيرٍ يحامي ويدافعُ عنهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّنَ اللهُ تعالى صفاتِ المؤمنينَ الذين اشترى منهم أنفسَهُمْ وأموالَهُمْ بأنَّ لهم الجنة.

٢- حكم ربُّ العزة سبحانه وقضى أنَّه لا يجوز للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى، فالكفارُ خالدون في نارِ جهنَّمَ.

٣- لا يجوزُ التأسِّي بنبيِّ الله إبراهيم في الاستغفار لأبيه، فقد استغفرَ له عن موعدةٍ وعدها إيَّاه، فلما تبيَّن أنه عدوٌّ لله تبرأ منه، وهجر الاستغفارَ له.

٤- اللهُ -تبارك وتعالى- لا يحكم بضلالِ عبادِهِ حتى يُبيِّنَ لهم ما يلزمهم فِعْلُهُ، أما قبل ذلك فلا يحكم بضلالهم.

٥- اللهُ -تبارك وتعالى- هو المالكُ للسماواتِ والأرض المحيي المميت، وليس لنا ولي ولا نصير غيره.

جنـــــة السـنـة

النص القرآني المتمم للعشرين من سورة التوبة
قصةُ الثلاثةِ المؤمنين الذين تخلَّفوا عن غزوةِ تبوك

أولاً: تقديم

الآياتُ الثلاثةُ الأولى من هذا النص تتحدث عن الثلاثةِ الذين تخلَّفوا عن الرسولِ ﷺ في غزوةِ تبوك، وهم كعبُ بنُ مالك، ومُرارةُ بنُ الرَّبيعِ العَمْريُّ، وهِلالُ بنُ أُميَّةَ الواقِفيُّ، فأمَرَ رسولُ الله ﷺ باعتزالهم ونهى عن كلامنا، ونزلت توبتُهم بعد خمسين ليلةً، نزلت الآياتُ الثلاثةُ الأولى من هذا النص، وفي قِصَّتهم دروسٌ وعِبرٌ كثيرةٌ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ
بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ
ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ
إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟
بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ
فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

[التوبة:١١٧-١٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **سببُ نزولِ هذه الآيات:**

حدثنا عبدالله بنُ كعبِ بنِ مالكٍ، قال: سمعت كعبَ بنَ مالكٍ يُحدِّثُ حينَ تخلَّفَ عن قصةِ تبوكَ، قال كَعْبٌ: لم أتخلَّفْ عن رسولِ الله ﷺ في غزوةٍ غَزاها إلا في غزوةِ تبوكَ، غيرَ أني كنتُ تخلَّفْتُ في غزوةِ بَدْرٍ، ولم يُعاتِبْ أحداً تخلَّفَ عنها، إنما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ يريدُ عيرَ قُرَيشٍ، حتى جَمَعَ اللهُ بينَهم وبينَ عَدُوِّهم على غيرِ ميعادٍ.

جنـــــة الســــنة

ولقد شَهِدْتُ مع رسولِ الله ﷺ ليلةَ العقبةِ حينَ تواثَقْنا على الإسلام، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كانت بَدْرٌ أذْكَرَ في الناس منها، كانَ مِنْ خَبَرِي أنّي لم أَكُنْ قَطُّ أقوى ولا أيسَرَ حينَ تخلَّفْتُ عنه في تلك الغَزاةِ، والله ما اجْتَمَعَتْ عندي قبلَه راحلَتانِ قَطُّ، حتى جَمَعْتُهما في تلكَ الغزوةِ، ولم يكنْ رسولُ الله ﷺ يريدُ غَزْوةً إلا ورَّى بغيرِها، حتى كانت تلكَ الغزوةُ، غَزاها رسولُ الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستَقْبَلَ سفراً بَعيداً، ومَفازاً وعَدُوّاً كثيراً، فجَلّى للمُسلمينَ أمرَهم ليَتَأهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهم، فأخبرَهم بوَجْهِه الذي يريدُ، والمسلمونَ مع رسولِ الله ﷺ كثيرٌ، ولا يَجمَعُهم كِتابٌ حافظٌ -يريدُ الدِّيوانَ- قال كعبٌ: فما رجلٌ يريدُ أنْ يَتغيَّبَ إلا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لم يَنْزِلْ فيه وحْيُ الله، وغزا رسولُ الله ﷺ تلكَ الغَزْوةَ حينَ طابَتِ الثِّمارُ والظِّلالُ.

وتَجهَّزَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معه، فطَفِقْتُ أغْدُو لكي أتَجهَّزَ معهُم، فأرجِعُ ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادِرٌ عليه، فلم يَزَلْ يَتَمادَى بي حتَّى اشتَدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبحَ رسولُ الله ﷺ والمسلمونَ معه، ولم أقْضِ مِنْ جهازي شيئاً، فقلتُ: أتَجهَّزُ بعدَه بيوم أو يومَينِ ثمَّ ألحَقُهُمْ، فغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فصَلوا لأتَجهَزَ، فرَجَعْتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يَزَلْ بي حتى أسرَعوا وتَفارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرتَحِلَ فأُدْرِكَهُم -ولَيتَني فعلتُ- فلم يُقدَّرْ لي ذلكَ، فكنتُ إذا خَرَجْتُ في الناس بعدَ خُروج رسولِ الله ﷺ ، فطُفْتُ فيهم، أحزَنَني أني لا أرى إلا رجلاً مَغْمُوصاً عليه النِّفاقُ، أو رجلاً ممَّن عَذَرَ الله مِنَ الضُّعَفاءِ، ولم يَذْكُرْني رسولُ الله ﷺ حتى بَلَغَ تبوكَ، فقال وهو جالسٌ في القوم بتبوكَ: «ما فَعَلَ كَعْبٌ؟» فقال رجلٌ من بني سَلِمةَ: يا رسولَ الله، حَبَسَه بُرْداه ونَظَرُه في عِطْفَيه، فقال مُعاذُ بنُ جَبَلٍ: بئْسَ ما قلتَ، والله يا رسولَ الله ما عَلِمْنا عليه إلاَّ خيراً، فسَكَتَ رسولُ الله ﷺ.

قال كَعْبُ بنُ مالكٍ: فلما بَلَغَني أنّه تَوَجَّهَ قافلاً حَضَرَني هَمِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ وأقولُ: بماذا أخرُجُ مِنْ سَخَطِه غداً؟ واستَعَنْتُ على ذلكَ بكلِّ ذي رَأْيٍ من أهلي، فلمَّا قيلَ: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أظَلَّ قادِماً، زاحَ عنِّي الباطلُ، وعَرَفْتُ أنّي لن أخرُجَ منه أبداً بشيءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَه، وأصبَحَ رسولُ الله ﷺ قادِماً، وكانَ إذا قَدِمَ من سفرٍ بَدَأ بالمسجدِ فيَرْكَعُ فيه رَكْعتَينِ، ثمَّ جَلَسَ للناس، فلمّا فعَلَ ذلكَ جاءَه المخلَّفونَ، فطَفِقوا يَعْتَذِرونَ إليه، ويَحلِفونَ له، وكانوا بِضْعةً وثمانينَ رجلاً، فقَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ علانيَتَهُمْ، وبايَعَهم واستَغْفَرَ لهم، ووَكَلَ سَرائرَهم إلى الله، فجئتُه، فلمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال: «تَعالَ» فجئتُ أمْشي حتَّى جلستُ بينَ يَدَيه، فقال لي: «ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكنْ قَدِ ابتَعْتَ

ظَهْرَكَ؟» فقلتُ: بَلَى، إني والله لو جلستُ عندَ غيرِكَ مِنْ أهلِ الدُّنيا، لَرأيتُ أنْ سأخرُجُ من سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلاً، ولكنّي والله لقد عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حديثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عنّي، لَيُوشِكَنَّ الله أنْ يُسْخِطَكَ عليَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حديثَ صِدْقٍ تَجِدُ عليَّ فيه، إنّي لأرجُو فيه عَفْوَ الله، لا والله، ما كانَ لي من عُذْرٍ، والله ما كنتُ قَطُّ أقوَى ولا أيسَرَ منّي حينَ تَخَلَّفْتُ عنكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما هذا فقد صَدَقَ، فقُم حتّى يَقْضِيَ الله فيكَ»، فقُمْتُ.

وثارَ رِجالٌ مِنْ بني سَلِمَةَ، فاتَّبَعوني، فقالوا لي: والله ما عَلِمْناكَ كنتَ أذنَبتَ ذَنباً قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ أنْ لا تكونَ اعتَذَرْتَ إلى رسولِ الله ﷺ بما اعتَذَرَ إليه المُتَخلِّفون، قد كانَ كافيَكَ ذَنبَكَ استِغْفارُ رسولِ الله ﷺ لَكَ، فوالله ما زالوا يُؤَنِّبوني حتَّى أرَدْتُ أنْ أرجِعَ، فأُكَذِّبَ نَفْسي، ثمَّ قلتُ لهم: هل لَقِيَ هذا مَعي أحدٌ؟ قالوا: نَعَم، رجلانِ قالا مِثلَ ما قُلْتَ، فقيلَ لهما مِثلُ ما قيلَ لَكَ، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ الرَّبيعِ العَمْرِيُّ، وهِلالُ بنُ أُميَّةَ الواقِفِيُّ، فذكَروا لي رجلَينِ صالحينِ قد شَهِدا بَدْراً، فيهما أُسوةٌ، فمَضَيتُ حينَ ذَكَروهما لي.

ونَهَى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كَلامِنا أيُّها الثلاثةُ مِنْ بينِ مَن تَخَلَّفَ عنه، فاجْتَنَبنا الناسُ وتَغَيَّروا لنا، حتَّى تَنكَّرَتْ في نَفْسي الأرضُ، فما هِيَ التي أعرِفُ، فلَبِثْنا على ذلكَ خمسينَ ليلةً، فأمّا صاحبايَ فاستكانا وقَعَدا في بيوتِهما يَبْكِيانِ، وأما أنا فكنتُ أشَبَّ القومِ وأجْلَدَهُم، فكنتُ أخرُجُ فأشهَدُ الصلاةَ مع المسلمينَ، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يُكلِّمُني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلِسِه بعدَ الصلاةِ، فأقول في نَفْسي: هل حَرَّكَ شَفَتَيه بِرَدِّ السَّلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قَريباً منه، فأُسارِقُه النَّظَرَ، فإذا أقبَلْتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التَفَتُّ نحوَه أعرَضَ عنّي.

حتَّى إذا طالَ عليَّ ذلكَ مِنْ جَفْوةِ الناس، مَشَيتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائطِ أبي قَتادةَ، وهو ابن عَمّي وأحَبُّ النّاس إليَّ، فسلَّمْتُ عليه، فوالله ما رَدَّ عليَّ السَّلامَ، فقلتُ: يا أبا قَتادةَ، أَنْشُدُكَ بالله، هل تَعْلَمُني أُحِبُّ الله ورسولَه؟ فسَكَتَ، فعُدْتُ له فنَشَدْتُه، فسَكَتَ، فعُدْتُ له فنَشَدْتُه، فقال: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، ففاضَتْ عَينايَ، وتَوَلَّيتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ الجدارَ.

قال: فبَيْنا أنا أمْشي بسوقِ المدينةِ، إذا نَبَطِيٌّ مِنْ أنباطِ أهلِ الشام ممَّن قَدِمَ بالطَّعام يبيعُه بالمدينةِ، يقولُ: مَن يَدُلُّ على كَعْبِ بنِ مالكٍ؟ فطَفِقَ الناسُ يُشيرونَ له، حتى إذا جاءَني دَفَعَ إليَّ كِتاباً مِنْ مَلِكِ غَسّانَ، فإذا فيه: أمّا بَعْدُ، فإنّه قد بَلَغَني أنَّ صاحبَكَ قد جَفاكَ، ولم يَجْعَلْكَ اللهُ بدارِ هَوانٍ ولا مَضْيَعةٍ، فالحَقْ بنا نُواسِكَ. فقلتُ لَمّا قرأْتُها: وهذا أيضاً مِنَ البلاءِ، فتَيَمَّمْتُ

جنـــــة السـنة

بها التَّنُّورَ فسَجَرْتُه بها. حتَّى إذا مَضَتْ أربَعونَ ليلةً منَ الخمسينَ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُكَ أنْ تَعتَزِلَ امرَأَتَكَ، فقلتُ: أُطَلِّقُها أم ماذا أفعَلُ؟ قال: لا، بَلِ اعتزِلْها ولا تَقْرَبْها، وأرسَلَ إلى صاحبيَّ مِثلَ ذلكَ. فقلتُ لامرَأتي: الحقي بأهلِكِ، فتكوني عندَهم حتَّى يَقْضِيَ اللهُ في هذا الأمرِ، قال كَعْبٌ: فجاءَتِ امرأةُ هِلال بنِ أُميَّةَ رسولَ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله، إنَّ هِلالَ ابنَ أُميَّةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس لَهُ خادِمٌ، فهَلْ تَكْرَه أنْ أخدُمَه؟ قال: «لا، ولكنْ لا يَقرَبُكِ» قالت: إنَّه واللهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شيءٍ، واللهِ ما زالَ يَبْكي منذُ كانَ مِنْ أمرِه ما كانَ إلى يومِه هذا، فقال لي بعضُ أهلي: لَوِ استأْذَنتَ رسولَ الله ﷺ في امرَأَتِكَ كما أذِنَ لامرأةِ هِلال بنِ أُميَّةَ أنْ تَخْدُمَه، فقلتُ: واللهِ لا أستأْذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدْرِيني ما يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأْذَنْتُه فيها وأنا رجلٌ شابٌّ؟

فلَبِثْتُ بعدَ ذلكَ عَشْرَ ليالٍ، حتَّى كَمَلَتْ لنا خمسونَ ليلةً من حينَ نَهى رسولُ الله ﷺ عن كَلامِنا، فلمَّا صَلَّيتُ صلاةَ الفجرِ صُبْحَ خمسينَ ليلةً، وأنا على ظَهْرِ بيتٍ من بيوتِنا، فبَيْنا أنا جالسٌ على الحالِ التي ذَكَرَ اللهُ، قد ضاقَتْ عليَّ نَفْسي، وضاقَتْ عليَّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارِخٍ أوْفَى على جَبَلِ سَلْعٍ بأعلَى صوتِه: يا كَعْبَ بنَ مالِكٍ، أبشِرْ. قال: فخَرَرْتُ ساجِداً، وعرَفْتُ أنْ قد جاءَ فرَجٌ، وآذَنَ رسولُ الله ﷺ بتَوْبةِ الله علينا حينَ صلَّى صلاةَ الفجرِ، فذهبَ الناسُ يُبشِّرونَنا، وذهبَ قِبَلَ صاحبَيَّ مُبَشِّرونَ، ورَكَضَ إليَّ رجلٌ فَرَساً، وسَعَى ساعٍ من أسلَمَ، فأوفَى على الجَبَلِ، وكانَ الصوتُ أسرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فلما جاءَني الذي سمعتُ صوتَه يُبشِّرُني نَزَعْتُ له ثوبَيَّ، فكَسَوْتُه إيّاهما ببُشْراه، واللهِ ما أَمْلِكُ غيرَهما يومَئِذٍ، واستَعَرْتُ ثوبينِ فلَبِسْتُهما، وانطَلَقْتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فيَتَلَقّاني الناسُ فوْجاً فوْجاً يُهَنّوني بالتَّوْبةِ، يقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبةُ الله عليكَ.

قال كعبٌ: حتى دَخَلْتُ المسجدَ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوْلَه الناسُ، فقامَ إليَّ طَلْحةُ بنُ عُبَيدِ الله يُهَرْوِلُ حتى صافَحَني وهَنّاني، واللهِ ما قامَ إليَّ رجلٌ مِنَ المهاجِرينَ غيرُه، ولا أنساها لطَلْحةَ. قال كَعْبٌ: فلمَّا سَلَّمْتُ على رسولِ الله ﷺ، قال رسولُ الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهُه مِنَ السُّرُورِ: «أبشِرْ بخيرِ يَوْمٍ مَرَّ عليكَ منذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ» قال: قلتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يا رسولَ الله أم من عندِ الله؟ قال: «لَا، بل من عِنْدِ الله» وكانَ رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استَنارَ وجهُه حتى كأنَّه قِطعةُ قَمَرٍ، وكنَّا نَعرِفُ ذلكَ منه، فلمَّا جلستُ بينَ يَدَيه قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ من تَوْبَتي أنْ أنْخلِعَ من مالي صَدَقةً إلى الله وإلى رسولِ الله، قال رسولُ الله ﷺ: «أمسِكْ عليكَ بعضَ مالِكَ، فهو خيرٌ لَكَ» قلتُ: فإنّي أُمْسِكُ سَهْمي الذي بخَيْبَرَ، فقلتُ: يا رسولَ

الله، إنَّ الله إنَّما نَجّاني بالصِّدْقِ، وإنَّ مِنْ تَوْبَتي أنْ لا أُحَدِّثَ إلاَّ صِدْقاً ما بَقيتُ، فوالله ما أعلَمُ أحداً من المسلمينَ أبلاه اللهُ في صِدْقِ الحديثِ منذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لرسولِ الله ﷺ أحسَنَ ممَّا أبلاني، ما تَعَمَّدْتُ منذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرسولِ الله ﷺ إلى يومي هذا كَذِباً، وإني لأرجُو أنْ يَحفَظَني اللهُ فيما بَقِيتُ.

وأنزَلَ الله على رسولِه ﷺ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٧-١١٩] فوالله ما أنعَمَ اللهُ عليَّ من نِعْمةٍ قطُّ بعدَ أنْ هَداني للإسلام، أعظَمَ في نَفْسي مِنْ صِدْقي لرسولِ الله ﷺ أنْ لا أكونَ كَذَبْتُه، فأهلِكَ كما هَلَكَ الذينَ كَذَبوا، فإنَّ الله قال للذينَ كَذَبوا حينَ أنزلَ الوَحْيَ شَرَّ ما قال لأحد، فقال تَبارَكَ وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة:٩٥-٩٦] قال كَعْبٌ: وكنَّا تَخلَّفْنا أيُّها الثلاثةُ عن أمرِ أولئكَ الذينَ قَبِلَ منهم رسولُ الله ﷺ حينَ حَلَفوا له فبايَعَهُم، واستَغْفَرَ لهم، وأرجَأ رسولُ الله ﷺ أمرَنا، حتَّى قَضَى الله فيه، فبذلكَ قال الله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة:١١٨] وليس الذي ذَكَرَ الله ممَّا خُلِّفْنا عن الغَزْوِ، إنَّما هو تَخْليفُه إيّانا وإرْجاؤُه أمرَنا عَمَّنْ حَلَفَ له، واعتذر إليه، فقَبِلَ منه [البخاري: ٤٤١٨. ومسلم: ٢٧٦٩].

٢- توبة الله -تعالى- على النبيِّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ساعة العسرة:

قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة:١١٧].

قال ابن كثير: «قال مجاهد، وغير واحدٍ: نزلت هذه الآيةُ في غزوةِ تبوك، وذلك أنهم خَرَجُوا إليها في شدَّةٍ من الأمر في سنة مُجْدِبَةٍ، وحَرٍّ شديدٍ، وعُسْرٍ من الزاد والماءِ. قال قتادةُ: خَرَجوا إلى الشام عامَ تبوكَ في لَهَبان الحر، على ما يعلم الله مِنَ الجَهْدِ، أصابهم فيها جَهدٌ شديدٌ، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يَشُقَّانِ التمرةَ بينهما، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم، يمصُّها هذا ثم يَشْربُ عليها، ثم يمصُّها هذا ثم يَشْربُ عليها ، فتابَ الله عليهم، وأقفلهم مِنْ غزوتهم».

وقال ابنُ جرير: حدثني يونس بن عبدالأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عَمْرو بن الحارث، عن سعيد بن أبي هلال، عن عُتْبَةَ بن أبي عُتْبَةَ، عن نافعِ بنِ جُبَيرِ بن مُطعِم، عن

جنـــــة السـنة

عبدالله بن عباس: أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة، فقال عمر: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قَيْظٍ شديدٍ، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عَطَش، حتى ظننا أنَّ رقابنا ستنقطع، حتى إن كان الرجل ليذهب يلتمسُ الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطعُ، حتى إن الرجلَ لينحر بعيره فيعصر فَرْثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إنَّ الله عز وجل قد عَوّدك في الدعاء خيراً، فادع لنا، قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم! فرفع يديه فلم يرجعهما حتى مالت السماء، فأظَلَّت ثم سكبت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزتِ العسكر [قال محقق ابن كثير (٣/ ٤٥٧): إسناده حسن، ورجاله ثقات].

وقال ابن جرير في قوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي: مِنَ النفقة والظَّهرِ والزاد والماءِ، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾، أي: عن الحقِّ ويشكُّ في دين رسولِ الله ﷺ ويرتابُ، بالذي نالهم مِنَ المشقة والشدَّة في سفره وغزوه، ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يقول: ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم، والرجوعِ إلى الثبات على دينه، ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [ابن كثير: ٣/ ٤٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ .

٣- أمر الله تعالى المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين:

لما ذكر تعالى ما فرَّج به عن هؤلاء الثلاثة من الضيق والكرب، مِنْ هجر المسلمين إياهم نحواً من خمسين ليلة بأيامها، وضاقت عليهم أنفُسهم، وضاقت عليهم الأرضُ بما رَحُبتْ، أي: مع سعتها، فَسُدِّدَتْ عليهم المسالكُ والمذاهبُ، فلا يهتدون ما يصنعون، فصَبَروا لأمرِ الله، واستكانوا لأمرِ الله، وثبتوا حتى فَرَّج الله عنهم بسبب صِدْقهم رسولَ الله ﷺ في تَخَلُّفهم، وأنه كان عن غير عذرٍ، فعُوقبوا على ذلك هذه المدة، ثم تاب الله عليهم، فكان عاقبة صدقهم خيراً لهم وتوبة عليهم ولهذا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ ، أي: اصدقُوا والزمُوا الصدقَ تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويَجْعَلْ لكم فرجاً من أموركم، ومخرجاً.

وأورد ابن كثير في تفسيره ما رواه أحمد والبخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ : «عَلَيكُمْ بالصِّدْقِ، فإنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البرِّ وإنَّ البر يهدي إلى

جنـــــة السـنـــة

الجَنَّةِ، وما يزالُ الرجلُ يَصْدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدْقَ حتَّى يُكتَبَ عِنْدَ الله صدِّيقاً، وإياكُمْ والكذِبَ فإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإنَّ الفجورَ يَهْدِي إلى النَّار، وما يَزالُ الرَّجُلُ يكذِبُ ويتحرَّى الكَذِبَ، حتى يُكتَبَ عند الله كذاباً» [ابن كثير: ٣/ ٤٦١].

٤- نهيُ الله تعالى أهلَ المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعراب أنْ يتخلفوا عن رسولِ الله:

نهى اللهُ تعالى أهلَ المدينةِ والأعرابَ الذين حولها أن يتخلفوا عن رسولِ الله، ولا يرْغبوا بأنْفُسِهِمْ عن نفسه ﴿ مَاكَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة:١٢٠] لامَ اللهُ -تبارك وتعالى- الذين تخلَّفوا عن رسولِ الله في غزوة تبوك من أهل المدينة، ومن الأعراب حولهم، وهم مزينةُ وجهينةُ وأشجعُ وأسلمُ وغفارُ، فلا يجوز لهؤلاء أنْ يَرْضَوا بالتخلُّفِ عن الغزوِ خلافَ رسولِ الله ﷺ، ويجعلوا أنفسهم في الظلالِ والنعيمِ، والرسولُ ﷺ في التعبِ والمشقَّةِ والعناءِ.

ثم رغَّب اللهُ تعالى أهلَ المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعراب في الجهاد، وما يحوزه المجاهدونَ مِنَ الأجْرِ العظيم والثوابِ الجزيلِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة:١٢٠].

بيَّن اللهُ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ ما يحصل للمؤمنين من الأجرِ والثوابِ في مقاساةِ ومعاناة ما يصيبهم من مشقات الطريق وكُلَفِ السفر، وقوله: ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ﴾ وهو شدةُ العطشِ، ﴿وَلَا نَصَبٌ﴾ وهو التعبُ والإعياءُ مِنَ العناءِ وشدة الحرِّ والبرد، ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ﴾ أي: ولا مجاعةٍ، ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في الجهادِ في سبيل الله، ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ﴾ أي: يغضبُ الكفار، ويثيرُ حفيظتهم، ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا﴾ أي: لا يأسرون الكفارَ ولا يقتلونهم ويهزمونهم، قليلاً كان ذلك أو كثيراً إلا كان ذلك قربةً لهم عند الله وكُتب لهم بذلك ثواب عمل صالح ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾. وفي هذه الآية دليلٌ على أنَّ مَنْ قصد طاعةَ الله كان قيامُهُ وقعودُه ونصبُه ومشيُه وحركاتُه كلها حسناتٍ مكتوبةً له.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ فالله يعلم أعمالهم، ويحصيها، ويباركها، وينمِّيها، ولا يضيعُ عمل المحسنين.

جنـــــة السـنـــة

وقولُ ربِّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢١]. أخبر ربُّ العزة سبحانه وتعالى عن مجموعةٍ مِنَ الأعمال الأخرى التي تزيدُ المجاهدين أجراً وثواباً، فمن ذلك إنفاقُهم القليلَ والكثيرَ، والصغيرَ والكبيرَ في الجهادِ، ومن ذلك مسيرُهُمْ إلى الموضعِ الذي يقصدونه قاطعين الوديانَ والفيافي والقفارَ، فيكتبُ اللهُ تعالى لهم ذلك كلَّه، ليجزيهمَ ربُّهم أحسنَ ما كانوا يعملون.

٥- لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا للحرب والقتالِ كافةً إذا بقي الرسولُ ﷺ في المدينة:

بيَّنَ اللهُ تعالى فيما مضى أنه لا يجوز لأحد من المؤمنين أنْ يتخلفَ عن الرسولِ ﷺ إذا خرجَ للحرب والقتالِ بنفسه، فإذا أرسل الرسولُ ﷺ السَّرايا، وقعد في المدينة، فلا يجوز للمؤمنينَ أنْ يخرجوا جميعاً للحربِ والقتالِ ويُخَلِّفوا رسولَ الله ﷺ وحده في المدينةِ، وبذلك نضمن أن تسير مسيرة الجهادِ، وتنطلق، وتبقى الحياة في المجتمع الإسلامي ماضية على حالها، ولا يتأثر المجتمعُ الإسلامي بالحالةِ الجهادية التي تعمل فيه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة:١٢٢].

حكم ربُّ العزة تبارك وتعالى أنّه لا يجوزُ لصحابةِ رسولِ الله ﷺ أنْ ينفروا إلى الغزو للجهادِ جميعُهُمْ، مخلفين رسولَ الله ﷺ خلفهم في المدينةِ، وحَضَّهم ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على أنْ ينفر مِن كلِّ فرقة، أي: مِنْ كلِّ مدينةٍ أو قريةٍ أو قبيلةٍ أو جماعة طائفةٌ، أي: جماعةٌ، يبقون مع الرسول ﷺ في المدينة، فَيَصْحَبُونَه، ويأخذون عنه العلمَ والوحيَ والفقهَ، حتى إذا عادوا إلى قومهم بعد صحبتهم للرسول ﷺ فقَّهُوهم وعلَّموهم، وأنذروهم لعلهم يحذرون فعل ما لا يريدُه ربُّ العزة منهم.

هذا إذا كان الرسول ﷺ بقي في المدينةِ، فإذا خرج بالجيش، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يتخلَّف عنه إلا بعذرٍ يرضاه، ويصبحُ الذين يصحبونه في الخروج هم الذين يفقهونَ عنه، ويأخذون عنه العلم، ليفقهوا قومهم بعد العودة إليهم، لعلهم يحذرون.

جنـــــة السـنـــــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- وفَّقَ اللهُ -تعالى- أصحابَ رسولِ الله ﷺ إلى الخروج إلى غزوةِ تبوك بعد أنْ تردَّدوا وهمُّوا بالتخلف عنه، فسدَّدهم وأعانهم على الخروج.

٢- كانَ عددُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ الذين تخلفوا عنه في تبوك قليلاً جداً، فلم يتخلف عنه إلا ثلاثة فحسب، من بين ثلاثين ألف مقاتل.

٣- صدقَ الثلاثةُ الذين تخلفوا ولم يعتذروا عذرَ المنافقين، وصدقوا اللهَ تعالى، ورسولَه ﷺ حتى أنزل قبولَ توبتهم مِنْ عنده.

٤- عاقبةُ الصدق إلى خيرٍ، فالثلاثةُ الذين تخلَّفوا عن تبوك صدقوا، فكانت عاقبتهم إلى خيرٍ، والمنافقون الذين تخلفوا أحلُّوا عقابَ الله ومقته بهم.

٥- لوم الله الذينَ تخلفوا عن رسولِ الله ﷺ وأصحابِهِ في الخروج إلى تبوك مِنْ أهل المدينةِ ومَنْ حولهم مِنَ الأعرابِ، فما كان لهم أن يتخلفوا عن رسولِ الله ﷺ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه.

٦- ينال المجاهدون في سبيل الله تعالى أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، بما ينالونه، ويقدمونه مِنَ الأعمال الصالحةِ، وما يعانونه من الجهدِ والتعبِ.

٧- إذا أرسل الرسولُ ﷺ الجيوشَ للحربِ والقتالِ وقعدَ في المدينةِ، فلا يجوز للمؤمنين أنْ يخرجوا جميعهم، بل يبقى منهم فرقة وجماعة يصحبونَ رسولَ الله ﷺ ، ويأخذون العلم والوحي عنه، وينذرون قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الحادي والعشرون من سورة التوبة
جملة من أحوال المنافقين

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ والمؤمنين باتباع منهجيَّةٍ معيَّنَةٍ في قتال أعْدائِهم الكفار، وأمر بالغلظةِ في قتال أولئك الأعداءِ.

وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ المؤمنين تزيدُهُمْ سورُ القرآن إيماناً إذا ما تَلَقُّوها، والكفارُ والمنافقون تزيدُهم كفراً ونفاقاً، ويموتون على كفرهم.

وأخبرنا ربُّنا أنه يُنَزِّلُ على المنافقين دائماً أنواع الفتنِ، ليختبرَهُمْ، ويبتليهم بها، ولكنهم لا يعتبرون، ولا يتوبون.

وبيَّن لنا موقفَ المنافقين إذا نزلتْ سورةٌ، ولم يَرَهُمْ أحد، فإنَّهم ينصرفون مُوَلِّين، من غير أن يستفيدوا مما أنزله اللهُ تعالى.

ووصف اللهُ رسولَهُ ﷺ بصفاتٍ رائعة، فهو سيد الخلق، وأمَرَهُ إن أعرض الناسُ عنه أن يلتجئَ إلى ربِّه تبارك وتعالى، ويحتمي به، ويتوكَّل عليه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة التوبة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٣-١٢٩].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمر اللهُ -تعالى- المؤمنين أنْ يقاتلوا الذين يلونهم مِنَ الكفار:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يتَّبِعوا في قتالهم لأعدائهم مِنَ الكفار معالمَ خطةٍ عسكريةٍ واحدةٍ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة:١٢٣].

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين أن يقاتلوا الأدْنى فالأدْنى من أعدائهم، ولهذا بدأ الرسولُ ﷺ بقتال المشركينَ في جزيرةِ العرب، فلما دخلتِ الجزيرة في الإسلام، وفتحَ اللهُ على المؤمنين مكة والطائفَ واليمن وهجرَ وخيبرَ وحضرموتَ وعمومَ الجزيرةِ العربيةِ، اتجَّهَ إلى حربِ الرومِ في شمالِ الجزيرة العربيةِ، فبلغ تبوك، ثم رَجَعَ.

وبعد وفاةِ الرسولِ ﷺ قام أبو بكر الصديقُ بحربِ المرتدِّين ومانعي الزكاةِ، ثم اجتاحتْ جيوشُ الإسلام فارسَ والرومَ معاً، وهزَّ عروشَ الأكاسرةِ والقياصرةِ، وأتمَّ الفتحَ من بعدِهِ خليفته عمر بنُ الخطابِ، فأتمَّ اللهُ على يَدَيْهِ فتحَ فارسَ والرومَ، وفُتِحَتْ مصرُ، وكثيرٌ مِنَ البلادِ.

واستمرت حروبُ المسلمين في عهد عثمانَ إلى أنْ وقعَ الخلافُ بين الصحابةِ، واقتتلوا.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ﴾ أي: يجبُ أن يعاملَ المسلمون أعداءَهم في الحرب والقتال بغلظةٍ، والغلظةُ الشدَّةُ والقوةُ والعنفُ، فالحربُ ليست موضعاً للأحاسيس الناعمةِ، وإنَّما هي موضعٌ للضربِ والطعانِ وضربِ الأعناق، وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ أمَرَهُمْ اللهُ -تعالى- أن يعلموا أنَّه -سبحانه- مع المتقين، وإذا كان معهم، فإنَّه ناصِرُهم ومؤيِّدُهم، وهازمُ أعدائِهم.

٢- أثرُ القرآن في زيادة الإيمان:

أَعْلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المنافقين كانوا إذا ما أُنزلت سورةٌ يقولون: أيُّكم زادَتْه هذه السورةُ إيماناً ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [التوبة:١٢٤] وقد أجاب ربُّ العزةِ، وبيَّن أن الذين آمنوا تزيدُهم سورُ القرآن إيماناً وهم يستبشرون ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة:١٢٤].

وزيادةُ الإيمانِ ونقصانُه أصْلٌ من أُصولِ الإيمان عندَ الصحابةِ والذين اتبعوهم بإحسان، فالقرآنُ الذي ينزله اللهُ تعالى، فيعلَمُهُ المؤمنون، ويعْلَمون منه ما يعرِّفُهم بالله

جنـــــة السـ ـــنة

وأسمائِه وصفاته، وما يتعلَّق برسله وأنبيائه، وما يحدِّثُهُمْ به عن ملائكته الأطهار، والمصطفين الأخيار، واليومِ الآخرِ، ويعلمون العلم النافع، علمَ الشريعة، كلُّ ذلك يزيدُ الإيمانَ ويقوِّيْه، ويزدادُ الإيمان أيضاً بعملهم بهذا الدين وحفاظهم عليه.

وأما الكفارُ والمنافقون، فإذا أنزل القرآنُ كفروا به، ورفضوه، وكذَّبوا بما جاءَ به، فاكتسبوا ذنوباً إلى ذنوبهم، وكفراً إلى كفرهم ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [التوبة:١٢٥]، أي: زادتهم كفراً إلى كفرهم، وشكّاً إلى شَكِّهم، وماتوا على ما هم عليه من الكفرِ والشكِّ.

٣- فتنةُ اللهِ -تعالى- المنافقين في كلِّ عامٍ مرَّةً أو مرتين:

خاطب ربُّ العزَّة سبحانه وتعالى المنافقين منبِّهاً إيَّاهم قائلاً لهم: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة:١٢٦]

وقوله تعالى: ﴿يُفْتَنُونَ﴾ أي: يُختَبَرون، ويمتحنونَ، أي: بأنواعِ الاختبارِ والابتلاءِ، كأن يختبرهم اللهُ تعالى بما يرسله عليهم مِنَ الأمراضِ والأوجاع، والجوعِ والقحطِ، أو بغزوِ المؤمنين وجهادِهِمْ لهم، فيصيبونهم بالجرحِ والأَسْرِ والقتلِ، وغنيمةِ أموالهم، فلا يرتدعون عن كفرهم، ولا يَنْزَجِرون عمَّا هم عليه مِنَ النفاقِ، ولا يقدِّمون الأعمالَ الصالحةَ لأنفسهم في الآخرةِ.

وحالُهُمْ مخالفٌ لحالِ المؤمنين، فالمؤمنون إذا أصابتهم المصائِبُ، أنابوا إلى ربِّهم، وخضعوا له، ويكونُ حالهم كما وصف الله المؤمنين، أي: يتوبون ويذَّكَّرون.

ثم ذكر اللهُ -تعالى- عن المنافقين أنَّهم ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [التوبة:١٢٧].

أخبر ربُّ العزَّة سبحانه أنه إذا أُنزلتْ سورةٌ على رسولِ الله ﷺ ﴿نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: تَلَفَّت بعضُهم إلى بعضٍ ﴿هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ فإذا كان هناك مَنْ يراهم ثَبَتُوا واستمرُّوا على حالهم، وإذا لم يَرَهُمْ أحد انطلقوا عائدين إلى ديارهم ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟﴾ أي: مِنَ الموضع الذي كانوا فيه، ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ لا يفهمون عن الله تعالى ما أنزله في كتابِهِ.

٤- ثناء الله -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ:

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ في الآيتين الأخيرتين من هذه السورة، فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

جنـــــة الســـــنة

عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٨-١٢٩].

امتنَّ اللهُ تعالى على المؤمنين بأن أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم هو عبدُهُ ورسولُهُ محمدٌ ﷺ، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشيِّ: «إنَّ اللهَ بعث فينا رسولاً مِنَّا، نعرف نسبَهُ وصفتَهُ، ومَدْخَلَهُ ومُخْرَجَهُ، وصِدْقَه وأمانَتَه».

فرسولنا ﷺ مِنْ جِنْسِ العربِ، مِنْ وَلَدِ نبيِّ الله إسماعيل، ولغته لغةُ العربِ، وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يَعِزَّ عليه عنتكم، والعَنَتُ: الشِّدَّةُ والمشقَّةُ، وقوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: حريصٌ على إيمانكم وهدايتكم ووصولِ الخيرِ الدنيويِّ والأُخرويِّ إليكم، وفي الحديثِ عن أبي ذرٍّ قال: «تَرَكَنا رسولُ الله ﷺ وما طائرٌ يُقَلِّبُ جَنَاحَيْهِ في الهواءِ إلاَّ وهو يذْكُر مِنْهُ عِلْماً»، قال: وقالَ رسولُ الله ﷺ: «ما بَقِيَ شيءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِنَ النارِ إلاَّ وَقَدْ بُيِّنَ لكم» [قال محقق ابن كثير: صحيحٌ، أخرجه أحمدُ: (٥/ ١٥٣-١٦٢)، والطيالسيُّ: (٤٧٩) وابنُ حبانَ: (٦٥)، والطبراني: (١٦٤٧) وإسناد ابن حبَّان والطبرانيِّ رجاله رجالُ الصحيح غير محمد المُقْرِئ، وهو ثقةٌ].

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ وَصَفَ اللهُ رسولَهُ ﷺ بوصفين عظيمين رقيقين، هما: صفةُ الرأفةِ وصفةُ الرحمة، يدُلاَّن على ما اتصف به ﷺ مِنَ الرِّقَّةِ تجاهَ المؤمنين.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ إذا تولّى الناس عنه أن يقول: حسبيَ الله:

أمَرَ اللهُ تعالى الرسولَ ﷺ إذا أعرضَ الناسُ عنه، ولم يستجيبوا له، أنْ يقولَ: حسبيَ اللهُ لا إله إلا هو عليه توكلت وهو ربُّ العرش العظيم، ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة:١٢٩].

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي: إن أعرض المشركون والكفارُ والمنافقون عن الإيمانِ بك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: كافيني ربُّ العِزَّة سبحانه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا هو ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: أنَّ اعتمادي على ربِّي وحدَهُ سبحانه ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ والعرشُ أعظم مخلوقاتِ الرحمنِ وأشرفُها وأعلاها، وهو سَقْفُ جَنَّةِ الفردوس.

وآخر آيتين مِنْ هذه السورةِ وجدهما زيدُ بن ثابتُ الأنصاريُّ عندما كَلَّفَه أبو بكر وعمرُ بكتابةِ المصحفِ مُرَتَّباً مع خزيمة الأنصاريِّ، لم يَجِدْهما مع أحدٍ غيره [البخاري: ٤٦٧٩. وانظر فتح الباري ٩/ ١٥ شرح الحديث (٤٩٨٦) وأن المراد بالنفي نفي وجودها مكتوبة، لا نفي كونها محفوظة].

جنـــــة الســـــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- بيَّن اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ وللمؤمنين معه ومن بعْدِهِ المنهجية التي يجبُ عليهم اتباعها في قتالِ أعدائهم، وهي أنْ يقاتلَ الأقربَ فالأقربَ منهم.

٢- يجب على المؤمنين أنْ يكونوا أقوياءَ أشداءَ في قتالِ أعدائهم، يخيفونهم، ويرعبونهم، ويجعلونهم يرتجفون من مواجهتهم.

٣- الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، يزيدُ بالطاعةِ، وينقصُ بالمعصية، ويزيدُ بقراءةِ القرآنِ والعلمِ بما فيه، وينقُصُ بهجرِ القرآنِ وإهمالِهِ.

٤- الذين في قلوبهم مرضُ الكفرِ والشركِ والنفاقِ يزدادون رجساً إلى رجسهم، ويموتون على كفرهم.

٥- يفتِنُ اللهُ تعالى المنافقين ويمتحنهم بشتى أنواعِ الفتنِ في كلِّ عامٍ، ولكنهم لا يتوبون إلى الله، ولا يرجعون إليه.

٦- عندما تنزلُ سورةٌ من عند الله تعالى، يتلفتُ المنافقون، فإن لم يَرَوْا أحداً يراهم انصرفوا، واخْتَفَوا.

٧- ثناءُ الله -تعالى- على عبدِهِ ورسولِهِ ﷺ الذي أرسله إلى عباده المؤمنين، وهذا الرسولُ من أنفسهم، يشقُّ عليه ما يُعْنِتُ أصحابَه، وهو حريصٌ على إيمانِ أصحابِهِ، ومِنْ صفاتِهِ أنه رؤوفٌ رحيمٌ، وهذا يُغْريهم باتباعِهِ، والتأسي به.

٨- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رَسولَهُ ﷺ إنْ أعرضَ عنه الناسُ، فلم يؤمنوا به أن يلجأ إلى الله، ويحتمي به، ويكتفي بِهِ عَنْ غيْرِه، ويقول: اعتمدتُ على الله، وهو ربُّ العرشِ العظيمِ.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ يُونُسَ

قال أبو عمرٍو الداني: «هذه السورة مكيَّةٌ، ونظيرتُها في الشامي سورة سبحان، ولا نظيرَ لها في غيرِه، وكلمُها ألفٌ وثماني مائة، واثنتان وثلاثونَ كلمةً.

وحُروفُها سبعةُ آلافٍ وخمْسُ مائةٍ وسبعة وستونَ حَرْفاً، كحروفِ هود، وهي مائةُ وعشرُ آياتٍ في الشاميِّ، وتِسْعٌ في عَدَدِ الباقين» [البيان في عَدِّ آي القرآن: ١٦٣].

جنــــة الســــنة

النص القرآني الأول من سورة يونس
ربُّنا الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ فاتحةُ سورة يونسَ، أشادَ فيها بكتابِهِ الحكيم، وأنكرَ على الكافرينِ عجبهم من إيحائِه إلى رجلٍ ليبلِّغَ عبادَهُ عنه ما أنذرهم وبشَّرَهم به، ثم عرفنا ربُّنا بنفسِهِ سبحانه وتعالى، فهو خالقُ السمواتِ والأرضِ في ستة أيام، وهو الذي استوى على العرش سبحانه، وهو الذي يُدَبِّر كوْنَهُ، ولا يشفعُ أحدٌ عنده إلاَّ من بعد إذنه، وقد أخبرنا ربُّنا -سبحانه- بما أخبرنا به، وأمرنا بعبادتِهِ وحْدَه لا شريكَ له.

وعرَّفنا ربُّنا -سبحانه- أنَّ مرجعَ جميعِ العبادِ يوم الدين إليه، فهو سبحانه وحده الذي يبدأ الخلقَ في الدنيا، ثم يعيدُه في الآخرة، ليحاسبَ العبادَ عمّا قدَّموه، وأعلَمنا سبحانه أنه هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمر نوراً وقدَّر القمرَ منازلَ لنعلمَ عدد السنينَ والحسابَ، وهو الذي له اختلافُ الليلِ والنهار، وما خلقَ في السمواتِ والأرضَ من آيات لقومٍ يتقون.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ
ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ
رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ
بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ
إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ
مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾
إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾

[يونس: ١-٦].

جنــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله على كتابه الكريم:

أثنى اللهُ تعالى على كتابِهِ الكريمِ القرآنِ بقوله تعالى: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ [يونس:١]، وقوله: ﴿الٓر﴾ من الحروف المقطعةِ التي افتتحت بها سور القرآن وقد مضى بيانُ القولِ في هذه الحروف في أوّل سورةِ البقرة. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ اسمُ إشارةٍ للبعيدِ، أرادَ بها الإشارةُ إلى رفعةِ آياتِ القرآنِ وعلوِّها.

وقوله: ﴿ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ والكتابُ: القرآن الكريم، والحكيمُ: المُحْكَم، الذي لا كذب فيه، ولا اختلاف في معانيه.

٢- تَعَجُّب الناس جميعاً من اختيار الله الرسلَ من البشر:

أَنْكَرَ ربُّ العباد على الناس عَجَبَهُمْ من إرسالِ الله الرسلَ إليهم من البشر، ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس:٢].

اقتضتْ حكمةُ ربِّ العبادِ أنْ يكون الرسلُ الذين يرسلُهُمْ رَبُّ العزَّةِ رجالاً مِنَ الإنسِ، ليبلِّغوا عنه عبادَه مرادَه، فيخوِّفُ الكفارَ عقابَهُ، ويُبَشِّر المؤمنينَ ثوابَهُ وقولُه: ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ﴾ القَدَمُ السابِقَةُ، وهي ما يُقَدِّمُونه مِنَ الأعمالِ الصالحةِ، ولم يقفْ عجبُ هؤلاءِ عند هذا التعجُّبِ، فحسبْ، بلْ امتدَّ عجبهم إلى الكفر بالله تعالى وآياتِهِ ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- خلق السماوات والأرض في ستة أيام:

عرَّفنا ربُّ العزة بنفسِهِ تبارك وتعالى فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس:٣].

أعلمنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ والآياتِ التاليةِ لها بنفسِهِ سبحانه، حتى لو أنَّ واحداً سألك: مَنْ ربُّك؟ صحَّ أن تجعل هذه الآيات جواباً.

جنـــــة السـنة

وأوَّلُ أمرٍ عرَّفنا تبارك وتعالى أنَّه فعَلَهُ سبحانه خَلْقُه السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيام، وهذه الحقيقةُ مبثوثةٌ كثيراً في كتاب الله الكريم، فقد خَلَقَ سبْعَ أرضين، وخلق سَبعَ سمواتٍ، وخلقهما في ستة أيام، واللهُ تعالى أعلم بمدَّة كلِّ يوم من هذه الأيام، والسماواتُ والأرضُ من أعظمِ آياتِ الله، وفيهما من المخلوقات والدلائلِ والآياتِ ما يبهرُ العقولَ ويشغلُ القلوبَ.

وقولُه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ العرشُ أعظمُ مخلوقاتِ الرحمن، وقد استوى الرحمنُ عليه سبحانَه، استواءً يليقُ بجلالِهِ، ليس كمثلِهِ شيءٌ، وهو السميعُ البصير، وقولُهُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ أخبرَ ربُّ العباد سبحانه وتعالى أنَّهُ سبحانه يدبِّر الأمر في كونِهِ، فهو قائمٌ سبحانه وتعالى على كلِّ شيءٍ، لا فرق بين الصغيرِ والكبيرِ، كما قالَ سبحانَه: ﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ:٣] وقال: ﴿۞وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦﴾ [هود:٦]. وقال: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام:٥٩].

وقولُهُ: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ أي: لا يَشْفَع عنده مَلَكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلُ إلاَّ من بعد أن يأذن اللهُ تعالى له، كما قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم:٢٦]. وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وشفعاءُ المشركين آلهةُ المشركين التي كانوا يعبدوها من دون الله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ﴾ [يونس:١٨].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ أشار ربُّ العزة سبحانه إلى نفسِهِ بقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ وأمرنا بعبادتِهِ وحده لا شريكَ له، قائلاً: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

٤- مرجع الناس جميعاً إلى الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ مرجعَ الناس جميعاً إليه ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس:٤].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ مرْجِعَنا جميعاً إليه، وهذا وَعْدٌ حَقٌّ لا يتخلَّفُ بحالٍ مِنَ الأحوالِ، كما قال سبحانَهُ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٣-٩٥].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يبدأُ خلق العباد في الحياةِ الدنيا، ثم يعيدُ خَلْقَهم في الحياةِ الآخرة.

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: يثيبُ المؤمنين الذين عملوا الأعمالَ الصالحةَ بالعدلِ والجزاءِ الأوفى، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: ويجزيَ الذين كفروا بالله ورسلِهِ، بإسقائِهم شراباً تناهى حَرُّه، ويذيقُهم العذابَ الأليم في النار بسبب كفرِهم وضلالِهِمْ.

٥- اللهُ تعالى الذي جعل لنا الشمس ضياءً والقمرَ نوراً:

عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمرَ نوراً، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس:٥].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه جعلَ الشعاعَ الصادرَ عن الشمسِ ضياءً، وشعاعَ القمر نوراً، ففاوتَ بينهما لئلا يشتبها، وجعَلَ للشمس سلطاناً بالنهار، وسلطان القمر بالليل، وقدَّر القمرَ منازلَ ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ فأوَّل ما يبدو صغيراً، ثم يتزايدُ نورُهُ وجرمه، حتى يكتملَ، ويصبحَ بدراً، ثم يشرعُ في النقصِ حتى يرجعَ إلى حاله الأوَّلِ في تمام الشهر، وبالشمس تُعْرفُ الأيامُ، وبسَيرِ القمر تعرفُ الشهورُ والأعوامُ، قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس:٣٩-٤٠]. وقال: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام:٩٦].

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ لم يخلق ربُّ العزَّة ذلك عبثاً، بل لحكمةٍ عظيمةٍ، وحجَّةٍ بالغةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص:٢٧]. وقوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ [يونس:٥] أي: نبين الحجج والأدلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾.

جنـــــة الســـــنة

٦- من الآيات الدالة على الله -تعالى- اختلافُ الليلِ والنهار:

آخر ما عرضَهُ ربُّنا علينا في تعريفنا بنفسه قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (٦)﴾ [يونس:٦].

والمرادُ باختلافِ الليلِ والنهار، أي: تعاقُبهما إذا ذهبَ هذا جاء هذا، وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس:٤٠]، وقال: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الأعراف:٩٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الآيات الدالة على عظمته تعالى، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يوسف:١٠٥]، وقوله: ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١)﴾ [يونس:١٠١].

وقوله: ﴿يَتَّقُونَ (٦)﴾ أي: يخافون اللهَ تعالى.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أنْكرَ اللهُ تعالى على العبادِ عَجَبَهُمْ من إنزالِ وحيِهِ على رسلِهِ وأنبيائه.

٢- اللهُ ربُّنا -تبارك وتعالى- هو الذي خلق السمواتِ والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرشِ، وهو الذي يدبِّرُ خلقه في كونه، ولا يشفعُ أحد عنده إلا بإذنِهِ.

٣- مرجعُ العباد جميعاً إلى الله تعالى، فيحاسبهم على أعمالِهِمْ ويجازيهم عليها.

٤- اللهُ تعالى هو الذي جعل الشمسَ ضياءً والقمر نوراً، وقدَّره منازلَ لنعلم عددَ السنين والحسابَ.

٥- من الآياتِ العظيمة الدالة على ربِّ العباد اختلافُ الليلِ والنهارِ وما خلقَ اللهُ في السماواتِ والأرض مِن آيات.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني من سورة يونس
مصيرُ الكافرين ومصيرُ المؤمنين في يوم الدين

أولاً: تقديم

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا مصيرَ الكافرينَ ومصيرَ المؤمنين يومَ الدين، وبيَّن لنا أنَّ بعضَ عبادِهِ يسارعونَ في الدعاءِ على أنفسهم بالشرِّ، ولكنَّه لا يستعجل بهم، وبيَّن -سبحانه- أنَّ الإنسانَ في بعضِ الأحيان يسارعُ إلى دعائِه إذا أصابته الهمومُ والأوجاعُ، وعندما يزيلها عنه، لا يذكر رَبَّهُ.

وأعلمنا ربُّنا -عَزَّ وجَلَّ- أنه أهلك أهلَ القرون الأولى لما كفروا بعد أن جاءَتهم رسلهم بالبيناتِ، أي بالآياتِ الواضحات ولم يؤمنوا فأهلكهم، وأنشأ اللهُ تعالى بعد القومِ الذين أهلكهم أمةَ محمد ﷺ ليختبرهم، وينظرَ كيف يعملون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ
(٧) أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ (٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٩) دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ
وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (١٠) ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ
ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ
(١١) وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ
ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (١٢) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ
وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى
ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾ [يونس:٧-١٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النصِّ من القرآن

١- مصيرُ الكافرين ومصيرُ المؤمنين:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا في الآياتِ الأربعِ الأولى من هذا النص صورةً لحال الكفارِ وصورة لحال المؤمنين في يوم الدينِ، فقال متحدِّثاً عن صورة الكافرين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا

جنـــــة السـنة

يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ [يونس:٧-٨].

أخبرنا في هذه الآيةِ عن الكفارِ الذين لا يرجونَ لقاءَه في يوم الدينِ لكفرهم بذلك اليومِ، وركنوا إلى الحياةِ، واطمأنُّوا إليها، وهم في الوقتِ نفسه غافلون عن آياتِهِ التي في أنفسهم أو في السمواتِ والأرض، أولئك مصيرُهم النارُ بسبب ما ارتكبوه مِنَ الشركِ والكفرِ والمعاصي.

وحدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في الصورةِ المقابلةِ عن المؤمنين الذين عملوا الصالحات، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس:٩].

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه يهديهم، ويوفِّقُهم ربُّهم بإيمانهم إلى الخيرِ والعمل الصالحِ في الحياة الدنيا، ويهديهم يوم القيامةِ إلى جناتِ النعيم، أعلمنا ربُّنا أنَّ هؤلاءِ المؤمنينَ الأخيارَ الذين يعملون الصالحاتِ تجري من تحت بيوتهم ومساكنهم الأنهارُ في جناتِ النعيمِ.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن طيبِ عيشهم في جناتِ النعيمِ، فقال: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:١٠]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أهلَ الجنَّة يَرْفُلُون في النعيم، وهم يُكْثِرون من دعاءِ ربِّهم، ويقولون في دعائِهم: سبحانك اللهمَّ، وعندما يلقى بعضُهم بعضاً، يسلِّم بعضُهم على بعضٍ وكذلك عندما تدخل الملائكةُ عليهم تسلِّمُ عليهم، وآخر دعواهم قولُهُم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الواقعة:٢٥-٢٦]، وقوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

وجاء في الحديث: «يُلْهَمُونَ التَّسْبيحَ والتَّحميدَ كما تُلْهَمُونَ النَّفَسَ» [مسلم: ٢٨٣٥].

ويدلُّ قوله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ على أنَّ اللهَ تعالى هو المحمود أبداً، والمعبودُ على طولِ المدى، ولهذا حمدَ نفسه عند ابتداءِ خلقِهِ واستمراره، وعند ابتداءِ كتابه، وعند ابتداءِ تنزُّلِه.

جنـــــة السـنة

٢- لا يجيبُ اللهُ تعالى دعاء الناس على أنفسهم وأموالهم كما يجيبهم في الخير:

أخبرنا ربُّنا اللطيفُ الخبيرُ -سبحانه- أنه إذا سارعَ العبادُ بالدعاءِ على أنفسهم بالشرِّ، فلا يسارعُ بإجابةِ دعائهم ﴿ ۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يونس:١١]. أي: ولو عجَّل اللهُ تبارك وتعالى للناس الاستجابةَ فيما يدعونه من الشرِّ على أنفسهم أو أولادهم وأموالهم كما يدعونه في الخير لقضيَ إليهم أجَلُهُم، ولكرهوا ذلك ومقتوه، ولو أجابهم ربُّهم لماتَ وهلَكَ الداعون.

وقد حذَّرنا رسولُنا ﷺ مِنَ المسارعة بالدعاءِ على أنفسنا وأهلنا، فقد نوافق ساعةَ إجابة، فعنْ جابر بن عبدالله قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَدْعُوا على أنْفسِكُمْ، ولا تَدْعُوا على أولادكم، ولا تدْعوا على أموالكم، لا توافقوا مِنَ الله ساعةً فيها إجابةٌ، فيستجيبَ لكم» [قال محققُ ابن كثيرٍ (٣/٤٧٦): صحيحٌ، أخرجه أبو داود (١٥٣٢)، وإسناده على شرط مسلم].

٣- حالُ الكافر من ربِّه -تبارك وتعالى- عندما يصيبه الضرُّ:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- حالَ الكافر عندما يصيبُه الضرُّ، فإنه يتضَعْضَعُ، ويلجأُ إلى الله يَدْعوه، ويستغيثُ به، قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس:١٢].

أخبرنا اللطيفُ الخبيرُ العليمُ سبحانه وتعالى أنَّ الإنسانَ الكافرَ، إذا أصابه البلاءُ والأمراضُ والآفاتُ والشدائدُ أخلص الدعاءَ لربِّ العزة على كلِّ أحوالِهِ، أي: وهو مستلقٍ على ظهرِهِ، أو وهو ماشٍ، أو وهو واقف ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ فلما كَشَفَ اللهُ تعالى ما نَزَلَ به من آفاتٍ مَرَّ كأن لم يَحِلَّ به البلاءُ يوماً، ونسيَ ما كان منه مِنَ لجوءٍ إلى الله تعالى واستغاثةٍ به.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ أي: كما زين للكفار الدعاءُ عند البلاءِ، والإعراضُ عند الرخاءِ زُينَ للمسرفين عملُهم تزييناً مثل تزيين عمل الكفار.

٤- جعل اللهُ العباد خلائفَ في الأرض ليبتليهم:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- كيف يبتلي ربُّ العباد عبادَهُ في الحياة الدنيا، فقال: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [يونس:١٣-١٤].

جنـــــة السـنــة

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف تمضي دورةُ الحياةِ في هذه الدنيا، فاللهُ تعالى أرسَلَ إلى الأممِ السابقةِ الظالمةِ رُسُلَهُ بالآياتِ البيناتِ الدالةِ على صدقِ المرسلين، وما كان للمرسل إليهم أنْ يؤمنوا إذا لم يُرِدِ اللهُ تعالى لهم الهدايةَ والإيمانَ لمعاندتهم الحق وإيثارهم الباطل، وهكذا يجزي ربُّ العزةِ القومَ المجرمين.

ثم يقيمُ الله -تبارك وتعالى- بعد أولئك الهالكين قوماً آخرينَ في بقعةٍ من بقاعِ الأرض، لينظر هل يقيمونَ شرعَهُ ودينَه، فقد أرسل اللهُ تعالى نوحاً إلى قومه، فلما أغرقهم ربُّ العزة، أنشأَ بعدهم عاداً وأرسلَ إليها هوداً، فلما أهلك عاداً أقام ثموداً، وأرسل إليها صالحاً، وتتابعتِ الأممُ، وتتابعتْ الرسلُ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا ۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ ۚ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المؤمنون:٤٢-٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الكفارُ الذين يُكذِّبون بيومِ الدين ورضوا بالحياة الدنيا هم أصحاب النارِ.

٢- المؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ يهديهم ربُّهم بإيمانهم في الدنيا والآخرة تجري من تحتهم الأنهارُ في جناتِ النعيمِ.

٣- حال المؤمنين في جنات النعيم حالٌ طيبةٌ، يدعون فيها ربَّهم، وتحيتهم في الجنة سلام، وآخر دعواهم أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

٤- يستعجل بعض الناس في بعض الأحيانِ فيدعون على أنفسهم وأولادِهم وأموالهم بالشر كاستعجالهم بالخيرِ، ولكنَّ الله وهو الغفورُ الرحيم، يتأنّى ويرفقُ بهم، ولا يعاجلهم بالعقوبةِ.

٥- إذا أصابَ الإنسانَ الكافرَ بلاءٌ أو مصابٌ سارع إلى دعاءِ الله تعالى في جميع أحواله، فإذا شفاه أو عافاه مضى كأنْ لم يدعُ اللهَ إلى ضَرٍّ مسَّه.

٦- أرسلَ اللهُ -تعالى- رسلَهُ إلى أهلِ القرونِ الماضيةِ، فأقام عليهم الحجة، فلم يؤمنوا فأهلكهم.

٧- ثم أقامَ ربُّ العزة من بعدهم خلائف في الأرض، ليعلم كيف يعملون.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني الثالث من سورة يونس

الكفار يطلبون من الرسول ﷺ أن ياتي بقرآن غير الذي جاء به

أولاً: تقديم

هذه الآيات تدورُ حولَ القرآن الكريم، فقد ردَّ اللهُ تعالى على الكفار الذين طلبوا أن يأتيهم بكتابٍ آخر غير القرآنِ أو يبدِّلَهُ، وأعلمهم الرسولُ ﷺ أنَّه لا دخلَ له في إنشاءِ القرآنِ الكريمِ، فقد لبث فيهم عمراً من قبله، ولم يكن يتلو القرآنَ، ولا يخبُرُهمْ بِهِ، وأعلمهم أنَّ أعظم الناسِ جرماً الذي اختلق على الله كذباً أو كَذَّب بآياته.

وذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- الكفرةَ والمشركينَ الذين يعبدون من دون الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويزعمون كاذبين أنَّ هذه الآلهةَ شفعاؤُهم عند الله، وأعلمنا سبحانه أنَّ الكفرَ لم يكن له وجود في القِدَمِ، بل هو حادثٌ، فقد كان الناس جميعاً على التوحيدِ، ثم حَدَثَ الشركُ بعد ذلك، وأعلمنا اللهُ تعالى في الختامِ أنَّ المشركين يطلبون من رسولِهِ ﷺ أنْ ينزِّلَ عليهم آيةً من ربِّه، وأن اللهَ -تبارك وتعالى- أمَرَهُ أن يقول: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ
بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ
عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ
هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ
عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن
رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا
ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يونس:١٥-٢٠].

جنــــة الســــنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مشركو قريشٍ يطلبون مِنَ الرسولِ ﷺ أن يأتي بغير هذا القرآن:

كان كفارُ قريشٍ إذا تَلَى عليهم رسولُنا ﷺ آياتِ القرآنِ البيناتِ الواضحاتِ قال الكفارُ بالبعث والنشور مِنْ قومِهِ ائتِ بقرآنٍ غير هذا القرآنِ أو بدِّله ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس:١٥].

وهذا الطلب من أهل الكفرِ والشركِ طلبٌ غيرُ مقبولٍ، فالقرآنُ في القِمَّة في كلِّ شيءٍ، وهو في غايةِ الفصاحةِ والإعجاز، فطلبهم قائمٌ على الهوى وقِلّةِ الفهم لهذا الكتابِ العظيمِ الذي هو النعمةُ العظمى، والمنَّةُ الكبرى.

وقد أمرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أنْ يقولَ لهؤلاءِ الذين طلبوا هذا الطلب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [يونس:١٥].

أي: قُلْ لهم يا محمدُ: إنَّما أنا عبدٌ رسولٌ، وليس عندي القدرةُ على تبديلِ هذا القرآنِ العظيم من قِبَل نفسي، فأنا عبدٌ ضعيفٌ مأمورٌ، واللهُ تعالى هو صاحب الأمْرِ، والأمرُ بيدِهِ سبحانه، ما شاءَ كان، وما لم يشأْ لا يكون، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ومقتضى عبوديتي لربي سبحانه أنْ أتبع ما يوحى إليَّ من عند ربي، بفعلِ أوامرِهِ، وترك نواهيهِ، وعِلْمِ ما علمني إيَّاه، والتخلقِ بما أمرني التخلقَ به.

وقولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ فأنا عبد مأمور أخاف اللهَ عز وجل وأخشاه، وأخاف إنْ عصيته سبحانه أن يُحِلَّ بي عذابَه وانتقامَه في يومِ الموقفِ العظيم.

وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لقومِهِ رادّاً عليهم مبيناً لهم: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس:١٦] أي: لو شاء ربِّي ما جئتكم بهذا القرآن من ربِّي وما قرأْته عليكم، ولا أعلمكم به، فقد لبث رسولُنا ﷺ في قومِهِ أربعين سنةً قبل أن يوحي إليه ربُّه بهذا القرآن.

٢- أظلمُ الناسِ الذين يفترون الكذبَ على الله:

أظلم الناس الذين يفترون الكذبَ على الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧].

جنـــــة السـنة

أي: لا أحدَ أشد ظلماً وعتواً ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ والكذبُ على الله كثيرٌ متنوعٌ، فالذين يدَّعون أنَّ اللهَ أرسلهم، وهو لم يرسلهم كذبة على الله، كمسيلمة وسجاح والأسودِ العنسي، والذين يزعمون أنَّ اللهَ اتخذ ولداً كالنصارى الذين يَدَّعون أنَّ عيسى ابن الله، ومشركي العرب الذين يدعون أنَّ الملائكةَ بناتُ الله كذبوا على الله، والذين يزعمون أنه لا بعثَ ولا نشورَ كذبوا على الله فالبعثُ والنشورُ حقٌّ.

وهؤلاء الذين كذبوا على الله تعالى لا أحدَ أظلمُ منهم، فهم أشدُّ الناس ظلماً، ومثل هؤلاء في الظلم الذين يكذبون بآيات الله تعالى التي أنزلها على عبده ورسولِهِ محمدٍ ﷺ ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ وهؤلاء مجرمون، والمجرمون لا يفلحون ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

وعن أنسَ بنَ مالكٍ قال: بينما نحنُ جلوسٌ مع النبيِّ ﷺ في المسجدِ دَخَلَ رجلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المسجدِ ثم عَقَلَه، ثم قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنبيُّ ﷺ مُتَّكِئٌ بينَ ظَهْرانَيْهم، فقلنا: هذا الرجلُ الأبيضُ المتَّكئُ، فقال له الرَّجلُ: ابنَ عبدِ المطلبِ، فقال له النبيُّ ﷺ: «قد أَجَبْتُكَ»، فقال الرَّجلُ للنبيِّ ﷺ: إني سائلُكَ فمُشدِّدٌ عليكَ في المسألةِ، فلا تَجِدْ عليَّ في نَفْسِكَ، فقال: «سَلْ عمَّا بَدا لكَ» فقال: أسألُكَ بربِّكَ وربِّ مَنْ قَبلَكَ، آللهُ أرسَلَكَ إلى الناس كلِّهم؟ فقال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُكَ بالله، آللهُ أمَرَكَ أنْ نُصلِّيَ بالصلَواتِ الخمسِ في اليوم والليلةِ؟ قال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُكَ بالله، آللهُ أمَرَكَ أنْ نصومَ هذا الشهرَ من السنةِ؟ قال: «اللهمَّ نعم» قال: أنشُدُك بالله، آلله آمركَ أنْ تَأْخُذَ هذه الصَّدَقَةَ مِن أغنيائِنا فتَقْسِمَها على فُقَرائِنا؟ فقال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ نعم»، فقال الرجلُ: آمَنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي مِنْ قوْمي، وأنا ضِمامُ بنُ ثَعْلبَةَ أخو بني سعدِ بنِ بكرٍ [البخاري: ٦٣].

فاكتفى هذا الرجلُ بمجرَّدِ هذا، وقد أيقن بصدقِهِ -صلواتُ الله وسلامُه عليه- بما رَأَى وشاهدَ من الدلائل الدالَّة عليه، كما قال حسَّانُ بن ثابت:

لَــو لَم تَكُــنْ فِيــهِ آيــاتٌ مُبَيِّنَــةٌ كانَــتْ بَديهتُــهُ تَأتِيــكَ بِــالخَبَرِ

وأما مُسَيلمَةُ فمن شاهَدَه من ذوي البصائر عَلِم أمرَه لا محالةَ، بأقواله الركيكة التي ليست بفصيحةٍ، وأفعالِهِ غيرِ الحسنةِ بل القبيحةِ، وقرآنِهِ الذي يَخلُدُ به في النار يوم الحسرةِ والفضيحةِ، وكم من فَرقٍ بين قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ

جنـــــة السـنة

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة:٢٥٥]، وبين عِلاكِ مُسَيلمةَ -قبحه الله ولعنه-: يا ضِفْدَعُ بنت الضِّفدعين، نَقِّي كم تُنَقين، لا الماء تُكَدِّرين، ولا الشارِبَ تمنعين. وقوله -قُبِّح ولُعِن-: لقد أنعَمَ الله على الحُبلَى، إذ أخرج منها نَسَمةً تسعَى، من بَيْنِ صِفاقٍ وحَشا، وقوْلِهِ -خَلَّدَه الله في نار جهنم، وقد فَعَل-: الفيلُ وما أدراك ما الفيل؟ له خُرطُومٌ طويل، وقوله -أبعده الله من رحمته-: والعاجناتِ عَجْناً، والخابزاتِ خَبزاً، واللاقماتِ لَقْماً، إهالةً وسَمْناً، إن قُرَيشاً قومٌ يعتدون، إلى غير ذلكَ من الهَذَيانات والخَرافات التي يأنَفُ الصِّبيان أن يتلفظوا بها، إلا على وجه السُّخريةِ والاستهزاءِ، ولهذا أرغم الله أنفَه، وشَرِبَ يوم «حَديقة الموت» حتفَهُ، ومَزّق شملَه، ولعنه صحبُه وأهلُه، وقَدِمُوا على الصِّدِّيق تائبين، وجاؤوا في دين الله راغبين، فسألهم الصدِّيقُ خليفةُ الرسولِ ﷺ ، ورضي عنه أن يقرؤوا عليه شيئاً من قرآن مُسَيلِمَة -لعنه الله- فسألوه أن يَعفِيَهم من ذلك، فأبى عليهم إلا أنْ يقرؤوا شيئاً منه، ليسمعه مَنْ لم يسمعه مِنَ الناس، فيعرفوا فضلَ ما هم عليه من الهدى والعلم، فقرؤوا عليه من هذا الذي ذكرناه وأشباهه، فلما فرغُوا قال لهم الصديق ﷺ : ويحكُم! أين كان يُذهَب بعقُولكم؟ والله إن هذا لم يخرُج من إلٍّ.

وذكروا أنه وَفَد عمرو بن العاص على مُسَيلمةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، وكان عمرو لم يسلم بعدُ، فقال له مُسَيلمة: ويحكَ يا عمرو! ماذا أُنزِلَ على صاحبكم -يعني رسول الله ﷺ- في هذه المدة؟ فقال: لقد سَمِعتُ أصحابَه يقرؤون سورةً عظيمةً قصيرةً، فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾. ففكر مُسَيلِمَة ساعة، ثم قال: وقد أنزِلَ عليّ مثلُه، فقال: وما هو؟ فقال: يا وَبْرُ، إنما أنت أذنان وصَدْرٌ، وسائرك حَقْرٌ نَقْرٌ، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنكَ لَتعلم أني أعلَمُ أنك لَتكذِبُ؛ فإذا كان هذا مِنْ مشركٍ في حال شركه، لم يشتبه عليه حالُ محمدٍ ﷺ وصدقِهِ، وحالُ مُسَيلمَةَ -لعنه الله- وكِذبه، فكيف بأولي البصائر والنهي، وأصحابِ العقولِ السليمة المستقيمةِ والحِجا! ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقال في هذه الآية الكريمة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس:١٧] وكذلك من كَذَّبَ بالحقِّ الذي جاءت به الرسلُ وقامت عليه الحُجَج، لا أحدَ أظلم منه [ابن كثير: ٣/ ٤٨٠].

جنـــــة السـنة

٣- الكفارُ يعبدون من دون الله الأوثانَ وهي لا تضرّهم ولا تنفعهم:

أعلمنا ربُّنا بأنَّ الكفارَ مِنَ العرب يعبدونَ من دونِ الله ما لا يضرُّهم ولا ينفعهم، ويزعمون أنهم شفعاؤُهم عند الله ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس:١٨].

والذي يعبدونه مما لا يَضُرُهم ولا ينفعهم الأصنامُ والأوثانُ، ويزعمُ هؤلاءِ الضالون أنَّ هذه الآلهةَ الباطلةَ المزعومةَ تشفع لهم، وتقرِّبهم إلى الله زلفى، وقد ردَّ ربُّ العزة عليهم بقوله: ﴿ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ وهذا الجوابُ يدلُّ على سخافةِ عقولهم وبهتانِ ما ذهبوا إليه، فهذا النبأ الذي ادَّعوه وزعموه لا يعلُمه اللهُ -تبارك وتعالى-، فلو كان نبأُكم صحيحاً، لأدَّى هذا إلى أنَّ في السموات وفي الأرض ما لا يعلمه اللهُ تعالى، وهذا غير صحيح فإنَّ كلامَهم باطلٌ وكذبٌ، ثم نَزَّه ربُّ العزةِ نفسَه عما يشركون به، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

٤- كان الناسُ قديماً على التوحيد فاختلفوا:

أعلمنا رَبُّنا أنَّ الناسَ كانوا على التوحيد قديماً، فاختلفوا، فأرسلَ الله إليهم الرسلَ ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ [يونس:١٩].

قرَّر الله تعالى حقيقة ثابتة في التاريخ، فالناس كانوا في أول الخليقة على التوحيد، كما صحَّ عن ابن عباس ﷺ، أنَّهم كانوا عشرة قرون على التوحيد، ثم وقع فيهم الشرك، فاختلفوا [«المستدرك على الصحيحين» ٢/ ٥٩٦ (٤٠٠٩) وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أي: لولا أنَّ الله تعالى قَضَى وقَدَّر أنْ لا يعاجلَ الناسَ بالعذابِ لقضىَ بينهم فيما فيه يختلفون.

٥- طلب المشركينَ إنزالَ الآياتِ الدالة على صدقِ الرسول ﷺ :

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرةَ المشركين مِنْ قوم الرسولِ ﷺ يسألونَ أن يُنْزِلَ الله عليه آيةً ﴿ وَيَقُولُونَ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يونس:٢٠].

جنـــــة السـنــة

فهم يطلبون آياتٍ ينزلُها اللهُ على عبدِهِ ورسولِهِ محمدٍ ﷺ كما أنزل العصا على نبيِّهِ موسى، وكما أرسل الناقةَ على نبيِّهِ صالحٍ، أو يحوِّل لهم الصفا ذهباً، أو يزيح عنهم جبالَ مكةَ، أو يفعل له كما قال له: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا ١٠﴾ [الفرقان:١٠].

وقد مضتْ سنتُه سبحانه أنَّه إذا آتى عبادَهُ آيةً عظيمةً، فلم يؤمنوا بها أهلكهم، ثم إن الله تعالى أنزل عليه أعظم آياتِهِ، وهو القرآنُ العظيم، وأنزلَ عليه كثيراً من الآياتِ، فقد شقَّ له القمر، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ٥٩﴾ [الإسراء:٥٩]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ٩٧﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقد أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يجيبَ هؤلاءِ الذين يطلبون الآياتِ تعنتاً قائلاً: ﴿فَقُلۡ إِنَّمَا ٱلۡغَيۡبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ أي: إنزالُ الآياتِ هو مِنْ باب الغيبِ، ونزولُ الغيب اللهُ المختصُّ به سبحانه، لا عِلم لي ولا لكم ولا لسائر المخلوقاتِ به ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ٢٠﴾ أي: انتظروا ما سيفعله ربُّ العباد بيني وبينكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان الكفارُ في معركتهم مع المؤمنين يطلبونَ مِنَ الرسول ﷺ أن يأتيهم بكتابٍ آخر مع القرآن أو يبدِّلَهُ، فأعلمهم الرسول ﷺ أنَّه لا يستطيع أن يبدِّله من تلقاء نفسه، فالأمر كلُّه بيدِ الله تباركَ وتعالى.

٢- القرآنُ الكريمُ كلامُ اللهُ تعالى، ليس للرسولِ ﷺ شأْنٌ في إيجاده، أنزله اللهُ تعالى عليه، وقد مكث عمراً من قبله فيهم قبل أن ينزل عليه.

٣- أعظمُ الناس جرماً الذين اختلقوا الكذبَ على الله تعالى، أو كذَّبوا بآياتِ الله تعالى.

٤- الكفارُ والمشركون يعبدون أصناماً وأوثاناً باطلةً لا تنفعهم، ولا تضرُّهم، ويزعمون كاذبين أنَّ هذه الآلهةَ الباطلةَ شفعاؤُهم عند الله، ولو كان قولهم صحيحاً لأخبروا الله تعالى بشيءٍ لا يعلمه في سمواتِهِ وأرضه.

جنـــــة السـنة

٥- كان الناسُ قديماً جميعاً على التوحيدِ بعد نبيِّ الله آدم ﷺ، ثم اختلفوا وأشركوا، فأرسلَ اللهُ إليهم الرسلَ، وأنزلَ عليهم الكتبَ.

٦- المشركون يطلبونَ مِنَ الرسولِ ﷺ أن يُنْزَلَ عليهِ آيات من ربِّه تدلُّ على صدقِهِ، والرسولُ ﷺ يكلُ الأمر إلى ربِّه تعالى.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الرابع من سورة يونس

إذا أُحيط بكفارِ أهل الجاهلية في البحرِ دَعَوُا الله مخلصين له الدين

أولاً: تقديم

عرَّفنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بحالتين تصيبان المشركين من بين أحوالٍ كثيرة.

الأولى: أنَّهم إذا أصابهم بالنعمةِ والرخاءِ بعد البأساءِ والضراءِ، فإنَّه يسخرون، ويكذبون، بدلَ الشكرِ والثناءِ.

والثانيةُ: أنَّهم يخلصون دينهم لله الواحدِ الأحدِ إذا أُحيط بهم في البحرِ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ عادوا إلى شركهم.

وضربَ في الآيةِ الأخيرة من هذا النص مثلاً لبهجةِ الدنيا وزينتها وسرعةِ انقضائها بالمطرِ ينزلُ مِنَ السماءِ، فينبتُ الزرعُ، ويهيجُ الشجرُ، ويزهرُ، ويثمر، ثم ينزلُ اللهُ قضاءه بهلاك ما على الأرض، فيصبحُ حصيداً كأن لم يغن بالأمس.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَـٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَـٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢١-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إذا وسَّع اللهُ تعالى في رحمتِهِ على الكافرين كذَّبوا واستهزؤوا:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه إذا أذاق الناسَ رحمةً كالمطرِ والخصبِ والغِنَى من بعد ضرَّاءَ مستهم، كالقحطِ والبؤسِ والفقرِ، إذا لهم مكر في آياتِهِ، أي: استهزاءٌ وتكذيب، والمكرُ

جنـــــة السـنة

صرف الشيء عن وجهه على طريق الحيلَةِ فيه، وهؤلاءِ يحتالونَ لدفع آياتِ الله بكلِّ ما يستطيعون إليه من شبهةٍ أو تخليطٍ في مناظرةٍ أو غير ذلك مِنَ الأمور الفاسدة ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس:٢١].

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أسرع نقمةً، فقد جعلَ هؤلاءِ النقمةَ مكانَ الشكر، فقوبلوا بما هو أشدُّ، وهو مكرُ الله تعالى بهم وإهلاكُهُم.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ المرادُ بالرسلِ الذين يكتبون ما يمكرونُه الحفظةُ مِنَ الملائكة، فأعمالُهُمْ مكشوفةٌ عندَ ربِّهم مفضوحةٌ، بل ومكتوبةٌ، لا تخفى عليه منهم خافيةٌ.

٢- إذا أُحيط بالمشركين في البحرِ أخلصوا الدينَ لله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عما يصيبُ المشركين إذا أُحيط بهم في البحر، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس:٢٢].

وهذه الآيةُ الكريمةُ تعرض منظراً معجباً مدهشاً، فلك أن تتخيل منظر المشركين في هذا الكون الواسع، وهم يتحركون فوق ظهر هذه الأرض على أرجلهم، أو فوق دوابهم وسفنهم وسياراتهم، وطائراتهم، وقد اكتظَّت الأرضُ وازدحمت بهم، ثم تأخذ الآيةُ الكريمةُ من هذا الحشدِ الهائلِ سفينةً أو عِدَّة سفنٍ تسير فوقَ ثَبَجِ البحرِ، تدفعُها إلى مقصدها ريحٌ هادئة طيبةٌ، وكان أهلها وادعين مسرورينَ بسيرهم، ثم تغيَّر البحرُ، وتعكَّر الجوُّ، وجاءَتهم ريحٌ شديدةٌ عاصفةٌ، وجاءَهم الموجُ كالجبالِ، وظنوا أنهم شارفوا على الهلاكِ، عند ذلك تقفزُ قلوبهم في صدورهم، ويدْعُون الله تعالى وَحْدَهُ، وينسون الآلهة التي يشركونها معه، ويقولون لربِّهم: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ .

وهذا الذي صاروا إليه من إخلاص الدين لله في هذه الحالة يدُلُّ على إفاقتهم مِنَ الغفلةِ التي يرزحونَ تحتها، ولكنَّهم عندما ينجون مما أحاطَ بهم يَعودون إلى كفرِهِمْ وشركهم وضلالِهِمْ ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٣]، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

جنــــة الســـنة

وقد بيّن ربُّ العزةِ -سبحانه- لهؤلاءِ أنّهم هم الذين يضُرُّون بإشراكهم أنفسهم عندما ينجيهم ربُّهُمْ إلى البرِّ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣] أي: إنما يذوق وبالَ هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرُّون به أحداً غيركم، فهم الذين يذوقون وبالَ أمرهم إن قطعوا الأرحام، وأفسدوا في الأرض.

وأخبرهم أنّهم يمتّعونَ متاعَ الحياةِ الدنيا، ثم ينقضي متاعُها ويزول، ثم يرجعون إليه سبحانه، فيخبرهم بما عملوه مِنَ البغي والفسادِ ﴿مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢٣].

٣- مثلُ الحياةِ الدنيا:

ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً لبهجةِ الدنيا وحسنِها وزهرتِها، وسرعةِ انقضائها وزوالها بالماءِ الذي أنزلَهُ الله تعالى مِنَ السماءِ فاختلطَ به نباتُ الأرض ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس:٢٤].

وهذا المنظرُ الذي شبّهُ اللهُ به الحياةَ الدنيا رآه الناسُ كثيراً في أجيالٍ متتاليةٍ، فينزلُ الماءُ مِنَ السماء، فترتوي الأرضُ، فينْبُتُ الزرعُ والنباتُ، وتُزْهِرُ الأشجارُ وتثمرُ ثماراً من أنواع شتى، مما يأكله الناسُ والدوابُّ، وتنظرُ إلى السهولِ والتلالِ والجبالِ والوديان، فتجدُ الأرض قد أخذت زخرفَها وازيّنَتْ، ويظنُّ أهلها أنّهم قادرون عليها، أي: قادرون على جَنْي ثمارِها، وقطْفِ أوراقها، وحصدِ نباتها، ثم يأتي عليها قَدَرُ ربِّ العباد، فيجتاحها البحرُ، أو تغرقها السيولُ وفيضاناتُ الأنهار، أو تأخذها الزلازلُ والصواعقُ، وقد يأْتيها قدرُ الله تعالى في وَضَحِ النهار أو في ظلمةِ الليل، فتصبح ذَاوِيَةً بعد خُضْرَتها، يابسةً بعد نُضْرَتها، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ كأن لم تكن عامرة بالأمس، أو حتى كأنها لم توجد قبل، والمغاني: المنازلُ التي يعمرها أهلها بالنزولِ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: مثلُ هذا البيانِ والتفصيلِ نبيّن آياتِ القرآنِ لمن يحسنونَ التفكرَ في القرآنِ وتدبُّرِ آياتِهِ.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبَّرْنا آياتِ هذا النصِّ وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ – أعلمنا ربُّنا –عزَّ وجلَّ– أنه إذا أصابَ بعضاً مِنَ الناس برحمةٍ ورخاءٍ بعد اللأْواء والضرَّاء إذا بهم يسخرونَ ويستهزئون بآياتِهِ ورسوله ﷺ.

٢ – كان المشركون في الجاهلية يُخْلصون دينهم لربِّهم إنْ أحيطَ بهم في البحْرِ، ويدعونه وَحْدَه لا شريكَ له، فإذا نجاهم إلى البرِّ عادُوا إلى شِرْكهم.

٣– ضربَ اللهُ تعالى مثلاً للحياة الدنيا في رونقها وزينتها وسرعةِ زوالها وانقضائها بالمطرِ ينزلُ مِنَ السماء، فتصبحُ به الأرضُ جناتٍ وبساتينَ وحقولاً، ثم ينزلُ قضاءُ الله تعالى بتلكِ الجنَّاتِ، فتدمر وتزول.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة يونس
جزاءُ المحسنين وجزاءُ الذين كسبوا السيئات

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن أهلِ الجنةِ وأهل النار، وكيف يحشرُ الجنَّ والإنس، والمشركين منهم، وكيف تتبرأ الآلهة الكاذبةُ الباطلةُ من عابديها في يومِ الدين، وكيف تنكرُ استحقاقَها لعبادتها، وأنها لم تكن تعلم بهذه العبادةِ.

وبيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَه أهلٌ لأن يعبدَ مِنْ دون غيره، فالآلهةُ الباطلةُ ليس لديها من الصفاتِ والخصائصِ ما يُؤهلها للعبادة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥) ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٣٠) قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١) فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (٣٤) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ۚ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّي إِلَّا أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾ [يونس:٢٥-٣٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ يدعو إلى دارِ السلام:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه ﴿يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٥)﴾ [يونس:٢٥] ودارُ السلام التي يدعو إليها ربُّ العزةِ الجنةُ، والصراطُ المستقيم الذي يهدي إليه سبحانه الإسلام.

جنـــــة الســـــنة

٢- للذين آمنوا الحسنى وزيادةٌ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بجزاءِ المحسنينَ في يوم الدين ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين أحسنوا في الدنيا بالإيمانِ والعملِ الصالح لهم الحسنى، وهي الجنةُ، ولهم زيادةٌ، والزيادةُ تضعيفُ ثوابِ الأعمالِ فتصبحُ الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، وأفضلُ ما يعطيهم ربُّهم النظرُ إلى وجههِ الكريم، وقد رُوِيَ تفسيرُ الزيادةِ بالنظرِ إلى وجههِ الكريمِ عن أبي بكر الصديق، وحذيفة بن اليمانِ، وعبدالله بنِ عباسٍ، وسعيدِ بن المسيَّبِ، وعبدالرحمنِ بن أبي ليلى، وعبدالرحمن بن سابط، ومجاهد، وعكرمة، وغيرهم [ابن كثير: ٣/ ٤٨٤].

وعن عبدالرحمن بن أبي ليلى، عن صُهَيْبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا دَخَلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، قالَ: يقولُ اللهُ تباركَ وتعالى: تريدونَ شيئاً أزيدُكُمْ؟ فيقولونَ: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدْخِلنا الجنةَ وتُنَجِّنا من النار؟ قال: فيكْشِفُ الحِجابَ، فما أُعْطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظرِ إلى ربِّهم عزَّ وجلَ».

وزادَ في رواية: «ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [يونس:٢٦]» [مسلم: ١٨١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ أي: لا يغشاها قَتامٌ، ولا سوادٌ في عرصاتِ المحشرِ، كما يعتري وجوهَ الكفرةِ الفجرةِ من القترةِ والغبرةِ، وقوله: ﴿وَلَا ذِلَّةٌ ۚ﴾ أي: ولا يغشاها هوانٌ ولا صغارٌ، أي: لا يحصل لهم إهانةٌ في الباطنِ، ولا في الظاهرِ، وقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وهذا تعريفٌ بأهل الجنةِ، وأنهم المؤمنون الذين يعملون الصالحات.

٣- أصحابُ النارِ:

بعد أنْ عرَّفنا ربُّنا بأصحاب الجنةَ عرَّفنا بأصحاب النار، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [يونس:٢٧].

وقال ربُّ العزةِ هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ لأنَّ الكفرة المجرمين يسارعون إلى اجتلابِ ما يضرُّهم، ظانين أنّه يفيدُهم، وينفعُهم، فالذي يعبدُ آلهةً من دون الله، والذي يزني،

جنـــــة السـنـــــة

ويسرقُ المال، ويحاربُ الإسلامَ يظنُّ أنَّ ذلك حضارةٌ وتقدمٌ ومنفعةٌ له، وقد استعمل القرآن الكسبَ في السيئاتِ كثيراً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾ [الأنعام:١٢٠]، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام:١٢٩]. واليوم تَغْرِقُ أممٌ كثيرةٌ في القاذورتِ التي نهى الإسلامُ عنها، وتزعُم أنَّ ما تعمله حضارةً ومدنيةً، وتعدُّه كسباً لها.

وهؤلاءِ الذين اقترفوا السيئاتِ يجزيهم ربُّهم السيئةَ بمثلها، لا يزيدهم على ذلك، ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا﴾ وقوله: ﴿وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ﴾ أي: تعتريهم من ذنوبهم ومعاصيهم ذِلَّة يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ﴾ [الشورى:٤٥]. وقولُهُ تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾ أي: لا يوجدُ من يمنعهم ويقيهم عذابَ الله تعالى. ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾ يخبر تعالى أنَّ هؤلاءِ الكفارَ يبعثون في يوم الدين وجوههم مسودَّة سوادُها شديدٌ، كأنها أغشيتْ وجوهُهُم قطعاً مِن الليلِ مظلماً، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [آل عمران:١٠٦-١٠٧].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بيَّنَ أن مصيرهم النارُ خالدين فيها أبداً.

٤- كيف يحشرُ اللهُ -تعالى- الناسَ يومَ القيامة:

أمرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنْ نذكر كيفَ يحشر اللهُ الناسَ يومَ القيامة ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ مَكَانَكُمۡ أَنتُمۡ وَشُرَكَآؤُكُمۡۚ فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [يونس:٢٨].

أَمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن نذكر يومَ يحشرُ الله تعالى الجنَّ والإنسَ كُلَّهم وذلك يومَ القيامة، ثم يقولُ للذين أشركوا الزموا مكانكم أنتم وشركاؤكم، وقوله: ﴿فَزَيَّلۡنَا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ أي: فرَّقنا بين المشركين وشركائهم مِنَ الأصنامِ والآلهة التي كانوا يعبدونها، وانقطعَ ما كان بينهم مِنَ التواصلِ في الحياةِ الدنيا، وذلك حين تتبرأ المعبوداتُ يومَ القيامةِ مِنْ عابديها، ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾ قال ابنُ عباس: «أنكروا عبادتهم» وقال مجاهدٌ: «يقولُ ذلك

جنـــــة السـنة

كلُّ شيء يُعْبَدُ من دون الله تعالى، يعني أن الله تعالى يُنْطِقُ الأوثانَ فتقول: ما كنا نشعرُ بأنكم إيانا تعبدون» [تفسير الواحدي: ١١/ ١٨٣].

وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ﴾ [البقرة:١٦]، وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف:٥-٦].

وأخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنَّ الآلهةَ التي كانت تعبد من دونِ الله تقولُ لعابديها يومَ القيامة: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝٢٩ ﴾ [يونس:٢٩].

والآلهةُ المعبودةُ قسمان: آلهة عاقلةٌ، كالملائكةِ والرسلِ والأنبياءِ والصالحين كعيسى، وعزيرٍ، وآلهةٌ غيرُ عاقلةٍ، كالأصنامِ والأوثانِ، كاللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةِ الأخرى، فالمعبودات العاقلة التي كانت تعبد من دون الله، تتبرأ من عابديها في الدنيا والآخرة، وقد أخبرنا ربنا في سورةِ المائدة عن براءةِ عيسى عليه السلام من عابديه في يوم الدين.

وأما الآلهةُ التي لم تكن تعقلُ كاللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةِ الأخرى، فأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الله يخلق فيها الحياةَ يومَ القيامة، فتقول لعابديها: ﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ۝٢٩ ﴾ أي: ما كنا نشعُر بعبادتِكم ولا نعلمُ بها، وأنتم كنتم تعبدوننا من حيث لا ندري ولا نعلم، واللهُ -تبارك وتعالى- شهيدٌ على صحةِ قولنا، وفي هذا تبكيتٌ وتوبيخٌ عظيمٌ لهؤلاءِ الضالين المجرمين، من عابديهم، فهم يتبرؤون منهم أحوجَ ما يكونون إليهم، وقولُه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠ ﴾ [يونس:٣٠]. وقوله: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في يوم القيامة، ﴿تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ﴾ تُخْتَبَرُ كلُّ نفسٍ وتُعْلَمُ ما عَمِلَتْ من خيرٍ أو شرٍّ، ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ أي: ورجع هؤلاءِ المشركونَ يومئذٍ إلى الله الذي هو ربُّهم الحقُّ دونَ ما كانوا يزعمون أنهم لهم أربابٌ مِنَ الآلهةِ والأندادِ ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝٣٠ ﴾ أي وبطلَ عنهم ما كانوا يتخرَصون من الفريةِ والكذب على الله بدعواهم أنها لله شركاءَ، وأنها تقربهم منه زلفى.

٥- استحقاقُ اللهِ العبادةَ وحْدَهُ دونَ غيرِه:

وجَّه ربُّ العزةِ سبحانه جملةً مِنَ الأسئلةِ التقريرية يدلُّ الإقرارُ بها على استحقاقِ الله تعالى وحده أن يعبدَ دون سواه، فقال: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ

جنـــــة الســـــنة

وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس:٣١].

وجَّه اللهُ -تبارك وتعالى- في هذه الآية خمسةَ أسئلةٍ، كلُّها يدلُّ على أن الله سبحانه هو المستحقُّ لما سأل عنه، فالمشركونَ وإن كانوا يشركون بتوحيدِ الألوهية، لكنَّهم يقرُّون بتوحيدِ الربوبيةِ، ولا يشركونَ به معه غيره، فهم يُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحده الذي يُنَزِّلُ لهم الرزقَ مِنَ السماءِ، فهو الذي ينزل الماءَ من السماء، وينبتُ النبات مِنَ الأرض، وهم يقرُّون من غير خصامٍ أنَّه سبحانه الذي يملك السمعَ والأبصارَ، وخصَّ السمعَ والأبصارَ بالذكر لما فيهما من الصنعةِ العجيبة والقدرةِ الباهرةِ العظيمة، وهو سبحانه الذي يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميتِ، فالإنسانُ الحيُّ أُخْرِجَ مِنَ الميت، والطيرُ مِنَ البيضةِ، والنباتُ من الحبَّةِ ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: يُخْرِجُ النطفةَ مِنَ الإنسانِ الحيِّ، والبيضةَ من الطيرِ، والحبَّةَ من النبات، ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: من يقدِّرُ الأمورَ ويقضيها.

ولما كانتِ إجابةُ مشركي قُريش لا تختلفُ في أنَّ اللهَ هو وحدَهُ لا شريك له قال عز وجل: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس:٣٢].

ومن نظر في إجابةِ المشركين عَلِم من هذه الإجابة أنَّه يلزمهم من الإقرار بتوحيدِ الربوبيةِ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهية، وإلاَّ وقعوا في التناقض، يقول الله تعالى: فذلكم اللهُ الذي أقررتم باستحقاقه ما أقررتم به هو ربُّكم الحقُّ الذي يستحقُّ أن يعبدَ دون غيره، فإن عبدْتم غيره فقد ضللتم، فأنَّى، أي: فكيف تصرفون عن الحقِّ إلى الباطل!!

٦- الذين كتب اللهُ -تبارك وتعالى- عليهم الكفرَ لا يؤمنون:

أخبرنا ربُّنا العزيزُ العليمُ سبحانه أنَّ الذي سبق في علمه أنَّهم سيكونون كفاراً لا يؤمنون كفرعونَ وهامانَ وقارونَ وأبي جهل وأميةَ بن خلفٍ فهؤلاء سيبقون على كفرهم، ولا يؤمنون ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يونس:٣٣]. فكلمةُ الكفرِ التي كتبها اللهُ تعالى عليهم لازمةٌ لهم أبداً.

٧- عدمُ صلاحيةِ الآلهةِ التي يعبدُها المشركون للعبادة:

أمَرَ اللهُ -تعالى- عبدَهُ ورسولَهُ محمداً ﷺ أنَّ يوجِّه للمشركين سؤالين يدلاَّن على أنَّ آلهتهم التي يعبدونها من دون الله لا تصلحُ للعبادة، قال ربُّ العزَّة سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ مِن

جنـــــة السـنة

﴿شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يونس:٣٤-٣٥].

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يسأل المشركين، ويقول لهم: هل يوجد أحدٌ من شركائِكم الذين تعبدونهم من دون الله من يبدأُ الخلق ثم يعيده؟ فاللهُ تعالى ابتدأ خلقَ السمواتِ والأرضِ، ثم يبدِّل الأرضَ غيرَ الأرضِ، والسموات غيرَ السمواتِ، ويميتُ الإنس والجنَّ، ثم يعيدهم مرة أخرى، ولا يستطيع أحدٌ من الآلهة الباطلةِ التي تعبدونها شيئاً من ذلك، والمشركون وإن كانوا لا يعترفون بالمعادِ، ولكنه احتجَّ عليهم به لظهورِهِ وبيانه، وقوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: تصرفون عن الحقِّ.

وأَمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يسألَ هؤلاء المشركين هل يوجد من شركائهم التي يعبدونها من دونِ الله من يَهْدِي إلى الحقِّ؟ أي: هل يوجد فيهم مَنْ يرشدُ ضالاًّ أو يسددُ حائراً عن الهدى إلى الصراط المستقيم؟ فإنَّهم لا يستطيعون أن يزعموا أنَّ آلهتهم تستطيعُ ذلك، فإنْ زعموا ذلك أكذبتهم المشاهدةُ، وأبان عجزها عن ذلك الاختبارُ بالمعاينةِ، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ﴾ أي: اللهُ وحده الذي يخصُّ بالهداية إلى الحقِّ، وقوله: ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ﴾ قال ابن جرير الطبري: «أفمن يهدي إلى الحقِّ أحقُّ أن يتبعَ، أمن لا يهتدي إلى شيءٍ إلا أن يهدى» [تفسير الطبري: ٥/ ٤٢١١].

قوله: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ عَجَّبَ ربُّ العبادِ مِنْ حالِ هؤلاءِ باستفهامين متواليين، هما: أيُّ شيءٍ لكم؟ وكيف تحكمون باتخاذ هؤلاءِ شركاءَ لله، وكلا الاستفهامين للتقريع والتوبيخِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ﴾ [يونس:٣٦]. بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هؤلاء المشركين لا يتبعون في دينهم دليلاً ولا برهاناً، وإنما هو ظنٌّ منهم، أي: هو توهم وتخيل، وذلك لا يغني عنهم شيئاً، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس٣٦] تهديدٌ لهم، ووعيدٌ شديدٌ، لأنه تعالى أخبر أنَّه سيجزيهم على ذلك أتمَّ الجزاء.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الذين أحسنوا بعبادةِ الله وحْدَه وعملوا الصالحات لهم الحسنى، وهي الجنةُ، ولهم زيادة في الجنة، والزيادةُ النظرُ إلى وجهِ الله الكريمِ في جناتِ النعيم، وهؤلاءِ أصحابُ الجنةِ خالدين فيها.

٢- أصحابُ السيئات يجزيهم اللهُ تعالى السيئةَ بمثلها، وترهقهم ذِلَّة، ولا ناصرَ ولا عاصمَ لهم مِنَ الله وعذابه، ويسوِّد اللهُ تعالى وجوهَهُمْ، حتى تصبحَ كقطعِ الليلِ المظلمِ وهؤلاءِ أصحابُ النار هم فيها خالدون.

٣- يحشر اللهُ تعالى الناسَ جميعاً يومَ القيامة ويحشرُهُمْ وشركاءَهم، وهي آلهتهم التي يعبدونها مِنْ دون الله، ويفْصِلُ بينهم وبين الآلهةِ التي كانوا يعبدونها، وتنكر تلك الآلهة أنَّهم كانوا يعبدونها، ويستشهدون على صدقهم بشهادة الله تعالى لهم أنَّهم كانوا غافلين عن عبادتهم، وهذا صحيحٌ، فلم تكن هذه الأوثانُ تعقلُ ما يحدثُ لها.

٤- اللهُ تعالى وَحْدَه الذي يستحقُّ أن يعبدَ دونَ غيره فهو الذي يتَّصفُ بالخصائص التي تؤهِّله لذلك.

٥- اللهُ تعالى الذي يستحقُّ أنْ يعبدَ دونَ غيره، لأنه الذي يبدأُ الخلق ثم يعيده، وهو وحْدَهُ الذي يهدي للحقِّ دون غيره.

جنــــــة الســــنة

النص القرآني السادس من سورة يونس

القرآنُ كتابٌ لا يليقُ أنْ ينسبَ إلى غير الله تعالى

أولاً: تقديم

القرآن كتابٌ عظيم لا يصحُّ، ولا يُقبَلُ أنْ يُدَّعى أنه كذبٌ مفترى، فهو كتابٌ مصدِّقٌ للكتبِ السماويةِ المنزلةِ من عندِ الله، وأعظمُ دليل على أنه منزل من عند الله عدمُ استطاعةِ كلِّ القوى المخلوقةِ على الإتيان بمثله، والكفارُ المشركون كذَّبوا بالقرآنِ وهم جهلة به، لا يفقهونه، ولا يفهمونه، ولم يعلموا حقيقةَ ما يؤولُ إليه، والذين يكذِّبون به سيعذِّبهم اللهُ كما عذَّبَ الذين كذَّبوا من قبلهم.

والناسُ تجاه القرآنِ فريقانَ: مؤمنون وكفارٌ، وقد فقد الكفارُ قدرتهم على الاستماع إلى الرسولِ ﷺ ، وقدرتَهُمْ على الاستفادةِ مِنَ النظر إليه، فحالهم حال الطُّرْشِ العُمْيِ، وقدَّرَ اللهُ تعالى أنه لا يظلم عبادَه شيئاً، ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا
رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ
﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ
تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ
يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [يونس:٣٧-٤٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يصحُّ أنْ يكون هذا القرآنُ مكذوباً على الله تعالى:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هذا القرآنَ لا يصحُّ أنْ يكون مفترى على الله مكذوباً عليه، فهذا القرآنُ بلغَ الغاية في السَّبْكِ والتكوين، وبلغ الغاية فيما حواه من العلومِ والأخبارِ

جنـــــة السـنة

والأحكامِ، وتقاصرت علومُ البشر أن تأتي بمثله ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس:٣٧]، وقوله: ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: أنَّ هذا القرآن يُصدِّق الكتبَ السماوية التي أُنزلت قبله، وهو مهيمن عليها، ومصلحٌ لما فيها من تحريفٍ.

وقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ التفصيلُ: التبيينُ، ففيه تفصيلُ الحلالِ والحرام، وتفصيلُ الوعدِ والوعيدِ، وتفصيلُ القيمِ والأخلاقِ والخيرِ. ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [يونس:٣٧]، أي: لا شكَّ في أنَّه منزلٌ مِن عند الله ربِّ العالمين.

٢- البرهانُ الدالُّ على أنَّ القرآنَ منزل مِنْ عند الله تعالى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ يزعمون أنَّ رسولنا ﷺ افترى هذا القرآنَ، أي: اختلقه، ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ [يونس:٣٨] و﴿ أَمْ ﴾ هذه هي المنقطعة التي بمعنى (بَلْ والهمزةِ)، وأمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [يونس:٣٨]، أي: إنْ كنتُ كما تقولون قد افتريتُ هذا القرآنَ واختلقته، فأنتم عربٌ مثلي، ولساني وكلامي مثل كلامكم، فجيئوا بمثل سورةٍ من سورِ هذا القرآن ﴿وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي: من استطعتم من الآلهة التي تعبدونها من دون الله ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ أي: إن كنتم صادقين في أنَّ محمداً افترى هذ القرآن.

وسيأتي في سورة الإسراءِ أنَّ الجنَّ والإنسَ لا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ، ولو اجتمعوا لذلك ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء:٨٨]. وسبقَ في سورةِ البقرةِ أنْ تحدى اللهُ المشركين أنْ يأتوا بسورةٍ واحدةٍ مهما كانت قصيرة، وأخبر أنهم عاجزون عن الإتيانِ بذلك ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة:٢٣-٢٤].

٣- الكفار كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمه:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ كذَّبوا بما لم يحيطوا بعلمِهِ ولَمَّا يأْتِهم تأويلُهُ، ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ﴾ [يونس:٣٩].

جنـــــة السـنة

أخْبرَ ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ سارعوا إلى تكذيبِ القرآنِ قبل أن يفقهوا ويفهموا معانيه وما اشتملَ عليه، وقولُهُ: ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ﴾ التأويل: ما يؤول إليه الأمر، فقد كذَّبوا بالبرزخِ والحشرِ والجنةِ والنارِ، وما فيه من الهدى ودينِ الحقِّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [يونس:٣٩] أي: كذبت الأممُ السابقةُ، كما كذَّب الكفارُ هذا النبيَّ ﷺ، والمراد بقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس:٣٩]، أي: انظر يا رسولَنا، ومن يسمع هذا القرآنَ كيف كان عاقبةُ الظالمين، أمثال قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودٍ وغيرهم.

٤- **مواقفُ الناس تجاهَ القرآن الكريم ورسولِ الإسلام:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ بعضَ الناس يُؤْمن بهذا القرآنِ، ومنهم من يكفرُ به واللهُ تعالى أعلم بالمفسدين ﴿وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [يونس:٤٠]، وقد كان المؤمنون بهذا الكتابِ قليلاً، ثم ازدادَ عددُهم، ولا يزالون يزيدون، ولكن استمر وجود الفريقين، والمفسدونُ الذين تَلَبَّسوا بالكفر والشركِ والذنوبِ والمعاصي، وقد أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ إنْ كذبوه أن يقول: لي عملي ولكم عملكم ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس:٤١]، أي: إنْ كذبوك وردوا عليك ما جئتهم به من عند ربك، فقل لهم: لي ديني، ولي عملي القائمُ على التوحيدِ والعبودية لله الواحد الأحد، ولكم عملكم القائمُ على الشركِ والكفرِ، ﴿أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ﴾ فلا تحاسبون عليه، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ فلا أحاسب على ما تعملونه من ذنوبٍ وكفرٍ وشركٍ، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون:١-٦].

وبيَّنَ ربُّ العزَّة أنَّ فريقاً مِنَ الكفار من يستمع إلى الرسولِ ﷺ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [يونس:٤٢].

أي: يستمعون إليك، ولا يفقهون ما تتلوه عليهم مِنَ الآياتِ، وما تعظهم به من المواعظِ، فحالهم عندما يستمعون إليك حالَ الصمِّ الذين لا يسمعون، فأنت لا تستطيع هدايتهم.

جنـــــة السـنـــة

وهناك فريقٌ آخر ينظر إلى الرسولِ ﷺ، فلا يختلفُ حالُ هؤلاءِ عن حالِ الأعمى الذي لا يبصرُ ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يونس:٤٣]، والبصرُ له أثرٌ في نفسِ مَنْ ينظر إلى الأُسوةِ والقدوةِ، فتراه يتأثر بما ينظر إليه في صفاتِه وأخلاقه وأعمالِه، وبعضُ هؤلاء الناظرين تراهم كالعمي، لا يستفيدونَ مما ينظرونَ إليه، فكما لم يستفيدوا بأسماعهم، لم يستفيدوا من أبصارهم، ثم أخبرَ -تبارك وتعالى- أنَّه لا يظلم أحداً شيئاً، وإن كان هَدَى به من هَدَى، وبصَّر به مِنَ العمى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، وأضلَّ به عن الإيمان آخرين، فهو الحاكمُ المتصرِّف في ملكهِ بما يشاءُ، الذي لا يسألُ عما يفعلُ وهم يسألون، لعلمِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس:٤٤].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- دعوى الكفارِ أنَّ القرآنَ مفترى مختلقٌ وهي دعوى باطلة، فالقرآنُ في صياغته وتكوينِهِ وبنائِهِ لا يصحُّ أن ينسب إلى غير الله تعالى.

٢- الذين يزعمون أنَّ القرآنَ مفترى يُردُّ عليهم بأن يطلبَ منهم أن يأتوا بمثل سورةٍ واحدةٍ، مهما كانت قصيرةً، وقد دعا اللهُ -تعالى- المشركين أن يستعينوا بكل القوى التي يعبدونها من دون الله لتحقيق مبتغاهم.

٣- الكفار كذَّبوا بالقرآنِ ولم يفقهوا ما فيه، ولم يفقهوا ما يؤولُ إليه من علوم وأخبار.

٤- تهدَّد اللهُ -تعالى- الكفارَ أن يحيطَ بهم عذابُهُ كما أحاطَ بالأمم المكذبة من قبل.

٥- انقسم الناسُ تجاه القرآنِ منذ أنزل وإلى اليومِ وإلى أنْ تقومَ الساعة إلى فريقين مؤمنين وكفار.

٦- يجبُ أن نبرأ مِنَ الكفار والمشركين، فالكفارُ عملهم قائمٌ على الشركِ والكفرِ، والمؤمنون عملُهم قائمٌ على التوحيدِ والإيمان، والكفارُ بريئون من أعمالنا، ونحن بريئون من أعمالهم.

٧- لا يستفيدُ الكفار من أسماعهم وأبصارهم تجاهَ القرآنِ الكريم وتجاه ما جاءَهم به الرسولُ ﷺ، فحالُهم حالُ الذين فقدوا أسماعهم وأبصارَهُم.

٨- اللهُ تعالى عادلٌ سبحانه، لا يظلمُ الناسَ شيئاً، والحقيقةُ أنَّ الناس هم الذين يوقعون الظلمَ بأنفسهم.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني السابع من سورة يونس
يبعثُ اللهُ تعالى العبادَ يوم المعادِ بحياةٍ تامةٍ كاملة

أولاً: تقديم

يبعثُ اللهُ تعالى يومَ القيامة عبادَه بحياةٍ تامّةٍ كاملة، حتى إنهم يقيمون بمقدارِ ساعةٍ مِنَ النهار يتعارف الأقاربُ فيما بينهم، وسيعيدُ اللهُ تعالى العبادَ إليه، وسيقضي بينهم بحضور رسولهم، والكفارُ المشركون يستعجلونَ بالعذابِ ويطلبون مِنَ الرسول ﷺ أنْ يحدِّد لهم موعِدَه، وليس لدى الرسولِ ﷺ قدرةٌ على ذلك، واللهُ وحدَهُ هو الذي يعلم موعِدَهُ، ثم إنَّ الاستعجال لا يفيدُهم، وإذا وقع العذابُ بهم آمنوا به.

والكفارُ نفوسُهم مملوءة ريبةً وشكاً، ولذلك يلجؤون إلى الرسولِ ﷺ يستخبرونَه قائلين: هل البعثُ والنشورُ حقٌّ؟ فيجيبهم: إيْ وربي إنه لحقٌّ، ويصفُ اللهُ تعالى شدَّةَ عذابِ يومِ القيامةِ، وهو لشدَّته فإنَّ المعذبين على استعداد لبذلِ ما في الأرضِ لو كانوا يملكونه، ليتخلصوا من ذلك العذاب.

وقد أثنى اللهُ تعالى على نفسهِ بأنَّ له ما في السمواتِ والأرضِ، وأنَّ وَعْدَه حقٌّ، وهو المحيي المميتُ الذي يرجع إليه العباد.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة يونس

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ
مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ
أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ
وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ
ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا
كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ
نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا
يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يونس: ٤٥-٥٦].

جنـــــة السـنـــة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يبعثُ اللهُ تعالى الخلقَ يومَ القيامةِ فيجلسون مقدارَ ساعة من النهار يتعارفون بينهم:

أمرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنْ نَذْكُر ما يكونُ مِن العبادِ في يوم المعادِ، ومن ذلك أنهم يمكثون مقدارَ ساعةٍ من نهارٍ يتعارفون بينهم ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس:٤٥]، أي: يتعارفُ الأقاربُ والأصحاب فيما بينهم، أي: يتعارف الآباء والأبناءُ، ويتعرَّف الرجلُ على أعمامِهِ وأخوالِهِ، وعماتِهِ وخالاتِهِ، ثم تتغير هذه الأحوال ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، وتعارفُ الناسِ في الموقفِ العظيم، يدلُّ على أنَّ حياتَهم في ذلك الموقفِ حياةٌ تامةٌ كاملةٌ، وليستْ تخيُّلاً وتوهُّماً كما يدَّعي بعضُ الناس.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [يونس:٤٥] وخسرانُ الذين كذَّبوا بالبعثِ والنشورِ، لأنَّ غضب الله يحيطُ بهم، ويدخلونَ نارَهُ، ولا يهديهم ربُّ العزة إلى ما ينفعهم، ولا يوصِلُهم إلى جنتهِ.

وقولُه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ للعلماء فيها قولان: الأول: كأنْ لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعةً من النهارِ. والثاني: كأنْ لم يلْبثوا في قبورهم وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم:٥٥]، وقوله: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [المؤمنون:١١٢-١١٤].

٢- إذا أرى اللهُ تعالى رسولَهُ بعضَ ما وَعَد به الكفار من العذابِ أو توفَّاه قبل ذلك:

إذا أرى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بعضَ الذي توعَّدَ به الكافرين من العذاب، أو توفَّاه اللهُ قبل أن يريه ذلك، ففي كلا الحالين سيرجعُ هؤلاءِ الكفارُ إلى ربِّ العزَّة سبحانه ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس:٤٦]. وقد أرى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ بعضَ ما وعدَ بِهِ المشركين مِنَ العذابِ في بدرٍ، وفي قريظةَ، والنضيرِ، وفي فتح مكَّة، وفي خيبرَ، ولم يره ما فعله أصحابه في حروب الرِّدة وغيرها. وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: ما فعلوه من تكذيبِ رسولِهِ وكتابه ومحاربته ومحاربة أصحابه.

جنـــــة السـنة

٣- يحكمُ ربُّ العبادِ يومَ الدينِ في كلِّ أُمَّةٍ بحضرةِ رسولها:

خصَّ اللهُ تعالى كلَّ أمة برسولٍ أرسله إليها، فإذا جاءَ رسولها يوم الدين قَضَى بينهم ربُّ العزة بالعدلِ، وهم لا يظلمون شيئاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس:٤٧]. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الزمر:٦٩]، فكلُّ أُمَّةٍ تُعْرَضُ على الله تعالى بحضرة رسولها، وكتابُ أعمالها بما فيه من خيرٍ وشرٍّ موضوعٌ شاهدٌ عليها، وحفظتها مِنَ الملائكة شهودٌ عليها، أمةً بعد أمةٍ، وهذه الأمةُ وإن كانتْ آخر الأمم، إلا أنها أوَّلُ أمَّة يفصل بينها، ففي حديث أبي هريرة وحذيفة بن اليمان «نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يومَ القيامة، المقضي لهم قبلَ الخلائق» وفي رواية: المقضي بينهم [مسلم:٨٥٦].

٤- استعجالُ المكذبين بالبعثِ بالعذاب:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ المكذبين بالبعث ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس:٤٨] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ هؤلاء المشركين يسألون عن الوقتِ الذي سيقعُ فيه العذابُ الذي توعَّدهم اللهُ تعالى به، فأمره تعالى أن يقولَ لهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٩].

لما استعجلوا بالعذابِ أمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر لها على ضرٍّ ولا نفع في دنيا ولا دين ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: إلا ما شاء اللهُ أنْ أملكه، فأجلبه إليها بإذنِه.

فإذا كان رسولُنا ﷺ لا يقدرُ على ذلك إلا بإذنه، فإنَّه على القدرة على الوصولِ إلى علم الغيبِ ومعرفة قيامِ الساعةِ أعجز، إلا بمشيئة الله وإذنه في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس:٤٩]، أي: لكلِّ أُمَّة وقتٌ حدَّده ربُّ العزة لزوالِهم وانقضاءِ أعمارهم، فإذا جاءَ الأجلُ الذي حدَّده ربُّ العزةِ لانقضاءِ أعمارِهم زالوا وبادوا، ولا يستأخرون عن ذلك الموعدِ الذي حدَّده، ولا يستقدمون عنه.

وقد أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ أن يقولَ لقومه: ﴿أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [يونس:٥٠].

جنـــــة السـنة

قوله: ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني، لأن العرب تضمن أرأيت معنى أخبرني [البحر المحيط: ٦/ ٦٨].

وقوله: ﴿بَيَـٰتًا﴾ قال الزجاج: «البياتُ كلُّ ما كان بليل» [تفسير الواحدي: ١١/ ٢٢٠].

في هذه الآية يأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً، فأي شيء تستعجلون أيها المجرمون بنزول العذاب، وكل العذاب شديد، فلم الاستعجال؟

وقوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس:٥١] قال ابنُ جرير الطبريِّ في تفسير هذه الآية: «أهنالك إذا وقع عذابُ الله بكم أيُّها المشركون ﴿ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ يقول: صَدَّقْتُمْ في حالٍ لا ينفعكم فيها التصديقُ، وقيل لكم حينئذٍ: آلآن تصدقونَ، وقد كنتم قبل الآن به تستعجلون، وأنتم بنزولِهِ مكذِّبون؟ فذوقوا الآن بما كنتم به تكذبون. ومعنى قوله: ﴿أَثُمَّ﴾ في هذا الموضعِ: أهنالك، وليستْ ثمَّ هذه هاهنا التي تأْتي بمعنى العطف» [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢١٧]. وقال ابن الجوزي: أي: «هنالك تؤمنون فلا يقبلُ منكم الإيمانُ، ويقالُ لكم: الآن تؤمنون، فأضمَرَ: تؤمنون به مع ﴿ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾» [زاد المسير: ٤/ ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يونس:٥٢] أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه يقالُ للذين جاءَهم عذابُ الله -تعالى- الذين ظلموا أنفسهم بالكفرِ والشركِ على سبيلِ التوبيخِ والتقريعِ والإهانة: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ أي: عذابَ النارِ الدائمِ الذي لا ينقطعُ، والقائلُ لهم هم الملائكةُ، وقوله: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾﴾ أي: لا تجزون في الآخرة إلا ما كنتم تكسبونه في الحياةِ الدنيا مِنَ الكفرِ والشركِ والذنوبِ والمعاصي، والاستفهامُ للتقرير.

٥- مدى الشكِّ والريبِ الذي خالطَ نفوسَ المشركين:

يقول تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس:٥٣]، وهذا السؤال الذي أخبر ربُّ العزة أنَّ المشركين يوجهونه إلى الرسول ﷺ يدلُّ على النفس المشوشة المضطربة التي تموجُ في صدور المشركين، فيقولون له: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ أي: أحقٌّ ما تخبرنا عنه من البعثِ والنشورِ والحشر والجنةِ والنارِ؟ وقد أمر اللهُ -تبارك وتعالى-

جنـــــة السـنة

رسوله أن يقول لهم: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أي: قل لهم: نعم، وربي، إنه لحقٌّ، وما أنتم معجزين ربَّكم أن يعيدكم ويبعثكم، فالله تعالى لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢] وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ:٣]. وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن:٧].

وفي جوابِ الرسولِ ﷺ الذي أمره اللهُ أن يجيبَ به المشركينَ، وهو قوله: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ تأكيد من وجوه: الأول: القسمُ مع دخولِ الحرف الخاصِ بالقسمِ الواقعِ موقعَ نعم. الثاني: دخولُ إنَ المؤكدة. الثالثُ: اللامُ في ﴿لَحَقٌّ﴾. الرابع: اسميته الجملة.

وذلك يدُلُّ على أنَّه قد بلغوا في الإنكارِ والتمردِ إلى الغاية التي ليس وراءَها غاية، ثم توعَّدهم ورهَّبهم بأعظَمَ ترهيب فقالَ: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [فتح القدير: ٢/ ٦٣٤].

٦- لو كان للكفارِ كلّ ما في الأرض لافتدوا به من عذاب يوم القيامة:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار المشركين الذين امتلأت قلوبهم بالريبِ والشكِّ في الحياة الدنيا، والذين يلجؤون إلى الرسول ﷺ يستنبئونه قائلين: أحقٌّ هو؟ تنقلبُ حالُهُمْ في الآخرةِ عندما تحيطُ بهم النار والعياذُ بالله، حتى لو أنَّ للواحدِ منهم كلَّ ما في الدنيا لافتدى به، لينجو من ذلك العذاب ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس:٥٤].

وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفارَ والمشركين يخفون الندامةَ ويسرونها حين يبصرون عذاب الله يحيطُ بهم، لأنهم لا يستطيعون له دفعاً، وقد يُسِرُّون الندامة مخافة شماتةِ المؤمنين بهم، أو يسرها الرؤساءُ فيما بينهم عن أتباعهم خوفاً من توبيخهم لهم لكونهم هم الذين أضَلُّوهم وحالوا بينهم وبين الإسلام، ولكن مهما حاولوا ذلك فلن يستطيعوا أنْ يُسِرُّوا ذلك بعد الدخولِ في العذاب، حينئذ ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦].

والندامةُ: الحسرةُ على ما كان يتمنى أنه لم يكن، والتأسفُ على ما وقع منه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾﴾ أي: حكَم ربُّ العبادِ بين العباد بالعدل، وهم لا يُظلمون، فاللهُ تعالى لا يظلمُ الناسَ شيئاً.

جنـــــة السـنة

٧- لله تعالى ما في السموات والأرض:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَ له ملكَ السمواتِ والأرض ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس:٥٥].

قرّر ربُّ العزةِ تبارك وتعالى في الآية السابقة أنّه تعالى يقضي بين خلقِهِ بالقسطِ وهم لا يظلمون، وقرَّرَ فيها أنَّ له كلَّ ما في السمواتِ والأرض، فالسماواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما، ومما فيهما من الإنس والجن والملائكةِ والدوابِّ والطيورِ وكلِّ شيء لله، وما يَدَّعيه البشرُ من آلهةٍ كالأصنامِ والأوثانِ والمعبوداتِ فإنها كلَّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله وحده، وقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ ووعدُ الله البعثُ والنشور، وكونُه حقّاً، أي: آتٍ لا شكَّ ولا ريبَ فيه، وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ وهم المشركون والكفار لا يعلمون أنّه آتٍ لا شكّ فيه.

ووصفَ ربُّ العزةِ نفسَهُ بقولِهِ: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يونس:٥٦] فقد أحيا الملائكةَ والإنسَ والجنّ أولاً، ثم يميتهم، فلا يبقى منهم أحدٌ يوم تقوم الساعةُ، ثم يعيدهم إليه مرة أخرى يوم الدين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- يبعث ربُّ العبادِ العبادَ في يوم المعادِ أحياءً حياةً كاملة، حتى إنَّهم في أوّل بَعْثِهم يقضون مقدارَ ساعةٍ من نهارٍ يتعارف الأقارب والأصحاب بعضُهم على بعضٍ.

٢- أخْبرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّه سواءٌ أرى اللهُ تعالى رسولَه ما توَعَّد به أعداءَه، أو توفَّاه فلم يُرِه ما توعَّدَهم به، فإنَّ هؤلاء الكفرةُ مرجعُهُم إلى الله تعالى يومَ القيامة.

٣- يقيم ربُّ العبادِ على كلِّ أُمّة شهيداً عليهم من أنفسهم هو رسولهم الذي أرسله إليهم، ويقضي بينهم بالقسطِ وهم لا يظلمون.

٤- الكفارُ يتساءَلون عن اليوم الذي يحلُّ اللهُ بهم عذابه، استهزاءً بذلك العذاب، ويطلبون مِنَ الرسولِ ﷺ أن يُحدِّد لهم موعدَ ذلك اليوم، ويجيب الرسولُ ﷺ أنّه لا يستطيعُ تحديدَ ذلك اليوم، واللهُ وحده الذي يستطيعه.

جنـــــة السـنة

٥- إذا جاءَ عذابُ الله تعالى ليلاً أو نهاراً فماذا يفيدُ الكفارَ استعجالُهم بالعذابِ، خاصة أنه إذا وقع فإنهم سيؤمنون به، وسيقالُ لهؤلاء الذين يستعجلون به يومَ القيامةِ بعد إدخالهم النار: ذوقوا عذابَ الخلدِ جزاءً بما كنتم تكسبون.

٦- الكفرةُ والمشركون نفوسُهم مضطربةٌ كثيرةُ الشكِّ والريبِ، ولذلك يلجؤون إلى الرسولِ ﷺ يستخبرونه عن مدى صِدْق كون البعثِ آتٍ، فيقول لهم: إي وربي إنه لحقٌّ.

٧- عذابُ الله تعالى شديدٌ، ولشدَّته فإن المعذبين لو يملكون الأرض وما فيها لافتدوا به من عذاب ذلك اليوم.

٨- الكفارُ يُسرُّون الندامةَ في أول الأمر يوم القيامة، ولكنَهم عندما يقاسون حَرَّ النار وأوجاعها لا تبقى لهم قدرة على الإسرارِ.

٩- اللهُ تعالى هو مالكُ السمواتِ والأرضِ الذي يحيي ويميت وإليه يرجع العباد.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثامن من سورة يونس
القرآن الكريم موعظةٌ من ربّنا وشفاءٌ لما في الصدور

أولاً: تقديم

أعلمَ اللهُ تعالى الناسَ جميعاً أنه قد أنزل عليهم موعظةً من عنده، وشفاءً لما في صدورِ الناس، وجعله هدىً ورحمةً للمؤمنين وأمَرَ رسولَه ﷺ أن يطلبَ مِنَ الناس أن يفرحوا بفضل الله ورحمته، وهو القرآنُ، فهو خير مما يجمعونَهُ من الدنيا الفانية.

وذمَّ اللهُ تعالى الكفرةَ المشركين الذين يُحِلُّون ويحرِّمون خلاف ما أحلّ اللهُ وحرَّم، وهؤلاء الذين أحلُّوا وحرَّموا خلافَ ما شَرَعَهُ اللهُ تعالى مصيرُهُمْ يومَ القيامة مخيفٌ مرعب. وأعلَمَ اللهُ تعالى رسولَه والمؤمنين أنَّ علمه محيطٌ بهم، لا يخفى عليه خافيةٌ من شؤونهم، كما لا يخفى عليه أمْرُ ذَرَّةٍ في السماءِ ولا في الأرضِ، وقد دَوَّن ذلك كلّه في كتابٍ مبين.

وختمَ ربُّ العزّة -تبارك وتعالى- آياتِ هذا النصِّ بالثناءِ على أولياءِ الله تعالى، وأخبر أنه لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، ثم عرَّفهم بأنهم الذين آمنوا وكانوا يتقون، وأعلمنا أنَّ لهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم
مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا
تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا
يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ
ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٥٧-٦٤].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- قيمةُ القرآن وعظمتُهُ:

يقولُ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- ممتناً على عبادِهِ بما أنزله عليهم مِنَ القرآنِ العظيم على رسولِهِ الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس:٥٧].

نادى اللهُ -تبارك وتعالى- الناسَ جميعاً، مخبراً إياهم أنه قد جاءَتهم موعظة من ربهم، والموعظةُ التي جاءَتنا من ربِّنا هي القرآنُ الكريم، و«الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويف، قال الخليل: هو التذكيرُ بالخير فيما يَرِقُّ له القلبُ والعِظَةُ والموعظةُ الاسم» [المفردات، للراغب: ص٥٢٧].

وقوله: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ أي: دواءٌ لأمراضِ القلوب -وأمراضُ القلوب هي الكفرُ والشركُ- وأمراضِ الشبهاتِ والشكوكِ، وأمراضِ الشهوات، والقرآنُ شفاءٌ من ذلك كلِّه، والقرآنُ ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ أي: محصِّلٌ للهدى والرحمةِ مِنَ الله، ولا يكون ذلك إلا للمؤمنينَ به، والمصدقينِ الموقنين بما فيه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت:٤٤].

وقد أمَرَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نَفْرَحَ بهذا الكتابِ العظيمِ الذي جاءَنا من عندالله الذي وصفَهُ بهذه الصفاتِ العظيمةِ الكريمةِ، فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس:٥٨]. أمر اللهُ تعالى المؤمنين بالفرح بهذا الكتابِ العظيم، والفرحُ: لذَّةُ القلب بإدراكِ المحبوبِ ونيلِ المُشْتَهى، والمعنى: ليفرح المؤمنون بفضلِ الله ورحمته، فإنَّ ما آتاهم اللهُ فيه موعظة وشفاء لما في الصدور، وثلج اليقين بالإيمان، وسكون النفسِ إليه، خير مما يجمعُ هؤلاءِ من أعراضِ الدنيا مع فقد هذه الخلال.

٢- ضلال البشر بتحليلهم ما حَرَّمه الله تعالى وتحريمهم ما أحلّه:

بيَّن الله تبارك وتعالى ضلالَ البشرِ بتحليلهم ما حرَّمه اللهُ تعالى، وتحريمِهِمْ ما أحلَّهُ تبارك وتعالى، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس:٥٩].

جنـــــة السـنة

وتحريم الحلال وتحليلُ الحرامِ من أعظم ما افتراه الكفارُ في مختلفِ الأمكنةِ والعصورِ، فالنصارى يستحلون الميتةَ، ويأكلونَ الخنزيرَ، وأهلُ الجاهلية يشربون الخمر، ويأكلون الميتة، ويأكلون الخنزير، وقد تكلمنا على تحريمِ أهل الجاهلية لبعض ما حرمه اللهُ تعالى عند قوله: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [المائدة:١٠٣]، وقوله: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ١٣٩﴾ [الأنعام:١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ هذا إنكار على الكفار في تحليلهم الحرامَ، وتحريمِهم الحلالَ، ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ [الأنعام:١٣٦].

وقوله: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩﴾ قل لهم يا محمدُ: هل أَذِنَ اللهُ تعالى لكم في هذا التحليلِ والتحريم، فإنْ لم يكن اللهُ تعالى أذن لكم، فأنتم تفترونَ الكذبَ على الله، فاللهُ لم يحلَّ ما حرَّموه، ولم يحرِّمْ ما أحلُّوه. وقد تهدَّدَ ربُّ العزةِ هؤلاءِ المحرِّمين المحللين بما يفعل بهم يومَ القيامةِ فقال: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس:٦٠].

يسأل ربُّ العزة -تبارك وتعالى- الذين يفترونَ على الله الكذب يومَ القيامةَ، وهم الذين يزعمون أنَّ اللهَ تعالى أحلَّ كذا، وهو لم يحلَّه، ويقولون: إنَّ الله حرَّم كذا، ولم يحرِّمه، فما ظنُّهم أنَّ اللهَ يصنع بهم؟ وهذا استفهام توبيخٍ وتقريعٍ، لا شكَّ أنَّه سيجزيهم بما كانوا يكذبون ويفترون على ربِّهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ [يونس:٦٠] فاللهُ -تعالى- ذو فضلٍ على الناس في الدنيا عندما لم يعاجلهم بالعقوبةِ على افترائهم، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾ على تأخيرِ العذابِ عنهم.

٣- عِلْمُ الله -تعالى- محيطٌ بعبادِهِ:

أعْلَمَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ وأصحابه أنَّ عِلْمَهُ -تبارك وتعالى- محيطٌ بعباده وبأعمالهم، لا يغيبُ عنه شيءٌ من ذلك، فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ

جنـــــة السـنة

مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ [يونس:٦١].

يخبر تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه يعلمُ جميعَ أحوالِه وأحوالِ أُمتِه، وأحوال جميع الخلائق في كلِّ ساعةٍ وآنٍ ولحظةٍ، وأنه لا يعزبُ عن علمه وبصره مثقالُ ذرَّةٍ في السمواتِ، ولا في الأرضِ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين، وأخبرنا في موضعٍ آخرَ أنَّ عنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلمُ كلَّ ما في البرِّ والبحر، وما تسقُط من ورقةٍ من شجرةٍ إلا يعلمها، ولا تندثر حبَّة في ظلماتِ الأرضِ، ولا تَذْوي ورقةٌ رطبةٌ إلا وذلك كلُّه في كتابٍ مبين ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام:٥٩]. وقال في موضعٍ آخر: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الأنعام:٣٨].

٤- أولياءُ الله تعالى لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ الذين آمنوا وكانوا يتقون:

عرَّف اللهُ -تبارك وتعالى- أولياءَه وقضى أنه لا خوْفٌ عليهم ولا هم يحزنون، وأعلمنا أنَّ لهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، فقال: ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

والوليُّ في اللغةِ: القريبُ، وقد غلا كثيرٌ مِنَ الذين ينسبون إلى الإسلام في من يدْعونَهُ وليّاً، ورفعوه إلى مرتبة الألوهية، فتراهم يعتقدون فيهِ العقائدَ الباطلةَ، ويدْعُونَه، ويستغيثونَ به من دونِ الله تعالى، وقد حكَم ربُّ العِزَّةِ في هذه الآيةِ أنَّ أولياءَ الله، وهم أنصارُه وأحبابُه ومطيعو أمْرِه بأنه لا خوفٌ عليهم في الدنيا، ولا هم يحزنون على ما يقْدُمونَ عليه في الآخرةِ، ثم عرَّف أولياءه فقال: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ فكلُّ مؤمنٍ بالله تقيٌّ، فهو لله وليٌّ، فالمؤمنونَ مِنْ هذه الأمة من أبي بكر الصديقِ إلى آخر مؤمنٍ فيها، كُلُّهم أولياءُ لله تعالى.

وقد أخبر ربُّ العزَّة -تبارك وتعالى- أنَّ أولياءه ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ ﴾.

وأخبر سبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاءِ المؤمنين الأتقياء لهم البشرى في الدنيا، والبشرى الإخبارُ بما يَسُرُّ، وهذه الأخبارُ السارَّةُ التي يُبَشِّر اللهُ بها المؤمنين يفيض بها القرآنُ الكريمُ، كما

جنـــــة السـنة

تفيضُ بها الأحاديثُ الصحيحةُ، التي يُعَنْوَنُ لها باسم «الترغيب والترهيب»، والقرآنُ الكريم والأحاديثُ الصحيحةُ، وإن انقطع الوحيُ بها من عند الله بعد وفاةِ رسول الله ﷺ، إلا أنَّ بشرى المؤمنين لم تنقطعْ، فلا تزالُ الرؤيا الصالحةُ التي تُبَشِّرُ المؤمنين بالخيرِ من عندِ الله مصدراً ثَرِيّاً تُبَشِّر المؤمنين بالمسرَّات من عندِ الله تعالى.

وقد سأل عبادةُ بن الصامت رسولَ الله ﷺ فقالَ: يا رسولَ الله، أرأيت قولَ الله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [يونس:٦٤]، فقال: «لقد سألتني عن شيءٍ ما سألني عنه أحدٌ من أُمتي، أو أحدٌ قبْلَكَ»، قال: «تلكَ الرُّؤْيا الصالحةُ، يراها الرجُلُ الصالحُ أَوْ تُرَى لَهُ» [قال الشيخ شعيبُ في تحقيقه لابن كثير: (٤/ ٢٥٠ رواه أحمد في المسند: (٢٢٦٨٨) وهو حديثٌ صحيح].

وعن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «لم يَبْقَ من النبوةِ إلا المُبَشِّراتُ» قالوا: وما المُبَشِّراتُ؟ قال: «الرُّؤْيا الصالحةُ» [البخاري: ٦٩٩٠].

وعن أمّ كُرْزٍ الكَعْبِيَّةِ قالت: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «ذهبتِ النبوةُ وبقيت المُبَشِّرات» [قال محقق ابن كثير (٢/ ٥٠٠): حديث صحيح، أخرجه الطبريُّ (١٧٧٤٧) بإسنادٍ حسن، وللمتن شواهدُ في الصحيح. وانظر تمام تخريجه في «مسند الإمام أحمد» ٤٥/ ١١٦، الحديث (٢٧١٤١)].

وعن ابن عباسٍ، قال: كَشَفَ رسولُ الله ﷺ السِّتارةَ، والناسُ صُفوفٌ خَلْفَ أبي بكرٍ. فقال: «أيُّها الناسُ! إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّراتِ النُّبُوَّةِ إلا الرُّؤْيا الصالِحةُ يَراها المُسْلِمُ، أو تُرَى لَهُ» [مسلم: ٤٧٩. والستارة: السِّتْر يكون على بابَ الدار أو النافذة].

وعن إبراهيمَ بن عبدالله بن مَعْبَدِ بنِ عبَّاسٍ، عن أبيه، عن عبدالله بن عباسٍ؛ قالَ: كَشَفَ رسولُ الله ﷺ السِّتْرَ، ورَأْسُهُ مَعْصُوبٌ في مَرَضِهِ الذي ماتَ فيه، فقال: «اللهُمَّ! هل بَلَّغْتُ؟» ثلاثَ مراتٍ «إنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ مُبَشِّرات النُّبُوَّةِ إلا الرُّؤْيا، يَراها العَبْدُ الصالِحُ أَوْ تُرَى له» [مسلم: ٤٧٩].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - القرآنُ العظيم كتابٌ عظيم هو موعظةٌ من ربِّ العالمين، وشفاءٌ لما في صدورِ الناسِ أجمعين، وهدى ورحمةٌ للمؤمنين.

٢ - المؤمنون الصادقون يفرحون بما أنزل اللهُ تعالى مِنَ الدين، فهو خير مما يجمعون مِنْ حطامِ الدنيا الفانية.

جنـــــة السـنة

٣- مِنَ الضلالِ العظيم الذي اقترفه البشرُ عَبْرَ تاريخهم تحريمُ ما أَحَلَّهُ اللهُ تعالى، وتحليلُ ما حَرَّمَهُ، ولا تخلو أُمَّةٌ كافرةٌ مِنْ هذه الضلالةِ.

٤- الذين افتروا على الله تعالى الكذبَ بالتحليل والتحريمِ مصيرُهم يومَ القيامةِ أليم شديدٌ.

٥- عِلْمُ الله تبارك وتعالى محيطٌ بالناس، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرضِ ولا في السماءِ، وقد دَوَّنه ربُّ العزة عندَه في كتابٍ مبينٍ، هو اللوْحُ المحفوظُ.

٦- أولياءُ الله تعالى لا خوفٌ عليهم، ولا هم يحزنون، وهم الذين آمنوا وكانوا يتقونَ، فكلُّ مؤمن تقيٍّ، فهو لله وَلِيٌّ.

٧- حَرَّف كثيرٌ من المسلمين المرادَ بالوليِّ، فرَفَعُوه إلى مرتبةِ النبوةِ أو مرتبةِ الأُلوهية، فنسبوا إليه عِلْمَ الغيبِ، ودَعَوْهُ واستغاثوا به من دون الله تعالى، وهذا إفك وضلالٌ، والوليُّ - كما سبق بيانه- المؤمنُ التقيُّ.

٨- انقطعت المبشراتُ الصالحةُ بموتِ الرسولِ ﷺ ، وبقيَ من المبشراتِ الرؤيا الصالحةُ يراها العبدُ الصالحُ أو تُرَى له.

جنـــة السـنة

النص القرآني التاسع من سورة يونس
اللهُ تعالى له ملكُ السمواتِ والأرضِ وآلهةُ المشركين آلهةٌ باطلةٌ ليس لها حقيقة

أولاً: تقديم

واسى اللهُ -تعالى- رسولَه ﷺ في القسمِ الأول من آيات هذا النص، فنهاهُ عن الحزنِ لما يفْتري عليه قومُهُ فاللهُ له العزَّة جميعاً، وهو قادرٌ على نَصْرِهِ وحفظِهِ، والله له ما في السمواتِ وما في الأرض، وكلُّ ما يُعْبَدُ من دونه لا حقيقةَ له، وهو قائم على الظنونِ والتخرصاتِ، وهو الذي أوجدَ سبحانه الليلَ لنسكنَ فيه، وجعلَ لنا النهارَ مبصراً، ليَبْعَثنا فيه، لنعمل فيه.

وذمَّ الذين نسبوا إليه الولدَ، وأعلمنا أنَّه غنيٌّ عن الولدِ، فاللهُ تعالى له ما في السمواتِ وما في الأرضِ، وليسَ عندَ الكفرةِ دليلٌ يدلُّ على صحةِ نسبةِ الولدِ إليه، وهؤلاءِ الذين يفترون الكذبَ على الله بدعوى نسبةِ الولدِ إليه مفترون، كذَبُوا على ربِّ العزةِ سبحانه، وهؤلاءِ يمتَّعون في الدنيا متاعاً قليلاً، ثم يعودون إلى الله تعالى، فيذيقهُمُ العذابَ الشديدَ بما كانوا يكفرون.

وفي القسمِ الثاني أمَر الله رسولَهُ ﷺ أنْ يقصَّ على قومِه طرفاً مِنْ خبر نوحٍ عليه السلام مع قومِهِ، وما كان عليه مِنَ القوةِ والإيمانِ في مواجهةِ قومِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ
إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ
ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم
مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ

جنـــــة السـنـــة

اقْضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ
مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [يونس:٦٥-٧٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نَهْيُ الله تعالى الرسولَ ﷺ أن يَحْزَن لما يقولُه المشركون فيه:

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يحزنَ لما يقولُهُ المشركون عنه: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يونس:٦٥]، أي: كل ما يقولُه المشركون لرسولِهِ ﷺ كقولهم: إنَّه ساحرٌ وكاهن ومفترٍ، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس:٦٥]، أي: كلُّ أسباب العزَّةِ وأنواعِها لله وَحْدَهْ، فلَهُ القوةُ والغلبةُ والملكُ، وله جنودُ السمواتِ والأرضِ، وهو الذي يتولاكَ، فلا يغلبكَ أحدٌ، ولا يقدرُ عليك أحدٌ.

وقولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يونس:٦٥]، أي: السميعُ لأقوال عبادِهِ، العليمُ بأحوالهم، لا تخفى عليه خافية مِنْ أحوالهم.

٢- لله من في السمواتِ ومن في الأرض:

قال ربُّ العزة -تبارك وتعالى-: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [يونس:٦٦] و ﴿ أَلَآ ﴾ افتتاحُ كلامٍ وتنبيه، وقرَّرَ سبحانه وتعالى أنَّ له السمواتِ والأرضَ ومَنْ فيهما، ومِنْ ذلك ما يزعمُ الكفار أنَّهم يعبدُونَهُ، من الشمسِ والقمرِ والنجومِ والأصنامِ والأوثانِ، فكلُّها مخلوقةٌ مربوبةٌ لله رب العالمين، ولذلك فإنَّ المشركينَ لا يَدْعونَ على الحقيقةِ آلهةً من دونِ الله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ وإنَّما يتبعونَ الظنَّ، فالشمسُ ليست في الحقيقة إلهاً، واللاتُ ليست في الحقيقة إلهاً، والعزَّى ليستْ إلها، ومناةُ ليست إلها، ولكنَّها في الحقيقةِ حجارةٌ أو أشجارٌ، أو صورةٌ لمخلوقات، لا تضرُّ ولا تنفع، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ أي: يكذبون.

جنـــــة السـنـــة

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- جعلَ لنا الليلَ لنسكن فيه والنهارَ مبصراً:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجل- أنَّه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يونس:٦٧].

جعل الله الليل لعباده ليسكنوا فيه، أي: يستريحون فيه مما عانوه في النهارِ من تعبٍ ونصبٍ وإعياء، قال القرطبي: «﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ ﴾ أي: مضيئاً، لتهتدوا به في حوائجكم، والمُبصِرُ الذي يُبْصِرُ، والنهارُ يُبْصَرُ فيه، وقال: مُبصِراً تَجَوُّزاً وتوسُّعاً، وقال قُطْرُبٌ: يقالُ: أظلمَ الليلُ، أي: صارَ ذا ظلمة، وأضاءَ النهارُ وأبصرَ، أي: صار ذا ضياءٍ وبَصَرٍ، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ ﴾ أي: علاماتٍ ودلالاتٍ، ﴿لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ أي: سماع اعتبارٍ» [تفسير القرطبي: ٤/ ٦٥٩].

٤- تكذيب الله -تعالى- الكفار في نسبتهم الولد إليه:

أكْذَبَ اللهُ -تعالى- المشركين في نسبَتِهِمْ الولدَ إلى ربِّ العزةِ سبحانه، فقال: ﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يونس:٦٨].

أخْبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفرةَ المشركين زعموا كاذبين أنَّ اللهَ تعالى اتخذَ ولداً، فاليهودُ قالوا: عزيرٌ ابنُ الله، والنصارى قالوا: المسيحُ ابنُ الله، وعربُ الجاهلية، قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، وقد نَزَّه ربُّ العزَّة نفسه عن الولدِ بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥۖ ﴾ وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّۖ ﴾ أي: هو الغنيُّ عن الولدِ، ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ ﴾ أي: كلُّ ما في السمواتِ والأرض فإنَّه مملوكٌ، وخاضعٌ له، يسبِّح له، ويدْعوه وَحْدَهُ، فأنَّى يكون له وَلَدٌ سبحانه.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآۚ ﴾ أي: هل عندكم مِنْ دليلٍ وحجَّةٍ وبرهانٍ يدلُّ على أنَّ العزيرَ أو عيسى أو الملائكة أولادُ الله تعالى، إنَّ دعواهُمْ دعوى باطلةٌ، لا تقومُ على دليلٍ، ولا حجَّةٍ، ولا برهانٍ، ولذلك فإنَّ قولهُمْ قولٌ قائمٌ على الجهل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

وهؤلاءِ الجهلةُ الضالون الذين يفترون على الله الكذبَ بنسبتهم الولدَ إلى الله تعالى لا يفلحون، ولا يفوزون ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يونس:٦٩].

جنـــــة السـنـــــة

وقد أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّه سيمتِّع هؤلاءِ الذين افْتَرَوْا عليه الكذبَ متاعاً قليلاً في هذه الحياة، ثم يقبضُ أرواحهم، ويصيرون إليه، ثم يذيقهم العذابَ الشديدَ بسبب كفرِهم وضلالهم ﴿مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٧٠﴾ [يونس:٧٠].

٥- طرفٌ من قصة نوحٍ عليه السلام:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقصَّ على قومِهِ نبأَ رسولِ الله نوحٍ عليه السلام ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس:٧١]، ونوحٌ أوَّلُ الرسلِ، وما كان ليعلمَ رسولنا ﷺ نبأَ نوحٍ لولا وَحْيُ الله إليه، فقد كان أُميّاً لم يقرأ من كتابٍ، ولم يخطّ بالقلمِ.

والجزءُ الذي أمَرَ اللهُ تعالى أن يقصَّهُ من خبر نوحٍ تضمنه قولُهُ تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس:٧١-٧٢].

وهذا الموقفُ الذي حدَّثنا اللهُ تعالى أنَّ نوحاً وَقَفَهُ من قومِهِ، يدلُّ على ثباتٍ عظيمٍ، وجرأةٍ عظيمةٍ، واعتصامٍ بالله ربِّ العالمين، فقد قالَ نوحٌ لقومِهِ، وقد كانوا أصحابَ جبروتٍ وطغيانٍ: يا قومِ إنْ كانَ كبر عليكم، أي: عَظُمَ عليكم، وثَقُلَ عليكم مقامي بين أظهركم ﴿وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بحججه وبراهينه التكوينية والتنزيلية، ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: فإني أقابل ذلك منكم بالتوكلِ على الله والاعتمادِ عليه، ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: فأعِدُّوا أمْركم، واعزموا على ما تَنوون عليه من أمري، وقولُهُ: ﴿وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ أي: وادعوا شركاءَكم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ﴾ أي: ثم لا يكن أمركم عليكم مُلْتَبِساً مبهماً، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ أي: امضوا إليَّ، أي: أمضوا ما تحدثون أنفسَكم به فيَّ وافرغوا منه، وقولُهُ: ﴿وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾ أي: لا تؤخرون [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢٣٨].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس:٧٢]، أي: فإنْ أعرضتم عن الإيمانِ بما جئتكم بِهِ، فما سألتكم من أجرٍ،

جنـــــة السـنـة

أيْ من مالٍ أو منفعةٍ على ما جئتكم بِهِ، وما أجري إلاَّ على ربِّ العزة سبحانَه وتعالى، وقولُه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ أي: أمرني ربي -تبارك وتعالى- أنْ أكونَ من الخاضعين المنقادين لله ربِّ العالمين.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس:٧٣]، أي: كذَّب قومُ نوحٍ نوحاً، فأنجى اللهُ تعالى نوحاً ومَنْ آمن معه في السفينةِ، وجعل ذريةَ نوحٍ وذريةَ من معه خلائفَ تتناسلُ في الأرض، وأغرق الذين كذبوا من قومِ نوحٍ، وقد أمر اللهُ تعالى رسوله ﷺ أن ينظر في عاقبة المنذرين.

٦- إرسالُ الله تعالى الرسلَ من بعدِ نوحٍ:

أرسل اللهُ تعالى الرسلَ من بعد نوحٍ، قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [يونس:٧٤]، أي: أنَّ الله تعالى بعثَ من بعد رسولِهِ نوحٍ ﷺ رسلاً، كهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم، أرسلَ كلَّ رسولٍ منهم إلى قومِه، فجاءَ كلَّ أمةٍ رسولُها بالبيناتِ، أي: بالأدلة والحججِ البينات، وأخبرتعالى أنَّ المكذبين من هذه الأمم ما كانوا ليؤمنوا بما كذَّبوا به مِنْ قبل، لأنَّ اللهَ تعالى قَضَى وكتبَ عليهم الكفرَ، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ أي: كما طبع اللهُ تعالى على قلوب أولئك المعتدين كذلك يطبعُ اللهُ على كلِّ قلوب المعتدين أمثالهم مِنْ غيرهم، فلا يؤمنون حتى يَرَوْا العذابَ الأليم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ لا يَحْزُنَهُ قولُ الكافرينَ الذي يفترونه ويختلقونه عليه، فاللهُ تعالى قادرٌ على أن يكْبِتَهُم ويقهرَهُمْ، وعِلْمُه وسمعه محيطٌ بهم.

٢- الله -تبارك وتعالى- لهُ السمواتُ والأرضُ وكلُّ ما فيها، ومِنْ ذلك ما يعبدُه الكفارُ مِنَ الشمسِ والقمرِ والنجومِ والأصنامِ والأوثانِ، فجميعها مخلوقةٌ مربوبةٌ، وما يدَّعونه فيها من الألوهية إنما هو ظَنٌّ باطلٌ، وليس لها شيءٌ من حقيقة الألوهية.

٣- اللهُ تعالى وحده هو الذي جعل لعبادِه الليلَ، ليجعله سكناً لهم، وجعلَ النهارَ ليعملوا فيه، والليلُ والنهار آيتان من آياتِ الله.

جنـــــة السـنة

٤- ذمَّ اللهُ تعالى الذين كَذَبُوا عليه، ونسبوا إليه الولدَ، واللهُ تعالى غنيٌّ عن الولدِ، فالسموات والأرض وما فيهما وما بينهما له، وليس عندهم دليلٌ يدلُّ على صحةِ نسبةِ الولدِ إلى ربِّ العزةِ، فهم كَذَبةٌ مفترون.

٥- الذين كذبوا على ربِّ العزة ونسبوا إليه الولدَ، يمتَّعون في الدنيا متاعاً قليلاً، ثم يعودون إلى ربِّ العزة، فيعذِّبهم عذاباً شديداً.

٦- أمر الله تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يتلو على قومِهِ طرفاً من خبر نوحٍ عليه السلام ، وهذا مِنْ الأدلة الصادقةِ على صحة نبوتِهِ، فنوحٌ أوَّل الرسلِ، وقد أعلم اللهُ رسولَه بخبره، فدلَّ ذلك على صحة رسالته.

٧- مدى ما كان عليه نوحٌ مِنَ شجاعةٍ وإيمان في مواجهةِ قومِه، بحيث تحدَّاهم جميعاً متوكلاً على الله معتمداً عليه.

٨- أعلم نوحٌ عليه السلام قومَه أنَّهم إنْ أعرضوا عنه، فإنَّه لا يسألهم أجراً على ما جاءهم به، وكذلك كلُّ الرسلِ والصادقينِ من أتباعهم، لا يسألون على إبلاغِ الحقِّ أجراً.

٩- نجَّى اللهُ نوحاً والمؤمنين معه، وأهلك الكافرين.

١٠- أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ مِنْ بعد نوحٍ إلى أقوامهم بالحجج البينات، وقد أصرَّ الكثير منهم على لزوم الكفر والاستمرار عليه.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني العاشر من سورة يونس
قصة موسى وهارون مع فرعون وقومه

أولاً: تقديم

أعلَمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذا النصِّ والنصِّ التالي له طرفاً من نبأ موسى وهارون مع فرعونَ وملئه، وكيف قابلوا دعوتهما، وزعموا أنَّ ما جاء به موسى هو السِّحر، وكيف نازل موسى السحرةَ غير هيَّاب ولا وَجِلٍ، وكيف أبطل اللهُ سِحْرَ سحرةِ فرعون، وأعلمنا ربُّنا عن قِلَّة الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون، فقد كان فرعون جباراً طاغياً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَـٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّـٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يونس:٧٥-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بعث اللهُ تعالى موسى وهارون من بعد الرسلِ الذين أرسلهم من بعد نوح:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه بعثَ من بعدِ الرسلِ الذين أرسلهم من بعد نوح كهودٍ وصالحٍ وشعيبٍ وغيرهم بَعَثَ موسى وهارونَ إلى فرعونَ وملئه ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَـٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَـٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس:٧٥]. وقد أرسلهما -تبارك وتعالى- بآياته الكونية كالعصا واليد، وآياتِه المنزلةِ، وهي التوراةُ، فاستكبروا عن الإيمان بها كلِّها، وكفروا بما جاءَهم من الآيات ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يونس:٧٥].

جنـــــة السـنـــة

٢- زعم فرعونُ وملؤه أنّ ما جاءَهم به موسى سحر:

لما جاءَ موسى ﷺ فرعونَ وملأه بالآياتِ العِظام التي هي حقٌّ، زعموا كاذبين أنَّ ما جاءَهم به من الحقِّ سحْرٌ ظاهرٌ بيِّنٌ، ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يونس:٧٦].

أي: فلما جاءَهم الحقُّ من عند الله تعالى، قال فرعون وملؤُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ إنَّ ما جئت به يا موسى مما تسميه حُججاً وبيناتٍ هو سِحْر، يبينُ لمن رآه وعاينه أنّه سِحْرٌ لا حقيقة له. ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يونس:٧٧] قال ابن جرير: «﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ من قِيل موسى منكراً على فرعونَ وملئِه قولهم للحقِّ لما جاءَهم: سحر، فيكونُ تأويلُ الكلام حينئذٍ: قال موسى لهم: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ﴾ وهي الآيات التي أتاهم بها من عند الله حجّةً له على صدقِهِ سحرٌ، أسحر هذا الحقُّ الذي ترونه؟ فيكون السحرُ الأولُ محذوفاً اكتفاءً بدلالةِ قولِ موسى: ﴿أَسِحْرٌ هَٰذَا﴾ على أنه مراد في الكلام. ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ يقولُ: ولا ينجحُ الساحرون، ولا يبقون» [تفسير الطبري ١٥/ ١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس:٧٨]. قال فرعونُ وملؤُه لموسى: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا﴾ أي: لتَصْرفنا وتلوينا ﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي: مِنَ الدِّين، ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فسَّر أئمةُ التفسير الكبرياءَ بألفاظٍ متقاربةٍ، فمن ذلك: العظمةُ، والملكُ، والسلطانُ، والطاعةُ، وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ أي: بمُقِرّين أنكما رسولان أُرْسلتما إلينا.

٣- المواجهةُ بين موسى والسحرة:

سبقَ الكلامُ على قصة السحرة مع موسى في سورة الأعرافِ، وسيأتي الكلام عليها في سورة طه وسورة الشعراء، وقد ذكر ربُّنا طرفاً منها في هذا الموضع فقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس:٧٩] ذكر ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ فرعونَ، وهو الحاكمُ في أرض مصر في ذلك الزمان أمر جنده أن يجمعوا له مِنْ مدن مصر كلَّ ساحرٍ عليمٍ بالسحر، ليبطلَ بسحرهم ما جاءَ به موسى مما أرسله الله تعالى به، ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يونس:٨٠]، أي: فلما جمع فرعون السحرةَ مِنَ المدائن، ونزل الفريقان إلى

جنــــــة السـ ــــنة

الميدان، والناس قد اجتمعوا في يوم الزينة، قال لهم موسى عليه السلام مُسْتَخِفّاً بهم وبسحرهم: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: ألقوا ما جئتم به مِنْ حبالٍ وعصيٍّ، ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ۖ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس:٨١-٨٢]، فلما ألقوا حبالَهُمْ وعصيَّهُمْ قال موسى عليه السلام للسحرة: ما جئتم به هو سِحْرٌ باطلٌ بيِّنُ البطلان، والله تعالى سيبطلُ هذا السِّحْر، فالله تعالى لا يُصْلِحُ عملَ المبطلين، ولا شكَّ أنَّ السحرةَ مِنَ المبطلينَ المفسدينَ، ويحقُّ اللهُ تعالى الحقَّ بكلماتِهِ، ولو كره المجرمونَ، ومِنَ المجرمين فرعون وملؤُه.

وقد بيَّنَ اللهُ تعالى في مواضعَ أخرى أنَّ عصا موسى عندما ألقاها في ميدانِ النزال ابتلعتْ حبالَهم وعصيَّهم، وبقيتْ في الميدانِ وحدها، فأُلْقِيَ السحرةُ ساجدين، وأعلنوا إيمانَهم بربِّ موسى وهارون، وغُلِبَ فرعون ومَلَؤُه، وانقلبوا صاغرين.

٤- قلّةُ عدد من آمن من قومِ فرعونَ بموسى عليه السلام:

بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا قلةَ عدد الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون، فقال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [يونس:٨٣].

أخبرنا ربُّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنَّه لم يؤمن لموسى عليه السلام إلا ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ وهم الأحداثُ والشبابُ، وقد آمن هؤلاءِ القلةُ من الفتيةِ على خوفٍ من فرعون وملئِه، أن يرُدَّهم إلى الكفرِ، ففرعونُ كان طاغيةً جبّاراً مسرفاً في التمردِ والعلوِّ، وكانت له سطوةٌ ومهابةٌ، وتخاف رعيته منه خوفاً شديداً، وقد أعلمنا ربنا بأنَّ اثنين من قوم فرعون آمنا بموسى هما زوجتُه، والثاني مؤمنُ آل فرعون، ولم يعلمنا بالذريةِ التي آمنتْ به من قومِ فرعونَ.

٥- موسى عليه السلام يطلب من قومِهِ أنْ يتوكلوا على اللهِ في مواجهةِ فرعونَ:

طلب موسى عليه السلام من قومِهِ في أثناء المواجهة مع فرعون أنْ يتوكلوا على ربِّ العزة، ويعتمدوا عليه، إن كانوا ممن أسلم دينه لله تبارك وتعالى، فأعلنوا توكُّلَهُمْ على الله ربِّ العالمين، ودَعَوْا اللهَ تعالى أن لا يجعلهم فتنةً للظالمين ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٤-٨٦].

جنـــــة الســـــنة

وهذا الذي أرشدَ إليه نبيُّ الله موسى قومَهُ في أثناء المواجهةِ مع فرعون، هو الذي على المؤمنين أن يأخذوا أنفسهم به في مواجهة الظلمةِ والطغاةِ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]. وقد قال اللهُ تعالى لرسوله ﷺ: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل:٩]، وقد أحسن بنو إسرائيل الإجابةَ، ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وقالوا: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أي: لا تُظْفِر فرعون وملأه بنا، ولا تُسَلِّطهم علينا، فإنهم إن سُلِّطوا علينا، ظَنُّوا أنهم على الحقِّ، ففتنوا بذلك، فيقولُ فرعون وملؤُه: لو كانوا على حقٍّ ما عُذِّبوا، وما سُلِّطْنا عليهم.

وقولهم: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: خلصنا برحمتك مِنَ القوم الذين كفروا بالله ربِّ العالمين، وكفروا بالمرسلين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلَمنا اللهُ -تعالى- أنَّه أرسل رسولَهُ موسى وهارون عليهما السلام بعد الرسل الذين أرسلهم من قبلهم إلى فرعون وملئِه وأرسل معهما آياته الدالة على صدقهما، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين.

٢- ادَّعى فرعونُ وملؤُه أنَّ ما جاء به موسى مِنَ الآياتِ سحرٌ، فأنكر موسى عليهم دعواهم، وقرَّر موسى في حواره معهم أنَّ السحرة لا يفلحون، لأنَّ عملهم قائم على باطل.

٣- ادَّعى فرعونُ وملؤه أنَّ موسى جاءَ بما جاءَ به ليصرفهم عن دينِ آبائِهم وتراثهم، وليكون له ولقومِهِ الملكُ، وقرَّروا أنَّهم لن يصدِّقوا بما جاءَهم به.

٤- جمع فرعونُ السحرةَ الحاذقين مِنْ كلِّ أنحاءِ المدنِ المصريةِ، فقال لهم موسى في ميدانِ النزالِ مستخفّاً بهم: ألقوا ما أنتم ملقون، وقال لهم: ما جئتم به السحرَ، واللهُ سيبطله، وكذلك كان الأمرُ.

٥- مع أنَّ الآياتِ التي جاء بها موسى كثيرةٌ، وهي في غايةِ الوضوحِ والظهورِ، فلم يُؤْمن مِنْ قومِ فرعون إلا مجموعةٌ قليلةٌ مِنَ الشباب صغارِ السنِّ في حال خوفهم من فرعون وملئه، فقد كان فرعون جبَّاراً طاغياً.

جنـــــة السـنـــــة

٦- أمَرَ موسى قومَه في مواجهته مع فرعون أنْ يتوكلوا على الله ربِّهم، فاستجابوا ودَعَوُا اللهَ ربَّهم أنْ لا يجعلهم فتنةً للظالمين، وأن ينجيهم برحمته مِنَ القومِ الكافرين، وكذلك يجبُ أن يكون شأنُ المؤمنين في مواجهتهم للظالمين.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة يونس
دعاءُ موسى وهارونَ على فرعونَ وإنجاءِ الله بني إسرائيلَ وإغراقِ فرعونَ وقومِهِ

أولاً: تقديم

أعلمنا اللهُ -تعالى- بالمزيدِ من أخبارِ موسى عليه السلام مع فرعون وملئه في هذه الآياتِ، فقد أذن اللهُ لبني إسرائيلَ أن يُصَلُّوا في بيوتهم، لأنَّ فرعون دمَّرَكنائسهم، وضيَّقَ عليهم في عبادتهم، وأعلمنا ربُّنا أنَّ موسى دعا على فرعونَ وملئِه أن يطمسَ على أموالهم، ويَشْدُدَ على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يَرَوْا العذابَ الأليمَ، فاستجابَ الله دعوتَه ودعوةَ أخيهِ، وبيَّن لنا ربُّنا كيف أنْجا بني إسرائيل بأنْ شَقَّ لهم طريقاً في البحر، سَلَكوهُ، فنَجَوْا، وسلكه فرعونُ وجندُه، فانطبق عليهم، وأغرقهم، وقد آمن فرعونُ لما أدركه الغرقُ، ولكنَّ الله لم يقبل منه إيمانَه بعد حلولِ العذابِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟
ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ
أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ
ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا
لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ
رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [يونس:٨٧-٩٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ -تعالى- موسى أن يأمُرَ قومَهُ أن يتخذوا لهم بمصرَ بيوتاً:

أوحى اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ موسى وأخيه هارون عليهما السلام أنْ يأمرا قومهما أنْ يتبوَّءُوا لقومهما بمصر بيوتاً، وأمرهما أن يجعلا بيوتَهُمْ قبلةً ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن

جنـــــة السـنة

تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يونس:٨٧]، وقوله: ﴿تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ أي: اتخذا لقومكما في مصرَ بيوتاً، وأوحى إليهما أنْ يجعلا بيوتَهم قبلةً، أي: اجعلوها مساجدَ، وصلُّوا فيها، ذلك أن فرعون أمَرَ بمساجد بني إسرائيلَ، فخربت كلُّها، ومنعوا مِنَ الصلاة فيها، وكانوا لا يصلُّون إلا في الكنائس، فأُمروا أن يتخذوا مساجدَ في بيوتهم، ويصلُّون فيها خوفاً من فرعون [زاد المسير: ٤/ ٥٤]، وذهبَ بعضُ المفسرين إلى أنَّ المراد بقولِهِ: ﴿قِبْلَةً﴾ أي اجعلوا بيوتكم قِبَلَ القبلةِ، أي: وجِّهوها جهةَ القبلةِ، والأولُ أصح، لأنه أضاف البيوتَ إليهم، أي: بيوتكم التي تسكنوها، وتخريبُ فرعون المساجدَ ليس ببعيدٍ عنه، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ أمرهم اللهُ تعالى أن يقيموا الصلاةَ التي فرضها عليهم، بالصفاتِ التي وصفَها، وأمره أنْ يبشِّر المؤمنين بما أعدَّه لهم مِنَ الأجرِ والمثوبةِ.

٢- موسى يدعو على فرعونَ وملئه:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ موسى دعا على فرعون وملئه ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس:٨٨].

قال موسى عليه السلام داعياً ربَّه -تبارك وتعالى- على فرعونَ وملئِه، لما أَبَوْا قبولَ الحقِّ، وأصرُّوا على كفرِهِمْ وضلالهِمْ ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهذا يدلُّ على مدى الثراءِ الذي كان ينعمُ به فرعون وملؤُه، فقد كانت الأنهارُ تجري من تحتهم، وكان لهم مُلْكُ مصر، وكان عندهم مِنَ الذهبِ والفضةِ والجواهرِ واللآلئِ الشيءُ الكثيرُ، وقوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ اللام في قوله: ﴿لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾ كما قال ابن جرير: لامُ كيٍّ، ومعنى الكلام: ربنا أعْطَيْتَهُمْ ما أعْطَيْتَهم مِنَ زينةِ الحياة الدنيا والأموالِ لتفتنهم فيه، ويضلُّوا عن سبيلك، عقوبةً منك [تفسير ابن جرير الطبري: ٥/ ٤٢٥٤].

وقد دعا موسى عليه السلام فقال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ دعا موسى ربَّه أن يطمسَ على أموالهم، والطموسُ المسخُ للشيءِ، وطَمْسُ الشيءِ إذهابُهُ عن صورتِهِ والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها، فالبساتينُ تذوي وتيبسُ، والعماراتُ والبناياتُ تُدمَّرُ وتُخَرَّبُ، ومواضعُ حفظِ الأموالِ يخسفُ بها، وقوله: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: واطبع عليها وقسِّها حتى لا

جنـــــة السـنة

تلينَ، ولا تنشرحُ بالإيمانِ، وقد أجابَ الله -تعالى- دعوةَ موسى ﷺ التي أمَّن عليها أخوهُ هارون، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس:٨٩].

قال اللهُ تعالى ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ والداعي هو موسى، ولكنْ لمَّا أمَّنَ هارون على الدعوةِ كان مشاركاً لموسى فيه، ولهذا فإذا دعا الداعي، وأمَّن أقوامٌ على دعوتِهِ كانوا له شركاءَ فيها، وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ أي: كما أجيبت دعوتكما فاستقيما على أمري، ولا تسلكا سبيلَ الجهلة الذين لا يعلمون شرعَ الله ودينَهُ.

٣- إنجاءُ اللهِ -تعالى- موسى وقومَهُ وإغراقُه فرعونَ وجندَهُ:

أعلمنا اللهُ -تبارك وتعالى- بالعاقبةِ التي صارَ إليها موسى وقومُهُ وفرعونُ وجندُهُ، فقال: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس:٩٠].

فصَّل ربُّ العزَّةِ -سبحانه- القولَ في خروج بني إسرائيل في ظلمة الليل حتى وصلوا مع شروقِ الشمس إلى ساحلِ البحر، وأتبعهم فرعونُ وجنودُهُ، فظنَّ بنو إسرائيل أنَّ فرعونَ مدركُهُم ومحيطٌ بهم، فأمَرَ اللهُ تعالى موسى أن يضربَ البحرَ بعصاه، فضربه فانفلق، فدخله موسى ومَنْ معه، وجاوز اللهُ ببني إسرائيلَ البحرَ، فدخل فرعونُ وجندُه البحرَ وراءَهم ﴿بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ والبغيُ: طلب الاستعلاءِ بغيرِ حقٍّ، والعَدْوُ: الظُّلمُ، فانطبقَ البحرُ عليهم، وأخذهم اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، فإذا هذا الفرعونُ الجبارُ الغاشمُ، قد تحوَّل إلى مخلوقٍ ضعيف، تطيحُ به الأمواجُ، وتغرقُهُ المياه، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ لقد آمن فرعون عندما نزلَ به العذابُ، وحلَّ به الموتُ، آمن بالإله الذي كان يقرُّ به بقلبِهِ، ويأبى لسانُه أن يقرَّ به، آمن بإلهِ بني إسرائيل وقد خرجَ وراءَهم بجيشِهِ ليدمِّرهم، ويهلكهم، وأعلن أنَّه من المسلمين.

والإيمانُ لا ينفع إذا نزلَ العذابُ، ولذلك قال اللهُ تعالى لذلك الفرعونِ الطاغيةِ الذي أحاط به العذابُ: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يونس:٩١]. الآن يا فرعونُ تؤمن وقد نزلَ بك عذابي وغضبي، وكنتَ عاصياً مِنْ قبل، وكنتَ من المفسدين ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [غافر:٨٥].

جنـــــة السـنة

وعن ابن عباس أنَّ النبيَّ ﷺ لما أغرق فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس:٩٠]، فقال جبريل: «يا محمدُ، فلَوْ رأَيتني، وأنا آخُذُ من حالِ البحْرِ فأدُسُّهُ في فِيهِ مَخافةَ أن تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ» [رواه الترمذي: (٣١٠٧) وقال: هذا حديث حسن، وهو حديث صحيح بما بعده عند الترمذي، وقال الترمذي بعد الحديث (٣١٠٨) هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، والصواب أنه صحيح موقوفاً على ابن عباس. انظر مسند الإمام أحمد (٢٢٠٣)].

٤- أنجى اللهُ تعالى فرعونَ ببدنِهِ ليكونَ لمنْ خلفه آية:

أعْلَمَ ربُّ العزةِ فرعونَ وهو في سكراتِ الموتِ في الغرقِ أنه يُنْجيْهُ ببدنِهِ ليكون آيةً لمن خلْفَهُ ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٢]. أخبر اللهُ تعالى فرعونَ أنهُ يَنَجِّيهِ بعد غرقه ليكونَ لمن خلفه آيةً، فقد كان فرعونُ قد ادَّعى الربوبية، ونَصَّب نفسه إلهاً معبوداً فقذفَ به البحرُ عند أرجلِ بني إسرائيل، ليوقنوا أنه عبد مربوبٌ مخلوقٌ ضعيفٌ، فكان آيةً لبني إسرائيل، وقد يكون الأمر أوسعُ من ذلك، حيث تتداولُ قصةُ هلاكِهِ عبر القرونِ لمن يأْتي بعده مِنَ الأمم، وقد يرادُ بالأمر أوسع من ذلك، فقد اكتشفت جُثَّة فرعون موسى المحنطةُ، ووضعتْ في المتحف في مصر، يشاهدُها من يريد أنْ يراها، وقد كنتُ ممن شاهَدَها في المتحفِ الذي تحفظُ فيها الجثثُ المحنطةُ في القاهرةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ومن ذلك كثير مِنَ الذين يشاهدون بَدَنَ هذا الفرعون، لا يذكرون ما في عرضه هذه الأيامُ من الآياتِ البيناتِ، ويمرُّون من أمامِ جثته غافلين عما فيه من العبرِ والدلائلِ الواضحاتِ.

٥- بَوَّأَ اللهُ تعالى بني إسرائيل مُبوَّأ صدق:

قال ربُّ العزة سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس:٩٣]. يريدُ اللهُ تعالى بقوله: ﴿بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أنزلناهم منزلَ صِدْقٍ، وهذا وقعَ لبني إسرائيل كثيراً بعد هلاكِ فرعونَ، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف:١٣٧]، وقال: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء:٥٧-٥٩].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ بني إسرائيلَ كانوا جميعاً يؤمنون بمحمدٍ ﷺ، ويخبرون الناسَ بصفاتِهِ، ويدَّعون أنَّهم سيؤمنون به عندما يُبْعَثُ، واستقرَّت قبائلُ منهم في الجزيرةِ العربيةِ، وفي مدينةِ يثرب بالذاتِ التي ستكون مهاجرَ ذلك النبيِّ، حتى إذا بُعِثَ رسولُنا ﷺ وعلموا أنَّه مِنَ العربِ اختلفوا، فآمن به قليلٌ منهم، وكفرَ به أكثرُهُمْ، وقد أخْبرَ ربُّ العزةِ -سبحانه- أنَّه يقضي بينهم يومَ القيامةِ ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ فرعونَ ضَيَّقَ على بني إسرائيلَ فهدمَ كنائِسهم، وحَجَر عليهم في عبادتهم، فأذن اللهُ لهم أنْ يصلوا في بيوتهم.

٢- دعا موسى عليه السلام الله أن يطمسَ على أموال بني إسرائيلَ، وأن يشدُدَ على قلوبهم حتى يروا العذابَ الأليم، فاستجابَ اللهُ دعاءَه.

٣- كان موسى يدعو، وهارونُ يؤمِّن على دعائه، فكان شريكاً له في الدعاءِ، ولذلك قال الله تعالى لهما: ﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا ﴾ وهذا يدلُّ على أن المأمومين شركاءُ في قراءةِ الفاتحةِ للإمام، لأنهم أمَّنوا على قراءته، ولا يحتاجون إلى قراءةِ الفاتحةِ خلفه.

٤- شقَّ اللهُ تعالى لبني إسرائيل البحرَ، فاجتازوه، ونَجَوْا، وسلكه فرعونُ بجنده، فانطبق عليهم، ولما أدْرك فرعونَ الغرقُ آمن، ولكنَّ إيمانَهُ لم يقبل، فالإيمانُ لا يقبل بعد حلولِ العذابِ.

٥- كان بنو إسرائيل قبل بعثةِ رسولنا ﷺ يبشِّرون ببعثته، ويذيعونَ صفاتِهِ التي أنزلها اللهُ تعالى في كتبهم، فلما بُعِثَ من غيرهم كفروا به، وحرَّفوا ما في كتبهم مِنْ صفاتِهِ وكتموها ظلماً وعُلُوّاً.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثاني عشر من سورة يونس
الإيمانُ لا يكونُ إلا بإذنِ الله ومشيئته

أولاً: تقديم

أَمَرَ اللهُ تعالى رسولَنا ﷺ أنه إذا كان شاكّاً فيما أنزل اللهُ إليه أن يسأل مُؤْمني أهلِ الكتابِ عما حَوَتْه كتبهم مِنْ صفاتِهِ، ولم يكن الرسولُ ﷺ شاكّاً، ولم يسْأل، وقد قرَّر له ربُّ العزةِ سبحانه أنَّه جاءَه الحقُّ من ربِّه، ونهاه أنْ يكون من المرتابين الشاكين.

وأعلمنا ربُّنا -سبحانه أنَّ الذين حَكَمَ بكفرهم لا يؤمنون حتى يُنْزِلَ بهم العذابَ الأليمَ، ولا ينفعهم الإيمانُ في ذلك الوقت.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لم ينفعْ قريةً إيمانُها بعد أن كادَ أن ينزلَ بها العذابَ إلا قريةَ يونس بن متَّى، لما آمنوا رفعَ العذابَ عنهم.

وأخبرنا ربُّنا -سبحانه- أنه لو يشاءُ لآمن كلُّ مَنْ في الأرض جميعاً، ولذلك فسنته في خلقه أنْ يكون بعضُهم مؤمناً، وآخرُ كافراً.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ
مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ
ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ
يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ
عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَـَٔامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ
أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ
ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٤-١٠٠].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ رسوله ﷺ إذا كان في شكٍّ مما أوحاه إليه أن يسأل علماء أهل الكتاب:

أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنه إنْ كان في شكٍّ مما أوحى إليه أنْ يسأل مُؤْمني أهلِ الكتابِ من قبله الذين يقرؤُون التوراةَ والإنجيلَ ﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ

جنـــــة السـنــة

ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يونس:٩٤] ولم يكن رسولُنا ﷺ يَشُكُّ في الذي أَنْزَلَ الله تعالى إليه، ولَمْ يسأل الذين كانوا يقرؤونَ التوراةَ والإنجيلَ من قبله، ولعل الصواب أنَّ الخطابَ في الآيةِ للرسولِ ﷺ والمرادُ غيرُه من أمته، والعربُ قد يخاطبون الرجلَ بالشيء، ويريدونَ غيره، على حدِّ قولهم: إيَّاك أعني واسمعي يا جارَة، قال ابنُ عباس في هذه الآية: «لم يُرِد النبيَّ لأنَّه لم يشكَّ في الله، ولا فيما أوحى إليه، ولكن يريد به مَنْ صَدَّقه، أمرهم أنْ يسألوا لئلا ينافقوا كما شكَّ المنافقون» [تفسير الواحدي:١١/ ٣١٥].

وقوله: ﴿ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَۚ ﴾ أي: المؤمنين منهم، فإنَّ الكفارَ منهم يكتمونَ الحقَّ، ويحرفونَهُ، وقد سبق بيان أنَّ أهْلَ الكتابِ مِنَ اليهودِ والنصارى كانوا يذيعون ما عندهم من نعوتِ رسولِنا ﷺ ، ويزعمون أنَّهم سَيُؤْمنون بِه، ويتبعونه عندما يُبعثُ، فلما بُعِثَ مِنَ العرب كفروا به، وكتموا وحرَّفوا ما عندهم من نعتِهِ في كتبهم.

وقوله: ﴿لَقَدۡ جَآءَكَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾ لقد جاءَك الحقُّ الذي لا كذبَ فيه، ولا مراءَ، وهو مِنْ عند الله، فهو نبيٌّ مرسلٌ، والقرآنُ منزلٌ عليه من عندِ الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ أي: فلا تكونن مِنَ الشاكين.

ونهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكون مِنَ الذين كذَّبوا بآياتِ الله، فيكونَ مِنَ الخاسرين ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس:٩٥] وقرَّر سبحانه أنَّ الذين حَقَّت عليهم كلماتُ الله لا يؤمنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يونس:٩٦] ومعنى حَقَّتْ: وجبتْ عليهم كلمةُ العذاب، والخلودُ في النار، فهؤلاءِ لا يؤمنون، ﴿ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يونس:٩٧] أي: مهما جاءَتهم الآياتُ لا يؤمنون، حتى يَنْزِلَ العذابُ بهم، وعند ذلك لا ينفع نفسٌ إيمانها، وذلك كما وقعَ مع فرعون، فقد آمن عندما نزلَ به الغرقُ، فلم ينفعْه إيمانُهُ.

٢- لم توجدْ قريةٌ آمنت قبلَ حلولِ العذاب بها فنفعها إيمانها ممن سلف من القرى إلا قوم يونس:

قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس:٩٨].

والمعنى: فما كانت قريةٌ آمنَت عند معاينة العذاب فنفعها إيمانها إلا قومَ يونس، كفروا، فأنذرهم نبيُّهُم أنَّ العذاب سينزل بهم، وخرجَ من بين أظهرهم، فعاينوا بوادرَ العذابِ، فتابوا

جنـــــة الســـــنة

إلى الله تعالى توبةً صادقةً، وآمنو وجأروا إلى ربِّ العزَّة، فكشف ربُّك عنهم عذابَ الخزي في الحياة الدنيا، ومتَّعَهم إلى حين، أي: أخَّر في آجالهم.

ويونسُ ﷺ أرسلَهُ اللهُ -تعالى- إلى أهل مدينة نينوى، وهي اليومَ مدينةُ الموصلِ التي في شمالِ العراق، وكانوا مائة ألف أو يزيدون.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية [٣/ ٥١٤]: «قال قتادةُ في تفسير هذه الآية: لم ينفَعْ قريةً كَفَرت ثم آمنَت حينَ حَضَرها العذابُ فتُرِكَت إلا قومُ يونُسَ، لما فَقَدوا نبيهم وظَنُّوا أنَّ العذابَ قد دنا منهم قذفَ الله في قلوبهم التوبةَ، ولبسوا المُسُوح، وفَرقوا بين كلِّ بَهيمةٍ وولدها، ثم عَجُّوا إلى الله أربعينَ ليلة، فلما عَرَف الله منهم الصِّدق من قلوبهم، والتوبةَ والندامة على ما مضى منهم كَشَف الله عنهم العذابَ بعد أن تدلى عليهم، قال قتادة: وذُكِر أن قومَ يونُسَ كانوا بنِينَوَى أرضِ الموصِلِ، وكذا رُوِي عن ابن مسعود، ومجاهدٍ، وسعيد ابن جُبير، وغير واحد من السَّلَفِ».

٣- لو شاءَ اللهُ تعالى لآمنَ من في الأرض جميعاً:

كان رسولُ الله ﷺ يحبُّ أنْ يؤمن الناسُ كُلُّهم، فأعلمه اللهُ تعالى عن سنتِهِ في خلقه في إيمان العباد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس:٩٩].

قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ لو شاءَ ربُّك لآمن كلُّ الناسِ الذين في الأرضِ، فاللهُ قادرٌ على ذلك، ولا يُعْجِزُه ذلك، ولكنَّ الله شاءَ أنْ يؤمنَ بعضُ الناسِ، ويكفرَ آخرون، وسأل رسولَه قائلاً: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ أي: أنت لا تستطيعُ أنْ تكره الناسَ على الإيمانِ، فليس ذلك في قدرتك، وهذا لله تعالى وَحْدَهُ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [يونس:١٠٠] فدخول العبدِ في حوزةِ الإيمان لا يكون إلا بإذن الله تعالى، والرجسُ الذي يجعله اللهُ على الذين لا يعقلون العذابُ، وفسَّره ابنُ عباسٍ بالسَّخَطِ، لأنَّه سببُ العذابِ [تفسير الواحدي: ١١/ ٣٢٥] وفسَّره بعضهم بالنجس والقذر، ومعنى ﴿لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: لا يعقلون عن الله أمره ونهيه وما يدعوهم إليه.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كُتُب اليهودِ والنصارى وهي التوراةُ والزبورُ والإنجيلُ تحوي الكثيرَ مِنَ البشائر برسولِنا ﷺ، ولكنهم يكتمونها ويحرِّفونها ظلماً وعلواً، ولكنَّ المؤمنين من أهل الكتابِ يُقِرُّون ويعترفون بها.

٢- الذين كتب اللهُ عليهم الكفرَ لا يؤمنون مهما جاءَتهم الآياتُ إلا بعد أنْ ينزلَ بهم العذابُ، وعند ذلك لا ينفعُ الإيمانُ.

٣- أعْلَمَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنّه لم ينفعْ قريةً أو مدينةً إيمانُها بعد أنْ كاد أنْ يحلَّ بها العذاب إلا قوم يونس، فإنَّ نبيهم يونس أخبرهُمْ أنَّ العذابَ سيحلُّ بهم بعد أيام معدودةٍ، وخرج من بينهم، فأفاقوا من غفلتهم، وآمنوا، واستغاثوا بالله، وجأروا إليه، فكشفَ العذابَ عنهم.

٤- اللهُ -تعالى- قادرٌ على أن يجعل الناس جميعاً يؤمنون، ولكنَّ اللهَ لم يشأْ ذلك، ولا يستطيع أحَدٌ غيرُ الله أن يجعل الناسَ كلَّهم مؤمنين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الثالث عشر من سورة يونس
أمَرَ اللهُ تعالى الناس بالنظر في الآيات المبثوثة في السماواتِ والأرض

أولاً: تقديم

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه أن ينظروا إلى الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرض، وأخبر أنَّ الآياتِ والنذرَ لا تغني عن قوم لا يؤمنون، وأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أن مكذبي هذه الأمة وكفارَها لا ينتظرون إلا أنْ يَحِلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بالمكذبين من قبلهم، وأمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للشاكين المرتابينَ: إنهم إن كانوا في شكٍّ من دينه، فإنه لا يعبدُ الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ولكن يعبدُ اللهَ وَحْدَهُ الذي يتوفى عبادَهُ، ونهاه أنْ يعبدَ الآلهةَ الباطِلَةَ التي لا تضرُّ، ولا تنفعُ. وأعلم اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّه إنْ يَمْسَسْه بضرٍّ فلا كاشفَ له إلا هو، وإن يردْهُ بخيرٍ فلا رادَّ لفضلِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يونس

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ
يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي
رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ
ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ
لِلدِّينِ حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا
مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ
بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ
ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ
وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس:١٠١-١٠٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أمَرَ اللهُ تعالى بالنظرِ في السمواتِ والأرضِ:

أمرنا اللهُ تعالى بالنظر في الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرض ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [يونس:١٠١] ففي السمواتِ المجراتُ العظيمةُ الهائلةُ، وفيها الشمسُ والقمرُ، والكواكبُ

جنـــــة الســـــنة

السيارةُ والثابتة، وينزِّل اللهُ تعالى الماءَ مِنَ السماءِ، فينبت به الزرعَ، ويُخرج أفانين الثمار والزروع والأزاهيرِ وصنوفَ النباتِ، وفي الأرضِ الإنسانُ والحيوانُ والسهولُ والجبالُ والأنهارُ والبحارُ والعيون، ولكنَّ هذه الآياتُ التي تدلُّ بذاتها على موجِدها ومبدعها لا تنفعُ الكفارَ، فإنهم يمرُّون عليها وهم عنها غافلون ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس:١٠١].

وإذا أنت نظرتَ اليومَ في عالمِ البشرِ ترى أكثرهم لا تغني عنهم هذه الآيات شيئاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

٢- تهديدُ اللهِ المكذبين من هذه الأمةِ أنْ يحل بهم ما أحلَّهُ بالمكذبين مِنْ قبلهم:

تَوعَّدَ اللهُ تعالى أنْ يُحِلَّ بالمكذبين من هذه الأمة مثلَ ما أحلَّه بالمكذبين من قبلهم، فقال: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يونس:١٠٢] أي: فهلْ ينتظرُ هؤلاءِ المكذبون بك إلاَّ مثلَ أيامِ المكذبين مِنَ الأممِ الخاليةِ، قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغيرهم، قل يا محمدُ لهؤلاءِ: ﴿فَٱنتَظِرُوٓا۟﴾ أنْ يحلَّ بكم مثلُ العذابِ الذي حلَّ بهم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ أي: إني مِنَ المنتظرين هلاكَكُمْ وبوارَكُمْ بالعقوبةِ التي تحلُّ بكم مِنَ الله. ثم أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه بعد أنْ يُهلِكَ المكذبينَ ينجي رسولَه والمؤمنين ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣] أي: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناهم والمؤمنين معهم، كذلك نفعلُ بكَ يا محمدُ وبالمؤمنين فننجيك، وننجي المؤمنين بك حقّاً علينا من غيرِ شكٍّ.

٣- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بعبادةِ اللهِ وحْدَهُ:

أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ أن ينادي الناسَ جميعاً فقال: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس:١٠٤] أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ أنْ ينادي الناسَ، ويقولُ لهم: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ ودينُهُ هو الإسلام القائمُ على عبادةِ الملكِ الديانِ ﴿فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهي الآلهةُ التي يعبدها البشرُ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ والشمسِ والقمرِ والنجومِ وغيرها، ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ أي: الذي يميتكم، ويقبضُ أرواحكم، وهذا يتضمنُ تهديدَهُمْ، لأنَّ ميعادَ عذابهم الوفاةُ، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى﴾ يتضمن النهيَ لهم عن الشكِّ في دينهِ، لأنَّه يعبدُ

جنـــــة السـنـــــة

الواحدَ الأحدَ الفردَ الصمد الذي يميتُ وينفعُ ويضرُّ، وعبادةُ مَنْ يفعلُ هذا حقٌّ، والذي ينبغي أنْ يُشَكَّ فيه، وينكرَ عليه، ما يعبدونه مِنَ الأصنامِ والأوثانِ والمخلوقاتِ.

وقد أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقيمَ وَجْهَهُ لله حنيفاً، ونهاه أنْ يكون مِنَ المشركين، ونهاهُ أنْ يدعوَ من دون الله تعالى ما لا ينفعُهُ ولا يضرُّه مِنَ الآلهةِ الباطلةِ، وأعلمه أنَّه إن فعل فإنَّه مِنَ الظالمين ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يونس:١٠٥-١٠٦].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقيم نفسَه على دينِ الإسلامِ حنيفاً، أي: مائلاً عن الشركِ والمبادئِ المنحرفةِ كاليهوديةِ والنصرانيةِ والبوذيةِ والشيوعية وغيرها. ونهاه أنْ يكونَ مِنَ المشركين ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾، ونهاه ربُّه تبارك وتعالى أنْ يدعو شيئاً مِنَ الآلهة التي لا تنفعُه في الدنيا ولا في الآخرةِ يعني بذلك المعبوداتِ مِنْ دون الله، فإنْ فعلتَ ذلك فدَعَوْتَها مِنْ دون الله فإن هذا يجعلك مِنَ الظالمين، أي المشركين.

٤- أعْلَمَ اللهُ تعالى رسولَه أنه إنْ أصابَهُ بضرٍّ فلا كاشف له إلا هو:

أعْلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه وَحْدَه كاشفُ الضرِّ ومعطي الخير ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس:١٠٧].

يقولُ اللهُ -تعالى- لرسولِهِ ﷺ وإنْ يصبك الله يا محمدُ بشدةٍ وبلاءٍ فلا كاشف لَهُ غيره، أما ما يعبدُ من الآلهة غيره، فلا تضرُّ ولا تنفع ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي: إن يردْك برخاءٍ أو نعمةٍ وعافيةٍ وسرورٍ ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فلا يستطيعُ أحدٌ أنْ يَرُدَّ ذلك الفضلَ الذي أصابَكَ به مِنَ الرخاءِ والنعمةِ والعافيةِ فاللهُ تعالى ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يصيبُ بالسراء والضراء من يشاءُ من عبادِه، وهو الغفورُ الرحيمُ.

٥- اللهُ تعالى أنزلَ الحقَّ لعبادِه فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلَّ فعليها:

قال ربُّ العزةِ مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يونس:١٠٨]، أي: نادِ يا محمدُ في الناس وقلْ لهم: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي: من عندِ الله تعالى وهو

جنـــــة السـنة

القرآنُ الكريمُ، الذي بيَّن تعالى فيه للناسِ كلَّ ما يحتاجون إليه، فمن اهتدى به فقد اهتدى لنفسه، ومن ضَلَّ فإنما ضلالُه على نفسِهِ، ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ ١٠٨﴾ أي: وما أنا بمسلَّطٍ على تقويمكم، إنَّما أمركم إلى الله، وما أن إلا رسول أبلغكم ما أرسلتُ به إليكم.

وختمَ ربُّ العزة هذه السورةَ الكريمةَ بقوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ١٠٩﴾ [يونس:١٠٩] أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ في هذه الآية أنْ يتَّبعَ ما يوحيهِ وينزلُه إليه، وأمَرَه أن يصبرَ على مخالفةِ مَنْ خالفه مِنَ الناسِ حتى يحكمَ اللهُ بينه وبينهم، وهو خيرُ الفاتحينَ بعدلِهِ وحكمته سبحانه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمَرَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنْ ننظُرَ إلى الآياتِ المبثوثةِ في السمواتِ والأرضِ، وأعلمنا -سبحانه- أنَّ هذه الآياتِ لا ينتفعُ بها القومُ الكافرون.

٢- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن المكذبين من هذه الأمة ينتظرون يوماً مثل أيامِ الذين كذَّبوا من الأمم الماضية، وأمَرَهُ أنْ يقول لهم ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ١٠٢﴾ [يونس:١٠٢]. وأعلمنا أنه في اليوم الذي ينزل فيه العذابَ بالكافرين، فإنه يُنجي رسولَه ﷺ والمؤمنين معه.

٣- أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يُعْلِمَ الناسَ جميعاً إذا كانوا في ريبٍ من دينه فإنه لا يعبد الآلهة التي يعبدونها من دون الله، ولكن يعبدُ اللهَ وَحْدَهُ الذي يتوفاهم، ويعلمهم أنه أُمِرَ أنْ يكونَ من المؤمنين.

٤- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ بالتوحيدِ، وأنْ لا يَدْعُوَ من دون الله ما لا ينفعُهُ، ولا يضرُّه، وكلُّ ما يعبدُ مِنَ دون الله، لا ينفعُ، ولا يضرُّ.

٥- اللهُ تعالى وحْدَه النافعُ الضارُّ، فإنَّه إذا مَسَّنا بضرٍّ فلا يكشفُ هذا الضرَّ أحدٌ سواه، وإنْ يُرِدْنا بخيرٍ، فلا يستطيعُ أحدٌ ردَّ خيرِه.

٦- الحقُّ من عند الله وحدَه، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسِهِ، ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها.

٧- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يتَّبعَ ما أوحاه اللهُ تعالى إليه، وأنْ يصبرَ حتى يحكمَ اللهُ بينه وبينهم.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ هُودٍ

قال ابن الجوزي: «روى ابن أبي طَلْحة عن ابن عباسٍ أنها مكيّةٌ كلُّها، وبه قال الحسنُ، وعكرمةُ، ومجاهدُ، وجابرُ بن زيدٍ، وقتادةُ، وروي عن ابنِ عباسٍ أنه قال: هي مكية إلا آية» وهي قوله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ... ﴾ [هود:١١٤] [زاد المسير: ٤/ ٧٢].

وقال أبو عمرو الداني: «مكيةٌ، وكَلِمُها ألفٌ وتسعُ مائةٍ وخمسَ عشرةَ كلمةً، وحروفها سبعةُ آلافٍ وخمسُ مائةٍ وسبعةٌ وستون حرفاً، كحروفِ يونس، وهي مائةٌ وإحدى وعشرون آيةً في المدنيِّ الأخير والمكيِّ والبصريِّ، واثنتان وعشرون في المدني الأول والشامي، وثلاثٌ وعشرون في الكوفيِّ» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٥].

وروى الترمذيُّ عن ابن عباسٍ قال: قال أبو بكر ﷺ: يا رسولَ الله قد شبتَ، قال: «شيَّبَتْني هودٌ والواقعةُ والمُرْسلاتُ وعمَّ يتساءَلون، وإذا الشَّمْسُ كُوِّرتْ» [الترمذي: ٣٢٩٧. وأورده الألبانيُّ في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وقال: صحيحٌ وذكرَ أنه خرَّجه في سلسلةِ الصحيحةِ (٩٥٥)].

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الأول من سورة هود

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾

أولاً: تقديم

آياتُ هذا النص فاتحةُ سورةِ هودٍ، التي افتتحها ربُّ العزة بالحروف المقطعةِ، وهي الحروفُ العربيةُ التي تكوَّنتْ كلماتُ القرآنِ منها، وقد أتْبَع اللهُ تعالى هذه الحروفَ بالثناءِ على القرآنِ العظيمِ، الذي أحْكَمَ اللهُ تعالى فيه آياتِهِ، ثم فصَّلها، وهو منزلٌ من عندِهِ سبحانه، وهو الحكيمُ الخبيرُ.

وقد أمرَ رسولُ الله ﷺ عبادَ الله أنْ يعبدوهُ وَحْدَهُ لا شريك له، وأخبرهم أنه لهم بشيرٌ ونذيرٌ، وأمرهم بالاستغفارِ والتوبةِ إلى الله، فإنْ فعلوا متَّعهم متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى، وأخبرهم أنَّ إلى الله مرجعهم، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، وأعلمنا ربُّنا أنَّ الكفارَ يَطْوون صدورَهُمْ على عداوةِ نبينا محمدٍ ﷺ ليستخفوا من الله تعالى، ولكنَّ فعلهم عَبَثٌ، لأنه سبحانه يعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون، وأعلمنا ربُّنا أنه يرزق كلَّ الدوابِّ التي في الأرض، وهو يعلم مستقرَّها ومستودَعَها في النهارِ والليل، وأعلمنا ربُّنا أنه خلقَ السمواتِ والأرض في ستةِ أيامٍ، وقبل خلقه السمواتِ والأرضِ كان عرشه على الماءِ، وخلق اللهُ البشرَ في الأرضِ ليختبرهم بعبادَتِهِ، ليظهرَ مَنْ هو الذي أحسنُ عملاً، وعندما يخبر الرسولُ ﷺ كفارَ قريشٍ بأنهم مبعوثون من بعد الموتِ، يزعمون أنَّ هذا الذي جاءَهم بِهِ سحرٌ مبينٌ، أي: باطل من القولِ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤ أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥ ۞وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٦ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧﴾ [هود:١-٧].

جنـــــة السـنـة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- ثناءُ الله تعالى على القرآن بأنه كتابٌ أُحكمتْ آياتهُ ثم فصلت من لدن حكيم خبير:

افتتح اللهُ تعالى هذه السورةَ الكريمةَ بالحروفِ المقطعة، وقد سبقَ الكلام على هذه الحروفِ في فاتحةِ سورة البقرة وفي غيرها من السورِ التي افتتحت بها، ثم أثنى اللهُ تعالى على الكتابِ الذي أنزله وهو القرآن، فقال: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ [هود:١]. وقد نكَّر اللهُ لفظ الكتابِ الذي أنزله فقال: ﴿كِتَٰبٌ﴾ والتنكيرُ هنا للتعظيم، أي: هذا كتابٌ عظيم، ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: آياتُهُ محكمةٌ في لَفْظِها، أي: أُحكمت آياتُه بعجيبِ النظم، وبديع المعاني، ورَصينِ اللفظِ الذي يحسم طمعَ كلِّ مفترٍ في التشبيه بهِ، وآياتُ القرآنِ كلُّها معجزةٌ غير مقدورٍ على مثلها، لبديعِ نظمها، وقوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتۡ﴾ أي: بدلائلِ التوحيد، والوعدِ والوعيدِ، والثوابِ والعقابِ.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ١﴾ [هود:١] عيَّن مصدرَ هذا القرآنِ الكريم، فهو مِنْ عندِ الله تعالى الحكيم في أقوالِهِ وأفعالِهِ، والخبيرُ: العالمُ بعواقبِ الأمورِ سبحانه. وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ﴾ [هود:٢] قال الزجاجُ: أُحكمت ثم فُصِّلت، لئلا تعبدوا إلا الله [فتح القدير: ٢/ ٦٧١] ثم أخبرهم رسولُ الله بأنه نذيرٌ وبشيرٌ، فقال: ﴿إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ٢﴾ [هود:٢] أي: ينذرُهم ويخوِّفهم من عذابِهِ لمن عصاه، ويبشِّرهم بالجنةِ والرضوانِ لمن أطاعه، وقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: مِنَ الله.

٢- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبادَه أنْ يستغفروه ويتوبوا له:

أمَرَ اللهُ تعالى عباده بالتوبة والاستغفارِ، فقال: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ [هود:٣] أي: استغفروا ربَّكم مِنْ ذنوبكم السالفة، ثم توبوا مما توقعونه من الذنوب في مقبلِ الأيام، وقوله: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: يبقيكم إلى أن يحين أجلكم، ولا يسْتَأْصِلُكُمْ بالعذاب، كما استأصل الذين من قبلكم، وقولُهُ: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي: ويُعْطِ كل ذي عملٍ صالحٍ أجرَهُ وثوابه، والفضلُ الدينُ والصلاحُ وكثرةُ الطاعةِ، وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ٣﴾ [هود:٣] وفي هذا تهديدٌ شديدٌ للذين تَوَلَّوْا عن الإيمانِ، وكذَّبوا رسلَ الله، فإنَّ عذابَ الله تعالى ينالُهم في يوم القيامة.

جنـــــة السـنة

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤﴾ [هود:٤] أي: إلى الله تعالى معادُكم، وهو قادرٌ أن يفعل بكم ما يشاء في ذلك اليوم.

٣- ثَنْيُ الكافرين صدورهم ليستخفوا مِنَ الله:

قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود:٥]. أصْلُ ﴿يَثۡنُونَ﴾ من ثنيتُ الشيءَ إذا حنَيْتُهُ وعطفته وطويتهُ، أي: يعطفونها ويطوونها على عداوةِ محمدٍ ﷺ، وقوله: ﴿لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُ﴾ أي: ليستخفوا مِنَ الله، فلا يُطْلِعُ عليه رسولَهُ والمؤمنين، وقوله: ﴿أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ أي: يستخفونَ في وقت استغشاءِ الثيابِ، وهو التغطِّي بها، وقد كانوا يقولون: إذا أغلقنا أبوابَنا، واستغشينا ثيابَنا، وثنينا صدورَنا على عداوةِ محمدٍ، فمَنْ يعلمُ بنا؟ وقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ [هود:٥]. أخبرهم ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا فائدة مِنَ الاستخفاءِ، لأنَّ اللهَ سبحانَهُ عليمٌ يعلمُ ما يسرُّونَهُ وما يظهرونه، فالظاهرُ والباطنُ عنده سواءٌ، والسرُّ والجهرُ عنده سيان، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٥﴾ أي: بالضمائر التي تشتمل عليها الصدورُ، وقيل: هي القلوب [فتح القدير: ٢/ ٦٧٢].

وقد ذهبَ ابنُ عباسٍ في تفسيرِ الآيةِ مذهباً بعيداً عمّا ذكره المفسرون، وقد مالَ ابن كثير [٣/ ٥٢٠] إلى ما ذهبَ إليه ابن عباس، وقد ساقَ البخاريُّ ما ذهبَ إليه ابن عباسٍ في ثلاثةِ أحاديثَ متوالياتٍ هي:

عن محمدُ بنِ عبَّادِ بنِ جعفرٍ: أنه سَمِعَ ابنَ عباسٍ يقرأُ: «ألا إنَّهم تَثْنَوْني صُدورُهُم»، قال: سألتُه عنها، فقال: أُناسٌ كانوا يَستَحْيونَ أنْ يتخلَّوْا فيُفْضوا إلى السماءِ، وأنْ يُجامِعوا نِساءَهم فيُفْضوا إلى السَّماءِ، فنزَلَ ذلكَ فيهم. وهذه القراءَة «تَثْنَوْني» قراءةٌ شاذةٌ، وقراءَةُ الجمهور (يَثْنُونَ).

وعن محمدِ بنِ عبَّادِ بنِ جعفرٍ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ قرأ: «ألا إنَّهم تَثْنَوْني صُدورُهُمْ» قلتُ: يا أبا العباس، ما تَثْنَوْني صُدورُهُمْ؟ قال: كان الرَّجلُ يُجامِعُ امرأتَه فيَستَحي، أو يَتَخلَّى فيَستَحي، فنزلَت: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ﴾ [هود:٥].

وقال البخاري: حدَّثنا الحُميديُّ، حدَّثنا سفيانُ، حدَّثنا عمرٌو، قال: قرأ ابنُ عبَّاسٍ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ﴾ [هود:٥] [هذه الأحاديثُ الثلاثةُ رواها البخاريُّ تحت رقم: ٤٦٨١، ٤٦٨٢، ٤٦٨٣].

جنـــــة السـنة

وهذه النصوصُ الواردةُ عن ابن عباس تدلُّ على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الصحابة الذين كانوا يكْرَهون أنْ يستقبلوا بفروجهم السماءَ عند تَخَلِّيهم، وحالَ معاشَرتِهم أزواجَهُمْ، والأوَّل أصحُّ، والله أعلم.

٤- ليس في الأرض دابة إلا على الله رزقها:

أعْلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنه ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود:٦]. والدابة كلُّ حيوان يدبُّ على الأرض، فيدخلُ فيه الإنسانُ والحيوانُ والطيورُ، وحقيقة الرزقِ: ما يتغذّى به الحيوانُ الحيُّ، ويكون فيه بقاءُ روحه، ونماءُ جسده.

وقد أعلمنا ربُّنا عز وجل في هذه الآية أنه متكفلٌ بأرزاقِ المخلوقات التي تدبُّ على الأرضِ، صغيرها وكبيرها، بحريِّها وبرِّيها، ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ أي: يعلم مَسارَها في النهارِ، ومأْواها في الليل، وقوله: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود:٦]، فاللهُ -تعالى- يعلمُ ذلك، وقد كتبه في كتابٍ مبين، أي: في اللوحِ المحفوظِ.

٥- اللهُ تعالى خلقَ السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ وكان عرشُه على الماءِ:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۗ﴾ [هود:٧].

هذا العلمُ الذي حوتْه هذه الآية من العلمِ الذي لا يعلمه البشرُ إلا من قِبَل الوَحْي الإلهيِّ الربانيِّ، وقد أعلمنا ربُّنا في هذه الآية أنه خلق السمواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ، واللهُ أعلم بمقدار تلكَ الأيامِ، وأخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أن عرشَه كان على الماءِ، فالعرشُ الذي استوى عليه كان مخلوقاً قبل السمواتِ والأرض، وكان هذا العرشُ على الماءِ، فالماءُ كان موجوداً قبل السمواتِ والأرضِ وقد جاءت عِدَّةُ أحاديث تدلُّ على ما دلَّت عليه الآيةُ، وفيها مزيدٌ من التفصيلِ، فمن ذلك ما رواه البخاري عن عمران بن حصينٍ ﷺ، قال: قال: دَخَلْتُ على النبيِّ ﷺ وعَقَلْتُ ناقتي بالباب، فأتاه ناسٌ من بني تَميم، فقال: «اقبَلُوا البُشْرَى يا بني تَميم». قالوا: قد بَشَّرْتَنا فأعطِنا -مرتين- ثم دَخَلَ عليه ناسٌ من أهلِ اليَمنِ، فقال: «اقبَلُوا البُشْرَى يا أهلَ اليَمَنِ إذْ لم يَقبَلْها بَنُو تَميمٍ». قالوا: قد قَبِلْنا يا رسولَ الله، قالوا: جئناك نَسْأَلُكَ عن هذا الأمرِ، قال: «كان اللهُ ولم يَكُنْ شيءٌ غيرُه، وكان عَرْشُه على الماءِ، وكَتَبَ في الذِّكْرِ كلَّ

جنـــــة السـنـــة

شيءٍ، وخَلَقَ السماواتِ والأرضَ». فنادَى مُنادٍ: ذهبَتْ ناقَتُكَ يا ابنَ الحُصَينِ. فانطلقْتُ فإذا هي يَقْطَعُ دونَها السَّرابُ، فواللهِ لَوَدِدْتُ أني كنتُ تَرَكْتُها [البخاري: ٣١٩١].

وعن عبدالله بن عمرِو بنِ العاص، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «كَتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخَلائقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السمواتِ والأرض بخَمْسينَ ألفَ سَنَةٍ» قال: «وعَرْشُهُ على الماءِ» [مسلم: ٢٦٥٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: ليختبركم أيكم أحسنُ عملاً ولم يقل: أيكم أكثر عملاً، ولا يكون العملُ حسناً حتى يكونَ خالصاً لله عزَّ وجلَّ على شريعةِ رسول الله ﷺ، فمتى فَقَدَ العملُ واحدةً من هذين الشرطين بَطُلَ وحَبِطَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧]. قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: ولئن قلت لمشركي قومك الذين يكذبون بالبعثِ والنشورِ: إنَّكم مبعوثون من بعد موتكم، ليقولُنَّ الذين كفروا: إنْ هذا إلا سحرٌ مبين، والسحرُ باطلٌ عندهم، فوَصْفُ هذا القولِ بأنه سِحْر، وصفاً له بأنه باطلٌ مِنَ القولِ.

وقد كان الكفار من قريشٍ يُقِرُّون بأنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَه خالقُ السمواتِ والأرضِ وهو الذي سَخَّر الشمسَ والقمرَ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت:٦١]. وفي هذا رَدٌّ عليهم في تكذيبهم بالبعثِ والنشور، لأنَ خلق السمواتِ والأرض أعظمُ من خَلْقِ الناس ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف:٣٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ كتابٌ عظيم، أَحْكمَ اللهُ تعالى آياتِهِ، ثم فصَّلها، وهو منزلٌ من عند الله الحكيمِ الخبيرِ.

٢- أمَرَ رسولُ الله تعالى عبادَ الله أنْ يعبدوا اللهَ وَحْدَهُ، وأعلمهم بأنه مرسلٌ إليهم لينذرَهم عذابَ الله، ويبشِّرَهم برحمتِهِ.

جنـــــة السـنــة

٣- أمر رسولُ الله العبادَ أنْ يستغفروا اللهَ عن ذنوبهم التي ارتكبوها، ويعزموا على التوبةِ عن الذنوبِ التي قد يقارفونها، فإن فعلوا مَتَّعهم في الدنيا متاعاً حسناً إلى أجلٍ مسمًّى، وإن تولَّوْا فإنَّه يخافُ عليهم أنْ يَقَعَ بهم عذابُ يومٍ كبيرٍ يومِ القيامة.

٤- كان كفارُ قريش يطْوُونَ صدورهم على الكفرِ وعداوةِ الرسولِ ﷺ ، ليستخفوا مِنَ الله تعالى، ولكنَّ هذا الذي يفعلونه مِنَ الاستخفاءِ عبثٌ، لأن الله يعلمُ ما يسرُّون وما يعلنون.

٥- اللهُ تعالى تَكَفَّل بأرزاقِ المخلوقاتِ على اختلافِ أنواعها في الأرْضِ كلِّها، وهو عالمٌ بها حيث تَنتشر في النهارِ، وأين تأوي في الليلِ، وعلمه هذا مُدوَّنٌ في اللوحِ المحفوظِ.

٦- اللهُ تعالى خَلَقَ السمواتِ والأرضَ في ستة أيام، وهو أعلم بطولِ تلك الأيامِ، وقبل خَلْقِهِ السمواتِ والأرضِ كان عرشُه على الماءِ.

٧- الله خلقَ السمواتِ والأرضِ ليكونَ هذا الكونُ معبداً يعبدُ فيه اللهُ وَحْدَهُ.

٨- كفارُ قريشٍ كانوا ينكرون البعثَ والنشورَ، مع أنهم يُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحدَه الخالقُ للسمواتِ والأرض، وخلقُ السمواتِ والأرضِ أعظمُ من خلقِ الناس.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثاني من سورة هود
تسديدُ الله تعالى لرسولِهِ ﷺ ، والمؤمنين في صراعِهِمْ مع المشركين

أولاً: تقديم

كان الصراعُ محتدماً بين الرسول ﷺ وبينَ الكفارِ من قومِهِ في مكَّة قبل الهجرةِ، وكان القرآنُ يَنْزِلُ مثبِّتاً الرسولَ ﷺ والمؤمنين معه، رادّاً على تقولاتِ المشركين الهوجاءِ، فردَّ عليهم استعجالهم العذابَ، وبيَّن نفسيتهم القلقةَ المريضةَ تجاهَ ما يأخذهم اللهُ تعالى به من البلاءِ بعد الرخاء، وبيَّن للرسولِ وأصحابِهِ كيف يفرح المشركون ويبطرون ولا يشكرون إذا أصابهم بالنعمةِ بعد البلاءِ، وعقَّب على ذلك بذكر حالِ المؤمنين إذا أخذهم بمثل ما أخذ به الكافرين، وواسى ربُّ العزةِ رسولَهُ ﷺ فيما يواجهه به قومُهُ، وما يقولونه له مِنَ اقتراحاتِ متعنتين، وأمَرَه أن يبيِّن لهم حقيقةَ أمْرِهِ، فهو ليسَ إلاَّ نذيرٌ، واللهُ هو الوكيلُ على كلِّ شيء.

وتحدَّى اللهُ تعالى الكفارَ الذين يزعمون أنَّ القرآنَ مفترى مكذوبٌ أن يأتوا بمثلِ عشر سورمثلَ سورِ القرآنِ، فعجَزوا، وظهر كَذِبُهم، وظهر أنَّ القرآنَ منزلٌ مِنَ عند الله، لا يستطيعُ أحدٌ أن يأتيَ بمثلِهِ.

ثانياً: آيات هذا النص القرآني من سورة هود

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا
عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ
إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ
لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ
تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ
أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ
وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ
وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [هود:٨-١٤].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- استعجالُ الكفارِ عذابَ الله تعالى:

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- كيف يكونُ حالُ الكفارِ إذا أخَّر اللهُ عذابَهُ عنهم فقال: ﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [هود:٨].

اللام في قوله: ﴿ وَلَئِنْ ﴾ موطئةٌ للقسم، يُقْسِمُ ربُّ العزة -سبحانه أنَّه إذا أخَّر عن الكفارِ عذابَهُ إلى أجلٍ وحينٍ معلوم، والأُمَّةُ: المدَّةُ مِنَ أوقاتِ الزمانِ وقوله: ﴿ مَّعْدُودَةٍ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ تلكَ المدةِ قليلة، فاللهُ تعالى قضى في سابقِ علمه لِعَذابِهِمْ وقتاً مؤقتاً وأمَّةً معدودةً.

وأخبرنا ربُّنا أنَّه إذا أخَّر عذابَه، ليقولَنَّ الكفارُ ساخرين مستهزئين: ما يحبسه؟ أي ما يحبسُ العذابَ عنَّا، قال ربُّ العزَّة مجيباً: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ ألا يومَ يأتيهم العذابُ، ليس مصروفاً عنهم، ولمَّا كان هذا العذابُ الذي نَزَلَ بهم غيرَ مصروفٍ عنهم، فإنَّه محيطٌ بهم، أي: ملازمٌ لهم من كلِّ جانبٍ، وقولُهُ: ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ ﴾ أي: أحاط بهم العذابُ الذي استعجلوا بِهِ سخريةً واستهزاءً.

٢- كيف يكونُ حالُ الكافرِ عندما يصيبه اللهُ تعالى بالسراءِ والضراءِ:

بيَّن اللهُ تعالى حالَ الكافر بالرحمة ينْعِم بها عليه، ثم ينزعها منه، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ ﴾ [هود:٩]. اللامُ في قوله: ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة للقسمِ، يُقْسِمُ ربُّ العزة -سبحانه- أنَّ الكافرَ إذا أنْزَلَ اللهُ به رحمَتَهُ، فوسَّع عليه رزقَه، وكثَّر خيرَه ومالَه، ثم نزع تلك النعمةَ التي أنعم بها عليه، يئس من رحمةِ الله تعالى، فضاقتْ عليه نفسُهُ، وضاقتْ عليه الأرضُ بما رحبتْ، وقد يُؤدِّي الضيقُ الذي حلَّ به إلى أن يقتلَ نفسَهُ.

وإذا أذاقَ اللهُ تعالى الكافرَ نعماءَ بعد ضرَّاءَ فَرِحَ وبَطِرَ ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود:١٠]، أي: إن مَنَحْناهُ الصحة وسعة الرزق بعد المرض والفقر، ليقولَنَّ: ﴿ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ ﴾ والسيئاتُ الخصالُ التي تسوءُ صاحبها، وعند ذلك يصبحَ فرحاً فخوراً، يفاخرُ المؤمنين بما وسَّع اللهُ عليه، ويصبحُ فرحاً بما في يدِهِ، بطراً فخوراً على غيره.

جنـــــة السـنـــــة

٣- حالُ المؤمنين إذا نزلتْ بهم الضرَّاءُ والسرَّاءُ:

استثنى اللهُ -تعالى- من السابقين الذين صبروا وعملوا الصالحات، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:١١].

وهذا الاستثناءُ منقطعٌ، والمعنى: لكنِ الذين صبروا على ما أصابهم في الشدائدِ والمكارهِ، وعملوا الصالحاتِ في الرخاءِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ بما يصيبهم من الضراءِ، ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ بما أسلفوه في زمنِ الرخاءِ، كما جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].
وجاءَ في البخاريِّ عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما يُصيبُ المُسْلِمَ من نصبٍ ولا وَصبٍ، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ ولا أذىً ولا غَمٍّ حتى الشوكةِ يُشاكُها، إلاَّ كَفَّر اللهَ بها من خطاياه» [البخاري: ٥٦٤١. مسلم: ٢٥٧٣].

وعن صُهَيْبٍ قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «عَجَباً لأمْرِ المُؤْمِنِ، إنَّ أمره كلَّه خير، ولَيْسَ ذلِكَ لأحدٍ إلاَّ للمُؤْمِنِ، إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيراً له، وإن أصابته ضرَّاءُ صَبَرَ، فكانَ خيراً له» [مسلم: ٢٩٩٩].

٤- قالَ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ لعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليكَ لكفرِهم:

سَلَّى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ بقولِهِ: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ [هود:١٢]، أي: فلعلَّكَ لعظم ما تراه مِنَ تكذيب قومِكَ وكفرهم واقتراحِهم الآياتِ التي يقترحونها عليه وِفْقَ أهوائِهم وتعنتهم تاركٌ بعضَ ما يُوحَى إليك مما أنزله اللهُ عليك وأمَرَكَ بتبليغه، وقوله: ﴿أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ أي: كراهةَ أن يقولوا: لولا أُنزِلَ عليه، والكنزُ المالُ المجموعُ المخزونُ، أو جاءَ معه مَلَكٌ يُصَدِّقه، ويُبيِّنُ صحةَ رسالتِهِ، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ أي: إنما مهمتك مقصورةٌ على إنذارِ الناسِ عقابَ الله وعذابَهُ، وليس عليكَ حصولُ مطلوبهم وإجابةُ مقترحاتِهم ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾ يحفظُ ما يقولونه، وهو فاعلٌ بهم ما يجبُ أنْ يُفْعَلَ.

جنـــــة السـنة

٥- الدليلُ على أنَّ القرآنَ حقٌّ وصِدْقٌ:

تعنَّتَ الكفارُ في مواجهةِ الرسولِ ﷺ وزعموا أنَّ القرآنَ الذي جاء به مفترى مخلوقٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود:١٣].

﴿أَمْ﴾ التي في الآيةِ هي المنقطعةُ، وهي بمعنى: بَلْ والهمزة، وقد جاءَ بالاستفهام في الآيةِ لتقريع المشركين وتوبيخهم، وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الضميرُ عائدٌ على الرسولِ ﷺ، ثمَّ أمرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يجيبهم بما يُسْكتُهم، ويظهرُ كذِبَهم، وتعنتَهم وعجزَهُمْ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي: إن كان هذا القرآنُ كما تزعمونَ مفترى مختلَقٌ، فائْتُوا بعشرِ سورٍ مثله مفترياتٍ مختلقاتٍ، فأنتم قادرون على الإتيانِ بمثل المفترى المخلوقِ، لأنَّه صناعةٌ بشريَّةٌ، ﴿مِثْلِهِ﴾ أي: ائتوا بعشرِ سورٍ مماثلةٍ له في البلاغةِ وحسن النظمِ وجزالةِ اللفظ وفخامَةِ المعاني، فالمماثلة هنا في البلاغةِ البالغة حدَّ الإعجاز، وقد كانت العربُ في القِمَّةِ من الفصاحةِ والبلاغةِ، وقد كانت لهم أسواقٌ، يتفاخرون فيها فيما بينهم، ومادةُ تفاخُرِهِمْ القصيدُ والخطب.

وقوله: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: وادعوا كلَّ مَنْ تريدون مساعدتَهُ من آلهتكم وغيرها، إن كنتم صادقين في أنَّه مفترى، وقد ألقمهم هذا الطلبُ حجراً، فقد عجزوا عن الإتيانِ بمثل عشر سورٍ، وقد تحدَّاهم في مواضعَ أُخرى أن يأتوا بمثل القرآنِ كلِّه، أو بمثلِ سورةٍ واحدةٍ منه، فلم يقدروا على شيءٍ من ذلك.

وعقَّبَ الله على ما سبق بقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٤] أي: فإن لم يفعلوا ما طلبتَهُ منهم، فاعلموا أنهم عاجزونه عن الإتيانِ بمثلِهِ، وأنَّهم كاذبون في دعواهم أنَّه مفترى مختلقٌ، واعلموا أنَّه منزلٌ من عندِ الله بعلمٍ مِنَ الله، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ يأتي بمثله، واعلموا أنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ الحقُّ الذي لا يستحقّ العبادةَ أحَدٌ غيره ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: هل مستجيبون لله، خاضعون لأمره، داخلون في دينه الإسلامِ.

جنـــــة السـنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الكفارُ يستعجلون عذابَ الله على وجهِ السخريةِ والاستهزاءِ، وقد تهدَّدَهم ربُّ العزَّةِ -تبارك وتعالى- أنْ يأتيهم العذابُ ملازماً لهم محيطاً بهم.

٢- نفسيةُ الكافر نفسيَّة قَلِقَةٌ مضطربَةٌ، فتراه إذا أنعم اللهُ عليه بنعمةٍ ثم نزعها منه، فحلت به الشدَّةُ بعد الرخاءِ ييْأس من رحمةِ الله ويقنطُ، ولا يصبرُ على البلاءِ، وإذا أذاقه النعمةَ والرخاءَ بعد الشدَّةِ والبلاءِ، يفرحُ ويبطرُ، ويتعالى على عبادِ الله، ولا يشكرُ لله.

٣- المؤمنون الصادقون يصبرون على البلاءِ، ويشكرون ويعملون الصالحاتِ في الرخاءِ.

٤- واسى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ ، وأرشده أن يصبر لما يقوله الكفارُ من التكذيب والاقتراحاتِ، وأمره أن يقول لهم: إنما أنا نذيرٌ، واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيل.

٥- ادَّعى الكفرةُ أنَّ القرآنَ مخلوقٌ مفترى، فتحدَّاهم ربُّ العزةِ إنْ كانوا صادقين أن يأْتوا بعشرِ سورٍ مثلِه مفترياتٍ، وبقيَ هذا التحدِّي قائماً إلى اليوم، يُظْهِرُ عجزَهُمْ وعجزَ الكافرين من بعدهم، وبقيَ هذا التحدي سيفاً قائماً إلى يوم الدين بيد المؤمنين.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الثالث من سورة هود

الفرقُ بين الكفار والمؤمنين

أولاً: تقديم

مَيَّز ربُّ العزة -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ بينَ الكفارِ والمؤمنين، فالكفارُ يريدون الحياةَ الدنيا وزينتَها، ويعطيهُمُ اللهُ من هذه الدنيا إن شاء، أما في الآخرة فليس لهم إلا النارُ، والمؤمنون على يقينٍ من ربِّهم، فقد أقاموا دينهم على كتابِ الله الذي جاءَ به جبريلُ من عندِ الله إلى رسول الله.

والكفارُ كَذَبوا على الله تعالى بشتَّى ألوانِ الكذبِ، وسيحاسبُهُم ربُّ العزَّةِ يوم القيامة، وعندما يُعْرَضُون على ربِّهم يقولُ الأشهادُ مِنَ الرسلِ والملائكةِ والمؤمنين: هؤلاءِ الذين كذبوا على الله، ألا لعنةُ الله على الظالمين.

وهؤلاءِ الكفرةُ يبذلون جهدَهُم ليمنعوا الناسَ عن الدخولِ في الإسلام، ويحاولون تشْويه دينَ الله، ويكفروا بالآخرةِ، وهم ليسوا بمعجزين الله في الأرض، فاللهُ قويٌّ قاهرٌ غالبٌ، وليس لهم أنصار يحمونهم مِنَ الله تعالى، وهؤلاءِ الكفارُ يَخْسَرُون أنفسَهُمْ، فكفرهم يُدخِلُهم النارَ، وهذا أعظمُ الخسرانِ، والمؤمنون الذين يعملون الصالحاتِ الخاشعون لله هم أصحابُ الجنةِ خالدين فيها، وضرب اللهُ للكفارِ والمؤمنين مثلاً، فالكافر كالأعمى والأصم، والمؤمنُ كالسميع والبصير، وبين الفريقين بونٌ شاسعٌ وبُعْدٌ واسعٌ.

ثانياً: آياتُ هذا النص من سورة هود

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن
رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ
ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ
كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ
يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

جنـــــة السـنة

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود:١٥-٢٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النصِّ من القرآن

١- الذي يريدُ بعملِهِ الدنيا يوفِّ اللهُ تعالى له عمله فيها ولا يظلمُ شيئاً:

أعلَمَنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ الذين لا يريدون بعملهم إلا الدنيا وزينتها، يُوَفِّ اللهُ تعالى إليهم أعمالَهم فيها ولا يُبْخسون، أي: لا ينقصُونَ من جزائها، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

والآيةُ الثانية من هاتين الآيتين تدلُّ دلالةً صريحةً على أنَّ الآية في الكفار، لقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾. وقريبٌ من هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء:١٨-٢٠].

وقد قال قتادةُ في قولِهِ تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾: من كانت الدنيا همَّه وسَدَمَهُ وطلْبتَه ونيَّتَهُ، جازاهُ اللهُ بحسناتِهِ في الدنيا، ثم يُفْضِي إلى الآخرةِ، وليس له حسنةٌ يُعْطَى بها جزاءً، وأما المؤمنُ فيجازى بحسناتِهِ، في الدنيا، ويثابُ عليها في الآخرةِ.

٢- حالُ المؤمنين في إقامةِ دينهم على قواعدَ صحيحةٍ من كتابِ ربِّهم:

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- عن حالِ المؤمنين الذين يطلبون اللهَ والدارَ الآخرةَ الذين أقاموا منهجَهُمْ وطريقتَهُمْ على بيِّنَةٍ من ربِّهم، فقالَ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ [هود:١٧]. يقولُ ربُّنا -سبحانه وتعالى- ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ وهؤلاءُ الذين على بيِّنَةٍ من ربِّهم هم الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، والبينةُ التي هم عليها الحجَّةُ والبرهانُ الذي جاءَهم من

جنـــة الســـنة

عند الله تعالى، فأقاموا عليه أمرَهم من العقائدِ والأخلاقِ والأحكامِ، هو كتابُ الله الذي جاءَهم من عندِ الله، وهو القرآنُ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ أي: يتلوا البيِّنةَ التي هي البرهانُ الذي جاءَنا من عندِ الله شاهدٌ مِنَ الله، والشاهدُ الذي مِنَ الله تعالى هو جبريلُ ﵇، بذلك فسَّره ابنُ عباسٍ، وسعيدُ بن جبيرٍ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ وغيرهم [زاد المسير: ٤/ ٨٥]. فالشاهدُ الذي مِنَ الله تعالى هو جبريلُ ﵇، فهو شاهدٌ لمحمد ﷺ أنَّ القرآنَ أنزلَ من عندِ الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ وكتابُ موسى هو التوراةُ والمنزلةُ على بني إسرائيل، والإمامُ الذي يُؤْتم به في الدِّين ويُقْتَدَى به، والرحمةُ: النعمةُ العظيمةُ التي أنعم بها على مَنْ أنزله عليهم، والتوراةُ حَوَتْ كثيراً مِنَ المبشراتِ بَشَّرتْ ببعثةِ رسولِنا ﷺ، وجَلَّتْ التوراة صفاتِه صلواتُ الله وسلامُه عليه.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: المتصفون بتلكَ الصفاتِ الفاضلةِ، وهي كونهم على بيِّنة من ربِّهم، و﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، وخبرُه جملة ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وأخبر تعالى أن من ﴿يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ أي: ومَنْ يكفر بالنبيِّ ﷺ أو بالقرآنِ فالنارُ موعدُه، أي: هو مِنْ أهلِ النار وقوله: ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ المتحزبون على رسولِ الله ﷺ مِنْ أهلِ مكَّةَ وغيرِهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي: لا تكُ في شكٍّ مِنَ القرآنِ، ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: هو الحقُّ الذي لا باطلَ فيه، وهو منزل من عندِ الله تعالى، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾ بذلك مع أنَّ الإيمان به واجب.

وما دلَّت عليه هذه الآيةُ من سورة هودٍ أنَّ الصحابة فمن بعدهم ممن اتبعوهم بإحسانٍ على بيِّنةٍ من ربهم، دلت عليه آياتٌ وأحاديث صحيحةٌ كثيرة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

ومن الأحاديث ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولودٍ إلا يولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهوِّدانِه، أو يُنصِّرانِه، أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جمعاءَ، هل تُحِسّونَ فيها من جَدْعاء؟». ثم يقولُ أبو هُرَيرةَ ﵁: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [البخاري: ١٣٥٨، ١٣٥٩. ومسلم: ٢٦٥٨].

جنـــــة السـنة

وروى مسلمٌ في صحيحه عن عِياضِ بن حِمار المُجاشِعِيِّ، أن رسولَ الله ﷺ قال ذاتَ يوم في خُطْبَتِهِ «ألا إنَّ رَبِّي أمَرَنِي أنْ أُعَلِّمَكُمْ ما جَهِلْتُم مما عَلَّمَني يومي هذا، كُلُّ مالٍ نَحَلْتُهُ عبداً، حَلالٌ[١]. وإني خَلَقْتُ عِبادِي حُنفاءَ كُلَّهُمْ[٢]، وإنَّهم أَتَتْهُمُ الشياطينُ فاجْتالَتْهُمْ[٣] عن دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهِمْ ما أَحْلَلْتُ لهم. وأمَرَتْهُمْ أنْ يُشرِكُوا بي ما لم أُنْزِلْ به سُلطاناً» [مسلم: ٢٨٦٥].

٣- **أعظم الناسِ ظلماً الذين كَذَّبوا على ربِّه:**

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أشدَّ الناس ظلماً الذين افتَرَوْا الكذبَ على الله تعالى، فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨].

يقول ربُّ العزة سبحانه: لا أحَدَ أظلَمُ مِنَ الذين افْتَرَوْا الكذبَ على الله تعالى، وكَذِبُ العبادِ على الله كثيرٌ متنوع، فمن ذلك قولهم في أصنامهم: هؤلاءِ شفعاؤنا عندَ الله، ومنه قولُ اليهودِ: عزيرٌ ابنُ الله، وقول النصارى: المسيح ابنَ الله، وقولُ العرب: الملائكةُ بناتُ الله.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: يعرضُ هؤلاء على ربِّهم يومَ القيامة، والخلق كلهم يعرضون على الله يومَ القيامةِ، وروى البخاري عن صفوان بنِ مُحرِزٍ المازِنِيِّ قال: بينما أنا أمشي معَ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما آخِذٌ بيدِه، إذْ عَرَضَ رجلٌ فقال: كيفَ سمعتَ رسولَ الله ﷺ في النَّجْوَى؟ فقال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه ويَسْتُرُه، فيقولُ: أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نعم أيْ رَبِّ، حتى إذا قَرَّرَه بذُنُوبِه، ورأى في نَفْسِه أنه هَلَكَ، قال: سَتَرْتُها عليكَ في الدُّنْيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ، فيُعْطَى كتابَ حَسَناتِه، وأما الكفارُ والمنافقون فيقولُ الأشهادُ: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]» [البخاري: ٢٤٤١. ومسلم: ٢٧٦٨].

والأشهادُ هم الذين يشهدون يومَ القيامة، وهم الرسلُ والأنبياءُ، والحفظةُ من الملائكة، وصالحو المؤمنين، ويقول الأشهادُ في ذلك اليوم: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ

---

(١) كل مال نحلته عبداً حلال: في الكلام حذف، أي: قال الله تعالى: كل مال إلخ، ومعنى نحلته أعطيته.

(٢) حنفاء كلهم: أي مسلمين، وقيل: طاهرين من المعاصي، وقيل: مستقيمين منيبين لقبول الهداية.

(٣) فاجتالتهم: اجتال الرجلُ الشيءَ ذهب به، واجتال أموالهم ساقها وذهب بها.

جنـــــة السنـــــة

أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود:١٨]، أي: يقولون في حال عَرْضِ المكذبين على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ قد تكونُ من كلام الأشهادِ أو من كلامِ الله تعالى، والمراد بـ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المشركين، ومعنى: لعنةُ الله: إبعادُهم من رحمة الله وعفوه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [هود:١٩]، أي: يمنعونَ الناس عن اتباع الحقِّ وسلوكِ طريق الهدى الموصلةِ إلى الله عزَّ وجلَّ، وقوله: ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: يريدون أن يجعلوا طريقَ الله معوجّاً، أي: يريدون تشويهَ دينِ الله وتحريفه، ليبعدوا الناس عنه، وقوله: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ أي: هؤلاءِ الكفرةُ الذين افتروا الكذبَ على الله تعالى غير مصدقين بالبعثِ والنشور، فهم على الباطل.

وقال تعالى في هؤلاء الذين كذبوا على الله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود:٢٠-٢٢].

وقولُهُ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لم يكونوا معجزين اللهَ تعالى في الحياة الدنيا، بل كانوا تحت قهْرِه وغلبته، وفي قبضتِهِ وسلطانه، وهو القادرُ على أخذهم وإيقاع العذابِ بهم ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا يوجدُ لهم مِنْ دون الله تعالى من أولياء يمنعونهم، ويحمونهم مني، فالآلهة التي يعبدونها آلهةٌ باطلةٌ، لا تملكُ من أمرها شيئاً.

وقوله: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يعني يومَ القيامةِ، لأنهم ضلُّوا وأضلُّوا، وقوله: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي: كانوا في الدنيا لا ينتفعون بأسماعِهم وأبصارِهِمْ، فهم صُمٌّ عن الحقِّ فلا يسمعون، وعميٌ عنه، فلا يبصرون، ولا يهتدون، وذلك لعنادهم وكفرهم وشدةِ عداوتهم، فصاروا لملازمتهم الإعراضَ عن الخير كمن لا يستطيعه.

وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وخسرانُهم أنفسَهُمْ يكون بدخولهم النار، وهذا أعظمُ الخسرانِ، وقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي: ذهب عنهم ما كانوا يفترونه من الأصنام والأوثان، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم:٨١-٨٢].

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [هود:٢٢] «يخبر تعالى عن حالهم أنهم أخسرُ الناسِ صفقةً في الدار الآخرة، لأنهم استبدلُوا الدركاتِ بالدرجات، واعتاضوا عن نعيم الجنانِ بحميمٍ آن، وعن شُربِ الرحيقِ المختوم، بسموم وحميم، وظلٍّ من يحموم، وعن الحور العين بطعام من غِسْلين، وعن القصورِ العالية بالهاويةِ، وعن قُرْبِ الرحمن ورؤيته بغضب الديّان وعقوبته، فلا جَرَم أنهم في الآخرة هم الأخسرون» [تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٢٩].

٤- الذين آمنوا وعملوا الصالحات أصحابُ الجنة:

بعد أنْ أطال الحقُّ -سبحانه- في الحديث عن أصحابِ النارِ أَخْبَرَ عن أصحابِ الجنةِ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [هود:٢٣].

أخبرنا ربّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين آمنوا، أي: بالله وملائكتِهِ وكتبه ورسلِهِ واليومِ الآخر، وعملوا الصالحاتِ مِنَ الصلاةِ والزكاةِ والحجِّ والصومِ ونحو ذلك، وأخبتوا إلى ربهم، والإخباتُ الخشوعُ لله، بسكونِ الجوارح على جهة الخضوعِ لله، والتواضعِ والطمأنينةِ، أولئك الذين جمعوا هذه الصفاتِ أصحابُ الجنة، أي: جنَّةُ الخلد، هم فيها خالدون.

٥- مثلُ الفريقين من الكفارِ والمؤمنين:

ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- للكفارِ والمؤمنين مثلاً، فقال: ﴿ ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [هود:٢٤]، ضرب اللهُ تعالى مثلاً جامعاً للفريقين الكفارِ والمؤمنين، والفريقُ: الطائفةُ من الناس، ضربَ مثلاً للكافرِ، بأنه كالأعمى والأصمِّ، والمؤمن بأنَّه كالسميع والبصير، فالكافرُ أعمى عن الحقِّ أصمُّ عنه، وأما المؤمنُ، ففطنٌ ذكيٌّ لبيبٌ، بصيرٌ بالحقِّ، يميِّز بينه وبين الباطلِ، فيتّبعُ الخيرَ، ويتركُ الشرَّ، سميع للحجّةِ، يُفرِّقُ بينها وبين الشبهةِ، فلا يروجُ عليه باطلٌ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: هل يستوي الأعمى والأصمُّ والبصيرُ والسميعُ، لا يستويان كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ [غافر:٥٨]، وقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي: أفلا تعتبرون وتفرِّقون بين هؤلاء وهؤلاء.

جنـــــة السـ ـــــنة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - الذين يريدون بأعمالهم الدنيا وزينَتها، ولا يتطلعون إلى الدارِ الآخرة، يعطيهم اللهُ تعالى من الدنيا، وليس لهم في الآخرة إلا النار.

٢ - المؤمنون يقيمون دينهم على أساس متين من كتاب الله تعالى الذي جاء به جبريل من عندِ الله إلى رسول الله ﷺ، وقد تحدث عنه كتاب موسى، ومَنْ يكفُر به فمصيره النارُ.

٣- أظلمُ الناسِ الذين يكذبون على الله تعالى، وكلُّ الكفارُ يكذبون على الله تعالى، وسيحاسبُ اللهُ هؤلاءِ، ويعرضون عليه، ويقولُ الأشهادُ من الرسل والملائكة والمؤمنين عند عَرْضِ الذين كذبوا على ربِّهم: هؤلاءِ الذين كذبوا على الله، ألا لعنةُ الله على الظالمين.

٤- الكفارُ الذين كذبوا على الله تعالى يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى ويحاولون تشويه الإسلامِ، وتحريفَ مسارَه، وهؤلاءُ ضعفاءُ، ولا يعجزون الله في الدنيا، وليس لهم أنصارٌ يحمونهم من عذابِ الله وسخطِهِ، وهم الذين خسروا أنفسهم في النارِ يومَ القيامة.

٥- الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وكانوا من الخاشعين لله هم أصحاب الجنةِ هم فيها خالدون.

٦- ضرب الله مثلاً للكافر بأنه كالأعمى لا يرى، والأصم الذي لا يسمع، ومثلاً للمؤمن بأنه كالبصير يبصر الحق فيتبعه، ويسمع داعي الله فيهتدي به، وبين الكافر المؤمن بون شاسع.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الرابع من سورة هود
قصة نبي الله نوح عليه السلام مع قومه

أولاً: تقديم

هذا النص والنصان التاليان له في قصة نوح عليه السلام مع قومِهِ، وقد علمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّ لُبَّ دعوةِ نوحٍ هو دعوة قومه إلى عبادة الله الواحِدِ الأحد، وقد حدَّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص بم اعترض قومُ نوحٍ على نوحٍ، ثم عرض لنا ربُّنا كيف جلَّى نبيُّ الله نوحٍ دعوتَه لقومِهِ، وقد أوقف الزعماءُ حوارهم مع نوحٍ، وطلبوا منه أن ينزل بهم العذابَ

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ
إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ
أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾
وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ
أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى
خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن
كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ
أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ
فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود:٢٥-٣٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إرسالُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِهِ ليقيمهم على التوحيد:

كان نوحٌ عليه السلام أوَّلَ رسولٍ أُرسلَ إلى أهلِ الأرضِ، وكان الشركُ قد فشا في قومِهِ، فأرسله الله تعالى لينذرَ قومه بالتوحيد ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾

جنـــــة السـنة

[هود:٢٥] وأنذرهم بقولِهِ: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:٢٦]، وقال لهم: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود:٢٦].

وهذه الآياتُ تدلُّ على أنَّ الإنسانَ الأوَّلَ كان عاقلاً متكلماً يُحسن التعبير عن نفسِهِ، وكان الناس في المجتمع الأول يشكلون مجتمعاً كاملاً، كما هو الحالُ في المجتمعات الإنسانيةِ المعاصرةِ، وكان الناسُ يحسنون الاستدلالَ، والقبولَ والردَّ، وكان حالُهم حالَ قريشٍ مع رسولنا محمدٍ ﷺ، فما يتحدثُ به كثير من الباحثين عن الإنسانِ الأولِ الذي لا يتكلم، والنافرِ مع الوحوشِ في البراري خطأ وضلالٌ، وحسبنا أنْ نرجعَ إلى ما حدثنا به ربُّنا عن آدمَ عليه السلام، وما حدَّثنا به عن ابني آدم مما سبق بيانه في مواضع كثيرة، لنجد خلافَ ما يقوله هؤلاءِ.

٢- **موقف السادةِ والأتباعِ من قومِ نوحٍ مما جاءهم به نوحٌ:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن موقفِ السادةِ والزعماءِ وهم الملأ من قوم نوح ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [هود:٢٧]، احتجَّ قومُ نوحٍ عليه فيما دعاهم إليه بأمرين: الأولُ: أنهم يشاركونه في البشرية، فليس له مزيَّة يستحقُّ بها النبوةَ دونهم. الثاني: أنَّ الذي اتبعه من قومه في أولِ الأمر الأراذلُ كالباعةِ والحاكةِ والضعفاءِ، ولم يتبعه السادةُ والأشرافُ، وهؤلاءِ اتبعوه سريعاً من غيرِ تروٍّ منهم ولا فكرٍ ولا نظرٍ، ولذلك زعموا أنه لا فضلَ لهم عليهم، بل يعتقدون أنهم كاذبون.

٣- **رَدُّ نوحٍ عليه السلام على قومِهِ:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- بردِّ نوح على قومِهِ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [هود:٢٨].

لقد كان نوح عليه السلام مستوعباً رسالةَ ربِّه -تبارك وتعالى- فقيهاً بها، وكان عليماً بما يقولُه قومُهُ، عليماً بما ارتكبوه من أخطاء، وما وقعوا فيه من ضلالٍ وقد أخبر قومَه أنَّه على بينةٍ من أمرِهِ، أي: على حُجَّة وبرهانٍ من ربِّه، فهو مستيقن بما جاءَه اللهُ تعالى به مِنَ النبوَّة، وهو يعلم أنَّ اللهَ تعالى آتاه رحمة من عنده، وهي النبوةُ، وقولُه: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيتْ عليكم، فلم تهتدوا إليها ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾﴾ أنجبركم على القبول بها وأنتم لها كارهون.

وقال لهم نوحٌ أيضاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [هود:٢٩].

جنـــــة السـنة

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا يسألهم على ما جاءَهم به مِنَ الوحي مالاً ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ فهو لا يطلبُ منهم أجراً، وإنما يطلبُ الأجرَ مِنَ الله تعالى ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾.

وكان الزعماءُ والرؤساءُ قد طلبوا منه أن يطردَ الأراذلَ الذين اتبعوه أنفةً منهم أن يجالسوهم ويخالطوهم، فأبى طردَهم، وقال لقومه: ﴿مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠﴾ [هود:٣٠]، أي: مَنْ يمنعني من عذابِ الله إنْ طردتهم، وهذا يدلُّ على أنَّ العالمَ يجب عليه مصابرةَ المتعلم، ولا يجوز له طردُه، وعدمُ تعليمه.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً قال لقومه: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣١﴾ [هود:٣١].

بيَّنَ نوحٌ عليه السلام حقيقةَ أمرِهِ لقومِهِ، فهو رسولُ الله، مرسلٌ من عندِ الله، وليس عنده خزائنُ الله، حتى لا يتهموه بالكذبِ لعدم ملكه هذه الخزائن، وقال لهم: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ فهو لا يعلمُ من الغيبِ إلا ما أطلعه اللهُ تعالى عليه، وقال: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ﴾ أي: ولستُ بملكٍ من الملائكة، فلا أملك قدراتِ الملائكةِ وإمكاناتِهِمْ، وقال لهم: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾. قال نوحٌ لقومه: لا أقول لهؤلاءِ الذين تحتقرونهم وتعيبونهم: لن يؤتيهمُ اللهُ خيراً، فقد آتاهم الرحمنُ الإيمانَ، فلهم الأجرُ والثوابُ ولا يضرُّهم احتقارُكم لهم.

لقد كان نوحٌ عليه السلام صادقاً مع قومِهِ، لم يرفعْ أمرَهُ فوقَ قَدْرِهِ، ولم يتعالَ، ووصف نفسه بالصفاتِ الصحيحة، بعيداً عن الكبر والتعالي، وقد رأينا بعضَ الذين يتصدُّون للدعوة إلى الله تعالى، يرفعون أنفسهم، ويصفونها بما ليس فيها.

٤- جوابُ قومِ نوحٍ عليه السلام:

فلما سمع قومُهُ منه هذا البيانَ الواضحَ النيِّر، ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٣٢﴾ [هود:٣٢]، أي: خاصمتنا فأكثرتَ خصامَنا، وجئتَ بكلِّ ما يمكنك الإتيانُ به، وانتهى الأمرُ بيننا وبينك، ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذابِ الذي تخوفنا

جنـــــة السـنة

به، ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فيما تقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود:٣٣-٣٤].

لم يسارعْ نوحٌ بإعلامهم بأنَّ العذابَ نازلٌ بهم، وأنَّه سريعاً سيقعُ بهم، بل وكَلَ نوحٌ ﷺ الأمرَ إلى الله تعالى، وقال لهم: إنَّ تعذيبكم إلى الله ربِّكم، فإذا شاءَ إيقاعَه بكم أوقعه، وإذا شاءَ إنزالَهُ بكم فما أنتم معجزينه، فهو على ذلك قادرٌ سبحانه.

وقال لهم: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ﴾ أي: هذا الذي أبينه لكم، وأبلغكم إيَّاه، لا ينفعكم، وقوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ﴾ أي: إنْ كان اللهُ تعالى يريد إضلالكم، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ والربُّ السيدُ الخالقُ المدبرُ المصرِّفُ، وأنتم تحت ملكه وتصرفِهِ، يتصرفُ فيكم كما يشاءُ، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يومَ القيامة، فيحاسبكم على ما قدمتموه وعملتموه.

٥- زعم كفارُ قريشٍ أنَّ ما أخبر به رسولُنا ﷺ عن نوحٍ حديثٌ مفترى:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كفارَ قريشٍ زعموا أنَّ ما حَدَّث به رسولُنا عن نوحٍ حديثٌ مفترى مختلقٌ ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [هود:٣٥]. والمعنى: بل أيقول هؤلاءِ الكفارُ أنَّك افتريتَ ما حَدَّثْتَ به عن نوحٍ، أي: اختلقتَهُ وافتعلتَهُ، فقلْ لهؤلاءِ: ﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى﴾ أي: عليَّ عاقبةُ إجرامي، أي: ما كسبتُهُ من السيئات، ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: مِنَ الكفرِ والتكذيب، فليس عليَّ شيءٌ من إجرامكم، وإنما الضرر عائد عليكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى نوحاً إلى قومِهِ فأنذرهم بأنْ لا يعبدوا إلا اللهَ -تعالى- وحده.

٢- زعم السادةُ والزعماءُ من قومِ نوحٍ أنَّ نوحاً لا يستحقُّ أن يتابع، لأنه بشر مثلهم، والذين اتبعوه في أوّلِ الأمرِ هم أراذلهم، وزعموا أنَّه لا فضل لهم عليهم، وظنوا أنهم من الكاذبين.

٣- ردَّ عليهم نوحٌ أعظمَ ردٍّ، فأعلمهم أنَّه على بينةٍ من ربّه، وأنَّ اللهَ تعالى آتاه رحمةً من عنده، وهي النبوةُ، وأنّه لا يسألهم المالَ، فأجره على الله تعالى.

٤- لم يطع نوحٌ زعماءَ قومِهِ عندما طالبوه بأنْ يطردَ الضعفاءَ الذين آمنوا به، وأعلمهم أنَّ طرده إياهم معصيةٌ لله، يحاسبه اللهُ عليها.

٥- بيَّن نوحٌ لقومِهِ أنَّه لا يوجدُ عنده خزائنُ الله، يعطي منها مَنْ آمن، ولا يعلمُ الغيبَ، فهو يخبر بما غاب عن العبادِ، وليس بمَلَكٍ، يستطيعُ أن يفعلَ ما لا يستطيع البشر فعلَهُ.

٦- أعلمَ نوحٌ قومَه أنَّ المؤمنين الضعفاءَ محلَّ تقديره واحترامه، لا يستطيعُ أنْ يوجه إليهم شيئاً لا يليقُ بهم، فيكونَ مِنَ الظالمين.

٧- أوقفَ زعماءُ قومِ نوحٍ الحوارَ مع نوحٍ، وطالبوه أنْ يحلَّ بهم العذابَ، فأعلمهم أن نزولَ العذابِ بهم أمْرُه إلى الله تعالى.

٨- زعم كفارُ قريشٍ أنَّ ما جاءَهم به رسولنا من نبأ نوح مع قومه كَذِبٌ مفترى، فأمر اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يقول لهم: إن افتريتُه واختلقته فعليَّ إجرامي وأنا بريءٌ مما تجرمون.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الخامس من سورة هود
أمر اللهُ تعالى نوحاً أنْ يصنع السفينة التي ستقله والمؤمنين معه

أولاً: تقديم

هذا هو النص الثاني الذي يتحدثُ عن قصة نوحٍ، وفيها إخبارُ الله تعالى لنوحٍ أنه لن يؤمنَ من قومِهِ إلاَّ من قد آمن، وفيها أمره له بأن يصنعَ السفينة التي سيركبها والمؤمنون معه وعندها يهلك قومه بالطوفان، وفيها إعلامُ الخلقِ أنَّ قومَ نوحٍ كانوا يسخرون منه، وهو يصنعُ السفينةَ، فيخبرهم أنه والمؤمنين معه سيسخرون منهم عندما يأخذهم الطوفانُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود:٣٦-٣٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آياتِ هذا النص من القرآن

١- أوحى اللهُ تعالى إلى نوحٍ أنه لن يؤمنَ من قومِكِ إلاَّ من قد آمن:

أوحى اللهُ -تبارك وتعالى- إلى نوحٍ عليه السلام أنَّه لن يؤمْن من قومِهِ إلا من قد آمن ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [هود:٣٦] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- فيما سبق أنهم أوقفوا الحوارَ معه، وطالبوه بأنْ يحلَّ بهم العذابَ، فأوحى اللهُ تعالى إليه: أنَّه لن يؤمن من قومِهِ إلا مَنْ آمن من قبل، فدعا عليهم نوح ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح:٢٦]، ونهى اللهُ تعالى نوحاً أن يبتئسَ بما كانوا يفعلونه، ومعنى ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ أي: لا تحزن، ولا تغتمَّ، ولا تستكين بسبب تصرفاتهم الحمقاءِ.

٢- أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يصنع السفينة التي ستقله ومن معه بأعينه ووحيه:

أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً أن يصنع السفينةَ التي ستقلُّه، وتقلّ المؤمنين معه، وتقلُّ أصنافَ الأحياءِ الموجودةِ فوق ظهرِ الأرضِ ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [هود:٣٧]، أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً أنْ يصنعَ تلك السفينةِ بمرأى منه، وقوله:

جنـــــة السـنة

﴿وَوَحۡيِنَا﴾ أي: وفق التعاليم التي تأتي إليه من عندِ الله تعالى، فكانت السفينةُ تبنى وفقَ ما يأمره اللهُ تعالى به، وقوله: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ نهاه أن يسأله في قومِهِ الذين ظلموا، أي: أشركوا وكفروا، فإنَّهم مغرقون، لا شكَّ في ذلك ولا ريبَ.

٣- قوم نوح يسخرون من نوحٍ وهو يصنعُ السفينةَ:

أخذَ نوحٌ يصنعُ السفينةَ ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيۡهِ مَلَأٞ مِّن قَوۡمِهِۦ سَخِرُواْ مِنۡهُۚ قَالَ إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ ٣٨ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ [هود:٣٨-٣٩]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً أخذ يصنعُ الفلكَ، وهي السفينةُ، وأخذ قومُهُ كلَّما مَرَّ عليه ملأٌ منهم، أي: فرقةٌ وطائفةٌ يسخرون مما يعمله، فقال لهم: إن تسخروا منا اليوم، فسوفَ نسخر منكم كما تسخرون منا، أي: نسخر منكم عندما يقع الطوفانُ، ويحيطُ بكم العذابُ.

وتهدَّدهم قائلاً لهم: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ وهو عذابُ الطوفانِ الذي سيغرقهم ويستأصلهم، ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٣٩﴾ أي: دائمٌ، وهو عذابُ يومِ القيامةِ.

رابعا: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أوحى اللهُ -تعالى- إلى رسولِهِ نوح أنه لن يؤمن أحدٌ من قومك إلاَّ من سبق له الإيمانُ.

٢- أمَرَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ نوحاً أن يصنعَ السفينةَ التي ستقلُّه وتقلُّ المؤمنين معه عندما يقعُ الطوفانُ.

٣- صَنَعَ نوحٌ السفينةَ بمرأى من الله تعالى، وفقَ التعاليم والبياناتِ التي كان اللهُ تعالى يوحي بها إليه.

٤- كانت سفينةُ نوح سفينةً عظيمةً، وكان يوجد في المكان الذي صنع فيه السفينةَ مِنَ الخشبِ والحديدِ ما يصلح لصناعةِ مثلِ تلكَ السفينةِ.

٥- نهى الله تعالى نوحاً أنْ يسأله النجاةَ لقومِهِ بعد أن أعلمه أنه لن يؤمن منهم أحدٌ.

٦- كان قومُ نوحٍ يسخرون منه وهم يمرُّون عليه، وهو يصنعُ السفينةَ، فيقولُ للساخرين: إنا سنسخر منكم غداً، أي: حينما يحلُّ بكم العذابُ، فنجازيكم بسخريتكم.

جنـــــة السـنة

٧- تهدد نوحٌ عليه السلام قومَه، بقوله لهم: سوف تعلمون من يحلُّ عليه عذاب يخزيه، وهو عذابُ الغرقِ الذي سيأخذهم عندما يقع بهم الطوفان، ويحلُّ عليه عذابٌ مقيمٌ، وهو عذابُ يوم القيامةِ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني السادس من سورة هود
قصة الطوفان وإنجاءُ الله تعالى نوحاً ومن معه
وإهلاكُ الكفار من قومه

أولاً: تقديم

حدّثنا اللهُ تعالى في آيات هذا النص عن خبرِ الطوفان وركوبِ نوح والمؤمنين معه وزوجين من كلِّ حيوانٍ من حيوانات الأرضِ السفينة، وأخبرنا عن هلاكِ ابن نوحٍ الكافرِ عندما تخلَّف عن أبيه، وأوى إلى قمةِ جبل، لينجو من الغرق، فلم يعصمه، وحدثنا ربُّنا عن نهايةِ الطوفانِ، وعن دعاءِ نوحٍ ربَّه في ابنه، وكيف أمرَ اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بالهبوطِ إلى الأرضِ، وامتنانه علينا بها قصَّهُ علينا مما لا علم لنا به.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡر۪ىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٨﴾ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود: ٤٠-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذ النص من القرآن

١- بدايةُ الطوفان:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ أمرَه قد جاء، وبدأ الطوفانُ، فقال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا

جنـــــة السـنة

قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود:٤٠]، والمرادُ بأمر الله تعالى الذي جاء أَمْرُه بوقوعِ الطوفان، ففتح اللهُ أبوابَ السماءِ بماءٍ منهمرٍ، وفجّرَ الأرضَ عيوناً كما قال تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القمر:١١-١٢]، وقولُه تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ الذي يظهر لي -واللهُ تعالى أعلم- أنَّ فورانَ التنورِ علامةٌ جعلها اللهُ لنوحٍ، تدلُّ على أنها إذا وقعت، فقد بدأ الطوفان، والتنورُ هو الفرنُ الذي يُخبزُ فيه، وكان تنوراً من حجارةٍ، وعند ذلك جاءَه الوحيُ من عندِ الله تعالى قائلاً له: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يحمل معه من كلِّ حيوان حيٍّ زوجين اثنين، فيحمل من الحمام زوجين، أي: ذكراً وأنثى، وكذلك من المعزِ، والبقرِ، والجمالِ، وأمرهُ أن يحمل معه في السفينةِ أهلَه، وهم زوجته وأولادُه ونساؤهم إلا من سبق عليه القولُ منهم، أي: الكفارُ منهم، ولذلك غرقَ ابنهُ الكافرُ، وزوجةُ نوحٍ كانت كافرة، فلذلك إذا كانت لا تزالُ حيَّة إلى ذلك الوقت، فإنها تكون قد غرقت، وأمره أن يحملَ معه ﴿وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ وهذا النصُّ صريحٌ في أنه آمن معه أناسٌ من قومِهِ، والذي آمن معه قليلٌ. والذي في التوراة أنه لم يؤمن معه أحدٌ غيرَ أولادِهِ وزوجاتِهم، وهذا غير صحيح.

٢- ركوب نوحٍ ﷺ ومن معه السفينةَ:

لَّما بدأ الماءُ يتدفق من الأرضِ، والسماءُ تمطرُ بماءٍ منهمرٍ أَمَرَ نوحٌ ﷺ من آمنوا به أن يركبوا فيها قائلين باسم الله مجريها ومرساها ﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود:٤١]، والقائلُ ﴿ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ هو نبيُّ الله نوحٍ ﷺ، والركوبُ العلوُّ على ظهرِ السفينةِ والدخولُ في جوفِها، وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي: قائلين باسم الله مجراها ومرساها، أي: باسم الله يكونُ جَرْيُها على الماءِ، وباسم الله يكون رُسوُّها، أي: منتهى سيرها، وهذا الذي أمر به نوحٌ المؤمنين معه من التسمية عندما يركبون السفينةَ أَمَرَ اللهُ تعالى به المؤمنين في القرآنِ في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، وسيأتي في سورةِ الزخرف الصيغةُ التي كان الرسولُ ﷺ يدعو بها إذا ركبَ دابته.

جنـــــة السـنة

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ أي: إنَّ اللهَ تعالى غفورٌ رحيمٌ بإنجائِه نوحاً والمؤمنين معه وإنجائه بعضاً من الحيواناتِ التي ستعمِّر الأرضَ بعد الطوفان، وإن كان شديدَ العقابِ في إهلاكه الكفارَ من قومِ نوحٍ.

٣- جَرْيُ السفينةِ بركابها بموجٍ كالجبالِ ومناداةِ نوحٍ ابنه الكافرَ ليركبَ السفينةَ معه:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الماءَ الذي تدفقَ مِنَ الأرضِ والماء الذي نزل من السماءِ علا على وجهِ الأرضِ وعظم، وحملَ السفينةَ وركابَها، وبيَّن حالَ السفينةِ، فأخذت تجري في موجٍ كالجبالِ، ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢]، ولا يكونُ الموجُ كالجبالِ إلا إذا كانَ ماءُ البحرِ عالياً كثيراً، وكانت الريحُ شديدةً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نوحاً نادى أحدَ أولاده، وكان كافراً، وكان في معزلٍ عن السفينةِ، فناداه طالباً منه أنْ يركبَ معهم في السفينةِ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود:٤٢]، طالبه بأن يركب معهم، ولا يتخلَّفَ عنهم، فيغرقَ مع الكافرين، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٣].

وقولُ ابن نوحٍ لأبيه ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ﴾ [هود:٤٣]، يدلُّ على أنَّه لم يكن يعلم أنَّ الماءَ سيُغرقُ كلَّ شيءٍ في الأرضِ، ويصلُ إلى قمم الجبالِ مهما كان علوها، ولذلك قال له أبوه الذي يعلم الحقيقة: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود:٤٣] أي: لا يمنع اليومَ أحدٌ مِنَ الغرقِ إلا مَنْ رحمه اللهُ تعالى، وهم ركابُ السفينةِ وحدهم دون غيرهم، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود:٤٣]، أي: وحالَ الموجُ بين نوحٍ وابنِه، فأغرقه اللهُ تعالى فيمن غرق.

٤- انتهاءُ الطوفان ونزولُ نوحٍ ومن معه إلى الأرض:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ اللهَ تعالى أمَرَ الأرضَ أن تبلعَ الماءَ الذي كان عليها، وأمر السماءَ أنْ تمسكَ ماءَها الذي كانت تمطرُه، وتسربَ الماءُ الذي كان على ظهرِ الأرضِ إلى جوفها وغيضَ الماءُ، أي: نقصَ من فوق الأرضِ وجفَّ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [هود:٤٤].

جنـــــة السـنــة

وهذه الآية تدلنا دلالةً واضحةً بينةً على أنَّ ربَّنا هو السيدُ المطاعُ الذي يطيعه كلُّ شيءٍ، ولا يعصيه شيءٌ إذا أمره أو نهاه، فقد أمر اللهُ تعالى الأرضَ أن تبلعَ ماءَها، فبلعته، وأمرَ السماءَ أن تمسكَ قطرَها فأمسكته، وتلاشى الماءُ من فوقِ ظهرِ الأرضِ، وقُضِيَ الأمرُ، أي: في إهلاك قومِ نوحٍ، والجوديُّ الذي استوت السفينةُ عليه، أي: استقرَّتْ عليه جبلٌ في شمال العراق قرب جزيرة الموصل، وقوله: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ والقائل هو اللهُ سبحانه، والمعنى: هلاكاً للقومِ الظالمين، أي: أبعدهم اللهُ عن كلِّ خيرٍ.

٥- نوحٌ عليه السلام ينادي ربَّه في ابنه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ نوحاً عليه السلام نادى ربَّه من أجل ابنه ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود:٤٥].

توجَّه نوحٌ عليه السلام إلى ربِّه يستعلمه عن ولدِهِ الذي غرقَ مع الكافرين من قومه، فدعاه سائلاً إيَّاه أنَّ ابنه من أهلِهِ، وقد أمره أن يدخلَ أهلَه السفينةَ، وهذا وَعْدٌ من ربِّ العزةِ بأن ينجيَ أهلَه، ووعدُ الله حقٌّ، والله تعالى لا يخلفُ الميعادَ، والله تعالى أحكمُ الحاكمين.

فأعلمه ربُّه تبارك وتعالى أنَّه ليس من أهلِهِ الناجين، لأنه وعدَه بإنجاء أهلِهِ المؤمنين، أما الكافرون فلم يعد بإنجائهم، فقد قال له من قبل: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود:٤٠] والذين سبقَ عليهم القولُ هم الكافرون، وابنه من الكافرين، وقال له هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود:٤٦].

أي: ليس من أهلك الذين وعدتُ بإنجائهم، وقالَ له: إنَّ دعاءَكَ إيايَ في إنجاءِ ابنك الكافر عملٌ غيرُ صالحٍ، ونهاه ربُّ العزَّة أنْ يسألَه ما ليس له به علم، وقوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أحذِّرك أنْ تكون من الجاهلين، فلما سمع نوحٌ عليه السلام ما وجهه ربُّه إليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

قال نوحٌ مخاطباً ربَّه، معترفاً بخطئه، طالباً الرحمةَ والمغفرةَ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ وقال لربِّه تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

٦- أمر اللهُ تعالى نوحاً عليه السلام ومن معه بالهبوطِ من السفينةِ إلى الأرض:

بعد أنْ جفَّ وجهُ الأرض أمَرَ اللهُ تعالى نوحاً ومن معه بالهبوط من السفينةِ إلى الأرضِ، فقال: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

جنـــــة السـنة

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [هود:٤٨]، القائلُ هو اللهُ تعالى أو الملائكةُ بأمرِهِ سبحانه، وقوله: ﴿ٱهْبِطْ﴾ أي: انزل من السفينةِ إلى الأرض، أو من الجبلِ الذي رستْ عليه السفينةُ، وهو الجوديُّ، وقوله: ﴿بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: اهبط بسلامٍ وأمنٍ، ﴿وَبَرَكَٰتٍ﴾ أي: بنعم ثابتة، ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ أي: يكونون على الإيمانِ والتوحيدِ والصلاحِ ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ أي: وأُممٌ أخرى سنمتعهم متاعاً حسناً في هذه الحياةِ الدنيا، ثم يمسُّهم في الدنيا وفي الآخرة عذابٌ أليم، وهذا الذي قاله اللهُ تعالى لنوحٍ شاملٌ للبشرية كلِّها إلى يومِ القيامة، قال محمد بنِ كعب: «دخل في هذا السلام كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ إلى يوم القيامة، وكذلك في العذاب والمتاع كلَّ كافرٍ وكافرةٍ إلى يومِ القيامةِ» [ابن كثير: ٥٣٩].

٧- قصةُ نوحٍ التي قصّها الله على رسولِه ﷺ من أنباءِ الغيب:

أخبر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنَّ ما قصَّه عليه من قصةِ نوحٍ من أنباءِ الغيبِ، ما كان عنده ولا عند قومِهِ منها علم ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود:٤٩]، أي: تلك القصةُ التي قصصناها عليك من خبر نوحٍ وخبرِ قومه، وإنجائِه ومن معه في السفينةِ، وأمثالُ هذه القصةِ مما حدّثنا الله تعالى به في هذه السورة وغيرها، ولم يكن عند رسولنا ﷺ ولا عند قومه طرف من أخبارها، وقصةُ نوحٍ في أخبارِ الأممِ اليوم قصةٌ باهتةٌ، تكادُ تكون أشبه بالأسطورةِ والخرافةِ، الحقُّ فيها قليلٌ والباطلُ فيها كثيرٌ، فأنعم اللهُ علينا بتعريفنا بهذه القصةِ على أحسنِ وجهٍ، وأقومِ تفصيل، كأنما نشاهدها ونراها رؤيا عين.

رابعاً ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- عندما جاء أمر الله عزَّ وجل بالطوفانِ أمر اللهُ تعالى نوحاً أن يحمل في السفينة من كلِّ زوجين اثنين، وأهله المؤمنين ومَنْ آمن معه، وكانَ المؤمنون معه عدداً قليلاً.

٢- أمر نوحٌ أهله والمؤمنين معه أن يركبوا السفينةَ قائلين باسم الله مجراها ومرساها، وقد علَّمنا القرآنُ وعلَّمنا رسولُنا ﷺ دعاءً ندعو به إذا ركبنا الدوابَّ والسفنُ والمراكبَ.

جنـــــة السـنة

٣- صوَّر لنا ربُّنا تبارك وتعالى حالَ السفينةِ وهي تجري بركابها في موجٍ عظيمٍ كالجبالِ.

٤- نوحٌ ينادي ابناً له كان كافراً في معزلٍ، لينضمَّ إليهم، فيكونُ في السفينة، فيأبى ويقول: إنه سيأوي إلى قمةِ جبلٍ تمنعه من الغرق، قال نوحٌ: لا عاصم من أمر الله، وحال بينهما الموجُ، فكان من المغرقين.

٥- بعد أن تمَّ الطوفانُ، وغرق الكفارُ من قوم نوح، أمَرَ اللهُ تعالى أن تبلع الأرضُ ماءَها، وأمرَ السماءَ أن تتوقف عن الإمطارِ، وشربت الأرضُ الماءَ، وقضي الأمرُ بإهلاكِ الكفارِ من قومِ نوحٍ، واستوت السفينةُ على قمةِ جبل الجوديِّ في شمال العراقِ.

٦- نادى نوحٌ ربَّه في ابنه الهالكِ، فقد وعده اللهُ بإنجاءِ أهلِه، فأعلمه أنَّه وعده بإنجاءِ أهلِه المؤمنين، وهذا الولدُ كان من الكافرين.

٧- نوحٌ يتوبُ إلى الله تعالى من سؤاله في ابنه، فيتوبُ اللهُ عليه.

٨- بعد جفافِ وجهِ الأرض أمَرَ اللهُ نوحاً ومن معه أن يهبطوا إلى الأرض بسلام وبركاتٍ منه، عليه وعلى من آمن من ذريتهم، وأخبر نوحاً أنَّ هناك أُمماً من ذريتِهِ وذريةِ مَنْ معه سيكونون كفاراً، سيمتعهم في الدنيا ثم يأخذُهم عذابٌ أليم.

٩- قصةُ نوحٍ التي قصَّها على رسولِهِ ﷺ وعلى أُمته من أنباءِ الغيبِ التي لم نكن نعلمها وندري بها.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السابع من سورة هود
قصة رسول الله هودٍ مع قومِهِ عادٍ

أولاً: تقديمٌ

حدثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- في آياتِ هذا النصِّ عن قصةِ رسولِ الله هودٍ مع قومِهِ عادٍ، فقد أرسله اللهُ تعالى داعياً قومَه إلى التوحيد، وبيَّن لهم أنَّ أجْره على الله تعالى، وأمَرهم بالتوبةِ والاستغفار، ووعدهم إنْ فعلوا ذلك أن يُكثِّر خيرَهُمْ، ويزيد قوتَهمْ، فاعترضوا وأنكروا عليه، ونَفَوْا أنْ يكون قد جاءَهم بالبيناتِ، ورفضوا أنْ يتركوا عبادةَ الآلهةِ التي يعبدونها، ورفضوا الإيمان له، وزعموا كاذبين أنْ بعضَ آلهتهم أصابته بسوءٍ، فواجههم بخطابٍ قويٍّ شديدٍ، وأنكر عليهم، ما يقولونه، وتبرأ من آلهتهم، متوكلاً على الله معتمداً عليه، مخبراً أنه قادرٌ على كلِّ شيءٍ، وأعلمهم أنَّ نواصي الدوابِ بيده، وأعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنه نجَّى هوداً ومَنْ آمن معه، وأهلك القومَ الكافرين.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ
﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ
ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟
يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا
ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا
ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ
جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ
عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٠-٦٠].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى هوداً إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده:

أعْلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسل هوداً إلى قومه ليعبدوا الله وحده ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [هود:٥٠] وعادٌ قبيلةٌ

جنـــــة السـنة

عظيمةٌ كانت تسكنُ الأحقافَ في جنوبِ الجزيرةِ العربيةِ، وكانوا يعبدون الأوثانَ، وكانوا أوّل أمة بعد قوم نوحٍ، فأرسل إليهم عبدَه ورسولَهُ هوداً، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ أي: اعبدوا اللهَ تعالى وَحْدَهُ لا شريكَ له، ليس لكم معبودٌ إلا الله وَحْدَهُ، وقوله: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝٥٠﴾ يعني ما أنتم إلا كاذبون في إشراككم معه الأوثانَ.

وقال لهم هودٌ أيضاً: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ [هود:٥١]، قال لهم: لا أسألكم على تبليغي إيَّاكم ما أنزلَ اللهُ تعالى إليَّ أجراً، أي: مالاً وثواباً، إن أجْرِيَ وثوابي إلاَّ على الذي فطرني أي: خلقني، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٥١﴾ أي: أفلا تعقلون ما أرسلتُ به إليكم

وقال لهم أيضاً: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ [هود:٥٢]، ونادى هودٌ قومَهُ، وطلب منهم أن يتوبوا، وينيبوا، ويرجعوا إلى الله تعالى، فإنْ فعلوا ذلك يرسل اللهُ عليهم الماءَ من السماءِ مدراراً، أي: كثيراً، ويزدكُمْ قوةً إلى قوتكم، أي: شدةً إلى شدَّتِكُمْ، وذلك بزيادة أموالِهِمْ، وتكثير أولادِهِمْ، وإعطائهم القوةَ الحربيةَ التي توجب لهم المهابةَ والقوة، وقوله: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ۝٥٢﴾ أي: لا تعرضوا عن ما أدعوكم إليه آثمين

وهذا ليس خاصّاً بهم وحدهم، بل هو الشأنُ مع الأمم كلها، كما قال نوحٌ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢].

٢- جوابُ قومُ نوحٍ على ما دعاهم رسولهم إليه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بم أجابَ هوداً قومُهُ، فقال: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود٥٣-٥٤]. قال قومُهُ له مجيبين على دعوتِهِ لهم إلى الله تعالى: ما جئتنا يا هودُ ببينةٍ، أي: بحجّةٍ واضحةٍ تدلُّ على صدقِ ما تدعيه، وأنك رسولٌ مرسل من ربِّ العالمين، ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ ونحن لسنا على استعدادٍ لترك الآلهة التي نعبدها، لأنَّك أمرتنا بتركها، ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ ومعنى اعتراك: أي: أصابك ومسَّك بعض

جنـــــة السـنة

آلهتنا بسوء أو جنون، فأفسدَ عقلك وأخبلك، وهذا يدلُّ على أنَّ هؤلاءِ الكفارَ الضالين يعتقدون أنَّ هذه الأصنامَ والأوثانَ لديها قوةٌ غيرُ عاديةٍ، تضربها غيرها وتنفعها، ومن ذلك إضرارُها بهودٍ، لأنه دعا إلى تركها وهجرها.

٣- ردُّ هودٍ على قومِهِ:

ردَّ هودٌ ﷺ على قومِهِ ردّاً قوياً، وقد بدا ردُّه مستمسكاً بالله معتصماً به، متوكلاً عليه، وقد بدا من ردِّه الشجاعةُ والقوةُ، فقد كان في ردِّه غير هيابٍ، ولا وَجِلٍ: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [هود:٥٤]. قال هودٌ لقومه إنِّي أشهدُ اللهَ، وطالبهم أن يشهدوا وإن كانوا ليسوا أهلاً للشهادة ليقيم عليهم الحُجَّة أنه بريءٌ مما يشركون، أي: مِنَ الآلهة التي يعبدونها من دونِ الله.

وقالَ هودٌ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود:٥٥]، طالب هودٌ قومَهُ أن يكيدوه جميعاً، أي: هم وآلهتُهُمْ، وهذا الذي فعله من أعظمِ آياتِ الأنبياء أنْ يتحدّاهُمْ هم وآلهتهم مع كثرةِ عدَدِهم واجتماعِ كلمتهم على عداوتِهِ، فمن يقول هذا القولَ، فهو غيرُ خائفٍ، ولا وَجِلٍ منهم، ومعنى ﴿لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لا تُؤَجِّلون.

وقال لهم هودٌ أيضاً: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود:٥٦] أي: إني اعتمدتُ على الله، فهو يعصمني من كيدكم، وهو ربِّي سبحانه وربُّكم، وقوله: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ هو مالكها، ومصرِّفُ أمورها، ومن أخذ بناصيةِ شيءٍ فقد قَهَرَه، والناصيةُ قصاصُ الشعر من مقدمِ الرأس، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ أي: على العدلِ والحقِّ، وسينصرني عليكم، ولن يسلطكم عليَّ.

وقال هود لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ [هود:٥٧]، قال لهم: إن تتولَّوْا عما جئتكم بهِ من الحقِّ، فقد قمتُ بما أمرني ربي به، وهو إبلاغكم الحقَّ الذي أرسلني به إليكم، وهذا ما أُطيقه، وتهدَّدَهم بأنَّ اللهَ تعالى سيهلكهم، ويأتي بآخرين من بعدهم، ولن يضيروا اللهَ تعالى شيئاً، وقال لهم في آخر ما قاله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾ .

جنـــــة الســـــنة

٤- **إنجاءُ اللهِ تعالى نبيَّهُ هوداً والمؤمنين معه وإهلاكُهُ الظالمين من قومِهِ:**

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بأنه لما جاء أمره نجّى هوداً والذين آمنوا معه وأهلك الكفارَ من قومِهِ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود:٥٨]، أي: لَمَّا جاءَ أمرُ اللهِ تعالى بإهلاكِ عادٍ، ﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُۥ﴾ أي: نجيناهم مِنَ العذابِ الذي أحاط بالكافرين من قومِهِ، وقد أرسل اللهُ تعالى عليهم الريحَ سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً، وقد نجاهم ربُّ العزَّة -سبحانه- مِنَ العذابِ برحمةٍ عظيمةٍ من عنده، ونجَّاهم من عذابٍ غليظٍ، أي: شديد، واللهُ تعالى أعلم بالطريقةِ التي حفظ اللهُ تعالى بها هوداً والذين آمنوا معه.

أما الكفار من قوم عاد، فقال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ وَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ [هود:٥٩-٦٠].

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ الإشارةُ إلى الذين أرسل إليهم هودٌ، فكفروا به، فأنزل بهم عذابَهُ، وقوله: ﴿جَحَدُوا بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: كفروا بالآياتِ، وهي المعجزاتُ البيناتُ التي أرسل بها هوداً لتدلَّ على صدقه، ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُۥ﴾ لم تكذب عادٌ إلا رسولاً واحداً، ولكن من كذَّب رسولاً واحداً، فقد كذَّب الرسلَ جميعاً، وهذا كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء:١٠٥]، وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء:١٢٣]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء:١٤١]، والآيات في ذلك كثيرة. وقوله: ﴿وَاتَّبَعُوٓا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾﴾ الجبارُ: المتكبرُ، والعنيدُ: الطاغي الذي لا يقبل الحقَّ، ولا يذعن له، وهو صنفٌ من البشر يبدو أنه كان كثيراً في قومِهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي: أردفوا في الحياةِ الدنيا لعنةً، أي: تلحقهم، ولا تنصرف عنهم، واللعنةُ: الإبعادُ من رحمةِ الله ومِنْ كلِّ خير، وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ﴾ أي: هناك لعنةٌ أخرى تلبسهم يومَ القيامةِ، ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: كفروا بربهم، ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾﴾ دعاء عليهم أن يبعدَهُم الله من رحمتِهِ، وهو واقعٌ بهم لأنَّ مصدره ربُّ العزةِ الذي لا رادَّ لقضائه، ولا ملغي لأمره.

جنـــــة السـنـة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسلَ اللهُ تعالى هوداً إلى قومِهِ عادٍ، فأمرهم بعبادةِ الله تعالى وأعلمهم بأنه لا يسألهم على دعوتِهِ إياهم مالاً، فأجرُهُ على الله تعالى، وأمرهم بأن يستغفروا ربَّهم، ثم يتوبوا إليه.

٢- عارضَ قومُ هودٍ هوداً، وأنكروا أنْ يكون قد جاءَهم بحجَّةٍ تدلُّ على صدقِهِ، وزعموا أنَّ بعضَ آلهتهم قد أصابَه بسوء.

٣- أغضب ما قاله قومُ هودٍ هوداً، فاشتدَّ في خطابه لهم، وأشهدَ اللهَ وأشهدهم أنه بريءٌ من آلهتهم التي يعبدونها، وطلبَ منهم أن يكيدوه جميعاً من غير إمهال، وأعلن لهم أنَّه متوكِّلٌ على الله تعالى، الذي هو آخذ بنواصي الدوابِّ كلها.

٤- أعلن هودٌ ﷺ لقومه، أنَّه بلغهم ما أرسله اللهُ تعالى به إليهم، وأنَّه قادرٌ سبحانه على أن يهلكهم، ويأتي بقومٍ غيرهم.

٥- لَمَّا جاءَ أمْرُ الله تعالى بإهلاكِ قومِ هودٍ، نجَّى اللهُ هوداً ومَنْ معه برحمةٍ منه، وأهلك الكفارَ زمن قومِ هودٍ الذين كذَّبوا بحجج الله التي جاءتهم، وعَصَوْا رسلَه، واتبعوا أمرَ الجبابرةِ من قومهم.

٦- أخبرنا ربُّنا تبارك وتعالى أنه أتبع الكفارَ من قوم هودٍ في هذه الدنيا لعنةً، وكذلك في يوم القيامةِ، فقد كان قومُ هودٍ كافرين.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن من سورة هود

قصة رسولِ الله صالحٍ ﷺ مع قومِهِ ثمود

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آيات هذا النص بقصةِ نبيِّه صالحٍ مع قومِهِ ثمود، الذين كانوا في شمال الجزيرة العربية، بين المدينة المنورة وتبوك، فأمرهم بالتوحيد، ونهاهم عن الشركِ، فرفضوا دعوته، وكفروا به، وأخرج لهم من الصخر الأصمِّ ناقةً عشراءَ، تشرب ماءَ بئرهم يوماً، ويشربونه يوماً، فلم يصبروا عليها، وعقروها، فأهلكهم اللهُ تعالى، ونجَّى صالحاً والذين آمنوا معه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود:٦١-٦٨].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسلَ اللهُ تعالى رسولَهُ صالحاً إلى قومِهِ ثمود:

أرسل اللهُ -تعالى- إلى ثمودَ أخاهم صالحاً، وثمودُ قبيلة كانت تسكن في مدائن الحِجْر، بين تبوك والمدينة، وكان قومُ نوحٍ أولَ الأمم في الأرض، وأنشأ الله بعد هلاكهم عاداً، وجاءَت ثمودُ بعد قوم عادٍ، قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ ﴾ [هود:٦١]، أي: وأرسلنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم صالحاً، أي: أخوهم في النسب.

جنـــــة السـنـــة

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود:٦١] فأمرهم بعبادةِ الله تعالى وَحْدَهُ، فهو الإلهُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، أي: ويدلُّ على استحقاقِهِ وَحْدَهُ العبادةَ دون غيره، أنه هو الذي أنشأكم من الأرض، أي: ابتدأ خلقكم بخلقِ أبيكم آدمَ عليه السلام، ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي: جعلكم عمّارَها وسكانها ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ [هود:٦١]، أي: سلوه المغفرةَ من ذنوبكم، ومن أعظم ذنوبهم عبادةُ الأصنامِ، أمرهم أن يستغفروه استغفاراً يؤدي بهم إلى التوبةِ والإنابة إلى الله تعالى ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ٦١﴾ [هود:٦١]، أي: إن دعوتموه بصدْقٍ فإنه قريبٌ يجيبُ دعوةَ الداعي إذا دعاه.

٢- ردَّ قوم صالح على ما دعاهم إليه، وما أجابهم به:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَ صالح ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ [هود:٦٢]، أي: كنا قبلَ أنْ تدعونا إلى ما دعوتنا إليه نرجو أنْ نسودك، ونجعلكَ فينا رئيساً مطاعاً، ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود:٦٢] ولامه قومُهُ على نهيِهِ إياهم أن يعبدوا ما كان يعبد آباؤهم، وقالوا له: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾، أي: وإننا لفي شكٍّ مما تدعوننا من عبادةِ الله وَحْدَه، وتركِ عبادةِ الأوثانِ، وقوله: ﴿مُرِيبٖ﴾ والريب قلق النفس وانتفاء الطمأنينة.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ صالحاً خاطب قومَهُ قائلاً: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود:٦٣]، قال صالحٌ مخاطباً قومَهُ أرأيتم إن كنت على بينة من ربي، أي: على حجَّةٍ ظاهرةٍ وبرهان آتٍ إليَّ من ربي، ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ المرادُ بالرحمةِ هنا النبوةُ، فهي أعظمُ رحمةٍ، وقوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ﴾ أي: لا أحد يمنعني من عذابِ الله إن عصيتُهُ ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ أي: إنما تزيدونني بتثبيطكم إياي غير تخسير، بأنّ تجعلوني خاسراً بإبطالِ عملي، والتعرضِ لعقوبةِ ربي.

٣- أعطى اللهُ تعالى قوم صالح ناقة خرجت من الصخر الأصم لتكون آيةً تدلُّ على صدقة:

أخرج اللهُ تعالى لقوم صالحٍ الناقةَ آيةً تدلُّ على صدقة وقال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾

جنـــــة السـنـــة

[هود:٦٤]. وقدأخرج اللهُ لقومِ صالحٍ هذه الناقةَ من الصخر الأصمِّ من لحم ودم، وكانت تشربُ ماءَ بئرهم يوماً كاملاً، ويأخذوا منها من الحليبِ ما شاؤوا وفي اليوم التالي لا تقربُ ماءَهم ﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ ﴾ [الشعراء:٢٦]، ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القمر:٢٨]، وقد أمرهم صالحٌ أن يتركوا الناقةَ تأكلُ من أرضِ الله، وتشربُ من ذلك الماءِ، ولا يمسوها بسوء، فيأخذهم عذابُ الله تعالى.

فتمادى قومُه، وطَغَوْا، وعقروا الناقةَ، فأخذهم العذابُ بعد ثلاثةِ أيامٍ من عقرِ الناقةِ ﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [هود:٦٥].

٤- نزولُ العذابِ بثمود:

ولما جاء أمْرُ الله تعالى القاضي بإنزالِ العذاب بثمودَ نجّى اللهُ تعالى صالحاً والذين آمنوا معه برحمةٍ من عنده، ونجّاهم من خزي ذلك اليوم، ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ ﴾ [هود:٦٦] والخزيُ الذلُّ والمهانةُ، وكان عذابُهم بالصيحة، وقولُ صالحٍ في ختام الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ ﴾ [هود:٦٦]، أي: القادرُ الغالبُ الذي لا يعجزه شيءٌ، ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [هود:٦٧-٦٨]، أخذت ثمودَ الصيحةُ بعد مضيِّ ثلاثةِ أيامٍ، صاح بهم مَلَكٌ، فماتوا، وجاءتهم الصيحةُ من السماء، وكان مع الصيحةِ رَجْفَةٌ أيضاً ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف:٧٨] ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ أي: ساقطين على الأرض صَرْعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية، قد لصقوا بالترابِ كالطيرِ إذا جثمت ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ ﴾ أي: كأن لم يقيموا في تلك الديار، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ ﴾ صَرَّحَ بكفرهم للدعاءِ عليهم، ثم قال: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: ألا أبعد اللهُ ثموداً لنزول العذاب بهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ تعالى رسولَهُ صالحاً ليأمر قومه بعبادةِ الله وحْدَهُ وتركِ ما يعبدُ من دونه، وقد دعاهم صالحٌ إلى ما أمَرَهُ اللهُ تعالى أن يدعوهم إليه، وأعلمهم أنَّ اللهَ تعالى أنشأهم مِنَ الأرض، واستعمرهم فيها، وطلب منهم أن يستغفروا ربَّهم، ويتوبوا إليه.

جنـــــة السـنـــة

٢- رفضَ قومُ صالحٍ دعوةَ نبيهم صالح، وبين لهم صالحٌ أنه واثقٌ من أنه مرسلٌ إليهم، ولديه الحججُ البينةُ التي تدلُّ على صدقِهِ فيما جاء به.

٣- أخرج اللهُ -تعالى- لقومِ صالحٍ الناقة آيةً عظيمةً من الصخرِ الأصمِّ، كانت تشربُ ماءَ بئرهم يوماً، ويشربون ماءَه يوماً، وفي يوم شربها، يأْخذون ما شاؤوا من لبنها.

٤- اعتدى قومُ صالحٍ وطغَوْا وعقروا الناقةَ، فمتَّعهم اللهُ تعالى ثلاثةَ أيام، ثم أخذتهم الصيحةُ والرجفةُ، فأهلكهم ربُّ العزة، ونجَّى صالحاً والذين آمنوا معه.

جنـــــة السـنــــة

النص القرآني التاسع من سورة هود

مرورُ ملائكةِ الرحمنِ بنبي الله إبراهيم فبشروه بالولدِ في طريقهم لإهلاكِ قومِ لوطٍ

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنَّ ملائكةَ الرحمنِ مَرُّوا في طريقهم إلى ديارِ قومِ لوطٍ -حيث أُرسلوا لإهلاكهم- على خليلِ الرحمنِ إبراهيم عليه السلام، فبشروه وزوجَهُ بإسحاقَ ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، وأخبروه أنهم أُرسلوا لإهلاك قوم لوط.

لقد جاء رسلُ الله مِنَ الملائكة من عند الله بأمرين متناقضين، الأول: بشرى لإبراهيم وزوجِهِ بالولدِ، وولدِ الولد، وسيكون من هذه الذرية أممٌ عظيمة، فيها الرسلُ والأنبياءُ والصالحون. والثاني: تدميرُ أمّةٍ قائمةٍ كفرت وأشركت، هي قومُ لوطٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾
فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا
بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ
إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ
أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

[هود:٦٩-٧٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- **مجيءُ الملائكةِ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام:**

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ ملائكةَ الرحمنِ جاؤوا إبراهيمَ عليه السلام، يحملون له البشرى بالولدِ من عند الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود:٦٩]، واللامُ في قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ الموطئةُ للقسم، وقوله:

جنـــــة السـنــة

﴿جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: رسلنا من الملائكةِ وكانوا في صورةِ رجال، فلم يعرفْ إبراهيمُ أنهم ملائكةٌ في أوّل الأمر، فلما وصلوا إلى مسْكَنِهِ ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾ أي: قالوا: سلاماً عليكم، وهذا يدلُّ على أنَّ تحيةَ السلامِ كانت معروفةً في تلكَ الأيام، ﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: ردَّ عليهم إبراهيمُ تحيتهم بمثلها، ثم سارعَ إبراهيمُ عليه السلام بإحضارِ الضيافةِ، وقوله: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أي: ما تأخّر، وما أبطأ ﴿أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾ أي: عجلٍ مشويٍّ، وهذا يدلُّ ما كان عليه إبراهيم من كَرَمِ الضيافةِ.

ولكن الضيوفَ لم يتقدموا لتناول الطعام، ولم يمدُّوا أيديهم لتناوله ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ﴾ [هود:٧٠]. أي: استنكر عَدَمَ قبولِ تناولِ طعامِهِ، ﴿وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ أي: فَزِعَ منهم في قلبه، وعادةُ الناس أنّهم يفزعون، ويتخوفون إذا امتنع الضيوفُ من تناولِ الطعامِ الذي قدموه لضيافتهم، لأنَّ في هذا مَظِنَّةً أنهم يريدون بهم شرّاً، عند ذلك كشفوا له حقيقةَ أمرهم ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود:٧٠]، أي: عرّفوا إبراهيمَ عليه السلام أنّهم ليسوا بشراً، بل هم رسلُ الله تعالى مِنَ الملائكةِ، أرسلهم ليهلكوا قومَ لوطٍ، فذهب عن إبراهيم الرّوعُ عندما علم أنّهم ملائكةٌ، فالملائكةُ لا يأكلون الطعامَ، والملائكةُ لا يخيفون نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام ، والآية تدلُّ على قدرةِ الملائكة على التشكُّلِ في صورةِ رجالٍ من البشرِ.

٢- الملائكة تبشِّر سارةَ بالولدِ وولدِ الولدِ:

كانت امرأةُ إبراهيم قائمةً تخدم ضيوفها، أو واقفةً بجوارهم، فلما سمعتْ ما أخبروا إبراهيم به ضحكت فلما ضحكت بشروها بأنها ستلدُ غلاماً اسمه إسحاقَ، وبشّروها بأنَّ إسحاقَ سيأتيه ولدٌ يسميه يعقوبَ ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود:٧١] وقد أخطأ من ظنَّ من المفسرين أن ضَحِكَ زوجةِ إبراهيم كان بَعْدَ البشارةِ، لأن الآية تقول: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا﴾ فالفاءُ تدلُّ على الترتيبِ والتعقيبِ، وهذا يدلُّ على خطأ من فسَّر الضحكَ بالحيضِ بدعوى أنهم بشروها بالولدِ فضحكت، أي: حاضتْ، فالضحكُ كان قبل التبشير بالولدِ.

وفي هذه الآيةِ ردٌّ على ما حَرَّفه اليهود في التوراةِ حيث زعموا أنَّ الذبيحَ من أبناء إبراهيم هو نبيُّ الله إسحاق، إذ كيف يُبَشَّر إبراهيمُ بإسحاقَ، ويُبَشَّر بأنَّ إسحاقَ سيأتيه ولدٌ

جنـــة السـنـة

يسميه يعقوبَ، ثم يؤمرُ إبراهيمُ بذبحِ إسحاقَ، مع الإخبار عنه، وهو لا يزالُ في عالمِ الغيب بأنه سيأتي منه ولد يسمى يعقوب.

وهذه البشرى وإنْ كانت لإبراهيم، إلاّ أنَّ الملائكةَ خاطبت بها سارةَ زوجتَه، ليدلَّ ذلك على أن الولَدَ سيكون لإبراهيم من زوجته سارة، لا من زوجةٍ غيرها.

فلما سمعت سارةُ زوجةُ إبراهيم البشرى بالولدِ وولدِ الولدِ عجبتْ واستغربتْ و﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود:٧٢]. أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ زوجَ إبراهيم سارة لما سمعتْ البشرى، لم تضحكْ كما ذهبَ إليه بعضُ المفسرين، وإنما قالت متعجبةً مستغربةً: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ أي: يا هلاكي، ولم ترد بذلك الدعاءَ على نفسها، ولكنها قالت هذه الكلمةَ التي تقولها الناسُ كثيراً إذا حزبهم أمرٌ فظيعٌ مستغربٌ، وقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ أي: أألدُ وأنا عجوزٌ، والعجوزُ الشيخةُ الكبيرةُ، والجمعُ عجائز، وقالت: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًاۖ﴾ والبعلُ: الزوجُ، والشيخُ: الرجلُ الكبيرُ، الذي لا تحبل النساءُ من مثله، وقالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ أي: غريبٌ متعجب منه. وقد أخبرنا ربّنا تبارك وتعالى في موضعٍ آخر أنها لم تكتفِ بهذا القول، ولكنَّها مع ذلك ضربتْ وجهها بيدها ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات:٢٩].

وهذا الذي فعلته سارةُ يردُّ على من يزعم على أنَ ولادَةَ المرأةِ في مثل هذا السنِّ، لم يكن مستغرباً في تلك الأيام.

فلما سمع الملائكةُ ما قالته سارة ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود:٧٣]. قال الملائكةُ لسارة ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِۖ﴾ وهذا السؤالُ منهم للإنكارِ، فالله قادرٌ على كلِّ شيء، وقادرٌ على أنَّ يعطي المرأةَ الولدَ، ولو أصبحت عجوزاً في سنِّ سارةَ، وقوله: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ﴾ هذا دعاءٌ من الملائكة لسارة وزوجها نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، قالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، ورحمةُ الله واسعةٌ، وبركاته عليكم يا أهل البيت، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ والحميدُ الذي تحمد أفعالُه، وهو بمعنى المحمود، والماجدُ، وهو ذو الشرف والكرم.

٣- إبراهيم عليه السلام يجادلُ الملائكةَ في قومِ لوطٍ:

يخبر اللهُ -تبارك وتعالى- أنه ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود:٧٤]. يُخبرُ تعالى أنه لما ذهب عنه الروعُ، وهو ما أوجس من الملائكةِ خيفةً

جنـــــة السـنـة

حين لم يتناولوا طعامه، ﴿وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ أي: بإسحاق ومن وراءِ إسحاقَ يعقوب ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ أي: في إنزالِ العذابِ بهم، وقد أثنى ربُّ العزة على رسولِهِ وخليله إبراهيم بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود:٧٥]، أي: كان إبراهيمُ ﷺ حليماً، أي: واسعَ الصدر ذا أناة، وكان أوَّاهاً، أي: كثيرَ التأوه، وقيلَ الأوّاهُ: الرحيمُ، منيب: أي رجَّاعٌ إلى ربِّ العزةِ سبحانه.

وقد قالت رسلُ الله تعالى لإبراهيم: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود:٧٦]، طلبت رسلُ الله تعالى من إبراهيمَ أن يعرضَ عمَّا يجادلُهم ويخاصمهم فيه، وقالوا له: إنه جاء أمرُ ربِّكِ بإهلاكِ قوم لوطٍ وإذا جاء أمرُ الله تعالى فإنَّه لا يؤخر، وإنه واقعٌ بهم عذابٌ غيرُ مردودٍ، أي: لا يستطيعُ أَنْ يوقفه أو يردَّه أحَدٌ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذ النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - جاءتْ الملائكةُ رسولَ الله تعالى إبراهيمَ في صورةِ رجالٍ، فقدَّمَ لهم الضيافةَ، فلما لم يأكلوا منها نكرهم، وأوجس منهم خيفةً، فكشفوا له حقيقةَ أمرهم وأنهم لا يأْكلون لأنهم ملائكة.

٢ - حملت الملائكةُ إلى زوجةِ إبراهيم البشرى بالولدِ وولدِ الولدِ لها ولزوجها رسولِ الله إبراهيم ﷺ، فلما تعجبت من هذه البشرى التي تجعلها تلدُ في مثلِ هذه السنِّ، فأعلموها أنَّ اللهَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ورحمته وسعت كلَّ شيء.

٣ - الملائكةُ عندهم القدرةُ على التشكل بغير الخلقةِ التي خلقهم اللهُ عليها، كما تشكلت الملائكةُ الذين جاؤوا إبراهيمَ في صورةِ الرجالِ الذين استضافهم.

٤ - الملائكةُ لا يأْكلون ولا يشربون، خلافاً لما زعمه اليهودُ في التوراة.

٥ - جادلَ إبراهيمُ ﷺ رسلَ الله من الملائكة في إهلاكِ قومِ لوطٍ، فأعلموه بأنَّ ذلك أمر قد قُضِيَ، وفُرِغَ منه، ولا بدَّ أنْ يقع كما قدَّره اللهُ تعالى.

٦ - أثنى ربُّ العزةِ على رسولِهِ وخليله إبراهيم بأنَّه حليمٌ أوَّاه منيب.

٧ - حملَ الملائكةُ في رحلةٍ واحدةٍ أمرين متناقضين، حملوا البشرى لإبراهيم بولدٍ يأتيه على كبره وكبر زوجته، وسينشأ من ذريته أُمم عظيمة، وحملوا التكليفَ بإهلاكِ قومِ لوطٍ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني العاشر من سورة هود
إهلاك الله تعالى قوم لوط

أولاً: تقديم

حدثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنَّ الرسلَ من الملائكةِ الذين جاؤوا إبراهيمَ، وصلوا إلى لوطٍ في صورةِ شُبَّانٍ حسانٍ، واستضافوه، فساءَه مجيئُهم، وضاقَ صَدْرُه بهم، وقال: هذا يومٌ عصيبٌ، وجاءَه قومُه مسرعين يريدونَ الفجورَ بضيوفِه، فحاول أنْ يردَّهم بكلِّ ما أوتي من قوةٍ في الخطابِ، ولكنَّهم أصرُّوا على تحقيقِ مرادهم، فكشفت الملائكةُ للوط عن حقيقة أمرهم، وطالبوه أن يخرجَ من القريةِ هو وأهله، ويسري بهم في الليل، ولا يلتفتْ منهم أحَدٌ، فالتفتتِ امرأتُه، فهلكت، وأنزلَ اللهُ تعالى عذابَهُ بقوم لوط مع شروقِ الشمسِ، وجعل عاليها سافلها، وأمطرَ على القومِ المعذبين حجارة من سجيلٍ منضودٍ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٧٧-٨٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجيءُ رسل الله من الملائكة لوطاً عليه السلام:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ رسلَ الله مِن الملائكةِ جاؤوا لوطاً بعد خروجهم من عند نبيِّ الله إبراهيم: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود:٧٧]، وكانت الملائكةُ في صورة شُبَّانٍ حسان الوجوه، فسيءَ بهم نبيُّ الله لوطٌ، أي: ساءَه

جنـــــة الســـــنة

مجيئُهم، لأنه لم يكن يعلم أنَّهم ملائكةٌ، وخاف عليهم قومَهُ أنّ يفعلوا بهم الفاحشةَ، ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: وضاقت نفسُهُ بسببهم، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ أي: هذا يوم شديدٌ، لأنه يعلم أنَّه سيحصل مواجهةٌ بينه وبين قومِهِ بسبب ضيوفِهِ.

٢- المواجهةُ بين لوطٍ وقومِهِ:

بعد أن جاءت ملائكة الرحمن إبراهيم وبشروه بما بشروه به، جاؤوا لوطاً في صورة شباب حسان الوجوه، فسيء بهم وضاق بهم ذرعاً ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾﴾ [هود:٧٧].

لقد ساء مجيئُهم لوطاً، وضاق بهم، فقد خشي عليهم قومه، ووقعَ ما ظنَّ لوطٌ أنه سيقعُ ويحدثُ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:٧٨]. يخبرنا رَبُّنا - تبارك وتعالى- أنَّ قومَه جاؤوه ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: جاؤوه مسرعين مهرولين لما بلغهم خبرُ استضافةِ لوطٍ لهؤلاءِ الشبان، ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: كانوا يقترفون جريمةَ اللواطِ، فلما رأى لوطٌ عليه السلام جموعَهُمْ تتدفقُ إليه، وقد أحاطوا منزله، وطرقوا عليه بابه، وطالبوه أنْ يسلِّم إليهم ضيوفَهُ، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود:٧٨] نادى لوطٌ قومَهُ، وقال لهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ أرادَ ببناتِهِ نساءَ قومِهِ، لأنَّ نبيَّ كلِّ قوم بمثابة أبٍ لهم، وكذلك كان رسولنا ﷺ، وكانت نساؤه أمهات للمؤمنين، وإلا فلو كان المرادُ تزويجهم بناتِهِ من صلبه، فما تغني البنت والبنتان والثلاثةُ مع تلك الجموعِ الكثيرةِ من الرجالِ، ويشير إلى هذا قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وقال لهم في خطابه إيَّاهم: ﴿هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨] أي: إن إتيانَ الرجالِ زوجاتهم من النساءِ هو طريقُ الطهرِ والفضيلةِ الذي شرعه اللهُ تعالى وسنَّه، وإتيانُ الرجالِ الذكورِ طريقُ الرذيلةِ والقذارةِ والفجورِ، وقال لهم لوط: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود:٧٨]، قال لهم في ختام كلامه معهم: اتقوا اللهَ ربَّكَمْ بمخافتِهِ، وفعلِ ما أمَرَ وترك ما نهى، ومِنْ ذلك اجتنابُ ما كانوا يمارسونه مِنَ اللواط، وقال لهم: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي: لا تفعلوا بضيفي فعلاً أخزى به، أي: أخجلُ منه، وأستحي منه، وقال لهم: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ أليس فيكم رجلٌ عاقلٌ يرشدُكُم إلى ترك هذا العملِ القبيح،

جنـــــة السـنــة

ويمنعكم منه؟ فأجابوه جواباً مغرقاً في الجهل: ﴿قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾ [هود:٧٩]، قالوا له: أنت تعلم أنّه ليس لنا ببناتك حقٌّ وأنت تعلم ما نريده من إتيانِ الذكورِ، ومن عجبٍ أن يتكلم هؤلاء الضالون الفجرة عن الحقوقِ، في الوقتِ الذي ينتهكون فيها الحقوقَ.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ [هود:٨٠]، قال لوطٌ عليه السلام: لو أنَّ لي بكم قوةً، أي: جيشاً يحميه، ويدافعُ عنه، أو عشيرةً قويةً تأتمر بأمره، وتدفعُ ظلم هؤلاءِ الظالمين، والركنُ الشديدُ هو الذي يحميه، ويدافعُ عنه، أي: لكنت واجهتكم، وأدبتكم، ودفعتكم عن نفسي وضيفي، ونحن نقولُ في هذا المقامِ كما قالَ رسولُنا ﷺ: «يَرْحَمُ اللهُ لوطاً، لقد كانَ يأوِي إلى رُكْنٍ شديدٍ» [البخاري: ٣٣٨٧. ومسلم: ١٥١ عن أبي هريرة رضي الله عنه].

٣- الملائكةُ يظهرونَ أنفسهم للوطٍ ويأمرونَهُ أن يخرج بأهله من تلك القرى:

ولما بلغ الأمرُ بلوطٍ إلى تلك الحالِ الصعبة التي قالَ فيها لوطٌ: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾ كشفَ الملائكةُ للوطٍ عن أنفسهم وعرَّفوه أنهم ليسوا شباناً حساناً يسهل أخذُهم والفجورُ بهم، إنَّهم ملائكةُ الرحمن الذين آتاهم من القوةِ ما لا يستطيع البشرُ أن يمسُّوهم بسوءٍ ﴿قَالُوا۟ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١].

وقد يسأل الذي يتدبر القرآن عن السبب الذي أخفى الملائكةُ أنفسهم عن لوطٍ من أجله، حتى وصلَ به الحالُ إلى هذه الدرجةِ من الضيقِ، والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالى -والعلم عند الله- أراد أن تحصلَ للوطٍ قناعةٌ قويَّةٌ بأنَّ قومه يستحقون العذابَ، فإنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام لو شاهدَ هذا الذي شاهده لوطٌ لما جادل رُسُلَ الله من الملائكةِ بذلك الجدال في شأن إيقاع العذابِ بقومِ لوطٍ.

كشف الملائكةُ عن أنفسهم، وقالوا له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود:٨١] أي: ملائكته الذين لا يستطيع البشر أن يضروهم شيئاً، أرسلنا لإهلاكهم، وإنهم ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١] أي: لن يستطيعوا الوصولَ إليكَ وإلى ضيفك بمكروه، وهذا يدلُّ على أنَّ قومه لم يستيطعوا أنْ يدخلوا عليه دارَه، وقد ضربتهم الملائكةُ بأجنحتها فطمستْ أعينهم، كما قال ربُّ العزة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر:٣٧]، وأمروه أن يسيرَ بأهله في آخرِ الليلِ ﴿فَأَسْرِ

جنـــــة السـنة

بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [هود:٨١]، أي: لا يلتفت منكم أحدٌ وراءَه، فإنَّ من يلتفت يصِبه من العذابِ ما أصابَ قومَ لوطٍ، ولذلك قال: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود:٨١] أي: لكن امرأتَك، فقدْ أخبر أنها ستلتفت، وأنه سيقعُ بها من العذاب ما وقع بقومها، فقد كان قلبها معهم، وإن كان جسدها مع لوط.

وختم الآيةَ بما قالته الملائكةُ للوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود:٨١] أي: إنَّ موعدَ عذابِهِمْ عندما يسفر صبح تلك الليلِ وقوله: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ هذا استفهامُ تقريري، ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ والجواب: نعم، هو قريب.

٤- إنزال العذابِ بقومِ لوطٍ:

ومع شروقِ الشمسِ من تلك الليلةِ التي عانى فيها لوطٌ ما عاناه نزل العذابُ بتلك الأُمّةِ الفاجرةِ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر:٧٣-٧٤]. وقال ربُّ العزةِ في هذا الموضع من هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود:٨٢-٨٣]. أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه لما جاء أمرُه بإيقاع العذابِ بتلك الأمّةِ الكافرةِ الضالةِ التي انتكستْ فطرتُها فجعل اللهُ تعالى عالي تلكَ الأرضِ سافلها، فدفنهم اللهُ تعالى في جوفِ تلك الأرضِ، هم ونساؤُهم وأولادُهم وحيوانُهم، وأمطر عليهم حجارةً من سجيلٍ، أي: حجارةٌ مصنوعةٌ من سجينٍ، أمطرها اللهُ على المعذّبين من تلكَ الأمم، وقوله: ﴿مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ أي: أن هذه الحجارةَ من مخازنَ منضودٍ بعضُها فوق بعض، وهذه الحجارةُ مسوَّمة، أي: مصنوعةٌ صناعة دقيقةً، وعليها علاماتٌ اللهُ أعلم بها ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ وهي ليست ببعيدةٍ عن الكفرة المشركين، إنْ شاء الله تعالى أهلكهم بمثلها.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرْنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- جاءَت رسلُ الله مِنَ الملائكةِ لوطاً متمثلين في صورةِ شبابٍ حسانٍ، واستضافوه، فساءَه مجيئهم، وضاق صدرُه بذلك، وقال: هذا يومٌ عصيبٌ، أي: شديدٌ.

جنـــــة السـنـــة

٢ - جاء قومُ لوطٍ يريدون الاعتداءَ على ضيوفِهِ، فحاول أن يثنيهم عن إهانةِ ضيوفه وإهانته بكلِّ ما أوتي من قوةٍ في الخطاب، ولكنَّهم أصروا، وشعر لوطٌ بضعفه، فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٖ شَدِيدٖ ﴿٨٠﴾﴾.

٣- كشف رسلُ الله مِنَ الملائكةِ عن حقيقةِ أمرهم للوطٍ، وطالبوه أن يخرج من تلك القريةِ هو وأهلُه، ولا يلتفتْ منهم أحدٌ، فلم يلتفت منهم إلا زوجتُه فإنها كانت كافرةً، فأصابها ما أصابَ قومَها.

٤ - أهلك اللهُ تعالى قومَ لوطٍ مع شروقِ الشمس، وجعل اللهُ عاليها سافلها، وأمطر اللهُ تعالى حجارةً من السماءِ مصنوعةً من سجيلٍ منضودٍ، مصنوعة صناعةً مُتْقَنَةً عند الله.

٥ - الحجارةُ التي عُذِّب بها قومُ لوط لا يزال يوجد أمثالها، ويمكن أن تنال الظالمين في كل عصرٍ ومصر.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الحادي عشر من سورة هود
قصةُ نبيِّ الله شعيبٍ عليه السلام مع قومِهِ أصحابِ مدين

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في آياتِ هذا النص أنه أرسل رسولَه شعيباً إلى قومِهِ آمراً إياهم بعبادةِ الله وحْدَهُ، وترك ما يعبدونه من الآلهةِ من دونِه، وقد كان منتشراً فيهم التطفيفُ في الكيلِ والميزان، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بإتمام الكيلِ والميزانِ، فرفضوا دعوته، فحاورهم طويلاً، وجاءَهم بالحجج والبيناتِ، والدلائلِ الظاهراتِ، فلما طالَ الأمرُ بهم، وأصرُّوا على كفرهم، استأصلهم ربُّ العزة بالصيحةِ، ومعها الرجفةُ والظلَّة، فزالوا وبادوا.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾ [هود:٨٤-٩٥].

جنـــــة السـنـة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى شعيباً عليه السلام إلى قومِهِ:

أرسَل اللهُ تعالى شعيباً إلى قومه بعبادةِ الله وحده، ونهاهم أنْ يعبدوا غيره، ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ [هود:٨٤]، وهذه القضيةُ هي القضيةُ الرئيسةُ التي يشتركُ الرسل جميعاً في الدعوةِ إليها، وهي عبادةُ الله تعالى وَحْدَهُ، وتركُ ما يُعبد من دونه، ثمَّ إنَّ كل رسول يدعو قومه إلى تَرْكِ الفسادِ الذي تلبسوا به دون غيرهم، فلوطٌ نهى قومَه عن اللواط، لأنه كان منتشراً فيهم، وشعيبٌ نهاهم عن التطفيفِ في الكيلِ والميزانِ، وهكذا على الدعاةِ اليوم في كلِّ عصر ومصر، أنْ يدعو الناسَ إلى عبادةِ الله وحده، والانتهاء عن الإشراك بالله تعالى، ثم ينفردُ كل داعيةٍ بمعالجةِ ما يثورُ في الديارِ التي يعيشُ فيها من الفسادِ، فمَنْ كان ينتشر في دياره الزنا، دعا إلى ترك الزنا، ومن انتشر في دياره السرقةُ دعا قومه إلى ترك السرقة، ومن انتشر في دياره الربا، فعليه أن يحاربَ الربا، وهكذا.

٢- نهى رسول الله شعيب قومه عن التطفيفِ في المكيالِ والميزان:

نهى رسولُ الله شعيبٌ قومَه عن التطفيف في الميزانِ، وكانوا يفعلونه، ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۚ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود:٨٤]، كان قومُ شعيبٍ يطففون الكيلَ والميزانَ، وذلك بأن يأخذوا ممن يشتروا منه الكيلَ والميزانَ زائداً إذا هم اشتروا، وإذا باعوا ما يكالُ ويوزن باعوه ناقصاً، قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ أي: إني أرى أرزاقكم وافرةً، وتجارتكم رابحةً، وأموالكم وفيرةً، فأنتم لستم بحاجة إلى أكل أموالِ الناسِ بالباطل، وما تفعلونه من التطفيف في الميزانِ يدمِّر اللهُ تعالى به أموالكم، ويذهبُ أرزاقكم ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ أي: وإني أخاف عليكم إنْ أنتم استمررتم بالشركِ بالله والتطفيفِ في الميزانِ أن يأخذكم عذابُ يومٍ لا يشذُّ عنه أحدٌ.

وأمرهم رسولُهم أنْ يوفوا الكيلَ والميزانَ ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود:٨٥]. أمرهم رسولُهم عليه السلام أنْ يوفوا الناسَ حقَّهم بيعاً وشراءً، وأن يحققوا العدلَ في ذلك كلِّه، فالعادلُ في بيعه وشرائه لا يطففُ في الميزانِ، وقوله: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ أي: لا تنقصوهم، ولا تظلموهم، ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ أي: لا تسيروا في الأرض مفسدين والمفسدُ هو المخرِّبُ للديارِ والزروعِ والثمارِ، والمدمِّرُ للإنسانِ والحيوانِ.

جنـــــة السـنـــة

وقال شعيبٌ لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿٨٦﴾﴾ [هود:٨٦] قال لهم: بقيةُ الله، أي: ما آتاه لكم بعد أن توفوا الناسَ حقوقهم بالمكيالِ والميزانِ، خيرٌ لكم مما تبخسونه الناسَ مِنْ أموالهم، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ أي: إن كنتم مصدقين بوعد الله ووعيدِه وحلالِهِ وحرامِهِ.

٣- ردُّ قوم شعيب عليه، وما أجابهم به:

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- بمَ أجابَ قومُ شعيبٍ شعيباً: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود:٨٧]. وجَّه قومُ شعيبٍ إلى شعيبٍ سؤالاً منكرين عليه مستهزئين به قائلين: أصلاتُكَ تأمرك أنْ نتركَ ما يعبدُ آباؤُنا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاءُ من الأخذِ والإعطاءِ والزيادةِ والنقصِ؟

إن قومَ شعيبٍ وغيرَهم كثيرٌ في مختلفِ العصورِ، يظنون أنَّ من حقِّهم أنْ يعبدوا ما يشاؤون، وأحقُّ شيءٍ يعبدُ ما كان يعبده الآباءُ والأجدادُ، ومن حقِّهم أنْ يتصرَّفوا في أموالهم كما يشاؤون، وكيف يشاؤونَ، والرسلُ وأتباعهم يعلِّمون الناسَ أنَّ لهم ربّاً يشرِّعُ لهم في أنفسِهِمْ وأزواجِهِمْ وأولادِهِمْ ومجتمعاتِهم وأموالِهِمْ، ويجب على الناس أن يطيعوا ربَّهم فيما شرع لهم، وسيحاسبُهم على ذلك كلِّه.

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ لقد كان شعيبٌ في قومِهِ مثل رسولنا ﷺ في قومه، فقد كان عندهم أصدقَ الناسِ وأكرمَ الناسِ وأجلَّ لناس، وقد قالوا له: «ما جربنا عليك كذباً» [البخاري: ٤٩٧١، ومسلم: ٢٠٨].

فأجاب شعيبٌ قومَهُ مفقهاً ومبصراً لهم ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود:٨٨]. قال لهم: أخبروني إن كنتُ على بينةٍ من ربي، أي: على طريقةٍ صحيحةٍ وحجَّةٍ واضحةٍ، وهذه البينة هي ما أوحاه اللهُ تعالى إليه، وقال لهم: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي: رزقني من عنده مالاً كثيراً واسعاً حلالاً، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ وما أريدُ بنهيي لكم عن التطفيفِ في الكيلِ والميزانِ وبخسِ الناسِ أشياءَهم أنْ أُخالفكم إلى ما نهيتكم عنه، فهو ملتزمٌ في نفسه بما دعاهم إليه، وقوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ

جنـــــة السـنة

﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي: ما أريد بما أمرتكم به ونهيتكم عنه إلا إصلاحَ دينكم ودنياكم، ودفعَ الفسادِ عنكمُ في دينكم ودنياكم، وهذا شأنُ الرسلِ وأتباع الرسلِ على دينهم الحقِّ، كلُّهم يريدون الإصلاحَ، ودينهم يريدُ الإصلاحَ، ولكنَّ الإصلاحَ قائمٌ على أصولٍ وقواعدَ موضوعة من عند الله.

وقوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي: وما توفيقي في إصابةِ الحقِّ إلا بتوفيقٍ مِنَ الله تعالى، ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي: في جميعِ أموري ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ أي: أرجعُ إلى الله تعالى في كل ما نابني من الأمور.

وأعلمنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ شعيباً قال لقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود:٨٩]، أي: لا تحمِلنَّكم عداوتي وبغضي على الإصرارِ على ما أنتم عليه من الكفرِ والفسادِ، فيصيبكم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ، أو قومَ هودٍ، أو قومَ صالحٍ، من النقمةِ والعذاب. وقال لهم: ها هم قومُ لوطٍ المعذبين ليسوا منكم ببعيد، أي: غير بعيدين منكم، لا في المكانِ، ولا الزمانِ.

وقال لهم شعيبٌ أيضاً: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود:٩٠]. قال لهم: استغفروه من سالفِ الذنوب، وتوبوا إليه مما تستقبلونه من السيئات، ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ أي: إنَّ ربي رحيمٌ بأوليائه الذين صَدَّقوا رسلَهُ، وهو سبحانه وتعالى ودودٌ، أي: محبٌّ لعباده المؤمنين به، المخلصين في عبادته.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ قومَهُ أجابوه قائلين: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود:٩١]. قالوا له: لا نفقه يا شعيبُ، أي: لا نفهم كثيراً مما تقوله لنا، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ أي: ضعيفاً في قدراتِك وبدنك، فنحن أقوياءُ بكثرتنا وعددنا، وأنت ضعيفٌ ببدنك وجسدك، ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ أي: لولا عشيرتُك لقتلناك بالرجم، وما درى هؤلاء المساكين أنَّ شعيباً أقوى منهم، فهو قويٌّ بقوةِ الله، واللهُ تعالى له جنودُ السمواتِ والأرضِ، ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ أي: ليس لك عندنا تقدير، ولا معزَّة.

فأجابهم شعيبٌ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود:٩٢]، قال لهم مُبكِّتاً ومقرِّعاً: أتتركوني لأجلِ عشيرتي

جنـــــة السـنة

وقومي، ولا تتركوني إعظاماً لجنابِ الله الذي اصطفاني وأرسلني إليكم، فاللهُ تعالى يهتمُّ إذا أساءَ الناسُ إلى رسلِهُ وأنبيائه، فللرسل والأنبياء عندِ الله مقامٌ محمودٌ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: اتخذتم اللهَ وراءَكم ظهريّاً، أي: اتخذتم شَرْعَه ودينه وراءَكم و﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ أي: نبذتموه خلفَ ظهوركم فإنكم لا تطيعونُهُ، ولا تعظمونه، ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ أي: علمُهُ محيطٌ بأعمالكم وأقوالكم، لا يخفى عليه خافية من أمركم.

وقال شعيبٌ لقومِهِ في آخر ما قاله مِنْ هذا الحوارِ الطويلِ الهادئ الذي استوعب الردَّ عليهم ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود:٩٣]. ويبدو أنَّ نبيَّ الله بعد ذلك الحوار الطويلِ مع قومه قد يئس من إيمانهم، فقال لهم متهدداً متوعداً: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي: اعملوا على غايةِ تمكنكم ونهايةِ استطاعتكم، فأنا عامل على هذا النحو، ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ أي: سوف تعلمون من ينزلُ به عذاب من عند الله يذهبُ به، ويقضي عليه، وستعلمون من هو كاذبٌ في قولِهِ وطريقتِهِ ومذهبِهِ، ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ أي: فأنا منتظرٌ معكم، أنتظر قضاءَ الله وقدره فيَّ وفيكم.

٤- نزول العذاب بقوم شعيب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه لما جاءَ أمْرُ الله تعالى بعذابِ قومِ شعيب نجَّى شعيباً والذين آمنوا معه، وأهلك الكفارَ مِنْ قومِهِ ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود:٩٤-٩٥].

أنجى اللهُ -تعالى- شعيباً والذين آمنوا معه مِنَ العذاب برحمتِهِ سبحانه، وأخذت الذين ظلموا، أي: الكفارَ الصيحةُ، واللهُ تعالى أعلم بعظمِ هذه الصيحةِ التي دمرتهم وأهلكتهم، وقد أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في سورة الأعراف أنه أخذهم بالرجفةِ، وأخبرنا في سورةِ الشعراءِ أنه أخذهم عذابُ يومِ الظلَّة، وهذا يدلُّ على أنَّ ربَّ العزةِ قد أخذهم بهذه الأنواع الثلاثةِ، فقد رجفتْ الأرضُ بهم من تحت أرجلهم، وأخذتهم الصيحةُ من السماء، فأسكتتهم وأخمدتهم، وأخبرنا اللهُ تعالى في الشعراء أنهم ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ﴾ [الشعراء:١٨٩].

جنـــــة السـنة

وغدتْ أرضُ مدينَ بعد هلاكِ أهلها خاليةً، كأن لم يكن بها أحدٌ، وكأنْ لم تعمر ديارها ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: لم يعيشوا فيها، وختم قصتهم بقوله: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ أي: بُعداً لهم من رحمة الله تعالى، كما بَعِدتْ ثمودُ من رحمة الله.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- إلى مدينَ رسولَهُ شعيباً بالأصل العظيم الذي أرسل به جميعَ المرسلين، وهو عبادةُ الله الواحدِ الأحدِ، وتركُ ما يعبدُ من دونه.

٢- كان قومُ شعيبٍ مع شركهم بالله تعالى يطففون في المكيالِ والميزانِ، فنهاهم رسولهم شعيبٌ عن ذلك، وأمرهم بإيفاءِ المكيالِ والميزان، وقد أُمِرْنا أُمَّةَ محمدٍ ﷺ بهذا الأصل، وأنزلَ اللهُ سورةً سمَّاها اللهُ تعالى باسم المطففين.

٣- رفضَ قومُ شعيبٍ طاعتَه فيما دعاهم إليه من توحيدِ الله في عبادتِهِ، والتطفيف في الكيلِ والميزانِ.

٤- كان نبيُّ الله شعيبٌ عليه السلام فهيماً لبيباً، يحسنُ أبعاد ما يخاطبُ به قومه، ويحسنُ الردَّ عليهم بجوابٍ فيه الحججُ والبيناتُ بأسلوبٍ سهلٍ، فيه عاطفةٌ جيَّاشَةٌ، تقوم على النصحِ، وحبِّ الخيرِ لهم.

٥- قال شعيبٌ لقومه: إنّه على بينةٍ من ربِّه، فلا شكَّ عنده ولا ريبَ، وما رزقه اللهُ مِنَ المالِ فهو طيبٌ حلال، وهو يعملُ وفقَ ما أمرهم به، ولا يخالفُ فعلُه قولَه، وهو يريد إصلاحَ نفوسهم، ومجتمعهم.

٦- خَوَّف شعيبٌ قومَه أنْ يصيبَهم من العذابِ مثلُ ما أصابَ قومِ نوحٍ، أو قومِ هودٍ، أو قومِ لوطٍ.

٧- أمر هودٌ قومه أن يستغفروا اللهَ من ذنوبهم التي ارتكبوها، ويوطنوا أنفسهم على التوبةِ مما سيقع منهم من الذنوبِ.

٨- ازدادَ قومُ شعيبٍ طغياناً وكفراً، وزعموا أنهم لا يفقهون قولَهُ، ولولا عشيرتُهُ وأقاربُه لقتلوه رجماً، وصرَّحوا له أنهم لا يحترمونه، ولا يقدرونه.

جنـــــة السـنة

٩ - لم يغضب شعيبٌ، ولم يثأر لكلامِ قومه، ولكنه فقه ما فيه وأحسنَ الجوابَ، وناقشهم في توقيرهم لرهطه، وعدم التفاتهم لمحبَّة ربهم وتوقيره، وطالبهم بأن يعملوا قدرَ ما يستطيعون على طريقتهم ومنهجهم، فعذاب الله آت، وسيتبين من سيذل ويخزى ومن هو كاذب.

١٠ - نزل العذابُ بقوم شعيبٍ، فأنجا اللهُ شعيباً ومن معه من المؤمنين، وأهلك قومَه الكافرين بالصيحةِ، ومع الصيحة الرجفة والظلة، فأصبحوا في ديارهم جاثمين، كأن لم يعيشوا في تلك الديار.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثاني عشر من سورة هود
طرفٌ من قصة موسى عليه السلام مع فرعون

أولاً: تقديم

حدثنا اللهُ تعالى في آياتِ هذا النص طرفاً موجَزاً عن خبر موسى عليه السلام مع فرعونَ، وكيف اتبعه ملؤُه على ضلالِهِ وكفرِهِ، وكيف يقودُ قومَه إلى النارِ في الآخرةِ، كما قادهم إلى الكفرِ والضلال في الدنيا.

وعقَّبَ ربُّ العزة على الحديثِ الطويلِ الذي قصَّه علينا من أنباءِ القرى، وأخبرنا أنَّ بعضَ القرى التي حدَّثنا عنها لا يزال قائماً، ومنها ما قد زال واندثر.

وأعلمنا ربَّنا -تبارك وتعالى- أنه لم يظلم العباد بتعذيبهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بكفرهم، وأعلمنا أنَّ الآلهة التي كانوا يعبدونها لم تدافعْ عنهم، ولم تَحْمِهم، ولم تزدهم إلا خساراً. وبيّن لنا في خاتمةِ الآياتِ حالَ الأشقياءِ وحالَ السعداءِ ومصيرَ كلٍّ منهم يومَ القيامة.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ
أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾
وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا
قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ
ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ
يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ
وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:٩٦-١٠٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أرسل اللهُ تعالى موسى إلى فرعونَ وملئه:

أخبرنا ربُّنا ومولانا العظيمُ سبحانه بأنه أرسل رسولَهُ موسى عليه السلام إلى فرعونَ وملئِه ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٩٦) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)﴾ [هود:٩٦-٩٧]، وقد كان فرعونُ الذي أرسلَ الله تعالى إليه موسى مختلفاً بعضَ الشيء عن قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقوم صالح وغيرهم من الرسل والأنبياء، فقد كانت أممُ هؤلاءِ الأنبياءِ يعبدونَ الأصنامَ والأوثانَ، أما الفرعونُ الذي أرسل إليه موسى، فقد رَفَعَ نفسه إلى مرتبةِ الألوهية، وأقام نفسَه مقامَ الإله الذي يُعْبَدُ من دون الله ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ (٢٥)﴾ [النازعات:٢٣-٢٥].

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه أرسلَ موسى بالآياتِ البيناتِ والحججِ الواضحاتِ، وبعضُ هذه الآياتِ متلوَّةٌ، تتضمن وحيه وشرعَه، وهي التوراةُ، وبعضُها معجزاتٌ ظاهراتٌ كالعصا واليد وغيرها من الآيات التي بلغت تسعاً.

وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه أرسله إلى فرعونَ وملئه، والملأُ أشرافُ قومِهِ وزعماؤُهم، ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ لقد كفر فرعونُ، وتابعه أشرافُ قومِهِ على كفره وضلاله، و﴿أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ المنهجُ الذي اختطَّه ليعبِّدَ فيه أهلَ مصرَ لطغيانه، و﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧)﴾ ليس برشيدٍ، أي: ليس فيه رشد ولا هُدى، وإنها هو كفر وشرك وضلال.

٢- قيادة فرعونَ قومَه يومَ القيامةِ إلى النارِ:

أخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى وتبارك- أنَّ فرعونَ كما قادَ قومَهُ إلى الكفرِ والضلالِ في الدنيا يقودُ قومَهُ يومَ القيامةِ إلى النارِ ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ [هود:٩٨]، أخبرنا ربُّنا -القويُّ الغالب سبحانه- أنَّ فرعونَ يكون يومَ القيامةِ سابقَ قومه وعلى رأسهم، يسير أمامَهُمْ، ويسيرون خلفه، فيوردُهم -والعياذُ بالله ربِّنا- النارَ، ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨)﴾ و﴿الْوِرْدُ﴾ الماءُ الذي يردُه الناسَ والموضعُ الذي يأتونه، والوردُ الذي أورده فرعون قومه النارُ، والنارُ بئس ما يُدْخِلُهُ إنسانٌ قومَهُ.

وأخبرنا -ربُّنا ومولانا سبحانه وتعالى- أنَّ فرعونَ وقومَه أُتْبِعُوا في الحياةِ الدنيا لعنةً، ثم أُتبِعوا في الآخرة لعنةً أخرى ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (٩٩)﴾

جنـــــة السـنة

[هود:٩٩]. واللعنُ: الطردُ من رحمةِ الله، وقولُهُ: ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ أي: في الحياةِ الدنيا، وقوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: زيدوا يومَ القيامةِ لعنةً أُخرى، وقوله: ﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ والرِّفْد: العونُ، أي: بئس العونُ المعانُ ولا شكَّ أنَّ ما حصلوا عليه بئس ما يمكن أنْ يحصلَ امرؤٌ عليه، فقد ترافدت عليهم لعنتان: لعنةُ الدنيا، ولعنةُ الآخرة.

٣- ما قصَّهُ الله -تعالى- علينا فيه عظةٌ وموعظةٌ:

أعلمنا ربُّنا -العليم الخبيرُ- أنَّ ما قصَّه علينا من قصص الماضين هو موعظةٌ للمؤمنين ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ [هود:١٠٠] والمشارُ إليه باسم الإشارة هو القصصُ الذي قصَّهُ علينا فيما سبقَ من هذه السورة الكريمة، و﴿أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أخبارُها، وقولُه: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بعضُ تلك القرى قائمٌ، لا نزال نراه ونشاهده، وبعضُها قد زالَ وتلاشى، فقرى قومِ نوحٍ ليس لها أثر ولا معلم، وقرى هودٍ اكتشف الموضعُ التي هي فيه مطمورٌ تحت الرمالِ، وقرى قومِ صالحٍ بعضها تلاشى وذهب، والمحفورُ في الصخر لا يزال قائماً إلى اليوم، وقد لا يزالُ بعضُ قرى فرعون قائماً.

وأخبرنا ربُّنا -العظيمُ سبحانه- أنَّه ما ظلم أهل تلك القرى بتدميرهم، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرِهِمْ ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود:١٠١].

أخبرنا ربُّنا -العزيزُ الحكيمُ سبحانه- أنَّه لم يظلم الكافرين الظالمين عندما أهلكهم، ولكنَّهم ظلموا أنفسهم بسببِ كفرهِم وشركهم، وأخبر الحقُّ -سبحانه وتعالى- أنَّ آلهتهم التي كانوا يعبدونها ويدعونها من دون الله لم تغنِ عنهم شيئاً، أي: لم تنصرهم، ولم تمنعهم من عذاب الله، وقوله: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ أي: أنَّ تلك الآلهة زادت الأقوامَ التي عبدوها من دون الله خسراناً.

وأعلمنا ربُّنا -القويُّ الغالبُ سبحانه- أنَّ أخذَهُ وتعذيبَهُ أليمٌ شديدٌ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢]. أي: أنَّ عذاب الله عندما ينزل بالقرى الظالمةِ الكافرةِ، فإنه عذابٌ مؤلم موجعٌ، وهذا يظهر من عذابِ القرى المهلكة، فإن عذابه فيها عذاب مؤلم.

جنـــــة السـنـة

وقد روى أبو موسى ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظالم، حتى إذا أخذَهُ لَمْ يُفلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود:١٠٢][البخاري: ٤٦٨٦. ومسلم: ٢٥٨٣].

٤- عذابُ الأممِ المكذبةِ آيةٌ وعظةٌ لمن خافَ عذابَ يومِ القيامةِ:

أخبرنا ربُّنا -العليُّ الأعلى سبحانه وتعالى- أنَّ في عذابِ المعذبين آيةً لمن خاف عذابَ يوم القيامةِ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [هود:١٠٣]. أي: إنَّ في ذلك العذابِ الشديدِ الذي أخذَ به الأممَ الماضيةَ آيةً لمن خاف عذابَ يومِ القيامةِ، ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ أي: الناسُ كلُّهم، لا يتخلّفُ منهم أحدٌ، وقولُه: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾ أي: يشهدُه الرسلُ والأنبياءُ، ويشهدُه الملائكةُ، ويشهده الحيوانُ والطيرُ والدوابُ.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود:١٠٤]، أي: وما نؤخر إقامةَ يومِ القيامةِ إلا لمدةٍ مؤقتةٍ يعلمها ربُّ العزة سبحانه، لا يزاد فيها، ولا ينقص منها.

٥- حالُ الناسِ يومَ القيامةِ:

حدَّثَنا ربُّنا -تبارك وتعالى- عن يومِ القيامةِ، وأخبرنا أنّه يومٌ مجموعٌ له الناس، وأنّه يومٌ مشهودٌ، وأنه لا يؤخِّرُهُ إلا لأجلٍ معدودٍ، ثم حدَّثنا بعد ذلك أنه ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [هود:١٠٥-١٠٦] يقولُ ربُّ العزَّةِ سبحانه: إنه عندما يأتي ذلك اليوم، لا يتكلم أحدٌ إلاَّ بإذنِ الله تبارك وتعالى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ:٣٨]. وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: الناسُ في ذلك اليوم يقسمون إلى قسمين: ﴿شَقِىٌّ﴾ أي: شقي بدخوله النارَ بسببِ كفرِه وشركِه. ﴿وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ أي: سعدَ بدخولِه الجنَّة بإيمانه وعمله الصالحات.

ثم أخبرنا ربُّنا ومولانا -تبارك وتعالى- عن حالِ الأشقياءِ والسعداءِ، ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود:١٠٦-١٠٧].

جنـــــة السنـــــة

أخبرنا ربُّنا -العليمُ الحكيمُ- سبحانه وتعالى أنَّ الذين شقوا، أي: كفروا فمصيرُهم النارُ، لهم فيها زفيرٌ وشهيقٌ، قال ابن كثير: «تَنَفُّسُهم زفيرٌ، وأخذهم النفَسَ شهيقٌ» [ابن كثير: ٣/٥٥٦]. وهذا لونٌ من ألوانِ العذابِ يأخذُ أهلَ النار، وقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود:١٠٧]، أي: خالدين في النار ما دامت السمواتُ والأرضُ، وليس المرادُ بالسمواتِ والأرضِ هذه الموجودة في الدنيا، فقد أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنَّه في القيامةِ تتبدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ والسمواتُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم:٤٨]. وكلُّ مخلوقٍ فله أرضٌ وسماء، ولا بدَّ، فالنارُ لها أرضٌ وسماءٌ، والجنَّةُ لها أرضٌ وسماء، فهم في النار ما دامت السمواتُ والأرض، والسمواتُ والأرضُ خالدة، وكذلك الكفار خالدون في النار، وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ هذا الاستثناءُ لعصاةِ الموحدين الذين يدخلونَ مدةً من الزمان ثم يخرجون من النارِ بشفاعةِ الشافعين، ورحمةِ ربِّ العالمين، وليس هو استثناء من خلود الكفار من النار، وقد دلَّت على ذلك مجموعةٌ من الأحاديثِ الصحيحة المتواترة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود:١٠٧] أي: كلُّ ما يريده يفعله، فهو قادر على كلِّ شيء.

وقال ربّ العزة سبحانه فيما يعطي السعداء: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٨] والذين سعدوا هم المؤمنون أتباعُ الرسل، فمصيرهم الجنَّةُ، خالدين فيها ما دامت السمواتُ والأرضُ إلا ما شاء الله، وقوله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: غير مقطوع. وقد أخبرنا رسولنا ﷺ أنه بعد دخول أهل النارِ النارَ، ودخول أهل الجنةِ الجنةَ، يذبح الموت بين الجنة والنار، روى أبو سعيدٍ الخدريُّ رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يؤتَى بالموتِ كهيئةِ كَبْشٍ أملَحَ، فيُنادِي مُنادٍ: يا أهلَ الجنةِ، فيشرَئِبُّونَ وينظرونَ، فيقولُ: هل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه، ثم يُنادي: يا أهلَ النارِ، فيشرَئِبُّونَ ويَنظرونَ، فيقولُ: هل تعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم هذا الموتُ، وكلُّهم قد رَآه، فيُذبَحُ، ثم يقولُ: يا أهلَ الجنةِ، خُلُودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النار، خُلُودٌ فلا موتَ». ثم قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٩] [البخاري: ٤٧٣٠. ومسلم: ٢٨٤٩].

وحدثنا رسولنا ﷺ أنَّ أهلَ الجنةِ في عافية مستمرَّة، وشباب دائم، ففي الحديث عن أبي سعيد الخدريِّ وأبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «ينادي مُنادٍ: إنَّ لكُمْ أنْ تَصِحُّوا فلا

جنـــــة السـنة

تَسْقَمُوا أبداً، وإنَّ لكُمْ أنْ تَحْيَوْا فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكُمْ أن تَشِبُّوا فلا تهرَمُوا أبداً، وإنَّ لكم أنْ تَنْعَمُوا فلا تَبْأسوا أبداً» فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓا أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف:٤٣] [مسلم: ٢٨٣٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حدَّثنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ رسولَه موسى إلى فرعونَ وأشراف قومِهِ، فاتبعوا ما كان عليه فرعون من الضلالِ والكفر.

٢- أعلمنا ربُّنا أنَّ المنهجَ والمسارَ الذي كان عليه فرعونُ مسارٌ ضالٌّ جائرٌ، فهو ضالٌّ والذين تابعوه، وساروا على إثْرِه ضالون.

٣- قاد فرعون قومَه في الدنيا إلى الكفرِ والطغيانِ، وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ كما قادَ قومَهُ إلى الضلالِ في الدنيا، فإنَّه يقودُ قومَه في الآخرةِ إلى النارِ وغضب الجبارِ، وبئسَ الموردُ الذي يقودهم فرعون إليه.

٤- أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ فرعونَ وجنده بعد أن أغرقهم اللهُ تعالى في البحر أتبعهم في هذه الحياةِ الدنيا لعنةً، وهناك لعنةٌ أخرى ستلحقهم في الآخرة.

٥- عقَّبَ اللهُ تعالى على هذا القصص الذي قصَّهُ علينا بأنه من أنباءِ الغيب، وأعلمنا أنَّ من هذه القرى الظالمة ما لا تزال آثاره قائمةً ومنها الذي زال واندثر.

٦- الكفار الذين أنزل اللهُ تعالى بهم عذابَه لم يظلمهم اللهُ تعالى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم.

٧- لم تغنِ الآلهةُ التي كان يعبدُها أصحابُها عنهم شيئاً عندما نزل بهم العذابُ، ولم تزد عبادةُ تلك الآلهةِ أهلَها إلا خساراً.

٨- أخذ اللهُ تعالى أهلَ القرى المعذَّبةِ أخذاً شديداً موجعاً.

٩- الذين يتعظون بما حلَّ بالمعذبين هم الذين يؤمنون بالآخرة، ولذلك ترى الكفارَ اليوم يمرُّون بديارِ المعذبين، ولا يتعظون.

جنـــــة السـنة

١٠ - يومُ القيامةِ يومٌ عظيمٌ، يجمع اللهُ تعالى فيه الناسُ جميعاً، وهو يومٌ مشهودٌ، يشهده الرسلُ وجميعُ الملائكة.

١١ - إذا جاءَ يومُ القيامةُ، فلا يتكلم أحدٌ إلا بإذنٍ من ربِّ العزة.

١٢ - الناسُ يوم القيامةِ شَقِيٌّ مصيرُه النارُ، له فيها زفيرٌ وشهيقٌ، خالدين فيها أبداً، وهناك فريقٌ آخر هم الذين سعدوا، وهؤلاء مصيرهم الجنة خالدين فيها أبداً.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة هود
توجيهات الله تعالى للرسول ﷺ والمؤمنين تسدّدهم في صراعهم مع المشركين

أولاً: تقديم

في آياتِ هذا النص توجيهاتٌ إلهيةٌ ربانية لرسولِهِ ﷺ ولأصحابه، تسدِّدُهم وترشدُهُم إلى الفقهِ الأمثلِ، وتبينُ لهم المسارَ الذي ينبغي أنْ يسلكوه مع ربِّهم، وتنهاهم عن الركونِ إلى الكفارِ كي لا تمسَّهم النارُ، وتأمرهم بالمحافظةِ على الصلاةِ طرفي النهارِ وزلفاً من الليل، فالحسناتُ تكفِّر السيئاتِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾

[هود:١٠٩-١١٥].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- نهى اللهُ تبارك وتعالى رسوله ﷺ أنْ يكونَ في مِرْيَةٍ مما يعبد قومُه:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أن يكونَ في مِرْيَةٍ مما يعبُد قومُه، فقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾﴾ [هود:١٠٩] ورسولُنا ﷺ لم يكن يشكُّ، والأمرُ وإن كان موجهاً إليه، فالمرادُ غيرُهُ من أمته، على حدِّ قولِ العربِ: إياكِ أعني، واسمعي يا جارة.

والمريةُ: الشكُّ والريبُ، وقوله: ﴿مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ من الأصنامِ والأوثانِ وغيرها، ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ فعبادتُهم كعبادة آبائهم مِن قبلِهم، أي: فهم وآباؤُهم

ضالُّون ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ۝١٠٩﴾ أي: سنوفيهم نصيبهم مِنَ العذابِ بسبب شركهم وكفرهم يومَ القيامةِ غير منقوصٍ، أي: ولن ينقصهم ربُّهم مما وعدهم شيئاً.

٢- مواساة اللهِ -عزَّ وجل- رسولَه ﷺ بأنَّ موسى فُعِلَ به كما فعل برسولنا:

قال اللهُ -تبارك وتعالى- لرسولِهِ ﷺ مسلِّياً إياه في تكذيبِ مشركي قومه به: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾ [هود:١١٠]، واللامُ في ﴿وَلَقَدْ﴾ موطئةٌ للقَسَم، يقول الله تعالى لرسوله: لقد آتينا موسى الكتابَ، وهو التوراةُ، كما آتيناكَ القرآنَ، ﴿فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي: آمن به بعضٌ، وكفر به آخرون، كما آمن بعضُ الناسِ بالقرآن، وكفر به آخرون، ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ولولا أنَّ اللهَ تبارك وتعالى قضى وحكم أنْ يوقع العذابَ في أجل مسمى محددٍ، لأوقعَ بهم العذابَ عند اختلافهم، ولذلك أخَّر اللهُ تعالى عذابَ فرعونَ وملئِه طويلاً، ولم يعاجلهم بالعقوبةِ، وقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ۝١١٠﴾ أي: كان قومُ موسى في شكٍّ من التوراةِ مريب، أي: موقع في الريبة.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾ [هود:١١١]. والمعنى: وإنَّ كلَّ هؤلاءِ الذين قصصنا عليك يا محمد قصصهم في هذه السورة، لمن لَيُوَفِّيَنَّهُمْ ربُّك أعمالهم بالصالحِ منها بالجزيل من الثواب، وبالطالح منها بالشديد مِنَ العقابِ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١١﴾ أي: إنَّ الله -تبارك وتعالى- بما يعمل هؤلاء المشركونَ من قومك خبير، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم وأقوالهم، وسيجازيهم يومَ القيامةِ على ما قدَّموا.

٣- أمر اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه بالاستقامة:

أَمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والذين تابوا معه وهم المؤمنون بالاستقامة ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾ [هود:١١٢]، ويحقِّق العبدُ الاستقامةَ بالأخذ بدينِ الله تعالى، بفعلِ ما أمر اللهُ به، وتَرْكِ ما نهى عنه، والذين تابوا معه الذين آمنوا به وصدَّقوه، ونهاه هو والذين آمنوا معه عن الطغيانِ فقال: ﴿وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ أي: لا تَعْدوا أَمْرَه، ولا تتجاوزوا حدوده ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝١١٢﴾، أي: إنَّ اللهَ -سبحانه وتعالى- بما

جنـــــة السـنـــة

يعملُ عبادُه بصيرٌ، فهو عالمٌ بأعمالهم، لا يخفى عليه منهم شيءٌ، فهو يراهم حيثما كانوا، مبصر لهم مطلع عليهم.

ونهى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ عن الركونِ إلى الذين ظلموا، فتمسَّ الراكنين النارُ ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [هود:١١٣]، نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسوله ﷺ والمؤمنين عن الركونِ إلى الكفرةِ والمشركين، والركونُ إليهم يكون بالميلِ والسكونِ إليهم وموالاتهم، فإن فعلتم، أي: ركنتم إليهم مَسَّتْكُم النارُ، ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾﴾ أي: لا تجدون أحداً يمنعكم، ويحميكم من عذابِ الله تعالى.

٤- **أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبادَه بإقامِ الصلاةِ، فالحسناتُ يذهبن السيئاتِ:**

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَهُ ﷺ والمؤمنين معه بإقامة الصلاةِ ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود:١١٤]. أمَرَ اللهُ -تعالى- المؤمنين أن يقيموا الصلاةَ طرفي النهار، وزلفاً من الليل، والطرفُ الأول صلاة الفجر، ولم يختلف المفسرون في ذلك، وأصحُّ ما قيل في الطرف الثاني أنه صلاةُ المغربِ، وهذا قولُ ابن عباسٍ واختيار ابن جرير [تفسير الطبري: ٦/ ٤٤٣٦]. وقولُهُ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ الزلَفُ: جمعُ زلفةٍ، والزلفُ: أولُ ساعات الليل، واحدتُها زلفة [تفسير الواحدي: ١١/ ٥٨١].

٥- **الحسنات يذهبن السيئات:**

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الحسناتِ يذهبن السيئاتِ ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]. وقد نزلتْ هذه الآيةُ في رجلٍ قارفَ معصيةً، فأتى رسولَ الله ﷺ، فأخبره، فنزلت هذه الآية.

روى البخاريُّ عن ابنِ مسعودٍ: أنَّ رجلاً أصابَ من امرأةٍ قُبْلَةً، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَه، فأنزَلَ الله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤] فقال الرَّجلُ: يا رسولَ الله، ألي هذا؟ قال: «لجميعِ أُمَّتي كلِّهم» [البخاري: ٥٢٦. ومسلم: ٢٧٦٣].

وعن أبي هريرة، أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «أرأيتُم لو أنَّ نَهَراً بباب أحدِكم يغتَسِلُ فيه كلَّ يوم خمساً، ما تقولُ ذلك يُبقي من دَرَنِه؟» قالوا: لا يُبْقي من دَرَنِه شيئاً، قال: «فذلكَ مِثلُ الصلَوَاتِ الخمسِ يَمْحُو اللهُ به الخطايا» [البخاري: ٥٢٨. ومسلم: ٦٦٧].

جنـــــة السـنـــة

وعن حُمْرانَ مولى عُثمانَ أخبَرَه: أنَّه رأى عثمانَ بنَ عفانَ دعا بإناءٍ فأفرَغَ على كَفَّيه ثلاثَ مِرارٍ فغَسَلَهما، ثم أدخَلَ يَمينَه في الإناءِ فمَضْمَضَ واستَنْشَقَ، ثم غَسَلَ وجهَه ثلاثاً ويَدَيه إلى المِرفَقَينِ ثلاثَ مِرارٍ، ثم مَسَحَ برأسِه، ثم غَسَلَ رِجليهِ ثلاثَ مِرارٍ إلى الكَعْبينِ، ثم قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من توضَّأَ نحوَ وُضوئي هذا، ثم صَلَّى رَكْعتَينِ لا يُحدِّثُ فيهما نَفْسَه، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذَنبِه» [البخاري: ١٥٩. ومسلم: ٢٢٦].

وعن أبي هريرةَ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «الصلاةُ الخَمْسُ، والجمعةُ إلى الجمعةِ، كفَّارةٌ لما بينهُنَّ. ما لم تُغْشَ الكبائرُ» [مسلم: ٢٣٣ (١٤)].

وعن أبي هريرةَ؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يقولُ «الصلواتُ الخمسُ. والجمعةُ إلى الجمعةِ. ورمضانُ إلى رمضانَ. مُكفِّراتٌ ما بينهُنَّ. إذا اجْتَنَبَ الكبائرَ» [مسلم: ٢٣٣ (١٦)].

وهذه الأحاديثُ الدالةُ على عظم ما تكفره من الذنوب، لا تقصر التكفيرَ على الصلاةِ، فالآية تنص على أن الحسناتِ يذهبن السيئاتِ، ومن الحسناتِ الصلاةُ والزكاةُ، والصومُ، والحجُّ، والذكر، وغير ذلك، ولكن تبقى الصلاةُ أعظمُ الحسناتِ التي تكفِّر السيئات.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ أي: هذا الذي أعلمنا به ربُّ العزةِ من أنَّ الركونَ إلى الذين كفروا يوجبَ مسَّ النارِ، وأنَّ الحسناتِ يذهبن السيئاتِ، فيه ذكرى للذاكرين.

وقال اللهُ تعالى معلِّماً وموجهاً ومصبِّراً: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود:١١٥]، أي: اصبر على ما تلقاه من أذى مشركي قومِك، فإنَّ الله تعالى لا يضيعُ أجر المحسنين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يكونَ في شكٍّ من بطلانِ ما يعبده المشركون من قومِه، فهم على ضلالٍ وباطلٍ كما كان آباؤُهم من قبل.

٢ - أنزلَ اللهُ تعالى التوراةَ على موسى فآمَنَ بعضُ الناسِ بها، وكفر آخرون، كما فعلَ الناسُ بالقرآنِ الذي أنزله اللهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ، ولولا أنَّ اللهَ تعالى وضعَ موعداً لعذابِ قومِ موسى لقضي بينهم.

جنـــة السـنة

٣- أمرُ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ والمؤمنين معه بالاستقامةِ على أمرِ الله تعالى ونهاهم عن تجاوزِ أمْرِهِ، ونهاهم عن الركونِ إلى الذين ظلموا، أي: المشركين، فتمسُّهم النار.

٤- أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنينَ بإقامةِ الصلاةِ طرفي النهارِ وزلفاً من الليل، وأخبر سبحانه أنَّ الحسناتِ يذهبن السيئات.

٥- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يصبرَ على أذى قومه، ويحتسبُ الأجرَ عند الله، فإنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الرابع عشر من سورة هود

أولاً: تقديم

أخبرنا ربُّنا -عز وجل سبحانه- أنَّ الذين كانوا ينهون عن الفسادِ في الأرض في الأممِ السابقةِ فئة قليلةٌ، لقلَّةِ المؤمنين فيهم، وأنَّه سبحانه لم يكن ليهلكَ القرى بظلم، وأهلُها مصلحون، وهو قادرٌ سبحانه على جعلِ الناسِ أمَّةً واحدةً على الإيمان، ولكن سنته سبحانه أنهمْ يبقوا مختلفين لما له في ذلك مِنَ الحِكمَةِ، وقضى سبحانه أنه سيملأ النارَ مِنَ الكفارِ المشركين من الإنسِ والجنِّ.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يثبتَ قلبَ الرسول ﷺ بما يقصُّه عليه مِنْ أخبار الرسلِ، وأنَّ له غيبَ السمواتِ والأرضِ، لا يخفى عليه من أمرهما شيء، وإليه يرجعُ الأمرُ كلُّه، وأمره بأن يعبدَه وَحْدَهُ، ويتوكَّلَ عليهم وما ربُّك بغافل عما يعملونَ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة هود

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١١٦-١٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عدمُ وجودِ فئةٍ كثيرةٍ تنهى عن الفسادِ في الأرضِ في الأممِ الماضية:

حدَّثنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لم يكن في الأممِ السابقةِ التي حدَّثنا عنها كثيرٌ من الناس في كلِّ أمة ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [هود:١١٦]، يقولُ تعالى: فهلاّ كان من القرونِ الذين قصصتُ عليك

جنـــــة الســـــنة

نبأهم في هذه السورة الذين أهلكناهم بمعصيتهم وكفرهم برسلي ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي: من أصحاب الدين، ينهون عنِ الفسادِ في الأرضِ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: لم يكن من هذا الصنف إلا عدد قليلٌ نجا من الهلاك فالذي آمنَ بنوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى من قوم فرعونِ أعدادٌ قليلة، نجّاهم الله مع رسله، بل إنَّ لوطاً لم يؤمن به أحد من قومه غير ابنتيه، ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي: أنَّ الذين كفروا بالرسل من الأمم السابقةِ، اشتغلوا بدنياهم المترفةِ، واتبعوا اللذاتِ والشهواتِ، وجروا وراء تنميةِ المالِ، والتوسعِ في الرزقِ، وآثروا ذلك على الاشتغالِ بالآخرة، ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ (١١٦)﴾ أي: آثمين، فاعلين الإجرامَ بما يرتكبونه من الذنوبِ والمعاصي.

٢- لا يهلك اللهُ تعالى القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون:

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه لا يهلكُ القرى ظالماً لهم إذا كانوا صالحين ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧)﴾ [هود:١١٧]، فالقرى الصالحةُ، يرسل اللهُ السماءَ عليها مدراراً، ويمدُّها بأموالٍ وبنين، واللهُ تعالى يعذِّبُ القرى الطالحةَ، التي تمردتْ على الله ورسلِهِ، فيعذبُها جزاءً وفاقاً.

٣- لو شاءَ اللهُ تعالى لجعلَ الناسَ أمةً واحدة:

أخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنه ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٨-١١٩].

أخبرنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنه قادرٌ على أن يجمعَ الناسَ على دينٍ واحدٍ، فيصبحوا أمةً واحدةً، ولكن قضتْ سنتُه في خلقِهِ أن يختلفوا ويتنازعوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ وقد اختلفَ الناسُ إلى أديانٍ شتَّى ومللٍ شتى، فاليوم هناك أصحابُ الدين الحقِّ، وهم المسلمونَ، وهناك اليهوديةُ، والنصرانيةُ، والشيوعيةُ، والملحدونَ، واليهودُ تنازعوا إلى فرقٍ، والنصارى تنازعوا إلى فرقٍ، وكذلك المسلمونَ، وفي الحديث: «إنَّ اليهودَ اختَلَفَتْ على إحْدى وسبعين فرقةً، وإنَّ النصارى افترقوا على ثِنْتَيْنِ وسبعينَ فرقةً، وستفترقُ أمتي على ثلاثٍ وسبعين فرقةً، كُلُّها في النارِ إلا واحدة» قالوا: ومن هي يا رسولَ الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي» [بنحو هذا اللفظ أخرجه الترمذي: ٢٦٤١، وابن وضاح في البدع: ٢٥٠، والآجري في الشريعة: ٢٣، وابن بطة في الإبانة: ١، ٢٦٤، ٢٦٥، والحاكم في المستدرك: ١/ ٢١٨ (٤٤٤) واللالكائي في أصول الاعتقاد: ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧].

جنـــــة السـســـنة

٤- سيملأُ اللهُ -تعالى- جهنَّم من كفارِ الإنسِ والجنِّ:

أخبرنا ربُّنا أنه سبق في قضائِه وقدرِه أنَّه سيملأ جهنَّم من الكفارِ من الجنِّ والإنس ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [هود:١١٩].

وقد وردتْ أحاديثُ توضِّحُ هذه الآيةَ وتبينها، منها ما رواه قتادةُ، عن أنسٍ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُلقَى في النارِ، وتقول: هل من مزيدٍ؟ حتى يَضَعَ قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ» [البخاري: ٤٨٤٨].

وعن أبي هريرة رَفَعَه، وأكثرُ ما كان يوقِفُه أبو سفيانَ: «يقالُ لجهنمَ: هلِ امتلأْتِ؟ وتقول: هل من مزيدٍ؟ فيضعُ الربُّ تباركَ وتعالى قَدَمَه عليها، فتقولُ: قَطْ قَطْ» [البخاري: ٤٨٤٩. ومسلم: ٢٨٤٦].

وعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النارُ: أُوثِرْتُ بالمتكبِّرينَ والمتجبِّرينَ، وقالت الجنةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلا ضُعَفاءُ الناس وسَقَطُهُم، قال اللهُ تباركَ وتعالى للجنةِ: أنتِ رَحْمتي، أرحَمُ بكِ من أشاءُ من عِبادي، وقال للنار: إنما أنتِ عذابٌ أُعذِّبُ بكِ من أشاءُ من عِبادي، ولكلِّ واحدةٍ منهما مِلْؤُها، فأمَّا النارُ فلا تَمْتَلِئُ حتى يَضَعَ رِجلَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالكَ تَمْتَلِئُ، ويُزْوَى بعضُها إلى بعضٍ، ولا يظلِمُ اللهُ عز وجل من خَلْقِه أحداً، وأمَّا الجنةُ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنشِئُ لها خَلْقاً» [البخاري: ٤٨٥٠. ومسلم: ٢٨٤٦].

٥- بيان فائدةُ القصصِ الذي قصَّهُ اللهُ تعالى على رسولِهِ:

بيَّن اللهُ -تبارك وتعالى- فائدةَ القصصِ الذي قصَّه الله تعالى على رسولِهِ ﷺ فقال: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود:١٢٠]، قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: كلاًّ نقصُّ عليك يا محمدُ من أخبارِ الرسلِ الذين كانوا من قبلك، وما جرى لهم مع أقوامهم، وكيف دَعَوْهُمْ إلى الله، وكيف تمردَ عليهم أقوامُهم، وكيف نجَّى اللهُ المؤمنين، وأهلكَ الكافرين، وجاءَك في هذه الحقُّ، أي: جاءَك في هذه السورةِ المشتملةِ على قصصِ الأنبياء الحقُّ، وجاءك موعظةٌ تعظ الجاهلين، و﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ أي: جاءَك ذكرى تذكر بها المؤمنين.

وأمر اللهُ -تبارك وتعالى سبحانه- رسولَه ﷺ أنْ يقول: قل للكفارِ ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود:١٢١-١٢٢] أي: قلْ يا محمدُ

جنـــــة السـنة

للكفارِ الذين لا يؤمنون، ولا يُقِرُّون بوحدانيتي ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: اعملوا على طريقتكم ومنهجكم ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ أي: على طريقتنا ومنهجنا، ﴿وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ أي: إنَّا منتظرون عذاب الله ونقمته، وهذا فيه وعيد وتهديدٌ شديدٌ للكافرين.

٦- لله تعالى غيب السموات والأرض:

أخبرنا ربنا العليمُ الخبيرُ أنَّ له غيبَ السماواتِ والأرضِ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود:١٢٣]، أي: هو العليمُ بكلِّ ما غاب عنا في السمواتِ والأرضِ، لا تخفى عليه سبحانه خافيةٌ، لا في أجواءِ الفضاءِ، ولا في أرضِ الله الواسعة، وقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]، أي: إلى الله تعالى يرجعُ الأمرُ كلُّه، فالأمر كلُّه لله في الدنيا والآخرة، وقد أمَرَ اللهُ تبارك وتعالى عبدَه ورسولَه أن يعبده وحده لا شريك له، ونهاه عن عبادةِ غيره، وأمره بالتوكّلِ عليه، أي: اعتمد في شأنك كلِّه عليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [هود:١٢٣]، أي: لا يغيب عليه من أمركم شيءٌ، فاللهُ تعالى مطلعٌ على كلِّ شيءٍ، لا يغفل عن عملٍ تعملونه، ولا أمرٍ ترتكبونه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- كان الذين ينهون عن الفسادِ في الأمم الغابرةِ قليلٌ، لقلة المؤمنين.

٢- اللهُ تعالى لا يهلكُ القرى ظالماً لهم، إذا كانوا مصلحين.

٣- اللهُ تعالى لو شاءَ لجعلَ الناسَ جميعاً على الإسلامِ، ولكنَّ سنته وحكمته اقتضت أن يكونوا مختلفين.

٤- قضى الله تعالى في الأزلِ أنْ يملأ جهنَّم مِنَ الكفارِ من الجنِّ والإنسِ.

٥- يقصُّ اللهُ تعالى على رسولِهِ من أنباءِ رسله وأنبيائه ما يثبِّتُ به فؤاده، وهو في الوقتِ نفسِهِ مثبِّتٌ لقلوبِ المؤمنين وموعظة وذكرى للمؤمنين.

٦- أمر اللهُ تعالى أنْ يتوعَّدَ الكفارَ، ويقول لهم: اعملوا على مكانتكم إنَّا عاملون، وانتظروا إنّا منتظرون.

٧- اللهُ عالمٌ بما غاب في السمواتِ والأرضِ، وجميعُ الأمورِ ترجعُ إليه، وعلى الرسولِ ﷺ والمؤمنين معه أن يعبدُوه ويتوكلوا عليه، وهو لا يغفل عن أحدٍ من خلقه.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ يُوسُفَ

قال أبو عمرو الداني: «سورة يوسفُ مكيَّة ونظيرتها في المدنيين والمكِّي والشامِّي الأنبياءُ، وفي الكوفي سبحانَ، وفي البصري الكهفُ والأنبياءُ، وكلمها ألفٌ وستٌّ وسبعون كلمةً، وحروفها سبعةُ آلاف وثلاثة وأربعون، وهي مائةٌ وإحدى عشرة آيةٍ، ليس فيها اختلاف» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٧].

جنـــــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة يوسف

القصة التي تسوقها هذه السورة أحسن القصص

أولاً: تقديم

أعلمنا ربّنا تباركَ وتعالى بأنَّ ما يسوقُه في هذه السورةِ أحسنُ القصصِ، وأعلمنا أنَّ يوسفَ عليه السلام وهو صغير رأى رؤيا قصَّها على أبيه، فطلب منه والده أنْ لا يقصَّها على إخوانِهِ، خشيةَ أن يحسدوه، ويكيدوا له، وأعلم يعقوبُ ابنَه يوسف أنَّ اللهَ سيعلمه في مقبلِ الأيام من تأويلِ الأحاديثِ، ويعطيْهِ النبوةَ والرسالةَ ويتمُّ نعمته عليه كما أتمها على أبويه إبراهيمَ وإسحاق.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ۝٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦﴾ [يوسف:١-٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ -تعالى- يقصُّ علينا أحسنَ القصصِ:

افتتح ربُّ العزةِ -سبحانه وتعالى- هذه السورةَ الكريمةَ بالحروفِ المقطَّعةِ ﴿الٓرۚ﴾ كما افتتح السورةَ التي قبلها بالحروفِ نفسها، وقد بينتُ المعنى المختارَ للحروفِ المقطَّعةِ في أوَّلِ سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف:١]، ﴿تِلۡكَ﴾ اسمُ إشارةٍ موضوعٌ للبعيد، والمشارُ إليه ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: آياتُ القرآن، ﴿ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ الواضح البيِّن الذي يفصحُ عن الأشياء المبهمَةِ ويفسرها ويبينها، واستعمل اسمَ الإشارةِ الدالِّ على البعيد، ليدلَّ على رفعة آياتِ الكتاب وعلوِّها وارتفاعها.

جنـــــة السـنة

وقال ربُّ العزَّة مثنياً على هذا الكتابِ العظيم: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف:٢]. هذا الكتابُ أعظمُ الكتبِ النازلةِ من عند الله، نزل بأشرف لغةٍ، هي اللغةُ العربيةُ، بسفارةِ أشرف الملائكةِ، وهو جبريلُ ﷺ، في أشرفِ بقاعِ الأرضِ، وهي مكةُ، في أشرفِ شهورِ الأرضِ وهو رمضان، على أشرفِ الرسل وهو محمدٌ ﷺ، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ أي: ما يتلوه الرسولُ عليكم، لأنه نازلٌ بلغتكم.

وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ [يوسف:٣]. يقولُ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ نحن نقصُّ عليك أحسن القصص، فالقرآنُ فيه قصصٌ كثير، وقصةُ يوسفَ التي تضمنته هذه السورةُ، هي أحسنُ القصصِ القرآنيِّ الذي أوحاه الله إليه، وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾ أي: لم يكن الرسولُ ﷺ لديه علمٌ بقصَّةِ يوسف قبل أن يوحي اللهُ ما أوحى إليه منها.

٢- رؤيا يوسف التي رآها في صغره:

رأى يوسفُ ﷺ في صغرِهِ رؤيا قصَّها على أبيه ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف:٤]، قال يوسفُ ﷺ لأبيهِ رسولِ الله يعقوبَ ﷺ: يا أبتِ إني رأيتُ، أي: في المنامِ، أحدَ عشر كوكباً والشمسَ والقمرَ رأيتهم لي سجدين، وقد تحقَّقَتْ هذه الرؤيا بسجود إخوة يوسفَ الأحدَ عشرَ، وسجودِ أبيه وأمِّه عندما دخلوا عليه في قاعةِ العرشِ في مصر، فالإخوةُ الأحَدَ عشرَ هم الكواكبُ، والشمسُ والقمر هما أبوه وأُمُّه.

٣- نبيُّ الله يعقوبُ ﷺ ينصح ابنه أنْ يكتم رؤياه ولا يقصها على إخوتِهِ:

نصحَ نبيُّ الله يعقوبُ ابنه يوسفَ ﷺ بكتمانِ رؤياه وعدم إخبار إخوته بها ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف:٥]. وإنما نهى يعقوبُ ابنَه عن قصِّ الرؤيا على إخوتِهِ، لأنه علِم أنَّ الرؤيا تبشِّر يوسفَ ﷺ بمستقبلٍ زاهر، وتجعله فوقَ إخوتِهِ، وإنْ كان لا يعلم كيف سيتحققُ ذلك، وكان يعلم أنَّ أولادَه إذا علموا بالرؤيا، فإنهم سيعلمون تأويلها، فتثورُ نفوسُهم على يوسفَ، ويعملون على إيقاعِ الأذى بِهِ، ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ والشيطانُ يُوغِرُ صدورَ الإخوةِ بعضِهم على بعضٍ، ليوقعَ العداءَ بينهم فهو للإنسانِ عدوٌّ مبين.

جنـــــة السـنة

وقال يعقوبُ لابنه يوسفَ ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف:٦].

قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ ﴾ أي: يصطفيكَ ويختارُك، ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي: تأويلُ الرؤيا ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ ﴾ وذلك باصطفاءِ الله لك رسولاً نبيّاً، ويرفعك إلى مرتبةِ الملكِ، ويتمُّ نعمته عليك ﴿ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ وهم قرابته من إخوتِهِ وأولادِهم من بعدهم، ﴿ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾ والمرادُ بأبويه إسحاقُ وإبراهيمُ، فالأجدادُ آباءٌ، فقد جعلهما اللهُ تعالى نبيين رسولين، وقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ ﴾ بكلِّ شيءٍ ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعالِه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - أثنى اللهُ تعالى على آياتِ الكتابِ، فهي في منزلةٍ عاليةٍ كريمة.

٢ - أنزل اللهُ تعالى أفضلَ كتبه بأشرفِ لغةٍ، وهي اللغة العربية على أشرفِ رسله محمدٍ ﷺ.

٣ - قصة نبيِّ الله يوسفَ التي حدَّثت بها هذه السورةُ أحسنُ قصصِ القرآنِ.

٤ - لم يكن رسولُنا ﷺ يعلم شيئاً عن قصةِ يوسف قبل أن أوْحَى الله بها أوحى إليه.

٥ - يوسفُ يحدِّث أباه برؤيا رآها في منامه، فقد رأى أحدَ عَشَرَ كوكباً، ورأى الشمسَ والقمرَ ساجدين له.

٦ - علم نبيُّ الله يعقوبُ أنَّ الرؤيا تبشِّر يوسفَ بمستقبلٍ زاهرٍ، وسيكون له شأنٌ عظيم، فخشي إن حدَّث يوسفُ إخوته بما رآه أنْ يحسدوه، ويكيدوا له كيداً، ولذلك نهاه أنْ يُحدِّثهم برؤياه.

٧ - أعلَم نبيُّ الله يعقوبُ ابنه بما سينعم اللهُ عليه في مُقْبِلِ الزمانِ من نِعَمٍ، كما أنعم اللهُ على أبويه إبراهيم وإسحاق.

جنـــة السـنة

النص القرآني الثاني من سورة يوسف

إخوة يوسف يلقون أخاهم في غيابة الجب

أولاً: تقديم

تآمرَ إخوةُ يوسف على قتل أخيهم أو دَفْنِهِ، وأخيراً اتفقوا على إلقائه في بئر كان على طريقِ القوافلِ، ليذهب به من يلتقطه إلى ديار نائية بعيدة، بحيث يَخْلُو لهم وجهُ أبيهم، فيفوزوا بمحبته ورضاه، بعد أن يزول السببُ الذي يمنعه من ذلك في نظرهم، وهو وجودُ يوسف، واحتالوا على أبيهم ليأذنَ لهم في الخروج بيوسف، وألقوه في غيابةِ الجبِّ، وأوحى اللهُ إلى يوسف وهو في البئرِ أنه سيخبرهم بفعلتهم الشنيعةِ هذه في مقبلِ الزمان، وهم لا يشعرون.

وجاءَ الإخوةُ في وقت العشاءِ، وظنوا أنَّ الليلَ سيستر كذبهم، ولم تنطلِ على أبيهم دموعُهم الكاذبةُ، ولم ينطلِ عليه الدمُ الكاذبُ الذي جاؤوا به على قميصهِ زاعمين أنَّ الذئب قد أكله، وأخبرهم أنَّه سيصبر على فراقِ يوسفَ صبراً جميلاً، أي: صبراً لا جزعَ معه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ (٧) إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا
وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٨) ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ (٩) قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ
إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ (١٠) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ (١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ
وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (١٢) قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ
غَٰفِلُونَ (١٣) قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (١٤) فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ
أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٥) وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً
يَبْكُونَ (١٦) قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ (١٧) وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا
فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف: ٧-١٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لقد كان في يوسفَ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين:

أقسمَ ربُّ العزة -سبحانه- أنه كان في يوسفَ ﷺ وإخوتِهِ آياتٌ للسائلين، أي: آياتٌ قدَّرها اللهُ وقضاها ﴿ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف:٧] فقد أوقع اللهُ الحسدَ في قلوب إخوانِهِ، ليأخذوه، ويلقوه في البئر، لتأخذه القافلةُ إلى مصرَ، ليصل هناك بعد مشوارٍ طويل إلى أن يكون عزيز مصر.

والسببُ الذي أوجعَ قلوب إخوتِهِ، أنَّ أباهم كان يحبُّه أكثر مما يحبُّهم، فآذاهم ذلك، و﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ﴾ [يوسف:٨]، لقد تحادثوا فيما بينهم في حبّ أبيهم ليوسفَ وأخيه، أكثر مما يحبُّهم، وهم جماعةٌ، فقد كانوا عشرةً، وحكموا على تصرف أبيهم على هذا النحو بأنَّه في ضلالٍ مبين، مع أنه كان نبياً رسولاً.

٢- تآمرَ إخوةُ يوسف فيما يفعلونه به:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن إخوةَ يوسف قال بعضُهم لبعض: ﴿ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾ [يوسف:٩-١٠]. قال بعضُ إخوةِ يوسف وهم يتآمرون فيما بينهم عليه اقتلوا يوسف، أو ادفنوه في الأرضِ، يخلُ لكم وجهُ أبيكم، أي: يصفُ لكم وجهُ أبيكم، فتصبحوا بعد ذهابه قوماً صالحين، لأنَّ الذي كان يحول بينكم وبين أبيكم قد زالَ وذهب، وقد تبيَّنَ فيما بعدُ أنَّ هذا الذي ظنُّوه وتصوروه لم يحدث، فقد بقيَ يعقوبُ على حبِّه ليوسفَ، وما فتئَ يذكره حتى عمي.

وأعلمنا ربُّنا أنَّ واحداً منهم نهاهم عن قتل يوسف، وأمرهم أنْ يلقوه في غيابةِ الجبِّ يلتقطه بعضُ السيارةُ ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠ ﴾ [يوسف:١٠]. قال أحدُ إخوانَه لبقية إخوتِهِ: لا تقتلوا يوسفَ، وأمَرهم بإلقائه في غيابةِ الجبّ، والجبُّ البئر غيرُ المطويةِ، أي: التي ليست مبنية، والغيابةُ كلُّ شيءٍ غاب عنك، لقد تآمر عشرةٌ من أبناءِ الرجلِ الصالح يعقوب وهو نبيٌّ رسولٌ، على طفلٍ صغير، وألقوه بقلوب قاسيةٍ في البئر، ليتخلصوا منه، ليأخذه بعض من يَرِدُ تلك البئرِ إلى ديارٍ بعيدةٍ، ليخلو لهم وجْهُ أبيهم.

جنـــــة السـنة

٣- **تآمرَ الإخوةُ لتنفيذ مخططهم:**

خطَّطَ الإخوةُ لتنفيذ مخططِهِمْ، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١١-١٢].

قالوا لأبيهم مخاطبينَ له قائلينَ: ﴿يَٰٓأَبَانَا﴾ وقد نسبَ الخطابَ إليهم والمتكلمُ منهم واحدٌ، لأنَّهم كانوا حاضرين يسمعونه، وهم راضونَ عن كلامِه وطلبِهِ، ويبدو أنهم طلبوا منه مثل هذا الطلب من قبل، فرفض أن يستجيبَ لهم، قالوا له: ما الذي يجعلك لا تأْمَنَّا ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ والناصحُ يرعى من اؤتمن عليه، ويكلؤُه، ويرعاه.

وطلبوا منه أنْ يرسله معهم في الغدِ يرتعُ ويلعبُ، فقد كان يوسفُ صغيراً، والصغرُ زمنُ اللهو واللعبِ، ويطيبُ للصغارِ أنْ يخرجوا مع آبائِهم وإخوانهم، فيرتعوا ويلعبوا، وقالوا لأبيهم ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: نحافظُ عليه ونحميه من كلِّ ما تخافه عليه.

فقال لهم أبوهم: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يوسف:١٣-١٤].

فأخبر نبيُّ الله يعقوبُ ﷺ أنَّ الذي يمنعه من إرسالِهِ معهم إلى المرعى خوفُهُ أن يخرجوا به إلى المرعَى، فيغفلوا عنه، فيأكلَه الذئب، فقالوا مجيبين: لئن أكله الذئبُ، ونحن عصبةٌ، أي: جماعة، ﴿إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لعاجزون هالكون.

٤- **تنفيذ إخوة يوسف ما خططوا له وتآمروا عليه:**

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ إخوةَ يوسف نفذُّوا ما خطَّطوا له وعزموا عليه ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف:١٥]. أي: فلما ذهبوا به من عند أبيه، أخذوه إلى البئرِ الذي عزموا على إلقائه فيه، وأوحى اللهُ تعالى إلى يوسفَ على صغرِه لتنبأنهم بأمرهم هذا، أي: لتخبرنَّهم بهذا الأمْرِ، وهم لا يشعرون، وقد أخبر يوسفُ إخوته عندما جاؤوا ليمتاروا لأهلهم من مصر، وقال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف:٧٧].

وكما كذبَ العشرةُ من أبناءِ يعقوبَ عندما احتالوا عليه ليرسل معهم يوسفَ، جاؤوا في المساءِ يبكون، إنها دموع كاذبةٌ، يبكون على أمر مخالف لما يدّعونه ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف:١٦]. رجعَ إخوةُ يوسفَ في ظلمةِ الليلِ يبكون، ويقولون كاذبين: إنا

جنـــــة الســـــنة

ذهبنا يسابق بعضنا بعضاً، ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا﴾ [يوسف:١٧] أي: عندَ ثيابنا وأمتعتنا وطعامنا، ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ وقالوا له: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ أي: وما أنت بمصدِّقٍ لنا، ولو كنا صادقين، أي: ولو كنا من أهلِ الثقةِ والصدقِ.

﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف:١٨] لقد خلعَ الإخوةُ عن يوسف قميصه، ولطَّخوه بدماءِ حيوان ذبحوه، ولم تنطل الحيلةُ على يعقوب، فلم تخدعه دموعُهم التي تسيلُ من أعينهم، ولم يَنطل عليه الدمُ الذي لطخ به قميصُه، وعلم أنَّ هؤلاء العشرةِ تمالؤوا على طفلٍ صغيرٍ، فـ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف:١٨] قال لهم: لقد زيَّنتْ لكم أنفسكم أمراً، أي: حسنته وزينته ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ والصبرُ الجميل: الصبر الذي لا شكوى معه، ﴿وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ استعانَ بالله ربِّه على ما قالوه مِنَ الكذبِ والافتراءِ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- لقد جعل اللهُ -تبارك وتعالى- في قصةِ يوسفَ وإخوانِهِ آياتٍ للذين يسألون عن هذه القصةِ، ويريدون معرفة أبعادها.

٢- إخوةُ يوسفَ يتآمرون على قتله أو دفنه في الأرضِ، واتفقوا بعد التباحث على إلقائه في بئرٍ على طريقِ القوافلِ، ليذهبَ به من يجدُه إلى ديارٍ بعيدة نائيةٍ.

٣- خطَّط إخوةُ يوسفَ لإخراجه بإذن أبيه، ليحقِّقوا مرادَهم في إلقائه في البئرِ، وكان لهم ما أرادوا، وألقوه في البئر.

٤- أوحى اللهُ -تعالى- إلى يوسفَ وهو في البئرِ أنَّه سينبئهم فيما يأتي من الزمان بأمرهم هذا، وهم لا يشعرون.

٥- جاءَ إخوةُ يوسف العشرةُ، وقد تمالؤوا على الكذبِ في ظلمةِ الليل في وقتِ العشاءِ يبكون زاعمين أنَّ الذئبَ أكل أخاهم عندما تركوه عند متاعهم، وذهبوا يتسابقون.

٦- صرَّح نبيُّ الله يعقوبُ لأولادِه بأنَّهم كاذبون، وأخبرهم أنَّه سيصبر على فراقِ يوسفَ صبراً لا جزعَ فيه، واستعانَ بالله على كذبهم.

٧- قد تأتي المعصيةُ من الأخيارِ الصالحين، وتقعُ في البيوتِ الكريمةِ، فقد كان أولادُ يعقوب أولادَ رسولٍ نبيٍّ.

جنـــــة السـ ـــنة

النص القرآني الثالث من سورة يوسف
باع الذي التقط يوسف يوسف في ديار مصر

أولاً: تقديم

التقط نبيَّ الله يوسفَ من البئر قافلةٌ مرّت قرب البئرِ، وأسرُّوه بضاعةً، وباعوه في أرضِ مصر، وأوصى الذي اشتراه زوجته به، وقد علَّمه اللهُ من تأويل الأحاديثِ، ولما بلَغ أشدَّه آتاه اللهُ حكماً وعلماً وكذلك يجزي اللهُ المحسنين.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٢].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- القافلةُ التي التقطت يوسف من البئر:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن سيَّارة، وهي القافلةُ مرَّت على ذلك البئر، فأرسلوا إلى البئر من يستقي لهم الماءَ من البئر، فأرسلَ دَلْوه فيها، فخرج له يوسفُ متشبثاً بالدلو، فصاحَ ذلك الرجلُ الذي أرسلَ الدلوَ يا بشراي، يا فرحتي وسروري هذا غلامٌ، وأخفوه متخذيه بضاعة يتاجرون بها ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [يوسف:١٩-٢٠]، وقوله: ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي: باعوه، و﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ أي: بثمنٍ قليلٍ، ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ أي: لم يكن لهم رغبة في استبقائه معهم.

٢- الذي اشترى يوسف في مصر عزيزُ مصرَ:

باعَ الذين التقطوا يوسفَ يوسفَ في ديارِ مصرَ، واشتراه رجلٌ وجيه منهم هو عزيزُ مصر، وقال ذلك الرجلُ لامرأته: أكرمي مثواه، أي: أكرمي منزلَهَ، أو أكرميه، عسى أن ينفعنا

جنـــــة السـنة

أو نتخذه ولداً ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه مكَّن ليوسفَ في أرضِ مصرَ، لأنه انضمَّ إلى بيتٍ كريم من أرْقى بيوتها، فقد كانَ وزيراً في بلاطِ ملكِ تلك البلادِ، وكان مسؤولاً عن خزائنِ أموالِ تلك الدولةِ، وقوله: ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي: نعلمه تعبيرَ الرؤى التي ترى في المنام وتفسيرُ يوسفَ لهذه الرؤى هي التي أوصلته إلى ما وصلَ إليه.

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ﴾ أي: ما أراده وشاءَه كان، لا رادَّ لحكمه، ولا منازعَ لأمره، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف:٢١] أي: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ غالبٌ على أمره.

٣- لما بلغ يوسف عليه السلام سنَّ البلوغ آتاه اللهُ حكماً وعلماً:

أعلمنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ يوسفَ لما بلغ سنَّ الرشد آتاه اللهُ علماً وحكماً ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف:٢٢]. وبلوغ الأشدِّ يكون عندما يبلغ الإنسانُ سناً يكون فيه قويّاً في عقله وجسده، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وهذا التعقيبُ يدلُّ على أنَّ يوسف عليه السلام كان من المحسنين، ولا يكون المرءُ كذلك إلا إذا جمعَ الصفاتِ الحميدةَ والأخلاقَ الفاضلةَ والسيرةَ الطيبةَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آياتِ هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- التقطَ يوسفَ من البئرِ قافلةٌ مرَّت قربَ البئر عندما أرسلوا من يجلبُ لهم الماءَ، التقطوه، وجعلوه بضاعةً، وباعوه في ديارِ مصرَ.

٢- اشترى يوسفَ أحدُ وزراءِ الدولةِ، وكان يُدْعى عزيزَ مصر، وأوصى هذا العزيزُ زوجته بأن تكرمه، لعله ينفعهم، أو يتخذونه ولداً، ويبدو أنهم لم يرزقوا بالولد.

٣- مكَّن اللهُ ليوسف في أرض مصرَ بانضمامه إلى بيتِ عزيزِ مصرَ، وعلَّمَ اللهُ يوسف تأويلَ الأحاديثِ، أي: علَّمه كيف يُعبِّر الرؤى على الوجه الصحيح.

٤- بلغ نبيُّ الله يوسف عليه السلام أشدَّه في أرضِ مصرَ، وآتاه الله حكماً وعلماً وجعله من المحسنين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الرابع من سورة يوسف

امرأة العزيز تراود يوسف عن نفسه

أولاً: تقديم

تحدثنا الآياتُ عن مراودةِ المرأةِ التي كان يوسفُ ﷺ في منزلها عن نفسِهِ، وكيف استعصمَ وامتنع عن الفاحشةِ، وكيف تعاظمت المشكلةُ عندما وجدا سيدها لدى البابِ، فاتهمت المرأةُ يوسفَ بأنه أرادَ بها السوءَ، فقال: هي راودتني عن نفسي، وحدثنا ربُّنا عن الرجلِ الحكيم الذي استدلَّ بفراسته عن الجاني منهما.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف:٢٣-٢٩].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مراودة المرأة التي هو في بيتها عن نفسه:

أخبرنا ربنا -تبارك وتعالى- أنَّ المرأةَ التي هو في منزلها، وهي زوجةُ العزيز راودته عن نفسِهِ ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يوسف:٢٣].

والمراودةُ: طلبُ الفاحشةِ، أي: طلبتْ منه أن يواقعها، وأنْ يزني بها، وقد هيَّأت تلك المرأةُ للأمر عدَّته، فقد أغلقت عليه وعليها أبوابَ الدارِ، وتزينت، وطلبت منه ما تريده

جنـــــة السـنة

بصريحِ العبارةِ، وقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ أي: هلمَّ وتعالَ، فسارعَ يوسف إلى الإنكارِ عليها، قائلاً لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أعوذُ بالله وأحتمي به أن أقارف هذا السوءَ، وقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ أي: إنَّ زوجها ربي أحسنَ وفادتي وأكرمني، فكيفَ أخونُه في زوجته. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فالذي يرتكبُ فاحشةَ الزنا لا يفلحُ، أي: لا يفوز عند الله تعالى.

٢- ولقد همت به وهمَّ به لولا أن رأى برهان ربِّه:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ يوسفَ ﷺ عندما دعته امرأةُ العزيز إلى الفاحشة بادرَ إلى الاستعاذةِ بالله من غيرِ تأخيرٍ ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ أي: أحتمي بالله أن أُقارفَ مثلَ هذا الجرمِ.

وقال ربُّ العزة هنا: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ وزوجةُ العزيزُ جاوزت الهمَّ إلى الفعلِ، فقد أغلقتِ الأبوابَ، وتزينت، ودعته إلى نفسها، وأخبرنا ربنا أنَّ يوسفَ همَّ بها، مع أنَّه قال بمجرد ما دعتُه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ والهمُّ أولُ خطراتِ القلبِ، فهو خاطرٌ غيرُ قويٍّ، ولا ثابتٍ، ولذلك لم يكن معه فِعْلٌ، وليس في النصوص ما يشيرُ إليه، وفي النصِّ ما يدلُّ على أنَّ أمراً إلهياً جرى، أوقف كل تفكير عند يوسفَ تجاه الهمِّ بالفاحشة، وهو الذي سمته الآية ببرهانِ ربِّه، ونحن لا ندري ماهيةَ هذا البرهان، ولكنَّه برهانٌ سَدَّد الحقَّ، وأوقف الهمَّ باتجاه الباطلِ، وعَقَّب النصُّ القرآنيُّ على إخبارِ الله تعالى بأنَّه رأى برهانَ ربِّه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

وقد صرفَ اللهُ تعالى عنه السوءَ والفحشاءَ، وهي الزنا، فيوسفُ ﷺ من عبادِهِ الذين أخلصوا دينهم لله بعبادته وحده لا شريك له.

٣- محاولة يوسف الهرب من المنزلِ الذي أغلقت المرأة فيه الأبواب:

لم يقتصرْ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ على عصيانِ أمْرِ المرأةِ التي دعته إلى الفاحشةِ، ولكنَّه قصدَ البابَ الذي يوصلُ إلى خارجِ المنزلِ، وسابقته هي إلى البابِ لتمنعه من الخروج من المنزل، فكان أسبقَ منها، فلم تستطعْ منعه، ولكنَّها أمسكت بقميصه من الخلفِ، وجذبته لتمنعه، فانشقَّ قميصُه في يدها، فخرج مشقوقَ القميص، ووجدا سيدَها لدى البابِ ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف:٢٥].

جنـــــة السـنـــة

وقد كان وصولُ سيدِ المنزلِ عند الباب في تلك اللحظةِ محرجاً للزوجة أيَّما إحراج، فبادرتْ إلى اتهامِ يوسفَ بأنّه هو الذي أرادَ بها السوءَ، وطالبت الزوجَ بأن يوقعَ العقوبة به بسجنه، أو إيقاعِ العذاب الأليم به، وزوجها أحدُ رجالِ الدولة، وهو قادرٌ على فعل ذلك.

ويوسفُ عليه السلام فردٌ ليس عنده ما يدفعُ به الشرَّ عن نفسِه، ولكنَّه قال الحقيقة ببساطةٍ ومن غيرِ التواءٍ، ﴿ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ ﴾ [يوسف:٢٦]. أي: هي التي طلبت مني إيقاعَ الفاحشةِ بها، وهيأ اللهُ تعالى رجلاً حكيماً، استدلَّ على الفاعلِ بمكان وجودِ الشقِّ في القميص ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف:٢٦-٢٧].

وهذا الحكم الذي أصدره هذا الرجلُ الذي هو من ذوي قرابتها، ولا علاقة له بيوسف، وقد حكمَ هذا الرجلُ بأنَّ القميصَ إذا كان قُدَّ من قُبُلٍ، أي من الجهة الأمامية، فهي صادقةٌ، وهو من الكاذبين، لأنه بذلك يريدُ مقارفة المعصيةَ، وهي تدفعه، وإن كان قميصُه قُدَّ من دُبُرٍ، أي: من الخلف، فهي كاذبةٌ، وهو من الصادقين، فلما وجدَ قميصه قُدَّ من دُبُرٍ حكم له، ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يوسف:٢٨]. أي: فلما رأى ذاك الشاهدُ قميصَه قُدَّ من دُبُرٍ، قال لها: إنَّ هذا الفعل ناشئٌ من كيدكنَّ، أي: من مكركن إن كيدكن كانَ عظيماً.

وقد كان هناك دلائلُ كثيرةً تدلُّ على الفاعلِ، منها مظهرُ المرأة، وحالُها التي كانت عليه، ولم يطلِّق الزوجُ زوجته، ولم يوقعْ عليها العقابَ، وكلُّ الذي فعله أن قالَ ليوسف عليه السلام: ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يوسف:٢٩]، قال له: يا يوسفُ أعرِضْ عن هذا، فلا تتحدثْ به، وقال لها: استغفري لذنبِك لما ألممتِ به، إنَّك كنتِ من الخاطئين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- راودت المرأةُ التي كان يوسفُ في منزلها يوسفَ عن نفسِهِ، فأبى واستعصمَ، وخرج مسرعاً من المنزلِ.

٢- يوسفُ لم يقارفِ الفاحشة، ولم يفعل شيئاً باتجاهها، ولكنَّه همَّ همّاً دفعَهُ برهانُ ربِّه.

٣- صرفَ الله تعالى عن يوسفَ السوءَ والفحشاءَ.

٤- عندما خرج يوسفُ مِنَ المنزل، وجد سيد المرأة لدى الباب، فاتهمت المرأةُ يوسفَ بأنه أرادَ الفاحشةَ منها، فتبرأ يوسفُ من ذلك، وصرَّحَ بالحقيقة.

٥- شهد شاهدٌ من أهلِ المرأةِ على الفاعلِ بموقعِ القدِّ من القميص.

٦- طالبوا يوسفَ بعدمِ الحديثِ في الموضوعِ، وطالبوها بالتوبةِ والاستغفارِ، ولم يعاقبوا الخاطئ منهما.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الخامس من سورة يوسف
نساء المدينة يلمنَ امرأة العزيز على مراودةِ فتاها عن نفسه

أولاً: تقديم

انتشر خبرُ مراودةِ امرأةِ العزيز فتاها عن نفسِهِ، وأنكر نساء المدينة عليها فعلها، فدعت النساء اللاتي لُمنها إلى منزلها، وأعدت لهنَّ مجلساً، وظهر لهُنَّ أنَّ امرأةَ العزيزِ معذورةٌ فيما فعلته، واعترفت امرأةُ العزيزِ بما فعلتَه، وأخبرتهنَّ أنها عازمةٌ على الاستمرارِ في المحاولةِ إلى أن يتحقق طلبُها، وإلا سجنتْ يوسفَ وعذَّبته.

ولجأ يوسفُ إلى ربِّه يحتمي به، ويستعيذُ به، كي يصرفَ عنه كيدهنَّ، فصرفَ عنه كيدَهن.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- بعض نساءِ المدينة يلمن امرأةَ العزيزِ في مراودة فتاها عن نفسِه:

انتشر خبرُ مراودةِ امرأةِ العزيزِ يوسفَ عن نفسِهِ، وتحدَّثت به نساءُ المدينة، ﴿ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف: ٣٠]، تحدثتْ نساءُ المدينةِ بما كان من امرأةِ العزيز في مراودةِ فتاها عن نفسِهِ، والفتى: الحدثُ الشابُّ، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: دخل حُبُّه في شغافِ قلبها، وهو غلافُه، ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ أي: نراها قد بعدتْ عن الصوابِ.

جنـــــة السـنـــة

٢- ما جرى في المجلس الذي أعدته للنسوة اللاتي لُمنها:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف:٣١]. فلما سمعت امرأةُ العزيز ما قالته النسوةُ فيها، أرسلت إليهن تدعوهنَّ إلى منزلها، فالقائلات نساءٌ معروفات وهنَّ من الأسر ذاتِ الشأنِ في مصر، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: هيأت لهن مجلساً، فيه الفرشُ والمخادُّ ووضعت أمامهنَّ فاكهةً يحتاجُ تقطيعها إلى سكين، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ أي: لتقطعَ الفاكهة التي أمامها.

﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أمرتْهُ أن يخرجَ عليهن وهنَّ في تلك الحالِ، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ فلما رآه النسوةُ اللاتي لُمْنَ امرأةَ العزيز على مراودة يوسف أذهلَهُنَّ جمالُه وبهاؤُه، وغابت عنهن عقولهن، وبدلَ أن يقطعن الفاكهةَ قطَّعنَ أيديهنَّ، أي: جرحنها وحززنها وخدشنها، وليس المرادُ بالقطعِ إبانة اليدِ، وأتبعن ذلك بقولهنَّ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ أي: ما هذا في حسنه وبهائه وجمالِ منظره بشراً إن هذا إلاَّ ملكٌ كريم، وهذا الموقفُ منهنَّ فيه إعذارٌ لامرأةِ العزيزِ في مراودتها فتاها عن نفسه، وعند ذلك ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف:٣٢]، هنا صرَّحت امرأة العزيز بما كان منها، وقالتْ لهن: هذا هو الفتى الذي لمتنَّني فيه، ولقد راودته عن نفسِهِ، فاستعصَم، أي: فأبى ورفَضَ، ولئن لم يفعل ما طلبتُهُ منه ليدخلنَّ السجنَ، وليكونن من الصاغرين، أي: الأذلاء.

تقولُ هذه المرأةَ المتزوجةُ من رجلٍ له مكانةٌ متقدمةٌ في الدولةِ هذه المقالةَ علانيةً أمام جمعٍ كبيرٍ من النسوةِ، ومثلُ هذه المقالةِ ستنتشر في ذلك المجتمعِ، ولن يُستطاعَ إخفاؤها، فالمرأةُ التي تقول مثلَ هذه المقالةِ امرأةٌ سفيهةٌ طائشة، لا تبالي بالأخلاقِ وتقاليدِ المجتمعِ.

٣- يوسفُ عليه السلام يخاطب ربَّه مفضلاً دخولَ السجنِ على مواقعةِ الفاحشةِ:

فلمَّا سمعَ يوسفُ مقالةَ امرأةِ العزيزِ ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف:٣٣-٣٤].

جنـــــة السـنة

نادى يوسفُ ربَّه واستعانَ بِهِ واستغاثَ، وقالَ في دعائه: إنَّ دخولَ السجنِ أحبُّ إليه مما يَدْعوه النسوةُ إليه من مقارفةِ الفاحشةِ، وقال لربِّه: إلا تصرفْ عني كيدهن، أي: ما يتآمرن به أَمِلْ إليهن، وأكنْ من الجاهلين، لقد تبرأ يوسفُ من حولِهِ وقوتِهِ، واستعانَ بحولِ الله وقوتِهِ، فاستجابَ ربُّ العزةِ له، فصرف عنه كيدهن إنه هو السميعُ لأقوالِ العبادِ عليمٌ بأفعالهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انتشرَ خبرُ مراودةِ امرأة العزيزِ فتاها عن نفسِهِ، فنالتها ألسنةُ نساءٍ من ذواتِ المجتمع الراقي في المدينةِ في مراودتها يوسفَ عن نفسِهِ.

٢- امرأةُ العزيز تدعو النساءَ اللاتي لُمنها، وتدعوهنَّ إلى منزلِها، وتُعِدُّ لهنَّ مجلساً، وتعطي كلَّ واحدةٍ منهنَّ سكيناً، لتقطعَ ما قدَّمت لهنَّ من فاكهةٍ، فلما خرج يوسفُ عليهنَّ، أذهلهنَّ مرآه، وقطَّعْنَ أيديهن، وجرحنها.

٣- اعترفتْ امرأةُ العزيز بمراودةِ يوسفَ عن نفسِهِ، وبينت أنها مصممةٌ على فعل ذلك به، وإلا دخل السجنَ ونالَه العذابُ.

٤- يوسفُ يلجأ إلى الله تعالى ويحتمي بِهِ، ويطلبُ منه أن يعصمَهُ، ويصرفَ عنه كيدهن.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس من سورة يوسف
دخول يوسف السجن وتأويله رؤيا صاحبيه في السجن

أولاً: تقديم

انتشر خبرُ مراودةِ زوجةِ العزيز يوسفَ عن نفسِهِ، وقد تأذّى زوجها وأهلها بالخبرِ الذي سرى في المدينة، فرأوا أن يسجنوا يوسفَ قطعاً للقالة، وتهدئةً للأمر، بعد أن تبين لهم أنه بريءٌ، ودخل معه السجنَ فتيان رأى كلُّ واحدٍ منهما رؤيا، فقصّا رؤياهما عليه، وطلبا منه أن يعبِّرَ لهما رؤياهما، فوعظَهما، ودعاهما إلى عبادةِ الله وحده، ثم فسَّر لهما رؤياهما.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجۡنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٖ مِّنۡهُمَا ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف:٣٥-٤٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- سجنُ يوسفَ بعد أن ظهرتْ أدلّةُ براءتِه:

رأى العزيزُ ومن معه أن يسجنوا يوسفَ عليه السلام بعد أن رأَوا الآياتِ الدالةِ على براءَتِهِ ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٣٥﴾ ﴾ [يوسف:٣٥]، أي: بدا لأولي الأمر،

جنـــــة السـنة

أي: ظهرَ لهم من بعدِ ما رأَوُا الآياتِ الدالةِ على براءَتِهِ، فمن ذلك قَدُّ قميصِهِ من دبرٍ، ومن ذلك اعترافُ امرأةِ العزيزِ بما كان منها، أمامَ تلكَ النسوة اللاتي دعتهن إلى منزلها، وإخبارَهنَ أنها ستمضي في المحاولةِ مع يوسفَ حتى يستجيب لها أو يسجنَ أو يعذَّب.

وهنا سجنوه ليوهموا الناسَ أنه هو الذي راودَ المرأةَ عن نفسها، سجنوه وهم يعلمون أنه بريءٌ، وأطلقوها وهم يعلمونَ أنها مذنبةٌ.

٢- يوسفُ عليه السلام يُعَبِّر رؤيتين لفتيين دخلا معه السجنَ:

دخلَ معَ يوسفَ السجنَ فتيان كلٌّ منهما رأى رؤيا ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف:٣٦].

بينتْ لنا هذه الآيةُ أنَّ أحدَ الفتيين اللذين دخلا معه السجنَ رأى في المنام أنه يعصرُ خمراً، أي: يعصرُ عنباً يؤول إلى الخمر، وقال الثاني: إني أراني أحملُ فوقَ رأسي خبزاً تأكلُ الطيرُ منه، وطلبا منه أنْ يأوِّلَ لهما رؤياهما قائلين: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ الذين يحسنون تعبيرَ الرؤيا، كان هذان الفتيان يعملان عندَ الملكِ، وقد سجنهما ظانّاً أنهما تمالآ على قتله، وكان يوسفُ قد برزَ في السجن بالصفات الحسنةِ الطيبةِ، وعُلم عنه أنه يُحسنُ تعبيرَ الرؤيا، فسأله هذان الفتيانِ عن تأويلِ رؤياهما.

فبدأ بوعظهما، وبيَّن لهما الدينَ والملةَ التي هو عليها، ودعاهم إلى التوحيدِ، ثم فسَّرَ لهما رؤياهما ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف:٤١].

قال يوسفُ للسجينِ الأول الذي رأى نفسه يعصرُ عنباً أنه سيُبرَّأُ، ويخرجُ مِنَ السجنِ، ويعودُ إلى مكانه في خدمةِ الملكِ، فقد كان ساقيَ الملكِ، وكان يوسفُ لطيفاً في محادثةِ السجينين، فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا﴾ وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ﴾ ولمْ يقل للأوَّل: أما رأياك أنت، ولم يقل للثاني: أما أنت، وإنَّ تفسيرَ الرؤيا تدلُّ على صاحِبها.

وعبَّر رؤيا الثاني بأنه سيقتلُ بعدَ أيامٍ، ويصلبُ، وتحطُّ الطيرُ على رأسِهِ، وتأكلُ منه، وقوله: ﴿ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ أي: هذا التأويلُ الصحيح لرؤيا كلٍّ منكما، وسيقعُ الأمرُ على ما بينته لكما.

جنـــــة السـنـــة

وقال نبيُّ الله يوسفُ للسجين الذي سينجو ويعودُ إلى خدمةِ الملكِ ساقياً اذكرني عند ربِّك فأنساهُ الشيطانُ ذكرَ ربِّه ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [يوسف:٤٢]، والبِضْعُ في لغةِ العربِ ما بين الثلاثِ إلى التسعِ من السنين.

٣- **موعظة نبي الله يوسف صاحبيه اللذين دخلا معه السجنَ:**

قبل أنْ يؤوِّلَ نبيُّ الله تعالى يوسفُ لصاحبي السجنِ وعظهما ودعاهما إلى الدينِ الحقِّ الذي أرسله اللهُ تعالى به ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ﴾ [يوسف:٣٧]، أي: لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه في الرؤيا إلاَّ أخبرتكما بتأويلِهِ، أي: إلا أولت لكمُ الرؤيا التي رأيتماها بشأنِ ذلك الطعام قبل أن يحِلَّ زمنُه، ذلكما مما علمني ربِّي، وهذا ما وقع ليوسفَ عليه السلام في رؤيا الملكِ كما سيأتي بيانُه.

وقال لهما: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف:٣٧]، قال يوسفُ لصاحبي السجن: إني تركتُ ملَّةَ قوم لا يؤمنون بالله، أي: تركتُ دينَ قوم لا يؤمنون بالله وَحْدَهُ، وهم كافرون بالآخرةِ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨]، أي: واتبعتُ دينَ آبائي، وآباؤُه جميعاً رسلٌ أنبياءٌ، وجدُّه الأعلى رسولُ الله إبراهيمُ، وجدّه الأوسطُ إسحاقُ نبيٌّ رسولٌ، وكذلك أبوه المباشِرُ نبيٌّ رسولٌ، وهم جميعاً على التوحيدِ والدينِ الحقِّ.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ﴾ فدينهم قائمٌ على توحيدِ الله بالعبادةِ، وتركِ الآلهة التي يعبدُها المشركون ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي: استقامتنا على التوحيدِ ونبذ الشركِ هو من فضل الله علينا وعلى الناس، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف:٣٨]، لا يشكرونَ نعمةَ الله التي أنعمَ بها عليهم مِنَ التوحيدِ، ونبذِ الشركِ، فيقعون فيما نهاهم اللهُ عنه.

وقال يوسف عليه السلام مخاطباً صاحبيه في السجن وكانا مشركين، خاطبهما موجهاً السؤال إليهما ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف:٣٩] خاطبهما خطاباً لطيفاً ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ﴾ ثم سألهما قائلاً: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾

جنـــــة السـنة

[يوسف:٣٩] أأربابٌ متفرقون، كلُّ واحدٍ تزعمونه إلهاً وربّاً، فهم يعبدون ما لا يحصى من الأوثانِ والأصنامِ، وقد يعبدون الشمسَ والقمرَ والنجومَ والجبالَ والبحارَ والأنهارَ، أفهذه الآلهةُ المخلوقةُ المَربوبة الباطلة، التي لا تضرُّ ولا تنفعُ، ولا تعطي ولا تمنعُ خيرٌ أم اللهُ الواحدُ الذي لا أحدَ يستحقُّ العبادة معه، القهارُ، أي: الذي يقهر خلقَه، ويذلُّهم، ولا يعجزُه أحدٌ منهم.

وقال يوسفُ لصاحبي السجن: ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف:٤٠]، أي: ما تعبدونَ من دونِ الله إلا أسماءً سميتموها أنتم وآباؤكم، فقد سموها أرباباً، وسموها شركاءَ، وآلهة، وهي ليستْ أرباباً ولا شركاءَ ولا آلهةً بل هي مخلوقاتٌ مربوبةٌ مسخَّرةٌ لربِّ العزةِ سبحانه، ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ﴾ لم ينزل اللهُ بها حجةً ولا برهاناً يدلُّ على صحة عبادتها ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ فاللهُ هو القاضي والحكمُ العدلُ، وحكمهُ حقٌّ وعدلٌ، ولذلك ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ﴾ أي: أمركم بعبادته وحده لا شريكَ له ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي: الدينُ الحقُّ الصحيحُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: لا يعلمون أنَّ اللهَ هو الواحدُ الأحدُ الذي لا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سواه.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- سَجَنَ أولو الأمرِ نبيَّ الله يوسفَ ﷺ، وقد قامتِ الأدلةُ عندهم على براءَتِهِ مما رمته زوجةُ العزيز به.

٢- دخل مع يوسفٍ فتيان رأى كلٌّ منهما رؤيا، فسألَ كلُّ واحدٍ منهما يوسفَ عن تأويلِ ما رآه، فأوّلَ لكلِّ واحد منهما رؤياه.

٣- طلبَ يوسفُ من الذي ظَنَّ أنَّه ناجٍ من السجينين أنْ يذكره عند الملكِ، فأنساهُ الشيطانُ ذكرَهُ للملكِ.

٤- قبل أن يفسِّر يوسفُ لصاحبي السجنِ رؤياهما، عرَّفهما بما حباه الله بهِ، ودعاهما إلى التوحيدِ، ونهاهما عن الشركِ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني السابع من سورة يوسف
رؤيا ملكِ مصرَ وتعبيرُ يوسف لها

أولاً: تقديم

تتحدثُ هذه الآياتُ عن رؤيا عظيمةٍ رآها ملكُ مصرَ في الزمن الذي كان فيه يوسفُ في السجنِ مظلوماً بسبب جرم كان منه براء، وعَجَزَ كلُّ من حولَ الملك عن تأويلِ الرؤيا، فلما حملها الرجلُ الذي كان سجيناً مع يوسف إلى يوسف أوَّلها، فإذا بها رؤيا عظيمة لها علاقةٌ كبيرةٌ بمستقبل مصرَ ومستقبلِ الديارِ التي حولها، رآها ملكُ مصر الذي بإمكانه أن يستفيدَ منها هو وشعبُه في السنواتِ القادمة.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن الكريم

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ
ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا
ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ
أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا
تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ
فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [يوسف:٤٣-٤٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- رؤيا ملكِ مصرَ:

حدَّثتنا هذه الآياتُ الكريمةُ من هذا النصِّ أنَّ ملكَ مصرَ رأى رؤيا فيها عُجْبٌ وطرافةٌ، فعرضها على مَنْ حوْلَه طالباً تأْويلها، فلم يقدرْ أحدٌ منهم على ذلك ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف:٤٣].

أخبر الملكُ مَنْ حولَهُ أنَّه رأى في منامِه سبعَ بقراتٍ سمينة، يأكلها سبع بقراتٍ عجافٍ، أي: هزيلة ضعيفة، ورأى في الرؤيا نفسها سبعَ سنبلاتٍ خضر، وسبعاً أُخرى يابساتٍ، وقال

جنـــــة السـنــــة

لمن حوله بعد أنْ حدَّثهم عما رأى: ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَىٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ طلبَ منهم أن يُعبِّروا له الرؤيا، إنْ كانوا قادرينَ على تأويلها.

﴿قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف:٤٤]، وواضحٌ من الآيةِ أنَّ القومَ الذين استشارهم لم يفقهوا تعبيرَ الرؤيا، فأجابوا بما أجابوا، وقالوا للملكِ: إنَّ الذي رأيته ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ أي: أخاليطُ أحلام، وهذه تكون من حديثِ النفس وأخاليطِ الشيطانِ، ولم يكنْ جوابُهُمْ مقنعاً، فالرؤيا يظهر من سياقها أنها حقٌّ، وليست تخاليطاً.

٢- تذكُّر صاحبُ يوسف الذي دخل السجنَ مع يوسفَ ما كان من يوسف:

كان في الذين استشارهم الملكُ ساقي الملكِ الذي دخلَ مع يوسف السجنَ قبل بضع سنين، فتذكر أمرَ يوسف عندما دخل معه السجنَ فعرض رؤياه ورؤيا صاحبه على يوسفَ، فأوَّل لهما رُؤْياهما، وتحققتا كما أوَّلهما، وتذكر قول يوسف لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ﴾ [يوسف:٣٧].

تذكَّر هذا الساقي ما كان من يوسف، فأخبرَ الملك ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف:٤٥-٤٦].

تذكَّر الساقي ما وقع له مع يوسف، وكيف نجا من السجن والقتل، وادّكر، أي: تذكر ما كان من يوسفَ بعد أُمَّة، أي: بعد حينٍ من الدهر، قال للملك ولمن حوله: أنا أخبركم بتأويل الرؤيا، وحدَّثهم بما كان من أمرِهِ مع يوسفَ، وطلب منهم أن يرسلوه ليعلم منه تأويل الرؤيا.

٢- عرض الرؤيا على يوسف وتأويل يوسف لها:

جاء الساقي إلى السجنِ وعرضَ على يوسفَ أمرَ الرؤيا، فسارعَ في تأويلها من غيرِ تأْخير ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف:٤٧-٤٩].

لقد كانتْ الرؤيا رؤيا عظيمةٌ، لها علاقة بمستقبل مصر، ومستقبل الأقطار التي حولها على مدى خمسة عشرَ عاماً قادمة، والذي رآها هو مَلِكُ مصرَ، والذي يملكُ أن يخطط في ضوءِ هذه الرؤيا للاستفادةِ من سنواتِ الخصبِ في مواجهة سنوات المحْلِ.

جنـــــة الســــنة

وعندما عَبَّر يوسف الرؤيا عبَّرها بصيغةِ تدلُّ على الكيفية التي يستفادُ بها منها، قال للساقي الذي حملَ إليه الرؤيا: تزرعون سبعَ سنين دَأَباً، أي: متتابعةً، فما حصدْتُم من القمح والشعيرِ ونحوهما في سنوات الخصبِ فذروهُ في سنبلةٍ إلا قليلاً مما تأكلونه في كلِّ عامٍ، وهذه السنواتُ السبعُ الخصبةُ الطيبةُ تمثِّل البقراتِ السبعِ السمينةِ التي رآها الملك في الرؤيا، ثم يأتي بعد ذلك سبعُ سنواتٍ صعبةٍ ممحلة، لا تنبتُ فيها الأرضُ، ولا تعطي ثمراً، وهذه هي التي رمزت لها الرؤيا بالسبع بقراتٍ العجافِ، فتأكلُ ما أنتجتهُ سنوات الخصبِ، وبعد سنواتِ المحل السبعة يكون عامُ خيرٍ فيه يغاثُ الناسُ بالمطرِ، وفيه يعصرون العنبَ والزيتونَ والتمر، وهذا يدلُّ على أنها سنةُ خيرٍ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- رأى ملكُ مصرَ رؤيا طلبَ ممن حوله تفسيرها، فعجزوا عن ذلكَ، ووصفوا الرؤيا بأنها باطلةٌ، وأنها أضغاثُ أحلام.

٢- عُرِضَتْ الرؤيا على يوسفَ، فتبيَّنَ أنها رؤيا عظيمةٌ، لها علاقةٌ بمستقبلِ مصرَ والأقطارِ التي حولها على مدى خمسةَ عَشَرَ عاماً القادمةِ.

٣- رمزتْ الرؤيا بالسبعِ البقراتِ السمان إلى سبع سنين خصبةٍ والسبعِ البقرات العجاف إلى سبع سنواتٍ عجاف، وأكْلُ السبع البقراتِ العجافِ السبع السمان، إلى أكلِ الناسِ في السبعِ الشدادِ ما قدَّموا في السبعِ الخصبةِ من خيرٍ.

٤- فسرَّ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ، الرؤيا بطريقةٍ تدلُّ على الطريقةِ التي يستفادُ بها من الرؤيا.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثامن من سورة يوسف
خروج يوسف من السجن وتنصيبه على خزائن الأرض

أولاً: تقديم

لما فسَّر يوسفُ الرؤيا، طلب الملكُ إخراجَهُ من السجنِ، فرفضَ يوسفُ الخروجَ حتى يحقق في الأمرِ الذي أدَّى به إلى دخولِ السجنِ، فحقَّقَ الملكُ في الأمرِ، وظهرتْ براءةُ يوسفَ، وأُخرِجَ يوسفُ من السجنِ، ووليَ خزائنَ الأرضِ، وأصبحَ بعد السجن يتبوأ من الأرض حيث يشاءُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

[يوسف:٥٠-٥٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- طلب الملكُ من المسؤولِ عن السجنِ أن يأتوه بيوسفَ فرفضَ يوسفُ الخروجَ حتى تظهر براءته:

فلَّما علمَ الملك بتأويل ما رآه، وعلم بما تحمله الرؤيا من خيرٍ لمصر وأهلها، والديارِ التي حولها، طلب من المسؤولِ عن يوسفَ في سجنه أن يأتوه بِهِ ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ [يوسف:٥٠] فلما جاءَه من يريدُ إخراجَه من السجن رفضَ الخروجَ منه قبل ظهورِ براءَتِهِ مما رُمِيَ به، وقال للرسولِ الذي جاءَ لإخراجه: ارجعْ إلى ربِّك -يريدُ به الملكَ- فاسأله عن النسوةِ التي قَطَّعن أيديهن، إنَّ ربي، أي: إلهي وخالقي عليمٌ بكيدهن، أي: بمكرهنَّ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ

جنـــــة السـنـــــة

إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف:٥٠]، طلب يوسف من الملكِ أنْ يحقق مع النسوةِ، ولم يذكر امرأةَ العزيز، وهي التي كان لها الدورُ الأعظمُ في المراودةِ، لأنَّ النسوةَ اطلعن على ما فعلته امرأةُ العزيز، فقد اعترفت لهنَّ بفعلتها، والتحقيقُ مع الجمعِ من النسوةِ أرجى لظهورِ الحقِّ من التحقيقِ مع امرأةٍ وحدَها، ولذلك لما شهدَ النسوةُ ببراءَةِ يوسف، سارعتِ امرأةُ العزيز إلى الاعترافِ بما صنعت ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ [يوسف:٥١]، حقَّق الملكُ مع النسوةِ فبرأت النسوةُ بأجمعهن يوسفَ عليه السلام مما رُمِيَ به، وقولهن: ﴿حَـٰشَ لِلَّهِ﴾ أي: معاذَ الله، ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ ﴾ أي: ما علمنا عليه سوءاً، عند ذلك ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ اعترفت امرأةُ العزيز بذنبها، وقالتْ: الآن حصحصَ الحقُّ، أي: ظهرَ الحقُّ وبانَ، وقد أظهر اعترافُها براءَة يوسفَ، وأنَّه دخلَ السجنَ مظلوماً، وأنه لمن الصادقين في قوله: إنها راودته عن نفسه.

فلما علم يوسفُ باعترافها، وتَبْرِئَتها لَهُ، قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [يوسف:٥٢]، قال يوسفُ: ذلك ليعلمَ الذي كان في بيته، وائتمنه على منزله وأهله أنه لم يخنه بالغيبِ، أي: لم يفجرْ بأهلِهِ في حال غيبتِهِ عن دارِهِ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ واللهُ لا يهدي كيدَ، أي: مكرَ الذين يخونون فيما اؤتمنوا عليه.

ومع ظهور براءَة نبيِّ الله يوسفَ، فإنه لم يتعالَ، ولم يُظْهِرِ الغرورَ بنفسه ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [يوسف:٥٣]. هذا الكلامُ من نبيِّ الله يوسف عليه السلام من باب الهضم للنفس، وعدم التزكية لها، فقد قالَهُ بعد أنْ ظهرت براءَتُهُ، فقد بَرَّأته النسوةُ، وبرأته امرأةُ العزيز التي كانت قد كذبت عليه، وقال فيما قاله: وما أُبرئ نفسي، فالنفسُ أمَّارة بالسوء، أي: تأمر بالسوءِ وتحثُّ عليه، ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ ﴾ أي: إلاَّ من رحم الله تعالى من النفوسِ، فعصمها عن الأمر بالسوء.

٢- خروجُ يوسفَ من السجنِ وتوليته خزائنَ الأرضِ:

بعد أن ظهرتْ للملكِ طهارةُ نبيِّ الله يوسفَ، وظهرَ له أنَّ هذا الرجل رجلٌ لا كالرجال، وأنَّ فيه من الخصائصِ والصفاتِ ما ليس في غيره، طلبَ من المسؤولين حولَهُ أن

جنـــــة السـنة

يؤتى به ليستخلصه لنفسه ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِيۖ﴾ [يوسف:٥٤] فلما جاءَه، واستنطقه، رأى فيه الرجلَ الذي يعتمدُ على مثلِهِ والذي يقودُ إلى تجاوز المرحلة القادمةِ التي أخبرت الرؤيا بها، فقال الملكُ ليوسفَ: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف:٥٤]، أي: أنتَ عندنا ذو مكانةٍ، أي: ذو منزلةٍ عاليةٍ، وأمينٌ، فقد ظهرتْ براءَتك وأمانتك.

فقال يوسفُ للملكِ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف:٥٥]. طلب منه أن يوليه المنصبَ الذي يقودُ فيه الفريقَ الذي يعمل على الإعدادِ للمرحلتين القادمتين، المرحلة التي يكونُ فيها الخصبُ والنماءُ، والمرحلةُ التي يكون فيها المحلُ، ووجودُ رجلٍ يحسنُ القيامَ على ذلك كلِّه أمرٌ في غايةِ الأهمية، وعلَّل طلبه بأنه ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ أي: لديَّ من الصفاتِ ما يجعلني أقومُ على ما وُكِلَ إليَّ بِهِ، فأنا حفيظ لا يضيع من ذلك عندي شيء، وعليم بما يوكل إليّ من أعمال.

ويدلُّ على أنَّ الملك قد استجابَ لطلبه قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٦-٥٧] لقد مكَّن اللهُ تعالى ليوسفَ في ديارِ مصرَ، فقد أصبحَ الرجلَ الثاني في الدولةِ، فقد ولاّه الملكُ خزائنَ الدولة المصريةِ، وأصبحَ قادراً أنْ يتبوأ، أي: ينزل من أرضِها ومدنها حيث يريدُ، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ﴾ أي: ينعمُ اللهُ برحمته على من يشاءُ، كما وقع لنبيِّ الله يوسف ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ ويوسف كان مِنَ المحسنين ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْأٓخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [يوسف:٥٧]، أي: ثوابُ الآخرةِ خير للمؤمنين المتقين، ويوسف كان من هؤلاء المحسنين المتقين.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- أمر الملكُ بإخراجِ يوسفَ من السجنِ، فأبى يوسفُ الخروجَ حتى يُحقَّقَ في التهمةِ التي سجن بسببها، وتظهر براءَتُه منها.

٢- حقَّقَ الملكُ مع النسوة اللاتي قطَّعْنَ أيديهنَّ، وفيهن امرأةُ العزيز، فظهرت براءَةُ يوسفَ، وأنَّه سُجِنَ عدَّة سنواتٍ مظلوماً.

جنـــــة السـنة

٣- أرادَ يوسفُ بالتحقيقِ الذي برَّأَ ساحتَهُ أنْ يعلمَ العزيزُ الذي كان يعملُ في منزلِهِ أنه لم يخنْهُ وهو غائبٌ عن منزلِهِ.

٤- لم يتعالَ يوسفُ ولم يُعَظِّم نفسَه عندما ظهرتْ براءَتُه، وقرَّر أنَّ النفس أمَّارةٌ بالسوءِ إلا من رحم اللهُ.

٥- الملكُ يأمرُ بإخراجِ يوسفَ من السجنِ، ويوليه منصبَ خزائنِ الأرضِ، وأصبح يوسف في الدولة مكيناً أميناً، وأصبحَ بعدَ السجنِ يتبوأ من الأرضِ حيث يشاءُ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني التاسع من سورة يوسف
مجيءُ إخوة يوسف في سنواتِ القحطِ والمحلِ إلى مصر يشترون ميرةً لأهلهم

أولاً: تقديم

حدَّثنا اللهُ -تعالى- في آياتِ هذا النص عن مجيء إخوةِ يوسفَ إلى أرضِ مصرَ ليشتروا الطعامَ لأهلهم، فقد أصابَ القحطُ والمحلُ ديارهم، وقلَّ الطعامُ فيها، ولما دخلوا على يوسفَ عرفهم، ولم يعرفوه، فباعهم الطعامَ وأكرمهم، واشترطَ عليهم ليبيعهم مرةً أخرى أن يأتوه بأخٍ لهم من أبيهم، فلما أخبروا أباهم بما اشترطه العزيزُ عليهم، رفض ذلك، وخشيَ عليه أن يفعلوا به فعلهم بيوسفَ، فلما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعَتَهم رُدَّت إليهم، فأطلعوا على ذلك أباهم، فأذنَ لهم باصطحابه بعد أنْ يؤتوه موثقهم من الله تعالى، ونصحهم أبوهم بالدخولِ من أبوابٍ متفرقةٍ، فعملوا بنصحه، ودخلوا إلى يوسفَ صحبةَ أخيهم، فآوى إليه أخاه، وأخبرَ يوسفُ أخاه بأمره، وطلب منه أنْ يكتم حالَه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ
ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ (٥٩) فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى
وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ
يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) فَلَمَّا رَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ
فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ
أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ
إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ
كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ
مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى
عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا۟ مِنْ
حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِى عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِى نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو

جنـــــة السـنة

عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف:٥٨-٦٩].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- مجيءُ إخوةِ يوسفَ يمتارون لأهلهم:

اجتاحَ القحطُ الديارَ التي حولَ مصر، كما اجتاحَ مدنَ مصرَ وقراها، وعلمَ الناسُ في تلك الديارِ عن توفّرِ الطعام في ديارِ مصرَ، وقصدَ إخوةُ يوسف أرضَ مصر كما قصدها غيرهم ليشتروا منها الطعامَ، ودخلوا إلى المكانِ الذي كان يوسفُ فيه، ﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يوسف:٥٨]. دخلَ على يوسفَ إخوتُهُ، وكانوا هم العشرةُ الذين ألقوه في الجُبّ، فعرفهم، فقد فارقهم وهم كبارٌ، فلم تختلفْ عليه هيئاتهم، ولم يعرفوه، فقد كان صغيراً عندما تركوه قبل زمنٍ طويلٍ، فتغيّر بعد كبره، وأين ذلك الصغيرُ من هذا العزيزِ المتزملِ بثيابِ الملك، الذي يأتمر بأمره كلّ هؤلاءِ من الخدم والحشم، ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ ﴾ [يوسف:٥٩-٦٠].

باعَ يوسفُ إخوته الطعامَ الذي جاؤوا في طلبه، ولما وفّاهم كيلهم، وحملت لهم أحمالُهم، ﴿ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ طلبَ منهم أنْ يأتوه بأخ لهم من أبيهم، ولم يذكر النصُّ السببَ الذي جعل طلبَه من إخوانه معقولاً مقبولاً، إلا أنّ يكونوا قد حدثوه عن أبيه، وأخيه من أبيه، فطلب منهم أن يحضروا هذا الأخ ليعلَمَ صِدْقهم فيما حدَّثوا به، وقوله: ﴿ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فيه أنه زادهم في كيلهم، واستضافهم في فترةِ وجودِهم في مصرَ، وتهدَّدَهم إنْ لم يأتوا بأخيهم فلا كيلَ لهم في المستقبلِ إذا عادوا إليه، ومنعهم من قربانِه، ﴿ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [يوسف:٦١]، فوعدوه أنْ يعودوا إليه مع أخيهم بعد أن يحاولوا الحصولَ من أبيهم على الإذنِ له باصطحابِه معهم.

وحتى يشعرَ إخوتُه بأنَّ الذي طلبه منهم قولٌ جِدٌّ طلب من فتيانه الذين يعملون عنده، ويأتمرونَ بأمرِه أن يجعلوا بضاعتهم التي جاؤوا بها ثمناً لما اشتروه في رحالهم ﴿ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

جنـــــة الســــنة

[يوسف:٦٢]. طلبَ يوسفُ من مماليكه أن يجعلوا البضاعة التي جاءَ بها إخوانُهُ ثمناً للطعام في رحالهم مع طعامهم، لتكون دليلاً لهم وشاهداً عند أبيهم أنهم صادقون فيما أخبروا به، فيشجعهم ذلك إلى العودة إليه عندما يحتاجون إلى الطعام من جديد.

٢- امتناعُ يعقوب من إرسال أخيهم من أبيهم معهم:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف:٦٣] لمّا عادَ إخوةُ يوسفَ إلى أبيهم مزودين بالطعام الذي ذهبوا للحصولِ عليه، وأخبروا أباهم بما طُلِبَ منهم، وأنَ عزيزَ مصر الذي باعهم الطعامَ منعَ من بيعهم الطعام مرة أخرى إن لم يأتوه بأخيهم من أبيهم، فإنْ أرسله معهم كالَ الطعام الذي يشترونه، وتعهدوا له بحفظِهِ ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

لقد تخوَّف نبيُّ الله يعقوبُ من طلبِ أبنائه أخاهم من أبيهم، فلم يغبْ عنه طلبُهُمْ أنْ يُخْرِجَ معهم يوسفَ وهو صغيرٌ ليرتعَ ويلعبَ، ففي ذلك اليوم تعهدوا له بحفظه، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف:١٢]، فلم يَغُرُّوه بقولهم هنا: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يوسف:٦٣]، ولذلكَ ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف:٦٤]. قالَ لهم: إنَّه لا يأْمنهم على أخيهم إلا كما أمنهم على يوسف من قبل، والمؤمِنُ لا يلدغُ من جُحْرٍ مرتين، وقد لدغ يعقوبُ من أولادِهِ مرةً، فلا ينبغي له أن يلدغ منهم مرةً أخرى، قال لهم: لا آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على يوسفَ من قبل، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- أذن يعقوب بخروج ولده معهم بعد أن يؤتوه موثقاً من الله:

بعد أنْ رفضَ يعقوبُ أن يرسلَ ولدَهُ مع بقيةِ أولادِهِ، فتحوا متاعهم الذي جلبوا فيه الطعامَ، فوجدوا أنَّ بضاعتهم التي أخذوها معهم قد رُدَّت إليهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ [يوسف:٦٥]. لقد جعلَ يوسفُ مماليكه يضعونَ البضاعةَ التي جاء بها إخوانُه ليشتروا بها الطعامَ في رحالهم، كي تكونَ حجّةً لإخوانِهِ مع أبيه كي يوافقَ على إرسالِ الأخِ الذي مِنَ الأبِ إلى مصرَ، وفعلاً اتخذ الإخوةُ إعادةَ البضاعةِ حجّةً لهم مع أبيه و﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى﴾ أي: ما نريدُ البغيَ والفسادَ، ﴿هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ وفي هذا

جنـــــة السـنة

دليلٌ على أنَّ عزيزَ مصر حقاً محسنٌ إلينا، وقد أكرمنا غايةَ الإكرام عندما كنا في ديارِه، واستضافنا، وهاهو قد أعاد البضاعةَ التي دفعناها ثمناً للطعامِ، ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أي: وإذا أنتَ أذنتَ أنْ نصحب أخانا يؤذن لنا بشراءِ الطعامِ، فنميرُ أهلنا، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أي: ونحنُ نتكفل لك بحفظِ أخينا ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾﴾ ويبدو أن العزيزَ قد وعدهم بهذا المقدار من الطعام إن هم حقَّقوا رغبته.

ويبدو أن ردَّ البضاعةِ مع الطعامِ خَفَّفَتْ من غلواءِ يعقوب، فأذنَ لهم باصطحابه على أنْ يؤتوه موثقاً من الله، ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف:٦٦]، قال لهم: لن أرسلَه معكم حتى تؤتوني موثقاً من الله وذلك بحلفهم الأيمانَ المغلظةَ أن يأتوه بأخيهم إلا أنْ يحيط بهم ما لا قدرةَ لهم على ردِّه فلما آتوه الموثقَ الذي طلبه منهم ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ .

٤- نبيُّ الله يعقوب ينصح أبناءَه أن يدخلوا من أبواب متفرقة:

نصح يعقوبُ أولادَه إذا وصلوا إلى المدينة أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقة، فمسير عشرة رجالٍ متشابهين في الشكلِ والمنظر، يلفت النظر إليهم، ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف:٦٧]. وطلبَ يعقوبُ من أولادِه أن يدخلوا متفرقين من أبواب متفرقة، لأنه خشي عليهم العينَ، وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «العين حقٌّ» [البخاري: ٥٧٤٠. ومسلم: ٢١٨٧].

وخشي عليهم العينَ، لأنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيئةٍ حسنة، ومنظر وبهاءٍ، فخشي أن يصيبهم الناسُ بعيونهم، ﴿وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: لا أدفعُ عنكم ضرراً، ولا أجلبُ لكم نفعاً بما أشرتُ عليكم به، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: الحكم له وحْدَهُ، ليس لغيره فيه نصيب، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [يوسف:٦٨]، أي: ولما دخل أبناءُ يعقوب متفرقين من أبواب متفرقةٍ، ﴿مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾

جنـــــة السـنة

أي: ما كان هذا الدخولُ منهم على هذا النحوِ يغني عنهم من قضاء الله تعالى من شيء ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ إلا أنهم قضوا وطراً ليعقوب بدخولهم من أبوابٍ متفرقة ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: وإنه لصاحب علمٍ بما علَّمه الله تعالى إياه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾ أي: ولكنَّ كثيراً من الناس غيرُ يعقوب لا يعلمون ما يعلَمه.

٤- يوسف يُؤْوي إليه أخاه عندما دخل إخوانه عليه:

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩)﴾ [يوسف:٦٩]. لما دخلَ الإخوةُ على يوسفَ خَلا بأخيه ابنِ أمِّهِ وأبيه، وكشف له أمره، وأطلعه على سرِّه، وعرَّفه أنَّه أخوه، وطلبَ منه سترَ ذلك، وعدمَ اطلاعِ إخوتِهِ بما أخبره به، وطلبَ منه ألاَّ يحزنَ ويغتمَّ بما كانوا يؤذونه به.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- إخوةُ يوسفَ يرحلون من فلسطينَ إلى مصر ليشتروا الطعامَ لأهلهم، ويدخلون على المكانِ الذي يتولَّى فيه يوسفُ الطعامَ، فيعرفهم ولا يعرفونه.

٢- يوسف يبيعُ إخوانَه الطعامَ الذي جاؤوا يشترونه، ويشترطُ عليهم في المرةِ القادمةِ أن يصطحبوا معهم أخاهم من أبيهم، فإنْ لم يفعلوا فلن يبيعهم، فوعدوه أن يحاولوا مع أبيهم أنْ يأذنَ لهم في اصطحابِهِ.

٣- أمر نبيُّ الله يوسفُ مماليكَهُ أنْ يَرُدّوا بضاعةَ إخوانِهِ إلى رحالهم التي فيها طعامُهُم، كي يشجعهم على العودةِ إليه في مرةٍ تاليةٍ.

٤- أبناءُ يعقوبَ يخبرونَ أباهم بما نالهم من إكرام من عزيز مصرَ، ويخبرونه بما طلبه منهم من إحضارِ أخٍ لهم من أبيهم، وإلاَّ مَنَعَ بيعهم الطعامَ في المرة التالية.

٥- يعقوبُ يرفضُ عرْضَ أولادِهِ، لأنه يخشى أن يفعلوا به مثل ما فعلوه بيوسف من قبل، فقد تعهدوا له بالمحافظةِ عليه، فخانوه، وخشي أن يفعلوا به فعلهم بيوسف.

٦- فتح إخوةُ يوسفَ متاعهم الذي فيه طعامُهم الذي اشتروه، فوجدوا بضاعَتَهُمْ التي ذهبوا بها إلى مصرَ ليشتروا بها الطعامَ مردودة في ذلك المتاعِ، فأرَوْا ذلك أباهم، وكيف أنَّ الرجلَ يريدُ الإحسانَ إليهم، وأنَّهم لم يفتروا عليه.

٧- يعقوبُ يأذنُ لأبنائِه باصطحابِ أخيهم بعد أن يأخذ عليهم موْثِقاً من الله أنْ يأتوه به إلا أن يحاطَ بهم، فلا يقدرون على الرجوعِ، ولا على إرجاعه.

٨- يعقوبُ يوصي أبناءَه أن يدخلوا من أبوابٍ متفرقةٍ خشيةً عليهم من العين، ففعلوا ما أمرهم به أبوهم.

٩- إخوة يوسفَ يدخلون على يوسفَ ومعهم أخوهم من أبيهم الذي جاؤوا به من فلسطين، فيخلو يوسفُ بأخيه، ويكشفُ له أمرَه، ويطلعه على سرِّهِ.

جنـــــة السـنة

النص العاشر من سورة يوسف
يوسف يحتال على إخوته ليبقي أخاه ابن أمه وأبيه عنده

أولاً: تقديم

احتالَ نبيُّ الله يوسفُ عليه السلام باستبقاءِ أخيه عنده بوضعِ الصاع في رحلِ أخيه، وجعلَ إخوته يحكمون في شأن السارقِ بما في شريعتهم، وبذلكَ أخذَهُم بما حكموا به، واستبقى أخاه عنده، ولم ينكرْ إخوةُ يوسفَ أنْ يكون أخيهم سَرَقَ، بل اتهموا أخاهُ يوسفَ بأنَّه قد سَرَقَ فيما مضى.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ
(٧٠) قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١) قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠
بِهِۦ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ (٧٣) قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ
إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ (٧٤) قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ
بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى
دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ۞ قَالُوٓا۟ إِن
يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)﴾ [يوسف:٧٠-٧٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يوسفُ يحتال ليبقي أخاهُ عنده:

أراد نبيُّ الله يوسف عليه السلام أن يبقيَ أخاه عنده، وأنْ يعاقبَ إخوانَه ببعضِ ما اقترفوه في حقِّه، فاحتالَ لذلك ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾ [يوسف:٧٠]. لما جهَّز يوسفُ إخوانَه بجهازِهم، أي: كالَ لهم الطعامَ، وجعلَ السقاية في رحلِ أخيه، أي: جعلَ الصاع الذي يكيلُ به الطعامَ في متاعِ أخيه، ثم حُمِّلتْ لهم الأحمالُ، وانطلقوا عائدين إلى ديارهم، عند ذلكَ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾ أي: نادى منادٍ صائحاً قائلاً: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ (٧٠)﴾.

جنـــــة السـنة

عند ذلك ﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [يوسف:٧١] أي: أقبلَ إخوةُ يوسفَ ومن معهم على المؤذِّنِ الذي أذَّن بما أذن به، قائلين: ﴿مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾﴾؟ أي: ما المتاعُ الذي سُرِقَ منكم، ﴿ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يوسف:٧٢]، قالوا: نفقدُ صاعَ الملكِ، وهو الصاعُ الذي يكالُ به الطعامُ، ولمن يأتي بهذا الصاعِ حملُ بعيرٍ من الطعامِ، وقال المنادي: وأنا به زعيم وقوله: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ هذا من بابِ الجعَالةِ، وقوله: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾﴾ هذا من بابِ الضمانِ والكفالةِ.

عند ذلك ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف:٧٣-٧٥]، أقسم إخوةُ يوسفَ بالله تعالى أنَّ العزيزَ ومن معه يعلمون أنهم ما جاؤوا ليفسدوا في الأرضِ، والسرقةُ باب من أبوابِ الفسادِ في الأرضِ، وقالوا: ﴿وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾. قال مماليكُ العزيز مخاطبين إخوةَ يوسف: فما جزاءُ الذي نجدُ الصواعَ في رحلِهِ؟ فحكموا بما كانوا يحكمون به في شريعةِ أبيهم، وكانَ الموجودُ في تلكِ الشريعة أنَّ السارقَ الذي تثبت عليه السرقةُ، يدفعُ إلى المسروقِ منه فيستعبدَه.

٢- مماليك العزيز يستخرجون صواع الملك من متاع أخي يوسف:

بعد أنْ قال إخوةُ يوسفَ ما قالوه أخذَ مماليكُ العزيز في تفتيش رحالِ إخوة يوسف، وبدؤوا بتفتيش متاع الإخوة قبل متاع الأخ الذي وضع الصاعُ في رحلِهِ ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ ﴾ [يوسف:٧٦] وكانَ ما وقعَ مفاجأةً كبيرةً للإخوةِ، فلم يكن الإخوةُ يتوقعون أن تمتدَّ يدُ هذا الأخ إلى صواعِ الملكِ وتسرقه، ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف:٧٦]، وهكذا تحقَّقَ الكيدُ الذي كادَه اللهُ تعالى ليوسفَ، فلو حاكمَ يوسفُ هذه السرقةَ إلى دينِ الملكِ لحكم بحكم آخر، ولم يحكم باستعبادِه عنده، فجعل يوسفُ القضاءَ إلى إخوته في هذه القضيةِ، وكان يعلمُ يوسفُ بالحكم في مثل هذه السرقةِ في شريعةِ يعقوب، فألزمهم بما حكموا به، ﴿ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ وقد شاءَ اللهُ أخذَه بشريعةِ يعقوب التي نطقوا هم بالحكم بها.

جنــــة الســـنة

وقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ أثنى اللهُ تعالى على نبيِّه يوسف بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ أي: بالعلم، والناسُ يتفاوتون في العلم، فما من عالمٍ إلا فوقه من هو أعلمُ منه، حتى ينتهي العلم إلى الله ربِّ العالمين.

عند ذلك ﴿ ۞ قَالُوٓا۟ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يوسف:٧٧] فلما سمع نبيُّ الله يوسفُ ﷺ ما رموه به، أسرَّ يوسفُ الأمرَ في نفسِهِ، لأنه لو جبههم وأكذبهم لانكشف أمرُه، وهو لا يريدُ أنْ يعرفوا أنّه يوسفُ في ذلك الوقت، ولذلك قال لهم: ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾﴾. قال لهم: أنتم شرٌّ موْضِعاً ومنزلاً ممن نسبتموه إلى السرقةِ، وهو بريءٌ، فأنتم الظلمةُ الذين كذبتم على أبيكم وألقيتم الصبيَّ الصغيرَ في البئرِ، ولم ترحموا ضعفَه، ولم ترْعَوا حرمةَ أبيكم، واللهُ أعلم بما تصفون، فقد كانوا كاذبين فيما رموا به يوسفَ، وكانوا كاذبين عندما صدَّقوا أن أخا يوسف قد سرق حقّاً.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل

١ - احتالَ نبيُّ الله يوسفُ ﷺ لإبقاءِ أخيهِ عندَه، ولإرباك إخوتِهِ، وجعلهم يألمون لما وقع بهم.

٢- أمَرَ يوسفُ فتيانَه أن يجعلوا صواعَ الملكِ في رحلِ أخيه، واستنطقَ إخوانَه ليحكموا بأنَّ السارقَ يدفعُ إلى المسروق منه، فيستعبدَه.

٣- إخوةُ يوسف لا ينفون عن أخاهم السرقةَ، ويرمون يوسفَ بما هو منه بريءٌ.

٤- يجوز للرجل إذا ضاعَ متاعُهُ أن يجعل جعالةً لمن يأتيه بالمالِ الضائع، ويجوزُ للرجل أن يضمن ويكفل ما يُعْهَدُ به إليه.

٥- السرقةُ من بابِ الإفسادِ في الأرضِ.

٦- قد يقعُ الرجالُ النبهاء الأذكياءُ في أمورٍ لا ينتبهون لها، كما وقع إخوةُ يوسف في الحكم على أخيهم بالرقِّ، وهم لا يشعرون.

٧- كان لملكِ مصرَ قانوناً يأخذ به الناس، لا يتفق مع الشريعةِ التي كان عليها يعقوبُ وبنيه ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦] ولم يحكم يوسفُ بدينِ الملكِ، ولكنَّه تولّى الوزارةَ في بلاطه.

جنـــــة السـنة

النص الحادي عشر من سورة يوسف
ما جرى لإخوة يوسف وأبيه بعد اعتقال أخيهم

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلّ- أنَّ إخوةَ يوسف حاولوا أن يستعطفوا العزيزَ بأنْ يأخذ واحداً منهم بدلَ أخيهم الذي استرقَّه فأبى، عند ذلك عقدوا مجلساً خاصّاً بهم، وأمَرهم كبيرُهم أنْ يرجعوا إلى أبيهم، ويخبرونَه بما جرى، وأعلمهم أنَّه سيبقى في مصرَ حتى تحلَّ القضيةُ، ولم يقبل أبوهم عذرَهُم، وحمَّلهم المسؤوليةَ عما جرى لأخيهم، وازداد الحزنُ على نبيِّ الله يعقوب، فذهب بصرهُ، وازدادَ حزنه، وامتلأ غمّاً، وداومَ على ذكر يوسف، فلامه أولادُه، فأعلمهم أنه يعلم مِنَ الله ما لا يعلمون.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ
خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ
فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ
فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ
ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ
جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ
يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ
حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف: ٧٨-٨٦].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إخوة يوسف يستعطفون العزيز ليطلق أخاهم أو يأخذ أحدهم بدلاً منه:

ذهب إخوةُ يوسف إليه يستعطفونه في شأنِ أخيهم، راجينه أن يأخذَ واحداً منهم بدلاً عنه ﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يوسف: ٧٨-٧٩].

جنـــــة السـنـة

ذهب إخوةُ يوسف إلى العزيز، والتقوا به، وحاولوا أن يُرقِّقوا قلبَه عليهم، وأخبروه أنَّ له أباً شيخاً كبيراً، وهو متعلقٌ به، ويحبُّه حبّاً شديداً، وطلبوا منه أنْ يأْخذ واحداً منهم بدلاً عنه، ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فأنتَ أحسنت إلينا في استضافتنا، وإكرامِنا بإعطائِنا ميرتنا من غير ثمنٍ، فأبى وقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ وقال: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي: إن أخذنا غيرَ السارقِ نكون من الظالمين.

٢- إخوة يوسف يعقدون اجتماعاً يتداولون الأمر فيما بينهم:

خرجَ إخوةُ يوسف من عند العزيز بعد أن يئسوا أنْ يحقق طلبهم، وعقدوا اجتماعاً وحدهم يتداولون فيها أصابهم ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [يوسف:٨٠]. وقوله: ﴿خَلَصُواْ نَجِيًّا ۖ﴾ أي: اجتمعوا وحدَهم في اجتماعٍ اقتصر عليهم، لا يسمعهم غيرهم، وتولَّى كبيرُهم عَرْضَ المسألة عليهم، وقال لهم: قد علمتم أنَّ أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله، وقد سبق أنْ فرطتم، أي: قصَّرتم في حقِّ يوسفَ، فلم تحفظوه، وضيعتموه، فلن أبرحَ الأرضَ، أي: لن أغادرَ أرض مصر، حتى يأذنَ لي أبي بالعودةِ، أو يحكمَ اللهُ لي بخلاصِ أخي من الأسر، فأعودَ به إلى أبي، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ لأنَّ أحكام ربِّ العباد لا تجري إلا على ما يوافق الحقَّ.

٣- عودة أبناء يعقوب إلى أبيهم باستثناء كبيرهم:

أمَر كبيرُ إخوةِ يوسف إخوانَه أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بحقيقةِ ما جرى في مصر ﴿ٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يوسف:٨١]، طلبَ كبيرُ الإخوةِ من إخوانِهِ أن يرجعوا إلى أبيهم، ويخبروه بصورةِ ما جرى، وأن يقولوا له: إنَّ ابنكَ سرقَ، وما شهدنا إلاّ بما علمنا، فقد رأوْا مماليكَ يوسفَ يخرجونَ الصاعَ من متاعِ أخيهم، وشاهدَ ذلك كلُّ من كان حاضراً الواقعة.

وقد كان الأخوةُ محرجين كثيراً، لأنهم لو لم يحكموا بما تقْتَضيه شريعتُهم من استرقاقِ السارقِ ما استطاعَ العزيزُ استرقاقَ الأخِ الذي وقع منه ذلك، وقال أبناء يعقوب لأبيهم: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف:٨٢]، وليدلُّوا

جنـــــة الســــنة

على صدقهم طلبوا منه أنْ يسأل أهلَ القريةِ التي كانوا فيها، ويسأل العيرَ التي أقبلوا فيها، أي: يسأل أهلَ القريةِ التي جاؤوا معها، فالواقعةُ كانت على رؤوس الأشهاد، وعلم بها كلُّ من حضرها. ولم يرضَ والدهم بما قالوه، وبقيَ مُتَّهماً إياهم بما جرى لأخيهم ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ [يوسف:٨٣]، لم يرضَ الأبُ ما قاله أبناؤه، ومعنى: سوَّلَت: زَيَّنَتْ لكم أنفسكم أمراً، ولذلك قالوا ما قالوه عندما سُئِلُوا عن جزاءِ السارق، ولا شكَّ أن قبولَ الإخوةِ قضيةَ سرقةِ أخيهم لصواع الملكِ أمرٌ عجيب، فهم يعرفون أخاهم، ويعرفونَ أخلاقَه، فكيف يتصورُ أن يتحولَ الرجلُ الفاضلُ الذي تربَّى على الطهرِ والصلاحِ إلى رجلٍ سارقٍ بين عشيةٍ وضحاها، ذلك بعيد.

ولذلك كان مع يعقوب شيءٌ مِنَ الحقِّ عندما لم يرضَ مقولةَ أبنائِه، وقال يعقوبُ كما قالَ أولاً: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي: صبري صبرٌ جميلٌ، والصبرُ الجميلُ الصبرُ الذي لا شكوى معه، أي: لا شكوى معه للعبادِ.

وقال: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ كان أولاً في حزنٍ لغيبةِ يوسف، فتفاقم الأمرُ، وأصبحَ الغائبون الآن ثلاثة، يوسفُ والأخُ الشقيق ليوسف، والابنُ الأكبر من أولادِه الذي أصرَّ على البقاءِ في أرضِ مصرَ حتى تنجلي المسألةُ، فسألَ يعقوبُ ربَّه أنْ يأتيه بهم جميعاً ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣)﴾ أي: العليمُ بالناسِ جميعاً الحكيمُ فيما يجريه على خَلْقه.

٤- الحالُ التي صارَ إليها نبيُّ الله يعقوب عليه السلام:

أخبرنا ربُّنا -تباركَ وتعالى- عن الحالِ الذي صارَ إليها نبيُّ الله يعقوبُ ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ [يوسف:٨٤] أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن يعقوبَ تولَّى عن بَنِيه، أيْ: أعْرَضَ عنهم، وقال: يا أسفى على يوسف، والأسفُ أشدُّ الحزنِ والتندم، أي: يا حزناه على يوسف، ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ أي: انقلب سوادُ عينيه بياضاً من كثرة البكاءِ، وقوله: ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)﴾ أي: حزين.

وقال له أبناؤه لما سمعوه يذكر يوسفَ: ﴿تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥)﴾ [يوسف:٨٥]، فلما سمعَ الأبناءُ ما قالَهُ أبوهم قالوا له مقسمين

جنـــــة السـنة

بالله تعالى ﴿تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ﴾ أي: والله لا تزالُ تذكر يوسف ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ أي: حتى تصبح حرضاً، أي: بالياً فانياً، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾﴾ أو تصبحَ من الميتين، ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [يوسف:٨٦]، قال يعقوبُ لأبنائِه: أنا لا أشكوا همّي وحزني إلى أحدٍ منكم، أو إلى أحدٍ من خلقِ الله تعالى، إنما أشكوا بثّي: أي: حزني إلى الله، وشكوى العبدِ إلى ربِّه محمودٌ، وإلى العبدِ مذمومٌ، وقال لهم: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فيعقوبُ عليه السلام كان نبياً رسولاً، يأتيه الوحيُ من الله تعالى، وهو يعلم أنَّ رؤيا يوسف ستتحقق ولا شكَّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حاولَ الإخوةُ استدرارَ عطف العزيزِ ليأخذَ واحداً منهم بدل الأخِ الذي استرقَّه فرفضَ.

٢- أَرْبَكَ الذي جرى الإخوةَ، فأبوهم أخذَ عليهم العهدَ الموثَّق أنْ يعيدوا أخاهم إلا أن يحاط بهم، وهم الذين حكموا حكماً أدى إلى استرقاقِ أخيهم.

٣- عقد الإخوةُ مجلساً اقتصر عليهم وحْدَهم، ذكَّرَهُم فيه أخوهم الكبيرُ بالميثاقِ الذي أخذه عليهم أبوهم، وطلب منهم أن يرجعوا إلى أبيهم ويخبروه بما جرى معهم، وأخبرهم أنه سيبقى في أرضِ مصرَ حتى تنجلي القضيةُ.

٤- لم يقبل أبوهم منهم عذرَهُم، وحمَّلهم المسؤوليةَ عما جرى، وتعهد بأن يصبرَ صبراً جميلاً لا شكوى معه.

٥- ازدادَ الحزنُ على يعقوب، فذهب بصرُه، وازدادَ حزنُه، وامتلأَ غمّاً وحزناً.

٦- لامَ أبناءُ يعقوبَ أباهم على مداومَتِهِ على ذكرِ يوسف، فقال لهم: إنه يشكو همَّه إلى الله تعالى، ويعلمُ مِنَ الله ما لا يعلمون، وعنده علمٌ من الله أن يوسف موجودٌ حيٌّ.

جنـــــة السـنـة

النص القرآني الثاني عشر من سورة يوسف
نبيُّ الله يوسف ﷺ يكشف لإخوته عن نفسِهِ

أولاً: تقديم

طلب نبيُّ الله يعقوبُ من أبنائِه أنْ ينطلقوا إلى أرض مصرَ، ويبحثوا عن يوسف وأخيهِ، ولا يقعدُهم اليأسُ، فاستجابَ أبناؤُه لطلبه، واجتمعوا في مصرَ، ورجعوا إلى العزيز يشكونَ إليه ما أصابهم وحاجتَهم، ويطلبونَ منه إحسانه، عند ذلك كشف يوسفُ عن نفسِهِ، ووبخ إخوانه على ما كان منهم تجاهَهُ وتجاهَ أخيه، فأقروا بما اقترفوه واعترفوا له بالفضلِ، وغفر يوسفُ لإخوتِه ما اقترفوه، وسأل اللهَ أن يغفر لهم، وطلب منهم أنْ يرسلوا لوالده من يحملُ له البشرى، ويحملُ معه قميصَه، فيلقيه على وجهِ أبيه فيعودُ بصيراً، ويأْتوه بأهلهم أجمعين.

وعندما اقتربتْ القافلةُ وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ، ولكنَّ الذين حولَه خطَّؤوه، فلمّا تبينَ لهم صوابُ ما أخبر به، طلبوا منه أن يستغفرَ لهم، فوعدهم بذلك في مقبلِ الزمان.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا
ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا
ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ
جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن
يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن
كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾
ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا
فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ
ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا
لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ
ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يوسف:٨٧-٩٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- يعقوبُ يطلبُ من أولاده أن يرجعوا إلى مصرَ ويطلبَ منهم أن يتحسسوا من يوسف وأخيه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ نبيَّ الله يعقوبَ طلبَ من أبنائه أنْ يرجعوا إلى مصر، وأن يبحثوا عن يوسفَ وأخيه ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف:٨٧]، طلب يعقوبُ من أبنائه أن يرجعوا إلى مصر، وقال لهم آمراً: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ والتحسسُ يكونُ في الخير، والتجسسُ يكون في الشرِّ، وفي أمرهم بالتحسسِ من يوسفَ وأخيهِ، طَلَبَ منهم أنْ يطلبوا بحواسهم يوسفَ وأخاه. ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ﴾ أي: لا تَقْنَطوا من فرج الله ورحمته ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ أي: فإنه لا يقطعُ الرجاءَ من الله إلا القومُ الكافرون.

٢- إخوةُ يوسفَ يعودون إلى مصر ويدخلون على العزيز:

أطاعَ أبناءُ يعقوبَ أباهم، ورجعوا إلى مصرَ، واجتمعوا، ودخلوا على العزيزِ واستعطفوه، وتذلَّلوا بين يديه ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيۡهِ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ [يوسف:٨٨].

أجمع إخوةُ يوسف على أن يعودوا إلى العزيز يعرضون عليه حالهم، ويذكرون له ما أصابهم، وقالوا: يا أيها العزيز مسَّنا وأهلنا الضرُّ، أي: بما أصابنا من مَحْلٍ وقحطٍ، وبسبب مصابنا في أخينا الذي اسْتَرَقَّيْتَهُ واستعبدته ﴿وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ أي: جئنا ببضاعةٍ رديئة، كالحبلِ، والغِرارة، ونحوهما ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾ أي: أعطنا بهذا الثمنِ القليلِ ما كنتَ تعطينا ﴿وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ﴾ أي: بقبضِ هذه البضاعةِ المزجاة، وإعطائنا الطعامَ الطيبَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ إن اللهَ يثيب المتفضلين على أهلِ الحاجةِ بأموالهم.

هنا كشفَ لهم يوسفُ عن نفسِهِ، وأعلمهم بحقيقته، وكانت مفاجأة مذهلة لهم، لم يكونوا يتوقعونها، فلم يكن يَدُرْ في خلدِهِمْ أنّ هذا العزيز الذي يمثل الرجلَ الثاني في الحكومةِ المصريةِ هو ذلك الطفل الصغير الذي ألقوه في غيابةِ الجبِّ، وقد سألهم منكراً عليهم موبخاً لهم: ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾ [يوسف:٨٩]، إنه

جنـــــة السـنة

يسألهم عما فعلوه بيوسفَ وأخيهِ، إذن هذا الذي أمامهم يعلمُ أمْرَ يوسفَ ويعلمُ أمرَ أخيه، فمن أين له ذلك؟ عند ذلك ظهرتْ لهم الحقيقةُ، إنَّ هذا الجالس أمامهم هو يوسفُ، وهو يعرفهم، وهم لا يعرفونه.

ولذلك عندما أدركوا هذه الحقيقة ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف:٩٠] قالوا له: أإنك لأنتَ يوسف؟ قال: أنا يوسف، وهذا أخي، وهذا يدلُّ على أنَّ أخاهم كان معهم في تلكَ الجلسة.

وقولُ يوسفُ لإخوته: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما ما فعلوه بيوسف، فقد سبقَ أنْ حدَّثنا اللهُ تعالى عنه، وأما ما فعلوه بأخيه، فقد كانوا يؤذونه إذا استطاعوا، وقالوا: إنْ يسرق فقد سرقَ أخٌ له من قبل، وعندما سألهم العزيزُ عما يفعل بالسارقِ أجابوا جواباً استرقَّ به العزيزُ ذلك الأخ.

عند ذلك ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩١-٩٢]. قالوا مقسمين بالله تعالى ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ﴾ والمراد بقوله: ﴿لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ أي: لقد اختارَكَ وفضَّلَكَ اللهُ علينا، وهذا صحيحٌ، فقد آتاه اللهُ تعالى النبوةَ، وأعطاه الخُلُقَ والمُلْكَ، وأقرُّوا بأنهم أساؤوا إليه، وأخطؤوا في حقِّه.

عند ذلك ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف:٩٢]. قال يوسفُ ﷺ لإخوته ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي: تأنيبَ عليكم، ولا تعيير عليكم، ولا توبيخَ مني لكم، ثم دعا لهم ﴿ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ﴾ وقال: ﴿وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

٣- مجيءُ نبي الله يعقوب البشارةُ بالعثورِ على يوسفَ:

طلب نبيُّ الله يوسفُ ﷺ أن يحملوا قميصَهُ ويلقوه على وجهِ أبيه، فيرجعُ بصيراً ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف:٩٣]. لقد كانَ القميصُ الذي جاء به إخوانه وهو صغير إلى أبيه حَسْرةً وألماً ليعقوب،

جنـــــة السـنـــــة

وهذا قميصٌ آخر ليوسفَ يردُّ الله به على يعقوبَ بصرَهُ، وأمرهم يوسفُ أن يحملوا أهلهم من أرض فلسطين، ويأتوا بهم إلى مصرَ أجمعين.

وسار حاملُ القميص من إخوانِ يوسف من مصرَ في قافلةٍ من القوافل التي تقصد فلسطين، حاملاً البشرى للأبِ الحزين المكلومِ الذي ابيضت عيناه من الحزنِ، فلما اقتربتْ العيرُ من الديار، وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسفَ، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف:٩٤-٩٥]. عندما اقتربتْ العيرُ من الديار، وجدَ يعقوبُ ريحَ يوسف، فقال لمن حوله: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ أي: لولا أن تلومونني، وتعنفوني، وتكذبوني، فقالوا له حالفين بالله: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ أي: لفي حزنِكَ القديمِ على يوسف، ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى جاءَ البشيرُ بقميصِ يوسفَ فألقاه على وجهِ يعقوب فارتدَّ بصيراً ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف:٩٦]. وعلمَ نبيُّ الله يعقوب عليه السلام بما لا يعلمه أولادُه، لأنه نبيٌّ رسولٌ يوحَى إليه.

وعندما جاءَ البشيرُ يعقوبَ بالبشرى طلب منه أولادُه أنْ يستغفر لهم ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٧-٩٨] طلبَ أبناءُ يعقوب منه أن يستغفر لهم ذنوبهم، واعترفوا بخطيئتهم، فوعدهم أنْ يستغفر لهم في مقبلِ الأيام ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ إنه واسعُ المغفرةِ، وهو الرحيمُ سبحانه، وسأستغفره لكم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- نبيُّ الله يعقوب عليه السلام يطلب من أبنائه أن يرجعوا إلى مصرَ، ويبحثوا عن يوسفَ وأخيه، ويكونَ لديهم أملٌ، ولا ييأسوا من روحِ الله.

٢- إخوةُ يوسف يرجعون إلى مصرَ، ويقابلون عزيزها، ويشتكون إليه مصابهم.

٣- يوسفُ عليه السلام يظهر نفسَهُ لإخوتِهِ، ويُظهر لهم نعمةَ الله عليه وعلى أخيه.

٤- إخوةُ يوسف يعترفون بفضلِ يوسفَ عليهم، ويعترفون بما اقترفوه في حقِّه.

٥- يوسفُ يغفرُ لإخوانِهِ ما اقترفوه في حقِّه، ويدعو اللهَ تعالى لهم أنْ يغفر لهم ذنبهم.

٦- يوسفُ يطلبُ من إخوانه أنْ يذهبوا إلى أبيهم، فيبشروه، وأمرهم أن يلقوا على وجهه ذلك القميصَ الذي في يده، فيرجعُ بصيراً، وطلبَ منهم أنْ يأتوه بأهلهم جميعاً، ليقيموا في أرضِ مصرَ.

٧- لما اقتربت العيرُ من ديارِ يعقوب، وجدَ يعقوب ريحَ يوسف، فأنكر عليه أبناؤُه، وقالوا: إن هذا يدخل في حزنِهِ.

٨- البشيرُ الذي يحمل قميصَ يوسف يصلُ إلى أبيه يعقوب، فيبشره، ويلقي القميصَ على وجهِ أبيه، فيرجعُ إليه بصرُه.

٩- يعقوبُ يقولُ لأبنائه: ألم أقلْ لكم إني أعلم مِنَ الله ما لا تعلمون.

١٠ - أبناء يعقوب يطلبونَ منه أنْ يستغفرَ لهم ربَّه، فيعدهم بفعل ذلك في مقبل الأيام.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الثالث عشر من سورة يوسف

تحقق رؤيا يوسف عليه السلام

أولاً: تقديم

حدَّثنا ربُّ العزة في هذه الآياتِ الكريماتِ عن انتقالِ نبيِّ الله يعقوب وذريتِهِ من فلسطين إلى الديار المصرية، وهناك تحققت رؤيا يوسفَ عليه السلام بسجودِ أبيه وأمِّه وإخوانِهِ الأحدَ عشَرَ له في قاعةِ العرش، وختم اللهُ قصة يوسف بإظهار يوسف وهو يدعو ربَّه، ويثني عليه، وأخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ ما قصَّه علينا من قصة يوسف هو من أخبارِ الغيبِ الصادق.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- انتقال يعقوب وذريته من أرضِ فلسطينَ إلى الديارِ المصرية:

هناك مقطعٌ كاملٌ لم يذكره النصُّ القرآنيُّ، ولكنه مفهوم من النصِّ لا يحتاجُ إلى ذكر، فقد طلب يوسف من إخوانِهِ أنْ يأتوه بأهلهم أجمعين، فذكر النص أنَّ يعقوبَ وذريتهُ دخلوا على يوسفَ، ولم يذكر رحيلهم من أرضِ فلسطين إلى أرضِ مصرَ، ولكن ذلك مفهوم معلوم، لا يحتاج إلى ذكر.

جاء يعقوبُ هو وذريته من أرض فلسطين، واستقبلهم يوسفُ ومن معه، وأكرمَ وفادتهم، ودخل يعقوبُ وزوجه وأبناؤه قاعة العرش، ورفع يوسفُ أبويه على العرش، وجلس إخوانه في تلك القاعة، وخرُّوا له ساجدين، فقال يوسفُ لأبويه: هذا تأويلُ رؤياي

جنـــــة السـنــة

التي رأيتها في صغري، جعلها ربي حقاً ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف:٩٩-١٠٠].

وصل نبيّ الله يعقوب مع ذريتهِ إلى الديارِ المصريةِ، ولما دخلوا على يوسفَ في قاعةِ العرشِ آوى إليه أبويه، ورفع أبويه على العرش، أي: على سرير الملك، وخروا له سجداً، فكان أبوه وأُمُّه بمثابةِ الشمسِ والقمرِ اللذين رآهما في الرؤيا، وكان إخوانُه الأحدَ عشر بمثابة الأحدَ عشَرَ كوكباً، التي رآها في منامِهِ، وقال يوسفُ بعد أن تمَّ السجودُ له على هذا النحو ﴿وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ أي: تحققت رؤياي التي رأيْتُها في صغري بهذا السجود الذي وقع قبل قليلٍ ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ فلم تكن من حديثِ النفسِ، ولا من تخاليطِ الشيطانِ، وإنما كانت من الله تعالى، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾ وقد مَرَّ كيف يَسَّر اللهُ خروجه من السجنِ وكيف يَسَّرَ له استلامَ الحكم ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ وجاءَ اللهُ بيعقوب وذريته من باديةِ فلسطين إلى أرضِ الخيرِ والعطاءِ، حيث وجد بنو إسرائيل في ديارِ مصر دياراً تكاثر فيها عَدَدُهُمْ، ونمتْ فيها قوتُهُمْ، وأصبحوا أمةً كبيرةً، فقد دخلوا مصر وعددهم أقلَّ من مائةٍ، وخرجوا منها وتعدادهم يزيد على مئات الألوف، وقوله ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ﴾ أي: من بعد أن أفسد الشيطانُ ما بيني وبين إخوتي، وحمل بعضنا على بعض ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ أي: هو سبحانه ذو لطف، ومن لطفه إخراج الله له من السجنِ، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلوبِ إخوتِهِ ما ألقاه الشيطانُ، وهو العليمُ بمصالح خلقه، الحكيم في تدبيره.

٢- مشهدُ نبيِّ الله يوسف وهو يدعو ربَّه:

في ختامِ القصةِ يبرزُ النصُّ نبيَّ الله يوسف عليه السلام وهو متوجهاً إلى ربِّ العزة، يدعوه ويثني عليه ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١]. قال يوسف وهو يدعو ربه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ فقد رفع اللهُ يوسف حتى أصبح الرجل الثاني في الدولة، ﴿وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ أي: علمتني تعبيرَ الرؤيا ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾

جنـــــة السـنة

أي: يا فاطر السموات والأرض، وفاطرهما خالقهما وبارئهما، ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ أي: أنت ناصري ومتولي أموري في الدنيا والآخرة، ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ أي: توفني على الإسلام، وذلك بإعانتِهِ عليه حتى يأتيه الموتُ وهو كذلك، وألحقني بصالحِ آبائي إبراهيمَ وإسحاقَ ومَن قبلَهم من الأنبياءِ والرسلِ والذين اتبعوهم على الإيمانِ.

٣- هذا الذي أوحاه اللهُ تعالى إلى عبده ورسوله في هذه السورة من أنباء الغيب:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه وتعالى- أنَّ هذا الذي قصَّه على رسولنا ﷺ من قصةِ يوسف هو من أخبارِ الغيب ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يوسف:١٠٢-١٠٣]. أراد بقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: ما قصصناه عليك ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: من أخبار الغيب، ﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: نعلمك به بواسطة وحينا ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ أَجۡمَعُوٓاْ أَمۡرَهُمۡ وَهُمۡ يَمۡكُرُونَ ١٠٢﴾ أي: لم تكنْ حاضراً لدى إخوةَ يوسف عندما أجمعوا أن يلقوا يوسفَ عليه السلام في غيابة الجبِّ، وهم يمكرون، أي: يمكرون بأخيهم، ولكننا أعلمناك به وحياً مُنزَّلاً من عندنا.

وكلُّ أنباءِ الغيبِ التي أوحى الله تعالى بها إلى رسولِهِ ﷺ حالُها حالَ ما أعلم اللهُ -تعالى- به رسولَهُ ﷺ في هذا الموضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤﴾ [القصص:٤٤]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥﴾ [القصص:٤٥]، وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤﴾ [يوسف:١٠٤]، أي: أنت لا تطلبُ منهم مالاً على ما تبلغهم إياه من الحقِّ المنزلِ إليك من عند الله، وهذا الذي تبلغهم إياه ليس إلا ذكراً للعالمين، أي: للناسِ أجمعين، فرسولنا ﷺ مرسلٌ للناسِ كلِّهم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- انتقل نبيُّ الله يعقوب هو وذريتُهُ من أرض فلسطين إلى الديارِ المصرية.

جنـــــة السـنـــــة

٢- دخل نبيُّ الله يعقوبُ هو وزوجه وأولادُه قاعةَ العرش، ورفع يوسفُ أبويه على سرير الملك، وسجدَ له أبوه وأمُّه وإخوانُه الأحدَ عشر، وكان ذلك تأويلُ رؤيا يوسف عليه السلام.

٣- كان الشمس والقمر في الرؤيا مثلاً للأب والأمِّ، والكواكب الأحد عشر مثلاً للإخوةِ.

٤- ختمت قصةُ يوسف عليه السلام بإبرازِ نبيِّ الله يوسف عليه السلام وهو يدعو ربَّه سبحانه، ويثني عليه، ويقول: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ .

٥- ما قصَّه ربُّ العزة سبحانه علينا من قصة يوسف هو من أخبارِ الغيب الصادقةِ التي لا نعلمها إلا من قبل الغيبِ الذي أوحى الله تعالى لنا به.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الرابع عشر من سورة يوسف

أولاً: تقديم

عقَّبَ ربُّ العزة بجملةٍ من التوجيهات الربانية على ما سبق ذكره من قصة يوسف وإخوانه، فمن ذلك إخباره أنَّ كثيراً من الناس يمرُّون على الآياتِ المبثوثةِ في السموات والأرضِ غير متعظين بها فيها، وأعلمنا أن كثيراً من الناس لا يؤمن بالله إلا وهم مشركون، وبذلك لا يدخلون في حدِّ الإيمانِ الشرعيِّ، وتهدَّد المشركين أن ينزلَ عليهم عذاباً يغشاهم من عذابِ الله أو تأتيهم الساعةُ بغتةً وهم لا يشعرون، وأمر رسولَهُ ﷺ أنْ يدعو اللهَ على بصيرةٍ، أي: على يقينٍ وعلم هو ومن اتبعه، وأعلمنا سبحانه أنَّ الرسلَ الذين أرسلهم من قبلِ رسولِنا كانوا جميعاً رجالاً من أهل القرى، ولم يكونوا من الملائكة أو الجنِّ أو النساء. وأمر عبادَه بالسير والنظرِ في مصارع الغابرين، وأعلمنا أنَّ الدارَ الآخرةَ خير للذين كانوا يتَّقون، وأخبرنا سبحانه أن الرسلَ أيسوا من قومهم أنْ يصدقوهم، وظنَّ قومُهم أنَّ الرسلَ قد كذبتهم، وأخيراً أعلمنا في الآية الأخيرة من هذه السورة أن الله تعالى جعل في القصصِ الذي قصَّه علينا عبرةً لأولي الألبابِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة يوسف

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ
أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓا۟ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا
يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ
ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ
ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ
ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف:١٠٥-١١١].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آياتِ هذا النص من القرآن

١- ذمَّ اللهُ تعالى حالَ كثيرٍ من الناس يمرُّون على آياتِ الله وهم معرضون:

ذمَّ اللهُ -تبارك وتعالى- كثيراً من عبادِ الله يسيرون في أرض الله، ويمرُّونَ على آياتِ الله المبثوثةِ في السماواتِ كالشمسِ والقمر والنجوم أو في الأرض كالجبالِ والبحارِ والأنهارِ

والسهولِ والحقولِ وغيرها، وهم لا يفقهون ما فيها، ولا يدرون دلالتها على خالقها وبارئها ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [يوسف:١٠٥]، وهذه حالُ أكثر الناسِ اليوم، لا يلتفتون إلى ما تدلُّ عليه الآياتُ من وحدانية الخالقِ العظيم.

٢- أكثر الناس لا يؤمنون بالله إلا وهم مشركون:

أعلمنا ربُّنا وخالقنا جلَّ وعلا أنه ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦]، أي: لا يؤمنُ أكثرُ الناسِ بالله تعالى إلا وهم مشركون، فالعربُ كانوا يؤمنون أنَّ اللهَ خالقُ السمواتِ والأرضِ ومبدعهما ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]. كان العربُ يؤمنون بذلك كله، ولكنهم يشركون الأصنامَ والأوثانَ.

والنصارى يؤمنون بوجود الإلهِ الذي خلق السمواتِ والأرضَ، ويجعلون له صاحبةً وولداً، وهذا النوع من الإيمانِ لا يُدْخِلُ الناسَ في الإيمانِ الذي يقبله ربُّ العبادِ، ولا يخرج الناس من زمرةِ الكفرِ.

وهناك ألوانٌ من الشرك الأكبرِ، وألوانٌ من الشركِ الأصغرِ يقترفها العباد تُذْهِبُ الإيمانَ أو تخدشه، وقد نبَّه الرسولُ ﷺ على هذه الألوانِ من الشرك، فيما صحَّ عنه من الأحاديث، فمن ذلك:

أ- ما رواه الترمذي عن ابن عمر ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حَلَفَ بغيرِ الله فقد كَفَرَ أو أشْرَكَ» [رواه الترمذي: ١٥٣٥. وقال: هذا حديث حسن].

ب- ما رواه أبو داود عن عبدالله بن مسعود، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُّقى والتمائم والتِّوَلَةَ شِرْكٌ» [أبو داود: ٣٨٨٣. وصحيح سنن أبي داود للألباني: ٣٢٨٨. والتمائمُ: جمعُ تميمةٍ، وهي التعويذةُ، والتولة: نوع من السحر].

ج- عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «من عَلَّقَ تميمة فقد أشرك» [قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: أخرجه أحمد في المسند (١٧٤٢٢) وهو حديث قويٌّ وصححه الألباني في الصحيحة (٤٩٢)].

د- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشركِ، من عَمِلَ عملاً أشْرك فيه معيَ غيري، تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ» [مسلم: ٢٩٨٥].

جنـــــة السـنة

هـ- عن محمودِ بن لبيد أن رسولِ الله ﷺ قال: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الشركُ الأصْغر» قالوا: وما الشرْكُ الأصْغرُ يا رسولُ الله؟ قال: «الرياء، يقول اللهُ يوم القيامةِ إذا جازَى الناسَ بأعْمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُراؤُون في الدنيا، فانظروا هل تجدونَ عندَهُمْ جزاء» [قال الشيخ شعيب في تحقيقه لابن كثير (٤/ ٣٧٠) رواه أحمد (٢٣٦٣٠) وهو حديث حسن. قال الألباني في الصحيحة (٩٥١): وهذا إسناد جيد].

٣- تهديد الله للمشركين أنْ تأتيهم غاشية:

تهدَّد اللهُ تعالى المشركين، فقال: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يوسف:١٠٧]. تهدَّد اللهُ تعالى المشركين أن يأتيهم عذابٌ يغشاهم من حيث لا يشعرون، والغاشيةُ العذابُ الذي يغْمُرُ الناسَ ﴿ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۡ ﴾ [العنكبوت:٥٥]، ﴿أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ﴾ أي: فجأةً: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ .

٤- سنّةُ رسولِ الله وطريقته ومنهجه:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يقولَ للمشركين: ﴿ قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف:١٠٨]، وسبيلُ الرسولِ ﷺ أنْ يدعو إلى الله على بصيرةٍ، أيْ: على حجَّةٍ واضحةٍ، وهي الدعوةُ إلى توحيدِ الله، لا شريكَ له، والذينَ اتبعوه على منهجه يدعون إلى الله تعالى على بصيرةٍ ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: وقلْ: سبحانَ الله، أي: أنزهُهُ وأجلُّهُ، وأعظمه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ أي: فلا أجعل لله مثيلاً، ولا شريكاً، ولا ندّاً ولا صاحبةً ولا ولداً، تبارك وتعالى وتقدس.

٥- ما أرسل اللهُ تعالى قبل رسولنا ﷺ إلا رجالاً من الإنس:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى وتقدّس- أنَّ الرسلَ الذين أرسلهم قبل رسولنا هم جميعاً رجالٌ من أهلِ القرى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ ﴾ [يوسف:١٠٩]. وفي هذه الآية ردٌّ على الذين يطالبون أن يكونَ الرسولُ الذي يرسله اللهُ مَلَكاً، فأخبرهم أن جميعَ الرسلِ الذين أرسلهم كانوا رجالاً من الإنس من أهل القرى، ولم يكن فيهم مَلَكٌ، ولا جنيٌّ، ولا امرأةٌ، اختارهم اللهُ تعالى رجالاً من أهل القرى، لا من أهل البادية.

وطلب اللهُ تعالى مِنَ المشركين أن يسيروا في الأرضِ، وينظروا في عاقبةِ الذين من قبلهم ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف:١٠٩] ومصارعُ الأُممِ المكذبة للرسل من قبلنا مبثوثة في الأرضِ، فعلينا أن نسير في الأرضِ، وننظر في مصارعِ الأقوامِ، وكيف عاقبهم ربُّ العزة، ودمَّر مساكنهم، وأهلكهم، والدارُ الآخرةَ خيرٌ للمتقين، وقوله: ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ أي: أفلا يعقلُ هؤلاءِ المشركون بالله حقيقةَ ما يقوله اللهُ تعالى، ويخبرهم عن سوء عاقبةِ المكذبين.

٦- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ ﴾:

قال ابنُ جرير الطبريُّ رحمة الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف:١١٠]، قال: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهلِ القرى، فدعوا من أرسلنا إليهم، فكذَّبوهم، وردُّوا ما أتوْا به من عندِ الله، حتى إذا استيأسَ الرسلُ الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقُوهم فيما أتوهم به من عندِ الله، وظنَّ الذين أرسلناهم إليهم من الأمم المكذبةِ أنَّ الرسلَ الذين أرسلناهم قد كذبوهم فيما أخبروهم عن الله من وعده إياهم نصرهم عليهم جاءَهم نصرنا». وقال بالذي قاله ابنُ جرير جمعٌ كبير من أئمة التفسير أمثالِ ابن عباس، وسعيدِ بن جبير، ومجاهدِ، وابنِ زيد، وغيرِهم [تفسير ابن جرير: ٦/ ٤٦٥٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ أي: نجَّى اللهُ تعالى من يشاءُ من عذابه، وهم المؤمنون الموحِّدون، ولا يردُّ بأسُهُ، أي: عذابه عن القومِ المجرمين، أي: الكافرين المشركين.

٧- كان في قصص المرسلين الذين أخبرنا عنهم ربُّ العالمين عبرة لأولي الألباب:

أخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنه كان في قصص الذين قصَّهم اللهُ تعالى من الرسلِ عبرةً لأولي الألباب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [يوسف:١١١].

لقد كان في قصص مَنْ قصّه اللهُ تعالى علينا عبرةٌ لأولي الألباب، وهم أصحابُ العقول، يتعظون بما فيها من الوقائع والأحداث، ويستمتعون بما فيها من الطرائف واللطائف، والقصةُ تسلَّلُ إلى القلوب بيسرٍ وهدوء، وهذه القصص التي قصَّها اللهُ تعالى علينا، ليست أخباراً مفتراة مكذوبة كالأساطير والخرافات التي يخترعها أصحابُ الخيال الواسع.

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ أي: لم يكن هذا الذي قصَّه اللهُ تعالى حديثاً يختلق ويتخرص، ﴿ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها

جنـــــة السـنة

على أنبيائه كالتوراةِ والإنجيلِ والزبورِ، ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: فصَّل ربّنا -تبارك وتعالى- في هذا الكتاب كلَّ ما يحتاجُ العبادُ إلى تفصيله من حلالٍ وحرام وطاعةٍ ومعصية، ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ وهو أي: القرآن، هدى ورحمةٌ من ربِّ العباد ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ أي: الذين يؤمنون بالله وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليوم الآخر.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - في السماواتِ والأرضِ كثيرٌ من الآياتِ يمرُّ عليها الناس، وهم غافلون عما فيها من العبر.

٢ - كثيرٌ من الناسِ دينهم خليطٌ من الإيمان والكفرِ.

٣ - اللهُ -تعالى- قادرٌ على أنْ ينزل على الكفارِ عذاباً يحيطُ بهم، أو تأتيهم الساعةُ فجأةً، وهم لا يشعرون بحضورها.

٤ - سبيلُ رسول الله ﷺ وسبيلُ من اتبعه سبيلٌ نيرةٌ واضحةٌ قائمةٌ على العلمِ واليقين.

٥ - يأمر اللهُ تعالى عباده بالسيرِ والنظرِ في مصارعِ الذين أهلكهم في الأرضِ بسبب كفرهم.

٦ - لما أيست الرسلُ أن يستجيبَ لهم قومهم، وظنَّ قومهم أنَّ الرسلَ قد كذبوهم جاءهم النصرُ، فنجّى اللهُ من يشاء.

٧ - لقد كان فيما قصَّه الله تعالى على رسولِهِ عبرةٌ لأصحابِ العقولِ.

جنـــــة السـنة

سُورَةُ الرَّعْدِ

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: «اختلفوا في نزولها على قولين:

أحدهما: أنها مكية، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وسعيد ابن جبير، وعطاء، وقتادة. وروى أبو صالح عن ابنِ عباس أنها مكية، إلا آيتين منها، قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ ...﴾ إلى آخر الآية [الرعد:٣١]، وقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ﴾ [الرعد:٤٣].

والثاني: أنها مدنية، رواه عطاءٌ الخراسانيُّ عن ابنِ عباس، وبه قال جابر بن زيدٍ. وروي عن ابنِ عباس أنها مدنية، إلا آيتين نزلتا بمكة، وهما قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ ...﴾ إلى آخرها [الرعد:٣١]. وقال بعضهم: المدني منها قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ...﴾ إلى قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ﴾ [الرعد:١٤]» [زاد المسير: ٤/ ١٦٩].

وقال أبو عمرو الداني: «كَلِمُ هذه السورة مئة وخمس وخمسون كلمة، وحروفها ثلاثة آلاف وخمس مئة وستة أحرف. وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي، وأربع في المدنيين والمكي، وخمس بصري، وسبع شامي» [البيان في عدِّ آي القرآن: ص١٦٩].

جنـــــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة الرعد
اللهُ -تعالى- رفعَ السماءَ ومدَّ الأرضَ

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- في أول في هذه السورة على كتابه، ثم عرَّفنا على نفسِهِ بعرضِ جملةٍ من أفعالِهِ، وأنكر على الكفارِ كفرهم بالبعثِ والنشور، وحكمَ عليهم أنهم في النار.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:١-٥].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الثناء على الكتابِ وهو القرآنُ الذي أنزله ربُّ العباد:

افتتح ربُّ العزة -تبارك وتعالى- هذه السورة بالحروفِ المقطعةِ ﴿الٓمٓرۚ﴾، وقد سبق في فاتحةِ سورةِ البقرةِ بيانُ المعنى الصحيحِ لهذه الحروف، ثم قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ [الرعد:١] المشارُ إليه باسم الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ﴿تِلْكَ﴾ هي آياتُ الكتابِ، واستعملَ اسمَ الإشارةِ الموضوعِ للبعيد ليدلَّ على رفعة القرآن وعُلُوِّه ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ والذي أنزل إلى رسولِنا ﷺ وهو القرآنُ الكريمُ هو الحقُّ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾ أي: ولكنَّ الغالبية العظمى من الناسِ لا يؤمنون، أي: الإيمانَ الذي حدَّده اللهُ وشاءَه.

[redacted]

والسماءُ الدنيا محيطة بالأرضِ من جميعِ جهاتها، وكل سماءٍ فهي محيط بالسماء التي دونها، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢]، أي: استوى -سبحانه- على عرشِه استواءً يليقُ بجلالِهِ وعظمته، ومعنى استوى علا واستقرَّ وارتفع، ومعنى الاستواء معلوم، ولكن كيفية الاستواء مجهولة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد:٢]، أي: ذلَّل سبحانه الشمسَ والقمرَ، وجعلهما يجريان إلى قيام الساعة، والشمسُ والقمرُ أظهر الكواكبِ السيارةِ، وإذا جاء يومُ القيامة، فإن الشمسَ تكوَّرُ ويذهبُ ضوؤها، والقمرَ يخسفُ ويزول، وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يدبر أمورَ الآخرة والدنيا وحده سبحانه، بغير شريكٍ، ولا ظهيرٍ، ولا معينٍ، وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ [الرعد:٢]، أي: يبين الآياتِ الدالة على وحدانيةِ الله وقدرته، لعلكم توقنون بلقاءِ ربكم إذا فصَّل لكم الآياتِ.

وكما أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ بما سبقَ بيانه في السمواتِ والأرضِ والشمسِ والقمرِ أعلمنا سبحانه بأنه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد:٣] أخبرنا سبحانه أنه مَدَّ الأرضَ، أي: جعلها متسعةً ممتدةً في الطولِ والعرضِ، ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا﴾ [الرعد:٣]، أي: أرسى الأرضَ وثبتها بالجبالِ ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الرعد:٣]، والزوجُ يطلق على الاثنينِ وعلى الواحدِ المزاوجِ للآخر، والمرادُ بالزوجِ الواحدِ، ولهذا أكد الزوجين بالاثنين لدفع توهم أنه أريدَ بالزوج هنا الواحد، فالثمراتُ زوجانِ منها الحلو والحامض، والأبيض والأسودُ، ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الرعد:٣]، أي: جعل كلاً منهما يطلب

جنـــــة السـنة

الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ أي: يتفكرون في آيات الله، أي: في مدِّ الأرض، وإرسائها بالجبال، وما جعله فيها من الثمارِ، وتعاقب النور والظلمة.

وأخبرنا ربُّنا العليُّ الأعلى سبحانه أنَّ ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الرعد:٤].

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه جعل في الأرضَ قطعاً متجاوراتٍ، أي: أراضي يجاور بعضُها بعضاً، وفاوتَ بين هذه الأراضي، فجعل بعضَها أرضاً طيبةً تنبتُ العشب، وتحفظ الماءَ، وجعل قطعةً مجاورةً سَبْخَةً مالحةً لا تنبت، وجعل قطعةً ثالثة صخرية صلدة قاسية، وقد تتفاوت الأرضُ في ألوانها، وهي متجاورة، فتكون هذه بيضاءُ، وهذه سوداءُ، وهذه حمراءُ، وقد تكونُ الأرضُ جناتٍ متنوعة، أي: بساتين متنوعة، فتكون جناتٍ من أعنابٍ وزروعٍ، ونخيل صنوان وغير صنوان، يسقى بماءٍ واحدٍ، أي: تكون الأرضُ الواحدة تنبت أشجاراً شتى، فيها الخوخ والكمثرى والتفاح والبرتقال، ويحمل بعضها أكثر من بعضٍ، ويكون بعضها حلواً، وبعضها حامضاً.

وقوله: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ والصنوانُ جمع صنو، وهنَّ النخلاتُ يجمعهنَّ أصلٌ واحد، ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: نخلاً متفرقاً، كلُّ واحدةٍ على حدة، يسقيها ماءٌ واحدٌ، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ﴾ أي: وتختلفُ طعومها فيما بينها، فهذا حلوٌ، وذاك حامضٌ، وهذا مزٌّ، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ أي: إنَّ ما يحدث عنه ربُّ العزة من هذه الجناتِ والزروعِ آياتٌ لقوم يعقلون، أي: ما يُتحدَّث عنه، وما يرونه بأبصارهم.

٣- التعجب من إنكار الكفار للبعث والنشور:

قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾ [الرعد:٥].

قال اللهُ تبارك وتعالى لرسولِهِ ﷺ إن تعجب مِنْ حال هؤلاء الكفارِ فأعْجَبُ أمرهم قولُهم: إنَّهم إذا ماتوا وصاروا تراباً أنْ يُعادوا إلى الحياةِ مرةً أخرى، ويخلقون خلقاً جديداً، مع

جنـــــة السـنة

أنَّ الأدلَّةَ قائمةٌ على إمكان ذلك، فالذي خلقهم أوَّلَ مرةٍ قادرٌ على أن يعيدهم مرةً أخرى، بل هو أهونُ عليه، والذي خلق السمواتِ والأرض قادرٌ على إعادةِ الناسِ بعد موتهم، فخلقُ السموات والأرض أعظم مِنْ خلق الناس.

وهؤلاء الذين كفروا بالبعث والنشور كافرون بالله تعالى، لأنَّهم ينكرون قدرةَ الله على البعثِ، وهؤلاءِ يُأْتى بهم يومَ القيامة، وقد وضعتْ الأغلالُ في أعناقهم، وهؤلاء أصحاب النار هم خالدون فيها لا يخرجون منها بحال.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تَدَبَّرنا آياتِ هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- القرآنُ الكريمُ الذي أنزله ربُّ العالمين كتابٌ عظيم، وهو كتابُ حقٍّ وصِدْق، وأكثرُ الناسِ لا يؤمنون به.

٢- اللهُ -تبارك وتعالى- وَحْدَه الذي رفع السمواتِ والأرضَ بعَمَدٍ لا نراها، وهو الذي استوى على العرش سبحانه، وهو الذي سخَّر لنا الشمسَ والقمرَ، وهو الذي مدَّ الأرض وأرساها بالجبالِ، وأجرى فيها الأنهارَ، وجعل فيها الأشجارَ التي تنتج الثمارَ، وهو الذي أغشى الليلَ النهارَ.

٣- خلق ربُّ العزة في الأرضِ قطعاً متجاوراتٍ، تتفاوتُ فيما بينها، وجعلَ فيها جناتٍ مِنْ الأعنابِ، والزروعِ، وجعل فيها النخلَ الذي ينمو فيه عدةُ نخلاتٍ مِنْ أصلٍ واحد، وغير صنوان، أي: تنبت النخلُ آحاداً متفرقة، وترى الأشجارَ تسقى بماءٍ واحدٍ، وطعمها متفاوتٌ في الأكلِ.

٤- أعجب أمر الكفار إنكارُهم للبعثِ والنشورِ مع قيامِ الآياتِ الدالاتِ عليه، فهؤلاء كفار مصيرهم إلى النارِ، وبئس القرار.

جنـــــة الســـــنة

النص القرآني الثاني من سورة الرعد

﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ ﴾

أولاً: تقديم

ذمَّ اللهُ تعالى المشركينَ الذين يستعجلون بالسيئةِ قبل الحسنةِ، وذمَّهم لكونهم لا ينظرون في مصارعِ الغابرين، ولا يتَّعِظُون بها، وذمَّهم لأنهم يطلبون الآياتِ الخوارقِ، والإتيان بالآياتِ ليس من عمل الرسولِ ولا اختصاصه، ويتحدَّثُ اللهُ تعالى عن نفسهِ، فهو يعلمُ ما تحمل كلُّ أنثى في هذا الكونِ الواسعِ العريض، ويعلم كلَّ ما يجري في الأرحامِ، ويعلم السرَّ المكنونَ في الصدورِ، والحركةَ الخفيةَ في جنح الظلامِ، ويعلم كلَّ مستخفٍ وكلَّ سارب وهامس وجاهر، ويحدثنا ربنا عن الملائكةِ المعقباتِ التي تحفظ الإنسان من أمر الله، ويحدِّثنا اللهُ تعالى عن البرقِ والسحابِ والرعدِ، وهي مظاهرُ صنعها الله تعالى في هذا الكون الواسعِ العريضِ لحكمٍ يعلمها اللهُ تجري في هذا الكون الواسع الكبيرِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد:٦-١٣].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- استعجالُ الكفارِ العذابَ:

قال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾ [الرعد:٦] أي:

جنـــــة السـنـــة

يستعجلك هؤلاءِ الكفارُ المشركونَ ﴿بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: يستعجلونَكَ بالبلاءِ، والعقوبةِ قبل الرخاءِ والعافيةِ، فيقولون: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال:٣٢]، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ والمثلاتُ العقوبات المُنَكِّلاتُ والواحدة منها مُثْلَةٌ، والمثلاتُ: وقائعُ اللهِ في الأممِ التي كَذَّبت مِنْ قبلنا، فمن ذلك الطوفانُ الذي أخذَ قومَ نوحٍ، والريحُ التي أخذت قومَ هود، والمسخُ الذي أخذ الذين اعتدوا في السبتِ، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي: لذو صفحٍ وعفوٍ وسِتْرٍ للناس على ظلمهم، أي: على اقترافهم الذنوب والمعاصي، وفي الآية بشارةٌ عظيمةٌ، فهو يغفر لهم مع كونهم ظالمين، أي: ظلماً دون الشركِ، فالشرك الأكبرُ لا يغفره ربُّ العزَّةِ إن مات صاحبه عليه، ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ أي: لمن مات على شركه وكفره.

٢- طلبَ الكفارُ آيةً تنزلُ عليهم مِنْ عند الله غير الآياتِ التي نزلت:

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد:٧].

أخبرنا رَبُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الكفارَ طلبوا أن يُنْزِلَ عليه ربُّه آيةً غيرَ ما أنزلَ عليه، فقد طلبوا أن يجعلَ لهم الصفا ذهباً، أو أن يزيلَ الجبالَ مِنْ حولهم، ويجعلَ مكانها مروجاً وأنهاراً، فقال اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: تنذرُ الناسَ غضبَ الله وانتقامَهُ ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ أي: يهديهم، ويدخلُ الإيمانَ في قلوبهم، وهو اللهُ سبحانه وتعالى.

٣- اللهُ يعلمُ ما تحملُ كلُّ أنثى:

أعلمنا ربُّنا عزَّ وجلَّ أنّه ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد:٨] وكم في الأرض مِنْ أُنثى مِنَ النياقِ والبقرِ والغنمِ والخيلِ والحميرِ والغزلانِ وغيرها مبثوثةً في هذه الأرضِ الواسعةِ العريضةِ بعضها يكون في ظلمةِ الليل، وبعضها في وضحِ النهار، وعلمُ الله يحيطُ بها، وبما تحمله في بطونها، وما تغيضُ الأرحامُ، أي: تنقصه فإنَّ الله يعلمه، وما يزدادُ مِنْ أرحامها فإنَّه يعلمه، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ.

ومن جملة أنثى الحيوانِ الذي يدخل في الآية، ويحيطُ به عِلْمُ الله أُنثى الإنسانِ. وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٩] والغيبُ ما غابَ عنا في هذا

جنـــــة السـنة

الكونِ الواسعِ العريضِ، وهو لا يُحْصَى كثرةً، والشهادة ما نشاهدُه من البشرِ والبحارِ والأنهارِ والحيوانِ والشمس والقمر والنجوم، وهو قليلٌ بالنسبة لما غابَ عنا، ويستوي في علم الله تعالى علم ما غابَ عنَّا، وما نشاهدُه، فهما في علمِهِ سواء، واللهُ تعالى هو ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ اللهُ هو الكبير، فلا أحدَ أكبر منه، وهو المتعالي، أي: العالي على كلِّ شيء، فلا أعلى منه.

وأعلمنا ربُّنا سبحانه وتعالى أنَّه يستوي في علمه الجهرُ والعلانيةُ ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد:١٠]، أعلمنا ربنا أنَّه يستوي في علمه الذي يسرُّ قولَه ويخفي، ومَنْ يجهرُ به ويبديه، كما يستوي عنده سبحانه المُسْتَخْفي في ظلمةِ الليلِ، والساربُ الظاهرُ في وضحِ النهارِ، كلاهما في علمه سواء.

٤- له معقباتٌ مِنْ بين يديه ومِنْ خلفه:

أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ لكلِّ واحدٍ منَّا ﴿مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] والمعقباتُ ملائكةٌ وضعهم ربُّ العزة على كلِّ واحدٍ مِنَ البشر يحفظونه مِنْ أمرِ الله تعالى، فلا يصلُ إليه سوء لا يريد اللهُ أنْ يصلَ إليه، فإذا جاءَ العبدُ ما قَدَّر اللهُ أنْ يصلَ إليه خَلُّوا بينه وبين قدرِ الله، وهذه الملائكةُ غيرُ الملائكةِ الذين يحفظونَ على العبدِ أعمالَهُ صالحَها وطالحَها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١] أي: لا يزيلُ اللهُ النعمَ التي أنعمَ بها على عبادِهِ في أنفسهم وفيما حولهم حتى يعملوا بمعاصيهِ، ويهجموا على ما حَرَّمه عليهم، عند ذلك يسلبهم اللهُ نِعَمَهُ، ويحِلُّ بهم نِقَمَه، وتتبدَّلُ أحوالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد:١١]، أي: إذا أراد اللهُ تبارك وتعالى أنْ يحلَّ بقومٍ نِقَمَه، فلا يستطيعُ أن يردَّ عليه أحدٌ مراده، لا مِنَ الإنسِ ولا من الجنِّ ولا الملائكةِ، وليس لمن حلَّ بهم العذابُ والٍ يتولاهم، ولا حامي يحميهم، ويمنع عنهم العذابَ.

٥- الرعد يسبح بحمدِ الله والملائكةُ يُسبحون مِنْ خيفته:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ [الرعد:١٢] أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه هو الذي يرينا البرقَ خوفاً

جنـــــة الســـــنة

وطمعاً، والبرقُ: اللمعان الذي يظهر في السحابِ، واللهُ تعالى يرينا البرقَ فنخافُه، لأنَّه قد يتحول إلى صاعقةٍ، وقد يكون نذيراً بسيل مدمرٍ، ﴿وَطَمَعًا﴾ لأنه قد يأتي بالخيرِ، فقد يأتي بالمطرِ الذي يحيي الأرضَ بعد موتها، وقد يُجْرِي الأنهارَ، ويغذو العيونَ، ويجعلها تتدفقُ.

واللهُ -تبارك وتعالى- ينشئُ السحابَ الثقالَ، ينشئُ السحاب الممتلئ بالماء إلى مختلف بقاع الأرضِ، فتحمل السحابةُ الماءَ فتسقي العبادَ والدوابَّ والأرضَ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أن الرعدَ يسبح بحمدِهِ والملائكةُ مِنْ خيفته ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد:١٣] فهذا الصوتُ المدوِّي الذي يأتي من الرعدِ هو تسبيحٌ بحمدِ الله، وتسبح ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ وأخبرنا ربنا عزَّ وجلَّ أنه ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ أي: أنَّ اللهَ تعالى يرسل الصواعق على مَنْ يشاء أن يصيبه بها ﴿وَهُمْ يُجَـٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد:١٣] والذين يجادلون في الله أهلُ الشرك، يجادلون في وحدانيتِهِ، وفي استحقاقه العبادةَ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبَّرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الكفارُ يستعجلون الرسولَ ﷺ أنْ يُنْزِلَ بهم العقابَ زاهدين بالخيرِ والعافيةِ، غير معتبرين بما حلَّ بمن قبلهم مِنَ العذابِ.

٢- الكفارُ يطلبون أن ينزلَ اللهُ على رسولِهِ آياتٍ غيرَ التي نزلت عليه، وإنزالُ الآيات ليست للرسول ﷺ، بل هي لله الواحدِ الأحدِ.

٣- اللهُ -تبارك وتعالى- يعلم بما تحمله كل الإناثِ في جميع بقاعِ الأرض، ويعلم ما تنقصُه الأرحامُ وما تزيدُه، وهو عالمٌ بما غاب عن الإنسانِ وما شاهده.

٤- يستوي في علم الله تعالى الذي أسرَّ القولَ والذي جهرَ به والمتخفي في ظلماتِ الليلِ، والقائم في وضحِ النهار.

٥- يرسل ربُّ العباد -سبحانه- على عباده مِنَ البشر ملائكةً يحفظونه مِنْ أمر الله تعالى، فلا يصلُ إليه مِنَ الأذى إلا ما أذن الله تعالى به.

٦- لا يغيِّر اللهُ -تعالى- النعمَ التي أنعم بها على عبادِهِ، حتى يكفروا بما أنعمَ اللهُ عليهم.

جنـــــة السـنة

٧- إذا أرادَ اللهُ -تبارك وتعالى- بقوم سوءاً لم يستطعْ أحدٌ دفعَهُ لا من الإنس ولا الجن ولا الملائكة.

٨- اللهُ -تعالى- وحده الذي يرينا البرقَ فيخيفنا ويطمعنا، وهو سبحانه الذي ينشِئُ السحابَ الثقالَ الذي يغيث البلادَ والعبادَ، والرعدُ يسبح بحمدِ الله، والملائكة يسبحون مِنْ مخافةَ الله عزَّ وجلَّ، واللهُ يرسل الصواعقَ على مَنْ يشاء أن يرسلها عليه، فيصيب بها من يشاء

جنـــــة الســـنة

النص القرآني الثالث من سورة الرعد
الله تعالى له دعوة الحق وآلهة المشركين دعوتهم باطلة

أولاً: تقديم

يعلمنا ربُّنا سبحانه أنَّ له الدعوةَ الصحيحةَ، وهي دعوةُ الحقِّ دعوةُ التوحيد، ودعوةُ الكفارِ التي تتجه إلى الأصنامِ دعوةٌ باطلةٌ ضائعةٌ، وضربَ اللهُ المثَلَ للكفارِ الذين يدعونَ غيره بطالبِ الماءِ الذي يُوجِّه يديهِ إلى الماءِ، فلا يبلغَ الماءُ فاه.

ويعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ كلَّ مَن في الكونِ خاضعٌ لله ساجدٌ له طوعاً أو كرهاً، وهو سبحانه ربُّ السمواتِ والأرضِ، فالله هو الخالقُ لكلِّ شيءٍ وهو الواحدُ القهارُ. وضربَ ربُّ العباد مثلاً للحقِّ والباطلِ، فالباطلُ هو الغثاءُ الذي يحمله السيلُ عندما تهطلُ الأمطارُ في الوديانِ والشعاب، ومثله مثَلُ الزبدِ الذي يظهرُ على صُهارةِ الذهبِ والفضةِ عندما نوقد عليها النار، والحقُّ هو الماءُ الهاطلُ مِنَ السماءِ الذي تسير به الوديانُ والشعابُ، وهو الذهبُ والفضة الذي يوقدون عليه النار.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ
فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا
يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ
جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ
حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ
فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ
يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ
ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٤-١٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- الله -تبارك وتعالى- له دعوة الحقِّ:

أخبرنا -تبارك وتعالى- أنَّ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرعد:١٤].

أخبرنا اللهُ -عزَّ وجلَّ- أنَّ له دعوةُ الحقِّ، ودعوةُ الحقِّ دعوةُ التوحيدِ القائمةِ على: لا إله إلا الله، والذين يَدْعون مِنْ دون الله الآلهةَ مِنَ الأصنامِ والأوثانِ وغيرهم لا تستجيب هذه الأصنامُ لدعوتهم، ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ إلا كالذي يقفُ في أعلى البئرِ أو النهرِ ويبسطُ كفيه إلى الماءِ، يريد أن يصعدَ الماءُ إلى فمه، وليسَ في الماءِ خاصية أن يصعد إلى أعلى، ويستجيبُ إلى ما يريده الإنسانُ، ولذلك قال: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ أي: لن يصعدَ الماءُ إلى فمِهِ، وكذلكَ هذه الآلهةُ التي يدعونها مِنْ دونِ الله تعالى، لا تسمعُ دعاءَهم، ولا تجيبُ نداءَهم. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ أي: وما دعاءُ الكافرين إلا في ضياعٍ، فالآلهةُ التي يدعونها لا يسمعون، ولا يجيبون، ودعاءُ الكافرين بذلك يكون ضائعاً.

وأخبرنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد:١٥]، أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّه يسجدُ له مَنْ في السمواتِ والأرضِ طوعاً، وهؤلاءِ هم الملائكةُ ومؤمنو الإنسِ والجنِّ، ﴿وَكَرْهًا﴾ والله أعلم بطريقةِ سجودِهم كرهاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣]، أي: وله يسجدُ ظلالُ الناسِ بالغدوِّ في الصباحِ وبالآصال، والآصال جمع أصيل، أي: في آخر النهار عندَ انكسارِ الأشعةِ وامتدادِ الظلال.

٢- الله تعالى رب السموات والأرض ورب كل شيء وخالق كل شيء:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- أن يسألَ المشركين، ويقولَ لهم: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ [الرعد:١٦]. أمَرَ ربُّ العزَّة سبحانه رسوله ﷺ أن يسألَ المشركين،

جنـــــة السـنة

ويقول لهم: مَنْ ربُّ السمواتِ والأرضِ، وأمَرَهُ أن لا ينتظر إجابتهم، بل يسارعُ بالإجابة ويقول: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ ثم أمرَهُ أن يتبعَ السؤالَ الأول بسؤال ثانٍ، ويقول: ﴿أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ﴾ يقول لهم: إذا كان اللهُ تعالى هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، فكيف تتخذون مِنْ دون الله أولياءَ، أي: شركاءَ، وهؤلاءِ الشركاءُ لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، فالآلهة التي يعبدونها مِنْ دون الله أصنامٌ لا تنفعُ ولا تضرُّ، ثم أمر اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أن يتبع السؤالين السابقين بثلاثةِ أسئلةٍ أخرى، ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ يعني بالأعمى المشركَ الكافرَ، وأما البصيرُ فهو المؤمن الموحِّدُ، والجوابُ: أنهما لا يستويان، وقوله: ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الجوابُ أنهما لا يستويان، والسؤالُ الأخيرُ ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ﴾ أي: جعلوا لله أنداداً يعبدونهم معه، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والجوابُ: أنَّ هذه الآلهة الباطلةَ التي جعلوها شركاءَ لله تعالى في عبادتِهِ، لم تَشْرَكْه في الخلقِ، ولذلك قال ربُّ العزة: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ قل لهم: إنَّ اللهَ تعالى هو وَحْدَهُ خالقُ كلِّ شيءٍ، فهو خالقُ ما في السمواتِ والأرضِ، وما بينهما، وهو خالقُ آلهتهم التي يعبدونها مِنْ دون الله، وهو الواحدُ، أي: في ربوبيته وأُلوهيته وفي أسمائِه وصفاته، وهو الذي قهر عبادَه ومخلوقاتِه بعزَّته وجبروته.

٣- المثلُ الذي ضربه اللهُ تعالى للحقِّ والباطل:

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً للحقِّ والباطلِ والإيمان والكفر في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ١٧﴾ [الرعد:١٧]، ضربَ اللهُ -تعالى- المثَلَ بالمطرِ الذي ينزلُه مِنَ السماءِ، فتسيل به الأوديةُ والشعابُ، كلٌّ يحمل مِنَ الماءِ بمقدارِهِ وسعتِهِ، فالكبيرُ يحملُ ماءً كثيراً، والصغيرُ يحمل ماءً قليلاً، واحتمل السيلُ زبداً رابياً، والزبدُ هو تلك الفقاعات وذلك الغثاء الذي يحمله الماءُ على وجهه أثناءَ تدفقه في سيره.

ومثل هذا الزبد خبث المعدن وتلكَ الفقاعات التي تَظْهَرُ على سطح صهارة الذهبِ والفضةِ طلباً لصناعةِ الحليِّ وما نتمتع به مِنْ أنواع الآنية الذهبيةِ أو الفضية، فإنَّه يظهر على سطح تلك الصهارة فقاعات شبيهة بالفقاعات التي تعلو سطح الماءِ، فالماءُ الذي يجري في

جنـــــة السـنة

الوديانِ والشعابِ مثلُ الحقِّ، والفقاعات التي تعلو سطح الماء والتي تغيبُ وتتلاشى عندما يقف التيار مثلُ الباطل.

وما يمكث في الأرض مِنَ الذهبِ والفضةِ مثل الحقِّ، والخبث الذي يعلو صهارة المعدن الذي يوقد تحته النار مثلُ الباطلِ، وهو سريعاً ما يذهب ويجفُّ ويزولُ، ومثل هذين المثلين اللذين ضربهما اللهُ تعالى ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾.

٤- الذين أطاعوا اللهَ ورسوله لهم الجنَّة:

أخبرنا اللهُ تعالى أنَّ الذين استجابوا لله لهم الجنَّةُ ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨].

يخبرنا ربُّنا -سبحانه وتعالى- أنَّ الذينَ استجابوا له سبحانه بالإيمان واتباعِ شرعِهِ لهم الحسنى، والحسنى الجنَّةُ، والذين رفضوا الاستجابةَ له، وهم الكفار لو أنَّ للواحدِ منهم يومَ القيامة كلَّ ما في الأرضِ ومثله معه، لافتدوا به مِنْ ذلك العذابِ، ولكنَّ اللهَ تعالى لا يقبلُ منهم. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد:١٨]، وقد جاءَ في الحديثِ الصحيحِ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قالَ رسولُ الله ﷺ: «لَيسَ أحَدٌ يُحاسَبُ إلاَّ هَلَكَ» قلت: يا رسولَ الله، جعلني اللهُ فداءَكَ، أليس يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة:١٩-٢٠]، قال: «ذلك العَرْضُ يُعْرَضونَ، ومَنْ نُوقِشَ الحِسابَ هَلَكَ» [البخاري: ٤٩٣٩. ومسلم: ٢٨٧٦].

﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد:١٨]، أي: مَسْكَنُهم الذي يسكنونه يومَ القيامةِ جهنَّم، وبئس الفراش جهنَّم.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- اللهُ تعالى له الدعوةُ القائمةُ على الحقِّ والصوابِ، وهي دعوةُ التوحيد، ودعوةُ الآلهةِ التي يعبدونها مِنْ دون الله، دعوة باطلة.

٢- اللهُ تعالى المعبودُ الحقُّ الذي يسجدُ له كلُّ مَنْ في السمواتِ والأرضِ طائعين أو كارهين، كما يسجد له ظلالهم في الصباحِ والمساءِ.

٣- اللهُ ربُّ السمواتِ والأرضِ، وخالقهما هو الذي يستحقُّ العبادةَ دون غيره.

٤- اللهُ تعالى أنزل الماءَ مِنَ السماءِ، فسالت المياهُ في الأوديةِ والشعابِ بقدر ما تستطيعُ تلك الأوديةُ أن تتحمله مِنَ المياه، فاحتمل السيلُ زبداً رابياً، ويظهر الزبدُ الرابي أيضاً على صهارة الذهبِ والفضةِ، فالزبدُ الرابي مثالٌ للباطل، والماءُ الجاري في الوديان، وما تبقى من الذهب والفضة التي يوقدون عليهما ويتخلصون من خبثهما مثالٌ للحقِّ.

٥- المؤمنون الموحِّدُون الذين استجابوا لربِّهم في الجنةَ، والكفارُ معذبون في النارِ، ولو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به مِنْ عذابِ يومِ القيامةِ.

جنـــــة السـنـــــة

النص القرآني الرابع من سورة الرعد
صفاتُ المؤمنينَ وصفاتُ الضالين

أولاً: تقديم

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الذين يعلمون أنَّما أنزلَ مِنْ عندِ الله هو الحقُّ، فيؤمنون به مبصرون، أمَّا الكفار فهم عمي عن الحق لا يبصرون، ثم يصفُ ربُّ العزةِ المؤمنين المهتدين الذين هم أولو الألباب ويفصِّل في صفاتهم، ويجعلُ لهم عقبى الدارِ، وهي الجناتُ.

أمَّا المناقضون فهم الذين ينقضون عهدهم مع الله عز وجل ويقطعونَ ما أمر اللهُ به أنْ يوصل، فهؤلاء لهم اللعنة، ولهم سوءُ الدارِ.

وأخبرنا سبحانه أنَّه يوسِّعُ على الناسِ ويضيِّقُ عليهم وفق عِلْمه وحكمته، فيعطي الدنيا فرعونَ وهامانَ وقارونَ لا لكرامتهم عليه، ويحرمُ منها الأخيارَ الصالحين، لا لهوانهم عليهم.

وبَيَّن سبحانه أنَّ الآياتِ لا تُدْخِلُ الإيمانَ في القلوبِ، واللهُ وَحْدَهُ الذي بيده الهدى، يضلُّ مَنْ يشاءُ، ويهدي مَنْ يشاءُ.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ
ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ
(٢١) وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ
ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٢) جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ (٢٤) وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ
مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ٱللَّهُ
يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ (٢٦) وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ [الرعد:١٩-٢٧].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- لا يستوي المؤمنون الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسولِ حق والكفار:

وَجَّه اللهُ تعالى الخطاب إلى رسوله ﷺ قائلاً له: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (١٩) ﴾ [الرعد:١٩] سأل اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ عن المؤمنين الذين

جنـــــة السـنة

يعلمون أنما أُنزل إليك من ربك الحق، وهو القرآنُ كمن هو أعمى، والمرادُ بالأعمى أعمى القلبِ، وهو الكافر، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ أي: إنما يعتبرُ ويتعظُ أصحابُ العقولِ السليمةِ الصحيحةِ.

٢- **صفات أولي الألباب:**

أثنى ربُّ العزة سبحانه وتعالى على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول الصحيحةِ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾ ثم وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ العقولِ بالصفاتِ الحميدة التالية:

أ- وفاؤهم بالعهودِ التي عاهدوا بها، وأعظمها العقودُ التي بينهم وبينَ الله تعالى، وعدم نقضهم لشيءٍ منها ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ٢٠﴾ [الرعد:٢٠].

ب- وصْلهُم ما أمَرَ اللهُ به أنْ يوصل ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يشمل وصلَ جميع ما أمر الله تعالى به أن يوصل من صلةِ الأرحام، والإحسانِ إلى الأقاربِ، والإحسانِ إلى الفقراءِ والمساكين والمحاويجِ ونحو ذلك.

ج- خشيتُم من ربِّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد:٢١] أي: خوفهم منه.

د- خوفُهم من سوءِ الحسابِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد:٢١]، وقد مضى معنا في النص السابقِ أنَّ من نوقشَ الحسابَ عُذِّب.

هـ- صبرُهُم على ابتغاءِ وجه ربِّهم ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢] أي: صبروا على القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى.

و- إقامتُهم الصلاةَ ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: قيامُهُم بالصلاةِ التي فرضها اللهُ تعالى على عبادِهِ بأدائها في أوقاتها، والقيامِ بشروطها وأركانها، والالتزامِ بالمأثورِ عن رسولِ الله ﷺ منها.

ز- ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وهذا النوعُ من الإنفاق أوسعُ من أداءِ الصلاةِ، فيشملُ كلَّ النفقاتِ التي أمرَ الله -تعالى- بها، وهم مأجورون في إنفاقهم في السر والعلانية إذا أخلصوا دينهم لله تعالى.

ح- درؤهم بالحسنة السيئة ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: يدفعون بالحسنةِ فيحسنوا لمن أساءَ إليهم فإذا قابلهم أحدٌ بالسوءِ قابلوه بالجميلِ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤].

جنـــــة السـنــة

والمرادُ بالأعمى أعمى القلبِ، وهو الكافر، ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ أي: إنما يعتبرُ ويتعظُ أصحابُ العقولِ السليمةِ الصحيحةِ.

٢- صفات أولي الألباب:

أثنى ربُّ العزة سبحانه وتعالى على أولي الألباب، أي: أصحاب العقول الصحيحةِ فقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)﴾ ثم وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ العقولِ بالصفاتِ الحميدة التالية:

أ- وفاؤهم بالعهودِ التي عاهدوا بها، وأعظمها العقودُ التي بينهم وبينَ الله تعالى، ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠)﴾ [الرعد:٢٠].

وعدم نقضهم لشيءٍ منها

ب- وصْلُهُم ما أمَرَ اللهُ به أنْ يوصل ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا يشمل وصلَ جميع ما أمر الله تعالى به أن يوصل من صلةِ الأرحام، والإحسانِ إلى الأقاربِ، والإحسانِ إلى الفقراءِ والمساكين والمحاويجِ ونحو ذلك.

ج- خشيتُم من ربِّهم ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد:٢١] أي: خوفهم منه.

د- خوفُهم من سوءِ الحسابِ ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)﴾ [الرعد:٢١]، وقد مضى معنا في النص السابقِ أنَّ من نوقشَ الحسابَ عُذِّب.

هـ- صبرُهم على ابتغاءِ وجه ربِّهم ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد:٢٢] أي: صبروا على القيامِ بالأعمالِ الصالحةِ ابتغاءَ وجهِ الله تعالى.

و- إقامتُهم الصلاةَ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: قيامُهم بالصلاةِ التي فرضها اللهُ تعالى على عبادِهِ بأدائها في أوقاتها، والقيامِ بشروطها وأركانها، والالتزامِ بالمأثورِ عن رسولِ الله ﷺ منها.

ز- ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الرعد:٢٢]، وهذا النوعُ من الإنفاق أوسعُ من أداءِ الصلاةِ، فيشملُ كلَّ النفقاتِ التي أمرَ الله -تعالى- بها، وهم مأجورون في إنفاقهم في السر والعلانية إذا أخلصوا دينهم لله تعالى.

ح- درؤهم بالحسنة السيئةَ ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ [الرعد:٢٢]، أي: يدفعون بالحسنةِ فيحسنوا لمن أساءَ إليهم فإذا قابلهم أحدٌ بالسوءِ قابلوه بالجميلِ كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت:٣٤].

جنـــــة السـنـــــة

وقد أخبر ربُّ العزة -تبارك وتعالى- أنَّ هؤلاءِ الذين وصفهم الله بما وصفهم به ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ ثم بيَّنَ اللهُ تعالى المراد بعقبى الدارِ التي وعدهم بها، فقال: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. فالعاقبةُ التي أثنى ربُّ العزة على من حازها جناتُ عدنٍ، وعدْنُ: جنات الإقامةِ الدائمةِ التي يخلدُ فيها أصحابُها، ويدخلها مَنْ صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرياتِهم، والصالحون منهم هم الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، ومن نعيمهم فيها دخولُ الملائكة عليهم مِنْ كلِّ باب، يسلِّمون عليهم، ويقولون لهم: نلتم هذا الذي أنتم فيه بسبب صبرِكم، فنعم العاقبةُ التي نلتموها، وحُزْتم عليها.

٣- مصيرُ الذين ينقضون عهدَ الله ويقطعونَ ما أمرَ اللهُ به أنْ يوصل:

بعد أنْ وصفَ اللهُ تعالى الصالحين، وهم أولو الألبابِ، ذكر صفاتِ الطالحين الذي ينقضونَ عهودهم مع ربِّهم تبارك وتعالى بعد أنْ أعطوه مواثيقهم، وقطعوا ما أمَرَ اللهُ تعالى أن يوصلَ مِنَ الأرحامِ والأقاربِ والفقراءِ، ويفسدون في الأرضِ بارتكابهم الذنوبَ والمعاصيَ، وتخريبهم الديارَ، وقتلهم العباد، وتدميرهم الزروعَ والأشجارِ، فهؤلاء لهم اللعنة، وهي الطرد من رحمةِ الله، وإحلالُ العذابِ بهم، ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥] وهي سوءُ العاقبةِ والمآل، ومأواهم جهنَّم وبئس المصير.

٤- اللهُ يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ ويقدرُ:

ظنَّ كثير من الكفار أنَّ توسيعَ الله تعالى عليهم في الدنيا يدلُّ على فضلهم وكرامتهم، وهذا جهلٌ وضلالٌ فـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد:٢٦]، فاللهُ تبارك وتعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاءُ، ويوسِّعُ عليه، ويعطيهِ المالَ الكثيرَ، ويمدُّه بالأولادِ، ويقْدِرُ على مَنْ يشاءُ، أي: يضيِّق عليه، كلُّ ذلك وفق حكمةٍ يعلمها، والكفارُ فرحوا بالحياةِ الدنيا لَّما وسَّع اللهُ عليهم بالرزقِ، وبيَّن ربُّ العبادِ سبحانه أنَّ الحياةَ الدنيا في الآخرةِ متاعٌ قليلٌ، يتمتَّعُ به ثمَّ يزولُ، أمَّا الدارُ الآخرة فهي الدارُ الدائمةُ الخالدةُ.

وأخبرنا ربُّ العزة سبحانه وتعالى عما يقوله الذين كفروا فقال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧] حكى اللهُ

جنـــــة الســـنة

تعالى في هذه الآية مقالةَ المشركين التي يطلبون فيها أنْ ينزل اللهُ على رسولِهِ ﷺ آيةً من عنده، فأمره أنْ يجيبهم، ويقول لهم: إنَّ الفضلَ بيدِ الله، أي: بيده تدبير الأمور، فالإيمانُ لا يتوقف على نزولِ الآياتِ، فالله وحْدَه إذا شاءَ هدى، وإذا شاءَ أضلّ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- لا يستوي المؤمنون الذين يصدِّقون بأن ما أنزل إليك من ربِّك الحقُّ، والكفارُ الذين أصابهم الكفرُ بالعمى إنما يتذكَّر أولو الألبابِ.

٢- وصف اللهُ تعالى الصالحين أصحابَ العقولِ السويَّة الصالحةِ بصفاتٍ حميدة طيبةٍ، وأعلمنا بالعاقبةِ الحميدةِ التي يحوزُونها في الآخرةِ وهي خلودُهم في الجنةِ هم والصالحون من أقاربهم

٣- الذين ينقضون عهدَ الله تبارك وتعالى، ويقطعونَ ما أمرَ اللهُ به أن يوصل، ويفسدون في الأرضِ لهم اللعنةُ، ولهم سوءُ الدارِ.

٤- اللهُ يوسِّع على من يشاءُ من عبادِهِ، وقد يُوَسِّع على الكافرِ، وقد يوسِّع على المؤمن، ويضيِّق على من يشاءُ من مؤمنٍ وكافرٍ.

٥- الكفارُ يطلبونَ من الله تعالى أن ينزِّل على رسولِهِ المزيدَ من الآياتِ، فأعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الآياتِ لا تدخلُ الإيمان في القلوبِ، فاللهُ يهدي من يشاء ويضلُّ من يشاءُ.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الخامس من سورة الرعد
ألا بذكر الله تطمئن القلوب

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تعالى- في هذه الآيات على المؤمنين الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله، وأخبر سبحانه أنَّه بذكر الله تطمئنُ القلوبِ، وأعلمنا أنَّ الذين آمنوا لهم طوبى في جناتِ النعيم، وأعلمَ رسوله ﷺ أنَّه أرسله في أمته، وقد مضتْ أممٌ كثيرةٌ من قبله، ليتلو عليهم آياتِهِ التي أوحى بها إليه، وأخبر أنهم يكفرون بالله ربِّهم.

وأثنى على كتابه المنزلِ على رسولِهِ، وأخبر لو أنَّ قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرضُ أو كلِّم به الموتى لكانَ هذا القرآن.

وهدَّدَ ربُّ العزةِ أن يفعلَ بالكفارِ مثل الذي فعله بمن قبلهم، وأعلمنا سبحانه أنهم جعلوا لله شركاءَ، وطالبهم أنْ يسمُّوا هؤلاء الشركاء، وهي آلهة باطلة، وأعلمنا أنَّ هؤلاء لهم عذابٌ في الدنيا، وعذابهم في الآخرة أشدُّ، ولا أحدَ يستطيع أن يقيهم عذابه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ
لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ
مَتَابِ ﴿٣٠﴾ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ
يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ
أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ
فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ
لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ
وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا
لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الرعد:٢٨-٣٤].

جنــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- المؤمنونَ المطمئنةُ قلوبُهم بذكر الله:

أثنى اللهُ تعالى على صنفٍ من المؤمنين هم الذين يذكرون اللهَ تبارك وتعالى فتطمئنُّ قلوبُهم بذكر الله، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨]، واطمئنانُ القلوبِ حالةٌ نفسيةٌ، تجعلُ القلوبَ هنيَّةً راضية، يغشاها الهدوءُ والسكونُ، بعيداً عن الهمومِ والأوجاعِ النفسية، وقد قرَّر ربنا تبارك وتعالى أنَّه ﴿بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾، فالقلوبُ لا تطمئن بالدنيا الفانيةِ، والأموال الزائلةِ، والملكِ المنقضي، وذكرُ الله وحدَهُ هو الذي يقرُّ القلوبَ، ويحيي النفوس، وينير الصدور.

وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ الذين آمنوا وأتبعوا إيمانَهم بالعمل الصالح مِنَ الصلاة والزكاةِ والحجِّ والدعاءِ والذكر ونحوها مِنَ الأعمال الصالحةِ طوبى لهم، أي: لهم الفوزُ في جناتِ النعيم، ولهم حسنُ المرجعِ عند ربِّهم تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمۡ وَحُسۡنُ مَـَٔابٖ ٢٩﴾ [الرعد:٢٩].

٢- أرسلَ اللهُ رسوله محمداً ﷺ ليقيم الحجة على الخَلْقِ:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه أرسلَ رسولَهُ ﷺ ليقيم الحجةَ على أمتِهِ كما أقامها الرسلُ على أُممهم ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ ٣٠﴾ [الرعد:٣٠].

خاطبَ اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ معلماً إيَّاه أنَّه أرسلَهُ في أمةٍ هي العربُ، قد خلت من قبلها أممٌ كثيرةٌ ليتلو عليهم ما أنزله اللهُ عليه مِنَ القرآنِ العظيم الذي أوحى اللهُ تعالى به إليه، فتلاوةُ ما أوحاه اللهُ إليه، يصقلُ القلوبَ، وينيرُ العقولَ، ويباركُ النفوسَ، ويعرِّف بالله، ويعرفُ بملائكتِه وكتبه ورسلِهِ، واليومِ الآخر، ويعلم العلمَ، ويهْدي للتي هي أقوم.

وقد ذمَّ اللهُ تعالى قومَه الذين بادروا دعوتَه بالكفرِ بالرحمن، فبدلَ الإيمان كفروا بالرحمنِ، واشتطُّوا بالشركِ والطغيان، وقد أمر اللهُ تعالى أن يقولَ لقومه: ﴿قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ربي لا معبودَ يستحقُّ العبادةَ أحدٌ غيره، فهو الواحدُ الأحد، الفردُ الصمدُ، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وهذا الإلهُ العظيمُ عليه اتكالي وَحْدَهُ، وإليه مرجعي في يومِ الدين.

جنـــــة السـنة

٣- عظمةُ هذا القرآن:

بيَّن اللهُ تعالى مدى عظمةِ هذا القرآنِ الذي لا يوجدُ كتاب عند البشر أجلَّ وأعلى وأعظم منه فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد:٣١].

يقول اللهُ -تبارك وتعالى- في حقِّ هذا القرآنِ العظيمِ، لو أنَّ قرآناً سيرت به الجبالُ الراسياتُ، أو قطعت به الأرضُ الجامدةُ، أو كُلِّم به الموتى الذين لا يسمعون، لكانَ هذا القرآنُ، وقد صنعَ القرآن الكريم ما هو أعظم من ذلك، صنعَ من النفوسِ العربيةِ القاسية، والطباعِ النافرةِ، والنفوس الشاردةِ، أمَّةً عظيمةً، أصبحت خير أُمَّةٍ أخرجت للناس، أصبحت مثلاً أعلى في الصلاحِ والاستقامةِ، واللهُ تعالى له الأمرُ كلُّه، وهو الذي جاءَ بهذا الكتاب العظيم على هذا النحو الفريد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاءُ اللهُ هدى الناسَ جميعاً، فأصبحوا أُمَّةً واحدة على الإيمانِ، وأعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنه لا يزالُ الذين كفروا تصيبهم القوارعُ والمصائبُ النازلةُ من عند الله تعالى بسبب كفرِهمْ وشركِهم، أو تحُلُّ قريباً من ديارهم، لعلَّهم يؤوبون إلى الله، ويرجعون إليه، وسيبقى هذا شأنُ الكفارِ وديدنهم حتى يأتي وعدُ الله، فيأخذهم عذابُه، واللهُ لا يخلفُ الميعاد.

٤- استهزاءُ الأمم السابقة برسلها:

أعلَم اللهُ تعالى رسوله ﷺ أنه قداستهزئ برسل من قبله، فقال: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ [الرعد:٣٢]، وهذه الآيةُ تبين أنَّ استهزاءَ الكفارِ مِنَ الأممِ السابقةِ برسلها كان سنّةً من السنن، لم تتخلف في رسولٍ من الرسلِ، فقد سَخِرَ قومُ نوحٍ وقومُ هودٍ وقومُ صالح وقومُ شعيبٍ وقومُ لوطٍ وإبراهيمَ وغيرهم من رسلهم، وكانت سنةُ الله في المستهزئين أنْ لا يعاجلَ الذين استهزؤوا بالعذابِ، بل يتأنَّى بهم ويملي لهم، ولكنَّهم عندما لا يرتدعون، ولا يؤوبون يأْخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ويصبحون حكايةً تُروى، وقصةً تتداول.

جنـــــة السـنـــة

٥- اللهُ قائم على نفوسِ الخلائق كلِّها:

يقول ربُّ العزة سبحانه: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾ [الرعد:٣٣].

افتتح ربُّ العزة هذه الآيةَ الكريمةَ ووجَّهها على مَنْ تَطْرُقُ سَمْعَهُ قائلاً: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والقائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبت هو ربُّ العزةِ سبحانه، وقيامُهُ عليها بإيجادِها، وحفظِه لها مِنَ الدمارِ والهلاكِ، وإمدادِها بالرزقِ مِنَ الطعامِ والشرابِ، وهو رقيبٌ عليها، يحفظُ أعمالها وأقوالَها، وغيرُ الله مما يعبدُه الكفارُ من الآلهة لا تملكُ من أمرها شيئاً، ولذلك أنكرَ اللهُ على الذين اتخذوا آلهةً وشركاءَ يعبدونهم من دونِهِ ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ﴾ أي: اذكروا أسماءَهم، فإنَّهم نكراتٌ مجهولةٌ ثم قال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: أَنَّكم تعلِّمونَ اللهَ تعالى بما لا يعلمه في الأرضِ، فتعلمونَ أنَّ في الأرضِ آلهةً، واللهُ لا يعلمُ هذا الذي تعلمونه، ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ﴾ أي: تدَّعون وجودَ هذه الآلهة بكلامٍ ليس وراءَه مدلول!! كما قال تعالى: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ ﴾ [النجم:٢٣]. ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ ﴾ بل زُيِّن للكافرينَ ما هم عليه مِنَ الضلالِ والباطلِ، وصوَّرت لهم أنفسُهم أنَّهم على الحقِّ والصواب، وصدُّوا عن اتباع الرسولِ ﷺ والأخذِ بالقرآن ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ أي: من تقتضي سنةُ الله ضلاله، لأنَّه سار في طريق الضلالِ فلن يهديه أحَدٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ [المائدة:٤١].

ثم بيَّنَ ربُّ العزةِ أنَّ الكفارَ لهم عذابٌ في الدنيا وعذابُ الآخرة أشدُّ ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾ [الرعد:٣٤].

ففي الدنيا تحلُّ بهم وبأهلهم وأولادِهم وأموالِهم القوارعُ والمصائبُ، والمصائب التي تصيبهم في الآخرة في النارِ وغضب الجبار أشدُّ وأبقى، وقد جاء في الحديث: «إنَّ عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» [مسلم: ١٤٩٣]. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤)﴾ أي: ليس لهم أحدٌ يحميهم من عذابه ونكاله.

جنـــــة السـنــة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - المؤمنونَ تطمئنُ قلوبُهم وترضى بذكرِ الله تبارك وتعالى.

٢ - المؤمنونَ الذين يعملونَ الصالحاتِ هم الفائزونَ المفلحونَ.

٣- أرسلَ اللهُ -تعالى- رسولَه محمداً ﷺ في قريشٍ كما أرسل كلّ رسولٍ في قومِه، ليبلغهم الحقَّ من ربِّهم.

٤ - القرآنُ الكريمُ أعظمُ كتابٍ ولو كان هناك كتابٌ يصلحُ لأنْ تسيَّرَ به الجبالُ، أو تقطَّع به الأرضُ، أو يكلم به الموتى، لكانَ هذا القرآنُ، ولكنَّ اللهَ تعالى جعله كتابَ هدايةٍ، وأقامَ به الحجَّةَ على خلقِهِ.

٥ - الكفارُ يصيبهم اللهُ تعالى بالمصائبِ والقوارعِ حتى يحلَّ بهم العذابُ الماحقُ.

٦ - الله تعالى هو القائم على نفوسِ عبادِهِ يحفظُها ويرزقُها ويقيمُها، ويحفظ أعمالها.

٧- آلهة المشركينَ آلهةٌ باطلةٌ، ليس لها حقيقةٌ، والله يعلمُ أنها باطلةٌ، ودعوى المشركين دعوى لا تقومُ على أساسٍ.

٨- الكفارُ لهم عذابُ الدنيا والآخرةِ، وعذابُ الدنيا أهون من عذابِ الآخرةِ.

جنـــــة السـنة

النص القرآني السادس من سورة الرعد

أولاً: تقديم

بيَّنَ لنا ربُّنا في آيات هذا النص أن عقبى المؤمنينَ الجنَّة، ووصفها لنا، وأنَ عقبى الكافرينَ النار، وأخبرنا أنَّ المؤمنين من أهل الإيمانِ يفرحون بما أنزل إلى رسولِه ﷺ مِنَ الكتابِ، وأنَ بعضَ الأحزابِ ينكر بعضاً منه، وأمر اللهُ رسولَهُ ﷺ بعبادتِهِ وحدَه لا شريكَ له، وطالبه بالدعوةِ إليه، والإقرار بالبعثِ والنشورِ، وأعلمنا أنه أنزلَ القرآنَ باللسانِ العربي، وخوَّف رسولَه ﷺ من اتباع أهواءِ المشركين، وأعلمَنا اللهُ بسنته في رسلِهِ الماضين، فقد ابتعثهم من الرجالِ من الإنسِ، وجعلهم أزواجاً وذريةً، وأعلَمنا أنَّ آياتِ الرسولِ لا تأتي إلا بإذنِ الله ومشيئته، وأعلمنا أنه يمحو ما يشاءُ ويثبتُ في صحف أعمالِ العبادِ التي تدوِّنها الملائكةُ، أما ما دوَّنه في اللوحِ المحفوظِ فهو ثابتٌ لا يتغير، وأعلمنا ربنا في هذه الآياتِ بآيةٍ كونية، لا يعلم حتى اليوم كيف جريانها، وهي أنَّه يأتي الأرضَ ينقصها من أطرافها، وأعلمنا أنَّ الكفارَ يُكذِّبون برسالةِ رسولِهِ، وأنه شهيدٌ على رسالتِهِ، ويشهدُ لصحةِ هذه الرسالةِ مَنْ عنده علمُ الكتاب، وهو جبريل عليه السلام .

ثانياً: آيات هذا النص من سورة الرعد

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ
ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ
أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ
أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي
نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَأۡتِي ٱلۡأَرۡضَ نَنقُصُهَا مِنۡ أَطۡرَافِهَاۚ
وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ
يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ
كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد:٣٥-٤٣].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- عقبى المتقين وعقبى الكافرين:

حدثنا اللهُ تعالى عن عقبى المتقينَ، وهي الجنةُ،وعن عقبى الكافرين، فقال: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد:٣٥] وقوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ أي: صفةُ الجنةِ ونعتها، ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي: تجري الأنهار في أرجائها، وحيث شاءَ أهلها، يصرفونها حيث شاؤوا، وكيف شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [محمد:١٥].

وأخبرنا ربنا عز وجل أنَّ مطاعم الجنَّة وفواكهها ومشاربها وظلالها لا انقطاعَ لها ولا فناءَ ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ وقد رأى رسولُ الله ﷺ في صلاةِ خسوف الشمس الجنةَ، وقال: «إني رأيت الجنةَ، فتناولت عنقوداً ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، وأريتُ النارَ، فلم أرَ منظراً كاليومِ قطُّ أفظع» [البخاري: ١٠٥٢. ومسلم: ٩٠٧].

وهذه الجناتُ التي تجري الأنهارُ من تحتها، والدائمُ أُكلها وظِلُّها هي دارُ المتقين، أما الكفارُ فعاقبتهم إلى النارِ وبئسَ القرارُ، ﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

٢- فرحُ مؤمني أهلِ الكتابِ بالقرآنِ المنزلِ على رسولِنا ﷺ :

أخبرنا ربُّنا العليمُ الخبيرُ أن مؤمني أهلِ الكتابِ يفرحون بما أنزل الله على رسولِهِ ﷺ مِنَ القرآن ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [الرعد:٣٦] لأنهم يجدون صفة هذا الكتابِ ونعتَه في كتبهم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ [البقرة:١٢١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٨].

وقولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ ﴾ [الرعد:٣٦] أي: من الذين تحزَّبوا على رسولِ الله ﷺ من اليهودِ والنصارى من ينكر بعض هذا القرآن، ومن أنكر شيئاً منه، فهو كافر به كلّه.

جنـــــة السـنـة

٣- أُمر رسولُ الله ﷺ بعبادة الله وحْدَه والدعوة إليه وحْدَه:

أمرَ اللهُ -تبارك وتعالى - رسولَه ﷺ بأنْ يعبدَ اللهَ وحْدَهُ، ونهاه عن الشركِ به، وأمرَه بالدعوةِ إليه، وأنْ يخبر الناسَ بأنَّ رجوعَ الناس إليه سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد:٣٦]. وهذا الذي أُمر به رسولنا هو الذي أرسل به الرسلُ جميعاً.

٤- أنزلَ الله تعالى القرآنَ حُكْماً عربياً:

كما أنزلَ اللهُ تعالى ما أوحاه إلى كلِّ رسولٍ بلغةِ قومِه، أنزلَ إلى رسولِنا ﷺ القرآنَ بلغةِ قومِهِ، وهي العربيةُ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد:٣٧]، فالقرآنُ جارٍ على مذاهب العربِ في كلامِها، وقوله: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: محكماً معرباً.

وقال الله لرسوله ﷺ : ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد:٣٧]، أي: إن اتبعتَ أهواءَ هؤلاءِ الكفار من بعدما أنزلَ اللهُ عليك مِنَ العلم الذي يمثِّل الحقّ مالكَ من وليٍّ يتولَّى أمرك، وليس لك حام يحميك من عذابه، والرسولُ ﷺ لا يتبعُ أهواءَ الكفارِ، والخطابُ للرسولِ ﷺ ، والمرادُ به أمتُه، فهو تحذير لكلِّ واحد من أمته أنْ يتبع أهواء الكفار.

٥- سُنَّة الله تعالى في رسلِهِ أن يكونوا رجالاً من الإنس ويكون لهم أزواجٌ وذريةٌ:

سنَّة الله تعالى في رسله أن يختارهم رجالاً من الإنس، ويجعلَ لهم أزواجاً وذريةً، ومحمدٌ ﷺ واحدٌ من الرسل، وهو مِنَ البشر، وقد تزوَّج وأنجبَ، ولم يجعله ملكاً من الملائكة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨]، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين طلبوا من الله تعالى أنْ يرسلَ لهم رسولاً من الملائكةِ، الذين لا يتزوجون، ولا يأكلون، ولا يشربون.

٦- لا يستطيع أحدٌ من الرسل أن يأتي بمعجزةٍ إلا بإذن الله تعالى:

طَلَبَ الكفارُ من الرسولِ ﷺ أنْ يُنزلَ اللهُ تعالى آياتٍ من عنده، فأخبرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنّه ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد:٣٨]، فاللهُ تعالى هو الذي يأذنُ بنزولِ الآياتِ مثلَ ناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، وقرآنِ نبينا محمدٍ ﷺ ، وإذا لم

جنـــــة السـنـة

يأذن اللهُ بإنزالِ الآيةِ، فإنها لا تنزلُ، فقد طلبَ كفارُ قريش من رسولنا ﷺ أن يسيِّرَ الجبالَ، ويحيي لهم الموتى، فلم يلتفتْ ربُّ العزة إلى طلبهم، وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ أي: لكلِّ أمرٍ قضاه الله تعالى أجلٌ محدَّدٌ معلومٌ يأتي في الوقتِ الذي حدَّده ربُّ العزة.

٧- يمحو اللهُ تعالى ما يشاءُ ويثبتُ وعنده أمُّ الكتاب:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجل أنه ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد:٣٩]، والمحوُ ذهابُ أثرِ الكتابةِ، يقال: محاه يمحوه محواً، والإثباتُ ضدُّ المَحْوِ، وأحسنُ ما قيل في المحوِ والإثباتِ، أي: ما في الصحفِ التي تكتبُها الملائكةُ على بني آدم، فإذا أشركَ العبدُ أو عصى، ثم آمن أو تابَ وأنابَ غفرَ اللهُ ذنبه، وقد قال الرسولُ ﷺ: «وأتْبِعْ السيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُها» [مسند الإمام أحمد: ٢١٣٥٤] أما ما في أمِّ الكتاب وهو اللوحُ المحفوظُ مِنَ الشقاوةِ والسعادةِ، فلا يتغير، ولا يتبدَّلُ.

٨- قد يُري اللهُ تعالى رسولَه ﷺ الذي وَعدَ به الكافرين أو يتوفاه قبل أنْ يريه:

قال تعالى رسولِه ﷺ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾ [الرعد:٤٠].

يقولُ اللهُ تعالى لرسولِهِ ﷺ: إنْ أريناك بعضَ الذي نعدُكَ في حياتِكَ مِنْ الخزي والنكالِ والعذابِ، أو توفيناك قبلَ أن نريك ذلك، فليسَ عليك إلا أن تبلِّغ، كفروا به أو آمنوا، وعلينا أنْ نجازي، والبلاغُ اسمٌ يقامُ مقامَ التبليغِ، وهذه الآيةُ كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية:٢٥-٢٦].

٩- إتيانُ اللهِ تعالى الأرض ينْقصُها من أطرافها:

أخبرنا ربُّنا عزَّ وجلَّ عن حقيقةٍ علميةٍ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد:٤١]، والذي يظهرُ لي -والله أعلم- أنَّ هذه الآية تدلُّ على حقيقةٍ علميةٍ، وهي أنَّ الأرضَ التي يعيش البشرُ فوقَ ظهرِها يأْتيها ربُّنا فينقُصها من أطرافها، والآيةُ بناءً على هذا التفسيرِ واضحةٌ مفهومة، أما كيف يجري مثلُ هذا النقصانِ، وما طريقةُ تحققِهِ فلا نعرفه، ولعلَّ البشر يدركون كيف يكونُ هذا في مقبلِ الأيام

١٠- اللهُ -تبارك وتعالى- يحكمُ لا مُعقِّب لحكمه:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ [الرعد:٤١]، أي: أنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- يحكمُ، فينفذُ حكمهُ، ويَقْضِي فيمضيَ قضاؤه، ﴿لا

جنـــــة السـنة

مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ﴾ أي: ولا ناقضَ لحكمِهِ، ولا رادَّ له، والمعقِّبُ: الذي يَكِرُّ على الشيءِ ويتبعهُ، ولا يَكِرُّ أحدٌ على ما أحكمه اللهُ تعالى. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾ أي: سريعٌ في مجازاةِ خلقه إذا حاسبهم، لا فرقَ بين حسابِهِ للمجازاةِ بالخيرِ والشرِّ، ولا فرقَ بين مجازاةِ المؤمنِ والكافرِ.

١١- مَكْرُ الكفارِ فيما مضى برسُلِهِمْ وأتباعهم:

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّه ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد:٤٢].

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الكفارَ مِنَ الأُممِ الخاليةِ قد مكروا برسلِهِمْ وبالمؤمنين من أتباعهم، كما مكر قومُ صالحٍ بصالحٍ، ومكر فرعون وقومُه بموسى والمؤمنينَ به، وكما مكرتْ قريشٌ بمحمدٍ ﷺ، وبالمؤمنين به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال:٣٠]، وقالَ ربُّ العزةِ سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ﴾ [النمل:٥٠-٥٢].

وقولُه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ﴾ أي: جميعُ المكرِ لَهُ، لأنَّه خالقُه، فالمكرُ جميعاً مخلوقٌ له، بيدِهِ الخيرُ والشرُّ، وإليه النفعُ والضرُّ، ومقتضى ذلك أنَّ المكرَ لا يضرُّ إلا بإذنه وإرادتِهِ، وفي هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ فيما يفعله به قومُه، وبما يفعلونَهُ بأصحابِهِ.

وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ ﴾ [الرعد:٤٢] يريدُ ربُّنا -عز وجل- أنَّ جميعَ الاكتسابِ التي تحصِّله النفوسُ معلومٌ له، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ [الرعد:٤٢] أي: وسيعلمُ الكفارُ لمن تكونُ العاقبةُ، لهم أوْ لأتباعِ الرسلِ؟ وقد وقعَ في الدنيا أن نصرَ اللهُ تعالى عبدَهُ ورسوله ﷺ محمداً وأصحابَهُ والمؤمنين به مِنْ بعده وسيكونُ ظهورُ رسولنا ﷺ وأصحابه وأُمته في يومِ القيامةِ أعلى وأظهر عندما يدخلهم اللهُ الجنةَ، ويدخلُ الكفارَ النارَ.

١٢- تكذيبُ الكفارِ برسالةِ محمدٍ ﷺ وقد أثبتها ربُّنا بشهادته عليها:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- بما يقوله الكفارُ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد:٤٣]. أخبرنا ربُّنا عز وجل أنَّ الكفارَ كذبوا برسالةِ محمدٍ ﷺ، وقالوا له: لستَ مرسلاً، وأمره أنْ يقولَ لهم:

جنـــــة السـنــــة

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾ أي: كفى بِهِ شهيداً يشهدُ برسالتي، أني مبعوثٌ من عنده، فإذا شهِدَ اللهُ -سبحانه- لرسولِهِ ﷺ أظهر أمْرَه، وأعلى شأنَه، ونصرَهُ على أعدائِه، وأقامَ الدلائلَ الدالةَ على صدقِهِ، وجعل المخلوقاتِ تشهدُ له، فهو على كل شيءٍ قديرٍ، لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السماءِ، ومن كذَّب الرسولَ ﷺ أو انتقصه أذلَّه اللهُ وأهانه، وأظهرَ كذبَهُ، وفضحه بين خلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمدٍ ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات أنبيائِهم ورسلهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٦-١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء:١٩٧]، هذا ما ذهب إليه جمعٌ من المفسرين، والأولى عندي أنَّ الذي عنده علمُ الكتاب هو جبريل عليه السلام، واللهُ أعلمُ.

رابعاً: ما تهدينا إليه آياتُ هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١ - أعلمنا ربُّنا أنَّ عاقبةَ المؤمنين في جناتِ النعيم، وعاقبة الكافرين النار، وأعلمنا أنَّ الجنة فيها الأنهارُ الجاريةُ، وأنَّ طعامَ الجنةِ وشرابها وظلالَها دائمةٌ لا تنقص.

٢ - المؤمنون من أهلِ الكتابِ يفرحونَ بالكتابِ الذي أنزله إلى رسولِهِ محمدٍ ﷺ ومن أهل الكتابِ من يكفر بالقرآنِ أو ببعضٍ من القرآن.

٣ - أمر اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ وأتباعه بأعظمِ أمرٍ وهو عبادتُه وحده، ونهاهم عن أعظم نهيٍ، وهو الشركُ بِهِ، وأمَره بالدعوةِ إليه، وتقريرِ البعثِ والنشور.

٤ - أنزل اللهُ تعالى القرآنَ بلسانٍ عربيٍّ مبين، كما أرسل كل رسول بلغة قومه.

٥ - تهديدُ الله للرسول ﷺ والمرادُ بالتهديد من فعلَ ذلك من أمته، والتهديدُ لمن اتَّبع أهواءَ المشركين وترك حكمَ ربِّ العالمين.

جنـــــة السـنـة

٦- سنةُ الله تعالى في رسلِهِ وأنبيائه أن يختارهم من البشرِ، ويجعل لهم أزواجاً وذرية، لا كما يطلبُ الكفارُ أن يكونوا من الملائكةِ.

٧- الآياتُ المعجزاتُ أمْرُها إلى الله تعالى، إنْ شاءَ أنزلها، ولم يجعلها إلى رسله وأنبيائه.

٨- يمحو الله تعالى ويثبتُ ما في صحفِ الملائكةِ مما كتبته من أعمالِ البشرِ، أما اللوحُ المحفوظُ، فلا يتغيرُ، ولا يتبدَّل ما جاء فيه.

٩- حَوَتْ هذه الآياتُ حقيقةً علميةً لم تكتشف بعد، وهي أنَّ اللهَ تعالى يأتي الأرضَ ينقصُها من أطرافها، والآيةُ مفهومة المعنى، ولكننا لا ندري كيف ينقص الله الأرض من أطْرافها.

١٠- الكفارُ يكذبون برسالةِ رسولِنا ﷺ ، واللهُ تعالى يشهد لرسولِهِ بالرسالةِ، ويشهدُ له بذلك مَنْ عنده علم الكتاب.

جنـــــة الســـــنة

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

هذه السورة مكية، وآياتُها إحدى وخمسون آيةً في البصريِّ، واثنتان وخمسون آيةً في الكوفيِّ، وأربعٌ وخمسونَ آيةً في المدنيين والمكي، وخمسٌ وخمسون آية في الشامي.

وكَلِمُها ثماني مائة وإحدى وثلاثونَ كلمةً، وحروفها ثلاثةُ آلاف وأربعمائة وأربعة وثلاثون حرفاً [البيان في عَدِّ آي القرآنِ، لأبي عمرو الداني: ١٧١].

جنـــة السـنة

النص القرآني الأول من سورة إبراهيم
أنزل الله تعالى قرآنه العظيمَ ليخرجَ به رسولُه الناسَ من الظلماتِ إلى النور

أولاً: تقديم

أثنى اللهُ -تبارك وتعالى- على كتابِهِ العظيمِ الذي أنزله على رسولِهِ ﷺ ليخرجَ به الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ، وقد عرفنا ربُّنا سبحانه بنفسِهِ، فهو اللهُ العزيزُ الحميدُ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرض، وتهدَّدَ اللهُ تعالى الكفارَ بالدمارِ والهلاك، ووصفَ هؤلاء الكفار الضالين بثلاثِ صفاتٍ.

وبيَّن اللهُ سبحانه وتعالى أنَّ سنَّةَ الله أن يرسل كلَّ رسولٍ بلغةِ قومِهِ، ليبيِّن لهم الحقَّ الذي أُنزل إليه، وبعد البلاغِ يضلُّ الله من يشاءُ، ويهدي من يشاءُ.

وحدَّثنا اللهُ تعالى أنَّه أرسلَ موسى ﷺ بآياتِه الدالةِ على صدقِهِ، وأمره أن يذكرهم بأيامِ الله، فوقفَ موسى خطيباً في قومه، وأخبر ربُّنا في هذه الآيات بمَ خطبهم به.

ثانياً: آيات هذا النص من القرآن

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٖ
شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ
أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ ﴿٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن
يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ
أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ
صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ
فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم
بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ
عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾﴾ [إبراهيم: ١-٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- أنزل اللهُ تعالى كتابَه على رسولِه ﷺ ليخرجَ به الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ:

هذه هي السورة الخامسةُ التي تفتتحُ بالحروفِ المقطعة ﴿الٓر﴾ وهي حروفٌ من حروفِ العربيةِ التي تتكون منها كلمات القرآنِ، وقد سبق بيان أنَّ القرآنَ العربيّ المعجز تتكون كلماتُه من هذه الحروفِ وأمثالها، وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم:١]. والكتابُ المباركُ الذي أنزله إلى رسولِه ﷺ هو القرآنُ العظيمُ الذي بعثه اللهُ تعالى به إلى جميع الناسِ، ليخرجَ الناسَ به مِن ظلماتِ الشركِ والجهلِ إلى نورِ الإسلام، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقولُهُ تعالى: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾ أي: هذا الإخراجُ مِنَ الظلمات إلى النورِ هو بإذن الله ومشيئته وإرادتِه، فاللهُ تعالى وحْدَهُ مالكُ الهدايةِ، يخرجهم إلى صراطِ الله ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ القويِّ الغالب الذي لا يُمانعُ، ولا يُغالبُ، بل هو القاهرُ لكل ما سواه، و﴿ٱلْحَمِيدِ ①﴾، أي: المحمودُ في جميعِ أفعالِهِ وأقوالِهِ -سبحانه- وشرعِهِ وأمرِه ونهيِهِ.

٢- التعريف بالله ربِّنا تبارك وتعالى:

أعلمنا ربُّنا تبارك وتعالى فيما سبقَ أنه أنزل على رسولِهِ ﷺ القرآنَ العظيم، ليخرجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النور بإذن ربِّنا، ثم وصف اللهُ تعالى نفسَهُ، وعرفنا على ربِّنا، فقال: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾ ثم زادنا به تعريفاً فقال: ﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [إبراهيم:٢]، فاللهُ هو خالقُ السمواتِ والأرضِ، وهو مالكهما وما فيهما وما بينهما، لا يعزبُ عنه من ذلك شيء، ومن ذلك ما رفعه الضالون إلى مرتبة الأُلوهيةِ من الأصنام والأوْثان.

٣- ويلٌ للكافرين من عذابٍ شديدٍ:

تهدَّدَ ربُّ العزَّة تبارك وتعالى الكافرين، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ②﴾ [إبراهيم:٢]، تهدَّدَ اللهُ تعالى الكافرينَ الذين كفروا بالله ورسولِهِ ﷺ بالعذابِ الشديدِ في الدنيا والآخرةِ، ثم عرَّف ربُّ العزةِ تباركَ وتعالى بالكافرين الذين يستحقون

جنـــــة السـنـــــة

العذابَ الشديدَ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [إبراهيم:٣] والصفةُ الأولى التي وصفَهم تعالى بها أنَّهم يستحبون الحياةَ الدنيا على الآخرةِ، أي: يقدِّمونها، ويُؤْثرونها عليها، ولذلك تراهم يعملونَ للدنيا، وينسونَ الآخرةَ، والصفةُ الثانيةُ أنهم يصدُّون الناسَ عن دينِ الله تعالى، أي: يعملون على تنفيرِ الناس عن هذا الدينِ، وتكريههم به، ومنعهم من الدخولِ فيه، والصفةُ الثالثةُ أنَّهم ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ﴾ أي: يعملونَ على أنْ يكون سبيلُ الله تعالى معوجّاً مائلاً، فتراهم يحرِّفونَ مسائلَ الأحكامِ، ويزيغون فيما قرَّرَه اللهُ تعالى مِنَ الحلالِ والحرامِ، ويفسدون العقائدَ والآدابَ، وقد حكمَ ربُّ العزة -تبارك وتعالى- على هؤلاءِ بأنَّهم ضالون تائهون ضائعون عن الحقِّ ضلالاً بعيداً، ومن هؤلاءِ الملحدون، وعبادُ الأصنامِ والأوثانِ، والشيوعيون وأمثالهم.

٤- أرسل الله كلَّ رسول بلسان قومه ليعرِّفهم بالحقِّ:

أعلمنا ربُّنا العليمُ الحكيمُ سبحانه أنَّه أرسل كلَّ رسولٍ بلسانِ قومِهِ، أي: بلغتهم التي يتحدَّثون بها، حتى يستطيع أنْ يعرِّفهم بالحقِّ الذي أرسلَهُ اللهُ تعالى به، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم:٤]، فإذا بَلَّغَ الرسولُ قومَهُ وما أنزلَ اللهُ إليه من الحقِّ، فعند ذلك يضلُّ اللهُ تعالى من يشاءُ إضلالَه، ويهدي من يشاءُ هدايه، ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يعجزُهُ أحدٌ، و﴿ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ في أفعالِهِ، فيضلُّ من يستحقُّ الإضلال، ويهدي من هو أهلٌ للهدايةِ.

وقد كان كلُّ رسولٍ ﷺ يُبعَثُ إلى قوْمِهِ خاصةً، فيحدِّثهم بلغتهم، وبعثَ نبينا محمداً ﷺ إلى الناسِ كافةً، فبُعث بلغةِ قومِهِ، وهي العربيةُ، وكان على قومِهِ أن يبلِّغوا الناسَ بلغاتهم، وقد ذكرنا فيما سبق الحديث الذي رواه صاحبا الصحيحين، والذي يقول فيه الرسول ﷺ: «كان النبي يبعثُ إلى قومِهِ خاصةً،وبُعثتُ إلى الناسِ عامةً» [البخاري: (٣٣٥)، مسلم: (٥٢١)].

٥- أرسل اللهُ -تبارك وتعالى- موسى ﷺ بآياتِهِ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور:

قال ربُّ العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾

جنـــــة السـنـــة

[إبراهيم:٥]، أقْسَمَ ربُّ العزة سبحانَه بأنه أرسلَ نبيَّه موسى ﷺ بآياتِهِ الدالةِ على صدقِهِ، وأعظمها العصا التي تتحول إذا ألقاها إلى ثعبانٍ مبينٍ، وأمره أن يُخرج قومه مِنَ الظلماتِ إلى النورِ، أي: ظلماتِ الكفرِ والشركِ والجهلِ إلى نورِ الإسلامِ والإيمانِ الذي يوصل إلى جنة الرحمنِ، وأمره أن يذكِّرهم بأيامِ الله ومن ذلك إغراقُهُ فرعونَ وجنودَه، وهم ينظرون، ومن أيامِ الله تعالى ما فعله اللهُ بالأممِ الخاليةِ قوم نوحٍ، وقوم هودٍ، وقوم صالحٍ، وأمثالهم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥﴾ أي: صبورٍ في الضراءِ والنقمِ، وشكور في السراءِ والنعم، ومِنَ الصبرِ في الضراءِ ما ابتلى اللهُ تعالى به بني إسرائيلَ من طغيانِ فرعونِ وملئه، حتى بلغ به الأمرُ أن يقتِّلَ أبناءَهم، ويستحيي نساءَهم، وقد جاء في الحديثِ الصحيح الذي سبق ذكره: «إنَّ أمْرَ المؤمن كلَّهُ خيرٌ، لا يقضي لَهُ قضاءً إلا كانَ خيراً له، إذا أصابَتْهُ ضرَّاءُ صَبَرَ فكانَ خيراً له، وإنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فكانَ خيراً له» [مسلم: ٢٩٩٩].

وقد أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- بما قاله موسى لقومِهِ استجابةً لأمرِ الله تعالى في تذكير قومِهِ بآياتِ الله ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ [إبراهيم:٦]. وقولُهُ تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ أي: اذكروا عندما قالَ موسى لقومه، ويبدو أنَّ موسى وقفَ خطيباً في قومِهِ، وقال لهم في تلكَ الخطبةِ: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ اذكروا نعمة الله تعالى التي أنْعم بها عليكم إذ أنجاكم من آلِ فرعون الذين كانوا يسومونكم أشدَّ أنواعِ العذابِ، ومِنَ العذاب الذي كانوا يسومونهم به ذبحُهُم لأبناءِ بني إسرائيلَ لإضعافِ قوتهم، وترك الإناثِ من مواليديهم، فلا يذبحونهن، ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٦﴾ أي: فيما كان يفعله فرعونُ وقومه بهم بلاءٌ عظيم، أي: اختبارٌ عظيمٌ، فنجَّى اللهُ بني إسرائيل من فرعونَ وجندِهِ، وأغرق فرعونَ وجنده في البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]. وقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: آذنكم وأعلمكم ربُّكم ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتُم نعمتي، لأزيدنَّكم منها ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ أي: لئن كفرتُم النِّعمَ وجحدتموها فإنَّ عذابي أليمٌ شديدٌ.

جنـــــة السـنة

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه فيما خطبهم به: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ⑧﴾ [إبراهيم:٨]. يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ موسى قالَ لقومه: إن تكفروا أنتم وجميعُ مَنْ في الأرضِ، فإنَّ اللهَ -تبارك وتعالى- غنيٌّ عن شكر العبادِ، و﴿حَمِيدٌ ⑧﴾ أي: مستحقٌّ للحمدِ في أفعالِه، وقد جاء في الحديثِ القدسيِ الصحيح الذي رواه أبو ذر ﷺ: «يا عبادي! إنَّكُم لَنْ تَبْلُغوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، ولَنْ تَبْلُغوا نَفْعِي فتَنْفَعُونِي، يا عِبادِي! لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كانوا على أتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ مِنْكُمْ، ما زَادَ ذلِكَ في مُلْكِي شيئاً، يا عِبادي! لو أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، كانوا على أفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَصَ ذلِكَ من مُلْكِي شيئاً، يا عِبادِي! لَوْ أنَّ أوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ، وإنْسَكُمْ وجِنَّكُمْ، قاموا في صَعيدٍ واحِدٍ فسَألُونِي، فأعْطَيْتُ كُلَّ إنْسانٍ مَسْألَتَهُ، ما نَقَصَ ذلِكَ مما عِنْدِي إلاَّ كما يَنْقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدْخِلَ البَحْرَ، يا عِبادِي! إنَّما هِيَ أعْمالُكُمْ أُحْصِيها لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها، فمَنْ وَجَدَ خَيْراً فلْيَحْمَدِ الله، ومَنْ وَجَدَ غيرَ ذلكَ فَلا يَلُومَنَّ إلاَّ نَفْسَهُ» [مسلم: ٢٥٧٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علم وعمل:

١- هذا القرآنُ المعجزُ مكونةٌ حروفُ كلماتِه من حروف كلماتِ اللغة العربية.

٢- أنزلَ اللهُ هذا القرآنَ على رسولِه الكريم ليُخرج بِهِ الناسَ من ظلماتِ الشركِ والكفر إلى نورِ الإسلامِ بإذن الله العزيز الحكيم.

٣- اللهُ هو العزيزُ الحميدُ الذي له ما في السمواتِ وما في الأرضِ.

٤- الكفارُ لهم عذابٌ شديدٌ، وهؤلاءِ هم الذين يؤثرون الدنيا على الآخرةِ، ويُكَرِّهون الناس بدينِ الله، ويعملونَ على اعوجاجِ طريقِهِ وأحكامِهِ.

٥- أرسلَ اللهُ تعالى كلّ رسولٍ مِنْ رسلِهِ بلغةِ قومِه، ليبلِّغهم ما أُنزل إليهم مِنَ ربِّهم تبارك وتعالى، وبعد البلاغِ أمْرُ الهدايةِ والضلالِ إلى الله تعالى.

٦- أرسلَ اللهُ تعالى رسولَه موسى ﷺ بآياتِهِ الدالةِ على صِدْقه، وأمَرَه أن يُخرجَ قومَه من ظلماتِ الكفرِ والشركِ إلى نورِ الإسلام، وأمَرَه أنْ يذكرهم بآياتِ الله.

٧- وقف موسى ﷺ خطيباً، فذكرهم بآياتِ الله، وقد ذَكَرَ لنا ربُّنا -تبارك وتعالى- في هذه الآياتِ ما قاله موسى لقومِه.

جنـــة الســـنة

النص القرآني الثاني من سورة إبراهيم
مسارُ الرسل عبرَ التاريخ مسارٌ واحدٌ ومسارُ الأمم المكذبة للرسل مسار واحد

أولاً: تقديم

هذه الآياتُ تدلُّنا على أنَّ مسارَ الرسلِ عبر التاريخ الإنسانيِّ المديدِ مسارٌ واحد، فكلُّهم جاؤوا أُممهم بالبيناتِ، وبلغوهم الحقَّ، وكلُّ الأمم المكذبةِ للرسلِ عبرَ التاريخ الإنسانيِّ المديدِ مسارٌ واحدٌ، ولذلك فإنَّ الحوارَ الذي ذكرتْه الآياتُ حوارٌ واحد بين الرسلِ والأممِ، يطرح فيه مكذبو الرسل شبهاتٍ واحدةٍ، ويجيب عليها الرسلُ جواباً واحداً، وفي الختامِ تتوعدُ الأممُ المكذبةُ رسلَها بإخراجهم من ديارِهم إلا أن يعودوا إلى الكفر والشركِ، وعند ذلك يلجأُ الرسلُ إلى الله، يستنصرونَه، ويحتمون به، فيهلكَ اللهُ المكذبين.

وفي ختامِ النصِّ ضربَ الله تعالى مثلاً لأعمالِ الكفار برمادٍ اشتدَّتْ به الريحُ في يوم عاصفٍ، فلا يقدرُ الكفار على تحصيل شيءٍ من أعمالهم.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ
وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا
تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ
عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا
أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ
وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ
بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ
فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم:٩-١٨].

جنـــــة السـنة

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- تحذيرُ الله تعالى الكافرينَ أن يحلّ بهم مثل ما حلّ بالمكذبين:

وجّه ربُّ العزةِ -سبحانه- السؤالَ إلى كفارِ قريش، ومَنْ بعدهم مِنَ الكفار، قائلاً لهم: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٩]. أجمَلَ اللهُ تعالى في هذه الآية ذكرَ القومِ المكذبين لرسلهم، وهم قومُ نوحٍ وعادٍ وثمود والذين من بعدهم من هذه الأممِ ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فهم كثيرون، لا يُحْصي عددهم إلاَّ اللهُ سبحانه وتعالى، وقد عَفَت آثارُهم، وبطلت أنسابُهم، وقد أجْمل ذكر الرسل التي جاءتهم ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: جاءَ كلُّ رسولٍ قومَهُ بالآياتِ المعجزاتِ الدالاتِ على صدقِهِ، ﴿فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: فَسَبُّوا الرسلَ، وكَذّبوهم، وثَقُل عليهم مكانهم، وعَضُّوا على أصابعهم من شدَّةِ الغيظِ، ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ أي: قالوا لرسلهم: إنا كفَرنا بالدين الذي أرسلتم به، ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ أي: وإننا لفي شك مما تدعوننا إليه من توحيدِ الله و﴿مُرِيبٍ ﴿٩﴾﴾ أي: يوجبُ لنا ذلك الشكُّ الريبَ والتهمةَ فيه.

٢- الحوارُ بين الرسل وأُممهم:

أجمل اللهُ -تعالى- الحوارَ الذي جرى بين الرسلِ وأُممهم فكأنَّها كلمةُ الرسلِ على مدارِ التاريخ الإنسانيِّ كلمةٌ واحدةٌ، وكأنها كلمةُ المكذبين من الأمم كلمة واحدةٌ، ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [إبراهيم:١٠]. قال كلُّ رسولٍ لأمته: أفي الله شكٌّ؟ أي: أيوجدُ شَكٌّ في وجودِ الله سبحانه أو في ألوهيته وتفردِهِ بالعبادةِ وحْدَهُ لا شريكَ له؟ وهو ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثالٍ سابق، ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إليه لتؤمنوا به وبرسلِهِ، ليغفر لكم ما اقترفتموه من شركٍ وذنوبٍ ومعاصي ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: فيؤخِّر بقاءَكم في الدنيا إلى الوقتِ الذي تقبضُ فيه أرواحكم، ولا يُنزلُ بكم عذابَهُ وعقابَهُ.

جنـــــة السـنة

وقد أعلمنا اللهُ تعالى أنَّ الأممَ المكذبةَ لرسلها كان جوابُها واحداً على مرِّ العصور والأزمانِ ﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم:١٠]. أي: ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا، ولا يحقُّ لكم أنْ تطالبونا باتباعِكُمْ وطاعَتِكُمْ، ولستمْ ملائكةً، وإنما تريدونَ بها تدعوننا إليه ﴿أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ أي: تريدون صرفنا عن عبادةِ ما كان يعبدُ آباؤُنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ أي: بحجةٍ وبرهانٍ في غايةِ الوضوحِ والبيانِ، أي: يريدون من رسلهم معجزاتٍ تدلُّ على صدقهم.

وقد أخبرنا ربُّنا بأنَّ جوابَ جميع الرسلِ الذين أرسلهم اللهُ تعالى كان جواباً واحداً، لم يختلفْ من رسولٍ إلى رسولٍ، ولا مِنْ عصرٍ إلى عصرٍ، ولا من مِصْرٍ إلى مِصْرٍ ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم:١١].

يخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ كلَّ رسولٍ قال لأمته المكذبةِ به، حتى كان جوابهم جواباً واحداً قالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: نحنُ نقرُّ ونعترفُ بأننا بشرٌ مثلُكُمْ، ولسنا ملائكةً، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ولكن اللهَ يتفضلُ على من يشاءُ من عباده، فيختارهم أنبياءَ ورسلاً، وينزلُ عليهم وحيَهُ، ويطالبهم بإقامةِ الحجَّةِ على مَنْ أرسلوا إليه، ﴿وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان، أي بحجّةٍ وبرهانٍ، وهي الآيةُ المعجزةُ، ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ أي: إلا بأمرِ الله ومشيئته، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ أي: أنَّ الرسل قالوا لأتباعهم من المؤمنين: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثم تحدَّث الرسلُ عن توكلهم على ربِّهم، وقالوا لأقوامِهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم:١٢]. أي: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فنثقُ به وبكفايته ودفاعِه عنا، ﴿وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ﴾ وقد بيَّن لنا رشدَنا، وعرَّفنا بطريق التوكلِ عليه، ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾ أي: ولنصبرن على ما نلقى منكم من المكروهِ بسببِ ما دعوناكم إليه من الحقِّ، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ أي: وعلى الله فليتوكلِ المتوكلون عليه.

جنـــــة السـنة

٣- تهديد الأمم المكذبة رسلها بإخراجهم من أرضها:

أخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أنَّ جميعَ الأممِ المكذبةِ لرسلها تهدَّدَت هؤلاءِ الرسلَ وتوعَّدتهم بإخراجهم من الديار التي كانوا يسكنونها معهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ [إبراهيم:١٣].

وهذا أيضاً موقفٌ عامٌّ من كلِّ الأمم المكذبةِ للرسل، فإنَّ كلَّ أُمةٍ تهدَّدَتْ رسولها بإخراجه من الديارِ التي يسكنونها، كما قال قومُ شعيبٍ لشعيبٍ: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف:٨٨]. وقال قومُ لوطٍ ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل:٥٦]، وقال تعالى إخباراً عن مشركي قريشٍ: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾ [الإسراء:٧٦].

وعندما كانَ يبلغُ الحالُ بالأممِ المكذبةِ إلى أنْ تطردَ رسلَها من الديار التي يسكنونها، يوحي اللهُ تعالى إلى رُسُله بأنَّهُ سيهلكُ الظالمين ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: سيهلكُ القومَ الذين يريدون إخراجهم من قريتهم، ويوحي إليهم أيضاً: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٤]، أي: وبعدَ إهلاكِ القومِ الكافرين الظالمينَ يسكنُ الأرضَ الرسلَ وأتباعَهُمْ من المؤمنين، كما فعل اللهُ تعالى بقومِ نوحٍ، وقومِ موسى عليهما السلام، ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ أي: ذلك الإنجاءُ والتكريمُ للذين يخافون الوقوفَ بين يدي الله يومَ القيامة، ولمن خاف وعيدي في يوم الدين.

٤- استنصار الرسل على أقوامهم الذين كذبوهم:

أخبرنا اللهُ -تبارك وتعالى- أنَّ الرسلَ عندما تهدَّدهم قومُهم بإخراجِهم مِن قراهم ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم:١٥-١٧].

يقول تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ أي: استنصرت الرسلُ بالله ربِّها على أقوامهم، ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: وهلكَ كلُّ جبارٍ متكبرٍ عن الخضوعِ لله والدينونة له بالعبودية

جنـــــة السـنة

والتوحيد، وقد بيَّنَ الله تعالى خيبةَ الجبارِ العنيدِ في قوله تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾ [ق:٢٤-٢٦].

وفي الحديثِ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَخْرُجُ عُنُقٌ من النارِ يومَ القيامةِ، لها عينانِ تُبصِرانِ، وأُذُنانِ تَسْمَعان، ولِسانٌ يَنْطِق، يقولُ: وُكِّلْت بثلاثةٍ: بكُلِّ جبَّارٍ عنيد، وبكُلِّ من دعا مع الله إلهاً آخَرَ، وبالمصوِّرين» [الترمذي: ٢٥٧٣. وقال الترمذيُّ فيه: هذا حديثٌ حسن غريب صحيح].

وقوله تعالى: ﴿مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: من أمامِ كلِّ جبارٍ جهنم يَرِدُها، ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: يسقى ذلك الجبَّارُ العنيدُ من ماءٍ صديدٍ، وهو ما يسيلُ ويتجمع من عصارةِ أهلِ النارِ المحترقةِ، وهي خليطٌ من الدم والقيحِ، وقوله: ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ أي: يتحسَّاه، ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: ولا يكادُ يَزْدَرِدُهُ من شدَّةِ كراهيته له، وقد حدَّثنا ربُّنا أنَّ هذا الماءَ الصديدَ يقطعُ أمعاءَهم ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾ [محمد:١٥].

وأخبرنا ربنا تبارك وتعالى أنَّ الجبارَ العنيدَ في النارِ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم:١٧] أي: يأتيه عن يمينِهِ وشمالِهِ وأمامه ومِنْ خلفه، ومن فوقِه، ومن تحته، فالنارُ تحيط به من كلِّ مكان، ولكنِ الموتُ لا ينزل به، ولا يفني حياتَه، ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ أي: شديدٌ أليمٌ موجعٌ.

وقد أخبرنا الله تعالى في مواضع من كتابه عن العذاب الغليظ الذي يحيط بأهل النار، فمن ذلك قوله في شجرة الزقوم: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات:٦٤-٦٨]، فأخبر أنهم تارةً يكونون في أكل زَقُّوم، وتارةً في شُرب حَميم، وتارةً يَردون إلى الجحيم، عياذاً بالله من ذلك، وهكذا قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الدخان:٤٣-٥٠]. وقال تعالى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ

جنـــــة السـنة

مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾ [ص:٥٥-٥٨]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على تنوُّع العذاب عليهم، وتكراره وأنواعه وأشكالِهِ، مما لا يُحصيه إلا الله عز وجل، جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت:٤٦].

٥- **مثلُ أعمالِ الكفار المشركين في يومِ الدين:**

ضربَ اللهُ -تعالى- مثلاً لأعمالِ الكفارِ الذين أشركوا مع الله غيره، وكذبوا رسلَهُ، وبَنَوْا أعمالهم على غير أساسٍ صحيح، فانهارتْ، وعدموها أحوجَ ما كانوا إليها، فقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ [إبراهيم:١٨]، أي: مثلُ أعمالِ الكفارِ بربِّهم كرمادٍ، والرمادُ دُقاقُ الفحمِ من حُراقةِ النارِ، ويصيرُ رماداً إذا صار هباءً أدق ما يكون، ﴿ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ أي: عصفتْ به الريحُ في يومِ عاصفٍ، أي: في يومٍ اشتدَّ به هبوبها، ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ﴾ أي: لا يقدرون على شيءٍ من أعمالهم التي كسبوها في الدنيا إلا كما يقدرون على جمعِ هذا الرمادِ في هذا اليوم، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ أي: ذلك هو الخسرانُ الكبيرُ، والمرادُ بالضلالِ: ضلالُ أعمالهم وهلاكُها وذهابُها، وإذا ذهبتْ أعمالهم ذهابَ الرمادِ في عصفِ الريحِ، فقد كبر خسرانُهم، ومعنى ﴿ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾ الذي لا يرجى عودُه، فهو بعيدٌ مِنَ الهدى. وهذه الآيةُ كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقوله: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ [آل عمران:١١٧].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- حذَّرَ اللهُ تعالى الكفارَ مصيراً كمصيرِ مكذبي الرسلِ مِن قبل كقومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم.

٢- أوَّلُ الأمم قومُ نوحٍ، ثم قومُ هودٍ، ثم قوم صالحٍ، وليس قبل هذه الأمم أممٌ أُخرى، وإنما تتابعت الأمم من بعدهم.

جنـــــة الســـــنة

٣- ساق اللهُ تعالى أخبارَ الأمم المذكبة للرسلِ مع رسلهم مساقاً واحداً، فإذا حالُ الأمم حالٌ واحدة، وحالُ الرسلِ حالٌ واحدةٌ، ويجري الحوارُ بين الرسلِ وأممها المكذبةِ لها في مسارٍ واحدٍ، وبذلك تكون دورةُ الرسلِ مع الأممِ المكذبةِ دورةٌ واحدةٌ مكرورةٌ.

٤- تهَدَّدَت الأمَمُ المكذبةُ للرسل بإخراجهم مِنَ ديارهم، عند ذلك يوحي إليهم ربُّهم ليهلكنَّ الظالمين، وليسكننهم الأرضَ من بعدهم.

٥- شدةُ العذابِ الذي يصيبُ الكفارَ في يومِ الدين.

٦- أعمالُ الكفارِ المشركين في يومِ الدين كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ، فلا يبقى لهم من أعمالهم في ذلك اليومِ شيءٌ ينتفعون به.

جنـــــة السـنــة

النص القرآني الثالث من سورة إبراهيم
أحوالُ الناس في يوم الدين

أولاً: تقديم

بيَّن اللهُ تعالى أحوالَ الناسِ في يوم الدين، فبيَّن حالَ الضعفاءِ الكفرةِ مع الزعماءِ والقادةِ والرؤساءِ، وبيَّن كيف يخطبُ الشيطانُ في أتباعِهِ هازئاً بهم، ساخراً منهم، كافراً بشركهم، وأخيراً بيَّنَ حالَ المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ، وأنه يدخلُهم جناتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها أبداً، يستقبلون فيها بالتحياتِ الطيباتِ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا
مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ
وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠
بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٣].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- اللهُ تعالى خالق السمواتِ والأرض بالحقِّ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾﴾ [إبراهيم:١٩-٢٠].

يخبرُنا الحقُّ -تبارك وتعالى- أنَّه خلقَ السمواتِ والأرضَ خلقاً كائناً بالحقِّ، فقد خلقها تباركَ وتعالى ليُعْبَدَ ويطاعَ، فالسمواتُ والأرضُ وما فيهما وما بينهما كلُّه يسبحُ اللهَ تعالى، ويسجد له، والسمواتُ مَسْكَنُ الملائكةِ، وكلهم خاضعٌ مطيعٌ لله سبحانه وتعالى، ومنهم القائمُ في صلاتِه فلا يقعدُ، ومنهم الراكعُ، ومنهم الساجدُ، ومنهم الذين كلفهم بما كلفهم به من شؤون السمواتِ والأرضِ.

جنـــــة السـنــة

والأرضُ خلقها اللهُ تعالى لتكون معبداً للإنسِ، وسخَّرها لهم، فأرسلَ إليهم رسلَه، وأنزل عليهم كتبه، وأمَرَهم بطاعتِهِ، والقيام بالأعمالِ الصالحاتِ، وهو قادرٌ سبحانه أنْ يذهبَ بنا ويأتي بأقوامٍ غيرنا إنْ نحن تمردنا عليه وكفرنا به، وقد وقع في التاريخ الإسلامي أن وَكَلَ أمر هذه الأمةِ إلى غيرِ العرب، فحملوا راية الإسلام، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وفتحوا البلاد، وساروا في أقطار الأرض مشرقين ومغربين، واستبدالنا بغيرنا أمْرٌ سهلٌ على الله تعالى، فاللهُ على كلِّ شيءٍ قديرٍ، وما ذلك عليه سبحانه بعزيز.

٢- موقفُ الزعماءِ من أقوامهم الضعفاء:

بيَّنَ الله تعالى لنا موقفَ الزعماءِ والرؤساءِ الكفرةِ من أتباعهم، فقالَ: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم:٢١].

أعلمنا ربُّنا -تبارك وتعالى- أنَّ الكفار السادةَ الكبراءَ والأتباعَ الضعفاء برزوا ظاهرينَ مكشوفين لله ربِ العالمين، فقالَ الضعفاءُ الذين كانوا تبعاً للسادةِ الكبراءِ، يأتمرون بأمرهم، ويطيعونهم فيما يطلبونَه منهم: إنَّا كنا لكم تبعاً، فهل أنتم مغنونَ عنَّا من عذابِ الله من شيءٍ، أي: هل تستطيعون أن تردُّوا عنا في هذا اليوم شيئاً من عذاب الله؟

فأجابَ الزعماءُ والرؤساءُ الذين كانوا يُغْرونَ الناسَ في الدنيا بالكفر والشرك، ويزعمون لأتباعهم أنَّهم سيتحملونَ عنهم يومَ القيامة آثامَهم، وقالوا لأتباعهم: لو هدانا اللهُ لهديناكم ولكننا كفرنا بالله وأشركنا به، ولذلك فإننا في النارِ وغضب الجبارِ، وجزَعُنا وصبرُنا سيان، ولن ينجينا من عذابِ الله أحدٌ.

إنَّ الذين ألغَوْا عقولهم، واتبعوا سادَتَهم من غيرِ دليلٍ ولا برهانٍ، أَزْرَوْا بنعمة العقلِ التي أنْعَم اللهُ بها عليهم، وكانَ الواجبُ عليهم أنْ لا يرضَوْا بالمسارِ خلف أتباعهم بغير دليلٍ ولا برهان.

٣- الشيطان يخطبُ في أتباعِهِ بعد دخولِ النارِ:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أن الشيطانَ يخطبُ في أتباعه الذين استجابوا له في الحياةِ الدنيا، وتركوا ما جاءَتهم به الرسلُ، يخطبهم لا ليشكرَهم، ويثنيَ عليهم، بل يخطبُ فيهم ليبكِّتهم، ويملأَ نفوسَهُمْ غمّاً.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ

جنـــــة السـنة

وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم:٢٢].

قال الشيطانُ في خطبته تلكَ مبكتاً أتباعه هازئاً بهم مُحَقِّراً لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢] أي: وعدكم وعدَ الحقِّ على ألسنةِ رسله، ووعدتكم فأخلفتكم، ولم أفِ لكم، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ولم يكن معيَ من حجَّةٍ ولا دليلٍ يدلُّ على صدقي فيما دعوتكم إليه، ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ وكلُّ الذي فعلته إنما هو دعوةٌ مجردةٌ، فاستجبتم لي، وتركتم الرسلَ وما جاؤوا به من الهدى والعلم والنور، وقال لهم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فلا تؤنبوني، وأنّبوا أنفسكُمْ، فأنتم الذين ظلمتم أنفسكم، ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ فلا أنا بنافِعكم اليومَ، ولا مخلصكم مما وقعتم فيه، وما أنتم بنافعيَّ ومنقذيَّ مما أنا فيه مِنَ العذابِ والنكالِ.

وبلغ الشيطانُ الغاية في تسفيهِ أتباعِهِ والذين تَوَلَّوْا أمْرَه عندما قال لهم: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ هذا هو الشيطانُ يبرز على حقيقتِهِ في ذلك اليوم، بلا تزييف ولا تزويقٍ، بخلافِ حاله في الدنيا عندما كان يُزَيِّنُ الباطلَ والشركَ لأتباعه، ولا شكَّ أنَّ الشيطانَ صبَّ بقوله هذا العذابَ في نفوسِ أتباعه، فاشتدَّ عذابُهم، وعظمتْ حسرتُهم، وظهرَ لهم أنَّهم كانوا جهلاء مخدوعين، ليسَ عندهم ذكاءٌ، ولا عِلمٌ، ولا بصيرةٌ، والظالمون في قوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ هم الكفارُ المشركون الذين يستحقون العذابَ الأليمَ.

وفي مقابل دخولِ أهلِ النارِ النارَ يحدِّثنا ربُّنا عن إدخاله أهلِ الجنة جناتِ النعيم في يوم الدين خالدين فيها، تلقى عليهم التحايا والسلامُ من ربهم ومن ملائكته، وهذا نعيمٌ فوق ما أوتوه من نعيم ﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [إبراهيم:٢٣].

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- الله تعالى قادرٌ على البعثِ والنشورِ، فإنه خالقُ السمواتِ والأرضِ، وخلقُ السمواتِ والأرض أعظم من خلقِ الناسِ.

جنـــــة السـنة

٢- يبرزُ الناس جميعاً لله في يوم القيامة، ويتبرأُ القادةُ من الأتباعِ، ويقولون لهم: سواءٌ علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص.

٣- يخطبُ الشيطانُ في أتباعه بعد دخولهم جميعاً النارَ، فيبكِّتُهم، ويسخرُ منهم، ويُيئِسُهم من رحمة الله، ويظهر غباءَهم وقلة بصيرتهم.

٤- يدخل اللهُ -تبارك وتعالى- المؤمنين الموحدين الذين عملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبَدَ الآبدين.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني الرابع من سورة إبراهيم
مثل الكلمةِ الطيبة ومثلُ الكلمة الخبيثة

أولاً: تقديم

ضربَ اللهُ تعالى لعبادِهِ في آيات هذا النصِّ مثلاً للكلمة الطيبة ومثلاً آخرَ للكلمة الخبيثةِ، وأخبرنا ربُّنا أنه يثبتُ الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا، وفي القبرِ عندما تفتنهم الملائكةُ، وذمَّ الكفارَ الذين بدَّلوا نعمةَ الله كفراً، وأحلُّوا قومهم دارَ البوارِ، وهي النارُ.

وذمَّ الكفارَ الذين جعلوا لله شركاءَ عبدوهم مع الله، فأضلوا بهذه الأوثانِ العبادَ عن الدينِ الحقِّ، وأمر اللهُ رسولَه والمؤمنين بإقام الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ تعالى في السرِّ والعلنِ من قبل إتيانِ اليوم الذي لا بيع فيه، ولا خلال، وهو يومُ القيامةِ، وعدَّد اللهُ تعالى على عبادِهِ كثيراً من نعمِه، ونعمُ الله كثيرة، لا يطيقُ العبادُ إحصاؤُها.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ
(٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ
كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) ۞
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)
وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ
آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) اللَّهُ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ
الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا
إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم: ٢٤-٣٤].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١ - ضرب الله -تبارك وتعالى- مثلاً للكلمة الطيبة:

ضربَ اللهُ تعالى مثلاً للكلمة الطيبة، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ

جنـــــة الســـنة

﴿ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، والكلمة الطيبة التي ضربَ اللهُ تعالى المثَلَ لها هي كلمةُ الحقِّ وكلمةُ التوحيد، أو هي: لا إله إلا الله وهي أصلُ الإسلامِ، وهي الكلمةُ التي جاءت الرسلُ جميعاً بها، هذه الكلمةُ الطيبةُ كشجرةٍ طيبةٍ، أي طيبةٌ في جذورها وفي ساقها وأغصانها وثمارها، وهذه الشجرةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ فجذورها ضاربةٌ في التربةِ، ولذلك فإنها ثابتةٌ تهبُّ عليها الرياحُ الهوجُ، وتعصفُ بها الأعاصير، فتميلُ بها ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال، ولكنَّها لا تقتلعها، ولا تطيحُ بها، وفروعُها مرتفعةٌ في السماءِ، فهي دوحةٌ غنَّاءٌ، ذات فروعٍ وأغصانٍ، ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أي: تعطي ثمارَها الطيبةَ، في كلِّ وقتٍ بإذنِ اللهِ سبحانه، أي: هي دائمةُ الثمارِ، دائمةُ العطاءِ، ترى ثمارَها دائمةَ التفتق عن أكمامِها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ واللهُ يضربُ الأمثالَ للناس ليثبتَ معاني الإيمانِ والإسلامِ في نفوسهم، ويذكرهم بها.

٢- وضرب اللهُ مثلاً للكلمة الخبيثة:

وضربَ اللهُ -تعالى مثلاً للكلمةِ الخبيثةِ، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم:٢٦]، والكلمةُ الخبيثةُ هي كلمةُ الشركِ والكفرِ، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ أي: استؤصلتْ وانتزعت من فوق الأرضِ، فجفتْ فروعُها، وتحطمتْ أغصانُها، وطوَّحت بها الريحُ، وانقطعت ثمارُها، وكذلك الكفرُ والباطلُ ليس له أصلٌ، وثمارُه الصابُ والعلقم.

٣- تثبيت الله -تعالى- الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنه يُثبِّتُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧]. والتثبيتُ في الحياةِ الدنيا يكونُ في مواجهةِ الفتنِ والأعاصيرِ التي تهبُّ على المؤمنين، يثبتهم اللهُ تعالى بما غرسَه في قلوبهم من معاني القرآنِ، ويثبتهم في الآخرةِ، أي: في القبرِ عندما تسألهم الملائكةُ، ويضلُّ اللهُ تعالى الظالمينَ، أي: الكافرينَ عن الإجابةِ الصحيحةِ عندما تسألهم الملائكةُ في القبرِ ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ .

وقد جاءَت أحاديثُ كثيرةٌ تدلُّ على سؤالِ القبرِ وفتنته، وتدلُّ على نعيمِهِ وعذابِهِ، وهذه الأحاديث كثيرٌ منها صحيحٌ، وقد بلغت مبلغَ التواتر، فمن أنكر فتنةَ القبر فقد ضلَّ

جنـــــة السـنة

ضلالاً بعيداً، وقد دلّت الأحاديثُ الصحيحةُ على أنَّ المرادَ بالآيةِ سؤالُ القبرِ وفتنتُه، فعن البراء بن عازبٍ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المسلمُ إذا سُئِلَ في القبرِ، يشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، فذلكَ قولُه: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم:٢٧]» [البخاري: ٤٦٩٩. ومسلم: ٢٨٣١].

وقد عقد البخاريُّ في صحيحه باباً قالَ فيه: «باب ما جاء في عذاب القبر». وقد أورد في هذا الباب ثلاث آياتٍ، هي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ ﴾ [الأنعام:٩٣]، قال أبو عبدالله: الهونُ هو الهوانُ، والهَوْنُ: الرِّفْقُ. وقوله جلَّ ذِكرُه: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة:١٠١]. وقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر:٤٥-٤٦].

وأورد في الباب من الأحاديث حديثَ البراء بن عازبٍ الذي سقناه قبل قليل.

ثم أورد في هذا الباب الأحاديث التالية:

١- عن نافعٍ عن ابن عمرَ رضي الله عنهما أخبره قال: اطَّلَعَ النبيُّ ﷺ على أهلِ القَليبِ فقال: «وجدتُم ما وَعَدَ ربُّكم حقّاً؟» فقيلَ له: تَدْعُو أمواتاً؟! فقال: «ما أنتُم بأسمعَ منهم، ولكنْ لا يجيبونَ» [البخاري: ١٣٧٠].

٢- عن عائشةَ رضي الله عنها: أنَّ يهوديةً دخلتْ عليها فذَكَرَتْ عذابَ القبرِ، فقالت لها: أعاذَكِ اللهُ من عذابِ القبرِ. فسألَتْ عائشةُ رسولَ الله ﷺ عن عذابِ القبرِ فقال: «نعم، عذابُ القبرِ». قالت عائشةُ رضي الله عنها: فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ بعدُ صَلَّى صلاةً، إلاّ تَعَوَّذَ من عذابِ القبرِ.

زاد غُندَرٌ: «عذابُ القبرِ حَقٌّ» [البخاري: ١٣٧٢. ومسلم: ٥٨٦ (١٢٦)].

٣- عن عُروةَ بن الزبير، أنه سَمِعَ أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ رضي الله عنهما تقولُ: قامَ رسولُ الله ﷺ خطيباً، فذكَرَ فتنةَ القبرِ التي يَفتَتِنُ فيها المرءُ، فلما ذَكَرَ ذلك ضَجَّ المسلمونَ ضَجَّةً [البخاري: ١٣٧٣].

٤- عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ ، أنه حدَّثَهُم أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِه وتَوَلَّى عنه أصحابُه -وإنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نِعالِهِم- أتاه مَلَكانِ فيُقْعِدانِه فيقولانِ: ما كنتَ

جنـــــة السـنـة

تقولُ في هذا الرَّجلِ؛ لمحمَّدٍ ﷺ، فأمَّا المؤمنُ فيقولُ: أشْهَدُ أنه عبدُ الله ورسولُه، فيقالُ له: انظُرْ إلى مَقْعَدِكَ من النار، قد أبدَلَكَ اللهُ به مَقْعَداً من الجنةِ، فيَراهما جميعاً». قال قتادةُ: وذُكِرَ لنا أنَّه يُفْسَحُ في قَبْرِه؛ ثم رَجَعَ إلى حديثِ أنسٍ، قال: «وأما المنافقُ والكافرُ فيُقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدري، كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ، فيقالُ: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ، ويُضرَبُ بمَطارِقَ من حَديدٍ ضَرْبةً، فيصيحُ صيحةً يسمَعُها من يَليه غيرَ الثَّقَلَينِ» [البخاري: ١٣٧٤].

٤- عن البراءِ بن عازبٍ، عن أبي أيوبَ ﷺ قال: خَرَجَ النبيُّ ﷺ وقد وَجَبَتِ الشمسُ، فسَمِعَ صوتاً فقال: «يهودُ تُعذَّبُ في قُبورِها» [البخاري: ١٣٧٥. ومسلم: ٢٨٦٩].

٥- عن موسى بن عُقْبةَ قال: حدَّثتني ابنةُ خالدِ بنِ سعيدِ بن العاصِ: أنها سَمِعَتِ النبيَّ ﷺ وهو يَتعَوَّذُ من عذابِ القبرِ [البخاري: ١٣٧٦].

٦- عن أبي هريرةَ ﷺ قال: كان رسولُ الله ﷺ يدعو: «اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، ومن عذابِ النارِ، ومن فتنةِ المَحْيا والمماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ» [البخاري: ١٣٧٧. ومسلم: ٥٨٨ (١٣١)].

٧- عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: مرَّ النبيُّ ﷺ على قَبرَينِ فقال: «إنهما ليُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ من كبيرٍ» ثم قال: «بَلَى؛ أما أحدُهما فكان يَسْعَى بالنميمةِ وأما أحدُهما فكان لا يستترُ من بَوْلِه»، قال: ثم أخَذَ عوداً رَطْباً فكَسَرَه باثْنَتَيْنِ، ثم غَرَزَ كلَّ واحدٍ منهما على قَبْرٍ، ثم قال: «لَعَلَّه يُخفَّفُ عنهما ما لم يَيبَسا» [البخاري: ١٣٧٨].

٨- عن عبدالله بن عمرَ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ أحدَكم إذا ماتَ عُرِضَ عليه مقعَدُه بالغَداةِ والعَشيِّ، إنْ كان من أهلِ الجنةِ فمن أهلِ الجنةِ، وإنْ كان من أهلِ النارِ فمن أهلِ النار، فيقالُ: هذا مقعدُكَ حتى يَبعَثَكَ اللهُ يومَ القيامةِ» [البخاري: ١٣٧٩].

٩- عن أبي سعيد الخُدْريِّ ﷺ يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ «إذا وُضِعَتِ الجنازة فاحتَمَلَها الرِّجالُ على أعناقِهِم، فإنْ كانت صالحةً قالت: قَدِّموني قَدِّموني، وإنْ كانت غيرَ صالحةٍ قالت: يا وَيْلَها، أينَ يَذهبونَ بها؟ يَسمعُ صوتَها كلُّ شيءٍ إلا الإنسانَ، ولو سَمِعَها الإنسانُ لَصَعِقَ» [البخاري: ١٣٨٠].

١٠- عن سمرةَ بن جُنْدُبٍ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى صلاةً أقبَلَ علينا بوجْهِهِ فقال: «من رأى منكمُ الليلةَ رُؤْيا؟» قال: فإنْ رأى أحدٌ قصَّها، فيقولُ ما شاءَ الله، فسألَنا يوماً فقال:

جنـــــة السـنة

«هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟» قلنا: لا، قال: «لكني رأيتُ الليلةَ رجلَين أتَياني، فأخذا بيدي، فأخرَجاني إلى الأرضِ المقدسةِ، فإذا رجلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيدِه كَلُّوبٌ [الكلوبُ: حديدة معوجة يعلَّق عليها اللحم] من حَديدٍ». قال بعضُ أصحابنا عن موسى: «إنه يُدخِلُ ذلكَ الكَلُّوبَ في شِدْقِه حتى يَبلُغَ قَفاهُ، ثم يَفْعَلُ بشِدْقِه الآخرِ مثلَ ذلك، ويلتَئِمُ شِدْقُه هذا فيعودُ فيَصْنَعُ مثلَه، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِقْ.

فانطلقنا، حتى أتينا على رجلٍ مُضْطَجِعٍ على قَفاه، ورجلٌ قائمٌ على رأسِه بفِهْرٍ [الفِهْرُ: الحَجَر بقدر ما يملأ الكف] أو صَخرةٍ فيَشْدَخُ به رأسَه، فإذا ضَرَبَه تَدَهْدَهَ [تَدَهْدَهَ: تَدَحْرَجَ] الحَجَرُ، فانطلق إليه ليأْخُذَه، فلا يرجِعُ إلى هذا حتى يلتئِمَ رأسُه، وعادَ رأسُه كما هو، فعادَ إليه فضَرَبَه، قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِق.

فانطلقنا إلى ثَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ، أعلاهُ ضَيِّقٌ وأسفَلُهُ واسعٌ، يَتوقَّدُ تحتَه ناراً، فإذا اقتَرَبَ ارتفعُوا حتى كادَ أنْ يخرُجوا، فإذا خَمَدَتْ رجَعُوا فيها، وفيها رجالٌ ونِساءٌ عُراةٌ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطَلِقْ.

فانطلقنا، حتى أتينا على نَهَرٍ من دم فيه رجلٌ قائمٌ على وسطِ النهرِ رجلٌ بين يديه حِجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أنْ يخرُجَ رَمَى الرجلُ بحجرٍ في فِيهِ فرَدَّه حيثُ كانَ، فجَعَلَ كلما جاءَ ليخرُجَ رَمَى في فِيهِ بحَجَرٍ، فيَرجِعُ كما كانَ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلقْ.

فانطلقنا، حتى انتهينا إلى روضةٍ خضراءَ فيها شجرةٌ عظيمةٌ، وفي أصلِها شيخٌ وصِبْيانٌ، وإذ رجلٌ قريبٌ من الشجرةِ، بينَ يديه نارٌ يوقِدُها، فصَعِدا بي في الشجرةِ وأدخَلاني داراً لم أرَ قَطُّ أحسَنَ منها، فيها رجالٌ شيوخٌ وشَبابٌ ونساءٌ وصبيانٌ، ثم أخرَجاني منها فصَعِدا بي الشَّجَرة، فأدخَلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخٌ وشَبابٌ.

قلت: طوَّفْتُماني الليلةَ، فأخبِراني عما رأيتُ، قالا: نعمْ، أما الذي رأيتَه يُشَقُّ شِدْقُه فكذابٌ يُحدِّثُ بالكَذْبَةِ فتُحمَلُ عنه حتى تَبلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ به إلى يوم القيامةِ، والذي رأيتَه يُشْدَخُ رأسُه فرجلٌ علَّمَه اللهُ القرآنَ فنامَ عنه بالليلِ، ولم يعمَلْ فيه بالنهار، يُفْعَلُ به إلى يومِ القيامةِ، والذي رأيتَه في الثَّقْبِ فهُم الزُّناةُ، والذي رأيتَه في النهرِ آكِلُو الرِّبا، والشيخُ في أصلِ الشجرةِ إبراهيمُ ﷺ، والصِّبْيانُ حولَه فأولادُ الناس، والذي يوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النار، والدارُ الأولى التي دَخَلْتَ دارُ عامةِ المؤمنينَ، وأما هذه الدارُ فدار الشهداءِ، وأنا جبريلُ وهذا ميكائيلُ، فارفَعْ رأسَكَ. فرَفَعْتُ رأسي، فإذا فوْقي مِثلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنزِلُكَ، قلتُ:

جنـــــة السـنة

دَعاني أدخُلُ مَنزِلي، قالا: إنه بَقِيَ لكَ عُمُرٌ لم تَستكمِلْه، فلوِ استكمَلْتَ أتيتَ مَنزِلَكَ» [البخاري: ١٣٨٦].

١١ – عن البراء بن عازب قالَ: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجلٍ من الأنصار، فانتهينا إلى القبرِ ولما يُلْحَدْ، فجلس رسولُ الله ﷺ وجلسنا حولَهُ كأنّما على رؤوسنا الطير، وفي يده عودٌ ينكُتُ به في الأرضِ، فرفَعَ رأسَهُ فقالَ: «استعيذوا بالله من عذابِ القبرِ مرتين أو ثلاثاً»، زادَ في حديث جريرٍ هاهنا وقال: «وإنه ليسمعُ خَفْقَ نِعالهم إذا وَلَّوْا مُدْبِرينَ حينَ يقالُ لهُ: يا هذا من ربُّكَ؟ وما دينُكَ؟ ومن نبيُّكَ؟ قال هَنَّادٌ: قال: ويأتيه ملكانِ فيُجلِسانه فيقولان له: من ربُّكَ؟ فيقولُ: ربيَ اللهُ فيقولان له: ما دينكَ؟ فيقولُ: دينيَ الإسلامُ، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ؟ قال: فيقولُ: هو رسولُ الله ﷺ فيقولانِ: وما يُدريكَ؟ يقولُ: قرأتُ كتابَ الله فآمنتُ به، وصدَّقتُ، زادَ في حديثِ جريرٍ فذلك قولُ الله عز وجل ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ الآيةُ ثم اتَّفقَا قال: فيُنادي مُناد من السماء أنْ قدْ صَدَقَ عبدي، فأفرِشُوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنةِ، وألبِسُوهُ من الجنة، قال: فيأتيه من رَوْحِها وطيبها، قال: ويُفتَحُ له فيها مَدَّ بَصَرِهِ. قال: وإنَ الكافِرَ، فذَكَرَ موْتَهُ قال: وتُعادُ روحُهُ في جَسَده، ويأتيه مَلَكانِ فيُجْلِسانه، فيقولانَ له: من ربُّكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ هاهْ لا أدري، فيقولان لهُ: ما دينُكَ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدري، فيقولانِ: ما هذا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُمْ؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ لا أدري، فيُنادي مُنادٍ من السماء أنْ كَذَبَ فأفرِشُوهُ من النارِ، وألْبِسوهُ من النار، وافتَحُوا لَهُ باباً إلى النار، قال فيَأتيهِ من حرِّها وسَمومِها، قالَ: ويُضَيَّقُ عليه قَبْرُهُ، حتى تختلفَ فيه أضْلاعُهُ، زادَ في حديثِ جَريرٍ قال: ثُمَّ يُقيَّضُ له أعْمَى أبْكَمُ مَعهُ مِرْزَبَّةٌ من حديدٍ لو ضُرِبَ بها جَبَلٌ لصارَ تُراباً، قالَ: فيضربُهُ بها ضربةً يسمعُها ما بينَ المشرقِ والمغربِ إلا الثَّقَلَيْنِ، فيصير تُراباً، قال: ثم تُعادُ فيهِ الروحُ» [سنن أبي داود: ٤٧٥٣. ورواه أحمد في المسند: ١٨٥٣٤].

وقد أورد ابن كثير جملة من الأحاديث في هذا الموضوع غير ما سبق منها:

١٢ – قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بنُ سعيدٍ، عن ابن جريج، أخبرني أبو الزُّبير، أنه سأل جابر بن عبدالله عن فتَّاني القبر فقال: سمعتُ النبيَّ يقول: «إنَّ هذه الأمة تُبْتَلَى في قبورِها، فإذا أدخِلَ المؤمنُ قبرَه، وتوَلَّى عنه أصحابُه، جاءَ مَلَكٌ شديدُ الانتهارِ، فيقولُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ المؤمنُ: أقولُ: إنه رسولُ الله ﷺ وعَبْدُه. فيقولُ له الملك: انظر إلى مقعدِك الذي كان لكَ في النار، قد أنجاكَ اللهُ منه، وأبدلك بمقعدك الذي ترى من

جنـــــة السـنة

النارِ مقعدكَ الذي ترى من الجنة فيراهما كِلَيهما. فيقولُ المؤمنُ: دعوني أُبَشِّرْ أَهْلِي. فيقالُ له: اسْكُنْ. وأما المُنافِقُ فيَقْعُدُ إذا تولَّى عنه أهلُه، فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدري، أقولُ كما يقولُ الناسُ. فيقالُ له: لا دريتَ، هذا مقْعَدُكَ الذي كان لكَ في الجنةِ، قد أُبْدِلْتَ مكانَه مَقْعَدَكَ من النارِ». قال جابر: فسمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «يُبعَثُ كلُّ عبدٍ في القبرِ على ما ماتَ، المُؤْمِنُ على إيمانِهُ، والمنافِقُ على نِفاقِه» [قال ابن كثير (٤/ ٤٣٨) في الحديث: إسنادُه صحيحٌ على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقال الشيخ شعيب: رواه أحمد: (١٤٧٢٢). والحديث صحيح].

١٣- وقال الإمامُ أحمد: حدثنا أبو عامر، حدثنا عبَّاد بن راشد، عن داود بن أبي هندٍ، عن أبي نَضْرة، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ قال: شَهِدنا مع رسولِ الله ﷺ جنازةً، فقال رسولُ الله ﷺ: «يا أيها الناسُ، إنَّ هذه الأمة تُبتَلى في قُبورِها، فإذا الإنسانُ دُفِن وتَفَرَّق عنه أصحابه جاءه مَلَكٌ في يَدِهِ مِطراقٌ فأقْعَدَهُ، قال: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فإنْ كان مؤمناً قالَ: أشهدُ أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبدُ الله ورسولُه. فيقولُ له: صَدَقْتَ. ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، فيقولُ: هذا كانَ منزلِكُ لو كَفَرْتَ بربِّك، فأما إذ آمَنْتَ فهذا منزِلُك. فيُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيريدُ أن ينْهَضَ إليه، فيقولُ له: اسْكُنْ. ويُفْسَحُ له في قبرِه. وإنْ كان كافراً أو مُنافِقاً يقولُ له: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فيقولُ: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً، فيقولُ: لا دَرَيتَ ولا تَلَيتَ ولا اهتديتَ، ثم يُفْتَحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيقولُ له: هذا منزِلُكَ لو آمَنْتَ بربِّك، فأما إذا كَفَرْتَ به فإنَّ اللهَ -عزَّ وجلَّ- أَبْدَلَكَ به هذا. فيُفْتَحُ له بابٌ إلى النارِ، ثم يَقْمَعُهُ قَمْعَةً بالمِطْراقِ فيصيحُ صَيْحَةً يسْمعُها خلقُ الله -عز وجل- كلُّهُمْ غيرُ الثَّقَلَينِ، فقالَ بعضُ القومِ: يا رسولَ الله، ما أحدٌ يقومُ عليه مَلَكٌ في يدِهِ مِطْراقٌ إلاَّ هيلَ عندَ ذلك، فقال رسولَ الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾» [قال فيه ابن كثير: (٤/ ٦٧٦) ورواه أحمد (١١٠٠٠) وقال فيه الشيخ شعيب وفي تخريج ابن كثير: حديث صحيح]. وهذا أيضاً إسنادٌ لابأس به، فإن عَبَّادَ بنَ راشدٍ التميمي روى له البخاري مقروناً ولكن ضعَّفه بعضهم.

١٤- وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا حسين بن محمد، عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو ابن عطاء، عن سعيد بن يسارٍ، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «إنَّ المَيِّتَ تَحْضُرُهُ الملائكةُ، فإذا كانَ الرَّجُلُ الصالحُ قالوا: اخْرُجي أيتها النفسُ المُطْمَئنَّة كانت في الجسدِ الطيبِ، اخرجي حَميدة، وأبشري برَوْحٍ ورَيْحانٍ وربٍّ غيرِ غضبانَ». قال: «فلا يزالُ يقالُ لها ذلكَ حتى تخرُجَ، ثم يُعْرَج بها إلى السماءِ، فيُستَفْتَحُ لها فيقال: من هذا؟ فيقالُ: فلانٌ، فيقولون: مرحباً بالرُّوحِ الطيبةِ كانتْ في الجسدِ الطيب، ادخلي حميدةً، وأبشري بروحٍ وريْحانٍ، وربٍّ غيرِ غَضْبانَ».

جنـــــة السـنة

قال: فلا يزالُ يقالُ لها ذلك، حتى يُنتهى بها إلى السماء التي فيها الله عزَّ وجل. وإذا كان الرجلُ السوءُ قالوا: «اخرُجي أيَّتُها النفسُ الخبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخبيثِ، اخرُجي ذَميمةً، وأبْشِري بحَميمٍ وغسَّاق، وآخَرَ من شَكْلِهِ أزْواجٌ. فلا يزالُ يقالُ لها ذلك حتى تخرُجَ، ثم يُعرَجُ بها إلى السماءِ، فيُسْتَفْتَحُ لها فيقالُ: من هذا؟ فيقالُ: فلانٌ، فيقال: لا مَرْحَباً بالنفس الخبيثةِ كانت في الجسدِ الخبيثِ، ارجِعِي ذميمةً، فإنه لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السماءُ. فيُرسَلُ مِنَ السماءِ ثم يصيرُ إلى القبرِ، فيجلسُ الرجلُ الصالحُ فيقالُ له مثلَ ما قيل في الحديثِ الأولِ، ويجلسُ الرجلُ السوءُ فيقالُ له مثلَ ما قيلَ له في الحديثِ الأول» [ابن كثير: ٤/ ٤٣٩، قال الشيخ شعيب: رواه أحمد (٨٧٦٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين].

١٥- وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: إذا خرجتْ روحُ العبدِ المؤمنِ تلقَّاه مَلكانِ يصْعدان بها - قال حمادٌ: فذَكَرَ من طيبِ ريحها وذَكَرَ المِسْكَ - قال: ويقولُ أهلُ السماءِ: روحٌ طيبةٌ جاءتْ من قبلِ الأرضِ، فصلَّى الله عليكِ وعلى جَسَدٍ كنتِ تعْمُرينَه، فيُنطلَقُ به إلى ربِهِ عزَّ وجلَّ فيقولُ: انْطَلِقُوا به إلى آخِرِ الأجَلِ، وإنَّ الكافرَ إذا خَرَجَتْ روحُهُ؛ قال حمَّاد: وذكَرَ من نَتْنِها وذَكَرَ مَقْتاً -ويقولُ أهلُ السماء: روحٌ خَبيثَةٌ جاءتْ من قبل الأرضِ. قال: فيقالُ: انطلقوا به إلى آخر الأجَلِ. قال أبو هريرةَ: فرَدَّ رسولُ اللهِ ﷺ رَيْطَةً كانْ عليهِ على أنْفِه، هكذا [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٦٧٧) رواه مسلم: ٢٨٧٢].

١٦- وقال ابن حِبَّان في صحيحه: حدثنا عمر بن محمد الهَمْداني، حدثنا زيد بن أخْزَمَ، حدثنا مُعاذ بن هشام، حدثني أبي، عن قتادة، عن قَسامة بن زهير، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المؤمنَ إذا قُبِضَ أتَتْهُ ملائكةُ الرحمةِ بحَريرةٍ بيضاءَ، فيقولون: اخرُجي إلى روحِ الله. فتخرُجُ كأطْيَبِ ريحِ مِسْكٍ، حتى إنَّه ليناولُه بعضُهُمْ بعضاً يشُمُّونه، حتى يأتوا به بابَ السماءِ، فيقولونَ: ما هذه الريحُ الطيبةُ التي جاءتْ من قِبَلِ الأرضِ؟ ولا يأتونَ سماء إلا قالوا مثلَ ذلك، حتى يأتوا بِهِ أرواحَ المؤمنينَ، فلَهُم أشدُّ فَرَحاً به من أهلِ الغائبِ بغائِبِهِمْ، فيقولونَ: ما فَعَلَ فلانٌ؟ فيقولونَ: دَعوه حتى يَسْتَريحَ، فإنه كان في غَمٍّ! فيقولُ: قد مات، أما أتاكم؟ فيقولونَ: ذُهِبَ به إلى أُمِّهِ الهاوِيةِ. وأما الكافرُ فيأتيه ملائكةُ العذابِ بمسْحٍ فيقولون: اخرُجي إلى غضبِ الله. فتخرجُ كأنتنِ ريحِ وجيْفَةٍ، فيُذْهَبُ به إلى بابِ الأرضِ» [قال محقق ابن كثير: (٣/ ٦٧٨) أخرجه النسائي (٤/ ٨، ٩) والحاكم (١/ ٣٥٣) وابن حبان (٣٠١٤) وإسناده صحيح].

١٧- وقد رَوَى أيضاً من طريق همَّام بن يحيى، عن قتادةَ، عن أبي الجوزاء، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ بنحوه، قال: «فيُسألُ: ما فَعَلَ فُلانٌ؟ ما فَعَلَ فلانٌ؟ ما فعلَت فُلانةُ؟

جنـــــة السـنـــــة

قال: وأما الكافرُ إذا قُبضَتْ نفسُه وذُهب بها إلى بابِ الأرضِ تقولُ خَزَنَةُ الأرضِ: ما وَجَدْنا ريحاً أَنْتَنَ من هذه! فَيُبْلَغُ بها الأرضَ السفلى، قال قتادةُ: وحدَّثني رجل، عن سعيد ابن المسيب، عن عبدالله بن عمرو قال: أرواحُ المؤمنين تُجمع بالجابِيَتَينِ، وأرواحُ الكفار تجمع ببَرَهوتَ، سَبْخَةٍ بحضْرَموت» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٦٧٨) أخرجه ابن حبان (٣٠١٣) ورجاله ثقات، وله شواهد].

١٨- وقال الحافظ أبو عيسى الترمذي -رحمه الله-: حدثنا يحيى بن خلف، حدثنا بِشْرُ ابن المُفضَّل، عن عبدالرحمن بن إسحاقَ، عن سعيد بن أبي سعيد المَقْبري، عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا قُبِرَ الميتُ -أو قالَ: أَحَدُكُم- أتاه مَلَكانِ أسوَدانِ أزرقانِ، يقالُ لأحدهما: المُنْكَرُ، والآخرُ: النكيرُ، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: هو عبدُ الله ورسوله أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه، فيقولان: قَدْ كنا نعلَم أنك تقولُ هذا، ثم يُفسَحُ له في قبره سبعونَ ذراعاً في سبعينَ. ثم يُنَوَّرُ له فيه، ثم يقالُ له: نَمْ. فيقولُ أرجِعُ إلى أهْلي فأُخْبِرُهُمْ؟ فيقولانِ: نَمْ نَوْمَةَ العروس الذي لا يوقِظه إلا أحَبُّ أهلِهِ إليه، حتى يَبْعَثَه الله من مَضجَعِهِ ذلك. وإن كانَ منافقاً قال: سمعتُ الناسَ يقولون، فقلتُ مِثْلَهم، لا أدري! فيقولانِ: قد كُنَّا نعلمُ أنَّكَ تقولُ ذلك، فيقالُ للأرضِ: التئِمي عليه. فتَلْتئِمُ عليه، فتَختَلِفُ أضلاعُه، فلا يزالُ فيها مُعَذَّباً حتى يَبعثَه الله من مَضْجَعِهِ ذلك». ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. [ابن كثير: (٣/ ٦٧٨) وقال محقق ابن كثير: جيد، أخرجه الترمذي: (١٠٧١) وأخرجه ابن حبان (٣١١٧) وإسناده جيد].

١٩- وقال ابنُ جرير: حدثنا مجاهد بن موسى والحسن بن محمد قالا: حدثنا يزيدُ، أنبأنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفْسِي بيدِهِ إنَّ الميِّتَ ليسمَعُ خَفْقَ نِعالِهِمْ حين يُوَلُّون عَنْه مُدبِرينَ، فإذا كان مؤمناً كانت الصلاةُ عند رأسِهِ، والزكاةُ عن يمينه، والصيامُ عن يساره، وكانَ فِعْلُ الخيراتِ مِنَ الصَّدَقةِ والصلةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناس عِنْدَ رِجْلَيه، فيُؤْتى من عندِ رأْسِهِ فتقولُ الصلاة: ما قِبَلي مَدخَلٌ. فيُؤْتى من عن يَمينِهِ فتقولُ الزكاةُ: ما قِبَلي مدخل فيؤتى عن يساره فيقول الصيام ما قبلي مدخل فيؤتى عند رجليه فيقول فعل الخيرات ما قبلي مدخل فيقال اجلس فيجلس قد مثلت له الشمس قد دنت للغروب فيقال له أخبرنا عما نسألك فيقول دعني دعني حتى أصلي، فيقال له إنك ستفعل فأخبرنا عما نسألك فيقول عم تسألوني؟ فيقال أرأيت هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه وماذا تشهد به عليه؟ فيقول أمحمد؟ فيقال له نعم، فيقول أشهد أنه رسول الله، وأنه جاءنا بالبينات من عند الله فصدقناه، فيقال له على ذلك حييت، وعلى

جنـــــة السـنة

ذلك مت، وعليه تبعث إن شاء الله، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً وينوّر له فيه ويفتح له باب إلى الجنة فيقال له انظر إلى ما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسروراً ثم تجعل نسمته في النسم الطيب وهي طير أخضر يعلق بشجر الجنة ويعاد الجسد إلى ما بدئ من التراب». وذلك قول الله عز وجل ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾. رواه ابن حبان من طريق المعتمر بن سليمان عن محمد بن عمر وذكر جواب الكافر وعذابه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا حجين بن المثنى حدثنا عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر قال: كانت أسماء يعني بنت الصديق رضي الله عنها تحدّث عن النبي ﷺ قالت: قال: «إذا دخل الإنسان قبره فإن كان مؤمناً أحف به عمله الصلاة والصيام، قال: فيأتيه المَلَكُ من نحو الصَّلاة فتردُّه، ومن نحوِ الصيام فيردُّه، قال: فيناديه: اجْلِس. فيجلسُ. فيقول له: ماذا تقولُ في هذا الرجل؟ يعني النبيَّ ﷺ . قال: مَنْ؟ قال: محمدٌ. قال: أشهدُ أنه رسولُ الله، قال: يقولُ: وما يُدريك؟ أدركته؟ قال: أشهدُ أنه رسولُ الله. قال: يقولُ: على ذلكِ عِشْتَ، وعليه مُتَّ، وعليْهِ تُبعَثُ. وإن كانَ فاجِراً أو كافِراً، جاءه المَلَكُ ليس بيْنَه وبيْنه شيءٌ يَرُدّه، فأجْلَسَهُ يقول: اجلسْ، ماذا تقولُ في هذا الرجلِ؟ قال: أيّ رجلٍ؟ قال: محمدٌ؟ قال: يقولُ: والله ما أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئاً فقلتُه، قالَ له الملكُ: علَى ذلك عِشْتَ، وعليهِ مُتَّ، وعليه تُبْعَثُ، قال: وتسلَّط عليهِ دابةٌ في قَبْرِه، معها سَوْطٌ تَمَرَتُه جَمرةٌ مثلُ غَرْبِ البعيرِ، تضربُهُ ما شاءَ الله، صَمَّاء لا تَسْمَعُ صوتَهُ فترحَمُه» [قال محقق ابن كثير (٣/ ٦٨٠): أخرجه أحمد: وذكره الهيثمي، وقال: رجاله رجال الصحيح].

٤- تعجيبُ الله تعالى رسولَه ﷺ من حالِ قومه الذين بدَّلوا نعمةَ الله كفراً:

عَجَّبَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ من حالِ قومِهِ الذين بَدَّلوا نعمةَ الله كفراً، وأَحَلُّوا قومهم دارَ البوارِ ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩]. وهؤلاءِ هم كفارُ قريشٍ، وإنْ كان النصُّ متناولاً لكلِّ كافرٍ، و﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾ محمداً ﷺ ، فإرسالُ الله رسولَهُ فيهم أعظمُ نعمِ الله عليهم، وتبديلهم نعمةَ الله كفراً، أي: بَدَلَ أن يؤمنوا به كفروا به، وأَنْزلوا بكفرِهم وكفرِ قومِهِمْ دارَ البوارِ، أي: دارَ الهلاك، وهي النارُ، يصلونها يومَ القيامةِ، ويقاسون حَرَّها، ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ أي: بئسَ المكانُ الذي سيكونُ مقرّاً ومَسْكناً لهم.

وذمَّ اللهُ تعالى الكفارَ أيضاً، لأنهم ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٠] ذمَّ ربُّ العزةِ هؤلاءِ الكفرةَ من أهْلِ مكةَ، لأنَّهم

جنــــة السـنـــة

اتخذوا لله أنداداً، أي: أمثالاً ونظراءَ يعبدونهم معهم، وهم الأصنامُ والأوثانُ مِنَ اللاتِ والعزى ومناةَ الثالثةَ الأخرى، اتخذوها ليضلُّوا الناسَ عن سبيلِ الله، الذي هو دينُهُ تبارك وتعالى، وأمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لهؤلاءِ: تمتَّعوا في دنياكم هذه بطعامِكُمْ وشرابكم ونكاحِكُم وما أنعمَ اللهُ به عليكم، فإنَّ مصيركم يومَ الدين إلى النارِ، وبئسَ القرارُ.

٥- ما أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يقولَه لعبادِهِ الصالحين:

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ للكافرينَ مِنْ قومِهِ: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم:٣١].

أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَهُ الذين آمنوا أنْ يقيموا الصلاة، والمرادُ بإقام الصلاةِ: المحافظة على وقتها وحدودِها، وركوعِها وخشوعِها وسجودِها، وأمره تعالى أنْ يأمرهم بالإنفاقِ مما رزقَهم اللهُ تعالى في السرِّ والعلانيةِ، وليبادروا بإقامِ الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقهم اللهُ يوماً لا بيعٌ فيه ولا خلال، وهذا اليومُ هو يومُ القيامةِ، ففي ذلك اليوم لا مالَ فيه يباعُ ويشترى، ولا متاعَ، ولا ينفعُ أحَداً بيعٌ ولا فدية، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة:٢٥٤].

٦- نعمُ اللهِ تعالى التي أنعم بها تبارك وتعالى على عبادِهِ:

عَدَّدَ اللهُ -تبارك وتعالى- نعمَه التي أنعمَ بها على عبادِهِ فقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤].

فمن نعمِ الله تعالى العظمى خَلْقُ السمواتِ بنجومِها وشموسِها وأقمارِها، وجَعَلها سقفاً محفوظاً، وجعلها سبعاً طباقاً، وخلقَ الأرضَ بجبالها وسهولها، وحيوانِها ونباتِها، وأنزلَ سبحانه الماءَ من السماءِ، فأخرجَ به أزواجاً من نباتٍ شَتَّى ما بين ثمارٍ وزروعٍ، مختلفةُ الألوانِ والأشكالِ، والطعومِ والروائحِ والمنافعِ، وسخَّر لنا الفلكَ، وهي السفن، لتجريَ في البحرِ بإرادتِهِ ومشيئته، فتحملنا وتحملُ أثقالنا، وسخَّر لنا الأنهارَ تشقُّ الأرضَ من قُطرٍ إلى قطرٍ، وجعلَ ماءَها شراباً لنا، ولحيواناتِنا، ونباتاتنا، وسخر لنا ربنا سبحانه الشمسَ والقمرَ دائبين،

جنـــــة السـنة

يسيران، ولا يقرّانِ ليلاً ولا نهاراً، وسخَّر لنا الليلَ والنهارَ، أحدهما لمنامنا وراحتنا، والآخر يبعثنا فيه، لنعملَ ونقومَ بمهامنا، وقد جَعَلَ ربُّنا سبحانه الشمسَ والقمرَ يتعاقبان، والليلَ والنهارَ يتقارضان، فتارةً يأخذُ هذا مِنْ هذا فيطولُ، ثم يأخذُ الآخرُ من هذا فيقصرُ.

وآتانا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- من كلِّ ما سألناه إيَّاه ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ لقد آتانا اللهُ تبارك وتعالى من كلِّ ما سألناه واحتجنا إليه من أنواعِ الطعامِ والشرابِ والفواكهِ واللباسِ، وأخبرنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ- أننا لا نستطيعُ إحصاءَ نعمهِ التي أنعم بها علينا ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ ومع كثرةِ النعمِ التي أنعمَ الله بها على عبادِهِ، فإنَّ الإنسانَ كثيرُ الظلمِ لنفسِهِ، فبدل أن يقابلَ النعم بالشكرِ لله الواحدِ الأحدِ، إذا هو يقابلها بالكفرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ وظلومٌ وكفَّارٌ صيغتان من صيغِ المبالغةِ أراد اللهُ تعالى بهما إظهارَ مدى ظلمِ الإنسانِ وكفره.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- ضربَ اللهُ -تبارك وتعالى- مثلاً للكلمةِ الطيبة، وهي كلمةُ التوحيدِ، بشجرةٍ طيبةٍ جَذورها ضاربةٌ في الأرضِ، وفروعها عاليةٌ في السماءِ، تعطي ثمارَها كلَّ حين بإذنِ ربها.

٢- وضربَ اللهُ تعالى مثلاً للكلمة الخبيثةِ وهي كلمة الشرك بالشجرةِ الخبيثةِ التي استؤصلت مِنَ الأرض، ويبست أغصانُها، فطوحتْ بها الرياحُ في كلِّ مكان.

٣- بيَّن لنا رسولُنا أنَّ الله تعالى يريدُ بقوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧] تثبيتَ المؤمنين في سؤالِ القبر وفتنته.

٤- الأحاديث الصحيحة الدالةُ على فتنةِ القبرِ وعذابِه ونعيمِه كثيرةٌ صحيحة، وهي بالغةٌ مبلغَ التواتُرِ المعنوي.

٥- بَدَّل الكفارُ النعمةَ العظمى التي حباهُمُ اللهُ تعالى بها، وهي بعثةُ محمدٍ ﷺ فيهم إلى نقمةٍ عندما كفروا به.

٦- عندما بَدَّل الكفارُ نعمةَ الله كفراً أحَلُّوا قومَهم دارَ البوارِ، جهنَّم يصلونها وبئسَ القرارُ.

جنـــــة السـنة

٧- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يأمر المؤمنين بإقامِ الصلاةِ والإنفاقِ مما رزقَهُم اللهُ تعالى، قبلَ أن يأتيَ يوم لا بيعٌ فيه ولا خِلال، وهو يومُ القيامة.

٨- نعمُ الله التي تحتاج إلى شكرٍ كثيرةٌ، منها خلقُ السمواتِ والأرضِ، وإنزالُ الله المطرَ مِنَ السماءِ وأخرجَ بهذا المطرِ الأشجارَ التي تعطي كلَّ الثمارِ، وتسْخير الله السفنَ التي تسير في البحرِ لعبادِه، وتسخيرُ الأنهارِ التي تسرحَ في الأرضِ ليشربوا منها، وتشربُ بهائمهم، وتسقي زرعهم، وتسخيرُ الله لهم الشمسَ والقمر دائبين، وسخَّر لهم الليلَ والنهار، ونعم الله تعالى كثيرة لا يستطيع العباد إحصاؤها.

جنـــــة السـنة

النص القرآني الخامس من سورة إبراهيم
طرف من نبأ نبي الله إبراهيم عليه السلام

أولاً: تقديم

كان الصراعُ بين الرسولِ ﷺ والمؤمنين معه وبين كفارِ قريشٍ مستعراً، وكانت قريش تفخر بانتسابها إلى نبيِّ الله إبراهيمَ، وتزعم أنها على طريقِهِ، فجاءَت هذه الآيات تُظهرُ إبراهيمَ وهو يدعو ربَّه بعد أن وضعَ اللبنةَ الأولى في بناءِ مكةَ، فقد وضعَ ابنَه إسماعيل وأُمَّه هاجرَ في ذلك الوادي الخالي من السكان، وتنحَّى جانباً يدعو ربَّه ويناجيه، دعا اللهَ لذلك البلدِ أن يجعله آمناً، وكان أهلُ مكَّة ينتهكون حرمته بإيذاءِ المؤمنين، ودعا ربَّه أن يجنِّبه وذريته عبادة الأصنامِ، وكان أهلُ مكة غارقين في عبادةِ الأصنام، وقال إبراهيم في دعائه ربَّه أنَّ مَنْ تبعه على دينِهِ فهو منه، ومن عصاه فأمرُ حسابِهِ لربِّه، وكانت قريشٌ في ذلك الوقت تحاربُ رسولَهُ محمداً ﷺ، وتحاربُ المؤمنين وتؤذيهم وتشنُّ عليهم حرباً ضروساً.

لقد كَشَفَ هذا النصُّ القرآنيُّ عورةَ قريشٍ، وبيَّنَ أنها كانت مجافيةً لما كان عليه أبوها إبراهيمُ وأنها مخالفةٌ لنهجه ودينه.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٤١].

ثالثاً: المعاني الحسان في تفسير آيات هذا النص من القرآن

١- إبراهيمُ يدعو بالأمنِ للبلدِ الحرامِ ويدعو الله أنْ يجنبه وبنيه عبادةَ الأصنامِ:

أسكن نبيُّ الله إبراهيمُ عليه السلام ابنَه إسماعيلَ وأُمّه هاجرَ عند بيته المحرم الذي سيبنيه هو وإسماعيلُ عندما يكبرُ إسماعيلُ، وكان إسماعيلُ رضيعاً عندما وضعهما هناك، ولم يكن في ذلك

جنـــــة الســـــنة

المكانِ أحدٌ كما سبقَ بيانه في سورةِ البقرة، وقد تعلَّقَتْ هاجرُ بإبراهيم عندما أراد تركهما في ذلك المكانِ الخالي مِنَ الناسِ، فلما ألحَّ عليه قالتْ له: آللهُ أمركَ بذلك؟ قال: نعم، فلما ابتعد عنهما وقفَ يدعو ربَّه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم:٣٥-٣٦].

دعا نبيُّ الله إبراهيم ربَّه أنْ يجعلَ الحرم المكيَّ بلداً آمِناً، وقال: ﴿هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ مستعملاً اسمَ الإشارةِ الدالِ على القريب، لأنَّ الحرمَ كان بين يديه، وقد أصبحَ الحرمُ آمناً منذ ذلك الوقت الذي دعا له نبيُّ الله إبراهيمُ، فلا يجوز القتلُ والاقتتالُ فيه، ولا يجوزُ الصيدُ فيه، ولا يُؤخَذُ شجره، ودعا اللهَ تعالى أنْ يجنبه وبنيه عبادةَ الأصنامِ.

وقال إبراهيمُ عليه السلام في دعائه ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي: أنَّ الأصنامَ قد أضللن خلقاً كثيراً مِنْ عبادِ الله، عبدوها معَ الله فأشركوا وكفروا، وأغضبوا ربَّهم عليهم، ثم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ أي: فمن تبعني فيما أخذت به نفسي مِنْ توحيدكَ، وإخلاصِ الدينِ لكَ، وعبادتِكَ وَحْدَكَ لا شريكَ لك فإنَّه مني، ومَنْ عصاني بعبادةِ الأصنامِ معك، فالأمرُ إليك، وأنت الغفورُ الرحيم، فإنْ شئتَ عَذَّبته، وإن شئتَ غفرتَ له.

٢- دعاء إبراهيمَ لولدِه ومن تناسلَ منه الذين أسكنهم في حرم الله:

دعا إبراهيمُ عليه السلام لولدِهِ الذي أسكنه عند بيْتِهِ المحرم ومن تناسل منه، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم:٣٧].

قال إبراهيمُ في دعائه: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ والذي أسكنه من ذريته في ذلك المكان ابنَهُ إسماعيلَ، وهو الابنُ الأولُ الذي وهبه اللهُ تعالى إيَّاه، وقد كان المكانُ الذي أسكنه فيه وادياً ليس فيه زَرْع، وكانت أرضه صخريةً، وليس به ماءٌ يُسقى الزرعُ منه، والوادي الذي أسكن فيه إبراهيمُ ابنه عند بيتِ الله المحرم، هو الذي سيبنيه إبراهيمُ وإسماعيلُ في مقبل الزمان، وقد أسكنهم في ذلك المكانِ ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وإقامةُ الصلاة من أعظم شعائر الدين الذي أوحاه الله تعالى لنبيِّه إبراهيمَ عليه السلام.

وقد كان المكانُ الذي أسكن اللهُ فيه إسماعيلَ وأُمَّهُ هاجر خالياً من الناس، فدعا إبراهيمُ ربَّه -تبارك وتعالى- أن يجعل ﴿أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ أي: تميلُ وترغبُ في

جنـــــة السـنة

مساكنتهم، ﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ دعا الله تعالى أنْ يرزقهم من ثمراتِ الأرض، وقد استمرَّ رِزْقُ أهلِ الحرم من ذلك اليومِ وإلى اليوم، فالطعامُ وأنواعُ الغذاءِ والشرابِ يسيرُ إلى أهلِ مكة وافراً عظيماً، لعلهم يشكرون الله تعالى على ما رزقهم.

٣- اللهُ عالمٌ بما نخفيه وما نعلنه:

وقال إبراهيمُ عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [إبراهيم:٣٨]، قال إبراهيمُ لربِّه في دعائه: أنتَ تعلم ما نخفيه في قلوبنا، وما نظهرُه من أعمالنا، فأنتَ تعلم ظاهرنا وباطننا، ولا يخفى عليكَ أمرٌ من أمورنا، كما لا يخفى عليك أمر من أمورِ الكونِ كلِّه أرضِه وسمائِه سبحانك.

٤- حَمِدَ إبراهيمُ ربَّه على ما رزقه من الولدِ:

وحمدَ نبيُّ الله إبراهيمُ ربَّه في دعائِه على ما رزقه من الولدِ، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم:٣٩].

حمِدَ نبيُّ الله إبراهيمُ ربَّه على ما رزقَه من الولدِ، فقد رزقه إسماعيلَ وإسحاقَ، وكان كبيراً في العمر، فرزقَه بإسماعيلَ وهو في السادسةِ والثمانين من العمرِ، ورزقَه بإسحاقَ وهو في التاسعةِ والتسعينَ من العمرِ، وجعلهما ذريةً صالحةً، فكان كلٌّ منهما نبياً رسولاً، ورزقَ كلاً منهما بذريةٍ عظيمةٍ كثيرةٍ، فمن ذريةِ إسماعيلَ العربُ، ومنهم نبيُّ الله محمدٌ ﷺ، ومن إسحاق جاءَ يعقوبُ، ويعقوبُ إسرائيل، وجاءَ منه بنو إسرائيل، وفيهم كثيرٌ من الرسلِ والأنبياءِ.

٥- إبراهيمُ يدعو اللهَ أن يجعله مقيماً للصلاةِ هو وذريته:

دعا نبيُّ الله إبراهيمَ عليه السلام ربَّه أن يجعلَه مقيمَ الصلاةِ هو وذريتهُ، وأنْ يتقبلَ اللهُ دعاءَه ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾﴾ [إبراهيم:٤٠]، ودعا ربَّه أنْ يغفرَ له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٤١].

دعا ربَّه أن يجعله مقيماً هو وذريته للصلاةِ، والاستعانةُ بالله على عبادتِهِ أصلٌ عظيم، فإنَّه إنْ لم يكنْ من الله عونٌ للمرءِ، لم ينفعه سعيُهُ وجُهْدُهُ، ودعاءُ المرءِ للصلاحِ في ذريتِهِ أمرٌ مشروعٌ ومطلوبٌ، وكذلك دعاؤُه سبحانه أن يتقبلَ دعاءَه، ويجيب رجاءَه مشروعٌ ومطلوبٌ أيضاً.

ودعا إبراهيمُ ربَّه أنْ يغفر له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ، وكان هذا قبل أن يتبيَّنَ له أنَّ والدَه عَدُوٌّ لله، عند ذلك تبرأ منه.

جنـــــة السـنـة

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علمٍ وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدْناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١ - دعا إبراهيم ربَّه أنْ يجعل حَرَمَ الله في مكةَ وما حولها محرماً فاستجابَ اللهُ دعاءَه.

٢ - دعا إبراهيمُ ربَّهُ أنْ يجنبه وذريتَهُ عبادةَ الأصنامِ، فإنَّهن أضللن كثيراً من الناسِ.

٣ - قرَّرَ نبيُّ الله إبراهيمُ أنَّه من تبعه على دينِهِ فهو منه، ومن أشركَ بالله من ذريته فليس منه، وأمره إلى الله تعالى.

٤ - دعا إبراهيمُ ﷺ لذريتِهِ الذين أسكنهم بواد غير ذي زرع عند البيتِ المحرم الذي سيبنى في مقبل الأيام، ودعا اللهَ تعالى أنْ يجعلَ أفئدةً من الناسِ ترغب في مساكنتهم، ودعا اللهَ أن يرزقهم من الثمراتِ لعلَّهم يشكرون.

٥ - اللهُ تعالى يعلم ما نخفيه وما نعلنه، ولا يخفى على الله شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ.

٦ - حَمِدَ إبراهيمُ ربَّه في دعائِه على ما وهبه إيَّاه مِنَ الولد.

٧ - دعى إبراهيم ربَّه أنْ يجعله مقيماً للصلاةِ هو وذريتَه، وأن يتقبلَ دعاءَه، وأنْ يغفرَ له ولوالديه وللمؤمنين يومَ يقومُ الحسابُ.

جنـــــة السـنـــة

النص القرآني السادس من سورة إبراهيم
لا تحسبنَّ اللهَ غافلاً عما يعمل الظالمون

أولاً: تقديم

هذا النص الأخيرُ من سورةِ إبراهيمَ نصٌّ في غايةِ القوةِ والتأثير، وهو يصفُ حالَ الظالمينَ في يوم الدين، ويبينُ كيف يطلبُ الكفارَ الرجعةَ إلى الدنيا ليؤمنوا، فلا يجابون، ويُبَكِّتُ اللهُ الكفارَ في ذلك اليومِ ويذكرهم بكفرهم بالبعث والنشور، ويعلمنا ربنا أنه في يوم الدين ستبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ، والسمواتُ غيرَ السمواتِ، وفي ذلك اليومِ يبرزُ الناسُ جميعاً لله الواحدِ القهارِ، ويكون المجرمونَ مصفدين بالأغلالِ، ويلبسون الملابسَ المغموسةَ بالقطران، وتغشى وجوهَهُمْ النارُ.

ثانياً: آيات هذا النص من سورة إبراهيم

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ
(٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ
فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم
مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ
كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن
كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو
ٱنتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ (٥٠) لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ
نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ
وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم:٤٢-٥٢].

ثالثاً: المعاني الحسانُ في تفسيرِ آيات هذا النص من القرآن

١- لا يغفلُ اللهُ -تعالى- عما يَعمَلُ الظالمون:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ (٤٣) ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

جنـــــة السـنة

نهى اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أن يظنّ أنَّ اللهَ غافلاً عما يعمل الظالمون، فاللهُ تعالى لا يغفلُ عن فعلِ الظالمين لحظةً واحدةً، وعلمه محيطٌ بهم، وملائكتُهُ يسجِّلون عليهم أفعالَهُمْ، والظالمون: الكفار المشركون.

وقد يظنُّ بعض الناسِ أنَّ اللهَ غافل عنهم، عندما يراهم يملكونَ الأرضَ، ويتسلَّطون على عبادِ الله، ويوقدونَ نيرانَ الحروب، ويدمِّرون البلادَ والعبادَ، ولكنَّ اللهَ تعالى يُؤخِّرُهم ليوم تشخصُ فيه الأبصار، وهو يومُ القيامة، وشخوصُ أبصارهم بقاؤها مفتوحة بحيث لا ترمشُ ولا تطرفُ، بسبب ما يحيطُ بهم من الأهوال العظيمةِ التي تأخُذُ عليهم أنفسَهَمْ، وهم مع شخوصِ أبصارِهم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين في ذلٍّ وخُشوع ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ والمقنعُ الرافعُ بَصَرَهُ إلى السماء في سيره، غير ملتفت إلى غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ ينظرون إلى شيءٍ واحدٍ، فلا ينظرون إلى غيرهم، وقوله: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾ أي: وقلوبُهُم خاويةٌ خاليةٌ ليس فيها شيءٌ لكثرةِ الوجلِ والخوفِ والفزعِ، وقال بعضهم: خرابٌ لا تعي شيئاً لشدة ما أخبر اللهُ به عنهم.

٢- أمَرَ اللهُ تعالى رسولَهُ ﷺ أنْ ينذرَ الناسَ:

أمَرَ اللهُ -تبارك وتعالى- عبدَه ورسولَهُ محمداً ﷺ أن ينذرَ الناسَ ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم:٤٤-٤٥].

وإنذارُ الناسِ تخويفُهم بإخبارِهم بعذاب الله الذي سيحلُّ بهم، وعندما يأتي العذابُ، ويحلُّ بهم، ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ﴾ يطلبُ الكفرةُ المجرمون من ربِّ العزةِ -تبارك وتعالى- أنْ يؤخر عذابَهُم إلى وقتٍ قريبٍ، ليجيبوا دعوته، ويتبعوا رسلَه، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون:١٠]، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ﴾ [فاطر:٣٧].

جنـــــة السـنة

وعندما يطلبُ الكفارُ يومَ الدين أنْ يؤخرهم إلى أجلٍ قريبٍ ليجيبوا دعوةَ الله ويتبعوا الرسلَ، يقولُ لهم ربُّ العزة سبحانه: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ يقولُ لهم مذكِّراً إيهم بإقسامهم من قبل أي في الحياةِ الدنيا ما لهم من زوال من الدنيا إلى الآخرةِ، فهم كانوا ينكرون البعث والنشور، وسكنوا في مساكنِ الذين ظلموا أنفسهم من الأممِ المعذَّبة من قبل، وما كان لهم أن يفعلوا ذلك، وضربَ اللهُ تعالى الأمثالَ، ليَظْهرَ لهم الحقُّ، فلم يفقهوا، ولم يتعظوا.

٣- مكرُ الكفارِ بالمؤمنين:

أخبرنا ربُّنا -عز وجل- أنَّ الكفارَ ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [إبراهيم:٤٦] أخبر ربُّنا عز وجل أنَّ الكفارَ على مدارِ التاريخ مكروا بالمسلمين، وخطَّطوا لتدميرهم والقضاءِ عليهم، وأخبر أنَّ مكرهم عند الله، أي معلومٌ معروفٌ لربِّ العزةِ لا يخفى عليه منه شيءٌ، وهوَّل اللهُ -تعالى- هذا المكرَ وعظَّمه، فقال: ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ أي: أنَّ مَكْرَهم بلغ أن تزول الجبالُ منه.

وقد عظُمَ مكرُ الكفارِ في هذه الأيامِ، فخطَّطُوا لتدمير العالمِ الإسلامي، وجاؤوا بالجيوشِ الجرارةِ لاحتلال بعضِ الديارِ الإسلامية، فدمَّروا جيوشَها وأسلحتها، وهدَموا اقتصادَها، وأفسدوا أجواءَها، وجرَّبوا فيها أسلحتَهُمْ المتطورَة، ولكن الله لهم بالمرصاد، فقد ذهبتْ أموالهم، وخسرتْ جيوشهم، ورجعوا إلى ديارِهِمْ بعدما أحدثوه من فسادٍ خائبين.

٤- نهى اللهُ -تعالى- رسولَهُ ﷺ أنْ يظنَّ أنَّه مخلفُ وعدِهِ رسلَه:

نهى اللهُ -تبارك وتعالى- رسولَه ﷺ أنْ يظنَّ أنه مخلفُ وعدِه رسلَه ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٧]، أي: مخلفٌ وعدَهُ رسلَهُ في نصرتِهم في الحياةِ الدنيا وفي الآخرة، فالله ﴿عَزِيزٌ﴾ أي: قويٌّ غالبٌ قاهرٌ، وهو ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ أي: ممَّنْ كفرَ به وبرسله.

وقد أعلمنا ربُّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ ذلك واقعٌ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم:٤٨]. ونحن نؤمنُ بأنَّ أرضنا هذه ستُبدَّلُ غيرَ الأرضِ، وكذلك السماواتُ ستبدَّلُ غير السمواتِ، ولكننا لا ندري كيف تبدَّل، وقد جاء في

جنـــــة السـنـــــة

الحديث الصحيح الذي يرويه سهلُ بن سعد قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامةِ على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ، كَقُرْصَةِ نقيٍّ» قال سهل أو غيره: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحَدٍ» [البخاري: ٦٥٢١. ومسلم: ٢٧٩٠].

وعن عائشة رضي اللهُ عنها، قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨] فأينَ يكونُ الناسُ يومئذٍ يا رسولَ الله؟ قال: «على الصراط» [مسلم: ٢٧٩١]، وقد روى ثوْبان أنَّ حبْراً من أحبارِ اليهودِ سألَ رسولَ الله ﷺ عدَّة أسئلة منها: «أينَ يكونُ الناسُ يوم تبدّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ؟ فقالَ رسولُ الله ﷺ: هم في الظُّلْمَةِ دونَ الجِسْرِ» [مسلم: ٣١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ أي: برزوا من قبورِهم لله الواحدِ القهارِ، لا يخفى منهم شيءٌ.

٥- حال الكفارِ في يوم الدين:

بيّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- لنا الحالَ التي يكونُ عليها الكفارُ في يوم الدين فقال: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

أي: في ذلك اليومِ الذي تبدّلُ فيه الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ غير السمواتِ ترى المجرمينَ من الكفارِ والمشركينَ مقرَّنين في الأصفادِ، أي: في القيود والأغلال، كما قال تعالى: ﴿ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات:٢٢]. والأزواجُ: النظراءُ والأشباهُ، و﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ ﴾ أي: الثيابُ التي يلبسونها مغموسة بالقطران، والقطرانُ هو الذي تطلى به الإبلُ وهو شديدُ الاشتعالِ عندما تدبُّ فيه النار، ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾﴾ أي: تغطّي النارُ وجوههم، وتحرقها.

وقد أعلمنا ربّنا -عزَّ وجلَّ سبحانه- أنَّ كلَّ نفسٍ تجزى يومَ القيامةِ بما كسبته من أعمالٍ في الحياة الدنيا، إن خيراً فخيرٌ، وإن شرّاً فشر ﴿ لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم:٥١]، وسرعةُ الله تعالى في محاسبة خَلْقِهِ أنّه يتمُّ في وقتٍ قصيرٍ، لأنه يحاسبهم في وقتٍ واحدٍ، فاللهُ قادرٌ على كلِّ شيءٍ، ولا يعجزُه شيءٌ.

جنـــــة الســـــنة

٧- **هذا بلاغٌ للناس:**

قال ربُّ العزةِ في الآيةِ الأخيرةِ من هذه السورةِ المباركةِ ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم:٥٢]، والمرادُ بقوله: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: هذا القرآنُ الذي حَوَتْهُ هذه السورةُ الكريمةُ بلاغٌ للناس، أي: يُبَلِّغهم اللهُ الحقَّ الذي أنزله إلى رسوله ﷺ ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ أي: ليخوَّفوا به عذابَ الله وانتقامَهُ في يوم الدين، ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ وليعلم الناسُ جميعاً أنَّ المعبودَ الذي يستحقُّ العبادةَ هو اللهُ تبارك وتعالى، ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٢﴾﴾ وليتذكر أصحابُ العقولِ الراجحةِ ما يجب عليهم لله تبارك وتعالى، فيعطوه حقَّه وحده لا شريك له.

رابعاً: ما تهدينا إليه آيات هذا النص من علم وعمل

إذا تدبرنا آيات هذا النص وجدناها تهدينا إلى ما يأتي من علمٍ وعمل:

١- اللهُ -تبارك وتعالى- عالمٌ بما يرتكبه الظالمون، وليس غافلاً عنهم وعن أعمالهم، ولكنه يؤخرهم ليومِ القيامةِ.

٢- في يومِ القيامةِ يطلب الكفارُ الرجوعَ إلى الدنيا ليسلموا ويتَّبِعوا الرسلَ، فلا تجاب دعوتهم.

٣- يُبَكِّتُ اللهُ يومَ القيامةِ الكفارَ، ويذكِّرهم بأقوالهم التي كانوا يكفرون فيها بالبعثِ والنشورِ.

٤- تُبَدَّلُ في يومِ القيامةِ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسمواتُ غيرَ السماواتِ، ويبرزُ الناسُ في ذلك اليومِ لله الواحدِ القهار.

٥- بيَّنَ اللهُ تعالى لنا حالَ الكفارِ يومَ الدين، ففي ذلك اليوم يقيدون في الأغلالِ، ويلبسون الملابسَ المغموسة بالقطرانِ، وتغشى وجوهَهُمُ النارُ.

٦- يجزي اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كل نفسٍ بما كسبته إنْ خيراً فخير، وإن شرّاً فشرٌّ، واللهُ سريعُ الحسابِ.

٧- هذه السورةُ الكريمةُ فيها بلاغٌ للحقِّ الذي أنزله على رسولِهِ ﷺ، وفيها تخويفٌ للناس مما هم مقبلون عليه، وفيها إيجاب الله على خلقِهِ أن يعلموا أنَّ اللهَ تعالى هو المعبودُ الواحدُ الذي يستحقُّ العبادةَ، وفيها ذكرى لأولي الألباب.

جنـــــة السـنـــة

فهرس

الأعراف ١١٨٣
الأنفال ١٣٠٩
التوبة ١٣٧٥
يونس ١٤٩٥
هود ١٥٦٥
يوسف ١٦٤١
الرعد ١٦٩٧
إبراهيم ١٧٢٩